علم الإجتماع

النظريات الكلاسيكية و النقدية

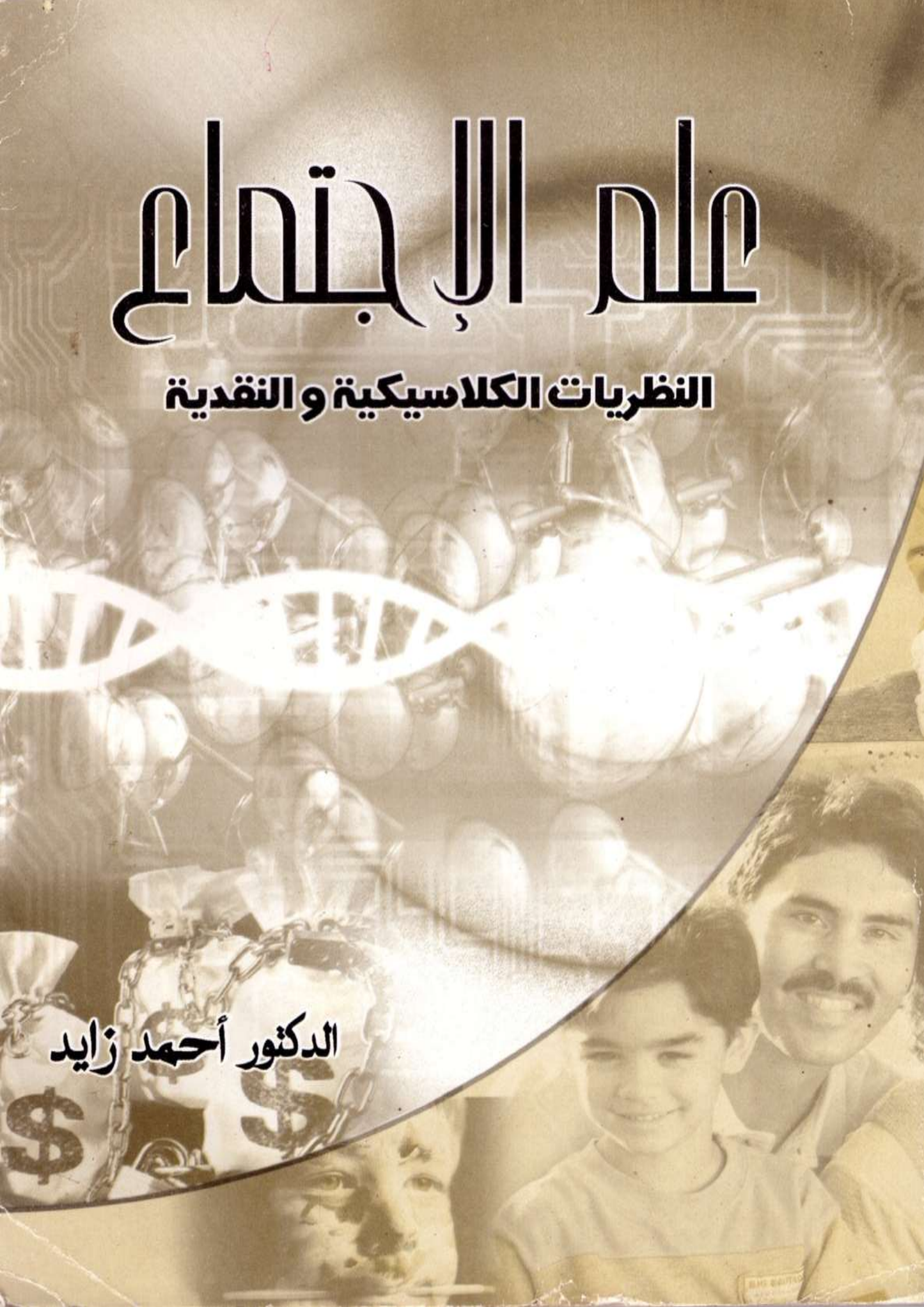

الدكتور أحمد زايد

هام :

هذه النسخة من الكتاب مخصصة فقط

للأشخاص الذين لا يستطيعون الحصول على

النسخة الأصلية

dz-sociologie.blogspot.com

http://www.facebook.com/dz.sociologie

علم الاجتماع

النظريات الكلاسيكية والنقدية

تأليف

دكتور أحمد زايد

أستاذ علم الاجتماع - كلية الآداب

جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

صدق الله العظيم

محتـويات الـكتاب

صفحـة

مقـدمة الطبعة الثانية ٩

تقـديم : بقلم الأستاذ الدكتور محمـد الجوهـرى .... ١١ – ١٥

فى موضوع الدراسة (فصل تمهيدى) .... ١٧ – ٢٤

البـــاب الأول

علم الاجتماع الكلاسيكى ومشكلة النظـام ٢٥ – ٥٥

الفصل الأول : مفهوم النظام العـــام ومشكلته ٢٧

أولا : مفهوم النظام العـام ٢٧

ثانيا : توماس هوبز وصياغة المشكلة ٣٤

ثالثا : نظرية علم الاجتماع ومشكلة النظام ٣٧

رابعا : مشكلة نظـام أم مشـكلة صراع ٥١

الفصل الثانى : علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر..... ..... ٥٧ – ١٠١

أولا : الجـذور البنائية والفكرية لعـلم الاجتمـاع فى القرن التاسع عشر ٥٨

ثانيا : اوجست كونت وبداية التجسيد الأيديولوجى ٧٢

ثالثا : اميل دوركايم : امتـداد الوضعية ٨١

رابعا : تميز تراث ماكس فيبر ٩٣

الفصل الثالث : تالكوت بارســـونز والحـــل المعيـارى لمشـكلة النظـام .... ١٠٣ – ١٣٨

أولا : الاطار البنائى والفكرى لنظرية تالكوت بارسونز ١٠٦

ثانيا : نظرية الفعل والحل المعيارى لمشكلة النظـام ١١١

ثالثا : نظرية للنسـق الاجتمـاعى ١٢١
رابعـا : التغير والصراع فى للنسـق الاجتمـاعى ١٤٧

الفصل الرابع : الاتجـاه الامبيريقى فى خـدمة النظرية ..... ١٣٩ – ١٦٢
أولا : فى مجال السياسة ١٤١
ثانيا : فى مجـال دراسة التنظيمات ١٥٢

الفصل الخامس : محـــاولات الخروج من دائرة النظـام :
النظريات التوفيقية .... ١٦٣ – ١٩٩
أولا : لويس كوزر ووظائف الصراع ١٦٦
ثانيا : ديفيـد لوكود ونقد نظرية النسـق ١٦٩
ثالثا : رالف دارندورف والحتمية السياسية ١٧٧
رابعا : التوازن والصراع فى بعض البحوث الامبيريقية ١٩٣

البـــاب الثـــانى
الاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع ٢٠١

الفصل السادس : الاطار الفكرى والبنائى للاتجاهات للنقدية ٢٠٣ – ٢٤٠
أولا : الحـركات الاجتمـــاعية : مؤشر الصـــراع
فى الحضـارة الغربية ٢٠٦
ثانيا : ازمة المجتمع الراسمالى : نحو بناء فكرى جديد ٢١٨
ثالثا : من ازمـة المجتمع الى ازمة العـلم ٢٣٧

الفصل السابع : رايت ميلز : الاتجاه النقدى المبكر ..... ٢٤١ – ٢٨٧
مقـدمة : حول التكوين الفكرى لرايت ميلز ٢٤١
أولا : الخيال السوسيولوجى الواعد ٢٤٧
ثانيا : رايت ميلز اليسارى الجديد ٢٥٧
ثالثا : رايت ميلز للعالم الملتزم ٢٧٠
رابعا : رايت ميلز رائد النقـد الاجتماعى ٢٧٩

صفحـــة

الفصل الثامن : حركة التجديد والنقـد فى علم الاجتمـاع :
الفن جولدنر والنقد السوسيولوجى ..... ٢٨٩ – ٣٣٠
اولا : الارهاصات النقدية فى اعمـال جولدنر المبكرة ٢٩١
ثانيا : ازمة علم الاجتماع : الموقف والحل ٣٠٤
ثالثا : جولدنر فى مواجهة نقاده ٣٢٢

الفصل التاسع : حركة التجديد والنقـد فى علم الاجتماع :
امتـدادات رايت ميلز فى التراث المعاصر ٣٣١ – ٣٨٤
اولا : الاتجاهات الاساسية فى حركة النقد الاجتماعى ٣٣٣
ثانيا : توماس بوتومـور : من تاريخ النقـــد الى
النظـرية النقـدية ٣٤٣
ثالثا : جون ركس : من نقد النظرية الى نقد المجتمع ٣٦٧

الفصل العاشر : البدائل النظرية والاحياء الفينومينولوجى ٣٨٥ – ٤٢٦
اولا : الجذور البنائية والفكرية للبدائل النظرية ٣٨٨
ثانيا : احياء الاتجاه الفينومينولوجى ٣٩٨
ثالثا : الاثنوميثودولوجى : منهجية الجماعة ٤١١
رابعا : احياء التفاعلية الرمزية ٤١٨
خامسا : البدائل النظرية بين الاسهام النظرى والمنهجى ٤٢٢

مناقشـة ختامية ٤٢٧

مقدمة الطبعة الثانية

منذ ان صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وانا حريص على ان اتلقى النقد من الزملاء والطلاب بسعادة بالغة ، فانا على يقين من ان الحوار المفتوح والنقد البناء هما السبيل نحو خلق العلم المبدع المتحرر من قهر الفكرة وتسلط الرأى · ولقد أعانتنى الملاحظات النقدية التى أبدها بعض الزملاء وبعض الطلاب النابهين على أن أتلمس مواطن الضعف ومواطن القوة فى هذا الكتاب · فشرعت فى وضع خطة لاعادة كتابة بعض الفصول واضافة فصول أخرى بحيث يخرج الكتاب بصورة أكمل من الصورة التى خرجت به طبعته الأولى وبحيث تتاح لى الفرصة لرصد بعض التغيرات التى تطرأ على الموقف النظرى المعاصر لعلم الاجتماع ·

ولا أستطيع أن ازعم ان هذه الخطة قد نفذت بالفعل فى هذه الطبعة الثانية · فقد وضعت خطة تطوير الكتاب لكى تنفذ عبر الطبعات المختلفة بحيث تستفيد من النقد والتعليق على مدى أطول · ولذلك فان الاضافة الوحيدة فى هذه الطبعة تتمثل فى اعادة كتابة الفصل الثالث الخاص بنظرية تالكوت بارسونز ، بحيث أصبح أكثر اتساقا وتكاملا عن صورته التى ظهرت فى الطبعة الأولى فضلا عن انه أصبح أكثر سلاسة من حيث اللغة وأسلوب العرض · وتشتمل خطة تطوير الكتاب فى الطبعات التالية على اعادة كتابة الفصل الثانى بشكل جذرى واعادة النظر فى الفصل الأول واضافة فصل عن مدرسة فرانكفورت فضلا عن اضافات وتعديلات متفرقة هنا وهناك عبر الفصول المختلفة للكتاب · ولقد شرعت بالفعل فى كتابة بعض هذه التعديلات واتمنى ان يظهر جزء كبير منها فى الطبعة القادمة ·

بليفيلد ـ المانيا الغربية

فى ١٩٨٣/٨/٢٥

احمد زايد

تقديم

بقلم

الدكتور محمد الجوهرى

استاذ ورئيس قسم الاجتماع وعميد كلية

الآداب ـ جامعة القاهرة

هذا الكتاب حد فاصل بين عهدين فى تاريخ علم الاجتماع على أرض مصر · فهذا العلم الذى دخل الجامعات المصرية فى عشرينات هذا القرن ، قد مضى عليه أكثر من نصف قرن عضوا بارزا فى أسرة العلوم الاجتماعية على المستوى الأكاديمى · وكانت خطواته الأولى ، كما كانت ظروف البداية ، تؤهله لأن يلعب دورا خطيرا سواء على الصعيد الأكاديمى أو على الصعيد الاجتماعى خارج أسوار الجامعة ، اعنى على الصعيد السياسى ·

غير أن ظروف النشأة الأولى لعلم الاجتماع فى مصر وجهته توجيها نظريا ، جعلت ابناءه والمشتغلين به من جيل الرواد يتوزعون بين اتجاهين : قلة تتبنى موقفا اجتماعيا سياسيا رجعيا ، ينحى نحو الاصلاح ، ويرتبط بمواقف الأحزاب الرجعية ، ويتباعد عن الانخراط فى سلك العمل السياسى التقدمى · والأغلبية الغالبة من هذا الرهط نفضت يدها تماما من أى التزام سياسى ، ونحت فى كتاباتها منحى نظريا خالصا ، ينقل عن المدرسة الفرنسية الحديثة فى علم الاجتماع (مدرسة دوركايم) ، ويلخص اعمالها ، وينطلق من مفاهيمها الأساسية دون أى اعتبار للواقع الاجتماعى المصرى الذى يتداول هذه الكتب ويتعلم منها ·

واضح لكل ذى بصيرة أن هذا النهج الذى سلكه أهل علم الاجتماع الأوائل لم يكن بقادر على أن يثبت وجوده على الصعيد الاجتماعى العام فالقلة الرجعية المناوئة لمصالح الجماهير ، والتى كانت تسير ضد حركة

للتاريخ ، قد صدر بشانها حكم التاريخ ، وداستها حركة الجماهير الثائرة فى عام ١٩٥٢ · ولم يعد لها اثر يذكره احد · أما الأغلبية صاحبة التوجيه النظرى والكتابات التاملية وصاحبة الشروح والتعليقات والتفسيرات فكان من المحتم أن تفلس بضاعتها ، وينفض من حولها الناس ، الا من فئة مستضعفه تضطر اضطرارا الى القراءة لها واعنى جماهير طلاب علم الاجتماع ·

وتهاوت صروح تلك المدرسة ايضا فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات تحت وطأة هجوم الاتجاه الامبيريقى الوافد من القارة الأمريكية الشمالية · ووجد هذا الفريق ، وبعض الأجيال الشابة ، فى هذه النزعة الامبيريقية ملاذا من التنظير الخالص المتباعد عن واقع المجتمع المصرى ، ووسيلة لكسب ارض على الساحة العلمية وعلى ساحة النشاط الاجتماعى العام (السياسى) من خلال اجراء دراسات ميدانية على بعض السمات والخصائص والمشكلات الاجتماعية ·

ولكن هل كان يمكن أن تنجح النزعة الامبيريقية فى تطوير هذه النزعة النظرية الخالصة ، وتقديم موقف متكامل ومتبلور لعلماء الاجتماع المصريين من قضايا مجتمعهم الذى يتحرك فى واقعه اليومى بسرعة تعذر على علماء المجتمع أن يلاحقوها ويرصدوها ويقيموها ؟ ان العمل الميدانى الذى يؤديه باحث معصوب العينين (أعنى باحثا غير مسلح بموقف نظرى واضح) لا يمكن أن يقود الا الى الهاوية · وهذا بعض ما حدث فعلا ·

ذلك ان خبرة الدراسات الميدانية على المجتمع المصرى لم تكن مؤهلة لأن تضيف الى الرصيد النظرى لتراث علم الاجتماع المصرى وذلك لسبب بسيط ، هو ان هذا التراث لم يكن له وجود يذكر · وليس من المعقول أن تثبت مسيرة علم الاجتماع على هذا الحال : تصور فى التأصيل النظرى ، يؤدى الى ضعف التوجيه النظرى للباحث الميدانى ، مما يورث هذا الباحث بعد انجاز بحثه عجزا عن ان يثرى هذا الصرح النظرى · وكان لا بد من كسر هذه الحلقة المفرغة ·

معنى هذا انه لا بد لعلم الاجتماع المصرى من وقفة من نفسه ، ينظر نظرة البالغ الرشيد الى التراث الأجنبى الذى كان يستقى منه نظرياته

ومفاهيمه وأدواته ويبنى عليها أطره التصورية · كان على علماء الاجتماع المصريين أن يشاركوا فى الجدل الدائر فى كافة انحاء العالم الثالث عن كفاءة النظرية السوسيولوجية فى صياغتها الغربية فى تفسير الواقع الاجتماعى الدينامى فى مجتمعات العالم الثالث · وكان عليهم أيضا أن يفيقوا الى حركة الخطى السريعة التى تهدر على مسرح علم الاجتماع الغربى وتتخذ أسلوبا جديدا فى التفكير والبحث ، وتطرق قضايا غير تقليدية لم تكن مألوفة عند اتباع دوركيم فى فرنسا · كان على المشتغلين بعلم الاجتماع المصرى أن يفكروا فى مدى كفاءة البحث الامبيريقى (بصورته الأمريكية) فى فهم الواقع المصرى ودراسته وتفسيره ، وأن يفكروا فى مجموعة القضايا الجديدة المثارة فى دوائر علم الاجتماع الغربى : كعلاقة علم الاجتماع بالأيديولوجيا ، وعلاقته بالدولة ، ودور الظروف الاجتماعية القائمة فى تشكيل مسار هذا العلم ·

وكانت هذه الدراسة ـ التى قدمها صاحبها فى صورتها الأصلية الأولى كرسالة جامعية لقسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة ـ شرارة الانطلاق وصرخة التحذير وسط هذا الحشد الهادىء المطمئن من اهل الاجتماع المصريين · وهى ليست ثورية من الباحث المؤلف صاحب هذا العمل ، بقدر ما هى انعكاس لوعيه الكبير واحساسه المرهف بما يدور على مسرح علم الاجتماع الغربى · وحقيقة ذلك ببساطة أننا حتى وقت قريب لم نكن نعرف من هذا الاجتماع الغربى الا ملامحه التقليدية (الرجعية المحافظة) ، وقصر الكثيرون منا عن ملاحقة التيارات الجديدة التى ثارت فى داخل علم الاجتماع الغربى نفسه ، ونقضت كثيرا من مسلماته وشككت فى كثير من قضاياه ، وابانت كثيرا من نقاط الضعف فيه ، وقدمت اجتهادات لكثير مما ادانته من مواقف هذا الفكر واتجاهاته ·

وهذا هو بالضبط موضوع هذا الكتاب · انه محاولة لفرز وتصنيف واعادة ترتيب هذا الركام الهائل من الفكر السوسيولوجى الغربى من خلال دراسة مشكلة محورية فيه ، هى مشكلة النظام العام : وقد جعل منها المؤلف مدخلا الى النطاع الرئيسى الذى يكشف له وانا عن تكوينات هذا التراث الغربى الذى يتشدد به وشرنده منذ نصف قرن مضى

والطريف فى هـذه الدراسة ان صاحبها لم يقدم نقد علم الاجتمـاع الغربى الصادر من منطلق خارج عن تلك المجتمعات • ولكنه التزم بالاقتصار على عرض التيارات النقدية التى بدأت ـ منذ أكثر من عقد كامل ـ تعيـد النظر فى اغلب القضايا الكلاسيكية التى يقوم عليها علم الاجتماع • وأكد فى غير موضع أن هذه التيارات النقدية لم تنشأ من خارج البناء الأكاديمى للعلم ، بمعنى أنها لم تنشأ فى مجتمعات غير غربية • وانما نشأت داخل المجتمعات الغربية نفسها ، وتزعمها مجموعة من العلمـاء الذين كانوا الى زمن غير بعيد ينتمون فكريا الى نفس البنـاء النظرى الذى يتعرضون له بالنقد • وهـذا هو ما دفع الدكتور أحمد زايد الى أن يصف هـذه التيارات النقدية داخل علم الاجتماع الغربى بانهـا « ثورة من الداخل » تحاول أن تغير من الاسس التى يقوم عليها بناؤه التقليدى •

والمؤلف بذلك يحدد مجال دراسته تحديدا دقيقـا يخرج منهـا كافة الانتقادات التى وجهتها المـاركسية الى علم الاجتماع الغربى ، سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية • فحديثه عن الاتجاهات الكلاسيكية فى علم الاجتماع لن يتطرق الى المـاركسية وحديثه عن الاتجاهات النقدية الحديثة لا يتطرق لأى صورة نقدية نابعة من التفكير المـاركسى • ومع أن بعض النقـاد قـد يكونوا متأثرين بالفكر المـاركسى ، الا ان ذلك لا يعنى انهم لا ينتمون الى علم الاجتماع الغربى •

وسـوف يدرك قارىء هـذا الكتاب ان جولة المؤلف بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية فى علم الاجتماع سوف تكون اسهاما مباشرا وشرطا ضروريا للنهوض بعلم الاجتماع المصرى • فهـذه الرؤية المعاصرة الأصيلة لمـا يدور على ساحة علم الاجتماع الغربى ، سوف تجعل المشتغلين بعلم الاجتمـاع عندنا أكثر وعيـا عند محـاولة الاسـتفادة من النظـريات السـوسيولوجية الغربية ، أو عند محاولة اختبارها فى مجتمعاتنا • وهـذا وذاك من الشروط الأساسية لتطوير رؤية مصرية للنظرية السوسيولوجية فى اطار نظرة اشمل الى طبيعة البناء الاجتماعى فى مجتمعات العالم الثالث •

ولا يخفى أن هـذه الجولة التى نقوم بها على صفحات هـذا الكتاب بين أحدث التيارات والاتجاهات فى علم الاجتماع الغربى سوف تقوم بعملية

تحديث لمعلومات الكثيرين منا عن النظرية الاجتماعية المعاصرة . وهو فى ذاته مكسب هام لكل من يوفقه حظه الى الاطلاع على هذا الكتاب . ولكن المكسب الأكبر الذى سيخرج به القارىء هو ذلك النهج التحليلى المتطور الذى اتبعه المؤلف فى عرض موضوعاته ، ومناقشتها ، وتحليلها . فهو يقدم جهدا فى ميدان سوسيولوجيا علم الاجتماع وسوسيولوجيا المعرفة لا نظير لهما حتى الآن فى الكتابات العربية فى علم الاجتماع ، التى يزيد عمرها الآن عن نصف قرن .

وهذا هو بالتحديد ما قصدت اليه عندما قلت فى صدر هذا التقديم ان هذا الكتاب حد فاصل بين عهدين فى تاريخ علم الاجتماع على أرض مصر . فهو جديد فى موضوعه ، واصيل فى معالجته : وهو وقفة مع تراث علم الاجتماع الغربى ، من أجل أن يشتد عودنا وتقوى سواعدنا لكى نشيد معا صرحا جديدا لعلم الاجتماع المصرى .

أما مؤلف هذا الكتاب فهو ابنى البكر ، ابنى فى الدراسة ، وصديقى فى الحياة ، وزميلى فى العمل ، وأملى الذى أعيش به ، والمستقبل الذى يدخل البهجه الى نفسى والاطمئنان الى قلبى والثقة الى عقلى .. حين أفكر فى علم اجتماع مصرى يشيده أحمد زايد وزملاؤه ممن هم على شاكلته .

ومن أجل هذا أستشعر حرجا فى أن أقدم للقارىء شخص المؤلف ، أو امتدح اسلوبه فى العمل والتفكير ، أو اصور خلقه وادبه الجم وتواضعه وصبره الذى لا ينفذ على العمل . ولكن الثقة تملؤنى فى أن قراءة هذا الكتاب قراءة متأنية سوف تكشف للقارىء عن جوهر هذا المؤلف . وتبين عن ملامحه فى التفكير وفى البحث . انه أمل هذا العلم فى بلادنا ، والله يحفظه ويوفقه .

القاهرة فى أول يوليو ١٩٨١ — محمد الجوهرى

فى موضـــوع الدراســة
فصـــل تمهيـــدى

ثارت فى الدوائر السوسيولوجية فى نهاية العقـد السابع وبداية العقد الثامن من هـذا القرن مناقشات كثيرة حول النظرية السوسيولوجية ومدى كفاءتها الامبيريقية فى وصف الواقع وتفسيره • ولم تتخـذ هـذه المناقشات شكلا تقليديا ، وانما اثارت مجموعة من القضايا الجديدة مثل عـلاقة علم الاجتماع بالأيديولوجيا ، وعلاقته بالدولة ، ودور الظروف الاجتماعية للقائمة فى تشكيل مساره ، واثارت هذه القضايا بدورها جدلا حول قضايا أخرى مثل الموضـوعية ، والتحرر من القيم ، والالتزام فى العلوم الاجتماعية • وعلى مستوى مجتمعـات العـالم الثالث دار الحوار فى اطار علم اجتمـاع التنمية ، وفى اطار علم الاجتماع المعـرفى عن مدى انطباق هـذه النظريات على المجتمع النامى • وقـد بذلت فى مصر وفى الخـارج محاولات اهتمت فى المحـل الأول بما يمكن أن يفسر عمليات التنمية من نظريات علم الاجتماع الغـربى(١) •

وتنتمى هـذه الدراســة الى النوع الأول من الجـدل الدائر حول كفاءة النظريات السوسيولوجية التى تطورت فى مجتمعات غربية ، ولكنها تنطلق فى ذلك من النوع الثانى الخاص بالعالم الثالث • فهناك جانب من الصورة لا بد أن يكتمل ونحن نمارس الحوار من أجل التوصـل الى نظرية صالحة لتفسير واقع مجتمعنا : ينحصر هـذا الجـانب فى ضرورة وعينا بطبيعـة النظرية السوسيولوجية نفسهـا ، وطبيعة القوى والظـروف المتحـكمة فى مسارها ، وطبيعة الارتباطات المختلفة التى تربط هذه النظرية بنمط الاقتصاد

---

(١) انظر على وجه الخصوص :
ـ السـيد الحسينى وزملاؤه ، دراســات فى التنميـة الاجتمـاعية ، دار المعارف للقاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ •
ـ محمد الجوهرى ، مقدمة فى علم لجتماع التنمية ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ •
ـ محمود الكردى ، التخلف ومشكلات المجتمع المصرى ، دار المعارف القـاهرة ، ١٩٧٩ •

القائم ، ونمط السياسة للقائم . فمعرفة هذه الأشياء سوف يجعلنا نتفادى المثالب والمخاطر الكامنة فى تطبيق هذه النظريات ـ التى نشأت وتطورت فى مجتمعات تغاير طبيعتها طبيعة مجتمعنا ـ على واقع مجتمعنا او محاولة « تطويع » بعض عناصره لتتناسب مع المقولات الأساسية لهذه النظريات . ذلك لأننا سوف نتوصل من خلال دراستنا لتطور النظرية فى المجتمعات الغربية والاحاطة بالظروف المحيطة بها أن هذه النظريات لا تتمتع بالكفاءة الامبيريقية التى تجعلها قادرة على الاحاطة بكل جوانب الواقع فى المجتمعات الغربية وصفا وتفسيرا ، وفضلا عن ذلك نسوف نجد أن هناك مجموعة من التيارات النقدية التى بدأت تظهر وتنتشر داخل علم الاجتماع ، وأن هذه التيارات النقدية قد بدأت تعيد النظر فى أغلب القضايا الكلاسيكية التى يقوم عليها علم الاجتماع . ولم تنشأ هذه التيارات النقدية من خارج البناء الأكاديمى للعلم ، بمعنى أنها لم تنشأ فى مجتمعات غير غربية ، وانما نشأت داخل المجتمعات الغربية نفسها ، وتزعمها مجموعة من العلماء كانوا الى زمن غير بعيد ينتمون ـ فكريا ـ الى نفس البناء النظرى الذى يتعرضون له بالنقد ، بحيث يمكن أن نقول ونحن واثقون أن علم الاجتماع يخبر ثورة من الداخل ، تحاول أن تغير من الأسس التى يقوم عليها بناؤه التقليدى ، وأن تصحح مسارة بحيث يجدد من أساليب تناوله لمعطيات الواقع الاجتماعى وبحيث يتخلى عن أهدافه التقليدية ليحقق أهدافا أكثر انسانية . ولا شك أننا سوف نكتسب قدرا كبيرا من الوعى عند محاولة الاستفادة من هذه النظريات أو عند محاولة اختبارها فى مجتمعنا لذا ما وضعنا أيدينا على عناصر هذه الثورة الداخلية التى يخبرها علم الاجتماع وكذلك الأسس التى قامت عليها ، والقوى التى أدت الى ابرازها .

وربما يكون السبب الجوهرى وراء هذه «الثورة الداخلية » فى بناء العلم هو ميل المنظرين الى التركيز على جوانب معينة من الواقع الاجتماعى دون الجوانب الأخرى : الأمر الذى يضفى على النظرية طابعا خاصا ، ويوجه البحوث الميدانية وجهة خاصة هى تلك التى يرى القائمون على شئون العلم الاجتماعى أنها تدعم ايديولوجيتهم التى ليست ـ فى النهاية ـ .. ايديولوجية الطبقة الحاكمة . فاهم جوانب الواقع الاجتماعى اثارة

للتنظير واجراء البحوث هى تلك الجوانب المتعلقة بالعلاقات البنائية الثابتة التى تربط بين أفراد وجماعات ونظم لها امكانها وأدوارها المحددة . وفى ذلك اهمال ولا شك للتغير الاجتماعى ـ عوامله وعملياته ـ ولمظاهر الصراع التى قد تنشأ بين الأدوار او بين الجماعات او النظم والتى قد تسبب تحولا جذريا فى العلاقات البنائية القائمة . ولقد أدى هذا الموقف الى اتسام التفكير السوسيولوجى السائد فى اوربا والولايات المتحدة الأمريكية بسمات خاصة أهمها على الاطلاق اضفاء طابع النظام والاستقرار على عناصر الواقع الاجتماعى.وهذا هو السبب فى أننا اتخذنا من مشكلة النظام Problem of Social Order نقطة انطلاق محورية فى هذه الدراسة.ويفرض علينا ذلك بدوره أن نركز على علم الاجتماع الذى تطور من كونت فدوركايم فماكس فيبر فبارسونز ، دون أن نهتم بماركس أو الماركسية . فتلك الأخيرة قد اتخذت من مشكلة الصراع ـ دون النظام ـ نقطة محورية أو مشكلة محورية ، ونأمل أن نفرد لها دراسة مستقلة فيما بعد . وفضلا عن ذلك فان استبعاد الماركسية من التحليل ـ الا اذا اقتضت الحاجة ـ سوف يحقق الهدف الأول لهذه الدراسة وأعنى اثبات الحقيقة التى مؤداها أن التيارات النقدية قد أفرزها العلم الاجتماعى ـ فى صورته المرتبطة بالنظام ـ ولم تفرض عليه أو توجه له من مصدر خارجى .

ولكن مفهوم النظام الاجتماعى العام Social Order يثير مشكلة أخرى فاذا كانت الاتجاهات التقليدية فى علم الاجتماع قد نشأت كرد فعل لمشكلة النظام العام فى المجتمع ، وذلك عندما وضعت أمامها ضرورة ايجاد حل للسؤال الملح : ما الذى يلم شمل المجتمع ؟ What holds Society together ? فما علاقة الاتجاهات النقدية الحديثة بهذه المشكلة ؟ الحقق ان دراسة هذه الاتجاهات يمثل أيضا دراسة لمشكلة النظام وذلك لسببين : الأول أن أحد الأسباب التى أدت الى نشأة هذه الاتجاهات النقدية هو ارتباط الاتجاهات التقليدية بمشكلة النظام ، وانحرافها بمسار العلم فى وجهة نظر خاصة تركز على عناصر الثبات والاستقرار وتهمل العناصر الأخرى وما ترتب على كل ذلك من مثالب (النزعة الامبيريقية ، الاتجاه النظرى المجرد ، كسر أسس الموضوعية وتشويه مبدأ التحرر من القيم) ، والثانى أن هذه الاتجاهات النقدية تسعى ـ فى اثناء نقدها

للاتجاهات التقليدية ـ الى ابراز الجوانب الأخرى التى أهملتها الاتجاهات التقليدية فى ارتباطها بمشكلة النظام العام · وهكذا فانه اذا كان النظام العام عند العلماء التقليديين يعنى « الهيكل العام الذى تنصهر داخله مجموعة من نماذج السلوك المنظمة وفق نسق من المعايير والجزاءات الشرعية ، ينظم العلاقة بينها ويحقق بينها قدرا من الترتيب والاتساق والاستمرار ويبث فيها مجموعة من القيم والمعايير التى تدعم هذا الثبات » ، فانه يعنى عند جماعات النقاد شيئا مختلفا تماما · فهم يلحون على ضرورة التخلى عن هذا المفهم ، لأنه يدعم فكرة القهر الخارجى التى طورها هوبز ، ولأنه يتصور هوة تفصل بين الباحث وموضوع دراسته ، ولأنه يهمل الجوانب الليبرالية والراديكالية فى التفكير الأمر الذى يجعل أفراد المجتمع مجرد « لعب » او مجموعة من الأشياء التى تنتظم بينها العلاقة بطريقة معينة · وبناء على ذلك فان دراسة الاتجاهات النقدية الحديثة لا يمثل ابتعادا عن دراسة مشكلة النظام ، فهى تمثل دراسة الوجه الآخر لهذه المشكلة ·

وبناء على كل هذا تهتم الدراسة الحالية بأن تقدم عرضا نقديا للاتجاهات الأساسية فى علم الاجتماع الغربى من خلال ارتباطه بمشكلة النظام فى المجتمع ، فى محاولة لابراز الصورة الراهنة لهذا العلم ، بما فى ذلك القوى الاجتماعية والسياسية التى تؤثر على مساره وتطوره ، والتيارات الفكرية والأيديولوجية التى تضرب بجذورها فى بنائه وأساسه · وتنطلق الدراسة ـ منهجيا ـ من مسلمة معرفية مؤداها أن أى ضرب من ضروب الفكر ما هو الا انعكاس لمجموعة من الظروف الاجتماعية والقوى السياسية والاقتصادية المحيطة به · ولا يعنى ذلك أن الواقع هو الذى يشكل الفكر ، ولكن يعنى أن هناك علاقة جدلية بين الفكر الواقع : فالواقع يصوغ الفكر ويشكله ، ولكن للفكر قد يسهم فى تغيير الواقع اذا تعرض ذلك الأخير لضرب من ضروب القهر أو « التحكم المصنوع » · وانطلاقا من هذه المسلمة سوف تحاول الدراسة ـ فى أثناء عرضها للاتجاهات الأساسية فى علم الاجتماع ـ تقليدية كانت أو نقدية ـ أن تمتد بالتحليل عبر مستويات ثلاثة ·

١ ـ مستوى الفكر النظرى المجرد والبحوث الامبيريقية المرتبطة به ·

٢ ـ مستوى الواقع الامبيريقى الذى يفسره هذا الفكر وتلك البحوث.

٣ ـ التيارات الفكرية والأيديولوجية التى تخلف هذا الواقع وتكون اساسه الفوقى

يمثل المستوى الأول الفكر النظرى السوسيولوجى الذى يشكل بؤرة اهتمام الدراسة الحالية ، أما المستويان الثانى والثالث فانهما يمثلان المجتمع بكل ما فيه من نظم وكل ما يتفاعل داخله من تيارات فكرية وسياسية . وتطور المعرفة السوسيولوجية لا ياتى الا من خلال التفاعل المستمر بين هذه المستويات الثلاثة . فسوف يتضح لنا ان التطورات الكبرى فى علم الاجتماع قد انبثقت عن مجموعة من القوى الاجتماعية والتيارات الفكرية والسياسية التى شكلت فكر الباحثين وجعلته يتخذ طابعا معينا . وسوف يتضح لنا ايضا ان احدث التطورات فى علم الاجتماع ، واعنى ظهور الاتجاهات النقدية لم يظهر الا كرد فعل لظاهر الصراع البنائى والفكرى التى كشف عنها الواقع ، وانها اتجهت بعد ظهورها نحو تغيير هذا الواقع او الدعوة الى تغييره لأنها اكتشفت داخله بعض مظاهر التناقض التى يجب ان يتخلص منها . ونكون بذلك قد اثبتت تلك العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع .

وسوف تنقسم الدراسة الى قسمين رئيسيين : يعالج القسم الأول الاتجاهات التقليدية فى علم الاجتماع الغربى فى علاقتها بمشكلة النظام وهو ينقسم الى خمسة فصول :

يعالج الفصل الأول مفهوم النظام الاجتماعى العام ومشكلته فيتعرض للمعانى المختلفة لهذا المفهوم ويتوصل الى تعريف محدد له : ثم يتعرض بعد ذلك لظهور مشكلة النظام على يد توماس هوبز وكيف ارتبطت بها نظرية علم الاجتماع من خلال توضيح آراء العلماء الذين يؤيدون هذه الفكرة او يرفضونها ثم يطرح الباحث فى نهاية الفصل تصوره عن مشكلة النظام وعلاقتها بمشكلة الصراع .

اما الفصل الثانى فانه يهتم بدراسة علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر فى علاقته بمشكلة النظام : فيتعرض لآراء كونت ودوركايم وماكس فيبر من خلال ارتباطها بالظروف البنائية والفكرية التى افرزتها وشكلت

اتجاهها العام وجعلتها تتخذ من مشكلة النظام مشكلة اساسية لتوجيه مسارها • وطرح هذا الفصل فى النهاية فكرة تميز تراث ماكس فيبر لأنه اتخذ اتجاها نظريا ومنهجيا يخالف الاتجاه الذى سار فيه كونت ودوركايم ، وهو اتجاه ظل مميزا ومطورا الى أن احيت الاتجاهات النقدية الحديثة جانبا منه •

اما الفصل الثالث : فانه ينتقل مباشرة الى الصورة المعاصرة لعلم الاجتماع كما تتمثل فى أعمال تالكوت بارسونز • ويتتبع هذا الفصل عناصر الحل المعيارى لمشكلة النظام فى فكر بارسونز بدءا من تصوره الطوعى لعلاقات التفاعل وحتى تصوره النسقى لمستويات التكامل داخل المجتمع التى تبدأ بتضافر الدافعية والتوجيه المعيارى وتنتهى بميكانيزمات الضبط الاجتماعى ، وعالج هذا الفصل فى النهاية موقف بارسونز من قضيتى الصراع والتغير وانحرافه نحو الحلول التطورية عندما شكلت هاتان القضيتان معضلة فى مشروعه النظرى •

اما الفصل الرابع : فانه يهتم بالتجسيد الأمبيريقى لمشكلة النظام ، فيعرض لمجموعة البحوث الامبيريقية التى حاولت أن تقدم براهين امبيريقية للحلول التى قدمها علماء الاجتماع لمشكلة النظام • وانتقى الباحث مجموعة من البحوث فى مجالى السياسة ودراسة التنظيمات حيث أكد فى نهاية عرضها العلاقة الخفية التى تربط بين النظرية والبحث فى علم الاجتماع •

اما الفصل الخامس فانه يتعرض لمجموعة المحاولات التى اندفعت ـ متاثرة بظروف معينة ـ نحو الربط بين النظريات التى تدعم النظام والنظريات التى تهتم بالصراع فى محاولة منها للخروج بعلم الاجتماع الغربى من دائرة النظام ، فدرس آراء لويس كوزر وديفيد لوكود ورالف دارندورف ومن تاثر بهم مثال بيرسى كوهين وفان دن بيرج • وأكد هذا الفصل على الاسهام الذى قدمته هذه المحاولات الذى ينحصر فى اثراء بعض البحوث الامبيريقية بالنظرة الشاملة التى تهتم بجوانب الصراع والنظام فى ذات الوقت •

اما القسم الثانى فانه يهتم بالاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع ، وينقسم الى خمسة فصول وخاتمة •

اهتم الفصل السادس بالظروف البنائية والفكرية التى افرزت الاتجاهات النقدية الحديثة · وجاء الفصل ليسهم فى تفسير نشأة هذه الاتجاهات حيث طرح فكرة الصراع بين البناء الاجتماعى والفكرى القديم وبين البناء الاجتماعى والفكرى الجديد ، ذلك الصراع الذى ادى ـ من خلال العلاقة الجدلية ـ الى ظهور الاتجاهات النقدية كمرحلة اولى على طريق العملية الجدلية الواسعة النطاق التى ستنتهى بتغيير المجتمع كلهً والاطار النظرى الذى يفسره ومن خلال هذا التصور ابرز هذا الفصل بعض مظاهر الصراع الفكرى والبنائى فى المجتمعات الغربية التى دخلت مع البناء القديم فى تناقض افرز الاتجاهات النقدية ·

اما الفصل السابع فانه يعرض للاتجاه النقدى المبكر فى علم الاجتماع كما يتمثل فى أعمال رايت ميلز ، فابرز الجانب الريادى فى اعمال رايت ميلز حيث جمع بين النقد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى ، وعاش ظروف عصره مطوعا كل الأفكار التى هضمها نحو تفسير بناء المجتمع الذى يعيش فيه · وتعرض هذا الفصل لجانبى النقد عند رايت ميلز فعرض لفكرته عن الخيال السوسيولوجى ثم علاقته باليسار الجديد والماركسية ، ثم رؤيته لدور عالم الاجتماع فى المجتمع الحديث ، ومدى التزامه بهذا الدور وكل ذلك فى اطار الظروف الفكرية والبنائية المحيطة به ·

اما الفصل الثامن فانه يعرض لجانب من حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع كما تتمثل فى حركة النقد السوسيولوجى التى يتزعمها الفن جولدنر · وتتبع هذا الفصل نظرية جولدنر النقدية بدءا من الارهاصات التى ظهرت فى الستينات وحتى صورتها المكتملة التى قدمها فى كتابه « الأزمة القادمة » · ثم تعرض لرد فعل علم الاجتماع التقليدى تجاه نظرية جولدنر النقدية ، ذلك الذى تمثل فى موجة عنيفة من النقد تزعمها غلاة المحافظين من علماء الاجتماع ، وموقف جولدنر من هذا النقد ·

اما الفصل التاسع فانه يعرض لجانب آخر من حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع والتى تجسدت فى اتجاه النقد الاجتماعى او فى آراء مجموعة من العلماء يقتفون اثر رايت ميلز فى صياغة نظرية نقدية عن المجتمع · وعرض هذا الفصل لبعض الاتجاهات النقدية فى المانيا وفرنسا وامريكا ·

ثم عرض بالتفصيل للآراء النقدية التى ظهرت فى أعمـال كل من بوتومور وجون ركس على انها تمثل امتدادات حقيقية لأعمال رايت ميلز ٠

وتعرض **الفصل العـاشر** لبعض البدائل النظرية فى علم الاجتمـــاع الغربى ، موضحا كيف اتخذت هـذه البدائل طابعا فينومينولوجيا متأثرة بفلسفة هوسرل وآراء الفرد شوتز فى الفينومينولوجيا الاجتمـاعية ، وفى نفس الوقت ابراز مدى اختلاف هـــذه البـدائل عن الاتجاهات التقليدية وموقفها من مشكلة النظام الاجتماعى العام ٠

وفى نهاية هذا القسم جاءت خاتمة البحث حيث عرض الباحث لبعض تصوراته عن حركة وتطور علم الاجتماع ، ثم أكد ضرورة الاسـتفادة من التراث الكلاسيكى الذى قدمه ماكس فيبر وماركس بنفس طريقة رايت ميلز فى التعامل معه ٠

البَاب الاول

علم الاجتماع الكلاسيكى ومشكلة النظام

الفصل الأول : مفهوم النظام العـام ومشـكلته

الفصل الثـانى : علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر
بداية التجسيد الايديولوجى لمشكلة النظـام

الفصل الثـالث : تالكوت بارسونز والحل المسيارى لمشكلة النظام

الفصل الـرابع : الاتجاه الامبيريقى فى خـدمة النظرية

الفصل الخامس : محاولات الخروج من دائرة النظام : النظريات التوفيقية

الفصل الأول

مفهوم النظام الاجتماعى العام ومشكلته

مقـــدمة :

لما كان هذا البحث يتخذ من مشكلة النظام العام Problem of Social order نقطة انطلاق رئيسية ، فقد كان من الطبيعى أن يستوقفنا منذ البداية هذا السؤال : لماذا مشكلة النظام العام بالذات ؟ والاجابة عن هذا السؤال تقودنا بالطبع الى تقصى معنى هذا المفهوم ، وكيف ارتبطت به هذه المشكلة (مشكلة النظام) ، على يد الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز ، وكيف يرى علماء الاجتماع أن نظريات علم الاجتماع المعاصر تتبلور حول هذه الشكلة . من هنا فان هذا الفصل سوف ينقسم الى الموضوعات التالية :

أولا : مفهوم النظام الاجتماعى العام

ثانيا : توماس هوبز وصياغة المشكلة

ثالثا : نظرية علم الاجتماع ومشكلة النظام

رابعا : مشكلة نظام أم مشكلة صراع

أولا – مفهوم النظام الاجتماعى العام :

يعتبر مفهوم النظام العام الاجتماعى مفهوما غضفاضا له معانى كثيرة . وربما كان القاموس هو المصدر الذى نستطيع أن نبدأ منه ليكون لحديثنا أساس أكثر صلابة . يشير مفهوم النظام العام الى الترتيب المنظم ، كما يشير الى التتابع المستمر المنظم . أو العلاقات المتناغمة ، وهو يشير أيضا الى أى نسق من الأشياء المادية : مثل الكتب المصطفة فى المكتبة ، أو نسق من الآراء والأفكار : مثل ترتيب رؤوس الموضوعات لمحاضرة معينة ، أو فترات من الوقت : كشهور السنة ، وهو يشير أيضا

الى أى ترتيب على الوجه الصحيح : مثل ترتيب الأثاث فى المنزل ، او اى اجراء عرفى : كما هو الحال فى تنظيم المناظرات او المعاملات التجارية ، وهو يشير أيضا الى التوافق مع القانون أو حالة استتباب الأمن : أى المحافظة على الهدوء العام فى الجماعة المحلية ، كما انه يشير الى مجموعة من الأشياء أو الأشخاص نظمت فى أماكن معينة : مثل الضباط • ومع هذا الغنى فى المعنى فلا ندهش اذا وجدنا ان البعض يعتبر ان النظام هو « قانون السماء الأول »(١) •

وليس من السهل ان نطبق هذا القانون السماوى الأول على المجتمع البشرى • فلا يعقل أن يكون الأفراد فى المجتمع مثل مجموعات الكتب المنتظمة فى المكتبة ، او قطع الأثاث المرتبة فى المنزل او مثل شهور السنة • هنا يكمن الفرق بين تحقيق النظام بين الأشياء المادية وتحقيق النظام الاجتماعى بين بنى البشر • انه الفرق بين الجماد واللاجماد ، بين الطبيعة والانسان ، بين الحياة والموت • ولتتضح امامنا صورة النظام العام الاجتماعى لا بد أن نبحث عن العناصر التى تكون هذا النظام والتى يشتقها العلماء من كل المعانى السابقة ومعانى اخرى كثيرة •

يحصر فردريك لملى F. Lumley عناصر النظام الاجتماعى العام فى ثلاثة عناصر رئيسية هى(٢) :

١ ـ الترتيب Arrangement وجوهر الترتيب هو الصف او الخطوط المستقيمة واذا كنا نستطيع أن نربط الخطوط المستقيمة مع بعضها لتكون مثلثات او مربعات او دوائر فتكون منها توليفات لا نهائية ، فان الحياة الاجتماعية تكشف عن قدر من الترتيب وان كان لا يأخذ دائما شكل الخطوط المستقيمة • ويظهر الترتيب فى الحياة الاجتماعية فى دور العبادة والمسارح وفى فصول الدراسة وقاعات المحاكم وحول موائد الطعام •

---

(١) Frederick E. Lumley, Principals of Sociology, 2nd Edition, McGraw-Hill Book Company, Inc., N.Y. and London 1935, p. 424.

(٢) Ibid., pp. 424—426.

ويظهر فى مباريات كرة القدم ، وامام شبابيك التذاكر وفى الحفلات والجنائز ، وفى تغيير نوبات العمل ، وفى النوم والأكل وباختصار فان الحياة الاجتماعية تكشف عن ترتيب فى المكان والزمان والحركة .

٢ ـ العلاقة : Relationship يعتبر النظام الاجتماعى العام شيئا اكثر من ترتيب حركة للزمان والمكان لجماعات اجتماعية منفصلة . فهناك عنصر جوهرى لا بد من تحقيقه ليتحقق النظام الاجتماعى العام واعنى العلاقة بين هذه الوحدات والجماعات . فهذه الوحدات والجماعات تتداخل وتترابط ، ويؤثر كل منها على الآخر ، بحيث لا يمكن تفسير احدها بمعزل عن الآخر . انها نسيج أحكم صنعه يضفى على الحياة الاجتماعية قدرا كبيرا من الوحدة والترابط . ونحن نستطيع أن نلمس هذا الترابط فى حياتنا اليومية ، فما تفعله أو تفشل فى فعله له تاثير على حياة الآخرين ، وينعكس هذا الترابط فى خفقات القلوب التى تنبعث من هنا وهناك عندما يرتكب أحد أفراد الأسرة جريمة أو عندما يشب حريق فى المنزل ، أو ينادى منادى القتال ، أو تظهر بوادر الانتصار ، أو ترفع الأجور . وان صفا طويلا من الجنود قد يصل الى مئات الأميال لا يصنع جيشا دون هذا الترابط ، فما لم توجد علاقات مرتبة لا يوجد نظام .

٣ ـ الثبات (الاستقرار) Stability عندما تستمر العلاقات المنظمة بين الوحدات أو الجماعات عبر الوقت ، فانها تكتسب صفة الثبات أو الاستقرار . حقيقة أننا نستطيع أن نفكر فى نظام يوجد للحظة معينة ولكن خبرتنا بالحياة الاجتماعية لا تؤيدنا اذا فكرنا فى النظام الاجتماعى بهذه الطريقة . فالنظم الاجتماعية التى نالفها جميعا هى نظم راسخة ، ومستقرة ، لا تتغير بسهولة ، ولا تنهار بسهولة أيضا . انها مستمرة ازلا . فالطبقة الاجتماعية ، على سبيل المثال ، التى تتسم بسمات اجتماعية اليوم ، لا تتغير غدا بحيث تتكون من جماعة معينة لليوم ، وجماعة أخرى غدا ، وثالثة فى الأيام التالية، وبالتالى يتغير برنامجها عبر الوقت ، فى مثل هذه الحالة لا يمكن أن نعتبرها جماعة منظمة على الاطلاق . وهذا الثبات والاستمرار اللذان تتسم بهما الحياة الاجتماعية يمكنان من التنبؤ بالظروف الاجتماعية .

ويتفق بيرسى كوهن P. Cohen كثيرا مع الى فى تعريفه للنظام العام الاجتماعى • فهو وان اضاف عناصر أخرى ، الا ان هذه العناصر من طبيعة واحدة وتقدم لنا تعريفا للمفهوم لا يختلف عن التعريف السابق فالنظام الاجتماعى العام عند كوهن(٣) له جوانب عديدة ، ينحصر الجانب الأول فى عملية الكبح Restraint وهو يعنى ضبط عملية العنف فى الحياة الاجتماعية ، أما الجانب الثانى فانه يشير الى وجود التبادل Reciprocity فى الحياة الاجتماعية ، فسلوك كل شخص ليس سلوكا عشوائيا ، أو تلقائيا ولكنه مكمل لسلوك الآخرين ، أما الجانب الثالث فانه يرتبط بالقابلية للتنبؤ Predictability فى الحياة الاجتماعية • فسلوك الأفراد لا يتصف بصفة « الاجتماعية » الا اذا كونوا توقعات متبادلة عن سلوك بعضهم البعض • والجانب الرابع يشير الى وجود الاتساق Consistency فى الحياة الاجتماعية ، فما دامت التوقعات قد تحققت فان سلوك الأفراد سوف يكون متسقا الى حد كبير • أما الجانب الخامس من جوانب النظام العام فانه يشير الى وجود الاستمرار او المثابرة persistence فى الحياة الاجتماعية ، فما دامت التوقعات قد تحققت فان فى الحياة الاجتماعية اذا لم تستمر أشكال هذه الحياة نفسها •

ويرتبط مفهوم النظام الاجتماعى العام بجانب آخر من الحياة الاجتماعية يعبر عنه مفهوم الترابط الاجتماعى Social Cohesion وهو يشير الى المواقف التى يرتبط فيها الأفراد بعضهم ببعض من خلال التزامات ثقافية ولجتماعية مشتركة • فالجماعة تشتق من القوى ما يشد الأفراد الى الارتباط بها والمحافظة على عضويتهم داخلها • من هذه القوى التزام الأفراد بالمعايير العامة والقيم ، والاعتماد المتبادل الذى تفرضه المصلحة المشتركة ، وتوحد الفرد مع الجماعة(٤) •

من ذلك الاستعراض لجوانب النظام والمفهومات التى يرتبط بها يتضح :

---

(٣) Percy S. Cohen, **Modern Social Theory**, Heinmann, London, 1968, pp. 118—19.

(٤) Duncan Mitchell (ed.) **A dictionary of Sociology.**, Routledge and Kegan Paul, London, 1968, p. 165.

١ ـ أن مفهوم النظام الاجتماعى للعام لا يعبر الا عن جوانب الاتساق والترابط فى الحياة الاجتماعية · فالحيـاة الاجتماعية تخلق لذاتها قواعـد وقيما تضفى طابع النظام على المجتمع ·

٢ ـ أن هذا المفهوم لا يشير الى جوانب الصراع والتغير فى الحياة الاجتماعية ، بل انه لا يفترض وجودهما أساسـا ، فلملى ـ الذى قدمنـا تعريفه للنظـام فيما سبق ـ لا يتحـدث عن التغير الا اذا كان تغيرا منظما orderly change انطلاقا من حقيقة انه لا يوجـد مجتمع يحقق الترتيب والاستقرار وتكامل العلاقات تحقيقا كاملا · ويأتى التغير المنظم من مصادر ثلاثة : هى : العوامل الفيزيقية (الايكولوجية) والعوامل الفردية (التصور الفردى او الابداع الفردى) ، والعوامل الاجتماعية (ويحصرها فى التاثيرات التى تاتى من الاحتـكاك الثقـافى)(٥) · كمـا أن كوهـين اذا كان قـد تحـدث باختصـار عن جـوانب الصراع والتغـير التى تقـابل جـوانب الاتساق والاستمرار فى الحيـاة الاجتمـاعية ، فان ذلك يعبـر عن رؤيـة معينة للحياة الاجتماعية(٦) لا تدل على أن مفهـوم النظام الاجتماعى يمكن ان يعبـر عن جـوانب الصراع · وتؤيـد وجهـة للنظـر هـذه ما ذهب اليـه وليم كولب(٧) William Kolb وجـوليس جـولد Julius Gould (محررا قاموس العلوم الاجتماعية) من أن مفهوم النظـام العـام يدل على انتظامات التفاعل التى تقابل باجماع من المجتمع أو التى تكون مرتبطـة بادائه الوظيفى · ومن ثم فان العـلاقات التى تكشـف عن الخلل الوظيفى تفسر على أنها مؤشرات للتفكك الاجتماعى العـام ترتبط فى الغالب بجوانب يوتوبية أو اخـلاقية تنبثق من مضمونه الامبيريقى ، فالكثير من الـكتاب يعتبرون أن الصراع يؤدى الى سـوء النظـام او اخفائه ، فهو مؤشر على انهيار ضوابط السلوك المستقرة ·

وهناك فريق من العلماء ينطلق فى تعـريف النظـام الاجتماعى العام

---

(٥) Lumly, Principales of Sociology, op. cit., pp. 426—248

(٦) انظر عرضا لآراء كوهين فى الفصل الخامس من هـذا البحث ·

(٧) Julius Gould and William Kolb, A Dictionary of Social Sciences. The Free press of Colencoe, N.Y., 1964, p. 660.

S. order من مفهوم النظام institution ,٨) ، على اساس أن ذلك الأخير هو بؤرة النظام العام واساسه · من هؤلاء مارتندال Martindale ومونـاشيزى Monachesi اللذين عرفا النظم الاجتماعية بأنها تلك العلاقات ـ التى تنعكس فى قواعد السلوك ـ التى تربط بين الجماعات الاجتماعية · انها مجموعات من المبادىء التنظيمية ترسى الأساس الذى يقوم عليه الفعل الاجتماعى الذى تتبنه الجماعة لتحقيق غاياتها · وكل مجموعة من هذه القواعد أو المبادىء تكون نظاما معينا ، ولكن اذا ما انتقلنا من دراسة هذه القواعد التى تميز نظاما معينا الى دراسة العلاقات المختلفة بين النظم فاننا نكون بصدد مفهوم جديد هو النظام الاجتماعى العام Social order · وعلى هذا ينتهى مارتندال ومونـاشيزى الى تعريف النظام العام بأنه « نماذج العلاقات الاجتماعية التى توحد بين المبادىء المنظمة التى تكون النظم الاجتماعية »(٩) ·

وينفى مارتندال وزميله اضفاءهما لأى معنى معيارى أو تقييمى لمفهوم النظام العام ، فهما لا يقصدان من استخدامه ـ على حد تعبيرهما ـ « أن الظواهر الاجتماعية تخضع للنظام ، أو أنها مفككة ، أو أكثر تنظيما من ظواهر أخرى »(١٠) · وهما يقرران ذلك لينفيا عنهما التحيز الأيديولوجى الذى يعبر عنه مفهوم النظام **العام الاجتماعى** ، غير أنهما لم يوفقا فى ذلك ، فنجدهما يقرران بعد أن ينفيا تهمة الفهم التقييمى للنظام الاجتماعى العام أن ذلك الأخير يعنى « الترتيب » أو « العلاقات القائمة بين القواعد الاجتماعية والتى تطبق على الأفعال الاجتماعية »(١١) · ويكشف لنا هذا التعريف عن أن النظام العام يفهم بالمعنى المعيارى ، وأنه يقصد به جوانب الترابط والاستمرار فى الحياة الاجتماعية دون الصراع والتغير·ويبدو أن جمهرة علماء

---

(٨) آثرت أن اترجم كلمة institution بنظام على أن أميز بينها وبين كلمة Social order بالنظام العام ·

(٩) Don Martindale and Ello Monachesi, Elements of Sociology, Harper and Brothers Publishers, New York, 1951, pp. 218–219.

(١٠) Ibid., p. 220.

(١١) Ibid., p. 220.

الاجتماع الغربيين يجمعون على تعريف للنظام الاجتماعى العام من خلال مفهوم النظام institution الذى يعد مفهوما اساسيا فى كل دراساتهم وكتاباتهم .

ففى دائرة المعارف العالمية للعلوم الاجتماعية(١٢) ، يذهب ايزنشتات Eisenstadt الى أن للنظم الاجتماعية ثلاثة جوانب :

أولا : نماذج السلوك الذى تنظمه هذه النظم والتى ترتبط بالمشكلات الرئيسية للمجتمع .

ثانيا : تنظيم سلوك الأفراد وفقا لنماذج تنظيمية محددة .

ثالثا : هذه النماذج تتضمن ترتيبا وتنظيما معياريا ، اى ان التنظيم يتحقق من خلال المعايير والجزاءات التى تكسبها المعايير قدرا من الشرعية .

ومن هذه الجوانب نستطيع أن نشتق تعريفا للنظام الاجتماعى بأنه « نماذج السلوك المنظمة وفق نسق من المعايير والجزاءات الشرعية » . واذا كان ايزنشتات يعتبر ان النظام الاجتماعى هو بؤرة التنظيم الاجتماعى فان النظام الاجتماعى العام يتكون فى هذه الحالة من جماع النظم المختلفة التى يحصرها ايزنشتات فى ستة نظم رئيسية : الأسرة ، والقرابة ، والتعليم ، والاقتصاد ، والسياسة ، والثقافة ، والتدرج الاجتماعى — فى عملية تفاعل وترابط . صحيح ان لكل نظام اجتماعى وحداته الأساسية (أفرادا وجماعات) كما أن له مصادره الخاصة (مثل العمل والسلع والنقود فى النظام الاقتصادى، والتوحد والتدعيم فى النظام السياسى) الا أن الواقع الامبيريقى يثبتنا بعملية تفاعل هذه النظم المختلفة فى نظام اجتماعى مستقر ودائم .

من هذا المنطلق نستطيع ان نتصور المجتمع فى شكل هرمى (انظر شكل ١) قاعدته النظم الاجتماعية Social Institutions التى تتكون من الأفراد والجماعات، وما يحكم سلوكهم من قواعد ومعايير ، تنبثق منها

---

(١٢) Eisenstadt, S.N. "Social Institution" in **International Encyclopedia of Social Sciences**, The Macmillan Company and the Free Press, 1968, p. 409.

التنظيمات الاجتماعية المختلفة ، وقمته النظام الاجتماعى العام الذى يعد بمثابة الهيكل العام أو البوتقة التى تنصهر فيها هذه النظم وتلك التنظيمات ، والذى ينظم العلاقة بينها ويحقق بينها قدرا من الترتيب والاستقرار والاستمرار ، ويبث فيها قيما ومعايير تدعم هذا الثبات والاستمرار ، وتعمل فى نفس الوقت على حصر الصراع فى حدوده الدنيا ، وتعيد النظام اذا ما أصاب المجتمع قدر من التفكك أو سوء التنظيم .

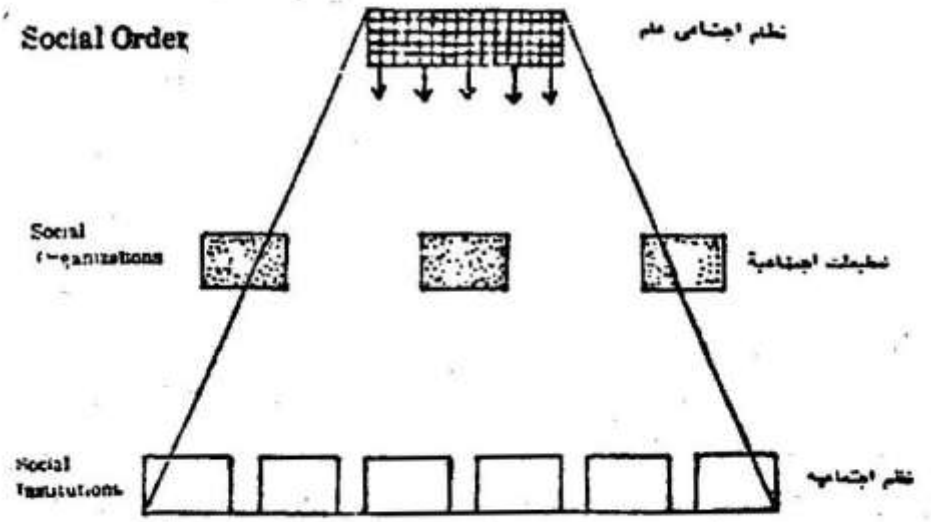

تعليمى ـ سياسى ـ اقتصادى ـ الاسرة والقرابة
الثقافة ـ التدرج الاجتماعى
(ش ١ : النظام الاجتماعى العام والنظم الاجتماعية)

هذه باختصار صورة النظام الاجتماعى العام فى ذهن علماء الاجتماع الغربيين . ولننتقل الآن من الحديث عن النظام العام الى مشكلة النظام العام : كيف ظهرت على يد توماس هوبز وما هو الحل الذى تصوره لها ؟

ثانيا ـ توماس هوبز وصياغة المشكلة :

عاش هوبز حتى قرب نهاية القرن السابع عشر (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) وتأثر بظروف الاضطراب وعدم الاستقرار السياسى فى عصره الذى جاء على اثر حرب أهلية فى انجلترا . فجاءت أفكاره عن المجتمع أو الطبيعة البشرية متأثرة بهذه الظروف ، بالحياة الاجتماعية هى حالة حرب يدخل فيها الكل ضد الكل(١٣) . فالانسان تتملكه غريزة واحدة هى غريزة

(١٣) D. Mitchell, A dictionary of Sociology. op. cit., p. 92.

المحافظة على حياته ، وهـذه الغريزة تدفعه الى الكفاح طول حياته ، فيظل مكافحا حتى يموت · وغريزة البقـاء هـذه تجعل الانسـان يبحث عن الوسائل التى تكفل له الأمان ، وفى سبيل بحثه عن الأمان يلجأ الى وسائل القوة ، ولا يهتم الا بتوفير الطمانينة لنفسه ، دون أن يعير غيره أى اهتمام الا اذا وجد أن بقاءهم وطمانينتهم ضروريتان لبقائه وطمانينته · ولهـذا فان الحياة هى حالة حرب مستمرة بين الأفراد وبعضهم بعضـا · فالفرد يسعى الى الحصول على كل ما يشعر أنه فى حاجة اليه دون أن يعبأ برغبات الآخرين أو احتياجاتهم ، وهـذا يؤدى الى تشـابك الناس واحتدامهم بعضـهم ببعض(١٤) ·

فى وجود هـذه الحالة من الحرب تظهر مشكلة نظام فى المجتمع ولا بد من وجود قوة تضمن للمجتمع قدرا كبيرا من النظام والاسـتمرار · ورأى هوبز أن هـذه القوة يجب أن تكون الدولة التى يخضع لها الأفراد خضوعا مطلقا · وهو يتصورها على هيئة عملاق جبار أو وحش هائل Leviathan فى يده جميع السلطات وتخضع له كل التنظمات التى تتكون منها الدولة · فنظرية هوبز تقوم على التقابل بين الطبيعة البشرية القائمة على الغرائز والحرب والتى تضع أمام الأفراد معضلة تحقيق النظام العام ، وبين العقل المهذب الذى يخلق الحل لهـذه المشـكلة · والحل عند هوبز هو القـوة القهرية التى تمارسـها الدولة على الأفراد · ولكى يكسب هوبز القـوة القهرية قدرا من الشرعية لجـأ الى نظرية « العقد الاجتمـاعى » فالمجتمع بدأ نتيجة عقد يبرم بين الأفراد وبعضـهم ، وبموجب هـذا العقد يتنازلون عن جميع حقوقهم ويتعهدون بالخضوع لشخص ولحد ، أو لعدة أشخاص يمثلون الحاكم(١٥) والحاكم له حرية التصرف فى استخدام القوة ، والقوة عنده تمثل فى القهر · فالأفراد يفعلون ما هو مطلوب منهم لأنهم يرغمون على ذلك بواسطة من يملكون وسائل القهر ، وسوف يقابلون بالعقاب اذا امتنعوا عن ذلك · والقوة القهرية هـذه تحقق كل جوانب النظام الاجتماعى

---

(١٤) بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، **المدخل فى علم السياسة** ، مكتبة الأنجـلو المصرية ، الطبعـة الرابعـة ، القـاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ ·

(١٥) المرجع السابق مباشرة ، ص ٢٤٧ ·

العام . فالأفراد الذين يخافون العقاب ينفذون التزاماتهم ، ويتوقعون من الآخرين نفس الشيء ومن ثم يتحقق بينهم قدر من الترابط والاتساق في المعايير تجعل الحياة الاجتماعية قادرة على الاستمرار(١٦) .

وتتلخص وجهة نظر هوبز في عبارته التالية :

« ان العهود بدون السيف (القوة) ليست الا كلمات لا قدرة لها قط على المحافظة على حياة الانسان ، والكلمات أصعب من أن تستطيع ردع طموح الأفراد ، أو طموحهم ، أو غضبهم ، أو انفعالاتهم »(١٧) .

ويلخص ديسموند اليس D. Ellis مشكلة النظام عند هوبز في العبارات التالية : « في الاطار الاجتماعي الذي تكون فيه الوسائل نادرة دائما بالنسبة للرغبات (الحاجات) لا تظهر معاملات عادلة بين الوحدات الاجتماعية . فمن خلال الاحباطات والتشجيعات التي تفرض على اختيار الأنا ego والآخر alter الوسائل ، تأخذ اى علاقة تبادلية شكلا من الأشكال التالية : تبادل ايجابي ذو جانبين ـ وفيه يكسب الأنا والآخر ، وتبادل سلبي ذو جانب واحد وفيه يكسب الأنا أو الآخر ، وتبادل سلبي ذو جانبين ـ وفيه يخسر كلا الطرفين . وفي اثناء عملية البحث المستمر عن الربح والمصلحة الذاتية ، يظهر ميل لاختيار الوسائل حسب كفاءتها الاجرائية ، أو اتجاه نحو اشباع الرغبات بالاعتماد على الآخرين . ولوجود هذين الاحتمالين فان صور التبادل الايجابية تتوقف ، وتتحول العلاقات بين الأفراد الى علاقات سلبية ذات جانب واحد ، وتتحول هذه العلاقات بالضرورة الى حالة فظة من الحرب . فكيف السبيل الى تحويل المجتمع الى مجتمع منظم تنظم فيه اساليب استخدام العنف والخداع بحيث لا تختفي علاقات التبادل الايجابية . هذه هي المشكلة التي اهتم هوبز بحلها اهتماما كبيرا(١٨) .

---

(١٦) Percy Cohen, Modern Social Theory, op. cit., p. 21.

(١٧) نقلا عن بطرس غالي وزميله ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦ـ٢٤٧ .

(١٨) D. Ellis, "The Hobbesian Problem of Order : A Critical Apprisal to the Normative Solution" A.S.R. Vol. 36. August, 1971, p. 693.

ولقد استطاع هوبز ـ من خلال نظرية القوة العقد الاجتماعى ـ ان يتصور ولقما امبيريقيا خاليا من الصراع والعنف والخداع ، ولقما تحل فيه مشكلة النظام العام • ونستطيع فى حدود هذا القدر من المعرفة عن مفهوم النظام ومشكلته أن نستخلص النتائج التالية :

١ ـ اذا كان مفهوم النظام الاجتماعى العام يحذف الصراع من الحياة الاجتماعية ، فان مشكلة النظام تنحصر فى كيفية التغلب عليه وابعاده على اختلاف وسائل ذلك •

٢ ـ انه اذا كنا قد قررنا آنفا أن مفهوم النظام العام يكشف عن معانى تقييمية ايديولوجية ، فان الحديث عن مشكلة النظام العام يمثل التجسيد الواقعى لهذا التحيز الأيديولوجى فى النظر الى الحياة الاجتماعية •

٣ ـ مشكلة النظام فى جوهرها مشكلة فلسفية اساسها هو التساؤل حول الطبيعة البشرية التى تتميز بالأنانية والعداوة ولكنها تميل بالطبيعة الى العيش فى مجتمع منظم ، ما الذى يدفع الأفراد الى المشاركة فى المجتمع ؟ ولماذا يظهر المجتمع الى حيز الوجود فى المحل الأول ؟ وما الذى يحقق النظام داخل هذا المجتمع ؟ هذه هى الأسئلة التى يسعى الفيلسوف المهتم بمشكلة النظام الى الاجابة عليها •

٤ ـ من هنا تأتى اهمية هذه المشكلة الفلسفية ـ الامبيريقية فى دراسة المعرفة السوسيولوجية فى الدول الأنجلو ساكسونية • فان تلك المعرفة اذا كانت قد ظهرت استجابة لمشكلة النظام ، فانها تنظر الى المجتمع نظرة خاصة وتفسره فى ضوء الاتساق والتناغم والاستمرار على ما تكشف لنا الفقرة التالية •

ثالثا ـ نظرية علم الاجتماع ومشكلة النظام العام :

يجمع المفكرون السوسيولوجيون على أن نظريات علم الاجتماع جاءت كلها عبر تطورها الطويل كرد فعل لمشكلة النظام فى المجتمع • وربما كان هذا هو السبب فى اننى اتخذت من مفهوم النظام العام مدخلا أساسيا لعرض بعض الاتجاهات النظرية الكلاسيكية او المحدثة فى علم الاجتماع انطلاقا من اعتقاد مؤداه أن تطور الفكر السوسيولوجى يعتبر سلسلة من الطفرات

فى فكرة القهر الخارجى التى طورها توماس هوبز • والقول بأن علم الاجتماع قد ظهر وتطور كرد فعل لمشكلة النظام يجعلنا نستشعر تلك العلاقة الوثيقة بين الواقع الاجتماعى والنظريات التى تفسره • فكل نظرة هى انعكاس لواقع اجتماعى معين مهما كانت درجة التجديد فى هذه النظرية • ولكن ارتباط النظرية بمشكلة النظام لا تجعل النظرية انعكاسا لواقع اجتماعى فحسب ، ولكنها انعكاس لواقع مفكك او حتى مجموعة من الأفكار التى تفسر هذا الواقع على أنه يعيش عملية صراع أبدى • وهذه القضية تجعلنا نستشعر علاقة خفية بين نظريات علم الاجتماع والأيديولوجية • فالنظريات التى تنظر الى الواقع الاجتماعى من مفهوم النظام العام لا بد أن تكون نظريات ذات نزعة محافظة Conservative تتصور عناصر الواقع الاجتماعى فى تكامل وتفاعل مستمر ، وتضفى عليه طابع الاستقرار والثبات ، بحيث يتعالى هذا التكامل وذلك الاستقرار بالمجتمع الى حالة من التساند الوظيفى يعتبر فيها الصراع شيئا شاذا او تيارا منحرفا داخل المجتمع • ومن وجهة النظر هذه يظهر الاهتمام بمفاهيم معينة على حساب مفاهيم أخرى • فمن المفاهيم الشائعة فى علم الاجتماع الغربى مفاهيم السلطة ، والجماعة ، والمجتمع المقدس ، والعضوى ، والوظيفة(١٩) ، بينما تصاغ مفاهيم اخرى مثل الصراع والتغير فى اضيق الحدود •

ولعل هذا هو الذى دفع روبرب نيسبت الى أن يعتبر أن مفاهيم الجماعة Community والسلطة Authority والمكانة Status والاغتراب Alienation هى المفاهيم أو الأفكار الرئيسية Unit-ideas فى علم الاجتماع • بل أنه فضل أن يتخذ هذه الأفكار أو المفاهيم مدخلا لدراسة التراث السوسيولوجى(٢٠) • ان هذه الأفكار او المفاهيم لها صفة العمومية والاستمرار والتميز داخل علم الاجتماع كما أنها خلقت

---

(١٩) Alan Dawe, "The two Sociologies" in: Kenneth Thompson and Jeremy Junstall (eds.), **Sociological perspectives**, penguin Books, 1971, p. 542.

(٢٠) Robert Nisbet, **The Sociological Tradition**, Heinmann, London, 1971, p. 5.

مضـــايا أو مفـــاهيم مضـــادة Antithesis ففي مقـابل الجمـــاعة ظهـر مفهوم المجتمع ، وفي مقابل مفهوم السلطة ظهر مفهوم القـوة • وفي مقـابل مفهـوم المكانة ظهر مفهوم الطبقة ، وفي مقـابل مفهوم المجتمـع المقـدس ظهر مفهوم المجتمع العلماني ، أما مفهوم الاغتراب فهو يرتبط دائما بمفهوم التقدم(٢١) • وهـذا التضاد بين المفاهيم يعكس تضادا معرفيا بين ثلاثة ايديولوجيات سـادت في القـرن التاسـع عشر وأوائل القـرن العشرين الليبرالية ، والراديكالية ، والنزعة المحافظة وهي ايديولوجيات شـكلتها الظروف التي ترتبت على الثورة الفرنسية والثورة الصناعية(٢٢) • وهذه الظـروف بطبيعة الحـــال هي التي أحيت مشـكلة النظـام التي اثارها هـوبز وبالتالي شـــكلت كل الفـكر السوسيولوجي في القـرن التاسع عشر وحتى اليـوم •

وسوف نستفيض في هـذا الموضـوع في الفصل القادم ، وما يهمنـا الآن هو أن نناقش تلك القضية النظرية البحتة والتي تتعلق باتصـــال نظريات علم الاجتماع بمشكلة النظام العام في المجتمع وراى بعض علمـاء الاجتماع في هـذا الموضوع • الواضح أن علماء الاجتماع ينقسمون حـول هـذا الموضـوع • فبعضهم يقرر صراحة أن ظهور علم الاجتماع قـد تشكل حول مشـكلة النظـام • ولكن بعضـــهم يحـاول أن ينفي تهمـة التحيز الأيديولوجي التي ترتبط بهـذه المشـكلة • وبعضـــهم الآخـر يرى النظام العام قائم بالفعل وأن هـدف علم الاجتماع دراسته واستقصاؤه • ولا يزال هناك بعض العلماء الذين يرفضـون هـذه المشـكلة رفضـيا • وطبيعي أن يظهر هـذا الخلاف • فاذا كانت النظرية السوسيولوجية تتشكل بالضرورة من خلال الاطار الاجتماعي والايديولوجي ، فان معـالجة هـــذه النظريات أو محاولة تتبع تطورها لا بد وأن يطبع بالضرورة بالطابع الايديولوجي • وبنـاء على ذلك فاذا كان علم الاجتماع قـد تعرض مؤخرا لوجات نقدية ، فانه من الطبيعي أن يولد علم الاجتماع من داخله تيارات معاكسة لهـذه الحركة النقـدية • •

---

(٢١) Ibid., p. 7.
(٢٢) Ibid., pp. 9—10.

ربما كان رأى روبرت نيسبت فى هـذا الموضـوع هو الذى يصـور الحقيقة بموضوعية تامة • يقـول فى كتابه « التراث السـوسيولوجى » ، « يمكن فهم الأفكار الأساسية فى علم الاجتماع الأوروبى فهما جيـدا على انها استجابات لمشكلة النظام التى ظهرت فى بداية القـرن التاسـع عشر كنتيجة لانهيار النظام القـديم تحت تأثير نزعـة التصـفيح والديمقراطية الثورية • وهذه هى النتيجة الوحيدة التى يتوصل اليها الفرد عندما ينظر الى طابع الأفكار ، وطبيعة الأعمال التى ظهرت فيها هـذه الأفكار ، وعلاقة كل فـكرة وكل عمـل بالعصر الذى ظهر فيه • فالعناصر الفـكرية لعـلم الاجتماع ما هى الا انعكاس لنفس القوى والتوترات التى ادت الى ظهـور النزعة الليبرالية ، والاتجاه المحافظ ، والاتجاه الراديكالى »(٢٣) •

وتتضح من كلمات نيسبت تلك العـلامة الوثيقة التى تربط النظريات السوسيولوجية فى القرن التاسع عشر بالواقع المفكك للمجتمع الذى يحتاج الى نظام ، كما تتضح فكرة التحيز الأيديولوجى ، ولكن نيسبت قصر حديثه على علماء القرن التاسع عشر ، ولم يتطرق الى علماء القرن العشرين أمثال بارسويز والعلمـاء المحدثين ليربط بين مشروعـاتهم النظـرية أو الظـروف الاجتماعية والمعرفية التى أثرت عليهم ، وذلك جانب من المهمة التى لضطلع بها بحثى هـذا حيث يتم الكشف عن امتدادات مشـكلة النظام فى الفـكر السوسيولوجى المعـاصر •

ولكن بيرسى كوهن Cohen وشـاروك Sherrock يعتبران أن مشكلة النظام هى المشكلة الرئيسية فى النظرية السوسيولوجية ، ولكنهما ينفيان تهمة التحيز الأيديولوجى المرتبطة بهذه المشكلة ، على لختلاف منطلقاتهما فى هذا الصدد • يذهب كوهين الى انه بالرغم من أن الأفراد فى كافة المجتمعات يرغبون بالفعل فى النظام ، الا انه من الممكن الا يقبلوا أى قدر منه ، واننـا لا نستطيع أن نفهم عدم النظام الا فى ضوء النظام ذاته ، فالبحث فى المشكلة يلقى الضـوء على عدم النظام من وجوه عديدة(٢٤) • ففى نظر كوهن أن كل جانب من جوانب النظام ـ القهر ، التبادل ، التنبؤ ، الاتساق ، والاستمرار ـ

---

(٢٣) Ibid., p. 21.

(٢٤) Cohen, Modern Social Theory, op. cit., p. 18.

له جانبه المضاد . فالتبادل والتعاون والصراع والتعارض يمكن أن تظهر جميعها فى العلاقات الاجتماعية . واذا كان هناك اتساق واستمرار فى الحياة الاجتماعية فلا بد أن تكون هناك مجالات لعدم الاستقرار والصراع ناتج عن صراع المبادىء ، أو صراع بين ما هو متوقع وما هو ممكن . ولهذا فان الاستمرار والتغير سمتان أساسيتان للحياة الاجتماعية(٢٥) . ولذلك ففى تفسيره لنظريات النظام الاجتماعى العام ـ والتى حصرها فى نظرية القهر ، ونظرية المصلحة . ونظرية الاتساق العام ، ونظرية القصور الذاتى ـ اوضح أن أيا من هذه النظريات يمكن أن يفسر النظام وعدم النظام فى ذات الوقت(٢٦) .

والحقيقة ان موقف كوهن هذا ينبثق من وجهة نظر فى معالجة الواقع الاجتماعى ودراسة النظرية السوسيولوجية . فهو يدخل فى نطاق تلك الفئة من العلماء الذين حاولوا أن يربطوا بذكاء بين نظريات الصراع والتغيرونظريات التكامل والاجماع على القيم . وقد انعكس ذلك حتى فى معالجته للنظرية السوسيولوجية حيث انقسمت معالجته الى قسمين أحدهما يدرس النظريات الكلية والذرية ، والآخر يدرس التغير الاجتماعى ،واتجاهات هذا التغير ، وسوف نتعرض لآرائه بالتفصيل فى الفصل الخامس من هذا البحث .

أما شاروك Sharrock فيذهب الى انه ليس من الضرورى أن ينتهى الاهتمام بمشكلة النظام الى الاتجاه المحافظ ورفض دور كل من الصراع والقهر والخداع فى الحياة الاجتماعية . بل انه يذهب الى ابعد من ذلك حيث يقول : « .. ان هؤلاء الذين اهتموا بمشكلة النظام كانوا على وعى بالطبيعة الهشة والواهنة للنظام لاجتماعى ، وبالصورة التى تظهر بها القوة والخداع فى العلاقات الاجتماعية . وركز هؤلاء المنظرون على مشكلة النظام لأنهم شاهدوا ان حقائق الصراع والانقسام ومصادر كل منهما أكثر وضوحا فى المجتمع ، أما الشىء الناقص فهو طبيعة ومصادر هذه القوى التى تحد من استخدام القهر وتحتويه ، والتى يمكن عن طريقها تحقيق قدر من التضامن

---

(٢٥) Ibid., pp. 20—21.
(٢٦) Ibid., pp. 21—31.

والاستمرار والاتساق فى المجتمع »(٢٧) · فالقسر والخداع ـ وهما مصدر الصراع فى نظره ـ لا يفسران وحدهما طبيعة الحياة الاجتماعية · فمهما يكن فى المجتمع من صراع واسع النطاق ، فان اعضاءه يرتبطون بعضهم ببعض بطريقة أو بأخرى ، فالحياة الاجتماعية لا يمكن أن تستمر من خلال القسر وحده ، واذا ما افترضنا انها يمكن أن تستمر فانها سوف تؤدى بنا الى انحدار لا نهائى ، لان كل فرد يضطر الى ان يسلك حسب ما يرى فرد آخر ، الذى ينصاع بدوره لفرد آخر وهكذا الى ما لا نهاية »(٢٨) ·

ولكن رغم قوله هذا ، فانه عندما يتحدث بالتفصيل عن مشكلة النظام يكتفى بتوضيح الجوانب المتناغمة للحياة الاجتماعية ويكتفى بالقول بأن تفسيره ، للاتساق والاستقرار داخل المجتمع تفسيرا كافيا ، يعتبر أيضا تفسيرا للصراع والتغير ، لاننا اثناء تحديد الظروف التى من خلالها تستمر المجتمعات ، يفترض فى نفس الوقت انه اذا لم تستمر هذه الظروف فان المجتمع سوف يتغير »(٢٩) · واذا استعرضنا آراءه بالتفصيل يتضح لنا بجلاء موقفه الايديولوجى · فهناك ـ فى نظره ـ مجموعة من المشكلات يحلها الأفراد فيما بينهم ويتحقق من خلالها الاتساق والتضامن بين عناصر الواقع الاجتماعى · هذه المشكلات هى مشكلة المعنى ، ومشكلة الضبط ، ومشكلة الوحدة الاجتماعية · وكل مشكلة من هذه المشكلات تكشف عن مستوى معين من مستويات الواقع الاجتماعى · ففى مشكلة المعنى يكون التحليل على مستوى الفرد ، وفى مشكلة الضبط الاجتماعى يكون التحليل على مستوى الجماعة الصغيرة والتنظيمات الاجتماعية الأوسع نطاقا ، بينما يكون المجتمع ككل هو بؤرة الاهتمام عند مناقشة وحدة الحياة الاجتماعية ، على أن نعى (أو نحتفظ فى الذهن) بالترابط والتفاعل الوثيق بين هذه المستويات الثلاثة(٣٠) ·

بالنسبة لمشكلة المعنى نجد أن الأفراد يخبرون العالم الذى يعيشون فيه على أنه عالم محسوس له معنى · فأحداث الحياة ، والآخرون ،

---

(٢٧) W.W. Sharrock. "The Problem of order" in: Peter Worsley (ed.) Introducing Sociology, Penguin Books, p. 339.

(٢٨) Ibid., p. 340.

(٢٩) Ibid., p. 340.

(٣٠) Ibid., p. 341.

والموضوعات ، كلها اشياء يعيها ادراك الفرد • ومن ثم يسلك بطريقة ملوائمة • ولا يتم هذا الادراك بطريقة تعسفية ، ولكنه جزء من عملية التنشئة الاجتماعية والتعلم • ولا يدرك الفرد كل الأشياء بطريقة واحدة فادراكه لها ادراك انتقائى يعتمد على درجة معرفته بالشيء ، ومعلوماته عنه ، ومصالحه المرتبطة به • وادراك الفرد للعالم على هذا النحو يجعله قادرا على أن يزن الأمور لا شعوريا ، وان يجتاز المعضلات التى تعرضها عليه المواقف المختلفة ، ويستشرف آفاق المستقبل فى بعض الأمور التى تحدد أمامه بطريقة دقيقة • ويربط شاروك بين هذا الادراك للعالم واكسابه معنى وبين الثقافة ، فالوسائل التى يستخدمها الفرد لينظم خبرته فى انماط سلوكية تنبثق اساسا من ثقافة الجماعة • ومن هذه الوسائل واهمها على الاطلاق ، اللغة وما يرتبط بها من اشارات غير لفظية ومن رموز تعبيرية كالمظهر والملابس ، وملامح ولون البشرة ، وهى تسهل عملية الاتصال ، ومن هذه الوسائل المعتقدات التى يكتسبها الفرد خلال عضويته بالجماعة ، والقيم التى تجعل الفرد يفضل موقفا عن موقف آخر ويكون فكرة عن الخير والشر فى المجتمع الذى يعيش فيه ، والدين الذى يقدم تفسيرا معينا لعلاقة الانسان بالانسان وللأحداث اليومية وكلها اشياء من نتاج الوجود الجمعى • خلاصة القول أن الأفراد يحصون العالم من حولهم ويدركونه بطريقة خاصة ويخلقون من الأساليب الثقافية ما يجعلهم قادرين على السلوك داخله والتحكم فى مصيرهم وتحقيق الأهداف التى يلتمسونها(٣١) •

المشكلة الثانية التى يتحدث عنها شاروك هى مشكلة الضبط الاجتماعى فالأفراد لا يصنعون القرارات او يختارون البدائل جزافا ، ولكنهم يفعلون ذلك داخل اطار من القواعد يشاركون فيها الآخرين • وتطبيقها عليهم جميعا ومشاركتهم فيها هى التى تجعل سلوكهم قابلا للتنبؤ • ولكن تطبيق هذه القواعد لا يعنى الغاء الارادة الفردية • فحياة الأفراد فى المجتمع تتيح لكل منهم الحرية فى أن يتصرف وفق ارادته شريطة الا يخرق قواعد المجتمع ويتوافق الأفراد مع هذه القواعد لأنهم يتمثلونها من خلال عملية التنشئة

---

(٣١) Ibid., p. 341.

الاجتماعية ، كما انهم يخافون دائما من العقاب او الجزاء الذى يأخذ صورة سلبية · وهـذه القواعد هى التى تضفى طابع الاستقرار والاستمرار على العلاقات الاجتماعية وميكانزمات الضبط الاجتماعى هى التى تمنع الأفراد من مخالفة هذه القواعد أو الانحراف عنها·ويترتبط الخضوع لقواعد المجتمع بقضية الاجمـاع على القيم value Consensus فالاجماع العام على القيم يخلق نوعا من التكامل بين القواعد المختلفة التى تحكم سلوك الأفراد ، كما انه يزكى الشعور بالتضامن والوحدة بين الناس،فلدى الفرد دائما ميل لأن يرتبط بالأفراد الذين يشاركونه القيم ، فى الوقت الذى يبعد فيه عن الأفراد الذين تتعارض قيمهم مع قيمه وتتصارع معها · وهكذا تساهم القواعد وما يرتبط بها من مكانيزمات للضبط ، وما يرتبط بها من قيم فى تحقيق التكامل والقضاء على الصراع بين الأفراد·غير ان التكامل المطلق لا يمكن تحقيقه داخل المجتمع، فهناك مظاهر للانحراف عن القيم والمعايير والقواعد وذلك فى حالة ضعف هذه القواعد ، وضعف ميكانزيمات الضبط ، او سوء التنشئة الاجتماعية(٣٢) ·

وفى مناقشته لمشكلة وحدة المجتمع ينطلق أيضا من قضية الاجماع على القيم ولكنه هنا يناظر بينهما وبين نموذج الصراع على أسـاس أن هناك مجالات للاتفاق بينهما·فكلا من هذين الاتجاهين يهتم بمشكلة وحدة المجتمع، حيث يحاول كل منهما الاجابة على سؤال مؤداه : تحت أى الظروف يمكن أن تتحد المجتمعات وتستقر ، وتحت أى الظروف يمكن ان تتغير ، أو ينعـدم تكاملها ؟ والاختلاف بين النموذجين يتمثل فى الاجابة التى يقدمها كل منهما على هذا السؤال · حيث صاغ كل منهما مجموعة من الافتراضات عن طبيعة الانسان والمجتمع ، وانحدرت الآراء الباقية من هذه الافتراضات(٣٣) ويحاول شـاروك أن يستعرض نقاط الاختلاف والالتقاء بين هذين النموذجين ·

وما يهمنا الآن هو أن شـاروك ـ وان حاول الربط بين نموذجى الصراع والاجماع على القيم ليتصور الواقع تصورا مكتملا ـ الا أن حديثه المستفيض عن الضبط الاجتماعى يوضح انه يفضل حلا معينا لمشكلة النظـام هو ذلك القائم على الاجماع · كما أن اهتمامه بمشكلة المعنى ، وان كان يعكس اهتماما

---

(٣٢) Ibid., pp. 355—373.

...ومنولوجيا ، الا أن فهمه لمشكلة المعنى أو التركيب الاجتماعى Social Construction للواقع يرتبط ارتباطا كبيرا بقضية الاجماع العام على القيم.

هذه نماذج من آراء علماء الاجماع الذين يذهبون الى القول بأن نظريات العلم تلتف حول مشكلة النظام العام فى المجتمع • وهناك بعض العلماء الذين ينظرون الى مشكلة النظام من زاوية أخرى • بعضهم يرى أن النظام كامن فى الطبيعة بالفعل وأن مهمة علم الاجتماع تنحصر فى تفسيره ، وبعضهم الاخر يرى أن نظريات علم الاجتماع كلها لم تتمركز حول مشكلة النظام وانما هناك مشكلة اخرى هى مشكلة الضبط ، بينما يشكك بعض آخر فى وجود المشكلة فى المحل الأول •

يذهب الكس انكلز Inkles(٣٤) الى أن المشكلة الأساسية التى يعنى علم الاجتماع بدراستها هى تفسير طبيعة كل من النظام الاجتماعى والتفكك الاجتماعى • فثمة نظام كامن فى الطبيعة ، وعلم الاجتماع يسعى الى اكتشاف ووصف وتفسير النظام الذى يميز الحياة الاجتماعية للانسان وحينما نتناول النظام فاننا نقصد أن الأحداث تتم فى شكل تتابع منتظم بحيث يمكننا صياغة أحكام قابلة للتحقيق الامبيريقى حول علاقة حادثة بحادثة أخرى عند نقطة معينة من الزمن وتحت ظروف محددة • فالأفراد فى حياتهم اليومية يقومون بملايين الأفعال الاجتماعيه حول تفاعلاتهم اليومية ، وذلك الكم الهائل من الأفعال لا يؤدى الى الفوضى أو الاضطراب ، بل يؤدى الى ظهور ضرب من النظام ، ذلك النظام الذى يمكن الفرد من أن يحقق اهدافه دون تداخل حدوث ذلك وكيف يؤدى التنسيق بين الأفعال المتنوعة الصادرة من الأفراد الى تحقق الحياة الاجتماعية واستمرارها •

والاهتمام بمشكلة النظام (التى حلت بالفعل فى نظر انكلز) لا يقودنا الى الزعم بأن عالم الاجتماع لا يهتم بدراسة اعراض التفكك الاجتماعى ، فليس هناك نسق اجتماعى يؤدى وظائفه فى انسياب كامل • ومن الأمور الجوهرية فى الحياة الانسانية ان البعض قد لا يستطيع الالتزام بالمعايير ، وان

---

(٣٣) Ibid., p. 374.

(٣٤) الكس انكلز ، **مقدمة فى علم الاجتماع** ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وزملائه ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٤ ، صص ٦٨ ـ ٧٢ •

البعض الآخر قد لا يتمكن من تحقيق أهدافه ، وتشهد المجتمعات دائما فترات اضطراب وحروب أهلية وعنف وارهاب وجريمة وتفكك عام ، وكل هذه المظاهر تمثل خرقا للنظام الاجتماعى القائم . فهناك قوى على المستوى الاجتماعى والفردى تسهم فى احداث النظام والاستقرار ، وأخرى تسهم فى أحداث التفكك والصراع . ويبدو أن لدى الناس ميلا شخصيا أو فلسفيا لرؤية العالم المحيط بهم من أحد منظورين ، لما أن يكون العالم فى حالة فوضى أو تفكك بحيث يتعين عليه أن يناضل من أجل تحقيق قدر من النظام ، ولما أن يكون فى حالة نظام ولكنه خاضع لتهديد التفكك . « أما وجهة نظرى فى هذا الموضوع فهى أن النظام يمثل طرفا أساسيا للانسان ، وبدون قدر من النظام لا يستطيع الانسان الاستمرار فى البقاء ويرجع تفكك بعض المجتمعات الى اخفاقها فى حل مشكلة النظام »(٣٥) .

أما الن داو [illegible] (٣٦) فيقرر أن القول بأن مشكلة النظام العام هى البؤرة التى التف حولها علم الاجتماع أصبح من كلاسيكيات العلم . ورغم ذلك لا يرفض داو هذه الفكرة رفضا مطلقا ولكنه يجيزها بالنسبة لجانب معين من النظرية السوسيولوجية هو نظرية النسق . « ففكرة القهر الخارجى هى التى ربطت علم الاجتماع بمشكلة النظام ، وانتج هذا الارتباط منظورا خاصا داخل علم الاجتماع ، والمناسب أن نطلق عليه نظرية الاتساق . ويكمن جوهر فكرة القهر الخارجى فى ان الأفراد لا يستطيعون أن يحافظوا على النظام بمحض ارادتهم ، ومن ثم فان القهر ضرورى لكى يوجد المجتمع ، وبدونه يكون الاحتمال المطروح هو حرب الكل ضد الكل . وبناء على ذلك فان المجتمع يجب أن يحدد المعانى الاجتماعية ، والعلاقات الاجتماعية ، وسلوك أعضائه .. بمعنى آخر يجب أن يكون مكيفا ذاتيا ومحافظا على ذاته »(٣٧) .

ولكن هناك داخل التراث السوسيولوجى ، وما يزال الكلام لآلان داو ، نظرية الفعل الاجتماعى . لقد كانت هذه النظرية نتاج مشكلة أخرى خلاف مشكلة النظام هى مشكلة الضبط . فتلك الأخيرة ولدت مفهومين

---

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٣٦) Alen Dawe, "The two Sociologies" op. cit., pp. 542—552.

(٣٧) Ibid., p. 543.

عامين استطاعت من خلالهما أن تخلق علم اجتماع مميز على المستوى النظرى والموضوعى • المفهوم الأول يطلق عليه آلان داو مفهوم المعنى المركزى Central meaning وهو يتجسد فى علاقة المعنى بالمواقف التاريخية الفعلية ، حيث تجمع العلاقة مجريات الفعل فى انساق للمعنى • فمحاولة اضفاء معنى على الواقع تمثل محاولة من جانب الفاعل لأن يخبر المواقف التى يمر بها فى ضوء معنى عام • أما المفهوم الآخر فهو مفهوم الضبط Control وهو يرتبط بمفهوم الاطار المرجعى للفعل كمفهوم تحليلى بنفس الدرجة التى يرتبط بها مفهوم النظام بالاطار المرجعى للنسق الاجتماعى • فمن ناحية نجد ان داو يضيف بعد الفعل الى بعد المعنى • فلكى نتحكم (تضبط) فى موقف معين يجب أن تضفى عليه معنى من خلال السلوك داخله : ومن ناحية أخرى فانه يضيف بعد التفاعل ، أو العلاقة بين الفاعلين : فلكى نتحكم (تضبط) موقفا معينا لا بد أن نفرض تعريفا محددا للموقف على الفاعلين الآخرين داخل الموقف • بذلك يكون مفهوم الضبط الاجتماعى يشير الى العلاقات الاجتماعية التى لا يمكن ارجاعها الى الأفراد او أفعالهم الفردية ، وهى تعمل على تكامل الفاعلين فى داخل انساق للتفاعل(٣٨) •

بناء على ذلك يكون هناك داخل علم الاجتماع قدر من الاستقطاب بين نظريتى او علمى اجتماع Two Sociologies ـ على حد بعبيره ـ احدهما خاص بالانساق والآخر خاص بالفعل الاجتماعى ، ويرتبطان بمشكلتين مختلفتين النظام والضبط • ويبدو الاستقطاب او الصراع بين ماتين النظريتين فى ان لكل منهما تصورا خاصا للطبيعة البشرية ، والمجتمع والعلاقة بين الفرد والجماعة • تؤكد الأولى ضرورة القهر الخارجى ، والثانية تؤكد فكرة الانسان المستقل القادر على ان يصنع مجتمعه بنفسه • ويذهب الن داو الى ابعد من ذلك حيث يقرر ان علم الاجتماع قد تطور من خلال الصراع بين ماتين النظريتين • ويمكن تلمس هذا الصراع فى أفكار جهابذة علم الاجتماع ؛ ففى افكار دوركايم مثلا يتبدى هذا الصراع فى تبريره للنزعة الفردية الرشيدة ثم احترامه للقيم الجمعية ، وفى أفكار بارسونز ـ اذا شئنا مثالا آخر ـ فى

---

(٣٨) Ibid., p. 549.

تغير آراء بارسونز من تأكيد العلاقة الخلاقة بين الأفراد والقيم فى عمله الأول الى العلاقة الايجابية المتكيفة فى أعماله الأخيرة(٣٩) ٠

الواقع أنه لا بد من التعقيب على آراء الن داو لما لها من طابع خاص ، ولأنها تعارض الفكرة التى تقود تفكيرنا فى هذا البحث والخاصة بالتفاف نظريات علم الاجتماع حول مشكلة النظام ٠ يفصل داو بين النظام والضبط ويربط الضبط بمشكلة المعنى ٠ ولكن هذا الفصل لا يمكن أن نقره ٠ ولو استعرضنا آراء شاروك السالف عرض جزء منها لاتضحت لنا تلك العلاقة التى تربط بين مفهوم المعنى ومفهوم الضبط ومفهوم النظام ٠ ثم ان فكرة الضبط التى يربطها داو بنظرية الفعل هى أكثر الأفكار ارتباطا بالنظام من حيث أن الضبط يولد من الميكانزمات ما يحقق تكامل الجماعة واستقرارها ، حقيقة أن داو يفهم الضبط فهما خاصا يرتبط لا شك باهتمامات فينومينولوجية ، ولكن أيا كان مفهوم الضبط فانه يهدف فى النهاية الى تحقيق التكامل ٠ وسوف نرى من استعراضنا لنظريات علم الاجتماع التى تسعى لتحقيق التكامل والاستقرار أن مفهوم الضبط يعد أحد المفاهيم الهامة فى الأطر النظرية التى تقدمها ٠ فضلا عن ذلك فان الفصل بين نظرية الفعل ونظرية النسق هذا فصل تعسفى ، ذلك لأن نظرية الفعل تكون الأساس أو البؤرة التى تلتف حولها نظرية النسق(٤٠) ٠ وحتى لو افترضنا ـ تجاوزا ـ هذا الفصل بين نظرية الفعل ونظرية النسق ، فانه لا يمكن أن يتم على مستوى فكر الباحث للفرد ، على ما يذهب الن داو ٠ فالحقق أن فكر كل باحث يعتبر سلسلة متصلة الحلقات ، ففكر دوركايم عن النزعة الفردية لا يمكن أن ينفصل عن آرائه فى القيم الجمعية ، والنظرية الطوعية عند بارسونز لا يمكن أن ينفصل عن نظرية النسق ٠ واذا كانت فكرة داو تثير جدلا كبيرا وتفتح الطريق أمام محاولات لتاريخ الفكر السوسيولوجى على أسس جديدة ، فانها لا تجب الفكرة الرئيسية المأخوذ بها فى هذا الحديث ، وأعنى الارتباط بين نظريات علم الاجتماع ومشكلة النظام العام فى المجتمع ٠

---

(٣٩) Ibid., pp. 551—552.

(٤٠) الفعل الاجتماعى هو أساس يمكن أن تلتف حوله أى نظرية فهو مؤشر على سلوك الجماعة الذى تحاول النظرية أن تفسره ، والاختلاف بين النظريات كامن فى تفسير طبيعة الفعل الاجتماعى ٠

وربما تكون وجهة نظر انتونى جيدنجز أكثر تشددا من رؤية الن دلو ، وهو يذهب فى مؤلف حديث(٤١) الى أن القول بأن علم الاجتماع قد التف حول مشكلة النظام يعد ضربا من ضروب الخرافة (يتحدث جيدنجز هنا عن اربع خرافات شاعت فى تاريخ الفكر الاجتماعى هى القول بارتباط علم الاجتماع بمشكلة النظام ، وبالأصول المحافظة لعلم الاجتماع ، ثم ما اسماه بخرافة الانقسام الكبير The great divide بين الفكر التأملى والفكر العلمى ، واخيرا القول بأن مشكلة النظام قد شغلت فقط العلماء المهتمين بالتكامل دون اولئك المهتمين بالصراع .

والواضح أن ثلاثة من الخرافات التى يتحدث عنها جيدنجز تتصل بالموضوع الذى نعالجه فى هذا الفصل ، ان لم تكن جميعها . فعرضنا للخرافة الأولى الخاصة بمشكلة النظام والتى يتحدث عنها جيدنجز لا بد وأن يلمس بشكل أو بآخر الخرافات الأخرى . يذهب جيدنجز الى القول بأن بارسونز الذى روج لارتباط نشأة علم الاجتماع بمشكلة النظام ـ قد اساء فهم آراء دوركايم عندما ذهب الى أنه (دوركايم) قد وجد أن حل هوبز لمشكلة النظام غير كاف من حيث أنه لا يضمن العقد بعض الجوانب غير التعاقدية (القيم والمعايير) . فنقد دوركايم للمذهب النفعى utilitarianism لم يكن ـ والحديث لجيدنجز ـ المحرك الأول لأعماله بحيث يمكن القول بأنه قدم حلا لا نفعيا للمشكلة ، وانما تتضمن أعمال دوركايم أيضا نقدا لوجهة النظر المثالية التى تفترض أن للنظام يشتمل على معايير أخلاقية(٤٢) .

ويحاول جيدنجز هنا أن ينفى تهمة البداية المحافظة لعلم الاجتماع على يد دوركايم ، من خلال ابرازه لقضية مؤداها أن دوركايم لم يناصر أيا من الاتجاهات الفكرية (الايديولوجية) التى كان لها تأثير فى القرن التاسع عشر (الليبرالية ، والراديكالية ، والنزعة المحافظة) . فلم يكن دوركايم معاديا للنفعية ـ الليبرالية بحيث انتهى به الأمر الى وضع المجتمع قبل الفرد

---

(٤١) A. Giddens, Studies in Social and Political Theory, Hutchinson of London. Paperback edition, 1979.

(٤٢) Ibid., pp. 210—211.

والى الحاجة الملحة الى السلطة ، وانما كان يسعى الى تقديم صورة للفردية غير الأنانية ، وهى الفردية الأخلاقية Moral Individualism التى تعد من خلق المجتمع وهى نتيجة لعملية طويلة من الارتقاء الاجتماعى(٤٣)·وذهب دوركايم ـ على عكس ماذهب المحافظون ـ انه لايمكن استرجاع النظام الأخلاقى الذى ساد فى عصور سابقة · ورغم أن دوركايم لم يكن اشتراكيا الا انه تأثر بسان سيمون (وهو المصدر الذى استقى منه كل من ماركس وكونت) ، وتأثر أيضا ببعض الاشتراكيين الاكاديميين الألمان من أمثال شمولر Schmoller وفاجنر Wagner وشافل Schaffle كما تأثر بكانت Kante والكانتية الجديدة الى درجة انه يمكن القول بأنه اذا كان هناك خط عام فى تفكير دوركايم فانه ينحصر فى المشكلة الكانتية المتعلقة « بالمطلب الأخلاقى » Moral Imperative وليست مشكلة النظام(٤٤) فلقد كان المطلب الأخلاقى مهما فى ظروف المجتمع الفرنسى الذى انتشرت فيه الحركات الثورية على عكس المجتمعات الأوربية الأخرى (خاصة ألمانيا وبريطانيا) وقدم دوركايم فكرة الفردية الأخلاقية كحل لهذه المشكلة الكانتية ، وتجاوز بتقديمها كل الاتجاهات الأيديولوجية السائدة فى عصره · فاذا كان دوركايم قد اتخذ اتجاها نقديا من المذهب النفعى ـ على ما ذهب بارسونز ـ فانه قد اتخذ نفس الاتجاه من الاشتراكية والمذهب المحافظ · وينتهى جيدنجز من تحليله الى أن دوركايم لم يكن منشغلا بمشكلة النظام ، وانما كان يود التوفيق بين النظام والتغير فى صياغته لفكرة الفردية الأخلاقية · واذا كانت فكرة النظام موجودة أيضا فى أعمال ماركس (النظام عنده نابع من استخدام القهر) فان مشكلة الانقسام بين النظريات السوسيولوجية (نظريات التكامل ونظريات الصراع) تصبح زائفة ·

يبدو أن جيدنجز يتحدى هنا نيسبت وجماعات النقاد المحدثين ويشكك فى تفسيراتهم التى تذهب الى أن علم الاجتماع قد التف حول مشكلة النظام · غير انه لم يوفق الى حد كبير فى تبرير وجهة نظره · وهو

---

(٤٣) Ibid., p. 216.

(٤٤) Ibid., pp. 215—216.

من ناحية يشير الى ان الخرافة التى يتحدث عنها ـ مثلها مثل اى خرافة ـ تتضمن قدرا من الصدق ولكى نفهم العلاقة بين علم الاجتماع ومشكلة النظام يجب أن نربط علم الاجتماع بالتطور السياسى الاجتماعى لأوربا فى القرن التاسع عشر • وهذا ـ كما سيتضح لنا من هذه الدراسة ـ هو ما فعله النقاد بالضبط • ومن ناحية أخرى ، فان جيدنجز قد بدأ الحديث عما أسماه بخرافة مشكلة النظام بنقد لفهم بارسونز لدوركايم ، ثم انتهى من تحليله الى تأكيد فكرة « الفردية الأخلاقية » التى تعد توفيقا بين المذهب الجمعى والمذهب المحافظ ، أو ادخال بعض العناصر غير التعاقدية المرتبطة بالقيم والمعايير على المذهب النفعى على ما ذهب بارسونز • وعلى أى حال فلنا أن نؤكد هنا ما سبق أن أكدناه من أن رأى جيدنجز هذا يعكس بجلاء كيف يمكن أن تتأثر معالجة النظرية السوسيولوجية نفسها والتاريخ لهذه النظرية بالأيديولوجية حتى وان كان الباحث ينكر ذلك •

رابعا : مشكلة نظام ام مشكلة صراع :

اذا تساءلنا عن السبب الذى من أجله أطلق العلماء على هذه المشكلة مشكلة النظام لوجدناه كامنا فى حقيقة أساسية مؤداها أن النظام العام ـ بكل عناصره التى وردت فى هذا الفصل ـ هو الشىء المنشود أو المرغوب فيه من جانب هؤلاء العلماء ، فالنظام العام هو لب المشكلة بالنسبة لهم • وتنحصر مشكلة النظام فى سؤال اساسى مؤداه : كيف يمكن التخلص من حالة الاضطراب والصراع اللذين تفرضهما الطبيعة على الانسان ذى الغرائز المتعددة الذى يحاول دائما أن يشبع رغباته على حساب الآخرين ؟ وتكشف صياغة السؤال عن أن هناك جوانب من الواقع الاجتماعى يود أصحاب هذه المشكلة أن يتخلصوا منها ، أو يهملوها أو يتصوروا ان الواقع الاجتماعى يمكن أن يتوصل الى مرحلة يتخلص فيها من هذه الجوانب ويطرحها جانبا ، وتنحصر هذه الجوانب فى عمليات الصراع المستمرة وعمليات التغير المستمر داخل المجتمع • والحقق أن هذه الرؤية تكشف عن تحيز واضح ، فالعلماء الذين يجعلون من مشكلة النظام بؤرة اهتمام ، يفسرون الواقع الاجتماعى بطريقة متحيزة : فهم يبرزون عناصر النظام على سائر حقائق الموقف الاجتماعى ، ويهملون العناصر الأخرى الخاصة بالصراع والتغير •

فالسعي نحو النظام يعني تقليل الصراع أو محاصرته ، ويعني ايضا الحد من التغيرات الاجتماعية التي يعتقد انها تتولد من خلال الصراع او تعمل على توليده · فالأشياء والنظم والمعايير كلها غير قابلة للتغير ، والمجتمع في النهاية بناء ثابت يوفر لنفسه عناصر بقائه واستمراره · انه بناء يحقق قدرا كبيرا من التوازن والاستقرار · اما مظاهر عدم التوازن وعدم الاستقرار التي تنشب من خلال الصراع بين جماعات المجتمع وافراده من خلال التنافس على قوى الانتاج ، أو التنافس على السلطة او حتى من خلال الصراعات الفكرية والايديولوجية ، هذه المظاهر ليس لها مكان في المخطط النظري الذي يقدمه أصحاب مشكلة النظام ، ومن هنا القول بأن نظرياتهم متحيزه ·

ويتضح هذا التحيز بجلاء عندما نرى ان اعمال علماء الاجتماع الغربيين ونشاطهم الفكرى لم تنفصل عن التيارات الفكرية والأخلاقية السائدة حولهم فالتطورات الكبرى في علم الاجتماع قد تمت أثناء ازمات سياسية أو اقتصادية كانت المجتمعات الغربية تمر بها · فلقد أفرزت هذه الأزمات السياسية والاقتصادية صراعات فكرية وبنائية ، وكان على علماء الاجتماع أن يقدموا لمجتمعاتهم صياغة نظرية تمكنها من تخطي هذه الأزمات · ولما كانت هذه الصياغات النظرية مشروطة بالتغلب على عناصر الصراع في المجتمع ، فانها لا بد أن تكون صياغات متحيزة في صف النظام الذي يعد امرا مرغوبا فيه في نظر هؤلاء العلماء · ويدعونا هذا الى القول بأن علماء الاجتماع قد حولوا معالجة مشكلة النظام من المستوى الفلسفي الذي صاغها من خلاله توماس هوبز(٤٥) الى المستوى الواقعي (أو الامبيريقي) · فنجدهم في أوقات الأزمات السياسية والاقتصادية يقدمون الصياغة النظرية التي تعيد الى المجتمع توازنه واستقراره ، وبعد أن يحقق المجتمع هذا التوازن وذلك الاستقرار فانهم يوجهون صياغاتهم النظرية نحو المحافظة على التوازن ونحو تحقيق التكامل بين عناصر

---

(٤٥) رغم أن هوبز يعد من غلاة المحافظين ، ومن المدافعين عن النظام القائم ، الا اننا هنا نود أن نفرق بين معالجته للمشكلة ومعالجة علماء الاجتماع لها · لقد كان هوبز فيلسوفا وله أن يتخذ اى اتجاه مهما كان متحيزا ، أما علماء الاجتماع فمهمتهم الأساسية دراسة الواقع ·

الواقع الاجتماعى وذلك من خلال اهتمامهم المفرط بالعلاقات المتبادلة بين النظم ، وبضرورة التزام الأفراد والجماعات بالمايير والقيم • ولا شك أن العلاقات المتبادلة بين أجزاء الواقع والاتفاق على القيم يخلق التزاما بمقاومة التغيرات التى تهدد النظام القائم حتى ولو كانت هـذه التغيرات نابعة من قيم عليا مثل الحرية والمساواة والعدالة(٤٦) •

ولا شك أن هذا التحيز الأيديولوجى هو الذى يدعونا الى رفض مشكلة النظام كمشكلة أساسية فى العلوم الاجتماعية • أننا هنا نود أن نبرز مشكلة أخرى ، واعنى مشكلة الصراع • ولقد ظل علماء الاجتماع الغربيون ـ بداء من كونت وحتى بارسونز ـ ينحازون فى صف الاتجاه المحافظ لأنه يخدم قضية النظام • ولا شك أن التركيز على جوانب النظام والتناغم بين عناصر الواقع قد جعلهم يسعون بطريقة مقصودة نحو محاصرة الاتجاه الآخر الذى يتخذ من دراسة الصراع نقطة انطلاق • فعلم الاجتماع يحوى فى داخله ـ ومنذ نشأته ـ يحوى كلا الاتجاهين • طور الاتجاه الأول المرتبط بالنظام اوجست كونت ، وطور الاتجاه الثانى المرتبط بالصراع كارل ماركس • غير ان تطور علم الاجتماع فى ارتباطه بمشكلة النظام قد جعله يهمل الاتجاه الآخر المرتبط بالصراع ، بل ويسعى ـ فى الكثير من الأحيان ـ الى تزييفه او نقده وحذفه نهائيا من الصياغات النظرية • ولقد تعرض علم الاجتماع فى صورته المرتبطة بالنظام للنقد واصبح متهما بالتواطؤ مع الدولة من اجل قهر الانسان • وتطوير علم الاجتماع وتخليصه من أزمته الراهنة لا يمكن أن يتم الا اذا تخلى العلماء عن مشكلة النظام كمشكلة أساسية وفريدة يدور حولها البحث السوسيولوجى ، وفى نفس الوقت لا بد ان يتم تطوير الجوانب التى اتخذت من الصراع محورا اساسيا ، لأن تطويرها والاهتمام بها سوف يعيد للانسان حريته التى افتقدها فى الكثير من مجتمعات العالم • ويدعونا هـذا الى ضرورة تحويل مسار علم الاجتماع ـ نظرياته وبحوثه ـ نحو الاهتمام بمشكلة الصراع : كيف يكون الصراع الاجتماعى ممكنا ؟

---

(٤٦) A. Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology Heinmann, London, New Delhi. 1971,p. 252.

ولا تعنى تسمية المشكلة بمشكلة الصراع ان الصراع شيء ابدى ، او انه يسود كل انماط العلاقات الاجتماعية • ولكن هناك مجموعة من المبررات تجعل من ابرز مشكلة الصراع موضوعا حيويا :

١ ـ ان الصراع هنا يعنى الصراع الذى يسعى الى اعادة توزيع السلطة بطريقة عادلة أو الذى يسعى الى تحقيق العدالة الاجتماعية • فالوجود ليس سوى عملية صراع من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية ، والصراع هو البعد الواضح للتعامل فى عملية السعى المستمر نحو خلق نظام جديد •

٢ ـ يترتب على هذا اننا نستطيع ان نحلل من خلال قضية الصراع ، قضية النظام • فمشكلة النظام تنشأ بناء على تصور الواقع على أنه « حرب الكل ضد الكل » اى أنه واقع يخبر عمليات غير منظمة من الصراع ، الأمر الذى يفرض ضرورة قيام نظام بين عناصر هذا الواقع• ووجهة النظر التى تنطلق من مفهوم الصراع لا ترفض هذا ، ولكنها تضع شروطا لنوعية النظام الذى يجب أن يقوم • وهنا تكمن نقطة الخلاف بينها وبين وجهة النظر التى تنطلق من مفهوم النظام • فتلك الأخيرة تلح على ضرورة قيام النظام على الاتفاق العام حول مجموعة من القيم والمعايير بصرف النظر عن التفاوت الطبقى بين أفراد المجتمع • والنظام هنا نظام غير عادل يمنع بعض افراده الحرية التامة فى استغلال الآخرين والسيطرة عليهم • أما وجهة النظر التى تنطلق من مفهوم الصراع فانها تشترط لقيام النظام أن يكون نظاما عادلا تختفى فيه مظاهر الطبقية والاستغلال • فهى تريد ان تتجاوز النظام بالمفهوم الأول (النظام القائم على الاتفاق) لتخلق نظاما جديدا أكثر حرية وعدالة ، ولتحقيق هذا لا بد من ابراز جوانب الصراع التى يعرفها هذا النظام والتى تطمسها نظرية الاتفاق ، وذلك فى عملية السعى نحو خلق النظام الجديد•

٣ ـ وأكثر من هذا فان التركيز على مفهوم الصراع يتيح لنا ان نتناول أشكالا أخرى من النظام غير ذلك الشكل القائم على الالتزام بالمعايير • فمن خلال تصور اى نظام اجتماعى على انه يحوى عمليات مستمرة ومتنوعة من الصراع يمكن ان يمتد التحليل الى اشكال اخرى من النظام غير ذلك النوع

القائم على الالتزام بالمعايير(٤٧) . فمن الممكن التمييز بين النظام العام ـ كضرورة اجتماعية تفرضها طبيعة الوجود الانسانى ذاته ، وهو نظام يحوى عناصر صراعية مستمرة تمتد عبر مستويات متعددة تبدأ من جزئيات النظام وتنتهى بكلياته ، وبين النظام العام كجبرية سياسية محددة تاريخيا ، وهذا النظام تفرضه طبقة اجتماعية محددة تعمل على الحفاظ على وضعيته العامة والعامة من خلال ميكانيزمات متعددة للضبط الاجتماعى ومن خلال تطويع الصراع عن طريق نقله الى مستويات دنيا بحتة باستخدام أدوات ثقافية (وسائل الاعلام على سبيل المثال) وبين نوع ثالث من النظام هو النظام المثالى الذى تفرضه سلطة دينية أو قبلية من خلال عزل المجتمع عن التيارات الخارجية والقضاء على أى بادرة صراع عبر كل المستويات البنائية الجزئية والكلية على حد سواء ، وبين نوع رابع هو النظام القائم على فرض السلطة العسكرية التى تكبح أى مظهر للصراع من خلال أساليب بوليسية واعلامية متعددة . وتدل هذه الأشكال على أن للنظام العام أشكالا وألوانا تجعله يختلف باختلاف الفترات التاريخية ، وباختلاف الاطار المكانى الذى ينشأ فيه . وهو على اختلاف أنواعه يمثل رد فعل لمشكلة اكبر وأضخم وأعنى مشكلة الصراع .

---

(٤٧) يستلزم ذلك بطبيعة الحال تطوير التصور الماركسى عن الصراع المرتبطة بالنمط الرأسمالى فقط ، والامتداد به ليشمل أى نظام اجتماعى مهما كانت هويته . حقيقة أن ماركس اهتم بأنماط أخرى من المجتمعات (النمط الاقطاعى والنمط الآسيوى على سبيل المثال) ، غير انه اهتم اهتماما بالغا بالنمط الرأسمالى على أنه النمط الذى يبلغ فيه الصراع الطبقى ذروته ومع وجود أشكال أخرى من النظام غير النظام الرأسمالى ، ومع نجاح النظام الرأسمالى فى امتصاص الكثير من الصراعات التى تصورها ماركس ، ومع نشأة أنماط جديدة من الصراع داخل هذا النظام ، مع كل هذا تصبح ضرورة تطويع التصور الماركسى للصراع أمرا ضروريا . وهى نقطة اكدها الراديكاليون من أصحاب الفكر السوسيولوجى على ما سنرى فى القسم الثانى من هذا البحث .

الفصل الثانى

علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر

بداية التجسيد الإيديولوجى لمشكلة النظام

مقـــــدمة :

يحاول هـذا الفصل الربط بين الفكر السوسيولوجى والواقع فى القرن التاسع عشر بمعنى محاولة استقصاء العلاقة بين التحولات البنائية والفكرية وبين ما قدمه علماء الاجتماع تجاه هـذه التحولات ونحن اذ نفعل ذلك فاننا ندرس رد فعل علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر تجاه مشـكلة النظام العام • فالتحولات البنائية هذه خلقت حالة من القلق لدى الكتاب المحافظين لأنهـا هددت دعائم النظام القائم داخل مجتمعاتهم • ومن ثم صـبوا من افكارهم ما يضفى عليه طابعا متوازنا قائما على روح الجماعة دون الفرد • ولقد تأثر علماء الاجتماع ـ خاصة فى فرنسا ـ بما كتبه المحافظون فى وقت كانت التحولات البنائية فى المجتمع الأوروبى لا تزال قائمة نصب أعينهم • ومن جماع الاثنين كون علماء الاجتمـاع فى القـرن التاسـع عشر آراءهم ونظرياتهم ، ومن خلال الانشغال بمشكلة النظام والميل الى المذهب المحافظ دون المذاهب الأخرى جاءت بداية علم الاجتماع بداية محافظة بالضرورة •

لهذا فسوف يسير هذا الفصل على النحو التالى : نقـدم فى البداية عرضا للجذور البنائية والفكرية لعلم الاجتماع فى القـرن التاسـع عشر • ونعقب ذلك باستعراض بعض آراء كونت ودوركايم وفيبر محاولين قـدر استطاعتنا أن نكشـف منها بعض عناصر النظام الاجتماعى العام الذى فسرنا مفهومه فى الفصـــل الأول • وكيف كانت آراؤهم رد فعل لأزمة الأحـداث والتحديات التى تشكلت من خلال التغيرات فى النظام الاجتماعى العام • فمهما تكن افكار هؤلاء العلماء محايدة فى نظر العالم أو المنظر ، فانها لا يمكن

أن تنفصل عن اصولها الأخلاقية والصراعات الفكرية والسياسية على نحو ما يقول نيسبت(١) ٠

ولهذا فاننا سنشير دائما فى اثناء الحديث عن هؤلاء العلماء الى علاقتهم بالتيارات الفكرية القائمة سلبا او ايجابا فى حوار يدور على ثلاثة مستويات متفاعلة نعيد تاكيدها :

١ ـ مستوى الفكر السوسيولوجى المجرد والموجه نحو فهم الواقع ٠

٢ ـ مستوى الواقع الأمبيريقى الذى يفسره هذا الفكر ٠

٣ ـ التيارات الفكرية والأيديولوجية التى تغلف هذا الواقع وتكون اساسه الفوقى ٠

اولا ـ الجذور البنائية والفكرية لعلم الاجتماع فى القرن التاسع عشر :

كثيرا ما يوصف علم الاجتماع بانه « علم الأزمة »(٢) ٠ ويعكس هذا الوصف جانبا كبيرا مما نريد أن نستخلصه من هذه الفقرة ٠ ويعنى ذلك انه ظهر من خلال الأزمات الثقافية والاجتماعية التى صاحبت اختفاء النظام القديم وظهور الراسمالية الصناعية ، والتى صاحبت نشأة تيارات سياسية جديدة ثائرة على النظام القديم ٠ واختفاء النظام القديم وظهور التيارات السياسية الجديدة الثائرة على النظام يشير الى تحولات اقتصادية وسياسية لم تتم فى فراغ ، وانما اتكتها ثورتان غيرتا وجه اوروبا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وما يزال تاثيرهما عالقا بالفكر السياسى والاجتماعى والاقتصادى وما يقابل ذلك من مستويات امبيريقية حتى يومنا

---

(١) Robert Nisbet. Sociological Tradition, op. cit., p. 19.
ويذهب نيسبت الى ابعد من ذلك حيث يسم هؤلاء العلماء وغيرهم من علماء القرن التاسع عشر بانهم فنانون ٠ فافكارهم لم تكن حلا علميا لمشكلات بعينها ولكنها كانت نتيجة لعمليات فكرية مثل التخيل ، والرؤية ، والحدس بحيث تحوى الجانب العملى والفنى على حد سواء ٠ لقد تاثر كل منهم بافكار معينة سابقة عليه ثم صاغ افكاره بطريقته الخاصة ٠ وهذا فى نظر نيسبت ما يفصل بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية من حيث ان الأخيرة تعكس التراكم الذى يضيف فيه العالم دون أن يردد نظريات سابقية ٠ المرجع السابق ص ٢٠ ٠

(٢) Bottomore, Sociology as Social Criticism, George Allen and Unwin Led., London, 1975, p. 13.

هذا : الثورة الصناعية والثورة الفرنسية • فقد كانت التغيرات التى احدثتها كل ثورة من هاتين الثورتين عنيفة الى حد بعيد • فكل منهما ذات طبيعة فجائية ، واحدثت هذه الطبيعة الفجائية تناقضا بين القديم والجديد او بين الحاضر والماضى بحيث يمكن ان نقول ان ايا من هاتين الثورتين يعد أسطورة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى(٣) •

بالرغم من أن الثورة الصناعية كانت ثورة انجليزية فى المحل الأول ، الا ان تأثيرها كان ضافيا على أوروبا كلها • فقبل أن تنتشر كلمة « الثورة الصناعية » نفسها كان المفكرون فى المانيا وفرنسا يتحدثون عن النزعة الفردية — التى أذكتها الثورة الصناعية — والتى أدت الى قلب المجتمع الانجليزى رأسا على عقب • كما أن كتاب آدم سميث Smith الثروة عام ١٧٧٦ قد أعطى تحذيرا مسبقا لما ستكون عليه امور الثورة الصناعية فى أوروبا(٤) •

ولكن ما هى التحولات التى أحدثتها الثورة الصناعية والتى كان لها ذلك التأثير على الفكر ؟ يحصر روبرت نيسبت Nisbet هذه التحولات فى خمسة جوانب رئيسية(٥) • تغير ظروف العمل ، وتحول الملكية ، وظهور المدينة الصناعية ، والتحولات التكنولوجية وظهور نسق المصنع فيما يتعلق بظروف الطبقة العاملة ، فلأول مرة فى تاريخ أوروبا تصبح الطبقة العامة موضوعا للاهتمام الأخلاقى والتحليلى وذلك بسبب ما أصابها من تفكك وما طرأ على ظروف العمل من تغير • فقد تدهورت ظروف العمل ، وبدأ العمل ينفصل عن الأطر القديمة التى تنشأ فيها وهى الطائفة والقرية والأسرة وتقلصت مكانة العامل العادى • كما أن النظام الجديد قد حطم المزارعين الصغار كطبقة بحيث ظهر الفرق جليا بين السادة والعبيد • أما الملكية فقد أصابها التغيرت وضعفت دعائمها • فلقد كانت الملكية من الأسس التى لا يمكن الاستغناء عنها لقيام الأسرة والكنيسة ، والدولة ، وكل الجماعات الأخرى

---

(٣) Nisbet, Sociological Tradition op. cit., p. 22.
(٤) Ibid., p. 24
(٥) Ibid., pp. 25—29.

فى المجتمع • ولكن الثورة الصناعية حطمت هـذا الأساس وأظهرت آفاقا جديدة من الملكية : مثل الملكية الصناعية ، والنمط المجرد وغير المجرد من الملكية والذى يمثله المشترون والبائعون فى الأسواق ، والتى ظهرت فيهـا شخصية المضارب Speculator • وامتد تاثير الثورة الصناعية الى المدينة فقد أدى ازدياد الحضرية Urbanism الى اضطراب المدينة وثقافتها ممـا اثر على الظروف السيكولوجية للقاطنين بها ، وجعلتهم يعيشون حالة من الاغتراب أو الانعزال الفكرى • أما الموضوعان الآخران (التكنولوجيا ونظام المصنع) فهما مترابطان ايما ترابط • فلقد كان للتكنولوجيا ونظام المصنع آثار جسام على العلاقة بين الرجل والمراة وعلى تفكك العائلة التقليدية ، والانفصال الثقافى بين المدينة والريف • ليس من الغريب اذن أن يذهب بعض الباحثين الى أن الثورة الصـناعية لم تكن صـناعية من حيث ان آثارها ونتائجها لم تقتصر على اطار الانتاج الصناعى وحدة بل امتدت الى كل جـوانب المجتمع • فقـد كان لا بد من توفر كثير من الشروط والظـروف الاجتماعية والقانونية (مثل الملكية الخاصة لوسائل الانتـاج ، وتحرير الأيدى العاملة ، وتحلل نظـام الطوائف القديم) قبل أن تقوم للنظـام الراسـمالى قائمـة(٦) •

فقد حطم التطور الصناعى الحواجز والضوابط القديمة ، وخلق مشاكل جديدة مثل الفقر والأزدحام ، وسـوء الأحوال الصحية فى المدن السريعة النمو وتفكك العائلة من خلال تشغيل المـراة والأطفـال فى المصـانع(٧) • ويضيف جولدنر أن للثورة الصناعية فى نهاية القرن الثامن عشر قد خلقت موقفا جوهريا بالنسبة للدور النسبى للجوانب الأخلاقية وغير الأخلاقية فى تحقيق التضامن الاجتماعى • فالتكولوجيا الجديدة قد ادت الى تعاظم دور

---

(٦) محمد الجوهرى ، **مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى** ، دار الكتب الجامعية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٧٥ • ص ٩٩ ــ ١٠٠ •

(٧) T.B. Battomore, Critics of Society, George Allen and Unwin Ltd., London, 1969, p. 14.

ويذهب بوتومور الى ان الثورة الفرنسية ذاتها قد انبثقت كرد فعل لتاثير الثورة الصناعية على المجتمع حيث خلقت هذه الثورة حركة احتجاج واسعة النطاق بلغت ذروتها فى الثورة الفرنسية •

الجوانب غير الأخلاقية . وحدوث تغيرات تكنولوجية مستمرة وعاجلة يعلى أن التغيرات قصيرة المدى والتى تحدث لاعادة التكيف مع التغيرات التكنولوجية البسيطة لم تعد تكفى وتسبب ذلك فى احداث فجوة أو ثغرة بين المصادر التكنولوجية والأخلاقية التى تحقق التضامن فى المجتمعات الصناعية(٨) .

أما الثورة الفرنسية التى تأججت عام ١٧٨٩ فقد وصل تاثيرها على المجتمع الأوروبى الى الحد الذى ذهب معه البعض بأنها ثورة من عند الله . ويذهب روبرت نيسبت الى أنه باستثناء الثورة البلشفية فى القرن العشرين فليس هناك حادثة أثارت العاطفة وأشعلت الفكر وكانت الأساس للكثير من الآراء والاجتهادات فيما يتعلق بالانسان ومستقبله غير الثورة الفرنسية(٩). ولا تقل الثورة الفرنسية عن الثورة الصناعية فى تحطيمها للمعتقدات والمشاعر التقليدية . بل ان الثورة الفرنسية تحقق لها ما لم يتحقق للثورة الصناعية حيث وجدت انصارا واتباعا جعلوا منها أكبر ثورة ايديولوجية فى تاريخ الغرب ، الى جانب أنها كانت تملك عنصر المفاجأة والانتشار الدرامى الواسع النطاق والذى لم تحققه الثورة الصناعية الا على استحياء . والطابع الأيديولوجى للثورة الفرنسية هو الذى جعل لها كل هذا التاثير ، ولقد كان الجانب الأيديولوجى واضحا فى اعلان حقوق الانسان ، لقد ارتبطت هذه الثورة بتغيرات عميقة الجذور فى كل شئون الحياة ، فى السياسة والقانون وحقوق الملكية والدين(١٠) . فقد قبل الثوار دون تحفظ مبادىء عصر التنوير وحاولوا أن يعيدوا تنظيم المجتمع وفق مبادىء عقلية خالصة(١١) .

ويشير جولدنر الى أن الثورة الفرنسية قد خلقت طبقة وسطى طورت مبدأ المنفعة فى صراعها ضد المعايير الاقطاعية والادعاءات الارستقراطية للنظم القديمة البالية ، حيث كانت حقوق الفرد تتحدد من خلال المكانة ،

---

(٨) A. Gouldner The Coming Crisis of Western Sociology, op. cit.,

(٩) Nisbet, Sociological Tradition, op. cit., p. 22.

(١٠) Ibid., pp. 30—35.

(١١) Irving Zeitlen, Ideology and The Development of Sociological Theory, Prentice Hall and indian Private Limited, New Delhi, 1969, p. 35.

والطبقة التى ينتمى اليها ، والولد ، والجماعة القرابية ، اى فى ضوء « الانتماء » وليس فى ضوء « الانجاز » مقابل ذلك بدأت الطبقة الوسطى الجديدة ، تضع ذوى الكفاءات والمهارات ، والقدرات المكتسبة من خلال الانجاز الفردى ، بدأت تضعهم فى مراتب عالية • فمعيار المنفعة عند هذه الطبقة يعنى أن المكافآت يجب ان تمنح للأفراد حسب اسهامهم وعملهم الفردى • فمقدار فائدة الأفراد تحدد الى درجة كبيرة من خلال المكانة التى يرتفعون اليها والسلطة التى يأخذون بزمامها ، فتلك أمور لا يمكن اليوم ان تحددها الامتيازات • وهكذا نجد الأب سايز Abbe Sieyes يعلن عشية الثورة الفرنسية « فلتحطم كل النظم ذات الامتيازات الخاصة ، فالأمة الآن ـ تستطيع أن ترتفع فوق هذه الامتيازات وتتجاوزها •• والطبقة ذات الامتياز تعتبر بالتأكيد طبقة غريبة عن الأمة لأنها لا تفعل شيئا »(١٢)• بل حدث ان اتهم المناضلون والثوار اليعاقبة اعضاء الطبقة الوسطى الاغنياء بانهم يستفيدون من الدولة وانهم كسالى لا عمل لهم(١٣) •

واذا ما جمعنا تأثير الثورتين فى شكل عمليات عامة ترتبط فيما بينها نخرج بثلاث عمليات اساسية هى(١٤) :

١ ـ نمو الفردية Individualization وتعنى فصل الأفراد عن الأبنية الجماعية : الطائفة ، والجماعة ، والكنيسة والروابط القرابية بصفة عامة • فقد أصبح المجتمع مجتمعا آليا ، يتكون من حشود متفرقة من التجار والمبائعين والمشترين والعمال •

٣ ـ التجريد Abstraction وهى عملية ترتبط بالقيم الأخلاقية التى اصبحت اكثر تجريدا ، تقوم على العلمانية والنفعية ، كما بدأت تنفصل عن الأسس الثقافية التقليدية التى منحتها تميزا رمزيا على مر العصور • لقد اصبحت قيما مجردة بعيدة عما هو واقعى • وبرغم أن

---

(١٢) A. Gouldner, op. cit., pp. 62—63.

(١٣) Ibid., p. 63

(١٤) Robert Nisbet, Sociological Tradition, op. cit., pp. 42—43.

البعض يفسر ذلك على انه تقدم تكنولوجى ، فان البعض الآخر يفسره على انه انحدار ثقافى ٠

٣ ـ نمو الاتجاه نحو للمومية generalization وهى للعملية التى من خلالها امتد الفكر الانسانى ليشمل الأمة باسرها بل ليشمل النطاق العالمى باسره ٠ فقد تحرك من الأسرة والجماعات المحلية الى الأمة وبدا يتجه الى مناقشة مفهومات عامة مثل الديمقراطية ، ويكون رؤية واضحة عن النظام العالمى ٠

ثانيا ـ الجذور الفكرية :

اذا كانت هذه هى التغيرات البنائية التى ادت اليها الثورتان الصناعية والفرنسية فهل اثارتا اهتمامات فكرية ؟ من باب الاجترار فقط أن نسأل هذا السؤال ٠ فما اوردنا كل هذه التغيرات البنائية التى اصابت المجتمع الأوروبى من جراء الثورة الفرنسية والصناعية الا عن اقتناع بأن هذه التغيرات قد ولدت من الأفكار ما اثرى الفكر فى القرن التاسع عشر ، وكانت قمة هذا الثراء الفكرى انبثاق علم الاجتماع على ما صاحب هذه النشأة من دفاع عن النظام القائم وحصره داخل حدود الاتجاه المحافظ ٠ ولكن كيف حدث ذلك ؟ هذا هو السؤال الهام ٠

هنا ننتقل من دراسة الجذور البنائية الى الجذور الفكرية لانبثاق علم الاجتماع ٠ لقد كانت التغيرات التى احدثتها الثورتان مجالا لجدل كثير من جانب الراديكاليين والليبراليين والمحافظين ٠ واذا كانت الكلمات تنطق ببراهين أعلى صوتا من كل الوثائق على ما يذهب هوبسباون Hobsbawn فان الفترة التى امتدت من الربع الأخير من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر تعد من أغنى الفترات فى تكوين الكلمة فى التاريخ ٠ نستوعب هذه الحقيقة جيدا اذا ما اخترنا عينة صغيرة من المفاهيم التى اخترعت فى هذه الفترة أو عدلت فى ضوء معانيها الحاضرة ٠ من هذه المفاهيم : الصناعة ، والصناعى ، والديمقراطية ، والطبقة ، والطبقة الوسطى ، والأيديولوجيا ، المثقف والنزعة العقلية ، والجماهير ، والنزعة التجارية ، والبروليتاريا ، والنزعة الكلية ، ونزعة المساواة ، والليبرالى ، والمحافظ ،

والعـــالم ، والنفعى والبيروقراطيـــة والراســـمالية ، والأزمـة .. وغير ذلك كثير(١٥) .

تكمن جذور الاتجاه الراديكالى فى فلسفة عصر التنوير فى القرن السابع عشر . لقد ربط فلاسفة هـذا العصر بنجـاح بين التجربة والعقل فى حل مشـاكل الانسان . فالكون فى نظرهم محكوم بقوانين مترابطة ، ويمكن ان يتحول الانسان والمجتمع الى الأحسن من خلال تنظيم البيئة الاجتمـاعية والسياسية وفق هذه القوانين . ان الحركة الفلسفية فى هذا العصر التى بداها روسو وهيوم عبرت عن تحول من التأكيد على أهمية الكون الميكانيكى الى التأكيد على الطابع الخلاق للشخصية . فروسو انطلق الى حد ما من موقف مثالى ، وقد كان أكثر ايمانا من معاصريه باعادة بناء المجتمع على مبادىء عقلية مجردة . كما أن الارادة الأخلاقية الداخلية والوعى كانت من الأشياء الهامة ـ فى نظره ـ فى تحرير الانسان . أما ديفيد هيوم فقد ادى فحصه النقدى لقضايا هذا العصر الى ابراز الدور الخلاق للعقل ، والى رفض الفهم الميكانيكى الذى يعد طريقة فى التفكير مستهجنة تفتح الطريق امام الكثير من الاجتهادات . وقد كانت آراء روسو وهيوم هى الأساس الذى قامت عليه فلسفة كانت العقلية(١٦) .

هذه الآراء هى التى اذكت الثورة الفرنسية ، ومن ثم تمسك الثوار بها واتخذوها دعامة لتقويض النظام القديم وبناء نظام جديد يمجد دور العقل ودور الفرد ويحطه من روابطه القرابية والاجتماعية . وهى بهذا خلقت جيلا جديدا من الراديكاليين يحيى افكار عصر التنوير . من هؤلاء على سبيل المثال الانجليزى وليم كوبت Cobett . ولكن ما يفرق بين راديكالية جيل الثورة الفرنسية وراديكالية عصر التنوير ان تلك الأخيرة كانت مرتبطة الى حد كبير بالاطار الدينى . صحيح أنه كانت هناك اشارات الى الفقر والمعاناة ، ولكن هذه الاشارات كانت تظهر فى صورة دينية . أما الخط الرئيسى لراديكالية القـرن التاسـع عشر فقـد كان علمانيا . واذا كانت الرغبـة فى الخلاص

---

(١٦) Zeitlen, Ideology and the Development of Sociological Theory, op. cit., pp. 36—37.

لم تختف ، فقد اختفت على الأقل صورتها المسيحية . فقد ظهرت رغبة ثورية فى الخلاص نبعت من الثقة فى القوة المطلقة التى يمكن أن تحرر الانسان من مظاهر عدم المساواة(١٧) ولكن أيا كان جوهر الخلاف بينهما ، فان كلا منهما قد أولى أهمية كبيرة لدور العقل ودور الفرد وعمله الخلاق ، لا دور الجماعة وما تفرضه من روابط وسلطات قائمة على المكانة الموروثة وليس الانجاز . والثورة فى نظرهم هى المصدر الأساسى للحرية . ومن خلال هذا الفكر الراديكالى ظهرت المذاهب الاشتراكية التى أخذت تتطور حتى يومنا هذا .

أما الليبرالية فانها تنادى باستقلال الفرد وحريته وحقوقه السياسية والدينية والاجتماعية . ويختلف الليبراليون فيما بينهم من حيث هذه الحريات فالليبراليون الانجليز يهتمون بتحرير الانتاجية الاقتصادية من ربقة القانون والعادات ، أما الليبراليون فى فرنسا فانهم يهتمون أساسا بتحرير الفكر من النزعة الاكليريكية . ولكن بصرف النظر عن هذه الاختلافات فان الليبراليين يتفقون على عدة مبادىء منها(١٨) :

أولا : قبول النظام الأساسى للدولة والاقتصاد القائم ، فهم لا يرون فى الثورة المصدر الأساسى للحرية ، بالرغم من تاييدهم لها .

ثانيا : الاعتقاد بأن التقدم يعتمد على تحرير عقل الفرد وروحه من الروابط الدينية والتقليدية للنظام القديم .

يتضح من ذلك أن الليبراليين فى القرن التاسع عشر قد ساروا - مثلهم مثل الثوار تماما - على نهج علماء عصر التنوير فى إعلاء الفردية ذات الطبيعة المستقلة . ورغم اهتمام بعضهم بالنظم والتقاليد مثل أنصار النزعة المحافظة تماما ، إلا أن هذا الاهتمام يرتبط بالدرجة التى تدعم بها هذه النظم والتقاليد النزعة الفردية . فاهتمامهم الأساسى كان منصبا على حرية الفرد وليس على السلطة الاجتماعية . واذا كان الراديكاليون قد اهتموا بامور

---

(١٧) Nisbet, Sociological Tradition, op. cit., p. 11.

(١٨) Ibid., p. 10.

السياسية والعمل السياسى لكثر من الليبراليين ، فان الاثنين يتفقان فى تاثر كل منهما بافكار عصر التنوير ، وفى الاعلاء من شأن الفرد العاقل المستقل ذاتيا • ان كلا منهما قد حاول ان يعيد صياغة النزعة الفردية بطريقة خاصة(١٩) •

أما الاتجاه المحافظ Conservatism فهو عكس الاتجاهين السابقين على طول الخط • فاذا كان الاتجاهان السابقان (الراديكالى والليبرالى) قد تاثرا بافكار عصر التنوير ، فان الاتجاه المحافظ قد عارض هذه الأفكار معارضة شديدة • واذا كان الاتجاهان السابقان قد اثرا فى الثورة وتاثرا بها فان الاتجاه المحافظ كان يناهض الثورة ويعتبر نزعة التحديث التى جاءت بها الثورة شرا اى شر • انه يهاجم كل ما تاتى به الثورة وتدافع عنه ، فى نفس الوقت يدافع عن كل شىء تهاجمة الثورة • ولأن هذا الاتجاه هو الذى أثر فى الفكر السوسيولوجى تاثيرا كبيرا ، فاننا سوف نفصل الحديث عنه بعض الشىء •

نهج المحافظون نهجا رومانسيا تشاؤميا ازاء الأحداث التى ولدتها الثورة الصناعية والثورة الفرنسية • وتنعكس تلك الرومانسية فى أنهم بالغوا فى دور العاطفة والخيال محاولين اعادة لحياء الدين والشعر والفن ، مع اهمال دور العقل فى تنظيم المعرفة والمجتمع • وحاولوا البحث عن جذور النظم القائمة بدلا من محاولة تغييرها وفق اسس عقلية ، واهتموا بمفاهيم مثل الجماعة ، والمجتمع المحلى ، والأمة فى مقابل اهمال للمفاهيم الخاصة بالنزعة الفردية والنزعة العقلية • ولم تقتصر هذه الروح الرومانسية على الفلسفة ، بل امتدت لتظهر فى مجالات كثيرة كالأدب ، والفن ، والموسيقى ، والدين ، والكل يهدف الى تحرير العاطفة والخيال من القواعد والأشكال

---

(١٩) لا شك ان هذا الفكر الليبرالى قد ارتبط بمذهب المنفعة Utilitarianism الذى صاغه فى صورته الفلسفية بنثام Bentham ووجد تعبيرا اجتماعيا فى كتابات مربوت سبنسر التى ركزت على الحرية ومبدأ عدم التدخل ، وصورت التطور فى المجتمعات البشرية على أنه تطور طبيعى يشبه الى حد كبير تطور الكائنات العضوية الأمر الذى يتضمن ان صحة المجتمع تتمثل فى تطويره الطبيعى وعدم التدخل بأى شكل فى مجرى الأمور داخله •

الصارمة التى فرضها فلاسفة عصر التنوير(٢٠) ، وتبناها الثوار والليبراليون ·ويهمنا أن نستقصى هذه النزعة فى مجال الفلسفة ، فالفلاسفة المحافظون هم الذين وضعوا الأساس المعرفى الذى انبثق منه علم الاجتماع ·

وأهم هؤلاء الفلاسفة المحافظون بيرك ودى ميستير وبونال وهيجل · ولنستعرض رأى أحدهم وليكن بيرك(٢١) ثم نستخلص فى النهاية السمات العامة لهذا الاتجاه المحافظ · لقد ساهمت آراء بيرك فى تكوين فلسفة اجتماعية وسياسية محافظة ، ليس فى بريطانيا وحدها ولكن فى كل القارة الاوروبية · أدان بيرك الثورة الفرنسية ، لما أدت اليه من تفكك وفوضى ، واستبدال القيم المقدسة غير الرشيدة بالمعايير الشخصية القائمة على التعاقد والمنفعة ، وتقلص السلطة السياسية والدينية والاجتماعية(٢٢) · وفى مقابل نقد الثورة الفرنسية مجد بيرك الثورة الأمريكية لأن الأمريكيين حاولوا أن يحافظوا على الطابع العضوى للمجتمع · فبيرك كان ينظر الى المجتمع على أنه كائن عضوى ، ولن كانت أجزاؤه لا تنتظم بنفس الكمال الموجود فى الكائن العضوى ، ذلك لأن الكائن الاجتماعى تتغير بعض أجزائه بسرعة أكبر من أجزاء أخرى · وعندما يحدث شىء من هذا القبيل لا بد أن يتم اعادة توازن المجتمع من خلال الاصلاح ، وليس الثورة · وعندما يقدم بيرك فهمه العضوى للمجتمع فانه بذلك يرفض الفهم العقلى المجرد الذى قدمه فلاسفة عصر التنوير والذى ينحصر فى وجود قوانين طبيعية عامة يمكن اكتشافها عن طريق العقل · واعتقد بيرك ان الثوار فى تطبيقهم لهذا الاتجاه ، قد اعتبروا المجتمع مثل الآلة معتقدين أنه يمكن رفع أجزاء وتغييرها باجزاء أخرى جديدة · ومن ثم فقد هاجموا النظم القديمة المتكاملة مع النظام العام ، وحاولوا ان يغيروها وفق قواعد مجردة · لقد اعتبروا ـ يقصد الثوار ـ الفرد اهم من الأمة والدولة ، والجزء اهم من الكل ، وعالجوا الدولة على أنها علاقة تعاقدية بدلا من ارتباطها العضوى بالنظام العام ·

---

(٢٠) Zeitlen, Ideology and . . . , op. cit., p. 36.

(٢١) وذلك لأن بيرك كان أكثر هؤلاء المحافظين تعصبا ، وأكثرهم تاثيرا فى الفكر المحافظ فى أوروبا كلها ·

(٢٢) Nisbet, Sociological Tradition, op. cit., p. 14.

ويرى بيرك ان اعتبار الدولة مجرد عقد يجعلها تتحلل بمجرد أن يقرر المتعاقدون أنها لا تشبع مصالحهم ، او عندما يختلف الأفراد • فالدولة تعتبر وحدة عضوية ، وجزء متكامل مع الجماعة القومية وربما ينعكس ذلك فى كلمات بيرك « ان الدولة لا تعتبر شركة بين الأحياء فقط ، ولكن بين الموتى والذين لم يولدوا بعد»(٢٣) •

ويقصد بيرك من تلك العبارة بطبيعة الحال ، ذلك الترابط القائم فى المجتمع بين الماضى والحاضر والمستقبل • كما أنها توحى بعدم اهتمامه بالفرد فاهتمامه كان منصبا على الجماعة ، فليس للفرد حقوق مجردة • على العكس من ذلك تماما ، فان الفرد يملك فقط هذه الحقوق والواجبات التى تميز جماعة معينة ، والتى يكتسبها بحكم ولادته فى هذه الجماعة • والجماعة لا توجد فى لحظة معينة ، ولكنها سلسلة لا نهائية من الأجيال ، يرث كل جيل عن الجيل الذى يسبقه ولا يعتبر الفرد الا حلقة فى هذه السلسلة •• فليس لجيل الثورة اذن الحق فى أن يحطم العادات والنظم التى تتعلق بأجيال سابقة وأجيال أخرى قادمة • وليس لهم الحق فى أن يعتبروا أنفسهم سلطة مسيطرة على ما هو متعلق بالماضى والمستقبل • فكل جيل يجب أن يضيف الى ما أنجزه الجيل السابق ، وينقل التراث كاملا لأصحابه »(٢٤) •

هكذا تعكس آراء بيرك النزعة المحافظة التى اعتبرت ان التغيرات الاجتماعية التى تبعت الثورة الفرنسية قد قللت من شأن النظم الأساسية وحطمتها ، وكان من نتيجة ذلك فقدان الاستقرار السياسى • وأرجع المحافظون هذه النتائج الى بعض الأحداث السابقة فى التاريخ الأوروبى والتى أدت ـ حسبما يعتقدون ـ الى اضعاف مستمر لنظام العصور الوسطى وبلغت ذروتها فى تفجير الثورة • وأشاروا فى هذا الصدد الى المذهب البروتستنتى والرأسمالية ، والعلم على أنها القوى الرئيسية التى أدت الى ذلك لقد اضفى المحافظون الطابع المثالى على النظام العام فى

---

(٢٣) Zeitlen, Ideology and..., op. cit., pp. 37—38.
(٢٤) Ibid., p. 39.

العصور الوسطى ، وذهبوا الى أن العصر الحديث يحتاج الى استعادة هذا النظام بالضرورة(٢٥) ٠

فى أثناء هذا الجدل مع الثوار ، ومع فكر عصر التنوير ، ومن خلال هذه الروح الرومانسية التى تستهدف استعادة نظام العصور الوسطى ، طور المحافظون عددا من القضايا تفسر طبيعة المجتمع ٠ ويحصر روبرت نيسبت(٢٦) الانتقادات الرئيسية التى نبعت من كتابات المحافظين الأوائل فى ثلاثة اتجاهات رئيسية ٠ يرتبط الأول بمفهوم الجماهير masses ويعنى السكان المنفصلين انفصالا أخلاقيا واجتماعيا عن طريق القوى السياسية التى نادى الليبراليون والراديكاليون فى القرن التاسع عشر على أنها تقدمية ٠ أما الاتجاه الثانى فيرتبط بمفهوم الاغتراب Alienation ويعنى حالة الاحباط وعدم الشعور بالأمن والتى تنتشر بين الأفراد نتيجة للتغيرات الفكرية والأخلاقية التى نظر اليها أنصار الاتجاه العقلى على أنها تؤدى الى التحرر من شبكة العادات القديمة ٠ أما الاتجاه الثالث فهو الاتجاه المرتبط بمفهوم القوة power ويعنى القوة التى تنبع من وجود الجماهير المكونة من أفراد منفصلة تحركهم قوة مركزية ٠

وفى مقابل هذه الانتقادات يوجد عدد من القضايا الأكثر تحديدا فى تناقضها مع الأفكار العقلية التى انتشرت فى القرن التاسع عشر ، وهى قضايا تتصل بطبيعة المجتمع والانسان ٠ يحصر نيسبت وزايتلن هذه القضايا فيما يلى(٢٧) :

١ ـ المجتمع وحدة عضوية تحكمه قوانين داخلية للتطور ، وهى قوانين تضرب بجذورها فى الماضى السحيق ، وليست مجموعة ميكانيكية

---

(٢٥) Ibid., p. 53.

(٢٦) Robert Nisbet, Tradition and Revolt, Vantage Books, New York, 1970, pp. 75—76.

(٢٧) اعتمدت فى عرض هذه القضايا على المصدرين التاليين :
R. Nisbet, Tradition and Revolt, op. cit., pp. 77—82.
I. Zeitlen, Ideology and the Development of Sociological Theory, op. cit., pp. 53—55.

من العناصر الفردية . فالمجتمع لا يمكن خلقه عن طريق شخص واحد ، لأن وجود المجتمع هو استمرار بين الحاضر والماضي والمستقبل .

٢ ـ بهذا يكون المجتمع سابقا على الفرد ، تاريخيا ومنطقيا واخلاقيا. نلحظ ذلك فى افكار بيرك السابقة وتضيف هنا راى بونال الذى يقول « يوجد الانسان فقط فى المجتمع ومن أجله .. والمجتمع هو الذى يشكله .. فالمجتمع هو الذى يكون الفرد من خلال التعليم الاجتماعى » .

٣ ـ يعتبر للفرد مفهوما مجردا وليس العنصر الأساسى فى المجتمع . فالمجتمع يتكون من علاقات ونظم ، أما الأفراد فهم مجرد أعضاء فى المجتمع يشغلون بعض الأدوار والمكانات : آباء ، واولاد ، وكهنة ، وعمال ، ومديرين ... الخ .

٤ ـ يكشف المجتمع عن قدر من الترابط بين اجزائه المكونة . فما دام المجتمع وحدة عضوية ، فان العادات الاجتماعية ، والمعتقدات والنظم داخل هذا المجتمع تترابط ترابطا عضويا الى درجة ان تغير جزء معين او اعادة صياغته سوف يؤثر على مركب العلاقات التى تحافظ على استقرار المجتمع ككل .

٥ ـ للانسان حاجات ثابتة وغير متغيرة تعمل كل نظم المجتمع على الوفاء بها . فالنظم ما هى الا اجهزة لسد حاجات الانسان ولذا تعطلت هذه النظم أو أصابها الخلل فسوف تكون النتيجة هى المعاناة وسوء النظام .

٦ ـ الترابط بين النظم ترابط وظيفى . فكل نظام له وظائف معينة بحيث تسهم كل وظيفة فى النهاية فى المحافظة على بناء المجتمع .

٧ ـ يعتبر وجود الجماعات الصغيرة والمحافظة عليها شىء أساسى بالنسبة للمجتمع . فالجماعة وليس الفرد هى الوحدة الأساسية فى المجتمع. ومن ثم فان الأسرة وجماعة الجوار ، والمقاطعة ، والجماعات الدينية ، والجماعات المهنية تعتبر من الوحدات الأساسية ، وهى الدعائم التى تقوم عليها حياة الأفراد . ان هذه الجماعات هى « مستقرنا وملاذنا » على ما يقول بيرك .

٨ ـ اهتم المحافظون ايضا بالتنظيم الاجتماعى . فالثورة كما نظروا

اليها قد ادت الى ضرب من ضروب عدم التكامل الاجتماعى والأخلاقى • ومن اهم مظاهر سوء التنظيم فى نظرهم ما أطلقوا عليه النزعة الفردية الدينية ، التى ظهرت بظهور المذهب البروتستنتى ، ذلك المذهب الذى اهمل العناصر الرمزية ، والطقوسية ، والتوحيدية ، فى الدين • وممن هنا كانت دعوتهم الى المحافظة على الأشكال الدينية القديمة ، الكاثوليكية طبعا ومن أهم مظاهر سوء التنظكم أيضا انتشار الحضرية ، وطغيان المدينة على الريف • ومن هنا كان حنينهم الى الريف وما فيه من استقرار وتضامن •

٩ ـ ركز المحافظون على الأهمية الجوهرية والقيمة الايجابية للجوانب غير الرشيدة للوجود الانسانى • ومن هنا رفضوا القول بأن الانسان يعيش من خلال العلاقات القائمة على العقل ، ورفضوا تفسير المجتمع على اساس الدوافع العلمانية الخالصة والدوافع الفردية المتصلة بانجاز • وفى مقابل ذلك اهتموا بالجوانب غير العقلانية للحياة الاجتماعية مثل ممارسة الطقوس والعبادة •

١٠ ـ قدس المحافظون التدرج الاجتماعى والمكانة الاجتماعية فى المجتمع فبدون تدرج فى المجتمع لا يمكن أن يوجد استقرار كما أن الطبقات تؤدى وظائف كبيرة فى المجتمع • وقد تولد هذا الاعتقاد عند المحافظين من تخوفهم لأن تؤدى العدالة الى تحطيم النظم المقدسة التى من خلالها تنتقل القيم من جيل الى جيل آخر •

١١ ـ واخيرا فقد أكد المحافظون مبدأ شرعية السلطة • وتكتسب السلطة الشرعية عندما تكون نابعة من عادات وتراث الشعب ، وعندما تتشكل فى روابط مستمرة تبدأ من الأسرة وتستمر مع الجماعة والطبقة ثم صفوة المجتمع •

هذه هى الاتجاهات الفكرية التى سادت فى القرن التاسع عشر • ولقد دخلت هذه الاتجاهات فى صراع عنيف • ولكن ما يهمنا هو أن نوضح كيف اثرت هذه الاتجاهات على انبثاق علم الاجتماع • يجمع النقاد ـ برغم المعارضة التى يواجهونها كما اشرنا من قبل ـ على أن ظهور علم الاجتماع كان امتدادا للاتجاه المحافظ فى مقابل رفض الاتجاهين الآخرين • فعلم الاجتماع

« يمثل أحكاما لوجهة النظر المحافظة عن المجتمع والتى تتعارض مع الاتجاهات التى تنادى بالتحرر الانسانى »(٢٨) فمع احتدام آثار الثورتين ، ومع تفاعل هذه الاتجاهات الفكرية وخلقها لصراعات ايديولوجية عبر مستويات عديدة ظهرت فى المجتمع مشكلة نظام ملحة ، استجاب علم الاجتماع لها استجابة محافظة . ولكن كيف حدث هذا ؟ هذا هو موضوع الفترة القادمة .

ثانيا ـ اوجست كونت وبداية التجسيد الايديولوجى :

كتبت مدام دى ستيل Desteal فى القرن التاسع عشر تقول « انا لا أعرف بالضبط ما الشيء الذى يجب أن نعتقد فيه ، ولكنى واثقة أننا يجب أن نعتقد فى شيء ما »(٢٩) . تلخص كلمات دى ستيل هذه المشاعر الوضعية التى نشأت فى منتصف القرن التاسع عشر ازاء الصراع الفكرى والبنائى القائم . فالتحولات البنائية التى استعرضت جانبا منها فيما سبق لم تختف مع ظهور الاتجاه الراديكالى والليبرالى والمحافظ ، وانما امتدت واتخذت أشكالا جديدة . ويبدو ان أيا من هذه الاتجاهات لم يستطع أن يرد للمجتمع توازنه ونظامه ، فوجودها بجانب بعضها اذكى الصراعات القائمة . حقيقة أن الاتجاه المحافظ كان بامكانه ان يقوم بهذه المهمة ، ولكن الانتشار الضافى للنزعة الراديكالية والثورية جعل النزعة التشاؤمية المحافظة تختفى وسط بريق الثورة(٣٠) .

---

٢٨) T.B. Bottomore, Sociology as Social Criticism, op. cit., p. 13.

(٢٩) نقلا عن جولدنر الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى ، مرجع سابق ، ص ٩٧ .

(٣٠) نستطيع القول بحق بأن الدراسات السوسيولوجية الشهيرة فى القرن التاسع عشر كانت كلها تحليلا جدليا للعلاقة بين البنية التقليدية والبنية الرأسمالية الرشيدة . التى تولدت عن هذه البنية التقليدية بفضل عوامل الثورة الفرنسية والتصنيع ، وان هذه الدراسات قد جسدت بحق الصراع بين قديم يحتضر وجديد يتدفق تدفق السيل . فالكثير « منهم قد اهتم باقامة نماذج مثالية تعكس خصائص المجتمع الجديد وأخرى تعبر عن سمات المجتمع التقليدى » (السيد الحسينى ١٩٧٤ ، ص ١٣) فقد ميز كونت بين النظام والتقدم ، وميز دوركايم بين التضامن الآلى والتضامن العضوى . وقد ماركس اطار تطوريا لأنماط المجتمعات ورؤية جديدة لمستقبل المجتمع الرأسمالى . واوضح فيبر كيف تتولد النظم الحديثة (الرأسمالية) من

يذهب جولدنر الى ان البنـاء الاجتماعى للعصر الذى ظهر فيه علم الاجتماع كان يستم بالخصائص التالية :

١ ـ الصراع بين الطبقة النبيلة التى استعادت كيانها بعد هزيمة نابليون وبين الطبقة الوسطى المتاثرة بالثورة والتى تشربت مبادىء الاتجـاه الراديكالى وعصر التنوير ٠

٢ ـ برغم تعارض الطبقتين الا ان كل طبقة كانت تظهـر اختلافا داخليـا بشـان الطريقة التى يجب أن تحسم بهـا الأمور وشـكل الخريطة الاجتماعية المرغوبة ٠ فكل طبقة ظهر داخلها معتدلون ومتطرفون ٠

٣ ـ كانت هناك مجموعة كبيرة من الأمور تتصل بشكل النظام الاجتماعى العـام واختلفت عليها كل طبقة ٠

٤ ـ بدأت النظم القديمة التقليدية المرتبطة بالدين تفقد اهميتها وبدا الناس فى التخلى عنها فى وقت بدأت هذه النظم تجد مناصرين ومشايعين من طبقة النبـلاء ٠

٥ ـ استمر العلم تحت كل هـذه الظروف فى التطور(٣١) ٠

هذه الخصائص البنائية تعتبر امتدادا للتغيرات البنائية التى احدثتها الثورة الفرنسية والثورة الصناعية ٠ ولكن نلحظ هنا ان طبقة النبلاء بدأت تستعيد بعض مجدها السابق ، وبالتالى مهدت الجو لبواكير فلسفة تمكنها من اعادة السيطرة تماما ، ولكنهـا زادت ـ فى نفس الوقت ـ من احتـدام الفوضى الفكرية بين دعاة النظام ودعاة التقدم ، فدعاة النظام يذهبون الى ان المشكلة ترجع الى تحطيم النظام القديم ٠٠ وعلى النقيض من ذلك يذهب الحزب الفوضوى الى أن الأزمة ناتجة عن ان النظام القديم لم يحطم تحطيما

=

النظم القديمة (البروتستانتية) وقدم انماطا متباينة من الفعل الاجتماعى يقف على قمتها نمط الفعل الرشيد ٠ غير أن جميعهم ـ باستثناء ماركس والى حد ما ماكس فيبر ـ قد وقفوا بجانب النمط القديم التقليدى ومن هنا دفاعهم عن النظام العام الثابت والمستمر ٠

(٣١) A. Gouldner, Coming crisis of Western Sociology, op. cit., p. 95.

كاملا ،(٣٢) · وهنا ظهرت الحاجة الى فلسفة جـديدة ، تلك الحاجة التى عبرت عنها مدام دى ستيل فى عبارتها السابقة · لقد بدأ المجتمع يتوق الى كهانة جديدة تستطيع أن تفى بوظائف الكنيسة التى بدأت تتقلص(٣٣) ·

ويذهب جولدنر الى أن الجيل الجديد الذى قدم هذه الفلسفة هو جيل فصل نفسه عن أى من التيارات الفكرية ولم يجذبه الا العلم وحده · هـذا الجيل عبر عن مجموعة من المشاعر وسمها جولدنر بانها مشاعر وضعية · فمع بداية عام ١٨٢٤ ـ والحديث لجولدنر ـ ظهر جيل جديد ، لم يناصر الأيديولوجية الثورية ولكنه لم يناهضها · وبدا هذا الجيل يتأثر بتطور العلم السريع ، ويطالع الكثير من المجلات العلمية ، ولقـد كان هذا الجيل يتصف بسمتين : القدرة على الانفصال عن الأطر الفكرية السـائدة من ناحيـة ، والاستعداد للتأثر بنسق فكرى جديد من ناحية أخرى · لقد أحس هذا الجيل بالحاجة الى ايديولوجية تضفى على العالم صورة رومانسية وتتفق فى نفس الوقت مع النظرة العلمية الجديدة · انها حاجة الى بديل جديد لخريطة العالم الاجتماعى التى حطمتها الثورة والتى لم تستطيع الطبقة الوسطى ـ حاملة مشعل هذه الثورة ـ أن تقدمه(٣٤) · هذا الجيل الذى يتحدث عنه جولدنر هو الذى قدم الفلسفة الوضعية والتى ظهر من خلالها علم الاجتماع ، وهـو الذى تقبلها ونشرها ·

فمن هذا الجيل ظهر كونت مؤسس الوضعية · لقد حاول كونت أن يسعى بنظريته الى تحقيق حالة من الاتساق العام فى المجتمع · فالنظام لا يمكن أن يقوم الا على أساس نوع من الاشتراك فى الأفكار بين اولئك الذين يكونون المجتمع من حيث أن الاتساق العام هو الحقيقـة الأسـاسية فى النظام الاجتماعى(٣٥) · وهـذا هو السبب الذى جعل الوضعية تنتشر

---

(٣٢) Zeitlen, Ideology and the Development of Sociological Theory, op. cit., p.,

(٣٣) J. Rex, Discovering Sociology, Routledge and Kegan Paul, London, 1973, p. 59.

(٣٤) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., p. 98.

(٣٥) علياء شكرى ، علم الاجتمـاع الفرنسى المعاصر ، دار الكتب الجامعية القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٥ ·

هـذا الانتشار الواسع عند ظهورها : فالعقول مهياة لتقبلهـا ، ثم جاءت لتستعيد توازن المجتمع الذى لم تستطع اى من الاتجاهات الفكرية السائدة ان تحققه • وسوف أستعرض فيما يلى ـ على عجالة ـ بعض آراء كونت محاولا قدر استطاعتى ان أوضح كيف كانت هـذه الآراء استجابة محافظة لمشكلة النظام العام • وقبل أن ابدأ هـذا العرض لا بد أن اناقش قضية طرحها جولدنر مؤداها أن الجيل الوضعى الجديد قـد حقق قدرا كبيرا من الموضوعية لأنه رفض كل البدائل القديمة المطروحة للاصـلاح الاجتمـاعى وانفصل عنها وارتبط بالعلم • ولا نستطيع أن نوافق على هـذا الراى • فانفصال هـذا الجيل لا يعنى موضوعيته • ربما يكون قد حاول أن يحقق هـذه الموضوعية ولكنه فشل • فكونت ـ مثل هـذا الجيل ـ قـد وجد فى كتابات المحافظين الكثير من الحلول للمشكلات التى يعانى منها المجتمع بل ان جولدنر نفسه يذهب الى ان سبب انتشار الوضعية هـذا الانتشار الواسع النطاق هو تاكيدها على مشكلة النظام وتدعيمها للوضع الراهن(٣٦) وسوف يتضح لنا ذلك بجلاء عندما نستعرض آراء كونت •

١ ـ المذهب الوضـعى :

يقول أوجست كونت « تقدم الفلسفة الوضعية الأساس المتين الوحيد لاعادة التنظيم الاجتماعى الذى يجب أن يحل محل الجو النقدى الذى تعيش فيـه اغلب الدول المتحضرة الآن »(٣٧) • تظهر من هـذا النص الظلال الأيديولوجية التى تغلف كلمة « وضعى » Positive فهذه الكلمة يجب ان تحل محل كلمة الرفض أو السلب التى تتبناها المبادىء النقدية بحيث تكون الفلسفية الجديدة (الوضـعية) بناءة وليست هدامة • فهى القادرة على خلق النظام من قلب الفوضى القائمة • ذلك لأنهـا تناسب الفترة التاريخية فى هـذا الوقت • فالفلسفة الوضعية هى قمة تطور حدث فى الفكر الانسانى مر بثلاثة مراحل : مرحلـة التفكير اللاهوتى أو الخيـالى theological مرحلـة التفكير الميتافيزيقى أو المجـرد Metphysical ثم اخيرا مرحلة

---

(٣٦) A. Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology, op. cit., pp. 102—104.

(٣٧) Auguste Comte, The positive Philosophy, Vol. 1 trans Harriet Martineau and John Chapman, 1853, p. 14.

للتفكير الوضعى Positive (٣٨) • ولا يمكن أن يتحقق الاستقرار الذى يعد الشرط الأول لتحقيق النظام العام ، لا يمكن ان يتحقق فى وجود هذه الاتجاهات الفكرية متصارعة ، وهو غير قائم فى المجتمع بسبب عدم الاتفاق الفكرى بينها : فلا يزال التفكير الثيولوجى والتفكير الميتافيزيقى يعيشان بجانب التفكير الوضعى الجديد • وسوف تظل الأمم فى حالة من الثورية الى ن يتم الاعتراف بمجموعة من الأفكار العامة يمكن أن نعتبرها نقطة تجمع لمذهب اجتماعى • وعندما يتوصل المجتمع الى هذه المبادىء ، فان النظم القائمة سوف تتوافق معها دون أدنى مقاومة • وسوف يؤدى هذا التوافق الى الامساك بأسباب عدم النظام فى المجتمع(٣٩) • هذه المبادىء العامة هى مبادىء الفلسفة الوضعية • فالالتفاف حولها هو الكفيل باعادة النظام الى المجتمع المفكك •

وتهتم الفلسفة الوضعية أو علم الاجتماع فى نظر كونت ـ بالظواهر الاجتماعية التى اهملتها العلوم الموجودة فى عصره : الفلك ، الفيزياء ، والكيمياء وعلم وظائف الأعضاء • فهذه الظواهر لها نفس روح الظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية والفسيولوجية من حيث انها يمكن أن تخضع لقوانين عامة • بل أنها أكثر تفردا وأشد تعقيدا من الظواهر التى تدرسها العلوم الأخرى(٤٠) • من هنا تكون مهمة علم الاجتماع هى « اكتشاف سلسلة التحولات الثابتة المتتابعة للعنصر الانسانى الذى بدأ من مستوى لا يرقى عن مجتمعات القردة العليا ، وتحول تدريجيا الى حيث يجد الأوروبيون المتحضرون انفسهم اليوم »(٤١) •

أن كونت بذلك يسعى الى انشاء علم عام للمجتمع • ولقد اعتبر دراسته المطولة عن السياسة الوضعية دراسة فى علم الاجتماع ، أو أنها تلخيص لعلم دراسة المجتمع الجديد • ومبادىء هذا المذهب الوضعى سوف لا تجعلنا بحاجة الى الاعتماد على الديانات التاريخية • فالمبادىء الوضعية يجب أن تحل محل المسيحية التقليدية(٤٢ ربما كان هذا هو السبب الذى

---

(٣٨) Ibid., p. 1.
(٣٩) Ibid., p. 14.
(٤٠) Ibid., p. 7
(٤١) نقلا عن تيماشيف نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ،ص٢٨•
(٤٢) Nisbet, Tradition and Revolt, op. cit., p. 84.

دفع كونت الى أن يعتبر مذهبه الوضعى ديانة جديدة للانسانية · وعلماء الاجتماع فى نظره هم كهنة هذا الدين الجديد (العلم الجديد) ، والقائمون على أمره ، والساهرون على رعايته · حقيقة أنهم سيلتزمون التزاما صارما بالابتعاد عن توجيه الشئون الدنيوية ، ولكنهم سيضطلعون بالاشراف على الحياة الفكرية والأخلاقية فى مجموعها · وستسير الأمور فى ظل النظام الجديد بصرامة · ويصبح الخلق الكريم والطاعة واجبا ملزما لكل انسان · وسيصبح كل فرد موظفا فى خدمة المجتمع(٤٣) · وبناء على ذلك يظل البناء الطبقى كما هو ، بحيث يتوقف الصراع الطبقى من خلال احداث توفيق اخلاقى بين الطبقات · ويمكن تسهيل هذه المهمة عن طريق فرض سلطة اخلاقية بين الطبقات العاملة وقادة المجتمع(٤٤) ·

ويتضح من هذا العرض المختصر للفلسفة الوضعية عند كونت أنه برغم محاولته المستميتة لأن يظهر تفرد الفلسفة الوضعية وانفصالها عن الأطر الفكرية القائمة واضفاء الطابع العلمى عليها(٤٥) · رغم ذلك فان آراءه ما هى الا صياغة جديدة للاتجاه المحافظ الذى عرضت لقضاياه الأساسية فيما سبق · ولقد اعترف كونت بذلك اعترافا ضمنيا عندما تحدث عن الثورة والتغير الاجتماعى حيث كشف حديثه عن عداء لهما مما يؤكد اتجاهه المحافظ يقول : « يمكن فقط من خلال السياسة الوضعية كبح الروح الثورية · كما يمكن من خلالها تقدير وحصر الاتجاه النقدى ·· ويمكن توجيه كل المسائل الصعبة التى تجعل المجتمع فى حالة هياج مستمر ·· الى تحقيق قدر من السلام الاجتماعى ·· وسوف تعلم الفلسفة الوضعية المجتمع أن التغير السياسى ليس له اى اهمية ، وأن التغيرات العنيفة غير مجدية ·· ومن ثم تميل الى المحافظة على النظام العام »(٤٦) ويتضح ذلك بجلاء عندما نوضح موقف كونت من قضيتى للنظام والتقدم ·

---

(٤٣) علياء شكرى ، علم الاجتماع الفرنسى المعاصر ، مرجع سابق ص ١٠ ·

(٤٤) Zeitlen, Ideology and op. cit., p. 75.

(٤٥) تحدث كونت عن المنهج العلمى باختصار شديد ، واشار فى هذا الصدد الى فكرة القوانين العامة ، واستخدام الملاحظة والتجربة والمقارنة والمنهج التاريخى الذى يسعى الى الكشف عن القوانين العامة للتغير ·

(٤٦) نقلا عن زايتلن ، المرجع السابق ، ص ٧٤ ·

٢ ـ النظـام والتقـدم :

ان محاولة كونت الربط بين النظام والتقدم ، هى محاولة للربط بين الفكر المحافظ المشتق من بونال وميستر والفكر النقـدى الذى ترجع جذوره الى عصر التنوير(٤٧) ليخرج بشىء جديد هو الفلسفة الوضعية التى اعتقد أنه يمكن تنظيم المجتمع على أساسها • ولكن برغم هـذه المحاولة للربط بينهما ألا أن كونت قد أولى اهتماما كبيرا للنظام ، وحصر كل حديثه عن التقدم فى قانون المراحل الثلاثة أو محاولة اكتشـاف التغيرات الكبرى فى الحضارة الانسانية • وأكثر من ذلك فان التقدم والحركة يجب أن يكونا فى خدمة الاتساق العام ، فالحركة لا يجب أن تؤدى الى انهيار وتفكك فى النسق الاجتماعى(٤٨) ويؤكد وجهة النظر هـذه جون ركس Rex حيث يقول « بالرغم من أن كونت قد استفاد من قانون المراحل الثلاثة ومن فكرة الديناميكا الاجتماعية ، الا أن اهم فصل فى كل أعماله هو الفصل الذى كتبه عن الاستاتيكا الاجتماعية »(٤٩) •

بذلك يكون علم الاجتماع فى نظر كونت هو علم النظام العام : يعمل على احداثه ، ثم يحاول تفسيره وتشريحه بعـد أن ترسى دعائمه • أما نظريته عن التقدم فقد جاء بها ليوهم نقاد المجتمع أنه يستطيع أن يربط بين النظام والتقدم أو بين القديم والجديد • فقد كانت الاتجاهات الثورية والنقدية من الانتشـار والتاثير بحيث لا يستطيع أى منظر أن يتجاهلها أو يتغاضى عما تنادى به (التقدم • ولقد تصـور كونت أنه يستطيع أن يربط بين النظام والتقدم ، ولكن جاءت نظرياته مركزة على النظـام ، مع لمس التقدم والتغير لمسا سـطحيا ، بل صـياغته فى اطار فلسفى بحت • ونستطيع أن نسوق الشواهد التى تدعم هـذه الفكرة التى تخـدم هدفنـا الرئيسى من عرض آراء كونت ، واعنى ابراز تركيزه على حل مشـكلة النظام العام فى المجتمع :

١ ـ تخوف كونت تخوفا كبيرا من الروح النقدية السـائدة فهاجمها

---

(٤٧) Zeitlen, Ideology and.... op. cit., p. 71.

(٤٨) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ٣٩ •

(٤٩) J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 95.

هجوما كبيرا · فهـذا النقد يترتب عليه نتائج غير تنظيمية ، ويؤدى الى تحطيم النظم التى اكتسبت مكانتها عبر الزمن · فنقد العائلة الأبوية ، أو نقد الواجبات الاجتماعية يجعل المجتمع يفقـد السلطة الأخلاقية ويتردى فى حالة من الرعب والفوضى(٥٠) · ويطيب لى أن أشـبه هـذه النظرة بنظرة هوبز الى الطبيعة البشرية على انها تميط اللثام دائما عن حرب يدخل فيها الكل ضـد الكل · وكان حل هوبز لهـذه المشـكلة قهريا تعاقديا كما رأينـا · اما حل كونت فهو حل وضـعى يخلق فى النهاية ضروبا كثيرة من ضروب القهر ·

٢ ـ اعجب كونت اعجابا يفوق الحد بالمـاضى ، خاصـة مجتمع العصور الوسطى · وذهب الى القول بأن الكاثوليك المتزمين لهم فضـل كبير على الوضعيين وذلك لتمسكهم بثقافة العصور الوسطى · فضلا عن ذلك امتدح كونت اتبـاع بونال ـ وهو من الفلاسـفة المحافظين ـ وذلك لاستخدامهم مبادىء وضـعية فى تحليلهم للنظم ، وتاكيدهم على أولوية المجتمع على الفرد ، واعتماد الفرد اجتماعيا على قيم المجتمع ونظمه(٥١) ·

٣ ـ الاتساق العام فى المجتمع هو اسـاس النظـام والتقـدم · فالاستاتيكا الاجتماعية هى دراسة لارتباط الظواهر بعضها بالبعض الآخر ، واجزاء المجتمع لا يمكن أن تفهم منفصلة عن بعضـها كما لو كان لكل منهـا وجود مستقل · وعلينا بدلا ممن هذا أن ننظر اليها على اعتبار انها تربط بينها علاقات متبادلة ، وانها تكون كيانا كليا يفرض علينا ان نتناولها فى علاقاتها ببعضها البعض(٥٢) ·

يقول كونت « يجب ان يكون هناك تناغم مستمر بين الكل والأجزاء فى النسق الاجتماعى ، الذى يجب ان تترابط عناصره بالضرورة فى جو متوافق توافقا كليا مع طبيعة هـذه العناصر ·· ولا يتحقق هـذا التناغم تحققـا كليا ، الا انه قائم على أى حال : فبدونه يتحلل الكائن العضوى الاجتماعى

---

(٥٠) Zeitlen, Ideology and.... op. cit., p. 73.

(٥١) R. Nisbet, Tradition and Revolt, op. cit., p. 84.

(٥٢) اليكس انكلز ، مقدمة فى علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٣٥.

تحللا كليا »(٥٣) ٠

٤ ـ المجتمع هو صانع الفرد ، ومن ثم يجب أن يخضع الفرد للمجتمع خضوعا تاما ٠ وبناء على ذلك فان وحدة الدراسة فى علم الاجتماع هى الجماعة وليس الفرد ٠ ففكرة الشخصية الفردية الخالصة فكرة منطقية من الناحية السيكولوجية ، فالوحدة الأساسية فى المجتمع هى الأسرة ، التى تشكل شخصية الفرد ٠ يقول كونت : « مثلما يتكون كل نسق من عناصر ذات طبيعة واحدة ، فان الروح العلمية تمنعنا من ان نعتبر المجتمع حشدا من الأفراد ٠ فالوحدة الاجتماعية الحقيقية هى الأسرة ، التى يمكن أن نردها الى الزوجين على اساس انهما يكونان قاعدتها الأساسية »(٥٤) ، ولا يدل هذا النص على علمية كونت بقدر ما يدل على اتجاهه المحافظ ٠ فلم يكن كونت عالما ، ولكنه من خلال عبادته الرومانسية للعلم نزع الأبنية الاجتماعية للأسرة ، والجماعة المحلية ، واللغة ، والدين ، من الاطار الثيولوجى والرجعى الذى وضعها فيه بونال ، واضفى عليها لغة وطابع العلم على ما يذهب روبرت نيسبت(٥٥) ٠

٥ ـ تقسيم العمل يؤدى الى مزيد من الترابط ٠ فرؤساء الأسر يرتبطون مع بعضهم من خلال تقسيم العمل ٠ ولكن تقسيم العمل قد لا يحقق هذا الهدف ، ومن هنا تظهر اهمية الدولة التى لا بد أن تفرض رقابة سياسية وفكرية لضمان تحقيق التكامل ٠ ولقد ضمن كونت تحت تقسيم العمل التفرقة بين الملاك وغير الملاك ولكنه لم يتخوف من الصراع الطبقى بينهما بقدر ما تخوف من الفشل فى تحقيق التكامل بين المهن(٥٦) ٠

نستطيع بنظرة سريعة على ما سبق أن نلحظ ذلك الارتباط الوثيق بين عناصر النظام التى رأيناها فى الفصل الأول ، وبين ما قدمه كونت من آراء وضعية لاعادة بناء المجتمع ٠ فالثبات ، وتبادل العلاقات بين أجزاء النظم المختلفة ، والقهر والكبح الذى يحقق هذا الثبات وذلك التناغم بين العلاقات

---

(٥٣) A. Comte, The Positive Philosophy, op. cit., Vol. 2 p. 5.

(٥٤) Ibid., p. 132.

(٥٥) R. Nisbet, Tradition and Revolt, op. cit., pp. 84—85.

(٥٦) J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 95.

وكلها عناصر تحقق النظام الاجتماعى العام ، يمكن ان تشتق بسهولة من آراء كونت • هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فان اهتمام كونت بالجماعة ككل ، وبالبناء الاجتماعى العام ، والاتساق العام ، وليمانه الراسخ بأن فلسفته الوضعية تستطيع ان تعيد النظام للمجتمع ، كل ذلك وضعه فى مأزق أيديولوجى بحيث انساق وراء الاتجاه المحافظ فاصبحت افكاره لا تعدو أن تكون تكرارا لما قاله المحافظون • وهذا كله يجعل كونت ، الى جانب انه الأب المؤسس لعلم الاجتماع ، أول من ربط علم الاجتماع بالأيديولوجيا •

ثالثا ـ اميل دوركايم « امتداد الوضعية » :

راينا فى الفقرة السابقة كيف انبثق علم الاجتماع على يد أوجست كونت من خلال الصراع بين مجموعة من المذاهب الفكرية كانت تعبر بدورها عن صراع على المستوى الاجتماعى بين الطبقات والفئات التى تكون المجتمع وهى صراعات فكرية وبنائية أذكتها الثورة الفرنسية والثورة الصناعية • ورأينا أيضا كيف كانت انبثاقة علم الاجتماع محاولة من اجل تثبيت مصادر الصراع هذه لكى يحقق المجتمع استقراره فى ظل فلسفة جديدة ، أو ديانة جديدة وأعنى الفلسفة الوضعية أو الديانة الوضعية • وفى هذه الفقرة أحاول أن ابرهن على قضية أساسية مؤداها ان آراء اميل دوركايم ونظرياته السوسيولوجية كانت امتدادا وتمحيصا للفلسفة الوضعية ازاء ظروف بنائية وفكرية أثارت من جديد مشكلة النظام وفرضت على دوركايم ، أو فرض عليها دوركايم ، حلا معينا لهذه المشكلة • ولكى أحقق هذه الغاية سوف أكشف عن بعض الظروف البنائية والفكرية التى انبثق عنها فكر دوركايم ، بعدها أعرض لمظاهر امتداد الوضعية عنده فأتحدث عن الضمير الجمعى ، والتضامن ، والمظاهر المصاحبة له •

١ ـ الظروف البنائية والفكرية :

بدأ دوركايم فى الكتابة والمجتمع الفرنسى يتعرض لأزمة اصابته بسوء التكامل ، وذلك بعد الهزيمة فى الحرب مع المانيا فى عامى ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ • وبناء على ذلك ظهرت مجموعة من المتاعب واجهت ظهور الجمهورية الثالثة فى فرنسا ، ومن هنا ظهرت من جديد مشكلة الاتساق العام : كيف يمكن حماية

المجتمع من الانهيار(٥٧) ومع وجود هذه الأزمة لم تكن الظروف التى ادت الى انبثاق علم الاجتماع على يد كونت قد اختفت تماما : فما يزال الصراع بين النزعة المحافظة والاشتراكية الراديكالية قائما(٥٨) وكان على دوركايم أن يختار لنفسه طريقا وسط هذه الظروف ٠

يذهب جيدنز Giddens الى أن دوركايم لم يكن منخرطا فى العمل السياسى وان موقفه السياسى يمثل رفضا للنزعة المحافظة والاشتراكية الثورية ٠ فهو ليبرالى تاثرت ليبراليته بالظروف الاجتماعية والسياسية للاقليم الذى يعيش فيه(٥٩) وأكد جيدنز هذا الرأى فى مؤلفه الحديث الذى اشرت اليه فى الفصل الأول ، حيث رفض اقامة أى علاقة بين آراء دوركايم وبين مشكلة النظام ٠ ولكن سوف يتكشف لنا من عرض آراء دوركايم انه لم يكن يرفض الاتجاه المحافظ ، بل أن الكثير من الكتاب يربطون بين آرائه وبين هذا الاتجاه ربطا وثيقا (٦٠) ٠ وانا أميل الى وجهة النظر الأخيرة ٠ فحيثما تظهر مشكلة النظام ، وحيثما يكون حل هذه المشكلة محاولة لأن يحقق المجتمع تكامله واستقراره وأن يتخطى مظاهر الصراع الكامنة فيه ، فان صاحب هذا الحل يكون محافظا بصرف النظر عن أى انتماء سياسى ٠ ويصدق هذا على دوركايم بطبيعة الحال ٠ فمع انهيار المجتمع الفرنسى عام ١٨٧٠ . ومع شعور الفرنسيين بالاهانة من جراء الهزيمة كان شغل دوركايم الشاغل هو اعادة بناء المجتمع من خلال اعادة بناء التماسك الأخلاقى فيه ٠ ومن هنا كان اهتمام دوركايم بالنظام العام القائم على التضامن بنوعيه والذى يستمد استقراره من سلطة الضمير الجمعى ٠

ولكن لماذا سلك دوركايم هذا الطريق ؟ تستدعى الاجابة على هذا السؤال أن نعرض للاتجاهات الفكرية السائدة والتى تحاور معها دوركايم

---

(٥٧) L. Coser and B. Rosenberg (eds) Sociological Theory, The Macmillan Company, New York, 1967, p. 187.

(٥٨) A. Giddens, Capitalism and Modern Social Theory, Cambridge, at the University Press, 1971, p. 196.

(٥٩) Ibid., p. 199.

(٦٠) روبرت نيسبت وزايتلن على سبيل المثال ٠ والنتيجة الطبيعية لهذا هى اثبات العلاقة بين نظرية دوركايم وبين مشكلة النظام وهو ما أراد جيدنجز أن ينفيه ٠

فقد تشكل فكرة من خلال هذا الحوار الى جانب تأثره بظروف المجتمع الذى يعيش فيه • تحاور دوركايم مع ثلاثة اتجاهات فكرية : الفكر النفعى الفردى لهربرت سبنسر والفكر الاشتراكى ، ثم الفلسفة الوضعية (واطارها المحافظ) •

اتضح منذ البداية معاداة دوركايم للنزعة الفردية ، بحيث يذهب روبرت نيسبت الى أن دوركايم يشترك مع فرويد فى تحمل جزء كبير من المسئولية عن تحويل الفكر من التركيز على الارادة والاختيار والوعى الفردى • الى التركيز على الجوانب غير الاختيارية وغير العقلية •بل ان رد فعل دوركايم تجاه المذهب العقلى كان أكثر ثورية من فرويد من حيث أن الفرد ظل هو بؤرة الاهتمام الرئيسية فى تحليلات فرويد النفسية ، أما دوركايم فانه ركز على الظروف الاجتماعية الخارجية كمصدر للدافع والفكر والسلوك • فما نهتم به عند دراسة الطبيعة الانسانية ، فى نظر دوركايم ، هو مجموعة من الحقائق تنبع اساسيا من أسبقية المجتمع على الفرد ، ومن قدرة هذا المجتمع على أن يضع مجموعة من الميكانيزمات القهرية تضبط سلوك الأفراد داخله(٦١) • من هنا تظهر معاداة دوركايم للفكر الفردى ، وطبيعى أن يعادى دوركايم هذا الفكر ما دام بؤرة اهتمامه (أى دوركايم) الرئيسية هى النظام العام ، فهو يخاف ان تقضى المنفعة الفردية والتنافس على وجود هذا النظام على ما يذهب الفن جولدنر(٦٢) •

وتتضح معاداة دوركايم للفكر النفعى الفردى أيضا فى رفضه لنظرية العقد الاجتماعى المرتبطة بهذا الفكر والتى أكد عليها هربرت سبنسر • وجوهر هذه النظرية هو علاقة التبادل الاقتصادى التى تحسمها حسابات العرض والطلب بين الأطراف الداخلة فى التعاقد • وتحتوى هذه العلاقات بطريقه ضمنية على فكرة مؤداها ان الفائدة المتبادلة للأطراف الداخلين فى التعاقد هى التى تشكل القوة الرابطة التى تحفظ التماسك داخل النسق • ولكن دوركايم ذهب الى ان هذه النظرية حينما حصرت نفسها داخل علاقة التبادل الاقتصادى اهملت مجموعة من القواعد لا تعتبر جزءا من الاتفاق ، ولكنها موجودة قبل وجود هذا الاتفاق ويجب ان تؤثر فيه • انها قواعد قائمة

---

(٦١) R. Nisbet, Tradition and Revolt, op. cit., p. 86.

(٦٢) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., p. 122.

ومعترف بها من الناحية الاجتماعية · واذا ما راد طرفان ان يبرما عقدا فلابد أن يكون فى ضوء الشروط التى تقررها هذه القواعد والحقوق والواجبات التى تفرضها · وهذه القواعد مدعمة ـ فى نظر دوركايم ـ بمجموعة كبيرة من القواعد العرفية ، والاصلاحات التجارية ، وهى قواعد لها الزام القانون بالرغم من عدم تنفيذها فى المحاكم · هذا فضلا عن أن الاتفاق التعاقدى بالمفهوم الفردى يجعل الأفراد مرتبطين من أجل هدف محدود ، ولوقت محدد · وعوضا عن ذلك ينظر دوركايم الى العقد نظرة مجتمعية عامة ، من خلاله يتحقق النظام للعام ، وبدونه يصبح الناس فى حالة حرب · فتحقيق المصالح المتعددة للأفراد من خلال التعاقد هو الذى يقلل من حدة العداء الكامن بين الأفراد ويؤدى ذلك الى فائدة متبادلة وسلام متبادل · فقد فشل سبنسر وغيره فى أن يفسروا كيف يتحقق هذا السلام ، والفرق بينهم وبين دوركايم يكمن فى حقيقة امبيريقية ركز عليها دوركايم مؤداها أن مركب الفعل الذى يحقق من خلاله الأفراد مصالحهم يتم داخل اطار من القواعد ، تعتبر مستقلة من دوافع الأفراد الفعلية أو دوافع الأطراف الداخلين فى التعاقد · انها الجوانب غير التعاقدية فى العقد الاجتماعى · وهى حقيقة لم يدركها أصحاب النزعة الفردية على الاطلاق(٦٢) · وهنا يمكن الحل الدوركايمى لمشكلة النظام الذى يقوم على قهر القيم المعايير بدلا من قهر الدولة للعلاقات النفعية وتنظيمها لها على ما ذهب هوبز·

واذا كان جنوح دوركايم الى النظام قد دفعه الى رفض الفكر الفردى ، فقد دفعه نفس السبب الى رفض الاشتراكية · لقد بدأ اهتمام دوركايم بالاشتراكية منذ عام ١٨٨٣ ، نفس الفترة التى أعد فيها خطة كتابة عن تقسيم العمل · ولكن تقدمه فى هذه الدراسة جعله ينشغل بها عن الاشتراكية الى أن بدأ يهتم بها مرة أخرى فى عام ١٨٩٥ حيث ألقى سلسلة من المحاضرات فى هذا الموضوع · ويذهب البعض الى أن كل أعمال دوركايم ما هى الا محاولة لاقامة نموذج للمجتمع يعارض نموذج ماركس الاشتراكى حيث حاول منذ البداية أن يبحث عن نوع من الوساطة الفكرية بين نسقين نظريين قائمين : الوضعية والماركسية من خلال تفسير منبعهما المشترك وأعنى سان سيمون ·

---

(٦٢) T. Parsons, The Structure of Social Action, Free Press 1949, pp. 311—316.

ولكنه فشل فى هذه المصالحة الأيديولوجية فطور الجانب المحافظ عند سان سيمون واهمل الجانب الراديكالى الذى طوره ماركس(٦٤) ٠

لم ير دوركايم فى الاشتراكية مذهبا جديدا ، بل انه اعتبرها صيحة الم لانسان يولجه بمظاهر الأنومى فى المجتمع الصناعى(٦٥) انها مثلها مثل ظواهر المجتمع يجب أن تخضع للدراسة العلمية ٠ يجب اعتبارها حقيقة اجتماعية خارجية ، فهى وان كانت توجد فى المجتمع الا انها لا تعبر بالضرورة عن الظروف الاجتماعية التى أنتجت ذلك المجتمع ٠ بل ان عداء دوركايم للاشتراكية امتد الى فقد آراء ماركس فيما يتعلق بعلاقات الانتاج والصراع الطبقى ٠ والنموذج الذى قدمه يؤكد اهمية التغيرات التراكمية فى مقابل التغيرات الثورية فى المشروع الماركسى ٠ فالمجتمعات التى تقوم بها الثورات ليست هى المجتمعات التى تكشف عن قدرة أكبر على التغير ، بل العكس هو الصحيح تماما ٠ لأنه فى اغلب هذه المجتمعات تظل التقاليد الأساسية دون تغيير ، كما أن الثوريين يعطلون التغير الطبيعى من خلال الروتين البيروقراطى. اما عن الصراع الطبقى فقد اعتبره دوركايم ناتجا عن حالة المرض malaise الذى استشرى فى العالم الحديث الى جانب سوء النظام disorder الناتج عن التفكك الأخلاقى(٦٦) ٠ ومن هنا كان تركيز دوركايم على الجوانب القيمية والأخلاقية فى تحقيق التضامن والتماسك فى المجتمع ٠

ولذا كان اهتمام دوركايم باقامة دعائم النظام العام قد جعله يرفض التفسيرات الفردية والاشتراكية ، فان نفس السبب قد جعله يتبنى الوضعية ٠

٢ ـ استمرار الوضعية فى اعمال دوركايم :

ان القول بأن دوركايم قد تبنى الاتجاه الوضعى لا يعنى انه ردد آراء كونت على عواهنها ٠ بل انه استلهم الروح الوضعية عندما ركز على اهمية تحليل العلاقات القائمة بين النظم الاجتماعية من ناحية وبينها وبين البيئة

---

(٦٤) I. Zeitlen, Ideology and the Development of Sociological Theory, op. cit., p. 235—236.

(٦٥) J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 60.

(٦٦) A. Giddens, Capitalism and Modern Social Theory, op. cit., pp. 202—204.

الموجودة فيها من ناحية اخرى · وعندما جعل من نظريته محاولة لاستعادة التوازن والاستقرار بين عناصر المجتمع المتصارعة · وفى اضفاء الطابع العلمى على دراسة المجتمع من وجهة نظر محافظة الى حد بعيد · ولقد حاول دوركايم أن ينقى الوضعية ويخلصها من الشوائب الفلسفية واليوتوبية التى أضفاها عليها كونت وقد تجلى ذلك فيما يلى :

١ ـ اختفت او ضعفت النزعة التطورية فى اعمال دوركايم · وظهر اهتمام بالدراسات المقارنة تلك التى اتضحت بجلاء فى دراسة دوركايم لتقسيم العمل والانتحار والدين(٦٧) ·

٢ ـ معارضة للنزعة التنبؤية اليوتوبية حيث ذهب دوركايم الى أن العلم لم يصل الى مرحلة من النضج بحيث يمكن أن يتنبأ بالمستقبل · فاذا كان كونت قد رفع شعار النظام والتقدم فاندوركايم لم يعر اهمية للتقدم وركز على النظام · وبهذا يكون دوركايم قد أجهض النظرة التطورية للوضعية وقلب مفهومها عن الماضى رأسا على عقب(٦٨) ·

٣ ـ اضفى دوركايم طابع العلمانية على العلم · فاذا كان كونت وسان سيمون قد ربطا علم الاجتماع بالدين الى درجة انهما اعتبراه ديانة جديدة للانسانية ، فان دوركايم عالج الدين كظاهرة اجتماعية مثل كل ظواهر المجتمع(٦٩) ·

٤ ـ نحا دوركايم بالوضعية منحى علميا · فبذل قصارى جهده لتحديد موضوع ومنهج علم الاجتماع · فمن حيث الموضوع حدد خصائص الظاهرة الاجتماعية ومن حيث المنهج ركز دوركايم على الموضوعية والعلمية فى دراسة الظواهر الاجتماعية الى درجة انه ذهب الى اننا يجب أن نعتبرها « أشياء » خارجية منفصلة عن شعورنا الذاتى ، وأنه يجب على الباحث ان يتحرر من

---

(٦٧) A. Gouldner, The coming Crisis of Western Sociology, op. cit., p. 119.

(٦٨) Ibid., p. 134.

(٦٩) Ibid., p. 134.

كل فكرة سابقة عن الظاهرة كى لا يقع فى اسر افكاره الخاصة(٧٠) . وقد دفعت نزعة دوركايم العلمية المفرطة البعض الى القول بأن العامل الحاسم فى تميز علم الاجتماع الدوركيمى على ما سبقه ، وكل من عاصره ، هو انه فهم على انه منهج أولا وقبل كل شىء ، منهج لاستخلاص الوقائع الاجتماعية من تنوع الظواهر الدائم(٧١) .

وما يهمنى الآن هو أن احاول استقصاء مظاهر استمرارية الوضعية فى اعمال دوركايم لنؤكد قضية اساسية مؤداها انه برغم النزعة العلمية المفرطة التى تميزت بها أعمال دوركايم ، فان القضية الأساسية التى شغلته منذ البداية هى : كيف يكون المجتمع ممكنا ؟ فى كلمة واحدة يمكن أن نحصر لجابة دوركايم على هذا السؤال : النظام . فكل نظريات دوركايم تسعى لأن توضح مظاهر تحقيق النظام ، والبحث عن أنماط جديدة من التفاعل ومشاعر التضامن داخله ، والميكانيزمات التى تفرض النظام عندما تتحقق اعلى درجة من التضامن داخل المجتمع ، واعنى التضامن العضوى .

فمنذ كتابه الأول عن « تقسيم العمل » وقضية الوحدة الاجتماعية او التضامن هى شغله الشاغل . وتقسيم العمل هو القضية التى قدمها دوركايم لمواجهة الصراع الناتج عن التنافس وزيادة كثافة السكان . وهو بذلك يكون قد احال مشكلة الصراع الى مشكلة تباين فى الأدوار يؤدى الى التضامن . فالوظيفة الأساسية التى يقوم بها تقسيم العمل هو تحقيق التضامن فى المجتمع أو تحقيق للتكامل أو استعادته(٧٢) . يقول دوركايم : « ان وظيفة تقسيم العمل الحقيقية هى أن يخلق احساسا بالتضامن بين شخصين أو أكثر وهدفه ينحصر فى خلق التماسك بين الأصدقاء وأن يطبعهم بطابعه »(٧٣) .

---

(٧٠) مصطفى الخشاب ، **علم الاجتماع ومدارسه** ، الكتاب الثالث ، المدارس الاجتماعية المعاصرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ص ٩ ـ ١٠ وانظر كذلك دوركايم ، **قواعد المنهج فى علم الاجتماع** ، ترجمة محمود قاسم ومراجعة السيد بدوى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .

(٧١) علياء شكرى ، **علم الاجتماع الفرنسى المعاصر** السابق الاشارة الاشارة اليه ، ص ٣١٠ .

(٧٢) P. Cohen, Modern Social Theory, op. cit., p. 35.

(٧٣) E. Durklien, **The Division of Labour in Society**, trans by G. Simpson, Free Press, 1964, p. 53.

فتقسيم العمل لا يؤدى الى التفكك وصراع المصالح ولا يكشف عن مظاهر عدم المساواة كما ذهب الماركسيون ، ولكنه يؤدى الى الوحدة والتضامن(٧٤). ولكن هل التضامن مرتهن بتقسيم العمل فقط ، اى انه لا يوجد فى المجتمع الذى لا يعرف شكلا من اشكال تقسيم العمل ؟ الاجابة بالنفى بطبيعة الحال . فالتضامن قائم فى المجتمع سواء عرف تقسيم العمل أم لم يعرفه . الاختلاف يكمن فى نوعية التضامن . ففى المجتمعات البسيطة التى لا تعرف تقسيم العمل يكون التضامن آليا يستمد قوته من الضمير الجمعى والقانون القهرى.

وعندما يزداد تعقد المجتمع ودرجة اللاتجانس فيه ، يظهر نوع أعلى من التضامن قائم على تقسيم العمال والتخصص ، وأعنى التضامن العضوى. وهو يستمد وجوده من القانون التعويضى الذى يحل محل القانون القهرى فى مجتمع التضامن العضوى .

ويعد مفهوم الضمير الجمعى مفهوما أساسيا فى فكر دوركايم . فمنه يستمد المجتمع وحدته وتضامنه . ولقد ذهب دوركايم فى كتابه « تقسيم العمل » الى ان الضمير الجمعى يتألف من التصورات والعواطف الشائعة بين الأفراد الذين يكونون غالبية أعضاء الجماعة . أما فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » فقد ذهب الى ان الضمير الجمعى يمارس على الأفراد ضغطا بحيث يخلق بينهم تماثلا عقليا وعاطفيا . واذا كان دوركايم قد ركز على اهمية الضمير الجمعى فى مجتمع التضامن الآلى فانه لم يهمل دوره فى مجتمع التضامن العضوى . فالتعاقد الذى هو أساس التضامن العضوى « لا يستمد قوته من ذاته فحسب ، ولنما هو محصلة نوع من التنظيم القانونى والعرفى . وهذا التنظيم اجتماعى فى أساسه »(٧٥) . جوهرة التصورات للجمعية التى تنشأ من تفاعل الأفراد .

يؤكد لنا ما سبق أن دوركايم يحاول أن يبرز الجوانب التعاونية فى النسق الاجتماعى على حساب الجوانب الأخرى . لقد جرد مفهوم تقسيم العمل من كل علاقات السيطرة والصراع ، وأكثر من هذا لقد حاول أن يرد

---

(٧٤) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١٦٦ .
(٧٥) علياء شكرى ، علم الاجتماع الفرنسى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٦٠ .

الصراع الى الأشكال الباثولوجية لتقسيم العمل ، واعنى تقسيم العمل الأنومى وتقسيم العمل الشاذ • وفى ذلك محاولة للرد على ماركس الذى ابرز الطابع الصراعى لتقسيم العمل فى المجتمع الرأسمالى ، حيث يفرض تقسيم العمل على العامل موقفا يتعرض فيه للاستغلال من الناحية الفيزيقية والعقلية ، الى أن تتغير علاقات الانتاج الرسمالية • على العكس من ذلك اعتبر دوركايم عدم المساواة الناجمة عن تقسيم العمل شيئا طبيعيا لأنها قائمة على القدرات الطبيعية ، وهو لا يؤدى الى التنافس والصراع ، ولكن يؤدى الى التعاون والتضامن • والأشكال الشاذة والأنومية منه فقط هى التى يمكن ان تولد الصراع •

ولقد كانت كل دراسات دوركايم التالية لكتاب تقسيم العمل محاولة لابراز بعض العوامل التى تدعم قضية التضامن وقضية الضمير الجمعى الى اشارهما فى كتابه تقسيم العمل :

١ ـ فى دراسته عن قواعد المنهج فى علم الاجتماع قدم تصويرا جديدا للضمير الجمعى حيث ذهب الى أن هذا الضمير يخلق ضربا من ضروب التماثل العقلى والعاطفى بين الأفراد • واهتم دوركايم فى هذا الكتاب بكل ما يوضح اسبقية المجتمع على الفرد وقهره له وهى قضية طورها أساسا المحافظون وأكد عليها اوجست كونت • فالمجتمع له صفة الخارجية والقوة ، وهو واقع مستقل Sui generis له خصائصه المميزة التى لا توجد فى اى شىء آخر والتى تختلف عن تجسيداتها الفردية • ولكل ظاهرة من ظواهر المجتمع وظيفة أساسية تساهم بها فى خلق التكامل الاجتماعى • ويبالغ البعض بالقول بانه حتى المنهج الذى طوره دوركايم فى هذا الكتاب يكشف عن ايديولوجية المحافظة(٧٦) • تأخذ القضايا المنهجية الأساسية عند دوركايم تلك القضية التى تذهب الى القول بالواقع الوضوعى للحقائق الاجتماعية • واعتبار النظام القائم موضوعيا وحقيقيا يعنى اهمال الميول الكامنة لرفضه • فضلا عن أن هذه القضية المنهجية تبالغ فى فصل الحقائق الاجتماعية عن ارادة الأفراد • فقد انصب تركيز دوركايم على القهر الخارجى الذى تمارسه هذه الحقائق على الأفراد دون الاهتمام بمقدرة

---

(٧٦) Nisbet Tradition and Revolt, op. cit., p. 87.

الأفراد على تغيير هـذه الحقائق • وتلك مسألة هامة على أى حال تثير الكثير من الجدل وبها قـدر غير قليل من الصحة والمنطق • فعلى انقـاض قضية دوركايم هذه اسس الراديكاليون المحدثون فى علم الاجتماع أغلب قضـاياهم النظرية والمنهجية كما ستيضح لنا فى القسم الثانى من هـذا الكتاب •

٢ ـ تعتبر دراسة دوركايم عن الانتحـار محاولة للربط بين معـدلات الانتحار والفروق فى التضامن الاجتماعى بين الجماعات المختلفة • فالتضامن عنده يعد بمثابة متغير مستقل للأنماط المختلفة من الفعل الاجتماعى • فاذا كان التضامن الاجتماعى ضعيفا ينتج عنه مجموعة من النتائج الباثولوجية يعتبر الانتحار واحدا منها • والمعدلات المرتفعة منه يمكن أن تكون مؤشرا على نقص الاتساق العام فى المجتمع ككل أو بين جماعاته الفردية • ولقـد استطاع دوركايم أن يربط بذكاء ومن خلال استخدام الاحصاء بين التباين فى معدلات الانتحار وبين درجة التضامن فى ثلاث جماعات دينية هى : الكاثوليك والبروتستنت واليهود • فالأولى أكثر تزمتا من الثانية • ويفرض التمسك بتعاليم الدين على افرادها قـدرا من التضامن ، فى الوقت الذى تترك فيه الديانة البروتستنتية للأفراد قـدرا من الحرية فى الممارسة الدينية ومن ثم تتعـدد فيها أساليب الفكر والسلوك الدينيين وبالتالى يقل التضـامن بين أعضائها • ومن الفروق بين الجماعتين فى درجة التضامن ينطلق دوركايم لتفسير الفروق فى معدلات الانتحار بينهما • فارتفاع معدلات الانتحار بين البروتستنت فناتج عن كون البروتستانتية ديانة اقل تكاملا من الكاثوليكية• اما انخفاض معدلات الانتحار بين اليهود فيرجع الى شعورهم غير العـادى بالتضامن الذى خلقه بينهم ما تعرضوا له من مذلة وما تتميز به حياتهم من انعزالية(٧٧) • وخلص دوركايم الى قضايا عامة تفسر الانتحار فى علاقته بالتضامن فى الجماعات الأسرية والدينية والسياسية ردها الى قضية واحدة هى : ارتبـاط الانتحـار ارتباطا عكسـيا بدرجـة التكامل فى الجمـاعة الاجتماعية(٧٨) •

---

(٧٧) E. Durkhien, Sucide : A Study in Sociology, trans by G. Simpson, The Free Press, Glencoe, 1951, pp. 156—16.

(٧٨) Ibid., pp. 208—212.

هذا الى جانب ان الانتحار يشكل عاملا سلبيا فى خلق نوع من التكامل الاجتماعى ٠٠ ويتجلى ذلك فى الربط بين انماط محددة من الانتحار وبين اشكال بنائية محددة ٠ فهو يميز بين ثلاثة انماط من الانتحار : الايثارى والأنومى والأنانى ٠ الا انه يعطى للشكل الايثارى دورا هاما فى صياغة التكامل البنائى بينما يجعل الشكلين الباقيين مجرد دلالة على وجود خلل فى تنظيم البناء الاجتماعى القائم ٠

٣ ـ وفى كتابة « الصور الأولية للحياة الدينية » حاول دوركايم ان يدرس العلاقة بين الوجود الجمعى والتصورات الجمعية وحاول ان يبرهن على هذه العلاقة من خلال دراسة الصور الأولية للوجود الاجتماعى كما يتمثل فى المجتمعات البدائية(٧٩) ٠ فالفعل الجماعى المتمثل فى الممارسات الدينية هو الذى يخلق لدى افراد الجماعة الوعى بذاتهم ، وهو الذى يدعم الكيان الجماعى الواحد فى نفوس أولئك الأفراد ٠ وتمثل الشعائر الدينية نوعا من التعاون الفعال ذى الآثار الايجابية ٠ بل ان الأفكار والمشاعر الجماعية لا يتم تواصلها الا من خلال حركات ظاهرية يؤديها الأفراد(٨٠) ٠ فالمجتمع هو الذى يفرز الدين كتصور جمعى يكون له من السلطة الأخلاقية ما للمجتمع ذاته وتتمثل الوظيفة الرئيسية للدين فى تحقيق التضامن الاجتماعى وتدعيمه والمحافظة عليه(٨١) ٠

لا نستطيع ان نعزل دراسة دوركايم للدين عن ثنائيته فى التضامن ٠ اذ لا شك أن الدين يلعب دورا هاما فى مجتمع التضامن الآلى ، أما فى مجتمع

---

(٧٩) Zeitlen. Ideology and the Development of Sociological Theory, op. cit., p. 276.

(٨٠) عليا شكرى ، علم الاجتماع الفرنسى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٩٧ ٠

(٨١) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ والدين فى نظر دوركايم هو نسق من المعتقدات والممارسات المتصلة بالأشياء المقدسة تمييزا لها عما هو علمانى ٠٠ ولقد ساوى دوركايم بين الله والمجتمع حيث يوازى الانسان البدائى بين القوة الغيبية التى يعتقد فى مقدرتها وبين قوة المجتمع ، بل ان هذه القوة الغيبية تمثل فى نظر الانسان البدائى ـ المجتمع ولكن بطريقة رمزية فالرموز الدينية تكتسب احترامها لأنها تمثل النظام الأخلاقى للمجتمع ، ومن ثم يجب حفظها عن الأشياء العلمانية ٠ باختصار فان نظرية الدين عند دوركايم تفسره فى ضوء الحاجة الجمعية للتعبير عن الاحساس بالتضامن والخوف من تفكك النظام الاجتماعى ٠

التضامن العضوى فان الدين لا يساهم وحده فى تحقيق التضامن على الوجه الأكمل • هنا تظهر الحاجة الى ميكانيزمات جديدة للضبط الاجتماعى والتضامن يمكن أن نشتقها من كتابات دوركايم • أكد دوركايم على أهمية التربية الأخلاقية • فلا بد من وجود قواعد أخلاقية تنظم السلوك يتعلمها الأطفال من خلال التنشئة الاجتماعية • وتستهدف عملية التنشئة هذه تهذيب سلوك الأفراد من أجل المحافظة على النظام الاجتماعى العام ، وخلق كيان روحى للمجتمع • كما أكد دوركايم على أهمية احياء الطوائف المهنية التى تطور لنفسها اخلاقا مدنية خاصة بحيث تعيش فى وئام ودونما صراع وبحيث تندمج عقول الأفراد فى فهم متبادل ، حتى ولو ظلت مظاهر عدم المساواة البنائية قائمة(٨٢) • فمن الأساليب التى يمكن من خلالها حل مشكلة الصراع فى المجتمع تشكل الالتزامات الأخلاقية للجماعات المهنية داخل نظم ، على أن تحصر مهمة الدولة فى التنسيق بين هذه الجماعات المهنية(٨٣)•

وفى ضوء هذا الاستعراض لأفكار دوركايم فى ضوء الظروف التاريخية والفكرية التى كتب فيها أعماله يتضح ـ على خلاف ما يذهب جيدنجز ـ أن اعمال دوركايم كانت تناقض المذهب النفعى ـ الفردى وكذلك المذهب الاشتراكى وتجنح نحو الاتجاه المحافظ • وقد تشكل حله لمشكلة النظام من خلال هذا المنطلق ، وهو حل يركز على التضامن والالتزام بالقيم والمعايير فى علاقة تعاون بين الفرد والمجتمع ، وليس حلا مفروضا من الدولة على أفراد لهم مطلق الحرية كما ذهب هوبز • وفضلا عن ذلك تكشف اعمال دوركايم عن استمرار الاتجاه الوضعى(٨٤) تبدى ذلك فى نزعته العلمية المفرطة ـ ظواهر المجتمع اشياء على ما ذهب ـ التى تسببت فى احداث هوة كبيرة بين الباحث الموضوعى ومادة دراسته ، واعنى المجتمع الذى لا يعدو الا أن يكون « شيئا » فى فكر دوركايم • ولقد تسببت هذه

---

(٨٢) Zeitlen, Ideology and the Development of Sociological Theory, op. cit., pp. 252—253.

(٨٣) اتخذ دوركايم موقفا ليبراليا تجاه امتداد رقابة الدولة واحال دورها الرقابى الى الالتزامات المهنية وهو بذلك يقترب من سبنسر •

(٨٤) أدخل على الوضعية عناصر معيارية لم يكن لها مكان فى النظريات النفعية او الوضعية •

النزعة فى كل ما آلت اليه النزعة الامبيريقية من مثالب واخطاء على ما سنرى فيما بعد ٠

رابعا ـ تميز تراث ماكس فيبر : وجهة نظر :

كثيرة تلك الكتابات التى عالجت نظريات ماكس فيبر ، ولكن القليل منها التى فهمته فى ضوء الحركة الفكرية والسياسية التى عاشتها وعالجت نظرياته فى اطار كلى وشامل ٠ فاغلب الدراسات تضعه فى اطار التيار الوضعى الذى ظهر مع كونت ولستمر فى اعمال دوركايم وانطلقت هذه الدراسات من حقيقة مؤداها أن آراء ماكس فيبر تعبر عن رد فعل المجتمع الراسمالى تجاه النظرية الماركسية التى كشفت عن عناصر التناقض والصرع فى البناء الاجتماعى الراسمالى ٠ ولكن لا نستطيع أن نحصر آراء ماكس فيبر فى هذه القضية البسيطة ، واعنى الحوار مع الماركسية وتفنيدها فمثل هذه المعالجة تسىء فهم أفكار ماركس ، وتسى بدرجة أكبر فهم آراء ماكس فيبر(٨٥) ٠

ولا أود هنا أن أستعرض آراء فيبر بالتفصيل ، ولكن أود أن اتبنى موقفا معينا فى معالجة آراء فيبر ، بحيث لا نحصر انفسنا فى زحمة الجدل الذى تحاور معه فيبر ٠ ولست أسعى الى رفض هذه القضية ، فلقد كان شبح كارل ماركس حاضرا دائما فى عقل ماكس فيبر ، ولكن الذى اسعى الى تاكيده هو ان تراث ماكس فيبر يكتسب قدرا من التميز داخل علم الاجتماع الغربى تميزا يجعلنا نضع تحفظات كثيرة على معالجته فى نفس التيار الذى سار فيه كونت ودوركايم ، على أساس أن ثلاثتهم كان له اتجاه محافظ ٠ حقيقة اننا نستطيع أن نتلمس ظلال الاتجاه المحافظ فى اعمال ماكس فيبر ، ولكن ذلك لا يعفينا من القول بانه رغم هذا الاتجاه المحافظ الا أن فيبر قد نحا منحى منهجيا ونظريا يختلف عن ذلك الذى نحاه كونت ودوركايم ٠ فلقد وضع اسسا جديدة ودعائم جديدة لعلم الاجتماع كانت وما تزال تولد الكثير من الأفكار داخل علم الاجتماع ، فى وقت أصبحت فيه آراء كونت ودوركايم محض تاريخ فى الفكر السوسيولوجى . ولكى نبرهن

---

(٨٥) للسيد الحسينى ، اتجاهات علم الاجتماع فى فهم قضايا العالم الثالث ، مقال فى كتاب السيد الحسينى وزملائه ، **دراسات فى التنمية الاجتماعية** ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ ، ص ٥٠ ٠

على ما نذهب اليه هنا لا بد ان نحاول استقصاء مظاهر تميز تراث ماكس فيبر ونؤكد فى ذات الوقت على مظاهر الاتجاه المحافظ عنده .

عاش فيبر نفس الظروف التى عاشـها مفكرو القرن التاسع عشر ، وأعنى الظروف الاجتماعية والبنائية التى ولدتها ابنية المجتمع الأوروبى اثناء او بعد عملية التحول من المجتمع التقليدى الى المجتمع الحديث . ولم يستطع فيبر أن يتحلل من هذه الظروف . غير أن ظروف المـانيا السياسية كانت أكثر إستقرارا من فرنسا وذلك بسبب ما ساد فيها من نزعة قومية تزعمها بسمارك وبعض الزعماء الألمـان • ولكن ذلك الاستقرار لم يبعدها عن الصراع الدائر بين المذاهب الفكرية الثـلاث : المذهب المحـافظ ، والمذهب الليبرالى . والمذهب الراديكالى(٨٦) • ولكن الفكر الألمـانى رغم تعارضه الا انه انشـغل بالمسائل الفلسفية والتاريخية وذلك بسبب التاثير الذى تركه كل من هيجل وكانط • ومن القضايا الهامة التى انشـغل بها المفكرون والفلاسفة الألمـان محاولة التفرقة بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية أو الانسانية • وهى قضية اثارتها الفلسفة الكانطية التى تؤكد وجود هوة لا يمكن عبورها بين عالم المـادة وعالم الروح(٨٧) • ولقد انقسم الفلاسفة ازاء هذه القضية الى فريقين واولهما وعلى رأسـه ديلثى Dilthey يفصل بين العلوم الاجتماعية والعلوم الثقافية على أساس الاختلاف فى الموضوع (الوقائع فى مقابل المعانى) • والمنهج (التفسير فى مقابل الفهم) ، وثانيهمـا وينتزعمه ريكرت Rickert يرى أن العلم سـواء كان طبيعيا أم ثقافيـا يهـدف الى تفسير الظواهر ، والتفرقة يجب أن تقام بين العلم والتـاريخ • ولقد حاول فيبر التوفيق بين الاتجاهين عندما وافق ديلثى على أن المعانى والقيم هى موضـوع علم الاجتماع ، وعندما وافق ريكرت فى النظر الى العلم باعتباره علمـا بغض النظر عما اذا كان يدرس ظواهر ثقـافية أم ظواهـر

---

(٨٦) محمد عبد الله ابو على ، نقد المنهج عند ماكس فيبر ، مقال فى كتاب **علم الاجتماع والانثروبولوجيا** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ • ص ١٦٨ •

(٨٧) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ٢٥٣ •

طبيعية(٨٨) . أى أن عملية الفهم يمكن أن تقابل القوانين العامة للاتجاه العلمى . واعتقد فيبر أنه يمكن ترضيح هذا فى حالة الفعل الفردى ثم فى الحالة الأكثر تعقيدا الخاصة بفهم العلاقات الاجتماعية والبناء الاجتماعى .

من هنا يبدأ تميز تراث ماكس فيبر . ونقرر هنا بداءة أن ماكس فيبر ، اذا كان قد تحاور مع كارل ماركس ، فانه قد تحاور وبتنفس للقدر مع الوضعية خاصة أفكار دوركايم . فاذا كان حواره مع ماركس هو الذى يضمه الى التيار الذى سارت فيه الوضعية ، فان حواره مع الوضعية نفسها يميز تراثه ويطبعه بطابع خاص . فنظرياته تمثل وجها ثالثا لعلم الاجتماع فى القرن التاسع عشر ، اذا اعتبرنا نظريات كونت ودوركايم وجهه الأول ، ونظريات ماركس وجهه الثانى . فلانه تاثر تاثرا عميقا بالجو الفكرى الفلسفى والتاريخى المنتشر فى ألمانيا نحا فيبر منحى بنائيا تاريخيا فى دراساته فرض عليه الاعتماد على التحليل الكيفى والمقارن الى جانب اهماله لأساسيات الفلسفة الوضعية (أسبقية المجتمع على الفرد ـ الدور القهرى للقيم ـ الترابط يكون فيبر قد سار فى خط مغاير للخط الذى سارت فيه الوضعية وبذلك يكون فيبر قد سار فى خط مغاير للخط الذى سارت فيه الوضعية ويتاكد لدينا هذا الاعتقاد عندما نستعرض جانبا من آراء فيبر ونضعها فى مقابل آراء كونت ودوركايم(٨٩) .

١ ـ حاول دوركايم أن يتخلص من النزعة التطورية ولكنه وقع فى براثنها عندما ذهب الى أن شكلا معينا من اشكال المجتمعات ينبثق عن شكل آخر قديم نتيجة حدوث تغيرات بنائية وكمية (التضامن الآلى والتضامن

---

(٨٨) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، « ماكس فيبر » ، مقال بالمجلة الاجتماعية القومية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٦٧ . ص ١٠٩ ـ ١١٠ . وتجدر الاشارة الى أن ذلك يعارض ما ذهب اليه دوركايم من أن العلوم الطبيعية تشبه فى منهجها وموضوعها العلوم الاجتماعية .

(٨٩) نحن نؤكد هنا على موقف فيبر الجدلى من الوضعية لأن ذلك ذلك يخدم هدف البحث . فالاتجاهات النقدية الحديثة ـ التى سنعرض لها فى القسم الثانى من هذا البحث قد دخلت فى حوار عميق مع الوضعية وعادتها معاداة شديدة ، ومن ثم وجدت فى أعمال فيبر مجالا خصبا لتطوير نظرية علم الاجتماع .

العضوى) ولقد اختفت هذه النزعة التطورية كلية فى اعمال ماكس فيبر • فقد كان شغله الشاغل اقامة نماذج مثالية لأنماط الفعل (الفعل الرشيد ـ الفعل الذى توجهه القيم ـ الفعل التقليدى ـ الفعل العاطفى) وذلك فى محاولة لاستكشاف بناء المجتمع الراسمالى وما يسود فيه من مظاهر للسلوك ، وما يرتبط به من تنظيمات للسلطة والبيروقراطية(٩٠) • فاذا كانت نظريات كل من كونت ودوركايم تقدم رؤية لتنظيم مجتمع أصابه التفكك بالفعل ، فان نظريات ماكس فيبر ما هى الا تشريح لمجتمع قائم • وقد دفعت محاولة تنظيم المجتمع كلا من كونت ودوركايم الى الانحياز نحو النزعة التقليدية الرومانسية فظهر جنينهما واضحا لمجتمع العصور الوسطى ، على العكس من ذلك تعتبر دراسات ماكس فيبر دراسات فى التحديث • فقد صور بناء المجتمع الراسمالى الذى يحقق قدرا كبيرا من الترشيد فى الانتاج والسلوك ولكنه لا يزال يصارع أبنية وتقليدية قديمة يحاول ان ينفض يديه منها •

٢ ـ تكشف دراسات فيبر عن غناء المضمون التاريخى الى جانب الاهتمام بفهم المعنى الذاتى لأفعال الأفراد كمنهج أساسى للعلوم الاجتماعية فعلم الاجتماع هو العلم الذى يحاول أن يدرس الفهم التأويلى للفعل الاجتماعى من أجل الوصول الى تفسير علمى لمجراه وآثاره • ويشتمل الفعل الاجتماعى على كل مظاهر السلوك الانسانى طالما يضفى عليها الأفراد معنى ذاتيا(٩١) • فاذا وضعنا ذلك فى مقابل اعتبار الظواهر « كاشياء » فى المفهوم الدوركايمى ، لاتضح لنا كيف يفصل دوركايم بين الذات والموضوع فصلا ، بين الباحث الفرد ومادة دراسته التى يعد جزءا منها • ولاتضح لنا ايضا كيف ابتعد فيبر عن هذه القضية الدوركايمية عندما ركز على الفهم التأويلى للمعنى الذاتى للأفعال الاجتماعية ، وهذا الفهم يجعل الباحث الصق بالأفراد مادة دراسته ، أقدر على أن يحقق من

---

(٩٠) عن أنماط الفعل ، والسلطة والبيروقراطية انظر :
Max Weber, The Theory of Social and Economic Organization, trans by Henderson and Parsons, The Free Press, N.Y., 1949. pp. 115—118 and pp. 324—391.

(٩١) Ibid., p. 88.

دراستهم قدرا من الفهم الواقعى لهم • ويحيلنا هـذا الى موضـوع الكم والكيف فى التحليل السوسيولوجى • يتضح من اعمال فيبر عدم اهتمامه بالدراسة الكمية ، وتركيزه على تقديم مادة ذات مضمون تاريخى ثرى • فقد كان فيبر يعتقد ـ على عكس دوركايم ـ انه يجب أن تكون الاستفادة من الأرقام فى أضيق الحدود اذا أردنا فهم الواقع فهما صحيحا(٩٢) • فى الوقت الذى اعتمد فيه دوركايم اعتمادا كليا على الاحصاءات الجنائية فى دراسته عن الانتحار • ولقد استعاض عن الأسـلوب الاحصـائى الكمى بأسلوب صياغة الأنماط المثالية الكيفى ، فهى (الأنمـاط المثاليـة) اداة استرشـادية تحقق مزيدا من الوضوح فى الفهم(٩٣) •

٣ ـ تمثل اعمال فيبر انتقالا كبيرا فى علم الاجتمـاع من النظرية الوظيفية الى نظرية الفعل الاجتماعى • وهـذا هو الذى يدعونا الى القول بأن الاتجاه النظرى والمنهجى الذى اسسه لا يزال يشكل تيارا متميزا داخل علم الاجتماع حتى الآن • فقد رفض فيبر التحليل الوظيفى الذى يتخـذ من « الكل » نقطة انطلاق فى الدراسة ، ففى دراسة التجمعات الاجتمـاعية التى تتميز عن الكائنات العضوية ، يكون فى وضع يسمح لنا بأن نذهب الى أبعد من استكشـاف العلاقات والأشكال الوظيفية • اننا هنا نستطيع أن نحقق شيئا لا يمكن تحقيقه فى العلوم الطبيعية ، واعنى الفهم الذاتى لسلوك الأفراد »(٩٤) • ويدل هـذا النص على رفضه للاتجاه الوظيفى • حقيقة أن اعمال ماكس فيبر تكشـف عن علاقات محددة ذات معنى بين النظم وبعضها ، ولكنه لم ينظر الى المجتمع كنسق •

ويفصله رفض الوظيفية عن تيار الاتجاه الوضعى الذى اهتم بالعلاقات

---

(٩٢) Ephrain Fishaff, "The Protestant Ethics and the Spirit of Capitalism : The History of a Controversy," Social Research, Vol. 11, 1944. A Foot note, p. 70.

(٩٣) حول استخدام الأنماط فى علم الاجتماع انظر :

ـ محمد الجوهرى ، فكرة النمط فى العلوم الاجتماعية ، **مجلة الفكر المعاصر** ، العدد ٧٠ ، ديسمبر ١٩٧٠ •

ـ محمد عارف عثمان ، **المنهج فى علم الاجتماع** ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٢ •

المتبادلة بين النظم ، واهمل ما يمكن ان ينشأ بينها من صراع • حقيقة أن فيبر لم يتحدث كثيرا عن الصراع ، ولكن المتأمل لمشروعه النظرى يستطيع أن يستشف الفكرة التى مؤداها انه يفسح المجال لقدر ولو محدود من الصراع • فما يعتبر ضروريا من وجهة نظر مجموعة معينة من الأهداف والمعانى قد لا يكون ضروريا من وجهة نظر مجموعة اخرى • وهنا يظهر احتمال وجود للصراع داخل المجتمع • فليس من الضرورى أن يكون المعنى الذاتى هو نفسه بالنسبة لكل الجماعات التى تتجه اتجاها متبادلا فى علاقة اجتماعية معينة ، والمعنى الذاتى لعلاقة اجتماعية معينة قد يتغير بدوره كأن تتحول العلاقات السياسية من انتضامن الى الصراع على المصالح(٩٥)• فضلا عن ذلك فان الأفعال نفسها قد تتجه الى أن تغير عن وعى بعض العلاقات الاجتماعية أو توجه نحو منع تطورها او استمرارها • فالدولة مثلا يمكن أن تتحطم من خلال الحرب أو الثورة(٩٦) •

٤ ـ كان فيبر واعيا بالحقيقة التى مؤداها ان العلاقات بين النظم ليست بالضرورة علاقات علية • فأنا لا استطيع القول انه فى وجود نظام معين (أ) يجب أن يوجد النظام (ب) لأن ذلك يعتمد على علاقات المعنى المسلم بها فى الثقافة • وبناء على ذلك رفض فيبر التفسيرات الحتمية • وعندما اكد على العلاقة بين الدين وروح الرأسمالية كان يعتبر أن الدين هو احد العوامل التى ادت الى نشأة الرأسمالية وليس هو العامل الوحيد • ويؤكد ذلك عبارته التى تقول « لست اهدف الى أن استبدل الأحادية المادية بأحادية روحية فى تفسير الثقافة والتاريخ ، فكلاهما على نفس القدر من الاهمية »(٩٧) • ولم يهمل فيبر العوامل الاقتصادية وكان يسلم بتأثيرها الى جانب للعوامل الأخرى ، فقد كان يدرك بوضوح أن التغيرات الاقتصادية تنتج كرد فعل للحاجات الاقتصادية ، وهى مشروطة بمجموعة كبيرة من

---

(٩٤) Max Weber, Theory of Social and Economic Organization, op. cit., p. 103.

(٩٥) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، ماكس فيبر ، مرجع سابق ، ص ١١٨ •

(٩٦) Max Weber, Theory of ... op. cit., p. 132.

(٩٧) Max Weber, Protestant Ethics and The Spirit of Capitalism, trans by J. Parsons, Allen and Unwin, 1930.

العوامل تشمل العوامل الديمجرافية ، والجغرافية والتكنولوجية ، والمادية ،(٩٨) ٠

والذى يؤكد لنا عدم تركيز فيبر على عامل بعينه دون العوامل الأخرى انه برغم اهتمامه بالجوانب الرشيدة فى الحياة الاجتماعية وخاصة التنظيم البيروقراطى ، فانه كان يعتبر أن هذا التنظيم ينطوى على ضرب من الأزدواجية ٠ فاذا كان هذا التنظيم البيروقراطى يعد اكثر الأشكال التنظيمية التى ابتدعها الانسان كفاءة ، فان هذه الكفاءة تشكل اعظم تهديد لحرية الفرد والمنظمات الديمقراطية فى المجتمعات الغربية ٠ كما أن شكل التنظيم البيروقراطى نفسه يميط اللثام عن مظاهر لعدم المساواة بين البشر٠ فاساليب الالتحاق بالتنظيمات كالشهادات والامتحانات تؤدى بطبيعتها الى ظهور ضرب من التمييز والتفرقة الاجتماعية ٠ فانه برغم موضوعية القواعد البيروقراطية التى تساوى اعضاء التنظيم امام القانون ، فان التمسك بشهادة التعليم العالى كشرط للالتحاق بالتنظيم سوف يكون ـ بطريق غير مباشرة ـ فى مصلحة أولئك الذين مكنتهم مواردهم المالية الخاصة من الانفاق لفترة طويلة حتى يمكنهم الحصول على هذه الشهادة ٠ وهكذا يؤدى النمو التنظيمى الى تحطيم مبدأ تكافؤ الفرص ويسهم فى ظهور نظام بلوتقراطى(٩٩) ٠

٥ ـ ويحيلنا ذلك الى مناقشة العلاقة بين فيبر وماركس ٠ فاذا كان ماكس فيبر قد تحاور مع ماركس فان ذلك لا يعنى أنه رفض الفكر الماركسى رفضا كليا ، أو انه لا توجد أوجه شبه بينهما على الاطلاق ٠ لقد كان العالمان ينتميان الى تيار فكرى واحد ، واعنى الاتجاه التاريخى الذى سيطر على الفكر الاجتماعى الألمانى ، كما أن كليهما انشغل بموضوع واحد ، واعنى الراسمالية من حيث آثارها على المجتمع ككل : على بنائه الأسرى والسياسى والثقافى أى أن نظرتهما الى الراسمالية لم تكن مقصورة على

---

(٩٨) Ephriam Fischoff, op. cit., p. 422.

(٩٩) السيد الحسينى ، **النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم** ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٥١ ـ ٥٢ ٠

جوانبها الاقتصادية الخالصة(١٠٠) ٠

لقد ادرك ماكس فيبر الفائدة الكبرى للمنهج المادى او للمادية التاريخية كاداة استرشادية خاصة فى التحليل الوظيفى ، والذى رفضه هو الادعاء بأن هذا المنهج هو المنهج الوحيد فى العلوم الاجتماعية ، الى جانب رفضه للأحادية النظرية التى تذهب الى أن الاقتصاد يشكل كل بناء المجتمع(١٠١).

واذا حاولنا اعادة النظر فيما قدمه ماكس فيبر وكارل ماركس حول روح الراسمالية لاحظنا على الفور وجوه شبه كبيرة ٠ فقد كتب فيبر عن روح الراسمالية يقول « تسيطر على الانسان نزعة جمع المال والاقتناء بوصفهما هدفين واساسيين للحياة ٠ فالانجاز الاقتصادى لم يعد بالنسبة للانسان وسيلة لاشباع حاجاته المادية ٠ ولقد كانت هذه الفكرة بمثابة المبدأ الموجه للراسمالية » ٠ ولو حاولنا قراءة الكتابات الأولى لماركس لاحظنا ان الثقافة الراسمالية فى هذه الكتابات تشبه تلك التى عرض لها فيبر الى حد كبير ٠

وقد راينا كيف أن ماكس فيبر لم يهمل دور العوامل المادية التى ركز عليها ماركس ، وبنفس الطريقة لم يهمل ماركس العوامل الفكرية التى ركز عليها ماكس فيبر(١٠٢) ٠

كل هذه الأمور تكشف عن التميز الذى يمكن ان تتصف به آراء ماكس فيبر ٠ تميز يبعده عن التيار الوضعى ويجنح به بعيدا عن النزعة الكمية الامبيريقية ، وهذا هو السبب الذى جعل الراديكاليين المحدثين فى علم الاجتماع يلجأون الى أعمال فيبر ويطورون بعض القضايا التى توصل اليها.

غير أن هذا التميز لا يعفى فيبر من الانشغل بمشكلة النظام ، وان

---

(١٠٠) السيد الحسينى ، اتجاهات علم الاجتماع فى فهم قضايا العالم الثالث ، **مرجع سابق** ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ٠

(١٠١) Ephriam Fishoff, op. cit., p. 419.

(١٠٢) السيد الحسينى ، اتجاهات علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ٠

وتجدر الاشارة الى أن ماركس قد اكد على الجوانب القهرية للراسمالية واولى اهتماما اكبر للدور الآيديولوجى الذى تلعبه ثقافة المجتمع الرأسمالى ٠

كان هذا الانشغال ليس بحدة وصرامة انشغال دوركايم او كونت بها • فقد كان فيبر مندمجا اندماجا تعاطفيا مع ظروف بلده ، وخلال حياته كباحث ظل عضوا فى جمعية السياسة الاجتماعية والتى اهتمت بالأمور السياسية والجتماعية العملية • ولقد ظل خلال حياته مشاركا نشيطا فى سياسة المانيا بل انه حاول فى سنواته الأخيرة أن يدرس سبب هزيمة المانيا فى الحرب الأولى وأن يجد قاعدة ثابتة فى المستقبل لمجتمع المانى مستقر(١٠٣) •

ويذهب جونركس الى أن ماكس فيبر ـ برغم تميز تراثه ـ اهتم اهتماما بالغا بمعطية الصراع بين القديم والجديد فى المجتمع الراسمالى • الصراع بين النسق الاقطاعى القديم والنسق الراسمالى الرشيد • ولم يكن ماكس فيبر ـ كما راينا ـ مؤيدا لذلك التقدم الرشيد • فاخلاق الراسمالية قائمة على الأفراط فى الربح • ولقد صعق ماكس فيبر من النمو الرهيب للبيروقراطية الروتينية التى سيطرت على النظم الرئيسية فى المجتمع ، الى درجة انها خلقت حالة من الموت فى المجتمع بحيث لم يعد هناك مكان للقوى الكارزمية والمبدعة • ونظرة فيبر هذه الى المجتمع الراسمالى واهتمامه بجوانبه الرشيدة وغير الرشيدة يدل على أنه واجه نفس مشكلة هوبز الشهيرة : ما هى الضمانات التى يجب اتخاذها لكى لا تتحول السوق ـ التى تميز المجتمعات الراسمالية الحديثة ـ الى حرب الكل ضد الكل(١٠٤) فقد كان فيبر يخاف من أن يؤدى امتداد الراسمالية بما فيها من ترشيد وبيروقراطية الى أن تفقد الحياة العناصر التى تجعلها جديرة بان تعاش ، وأعنى الاختيار الفردى ، والوعى بالمسئولية ، وحرية الفعل ، والثقة(١٠٥).

والمتامل لكتابات فيبر يستطيع أن يستشف منها مجموعة من العناصر التى يمكن ان تحافظ على المجتمع الراسمالى ازاء هذا المد البيروقراطى • من ذلك مثلا ابراز دور الدين والعناصر التقليدية للفعل الاجتماعى ، والاهتمام بالسلطة القانونية ودورها فى تحقيق النظام الاجتماعى العام •

---

(١٠٣) Rex, Discovering... op. cit., p. 125.

(١٠٤) J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 50.

(١٠٥) Raymond Aron, Main Currents in Sociological Taught, Part Two, Penguin Books, 1967, p. 14.

الفصل الثالث

تالكوت بارسونز والحل المعيارى لمشكلة النظام

مقـــدمة :

يثار امامنا فى البداية سؤال على جانب كبير من الأهمية : لماذا هذا التخطى للكثير من العلماء والتركيز على تالكوت بارسونز ؟ والاجابة عن هذا السؤال متشعبة لها جوانب عديدة • أولها تلك الشهرة التى حظى بها تالكوت بارسونز واعماله ، وهى شهرة لم تتوفر لعالم اجتماع أوربى او امريكى فى القرن العشرين • قد جعلت هذه الشهرة من الوظيفية (ومن بعدها نظرية الفعل) ـ التى لنتمى اليها بارسونز ـ اشهر نظريات علم الاجتماع واكثرها قبولا بين علمائه فى الولايات المتحدة على وجه الخصوص• ففى بحث اجراه جولدنر وزميل له عام ١٩٤٦ على عينة تحوى ٣٤٠٠ من المشتغلين بعلم الاجتماع ، طلب من المبحوثين أن يعبروا عن آرائهم تجاه السؤال التالى : « هل لا تزال الوظيفية والتحليل الوظيفى يحتفظ بقيمة كبرى فى علم الاجتماع المعاصر ؟ ، عبر ٨٠٪ من المبحوثين عن موافقتهم على هذه القضية(١) • وتكشف استجابة علماء الاجتماع هذه عن ذلك التاثر الضافى الذى تحظى به الوظيفية فى الولايات المتحدة الأمريكية • ولا شك أنها اكتسبت ذلك التاثر من خلال ارتباطها بتالكوت بارسونز او ارتباطه بها •

بالاضافة الى ذلك فان فكر تالكوت بارسونز يمثل امتدادا طبيعيا لفكر كل من دوركايم وماكس فيبر • فسوف نرى من استعراضنا لنظريات تالكوت بارسونز انه هضم علم الاجتماع الكلاسيكى الأوربى ـ خاصة نظريات

---

(١) نشر جولدنر بعض نتائج هذا البحث فى كتابه « **الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى** » والسابق الاشارة اليه •

ماكس فيبر ودوركايم وباريتو ومارشال(٢) • وقـدم له صياغة امريكية جديدة تمثلت فى مشروع نظرى كبير يتخـذ من نظرية الفعل الاجتماعى اطارا له ، وجند بارسونز تلاميذه ومريديه للترويج لتلك الصياغة الأمريكية التى قدمها بحيث اصبحت تسيطر سيطرة كاملة على المؤسسة الأكاديمية فى علم الاجتماع الغربى • ومن ثم فانه يمكن القول بأن معالجة بارسونز تمثـل امتدادا لمعالجة الفكر فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين دون أى فجـوة فكرية(٣) •

وهناك نقطة هامة اخـرى تبرهن على اهمية معـالجة فـكر تالكوت بارسونز ، وهى تتعلق بمشكلة النظام التى تهتم بها هـذه الدراسة • فقـد دخل بارسونز ـ دون الكثير من علماء الاجتماع ـ فى حوار مع مذهب المنفعة الذى صاغه هوبز ، وحاول أن يتخطى الحل القهرى لمشكلة النظام والذى قدمه هوبز ، مقدما حلا معياريا لهذه المشكلة • ومن هنا فان نظريات تالكوت بارسويز تعتبر أكثر النظريات المعاصرة ارتباطا بمشكلة النظام • واذا كنا قد أكدنا أن بارسونز هو الوجه البارز على مسرح علم الاجتماع الغـربى ، فان نظريته تعتبر أكثر النظريات تمسكا بالاتجاه المحافظ واشدها دفاعا عنه. ومن ثم فان معالجتها تعتبر معالجة للصورة المعاصرة لعلم الاجتماع الغربى•

ويمكن أن نرتب على هذه النقطة نقطة اخرى مؤداها ان الاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع الغربى ما هى الا حوار مع الاتجاه السائد فى علم الاجتماع الغربى كما يتمثل فى آراء تالكوت بارسونز • فسوف نرى فى القسم الثانى من هذا الكتاب أن الاتجاهات النقدية الحديثة قد ظهرت بنـاء

---

(٢) تجدر الاشارة الى أن بارسويز قـد تلقى تعليمه فى اوربا واظهر اهتماما مبكرا باعمال ماكس فيبر ودوركايم ونقل بعض اعمـال الأول الى الانجليزية • انظر تيماشيف ، نظرية علم الاجتمـاع ، **مرجـع سـابق** ، ص ٣٦٢ •

(٣) لم تلعب الاتجاهات السوسيولوجية التى سادت امريكا فى بداية هذا القرن وحتى العقد الرابع منه سوى دور طفيف فى الفكر السوسيولوجى ولقد كانت كلها اتجاهات ترتبط باعمال سنمر ، وسمول ، وليستر وارد ، وتنبثق من الداروينية الاجتماعية المتأثرة بهربرت سبنسر • انظر تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ٨٥ وما بعدها •

على فشل الاتجاهات المرتبطة بالنظام فى تفسير الواقع الاجتماعى بما يكشف عنه من صراعات وتوترات بنائية وفكرية ، ومن ثم تحاول الاتجاهات النقدية أن تغير من مسار النظرية المرتبطة بالنظام لتصبح اكثر رحابة وشمولا فى تفسيرها لعناصر الواقع الاجتماعى • ولتحقيق هذا الهدف تلجأ الاتجاهات النقدية الى نقد الاتجاهات القديمة ومحاولة اثارة التوترات والصراعات داخلها لكى تصل الى حالة من الانهيار يمكن بعدها أن تنشأ نظرية جديدة تحل محلها • معنى ذلك أن ثمة علاقة جدلية ديالكتيكية بين هذه الاتجاهات النقدية وبين الاتجاهات المرتبطة بالنظام ، وان هذه العلاقة الجدلية هى علاقة مستمرة ومتصلة ، وسوف تصل الى نهايتها بتغير الاتجاهات القديمة • بناء على ذلك فاننا لا يمكن أن ندخل فى دراسة الاتجاهات النقدية الحديثة دون معالجة للصورة المعاصرة للاتجاهات القديمة المرتبطة بالنظام كما تتمثل فى اعمال تالكوت بارسونز •

بالرغم من أن القيم والمعايير قد لعبت دورا هاما فى الحل الذى قدمه بارسونز عام ١٩٣٧ فى كتابه « بناء الفعل الاجتماعى » فان بارسونز لم يتخل عن دور القيم فى تدعيم النسق وتحقيق التكامل فيه فى كل اعماله التالية • ومن هنا فان تتبع الحل المعيارى سيفرض علينا تتبعا لآراء بارسونز بدءا من علاقتها بالظروف البنائية والفكرية فى عصره ، ذلك لأننا كنا نؤمن جدلا بأن فكر بارسونز كان رد فعل لمشكلة نظام ملحة فرضت نفسها مع الانهيار العظيم فى المجتمع الأمريكى فى العقد الرابع من هذا القرن ، فان ذلك يفرض علينا أن نكشف عن الاطار الفكرى والبنائى الذى ظهر فيه هذا الفكر ، ثم نتتبع بعد ذلك عناصر الحل المعيارى فنعرض للحوار الذى قدمه بارسونز مع هوبز ، ونقدم عرضا لنظرية الفعل عند بارسونز ونظريته عن النسق الاجتماعى ودور القيم فيها ، ثم نختتم الحديث بتناول موضوعى : التغير ، والصراع فى فكر بارسونز •

على أننا يجب أن نؤكد أنه من خلال ذلك العرض فاننا نحاول ان نبرز حقيقتين هامتين تخدمان الفكرة الرئيسية فى هذا الكتاب وهما : الدور الكبير الذى تلعبه القيم والمعايير فى المشروع النظرى لتالكوت بارسونز ، ثم الأهمية التى اولاها بارسونز للتكامل بين عناصر النسق الاجتماعى على حساب قضايا التغير والصراع •

أولا : الاطار البنائى والفكرى لنظرية تالكوت بارسونز

ظهرت أول اعمال بارسونز الهامة « بناء الفعل الاجتماعى » فى عام ١٩٣٧ ، فى العقد الرابع من القرن العشرين ، حيث كان المجتمع الأمريكى يعانى من مجموعة من الاضطرابات الاقتصادية الناتجة عن ازمة عام ١٩٣٠. وقد اثر هذا البناء التحتى المضطرب على عناصر البناء الفوقى بما فيها من أفكار ، وايديولوجيات ، فاصابها الاضطراب هى الأخرى ، فكثيرا ما يوصف بداية العقد الرابع فى امريكا « بالانهيار العظيم » Great Crash ذلك لأنه قد أصاب النسق الاقتصادى تدهور كبير ، كما تعطل ربع العمال الأمريكيين ، وعاشوا فى فقر مدقع ، وتحكم عدد قليل من الراسماليين فى سوق الانتاج ، فاتسعت الهوة بين الطبقات ، واضطراب النسق الصناعى .

ولقد استفاض بوتومور فى كتابه « نقاد المجتمع » فى وصف هذه الفترة من الحياة الأمريكية من خلال عرض مجموعة من الدراسات والآراء التى ظهرت فى هذه الفترة . على انه يهمنا من هذه الدراسات بحث روبرت وهيلين ليند Lynd عن « الميدلتاون » "Middletown" والذى اجرى عام ١٩٢٤ ، فقد أوضح هذا البحث بجلاء بعض مظاهر عدم المساواة فى الثروة والقوة بين الطبقات الاجتماعية فى المجتمع الأمريكى وخاصة طبقة العمال ، واصحاب الأعمال . فقد انتشر بين هاتين الطبقتين قدر كبير من الشك والتوتر ، واصبح الامتعاض والوهم ، وعدم الأمن خبرة فردية لكل عامل .

وقد نفذ روبرت وهيلين ليند بحثا آخر فى عام ١٩٣٥ بعنوان : « الميدلتاون فى تحويل » وذلك لملاحظة تاثير الانهيار الاقتصادى على المدينة حيث أظهر البحث تجمد الانقسامات الطبقية وضعف الوعى الطبقى لدى العمال . فقد أيد البحث نتائج الانتخابات التى اجريت فى هذه الفترة ، حيث صوت ملايين العاطلين لكل من روزفلت وهوفر فى الوقت الذى منى فيه البرنامج الاشتراكى بالفشل الذريع(٤) .

ومن الدراسات الأخرى فى هذه الفترة دراسة بيرل Berle (الابن)

---

(٤) Bottomore, Critic of Society, op. cit., pp. 42—43.

ومينز Means عن : « الاتحادات الحديثة والملكية الخاصة » عام ١٩٣٢ حيث استرعيا الانتباه الى تغيرين رئيسيين فى النسق الاقتصادى الأمريكى، يتمثل التغير الأول فى تركز الانتاج للصـــنعى فى عدد صـــغير نسبيا من الشركات الكبـيرة • ويظهـر التغـير الثـــانى فى الفصـــل بين ملكيـــة الصـــناعية وادارتها •

ولقـد ادى التغير الأول الى الاحتكار الذى قضى على المنافســـــة وميكانيزمات ، السوق اما التغير الثـــانى فقد ادى الى اتصـــاف المديرين بصفة الأمراء او الوزراء • قد خلص الباحثان من راستهما الى ان الاقتصـــاد يحتاج الى تنظيم عن طريق الدولة وانه فى اثنـــاء التنظيم يجب ان تكون هناك جماعة عمل مسئولة تلعب الدور الأساسى فى هذا التنظيم •

على انه يمكن ملاحظة افكار مشابهة لتلك الأفكار السابقة فى كتاب كل من : جيمس برينهام « الثورة الادارية » ، وكتاب ثيرمان ارنولد « فولكلور الراسمالية » ، وكلها دراسات توضـح التدهور الذى لحق بالمجتمع الأمريكى فى هـذه الفترة(٥) •

ولقد ادى هذا التفكك الذى انتاب البناء التحتى الاقتصادى الى تحلل اخلاقى Democralization واضحت القيم التقليـدية مهـددة بالرفض او التغير تحت تاثير الأزمة ، ونشـا صراع داخل الثقافة البورجوازية بين المنفعة والأخلاق ، او الحقوق الطبيعية ، بل ان الطبقة الوسطى (البرجوازية) والتى ارتبط بها علم الاجتماع منذ ظهوره ـ تعرضت لأزمة عالمية حددت بتقلصها بعد مجموعة من التغيرات عقب الحرب العالمية الأولى ، ومع تولد الأزمة الاقتصادية(٦) حدثت عدة تغيرات تتمثل فيما يلى :

١ ـ حطمت الحرب العالمية الأولى الدولة ـ الأمة ـ القديمة وخلقت اخرى جديدة وانتقصت من ثقة الجماهير فى جماعات الصفوة القديمة •

٢ ـ هيات لقيام الثورة الروسية وزادت من احتمال قيـام الثورة فى غرب ووسط اوروبا مما خلق قلقا بين الطبقات الوسطى الأمريكية •

---

(٥) Ibid., pp. 43—51.

(٦) Alvin Gouldner, The Coming Crisis.., op. cit., p. 144.

٣ ـ نمو الفاشية فى ايطاليا ، والنازية فى المانيا مما هدد استقرار الطبقة الوسطى ٠

٤ ـ خلقت ازمة ١٩٣٠ بطالة عامة بين جماهير الطبقة العاملة وتسببت فى حرمان جماعات الفلاحين الصغار ، وزادت من حدة القلق والتهديد الاقتصادى للطبقة الوسطى ، وعجلت من نمو دولة الرفاهية فى الولايات المتحدة ٠

وقد أدى تفكك البناء التحتى ـ ايضا ـ الى تفكك على مستوى الفكر ، اذ لم تكن هناك نظرية عامة فى المجتمع الأمريكى تستطيع أن تعيد للمجتمع توازنه او يتعلق بها من اضيروا بهذه الأزمة ٠ وفى هذه الظروف لاقت الماركسية انتشارا واسعا فى المجتمع الأمريكى ، خاصة بعد النجاح الكبير الذى حققته فى روسيا فى هذه الفترة ، فقد ظهرت امام الأمريكيين على انها مجتمع تغلب على مشكلة الأزمات الاقتصادية عن طريق التخطيط الرشيد وانها تقدم للجماهير مستوى اعلى من الخدمات التى تقدم فى الأقطار الرأسمالية ٠

ويمكننا أن ندرك مدى المد الشيوعى الى الولايات المتحدة فى العقد الرابع من هذا القرن ، اذا عرفنا أن لنكولن ستيفنس Steffens قد ختم مذكراته عام ١٩٣١ ببعض الفصول عن مدح روسيا ، واعلن فى احدى خطبه ان : « كل الطرق فى ايامنا هذه تؤدى الى موسكو » وذلك بالرغم من انه لم يكن نابعا من رؤية ماركسية ، وانما من فرط اعجابه باستقرار التخطيط الاقتصادى(٧) ٠

غير أن الطبقة الوسطى سواء فى أمريكا أم فى سائر اوروبا كانت تخشى الامتداد الشيوعى وتعتبره خطرا عالميا فى الوقت الذى تواجه فيه بأزمة اقتصادية ٠ هنا ظهر اتجاهان متعارضان : رؤية راديكالية متأثرة بالماركسية ترى أن الوقت مناسب للقيام بثورة ٠ ورؤية محافظة ، ترى ان كل هذه الأحداث تهدد النظام العام الذى يجب المحافظة عليه مهما كانت للظروف ٠

---

(٧) Bottomore, Critics of Society, op. cit., p. 95.

وفى هـذه الظروف لتجه علم الاجتماع فى امريكا وجهـة امبيريقيـة خالصة • فقد لنشغل علماء الاجتماع بجمع مادة امبيريقية تستهدف مسح المشكلات الاجتماعية والتعرف على خصائص المجتمعات المحلية • وظهر هـذا الاتجاه قويا داخل ما عرف بمدرسـة شـيكاغو حيث كانت جامعة شـيكاغو تضطلع بدور كبير فى تدريس علم الاجتماع وفى البحث الاجتماعى ، واستطاعت فى فترة ما بين الحربين أن تراكم مادة امبيريقية هائلة حول المشكلات الحضرية دون أن تستطيع تطوير اطار نظرى عام يجمع هـذه المـادة وينظمها فى رؤية نظرية عامة • وبجانب بحوث مدرسة شـيكاغو ظهرت بحوث امبيريقية أخرى كان موضوعها الأساسى دراسى المجتمعات المحلية دراسة مسحية وصفية دون الالتزام باطر نظرية واضحة • ولعـل المثال الطرازى على مثل هـذا النوع من الدراسة دراسة روبرت وهيلين لند التى اشرنا اليها فيما سبق • وازاء هـذا الاهتمام المبالغ فيه بالدراسات الامبيريقية لم يستطع علم الاجتماع فى فترة ما بين الحربين ان يطور لنفسه نظرية عامة يمكن من خلالها تصوير الخطوط العـامة للبنـاء الاجتمـاعى الراسمالى الذى يصيبه التفكك تحت وطاة الأزمة الاقتصادية • وكان من نتيجة ذلك أن حدث ضرب من الانقطـاع بين التراث الكلاسـيكى لعلم الاجتماع كما تمثل فى أعمال دوركايم وماكس فيبر وماركس وبين التراث السائد للبحوث الامبيريقية ذات الطبيعة المجتزأة • ومن ثم فانه بالرغم من الجهد الكبير الذى بذل فى جمع مادة واقعيـة وتحليلها وفقـا للاسس العلمية ، الا أن هـذه المـادة ظلت متناثرة لا يربط بينها رابط ولا ينتظمها نسق فكرى واحـد • فلم يعرف علم الاجتماع الأمريكى فى هـذه الفترة اية انسـاق نظرية سوى تلك التى ظهرت داخل نطاق علم النفس الاجتماعى من خلال جهود وليام توماس وكولى وجورج هربرت ميد والتى تبلورت فيما بعد عرف بنظرية التفاعل الرمزى(٨) •

هـذه هى الظروف البنائية والفكرية التى واجهها بارسونز عندما بدأ عمله فى قسم الاجتماع بجامعة هارفارد عام ١٩٣١ • ولقد فرضت عليه

---

(٨) انظـر : جى روشـيه ، **علم الاجتماع الأمريكى : دراسة لأعمـال تالكوت بارسونز** ، ترجمة محمـد الجوهرى وأحمـد زايد ، دار المعـارف ، القاهرة ، ١٩٨١ صرص ٣٨ ـ ٤٣ •

هـذه الظروف فضلا عن ظروف تكوينه الفكرى ان يتجـه اتجاها مغايرا لـما هو سائد فى الأوساط السوسيولوجية فى هـذا الوقت • كان بارسونز قد عاد من رحلة فى أوربا استوعب فيها التراث الألمـانى المثالى ، والتراث الوضعى الفرنسى وتراث الأنثروبولوجيا الانجليزى(٩) • ولزاء هـذا التكوين الفكرى ذى الاتجاه النظرى الواضح لم يقتنع بارسونز بالاتجاه الامبيريقى الذى كان يسيطر على المدرسة الأمريكية فى علم الاجتمـاع • لقد كان بارسونز على يقين من أن جمع الحقائق الامبيريقية فقط ليس كافيا لاقامة صرح العلم • فلا بد أن تتجمع هـذه الحقائق فى لطار نظرى يمكن من خلال تفسيرها وايجاد العلاقات المنطقية بينها • وربما كان بارسونز يدرك ـ بوعى او بغير وعى ـ أن مثل هـذه البحوث الامبيريقية لن تسهم فى حل مشكلات المجتمع الذى يعانى من الأزمة الاقتصادية ، وان هـذا الحل يمكن ان يتاح فقط اذا ما انصهرت العناصر المكونة للبنـاء الاجتمـاعى فى « كل » واحد يوفق بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع • وبناء على ذلك فان البديل النظرى الذى طرحه بارسونز يمكن النظر اليه من ناحية على انه رد فعل تجاه الاتجاه الامبيريقى ومن ناحية اخرى على انه رد فعل تجـاه « مشكلة المجتمع » التى حاول أن يضعها فى سياق نظرى عام رافضا بذلك الرؤى الجزئية النابعة من البحوث الامبيريقية •

ولكن لم يكن لبارسونز أن يقدم مشروعه دون أن يختار الأصـول التى يعتمد عليها فى صياغته • ويبدو أن الظروف التى كان يمر بها المجتمع الأمريكى فضلا عن ظروف تكوين بارسونز الفكرى قد دفعته الى عدم اللجوء الى المـاركسية ليستمد منها عناصر فكرية لصياغة نظريته • وفى مقابل ذلك لتجه بارسونز الى المثالية الألمـانية والوضعية الفرنسية والنفعية الانجليزية محاولا أن يخلق من امتزاجهم جميعا موقفا نظريا جديدا • ولقد ظهر هـذا الموقف النظرى الجدد فى كتاب بارسـونز الأول « بنـاء الفعل

---

(٩) أعـد بارسـونز رسـالته للدكتوراه عن مفهـوم الرأسمالية فى نظريات ماكس فيبر ، وفيرنز ، وزمبارت ؛ واهتم بارسونز بمؤلفات الفكر الاقتصادى للفرد مارشال ؛ ودرس مؤلفات دوركايم ـ وتأثر ـ فى الفتـرة التى قضاها بمدرسة الاقتصاد العليا بجامعة لندن بعالم الأنثروبولوجيـا ماليتوفسكى الذى أثار فيه اهتماما بالاتجاه الوظيفى •

الاجتماعى ،(١٠) الذى حاول فيه أن يوضح جوهر الاتفاق بين افكار ماكس فيبر ومارشال وباريتو ودوركايم فيما اسماه بارسونز بالنظرية الطوعية فى الفعل • ولقد وضع بارسونز فى هذا الكتاب المبادىء الأساسية للنظرية العامة فى الفعل والتى كان يعتبرها تاسيسا مشتركا بين علوم عديدة كعلم الاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا(١١) • وجاءت كل أعمال بارسونز التالية كمحاولات لحل المشكلات النظرية التى اثارتها النظرية العامة فى الفعل ولا حكام الفروض التى طرحتها واكسابها قدرا من الدقة والتنظيم • وكانت النتيجة عدد من النماذج النظرية التحليلية التى تفسر أنساق المجتمع والعلاقات فيما بينها ، وطبيعة التباين والتغير فى هذه الأنساق ، والطابع العام للتطور • كانت النتيجة على ما يذهب البعض رؤية نظرية عامة على اعلى مستوى من التجريد بحيث تكاد تخرج بنا خارج نطاق هذا العالم الذى نعيش فيه(١٢) • لنستعرض فيما يلى ماذا قال بارسونز ؟

ثانيا : نظرية الفعل والحل المعيارى لمشكلة النظام

ربما كان تالكوت بارسونز أهم علماء الاجتماع الذين دخلوا فى حوار صريح مع هوبز صاحب « مشكلة النظام العام » لأنه كان يدرك تماما ان علم الاجتماع يجب أن يتخذ من هذه المشكلة نقطة انطلاق له(١٣) • ولم ينظر بارسونز الى مشكلة النظام على انها مشكلة فلسفية ولكنها مشكلة امبيريقية لها فاعليتها فى المجتمع المعاصر • فقد كان اكثر احساسا ـ على

---

(١٠) صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٧ •

(١١) اظهر بارسونز اتجاها يقوم على المساواة الدقيقة بين العلوم الاجتماعية المختلفة حيث يعالج كل علم جانبا واحدا فقط فيه جوانب الفعل الاجتماعى •

(١٢) انظر : بوتومور ، علم الاجتماع والنقد الاجتماعى ، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه ، دار المعارف ، ١٩٨١ •

(١٣) ربما كان الحوار الذى دخل فيه بارسونز مع هوبز هو السبب الذى جعل مؤرخى السوسيولوجى يحاولون الربط بين التفكير النظرى ومشكلة النظام •

خلاف ما يذهب نقاده ـ بعدم استقرار المجتمع المعاصر(١٤) ، ذلك لأن تركيزه على مشكلة النظام يعني انه كان يستوعب الامتداد الحقيقي للازمة وانه ادرك أن هذه الأزمة تتضمن شيئا أكثر من ابعادها الاقتصادية ، وانها تتضمن مشكلة أكثر عمومية وأكثر شمولا(١٥) ٠

يرى بارسونز أن النسق النظرى الذى قدمه هوبز هو حالة متطرفة من النظرية النفعية ، ذلك لأن اساس الفعل الاجتماعى يكمن فى العواطف واذا كان الأفراد يسلكون بطريقة رشيدة ، فانهم يسخرون عقولهم لخدمة الأهداف التى تمليها عليهم عواطفهم ، والتى تكون فى الكثير من الأحيان محاولة لتحقيق السيطرة على الآخرين ٠

وفى هذه الحالة فان انسب الوسائل دائما ما تكون العنف والخداع وهو الذى يؤدى الى تحويل المجتمع الى حالة من الحرب ، وهذا هو جوهر مشكلة النظام ٠٠ ولقد حل هوبز هذه المشكلة من خلال « العقد الاجتماعى » الذى يعتبر توسيعا لمفهوم الرشد الى درجة يدرك معها الفاعلون الموقف ككل بدلا من تحقيق اهدافهم فى ضوء مصالحهم الفردية ومن ثم يتخذون الفعل الضرورى الذى يستبعد العنف والخداع(١٦) ، ورغم أن بارسونز لم يوافق على هذا الحل النفعى ، الا ان كلماته تكشف عن اعجاب بآراء هوبز النفعية « لقد رأى هوبز المشكلة بوضوح بصورة لم يسبقه فيها أحد ، ولا تزال عباراته عن هذه المشكلة صادقة حتى اليوم »(١٧) غير انه اضاف قائلا ، « ومن الجوهرى ان حلا حاسما لهذه المشكلة لا يمكن الوصول اليه على أساس نفعى بحت ، ولكنه يجب أن يتضمن اما رجعة الى الوضعية ، او تجاعلا للاطار الوضعى تماما »(١٨) ٠

---

(١٤) نظر هؤلاء الى بارسونز على أنه كان منعزلا عن مشكلات عصره وانه لم يكن حساسا لمشكلات الحياة اليومية كالفقر والحرب والتفرقة العنصرية ٠

(١٥) Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., pp. 146—147.

(١٦) Parsons, Structure of Social Action, Free Press, 1949, First Published, 1937, pp. 89—93.

(١٧) Ibid., p. 94.

(١٨) Ibid., p. 94.

فرق بارسونز بين نوعين من النظام العام : النظام المعيارى العام Normative والنظام الواقعى Factual . يتمثل النظام العام المعيارى فى ارتباطه بمجموعة من المايير ، او العناصر المعيارية ، سواء كانت غايات او اى معايير اخرى . أما النظام الواقعى ، فيتمثل فى الحالة الواقعية التى يمكن أن تخضع للقانون العلمى فى التحليل . وبالرغم من امكانية انخفاق اى نظام معيارى ، وترديه الى حالة من الفوضى تحت ظروف معينة فانه تبقى حقيقة أساسية تتمثل فى أن العناصر المعيارية ضرورية للمحافظة على اى نظام واقعى ، فالنظام الاجتماعى العام هو دائما نظام واقعى ما دام قابلا للتحليل العلمى . غير انه لا يمكن ان يحافظ على استقراره دون توظيف فعال لبعض العناصر المعيارية(١٩) .

من هذا المنطلق اكتسبت المعايير اهمية مطلقة فى حل بارسونز لمشكلة النظام ، فافعال الفرد ليست عشوائية او محكومة بالعواطف ولكنها على العكس من ذلك تماما ، اذ نجدها تكشف عن قدر من النظام بحيث لا تتردى فى حالة من الحرب ، أو تختلف اختلافا كبيرا بحيث لا يمكن التنبؤ بها ، وتوجد هاتان الخاصيتان ـ فقط ـ اذا ما شارك اعضاء المجتمع فى مجموعة من القيم المطلقة التى تحدد اهدافهم ووسائلهم لتحقيق هذه الأهداف . وتضفى هذه القيم قدرا من النظام والمعنى على سلوك الفرد ، ومن ثم تكبح الصراع والفوضى فى المجتمع(٢٠) .

ويبدو أن بارسونز قد اكتشف هذه العناصر المعيارية فى اعمال ماكس فيبر ومارشال ، ودوركايم ، وباريتو وذلك عندما استمد منهم اصول نظريته العامة فى الفعل وتوصف نظرية الفعل عند بارسونز بانها نظرية طوعية . وهى كذلك لأنها تعبر عن عدائه للحتمية وتترك جانبا كبيرا لحرية الارادة للفاعل فى تحديد اهدافه ووسائله فى ضوء المايير التى تعتبر محركات غير منظورة وثابتة للسلوك .

---

(١٩) Ibid., p. 91.

(٢٠) Percy Cohen, Modern Social Theory, op. cit., p. 105.

ولذا كانت القيم المطلقة منفصلة عن العنصر الطوعى ، أو حرية الارادة الا ان كلا منهما مرتبط بالآخر ، ذلك لأن ادراك المعايير يعتمد على جهد الأفراد الفاعلين ، والظروف التى يسلكون فيها • وتسير العلاقة الفعالة بين المعايير والأفراد عن الجانب الخلاق او الطوعى فى السلوك • فالمعايير لا تكبح الأفراد من الخارج بل يتقبلونها عن ارادة وحرية ، فالأفراد يعتبرون المعايير شيئا مرغوبا فيه ، ومن ثم يدركون أهميتها ويوجهون سلوكهم فى ضوئها(٢١) • وهذا هو جوهر الخلاف بينه وبين دوركايم • فدوركايم لم يفرق بين قوة المعايير وبين قبولها الطوعى من جانب الأفراد ، فالفاعل فى نظر بارسونز ـ يتوحد ارداديا مع هذه المعايير ويقبلها كجزء من تكوينه • ومن هذا المنطلق يعتبر الفعل الاجتماعى فعلا ذا معنى ذاتى وطوعى فى نفس الوقت • ولنحاول الآن أن نعرض باختصار لعناصر نظرية الفعل عند بارسونز •

يشير مفهوم الفعل الاجتماعى عند بارسونز الى كل اشكال السلوك البشرى التى تحركها وتوجهها المعانى الموجودة فى دنيا الفاعل وهى معانى يدركها الفاعل ويستدمجها فى ذاته • والفاعل يمكن ان يكون فردا او جماعة او تنظيما أو حتى مجتمعا • الفاعل هو اى كيان ـ كبر حجمه أو صغر ـ يسلك فى ضوء المعانى التى توجد فى بيئته • وطالما أن هذه المعانى لا يحتكرها فاعل بعينه بل يشترك فيها آخرون ، فان الفعل الاجتماعى الذى يأتيه فاعل معين لا يتم الا داخل موقف • وهناك مجموعة من العناصر داخل

---

(٢١) Parsons, Structure of Social Action, op. cit., p. 81.
تجدر الاشارة الى ان بارسونز لم يكن يركز على العناصر المعيارية ولكنه ادرك أهميتها فقط واعتبرها مرتبطة بالعناصر الأخرى • غير أن هذه الأهمية فى حد ذاتها يمكن ان تجعله يتردى فى هوة الحتمية التى حاول أن يبتعد عنها • ولقد اكد بارسونز حتمية الثقافة فى كتابه : **المجتمعات : منظورات تطورية ومقارنة** حيث يذهب الى اننا لا يمكن ان نقبل نظرية تركز على العامل الواحد ويؤكد فى نفس الوقت ان ذلك لا يحول دون الترتيب التدريجى للعوامل ويستنتج من هذا ان العناصر المعيارية أكثر أهمية من العوامل المادية • انظر :

Parsons, Societies : Evolutionary and Comparative Perspective, Englood Chiffs. N.J., 1966.

الموقف يتخلق من ترابطها جميعا التفاعل بين الفاعلين الموجودين داخل الموقف • ويضم الموقف الموضوعات الفيزيقية (الطبيعية الجغرافية والظروف المناخية والأجهزة العضوية للفاعلين) ، والموضوعات الاجتماعية (الفاعلين الآخرين الموجودين فى الموقف) والموضوعات الرمزية (اللغة والقيم والمعايير) • وبناء على ذلك فان الفعل الاجتماعى لا يمكن ان يتم الا اذا توافرت عدة عناصر هى : الفاعل والموقف (بما يحويه من موضوعات فيزيقية واجتماعية) والرموز التى من خلالها يتم التواصل داخل الموقف والمعايير التى توجه سلوك الفاعل وتضبطه(٢٢) •

ويتصف الفعل الاجتماعى ـ والتفاعل الاجتماعى ـ بان له خصائص النسق ، بمعنى انه يتكون من مجموعة من العناصر المترابطة التى تتصف اقل وحدة فيها بنفس الصفات التى تسم المركب الكلى ، بحيث يمكن باستخدام التحليل والتركيب أن نتعرف على المكونات الصغيرة للنسق وكذلك على صورته العامة الكلية • وطرح بارسونز مفهوم وحدة السلوك الصغرى unit-act وهو مفهوم يمكن من خلاله أن يفهم كيف يتحلل النسق الى وحدات سلوكية صغرى وكيف تشكل هذه الوحدات الصغرى البناء الكلى لنسق الفعل • ووحدة السلوك هى الصورة المصغرة للفعل الاجتماعى ، ويمكن ان تتبدى فى لحظة تفاعلية بين فردين فى موقف عابر قد لا يستمر الا لثوان قليلة • وتضم كل وحدة سلوكية بهذا المعنى نفس العناصر التى يتكون منها الفعل الاجتماعى(٢٣) ، ولذلك فانه مع تشابك وتداخل وحدات السلوك المختلفة فى مواقف الحياة المختلفة فان النتيجة تكون بناء كليا اساسة نسق الفعل الاجتماعى • وتسهم القيم والمعايير فى خلق درجة من الانتظام والترابط بين وحدات السلوك المختلفة بحيث يمكن القول بان وحدات السلوك المختلفة المشكلة لمختلف الأفعال الاجتماعية تسبح جميعا فى بحر من القيم والمعايير الأمر الذى يحقق بينها

---

(٢٢) Porsons, Structure of...op. cit., pp.

(٢٣) انظر حول تعريف وحدة السلوك الفصل الأول والثانى والثالث من كتاب بارسونز « بناء الفعل الاجتماعى » السابق الاشارة اليه •

الترابط والانسجام ولا يدخلها فى صدام محمر(٢٤) ٠

واذا كان الفعل الاجتماعى يتصف بخصائص النسق فان معنى ذلك أن له بناء داخلى ، ووظائف مختلفة ترتبط بعناصره المكونة (او انساقه الفرعية) ، وعلاقات دينامية تنتظم وفقا لقوانين ثابتة ٠

(١) وتمثل الأنماط الثقافية بما تحدده من قيم ومعايير وبما تفرضه من ضوابط على سلوك الأفراد تمثل المحددات البنائية لأنساق الفعل الاجتماعى ٠ ووفقا لهذه المحددات لا يتحول الفعل الى سلوك عشوائى بل يصبح فعلا يلتزم بمجموعة من المبادىء الثقافية يستدمجها الفرد فى داخله فتصبح ضابطة لسلوكه ٠ ولا يخضع الفرد لهذه المعايير خضوعا قهريا على ما هو موجود فى صياغة دوركايم بل يخضع لها خضوعا طوعيا ، بمعنى أنه خضوع قائم على الاختيار الحر ٠ لقد حاول دوركايم هنا ان يوفق بين فكرة الأنا الأعلى عند فرويد وفكرة الضمير الجمعى عند دوركايم من خلال تحليلة للعلاقة بين القيم والمعايير المستدمجة فى شخصية الفاعلين (الأنا الأعلى عند فرويد) والقيم والمعايير التى تضبط سلوك الفاعل من الخارج (الضمير الجمعى عند دوركايم) ٠ وذهب بارسونز فى هذا الصدد الى أن الأنماط الثقافية تستدمج فى شخصيات الفاعلين بقدر انصهارها فى النظام الاجتماعى كأنماط ثقافية ، كما ان هذه الأنماط تنصهر داخل النظام الاجتماعى بقدر مشاركة الفاعلين فيها واستحماجهم لها(٢٥) ٠ الأنماط الثقافية التى هى أساس للنظام الاجتماعى العام تعتبر لذن انماط داخلية وخارجية فى آن واحد فهى تدفع الفاعل وتحركه نحو التطابق والقيم الخارجية السائدة فى النسق(٢٦) ٠

---

(٢٤) انظر الشكل المعبر عن العلاقات بين وحدات السلوك فى المصدر التالى :

Dick Atkinson, Orthodox Consensus and Radical Alternative, Heinmonn, London, 1971 p. 12.

(٢٥) انظر جى روشيه ، المرجع السابق ، ص ص ٧٢ ــ ٧٣ ٠

(٢٦) على ليلة ، البنائية الوظيفة فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠

والاشارة هنا الى أصل هذه الدراسة فى رسالة الماجستير بعنوان « الأسس النظرية والمنهجية للنظرية الوظيفية فى علم الاجتماع » رسالة ماجستير ، كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ، ١٩٧٣ ٠

ولكن يبدو أن الطوعية المضفاه على الفعل الاجتماعي لا تخرج لنا سلوكا له صفة الحرية المطلقة ، ذلك أن بارسونز قد ذهب الى أن العناصر الثقافية تتحدد فى أنماط بنائية ثابتة تجبر الفرد على أن يختار السلوك الذى يتوافق مع واحد أو أكثر من هذه الأنماط بحيث لا يخرج مجموع افعاله عن حدود هذه الأنماط الثقافية الثابتة • وبذلك يكون بارسونز قد قيد التفاعل بحدود معينة عندما حدد البدائل أو المتغيرات الشكلية للتوجيه القيمى والتى تقدم للفاعل الحلول المحتملة خلال عملية التفاعل • ولقد حدد بارسونز البدائل المختلفة للأنماط الثقافية فى شكل معضلات dilemas تقوم كل واحدة منها على الاختيار بين زوجين من المتغيرات اطلق عليها متغيرات النمط Pattern Variables واعتبرها المحور الرئيسى للنظرية العامة فى الفعل • وتنقسم متغيرات النمط الى خمسة ازواج من المتغيرات (يمثل كل منها معضلة تفرض على الفاعل ان يختار فى سلوكه احد المتغيرات دون الآخر) • تنحصر المعضلة الأولى فى اختيار الفاعل بين الحياد الوجدانى أو الوجدانية (Affective neutrality - Affectivity) ويتيح الاختيار الأول للفاعل التخلى عن المشاعر العاطفية والسلوك بحيادية تامة ؛ أما الاختيار الثانى فانه يتيح له ان يشبع حاجاته المباشرة متأثرا بعواطفه ووجدانه • أما المعضلة الثانية فانها تنحصر فى اختيار الفاعل بين السلوك القائم على التوجيه الجماعى أو السلوك القائم على التوجيه الفردى • ويتيح الاختيار الأول للفاعل أن يسلك وفقا لصالح الجماعة ، أما الاختيار الثانى فانه يتيح له ان يسلك وفقا لصالحه الذاتية • وتنحصر المعضلة الثالثة فى اختيار الفاعل بين العمومية والخصوصية (Universalism - Particularism) • الاختيار الأول يتيح للفاعل أن يسلك وفقا لمعايير عامة بصرف النظر عن ارتباطه بالموضوعات التى يتعامل معها ؛ أما الاختيار الثانى فايه يتيح له ان يسلك وفقا لمعايير خاصة تختلف من موضوع لآخر • وتتمثل المعضلة الرابعة فى اختيار الفاعل بين الانجاز والنوعية (Performance - Quality) . فالأول يتيح للفاعل ان يقيم الموضوع فى ضوء درجة اداءه او انجازه ، أما الثانى فانه يتيح للفاعل أن يقيم الموضوع للخصائص الذاتية للموضوع (نوعية الموضوع) • واخيرا فان المعضلة الخامسة تتمثل فى اختيار الفاعل بين تخصص العلاقات او انتشارها (Specificity - diffusness) • حيث يتيح

الاختيار الأول النظر الى الدور فى ضوء حدود التخصص ويتيح الثانى علاقات متداخلة بين الأدوار دون أى حدود(٢٧) ٠

وتحدد متغيرات النمط بناء نسق الفاعل الذى يبدو فى صورة بها شكل من الثنائية أو الازدواجية ، وتحدد هذه الأنماط فى أشكال ثقافية ثابتة تكسب الفاعل قدرا من الثبات والاستمرار وتحدد له بناء واضحا ٠ واذا ما بدأنا النظر فى هذا البناء من الداخل فاننا سوف نجد انه يتكون من مجموعة من الأبعاد أو العناصر تتجمع فيها وحدات السلوك المختلفة كل يستقر فى بعد من أبعاد الفاعل ٠ وقد تتحرك بعض وحدات السلوك بين بعد الى آخر وفقا لما يطرأ على نسق الفاعل من تغير ٠ وهذا الانتظام لوحدات السلوك يجعل الفاعل نسقا مترابط الأجزاء ٠

وقد استخدم بارسونز مفهوم المستلزمات الوظيفية لنسق الفاعل لكى يحلل ابعاده الداخلية المختلفة ٠ فنسق الفاعل يتبلور حول اداء اربع وظائف اساسية بحيث لا يمكن أن نتحدث عن نسق للفاعل الا اذا حقق هذه الوظائف ٠ ويقابل كل وظيفة من هذه الوظائف بعد من أبعاد الفاعل ٠ فاذا ما نظرنا الى أى فعل اجتماعى فسوف نجد انه له ابعادا اربعة يقابل كل منها وظيفة من وظائف الفاعل الأربعة(٢٨) :

١ ـ فهناك اولا التكوين العضوى (البيولوجى) للفاعل ، ووظيفته

---

(٢٧) ظهرت الصياغات الأولى لمتغيرات النمط فى الكتابين التاليين :

T. Parsons, Social System, The Free Press, Glencoe, Illinois, Copyright, 1951.

T. Parsons and others, Toward a General Theory of Action, Harvard University Press, 1951.

(٢٨) قدم بارسونيز عرضا لنموذج الوظائف الأربعة فى مقال افتتاحى فى كتاب « نظريات المجتمع » انظر :

Parsons and others (eds.), Theories of Society, New York, 1964 pp. 30—79.

كما أوضح العلاقة بين متغيرات النمط ونموذج الوظائف الأربعة فى الكتاب التالى :

Parsons and others, Working Papers in the Theory of Action, New York, 1953.

أن يحقق تكيف الفاعل من البيئة الخارجية وان يتوام مع الضرورات والحدود التى تفرضها هذه البيئة عليه ٠

٢ ـ الشخصية وهى ترتبط بوظيفة تحقيق الهدف ٠ فالشخصية هى التى تحدد للفاعل أهدافه وتحدد كذلك الموارد والطاقة اللازمين لتحقيق هذه الأهداف ٠

٣ ـ والفاعل ليس كائنا بيولوجيا وشخصية فقط وانما هو فاعل يعيش فى مجتمع ويرتبط بعلاقات اجتماعية ٠ ولذلك فان البعد الرابع من أبعاد الفاعل هو العلاقات الاجتماعية التى تشكل النسق الاجتماعى ٠ ويحقق النسق الاجتماعى وظيفة التكامل حيث يضبط مكونات الفاعل ويخلق بينها قدرا من الاستقرار والتضامن ، ويفرض على الفاعل ضوابط اجتماعية تمنعه من الجنوح نحو الأفعال التى تتصادم من أهداف النسق ٠

٤ ـ وأخيرا هناك الثقافة التى تقوم بوظيفة المحافظة على النمط أى أنها تحفظ النسق من الانهيار ، تشحن له دافعيته باستمرار من خلال ما تفرضه عليهم من معايير ومثل عليا وقيم وليديولوجيات ٠

ولقد اعتبر بارسونز هذه الأبعاد الأربعة بمثابة أنساق فرعية للفاعل ، يؤدى كل منها وظيفة محددة داخل النسق العام للفعل ٠ وهى بمثابة شروط لاكتمال الفعل وتمييزه عن كافة الأفعال الأخرى غير البشرية ٠ وترتبط أنساق الفعل بعلاقة تبادل وتاثير ٠ فالنسق الاجتماعى لا يدخل فى خلاف جذرى مع شروط الأداء الوظيفى لفاعلية الأفراد المكونين له ككائنات عضوية وكأشخاص ، أو مع شروط الأداء الوظيفى والاستقرار النسبى لنسق الثقافة ٠ كما ان النسق الاجتماعى يعتمد على حد أدنى من الدعم أو المدد المطلوب من الأنساق الأخرى : يمده نسق الشخصية بأفراد مدفوعين لأن يتصرفوا وفقا لمتطلبات أدوارهم بانجاز للتوقعات والابتعاد عن السلوك المحطم اى السلوك المنحرف ، ويجنبه نسق الشخصية الارتباط أو التمسك بأنماط ثقافية تكون قد فشلت فى تحقيق حد أدنى من النظام أو تلك التى تفرض متطلبات مستحيلة على أفراد النسق او التى تولد درجة من الانحراف او الصراع لا تتفق مع الحد الأدنى من شروط الاستقرار او التطور المنظم ؛ ويمده النسق العضوى بالأفراد الأصحاء الذين

يستطيعون اداء ادوارهم بكفاءة · ولا تستطيع هـذه الانساق الثلاثة للفاعل ان تؤدى وظائفها دون العـلاقات الاجتماعية والضـوابط التى ينظمهـا النسـق الاجتماعى ·

ويكشف هـذا التحليل عن مدى الانضباط والاستقرار اللذين يجب أن يتم الفعل الاجتماعى فى ضوئهما · واذا ما وضعنا فى اعتبارنا المحـددات البنائية للفعل والمتمثلة فى متغيرات النمط ، فاننا نكتشف أن طوعية الفعل الاجتماعى عند بارسونز لا تتم الا فى حـدود معينة · فالفاعل له درجة من الحرية ، ولكن لا يمكن لهـذه الحرية أن تتخطى ما هو مقرر اجتماعيـا وثقافيا · فحرية الفاعل لا يجب أن تضـعه فى صراع مع الأطر البنـائية الثابتة والا اعتبر سلوكه شكل من اشكال الانحراف · ومن هنا فاننا نجد ان اهتمام بارسونز بمشكلة النظام فى المجتمع قد جعله اكثر ميلا لأن يقدم لها حلا معياريا · فالأطر البنائية والثقافية هى التى تحتل مكان الصدارة فى تشكيل الفعل الاجتماعى · بل أن بارسونز قـد اولى للعناصر الثقافية فى الفعل اهمية خاصة واعتبرها الضابط النهائى والمطلق الذى يحـافظ على نمط المجتمع ويهيمن على كل الأنساق الأخرى للفعـل · وقـد ظهر ذلك فى معالجة بارسـونز للعلاقات الدينامية بين انساق الفعل فيما اسماه بالتدرج السبرنطيقى لأنساق الفعـل ·

افترض بارسـونز ان اى نسـق من انسـاق الفعل به قـدر من الطـاقة ولديه قـدر من المعـلومات ، وان انسـاق الفـاعل تتبـادل كميـات الطـاقة والمعـلومات التى لديهـا · ولـكن انسـاق الفـاعل لا تمتلك نفس الدرجـة من الطـاقة والمعلومات · فبعضهـا يمتلك طـاقة اكبر وبعضها يمتلك معلومات اكبر · وهـذا الاختلاف بين الأنساق فيمـا تمتلكه من طاقة ومعلومات يجعل العلاقة بينها غير متكافئة وفقا لمبـدا التدرج السبرنطيقى · فالنسق الذى يمتلك قـدرا اكبر من المعلومات يتحـكم فى النسق الذى لديه قـدر اقـل من المعلومات وقـدر اكبر من الطـاقة · واذا ما رتبنا انساق الفاعل وفقا لهـذا المبـدا فسوف نجـد أن النسق الثقـافى هو النسـق الذى لديه اعلى مسـتوى من المعلومات يأتى بعـده النسـق الاجتماعى ثم نسق الشخصية ويأتى فى النهاية النسق العضوى · فى حين أن النسق العضـوى يمتلك اعلى مستوى من الطـاقة يأتى بعـده نسـق

للشخصية ثم للنسق الاجتماعى أما النسق الثقافى فانه يأتى فى النهاية(٢٩). وبنـاء على ذلك فان النسق الثقافى هو الذى يتحكم فى الأنساق الأخرى ويفرض عليها الضوابط بما يمتلكه من معلومات أوفر . حقيقة ان بارسونز قـد أشار الى أن العلاقات الدينامية بين أنساق الفعل تتميز بأنها علاقات متوازنة ؛ ولكن ترتيبه لمستويات التحكم التى يفرضها كل نسق على الآخر قـد أدى الى أن يصبح النسق الثقافى هو المتحكم فى كافة الأنساق الأخرى . وبنـاء عليه فان القيم والمعايير تمثل محددات مطلقة للفاعل تأتى بعـدها الضوابط التى يفرضها النسق الاجتماعى ومن ثم فان الفاعلين (كشخصيات مستقلة) ليس لديهم القدرة على تغيير النسق أو الثورة عليه .

ثالثـا : نظـرية النسـق الاجتماعى

تمثـل نظرية الفعـل الاجتمـاعى عند بارسـونز اطارا مرجعيا لعلم سوسيولوجى ، ذلك أن الفعل البشرى يشتمل على كائنات عضوية وانماطا من الشخصية وعالمـا من الرموز . وعلم الاجتماع، يحـدد بؤرة اهتمـامه فى دراسة الجوانب الاجتماعية للفعل . اى ان مكان علم الاجتماع هو النسـق الاجتماعى كأحـد انساق الفعـل ويشاركه فى نفس المكان علوم الاقتصـاد والسياسية والأنثروبولوجيا .

ولكن لا يعنى ذلك ان النسق الاجتماعى ينفصـل عن انساق الفعـل الأخرى . فقـد أشرنا فيما سبق الى وجـود الاعتمـاد المتبادل بين هـذه الأنساق . ان أنساق الفعل الأخرى تعمل بمثابة البيئة التى يوجد داخلها النسق الاجتماعى يأخـذ منها ويعطيها بالرغم من أن له درجة من الاستقلال النسبى عن الأنساق الأخرى.ومثل ذلك يقال عن اى نسق من انساق الفعل.

واذا ما استعرضنا تحليل بارسونز للنسق الاجتماعى ـ الذى كان يعنى عنده المجتمع أيضا ـ نجـد أنه يطبق عليه نفس مقولات التحليل التى استخدمها لتحليل الفعل الاجتماعى . فسـوف نرى فيما بعـد أن النسـق

---

(٢٩) شرح بارسونز فكرة التدرج السبرنطيقى فى كتابه المجتمعات : منظورات تطورية ومقارنة السابق الاشارة اليه ، ويجد القارىء تلخيصـا لها كتاب جى روشيه السابق الاشارة اليه أيضا .

الاجتماعى ينقسم بدوره الى انساق فرعية اربعة كل منها يحقق وظيفة من الوظائف الأربعة (التكيف وتحقيق الهدف والتكامل والمحافظة على النمط ، وسوف نرى أن هـذه الأنساق الأربعة ترتبط بروابط تبادلية بحيث يظهر المجتمع فى انهاية وكانه قائم على درجة عالية من التنظيم والاستقرار • وهـذا ما يؤكد مرة اخـرى استمرار نفس الاتجـاه الذى يؤكد على عناصر النظام والاتساق بحيث يظهر المجتمع وكانه جهاز متناغم العناصر متسـق الأجزاء • ويتسق هـذا مع نظرة بارسونز إلى العالم • انها نظرة « كلية » تفهم المجتمع على انه « كل » متفاعل الأجزاء • وكما يذهب الفن جولدنر بحق فان بارسونز فى تحليله للنسق الاجتماعى ينطلق من فكرة « وحدة العالم » اى النظر الى العـالم نظرة كلية يبدو فيهـا الكل على انه اهم واسبق من مجموع أجزاءه(٣٠) • حقيقة أن بارسونز يملك مكونات النسق الاجتماعى ، ولكن التحليل النهائى الذى يقدمه ما هو الا اعادة تركيب لهـذه المكونات بحيث تظهر لدينا صورة كلية ترسم علاقات متوازنة بين هـذه المكونات • لنستعرض الآن نظرية بارسونز عن النسـق الاجتمـاعى لنكشف الى اى مدى تتميز بهـذه الخاصية •

بدأ بارسونز تحليله للنسق الاجتماعى من اصـغر مكوناته ، واعنى التفاعل الاجتماعى • فالنسق الاجتماعى هو شـبكة من العلاقات بين الأفـراد والجماعات • انه مجموعة من الفاعلين (أفرادا أو جماعات أو حتى مجتمعات) تنظم بينها علاقات اجتماعية مستقرة • والتفاعل الاجتماعى بين الفـاعلين تحكمه مجموعة من العناصر : (١) التوقعـات المتبادلة بين الفـاعلين والتى تجعل كل منهم يضع فى اعتباره سلوك الآخرين ؛ (٢) والقيم والمعايير التى تحكم التفاعل وتحـدد شـكل التوقعات المتبادلة بين الفاعلين ؛ (٣) واخـيرا الجزاءات التى تظهر فى اشـكال من الثواب والعقـاب فتحقق بذلك درجـة من ضبط التفاعل •

---

(٣٠) يربط جولدنر بين هـذه الرؤية وبين غموض وتعقـد المفاهيم التى يستخدمها بارسونز • فبناؤها الغامض يعبر عن رؤية العالم على انه « كل مترابط » • ان تعقدها وتشابكها يهدف الى تغطية كل مكونات المجتمع بصرف النظر عن تفسيره وهى بذلك تتخطى دراسة الصراعات والتوترات داخـله • انظـر كتاب جـولدنر **الأزمة القـادمة لعـلم الاجتمـاع الغربى** صص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ •

ويلعب كل فاعل دورا معينا فى عملية التفاعل ؛ كما تكون له مكانة معينة فى شبكة العلاقات يكتسبها من طبيعة الدور الذى يؤديه • وبذلك فان مفهوم المكانة والدور اصبحا من المفهومات التحليلية الأساسية فى المشروع النظرى الذى قدمه تالكوت بارسونز ، وهما يعكسان مشاركة الفاعل فى نسق التفاعل وما يرتبط بهذه المشاركة من وضع اجتماعى(٣١) • وعندما يؤدى الفاعل دوره ـ أى يدخل فى علاقة تفاعل ـ فلا بد أن يوفق بين واقعيته وبين التوجيهات المعيارية التى تحكم سلوكه وسلوك الآخرين • إحقيقة أن كل فاعل يسعى لتحقيق أهداف خاصة ، غير أن هذه الأهداف لا يجب أن تتعارض مع أهداف الآخرين كما لا يجب أن تتعارض مع معايير وقيم المجتمع • هنا يتم التوافق بين دافعية الفاعل وبق التوجيهات القيمية فى المجتمع • ولقد حلل بارسونز الدافعية والتوجيه القيمى نظرا لأهميتها فى التفاعل الاجتماعى • تنقسم الدافعية الى ثلاثة جوانب : للجانب الانفعالى ، والجانب المعرفى ، والجانب التقويمى • أما التوجيهات القيمية فانها تنقسم أيضا الى ثلاثة جوانب : الجانب المعرفى ، والجانب التذوقى ، والجانب الأخلاقى • ولا يتحقق التوافق الكامل بين الدافعية والتوجيه القيمى الا اذا استدمج الفاعلون التوجيهات القيمية فى ذواتهم بحيث ـ يستطيع الفاعل أن حدد أهدافه فى ضوء أهداف المجتمع وان لا يجعل هذه الأهداف تتعارض مع أهداف الآخرين •

والواقع أن هذا التكامل بين التوجيهات الدافعية والتوجيهات القيمية يعبر ـ اذا تحقق ـ عن تكامل النسق الاجتماعى ككل • فاذا تحقق هذا التفاعل على مستوى التفاعل بين فاعلين ، فان ذلك يعنى أن النسق سوف يحقق فى النهاية تكاملا كليا •

ولكن التفاعلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات وما يرتبط بها من أدوار ليست هى كل مكونات نظرية النسق الاجتماعى • ان الأدوار التى يؤديها الأفراد تتبلور فى تكوينات هى مؤسسات المجتمع أو نظمه • وتشكل المجموعات المتشابهة من النظم نسقا فرعيا داخل المجتمع ، تقوم بينه وبين

---

(٣١) انظر :

T. Parsons, Social System, The Free Press 1951, pp. 25—26.

الأنساق الأخرى علاقات اعتماد متبادل · ولقد استخدم بارسونز نموذج الوظائف الأربعة لتحليل انساق المجتمع الفرعية ، حيث ميز من خلاله بين أنساق فرعية اربعة :

١ ـ فالنسق الاقتصادى (وهو يشتمل على مجموعة الأنشطة الخاصة بالانتاج والتوزيع) يحقق وظيفة التكيف ، أى انه يمكن المجتمع ـ من خلال عملية تنظيم الانتاج ـ من أن يتكيف مع البيئة ويسيطر عليها لكى يستمر فى الوجود ·

٢ ـ والنسق السياسى (وهو يشتمل على مجموعة الأنشطة التى تتصل باتخاذ القرارات وتعبئة الموارد) فيحقق وظيفة تحقيق الهدف · أى انه يرسم للمجتمع اهدافه ويعمل على تعبئة الموارد الممكنة لتحقيق هذه الأهداف ·

٣ ـ والروابط المجتمعية (وهى مجموعة النظم التى تعمل على اقامة علاقات متبادلة بين الأفراد والجماعات وتجعلهم يحققون درجة عالية من التضامن مثل القانون والدين والنظم القضائية وكل المؤسسات التى تجمع للناس على أهداف معينة) تحقق وظائف التكامل اى انها تفرض التنسيق اللازم لاستمرار المجتمع بدون كثير من الفوضى ·

٤ ـ وتمثل التنشئة الاجتماعية النسق الرابع الذى يقوم بوظيفة المحافظة على نمط المجتمع · فمن طريق التنشئة الاجتماعية يتم نقل ثقافة المجتمع الى الأفراد الذين يستدمجونها وتصبح عاملا هاما فى خلق الدافعية للسلوك الملتزم ·

وترتبط هذه الأنساق الأربعة بعلاقات اعتماد متبادل · فكل نسق فرعى من أنساق المجتمع يهدف الى تحقيق وظيفة تعد مستلزما اساسيا للنسق ككل اذا غابت ينهار النسق ويجعل الأداء الوظيفى لبقية الأنساق الفرعية · فالاقتصاد مثلا ـ والذى يسعى الى تحقيق التكيف مع البيئة من خلال تنظيم عمليات الانتاج والتوزيع والاستهلاك ـ لا يستطيع ان يؤدى وظيفية دون النسق السياسى الذى يرسم الأهداف وينظم الأساليب التى من خلالها يتم توزيع الموارد وتعبئتها · وكلاهما لا يمكن أن يؤدى

وظيفته دون التاثير الذى تمارسه الروابط المجتمعية ودون وجود الأفراد الملتزمين الذين تخلقهم التنشئة الاجتماعية ٠

ولقد حلل بارسونز علاقات الاعتماد المتبادل بين انساق المجتمع فى ضوء ما أسماه بانساق التبادل ٠ حيث افترض أن كل نسق له مدخلات outputs ومخرجات inputs (اى ما يمتلكه النسق من عوامل انتاج (المدخلات) وما ينتجه من منتجات (المخرجات) ٠ وافترض كل نسق يتبادل مع الأنساق الأخرى ما لديه من عوامل لانتاج وما لديه من منتجات ٠ وتتخاطب الأنساق بعضها مع البعض الآخر من خلال رموز للتبادل ، بمعنى أن كل نسق ـ بما لديه من مصادر ومن منتجات ـ يخاطب الأنساق الأخرى بلغة معينة اثناء عملية التبادل ٠ فالنسق الاقتصادى يخاطب الأنساق الأخرى بلغة **النقود** ، والنسق السياسى يخاطب الأنساق الأخرى بلغة **القوة** ، والروابط الاجتماعية تخاطب الأنساق الأخرى بلغة **التأثير** ، اما التنشئة الاجتماعية فانها تخاطب الأنساق الأخرى بلغة **الالتزام**(٣٢) ٠ وتنشأ عن شبكة التبادل بين أنساق المجتمع أنساق للتبادل عددها ستة أنساق من خلالها يتحقق الاعتماد المتبادل بين الأنساق الفرعية للمجتمع وعن طريقها يتحقق الانتظام فى العلاقات الاجتماعية ٠

ويتضح من هذا العرض كيف أن تحليل المكونات الجزئية لسلوك الأفراد فى المجتمع كما تمثل فى عملية التفاعل الاجتماعى قد انتهى عند بارسونز بصياغة كلية للبناء الاجتماعى ٠ ويعتقد بارسونز أن هذا الأسلوب فى التحليل والتركيب يمكننا من أن نحلل البناء الاجتماعى ككل وأن نحلل أى جزء من مكونات الصغرى ٠ والمبدأ التحليلى واحد فى الحالتين ، أعنى نموذج الوظائف الأربعة ٠ فقد راينا كيف أن هذا النموذج قد استخدم فى تحليل الفعل الاجتماعى كما استخدم فى تحليل بناء المجتمع ككل ٠ ولقد طبق بارسونز نفس النموج التحليلى على كل نسق فرعى من أنساق المجتمع ٠ ففى كتابه «الاقتصاد والمجتمع» الذى كتبه مع نيل سملر Smelser حلل بارسونز النسق الاقتصادى الى انساق فرعية أربعة وفقا

---

(٣٢) انظر جى روشيه ، **مرجع سابق** ، ص ص ١١٢ ـ ١١٦ ٠

لنموذج الوظائف الأربعة(٣٣) • كما حاول ان يقدم تصنيفا مشابها للنسق السياسى فى كتابه « النظرية السوسيولوجية والمجتمع الحديث »(٣٤)• بل ان بارسونز قد حلل وحدات صغرى كالتنظيم الصناعى مثلا فى ضوء نفس النموذج(٣٥) •

ويظهر النسق الاجتماعى ـ المجتمع ـ وفقا لهذا الضرب من التحليل على انه كيان كلى أكبر من مجموع أجزاءه • وتبدو وحدات المجتمع وكأنها وحدات متراصة بجانب بعضها البعض الآخر تنتظمها جميعا علاقات على درجة عالية من الاستقرار والنظام • ان شكل المجتمع الذى يصفه بارسونز هنا يبدو وكأنه نموذج مثالى مفارق للواقع • فمثل هذه الصورة المنظمة لا يمكن أن توجد الا فى مجتمع يوتوبى • وهذه أحد مظاهر القصور الأساسية التى جلبت على بارسونز كثير من الانتقادات ، خاصة وان بارسونز قد أظهر تميزا واضحا عندما بدأ يقارن بين الصور المختلفة للمجتمع • فالمجتمعات الغربية التى تعرف درجة عالية من الانجاز والمساواة والتى حققت فيها الأنساق الفرعية درجة عالية من الاستقلال النسبى والتباين هى أدت الصور الى هذا النموذج ، فى حين أن المجتمعات الأخرى تقترب منه بدرجات مختلفة • ان مثل هذه الصياغة تميل الى التحيز لنمط معين من المجتمعات هو ذلك المتمثل فى المجتمعات الغربية الراسمالية ، فضلا عن تصوير هذه المجتمعات على انها وصلت الى درجة عالية من التكامل والاستقرار وهو تصور قد يبتعد عن ما هو قائم فيها بالفعل من اشكال للتوتر وللصراع وللتغير المستمر • على اننا لن نستوعب ذلك جيدا الا اذا استعرضنا وجهة نظر بارسونز فى دراسة التغير والصراع •

---

(٣٣) انظر :

T. Parsons and N. Smelser, Economy and Society, Glencoe, The Free Press, 1957.

(٣٤) T. Parsons, Sociological Theory and Modern Society, New York, 1967.

(٣٥) انظر : السيد الحسينى ، **النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم** ، مرجع سابق • ص ٧٩ •

رابعـا : التغير والصراع فى النسق الاجتماعى

لا يمكن فهم معالجة بارسونز لقضيتى التغير والصراع دون الاشارة الى مفهومه عن التوازن البنائى والذى بمقتضاه يتم استيعاب اى تغيرات حاسمة داخل النسق الاجتماعى ٠

يعد تحليل التوازن داخل النسق الاجتماعى عنصرا اساسيا فى مشروع بارسونز النظرى ٠ فهو الذى يحقق أعلى مستويات التكامل داخل النسق ٠ فالذى يخلق من « الأنا » و « الآخر » نسقاً تفاعليا ليس الاعتماد المتبادل بين سلوكيهما فقط ، ولكن لأن نسق التفاعل يحوى مجموعة من العناصر تسعى الى أن تحافظ على نفسها وعلى توازنها باستمرار من خلال مقاومة التغير والصراع ٠ ومن هنا تكون دراسة التوازن هى دراسة للطريقة التى تحقق من خلالها عناصر النسق الاستقرار والاستمرار عندما تظهر بعض التغيرات أو الانحرافات داخل النسق(٣٦) ٠

والتوازن هو أعلى صورة من صور التكامل والنظام داخل النسق ٠ حقيقة أن النسق يحقق تكاملا على مستويات أخرى ، ولكنه قد يكشف ـ برغم ذلك ـ عن مظاهر لسوء التكامل تاتى من مصادر عديدة « فقد يسعى الأفراد الى تحقيق اشباع أكبر من الاشباع الذى يسمح به النسق٠٠ أو من الخلل الذى يحدث فى عملية التطبيع الاجتماعى (التنشئة الاجتماعية) أو تطور النسق بدرجة تفوق درجة تقدم العنصر الثقافى والعكس ٠ وعدم التكامل بين انتقال العناصر الحافزية والعناصر الثقافية ٠٠ واهتزاز النسق الاجتماعى ذلته من خلال ارادة الفاعل فى تغيير النسق(٣٧) ٠ وهنا تظهر أهمية التوازن فى مواجهة كل صور عدم التكامل والتغير هذه فيحقق للنسق من خلاله درجة أعلى من التكامل عن طريق مجموعة من الميكانيزمات والعمليات يولدها بناؤه للمحافظة على ذاته ٠ ان التوازن يحقق مزيدا من التكامل فى نسق متكامل أساسا ٠ ولهذا يعرف التوازن بانه « دعم النسق لأنماطه المتكاملة والمستقرة والمتبادلة والمتوائمة والثابتة »(٣٨) ٠ أو لذا استخدمنا كلمات بارسونز نفسه محاولة النسق ان يحافظ على حدوده ٠

---

(٣٦) A. Gouldner, Coming Crisis, op. cit., p. 231.

(٣٧) على ابو ليلة ، **مرجع سابق** ، ص ٤١٠ ٠

(٣٨) المرجع السابق ، نفس الصفحة ٠

والحقيقة أن كل مظاهر عدم التكامل داخل النسق ينظر اليها بارسونز على انها انحرافات عن الأطر والمعايير القائمة ومن ثم يجب أن يواجهها النسق بعمليات ضابطة تعيد اليه التوازن · يظهر ذلك من تعريفه للانحراف بأنه « ميل دافعي عند الفاعل لأن يسلك خلاف ما تقرره واحدة أو أكثر من الأنماط المعيارية المشكلة فى نظم ، أو انه سلوك يميل الى احداث شرخ فى توازن العمليات التفاعلية»(٣٩) · وفى مقابل السلوك الانحرافى يولد النسق مجموعة العمليات التى تواجه هذا السلوك المنحرف ، حصرها بارسونز فى عمليتين(٤٠) : الأولى تحاول أن تتفادى الانحراف وعدم التكامل قبل أن يصيب النسق وهى عملية التنشئة الاجتماعية ٥ والثقافية مجموعة من الميكانيزمات يواجه بها النسق الانحراف بعد أن يقع وهى عملية الضبط الاجتماعى ·

تهدف عملية التنشئة الاجتماعية الى أن يتشرب الفرد المعايير والتوجيه القيمى السائد فى النسق كى لا يحدث فيه أى خلل من نوع معين · فعندما يتشرب كل فرد هذه المعايير والتوجيهات القيمية ، فان النسق الاجتماعى يضحى اسلوبا أمثل لعمل الأنساق الفرعية وظيفيا · وتنقسم عملية التنشئة الاجتماعية الى خمس ميكانيزمات رئيسية : التدعيم Reinforcement ويهدف الى احداث موازنة بين الاشباع والحرمان من خلال القانون العام الذى مؤداه انه كلما تلقى الشخص درجة أكبر من الاشباع فانه سوف

---

(٣٩) Parsons, Social System, op. cit., p. 200.

وتجدر الاشارة الى أن بارسونز قد استعار مفهوم التوازن من عالم الاجتماع الايطالى باريتو Pareto وعالم الاقتصاد الفرد مارشال · ولكن باريتو هو الذى قدم أكثر صياغات هذا المفهوم رواجا فى الأوساط الاقتصادية والسوسيولوجية حيث ذهب الى أن النسق يكون فى حالة توازن عندما يخضع لمجموعة من عمليات التكيف الصناعية (ميكانيزمات الضبط) تختلف عن صور التكيف المعيارية القائمة · ومن خلال هذه العمليات يظهر رد فعل يعيد النسق الى حالته الطبيعية · عن تاريخ المفهوم وآراء بايتو انظر :
D. Mitchell, A Dictionary of Sociology, op. cit., pp. 68—69.
تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٢٣٧ ـ ٢٥٠ ·

(٤٠) يعرف بارسونز العملية على النحو التالى : « العملية طريقة يتحول من خلالها النسق او جزء منه الى حالة أخرى غير حالته الأساسية ، ويعد الميكانيزم جزءا من العملية » انظر كتاب بارسونز ، النسق الاجتماعى السابق الاشارة اليه ، ص ٢٠٤ ·

يسعى الى أن يدعم النمط والعكس اذا تلقى درجة أقل من الحرمان • والكف Inhibition ويهدف الى تعلم الابتعاد عن السلوك الموجه بالدافعية فقط دون الأخذ فى الاعتبار ما يترتب على هذا السلوك من نتائج • والابدال Substitution ومن خلاله يتم تجاوز بعض الاتجاهات الانفعالية أو نقلها من موضوع لآخر • أى أن يكف الشخص عن الاهتمام بالموضوعات القديمة التى لا تحقق درجة عالية من الاشباع وأن يستبدلها بموضوعات جديدة تحقق درجة عالية من هذا الاشباع • والمحاكاة imitation ومن خلاله يكتسب للفرد عناصر فى الثقافة : نوعا معينا من المعرفة ، أو مهارة ، أو سلوكا رمزيا معينا • وأخيرا التوحد indentification ويعنى تشرب قيم النسق والتوحد معها(٤١) • وكل هذه الميكانيزمات تهدف الى خلق مواطن منشأ تنشئة لجتماعية تجعله فى صف النظام القائم دائما ، لكى يعيش حالة مستمرة من التوازن • ولا تترك عملية التنشئة للأسرة ، ولكن المجتمع يمارس قدرا كبيرا من الضبط على سيرها بنجاح •

اما عملية الضبط الاجتماعى فهى مجموعة من الميكانيزمات التى من خلالها يمكن مواجهة الميول الانحرافية واعادة التوازن الى المجتمع(٤٢) • فالتنشئة الاجتماعية لا تستطيع وحدها أن تتغلب على التوتر فى علاقات التفاعل ، الأمر الذى يؤدى الى ظهور بعض العناصر السلبية فى البناء الدافعى تؤدى الى الانحراف عن المعايير القائمة • هذه العناصر السلبية تولد أنماطا اربعة من الانحراف تشبه الى حد كبير ما توصل اليه ميرتون فى مقاله عن البناء الاجتماعى والانومى(٤٣) • وقد قام بارسونز بتصنيفها حسب درجة الامتثال ودرجة الاغتراب رابطا كليهما ببعدى النشاط والسلبية على النحو التالى(٤٤) •

---

(٤١) Parsons, Social System, op. cit., pp. 209—211.

(٤٢) ibid., p. 250.

(٤٣) Robert Merton, "Social Structure and Anomie," American Sociological Review, Vol. 3. pp. 672—680 Reprinted in : Merton, Social Structure and Social Theory, op. cit.

(٤٤) Parsons, Social System, op. cit., p. 257.

	السلبية	النشاط
مجال الامتثال	التقبل القهرى فى	الأداء القائم على
مجال الاغتراب	توقعات المكانة الانسحاب	التوجيه القهرى التمرد

ولا بد أن يواجه النسق هذه الأنماط الانحرافية بعملية الضبط الاجتماعى التى تنقسم الى ثلاثة ميكانيزمات : التحمل Support ويهدف الى تهدئة القلق الناتج عن رد الفعل تجاه التوتر ثم التسامح permissiveness بمعنى التسامح فى الاستجابات تجاه احباط علاقات التفاعل وما فيها من توقعات متبادلة • ثم أخيرا تقييد علاقات التفاعل Ristriction of Reciprocation وذلك لمحاصرة الميل نحو الانحراف(٤٥) • وحتى مع وجود هذه الميكانيزمات فان الأفراد من الممكن أن يتعرضوا لتوترات اخرى ذات طبيعة خاصة • وفى مثل هذه الحالات تظهر الظواهر الخاصة التى تقابل هذه التوترات • فتحت بعض عوامل القلق ومشاكل التكيف قد يتعرض الفرد لتوتر غير عادى يكون مصدره الدين او السحر او بعض الأمور المتصلة بالصحة • ومن الظواهر التى تنشأ لمقابلة مثل هذه التوترات الطقوس والنظم القانونية • وهناك نوع آخر من التوتر ينشأ من خلال الضوابط الرسمية او تدرج المكانة • هنا لا بد ان تظهر مجموعة من الميكانيزمات أطلق عليها بارسونز ميكانيزمات العزل insulation mechanisms ومهمتها وضع حدود على الضوابط الرسمية وتدرج المكانة لكى لا تدخل الأنساق الفرعية فى صراع لا ينتهى • انها تمنع العناصر المتصارعة فى الثقافة وللبناء الاجتماعى من التصادم الى الدرجة التى يصبح فيها الصراع مفتوحا. ومن الصور المتطرفة لميكانيزمات للعزل عزل المجرمين ووضع حدود على الأدوار المريضة(٤٦) •

---

(٤٥) Ibid., pp. 299—300.

(٤٦) Ibid., pp. 308—309.

بهذه الصورة استطاع بارسونز أن يضع كل عنصر من عناصر الواقع الاجتماعى فى وضع يتكامل فيه مع العناصر الأخرى ، ويصل هذا التكامل الى ذروته عندما يخلق النسق أساليب صناعية للمحافظة على بقائه واستمراره عندما تهدده أية تغيرات جذرية أو أى انحرافات عن أصوله ومعاييره • فالنسق الاجتماعى له قدرة على البقاء وهو وثيق الصلة ببيئته وهو يخلق دائما من العمليات ما يعمل على تحييد مصادر التغير التى لو استمرت لأحدثت تغيرا جذريا فيه(٤٦) • ويصاحب الحفاظ على حدود النسق مع البيئة أو تكيفه معها تكامل الوحدات المكونة وتضامنها وفى الوقت نفسه قلة التوترات الداخلية(٤٧) • ففكرة التوازن ترتبط بفكرة التساند الوظيفى بين أجزاء النسق حيث أكد بارسونز فى كتابه الذى أعده مع ادوارد شيلز « نحو نظرية عامة فى الفعل الاجتماعى » أن الخاصية العامة الأساسية لأى نسق من الأنساق الاجتماعية تتمثل فى تساند مكونات النسق أو متغيراته ، ذلك للتساند الذى يتألف من علاقات محددة قائمة بين هذه المكونات أو تلك المتغيرات ، والذى يناهض عشوائية التغاير ، وبعبارة أخرى فان التساند هو النظام Order فى العلاقات بين المكونات الداخلية للنسق • ذلك النظام الذى يحوى ميلا نحو المحافظة أو الصيانة الذاتية التى يعبر عنها تعبيرا عاما من خلال مفهوم التوازن(٤٩) •

مما سبق نجد ان عملية التوازن داخل النسق لا تعمل على مواجهة التوترات الداخلية فقط ، ولكنها تواجه أيضا أية تغيرات خارجية تهدد كيان النسق ، وتحاول دمجها فى بنائه وتشكيلها فى نظم من حيث أن للنسق لديه قدرة كبيرة على التكيف • وتحليلنا هذه القضية الى مناقشة راى البارسونزية فى التغير والصراع • فقد عالج بارسونز هاتين القضيتين ـ

---

(٤٧) Loomes Charles and Zona, Modern Social Theories, D. Van Nostrand Company, Inc., N.Y., 1961, p. 414.

(٤٨) على جلبى ، النظرية واتجاهات تطورها فى علم الاجتماع ، مقال فى كتاب دراسات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا السابق الاشارة اليه ، ص ٢٧ •

(٤٩) عبد الباسط عبد المعطى ، فى نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ •

بطريقة تنم عن سعيه المستميت نحو تحقيق التكامل والنظام فى النسق ومن رؤيته الميتافيزيقية للعالم على أنه « كل » يضم أجزاء متفاعلة ٠

فمن فرط اهتمامه بعوامل تحقيق التوازن والاستقرار والاستمرار داخل النسق ، تخطى بارسونز دراسة التغير والصراع وأحالهما الى مجرد ظاهرتين ثانويتين يستطيع توازن النسق أن يبتلعهما باستمرار ٠ والحقيقة أن اهمال دراسة الصراع والتغير وقصور نظرية النسق عن تطوير نفسها بحيث تستوعب دراستها كان مصدرا تدفق منه النقد على بارسونز بصفة خاصة والبنائية الوظيفية بصفة عامة ٠ وسوف يرى فى القسم الثانى من هذا الكتاب أن هذا التخطى لدراسة الصراع والتغير قد وضع بارسونز وتابعيه أمام تحديات امبيريقية عندما بدأ البناء الاجتماعى يكشف عن موجات متلاحقة من الصراعات البنائية والفكرية ٠ وكونت هذه الصراعات البنائية والفكرية بناء جديدا بدأ يدخل فى صراع مع البناء القديم والنظرية المرتبطة بالنظام والتى تفسر هذا البناء ٠ من خلال العلاقة الجدلية بين البناء الفكرى القديم والبناء الفكرى الجديد ظهرت الاتجهات النقدية الحديثة فى محاولة لتصحيح مسار البناء الفكرى القديم ٠ وبناء على ذلك يمكن القول بأن القصور النظرى للبارسونزية ، والذى تمثل فى تخطى دراسة الصراع والتغير قد يكون النطلق الجدلى الذى قامت عليه الاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع وفى مواجهة هذه الاتجاهات النقدية حاول بارسونز تطوير مشروعه النظرى ليستوعب دراسة الصراع والتغير ، ولكنه فشل فى ذلك وتخبط فى متاهات تطويريه بحيث أصبح ينتمى الى الاتجاه التصورى المحدث الذى يجمع المفكرون على أنه ثمة الحوار مع الماركسية(٥٠) ٠ ونود فى هذه الفقرة أن نتتبع فكر بارسونز فيما يتعلق بقضيتى الصراع والتغير ٠

---

(٥٠) الدليل على ذلك أن اشهر المروجين لهذا الاتجاه وهو والت روستو وسم كتابه عن « مراحل النمو الاقتصادى » بأنه « منشور غير شيوعى » ٠ انظر عن الاتجاه التطورى المحدث :

ـ للسيد الحسينى ، اتجاهات علم الاجتماع فى فهم قضايا العالم الثالث مرجع سابق ، ص ص ٦٤ ـ ٧٣ ٠

ـ محمد الجوهرى ، مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٥ ٠

كتب بارسونز فى كتابه « النسق الاجتماعى » يقول .. « اذا كنا نريد أن نتحدث عن نظرية فى التغير فلا بد ان يكون لدينا نموذج محدد يستعمل كاطار مرجعى فى دراسة التغير »(٥١) • وتعنى هذه العبارة أن نظرية النسق التى طورها فى كتابه هذا لا يمكن ان تتخذ كاطار مرجعى لدراسة التغير وانما تستطيع فقط أن تدرس عمليات التوازن داخل النسق ، وان نظرية التغير يجب أن تؤجل الى حين تكوين أساس فكرى تقوم عليه • ولذلك جاءت معالجة بارسونز للتغير فى كتابه « النسق الاجتماعى » معالجة تحيله الى عملية تباين تشبه التنوع الذى يحدث فى مجال البيولوجيا والبيئة الطبيعية • بل يذهب الى القول بانه اذا لم تكن هناك نظرية كاملة فى التغير فيجب أن ننطلق فى دراسته من البيولوجيا يقول : « يجب أن نسلم بانه عندما نناقش نظرية التغير فى الأنساق الاجتماعية ، فاننا لخدمة اغراضنا يجب أن نستعير من التنوع الذى يحدث فى التركيب البيولوجى او البيئة الفيزيقية •• ومع تاكيدنا على ان اقامة نظرية عامة فى تغير الأنساق الاجتماعية مستحيل ، فاننا لا نزال قادرين على ان نذكر بعض الأشياء المفيدة فيما يختص بالطبيعة العامة لهذه العملية »(٥٢) •

واذا ما تتبعنا عمليات التغير ـ كما جاءت فى كتاب النسق الاجتماعى ـ نجدها امتدادا لنظرية التوازن ، وتاكيدا لما يسعى اليه النسق من نظام • فالنسق الاجتماعى بمفهوم بارسونز يعتبر عالما اجتماعيا لديه اساليب دفاعية ضد التوتر وسوء النظام والصراع • فبارسونز لم ينظر الى هذه الظواهر على انها جزء ضرورى من طبيعة الأشياء ، على العكس من ذلك تماما نظر اليها على انها اقرب الى المرض العرضى الذى يصيب الجسم • فما دام النسق قد حقق قدرا من الاستقرار فانه يميل الى عدم التغير ، واذا حدث فانه يأتى من ضغوط خارجية تتغلب على مقاومة النسق لها ، او من ضغوط وثيقة الصلة بخصائص النسق ولكنها ذات مصدر عشوائى • ولا تؤدى هذه الضغوط الى احداث تغيرات بنائية حاسمة فى خصائص النسق الأساسية ، ولا يتعدى تاثيرها احداث تغيرات دائرية وايقاعية(٥٣) •

---

(٥١) Parsons, Social System, op. cit., p. 284.

(٥٢) Ibid., p. 491.

(٥٣) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., pp. 352—353.

لذا وضعنا فى اعتبارنا أن نظرية التغير عند بارسونز فى هذه المرحلة من تفكيره هى امتداد لنظرية التوازن • فلا ندهش عندما يجعل بؤرة حديثه عن التغير فكرة المصالح الظاهرة التى تشكل ـ فى نظره ـ مقاومة ثابتة للتغير كامنة فى عملية التشكل النظامى للأدوار • فالأفراد يحافظون على الوضع الراهن للنسق ويقاومون التغير لأنه من مصالحهم جميعا استمراره على هذه الحالة ويرفض بارسونز فكرة العامل الواحد فى التغير ، ثم يركز بعد ذلك على مجموعة من العوامل السطحية التى لا تولد ابدا تغيرا جذريا فى النسق من ذلك تطور التشكيل الثقافى ، والتطور فى مجال العلم ، والتغير فى تركيب السكان ، أو تحول البيئة الطبيعية • وهى عوامل لا تؤدى الى التغير وانما تؤدى الى تباين بنائى داخل النسق • يتضح ذلك من دراسته للعمليات التى تحدث داخل لنسق والتى تؤدى الى تباينه • تنحصر هذه العمليات فى ثلاثة عمليات رئيسية هى : التشكل النظامى للترشيد وما يصاحب ذلك من هوة ثقافية ومن تغير فى الأدوار المهنية ، ومن توترات تصاحب التغير التكنولوجى ومن تغير فى شكل وحجم الخدمات ، فضلا عن التغيرات التى تحدث فى مجال القرابة ودور الأنثى ، ومعدلات المواليد ، وانماط التنشئة الاجتماعية ، والأدوات المنزلية ، وكلها تغيرات تؤدى الى اعادة تنظيم مستمر للنسق ، والعملية الثانية تتصل بالحركة الكارزمية الثورية ويعتبر بارسونز مثل هذه الحركة امتداد للتوجيهات الدافعية المغتربة عن النظام العام (أى أنها نوع من الانحراف) ، ويقاوم النسق مثل هذه الحركة اذا كان نسق القوة فيه أكثر صلابة واستقرارا • أما الثالثة فانها تتعلق بالتحول التكينى للحركة الثورية حيث يفرض الثوار اشكالا من الضبط الاجتماعى تتنافى مع الحركة الثورية كثورة ويستعيد النسق توازنه من جديد(٥٤) •

هذه هى رؤية بارسونز المبكرة للتغير الاجتماعى ، وهى رؤية تتوقف عند مستوى التغيرات الفرعية لبعض الوحدات الفرعية فى النسق الاجتماعى داخل نطاق توازن واستقرار(٥٥) • ثم تحولت هذه الرؤية فيما بعد الى مزيد من التركيز على التباين داخل النسق • ففى عام ١٩٦٠ كتب بارسونز

---

(٥٤) Parsons, Social System, op. cit., pp. 505—527.

(٥٥) على ابو ليلة ، مرجع سابق ، ص ١٤١ •

مقالا بعنوان « بعض الاعتبارات حول نظرية التغير » قدم فيه فكرة التباين الاجتماعى بطريقة أكثر تركيزا • فالتغير الاجتماعى يظهر من خلال التباين البنائى الوظيفى عندما تتطور أجهزة جديدة وابنية جديدة لأداء بعض الوظائف • فعندما يفشل نسق معين فى أداء وظيفته بنجاح فأن النسق المستقبل لهذه الوظيفة يمارس عليه ضغطا محاولا ان يغيره بالطريقة التى تروقه • ومن خلال هذه العملية تتخلى بعض الأنساق عن وظائفها لأنساق أخرى ، وتظهر انساق جديدة تؤدى وظائف جديدة أو تؤدى نفس الوظائف القديمة • وهكذا يمر النسق بعملية تباين بنائى وظيفى • ولا تخرجنا نظرية التباين عن نظرية التوازن • فالتباين لا يحدث اى خلل يبعد النسق عن حالة التوازن او يدفع ببعض الأجزاء داخل الى احباط توقعات الأجزاء الأخرى • فالتغير هنا يتم بطريقة منظمة لا تؤثر على التوزيع الأساسى للامتيازات داخل النسق ولا تهدد مراكز القوة القائمة فيه(٥٦) •

وفى منتصف الستينات ، وأمام موجة عاتية من النقد ، اندفع بارسونز نحو التطورية • تتركز فكرة التطور عند بارسونز فيما أسماه بالعموميات التطورية Evolutionary universals والعمومية التطورية ما هى الا تجديد بنائى له قدرة فائقة على التكيف تمكن هذا التجديد من الاستمرار والبقاء • ويؤدى هذا التجديد متى حقق تكيفا الى تطورات اخرى ويرتبط بأنساق أخرى تعمل تحت ظروف مختلفة(٥٧) • وبعض هذه العموميات التطورية ، أو التجديدات الكبرى على ما نقول ، هى التى ادت الى ان تتجاوز المجتمعات نطاق المجتمعات البدائية أو القبلية التى تتحكم فيها النظم القرابية فعلى أنقاض هذه المجتمعات قام المجتمع الحديث بفضل بعض العموميات التطورية ، لا ليتوقف عن التطور ولكن ليستمر فى هذا التطور من خلال عموميات أخرى • عموميتان تطوريتان هما اللتان ادتا الى انهيار المرحلة البدائية من التطور المجتمعى : ظهور نسق للشرعية الثقافية ليؤدى وظائف مجتمعية متباينة (خاصة الوظائف السياسية) ، وتطور نسق التدرج الاجتماعى • واربعة عموميات تطورية هى التى ادت الى ظهور المجتمع

---

(٥٦) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., pp. 357—360.

(٥٧) Parsons, Evolutionary universals in Society, American Sociological Review, XXIX, No. 3, 1964. p. 339.

الحديث : ظهور نسق النقود والأسواق ، وظهور البيروقراطية ، وظهور النسق القانونى ، وظهورالهيئات الديمقراطية • ولم تعمل هذه العموميات بعيدا عن بعض التطورات الاجتماعية والثقافية • فتلك الأخيرة تعد بمثابة شروط لازمة تعمل فى اطارها العموميات التطورية • وحصر بارسونز هذه الشروط فى اربعة تطورات اجتماعية : اللغة ، والقرابة ، والدين ، والتكنولوجيا(٥٨) •

وفى عام ١٩٦٦ اصدر بارسونز كتابا بعنوان : المجتمعات : منظورات تطورية ومقارنة(٥٩) • طور فيه فكرة العموميات التطورية ليطبقها على مقارنة المجتمعات التى تمثل نماذج حضارية متعددة مركزا على دراسة عمليات التغير فى هذه المجتمعات • وحدد بارسونز فى هذا الكتاب المكونات الأساسية للتطور فى عمليات ثلاثة : هى التباين ، والتكامل ، والتعميم الى ظهور بناء قيمى جديد يناسب العناصر الجديدة التى تولدت عن عملية التباين • وبعد ذلك يحاول بارسونز ان يقدم ثلاثة مستويات تطورية تتيح كل منها وجود مجتمعات متنوعة ومختلفة : المستوى البدائى حيث تتحكم التوجيهات الدينية فى الوجود الاجتماعى وتركيز العلاقات والتنظيم الاجتماعى على اساس قرابى ، ويعد هذا المستوى نموذجا متقدما من المجتمعات قائما على نسق القرابة والتنظيم السياسى • اما المستوى الثانى فهو المستوى الوسيط الذى ظهر بظهور الكتابة والقراءة والديانة الكهنوتية • وينقسم هذا المستوى ـ مثل سابقه ـ الى مرحلتين : مرحلة المجتمعات القديمة والمجتمعات التاريخية وتمثل الأولى مصر الفرعونية والثانية مجتمعات الصين القديمة والمجتمعات الاسلامية العربية والهند • اما المستوى الثالث فهو مستوى البذور الحضارية اى ايه المستوى الذى قام عليه المجتمع الغربى الحديث ويمثله المجتمع الأغريقى والمجتمع الاسرائيلى القديم •

وقد اكمل بارسونز كتاب « المجتمعات » بكتاب آخر بعنوان « نسق

---

(٥٨) Ibid., pp. 341—342.

(٥٩) Talcott Parsons, Societies: Evolutionary and Comparative perspectives, Englewood Cliffs, N.J. Prentice Hall, 1960.

المجتمعات الحديثة »(٦٠) • وضح فيه تطور الحضارة الغربية الحديثة على اساس الأسس التى ظهرت فى مرحلة البذور الحضارية واعنى الأغريق القديمة والمجتمع الاسرائيلى القديم •

يوضح هذا العرض لراى بارسونز فى قضايا التغير كيف يشكل التغير معضلة أساسية فى مشروعه النظرى • وكيف أن دفاعه عن النظام قد دفعه لأن يعالج التغير من منظور تطورى من خلال المقارنة بين المجتمعات واذا كان بارسونز قد اولى اهتماما فائقا بدور العناصر الثقافية فى تشكيل الفعل الاجتماعى وفى ضبط التنسق الاجتماعى فقد اولى لنفس العناصر الثقافية اهمية كبيرة فى عمليات التطور • فعمليات التباين والتكامل والتعميم التى عرضها فى كتابه « المجتمعات » لا تتم الا فى المستويات الثقافية والقيمية • وذلك يؤكد اهمية القيم والمايير فى المشروع النظرى لتالكوت بارسونز فهى تغلف النسق الاجتماعى فى تفاعل اجزائه وفى توازنه ، وفى تطوره •

هذا عن التغير فماذا عن الصراع • تؤكد دراسة بارسونز للصراع نفس القضايا التى ذهبنا اليها هنا • واعنى اهتمامه بالتوازن والنظام ، بحيث تعتبر دراسة الصراع ـ مثل دراسة التغير ـ معضلة جوهرية فى فكر بارسونز • ففى مقال له عن « الطبقات والصراع الطبقى فى ضوء النظرية السوسيولوجية الحديثة »(٦١) • ذهب بارسونز الى اننا لا يمكن أن ندرس الصراع الطبقى فى ضوء النظريات الماركسية فالصراع ليس له هذا النظام الحتمى الذى صاغه فيه ماركس • وفى ضوء النظرية السوسيولوجية الحديثة يمكن دراسة التدرج الاجتماعى حيث يخلق كل المايير التى تحدد المراتب العليا والمراتب الدنيا ، وهى معايير تميل الى أن تكون جزءا من النظام • ويقوم نظام التدرج الاجتماعى على تباين مستويات المهارات

---

(٦٠) T. Parsons, The System of Modern Societies, Prentice Hall. Inc., Englewood Cliffs, N.J. 1971.

(٦١) T. Parsons, "Classes and Class Conflict in the light of Recent Sociological Theory," in: T. Parsons, Essays in Sociological, The Free Press of Glencoe Colliar-Macmillan Limited. London, 1964, pp. 323—333.

والأدوار ، وتباين درجة تحمل المسئولية فى تنظيم افعال الآخرين ، والتباين فى انساق الملكية والدخل • وفى ضوء كل هذا يكون المجتمع بمثابة شرائح قائمة على التباين وتحدد المعايير مكانتها فى نسق التدرج الاجتماعى ، الذى يعد بناء متكاملا داخل النسق الاجتماعى •

وعندما ينتقل بارسونز لمعالجة الصراع بصورة على أنه مرض • فنجاح النسق يتمثل فى قدرته على تطوير ميكانيزمات كافية للضبط الاجتماعى للتغلب على اشكال الصراع • اما عن مصادر هذا الصراع فان المصادر التى قدمها لا تلمس مشكلة الصراع الحقيقة التى تنتج من علاقات الاستغلال التى يتميز بها المجتمع الرأسمالى ، وانما هى مصادر سطحية حصرها بارسونز فى ستة مصادر : الصراع الناتج عن التنافس الكامن فى النسق المهنى ، ومقاومة قواعد السلطة ، واستغلال الأقوياء للضعفاء ، لاختلاف الثقافات باختلاف وتباين الأبنية ، وتباين الأشكال القرابية ، وعدم تكافؤ الفرص • ولو أن بارسونز عالج هذه المشكلات الصراعية دون أن يقابلها بميكانيزمات الضبط لتفادى المضلة فيها • ولكنه على العكس من ذلك اهتم بجوانب التوازن والتناغم الى درجة انه اعتبر أن مصادر الصراع هذه لا بد أن تجتث عن طريق ميكانيزمات يولدها النسق •

الفصل الرابع

الاتجاه الامبيريقى فى خدمة النظرية

مقـــدمة :

ذكرت فى موضع لاحق أن التحليل سوف يمتد عبر مستويات ثلاثة : مستوى الواقع البنائى ، ثم مستوى الاطار النظرى المجرد الذى يفسر هـذا الواقع بطريقة معينة ، ثم مستوى التحليل الأمبيريقى لهذا الواقع فى محاولة لتدعيم المستوى النظرى المجرد · والحقيقة أنه لا انفصال بين المستوى النظرى والمستوى الأمبيريقى من ناحية الهدف على الأقل · فالبحوث الأمبيريقية ما هى فى النهاية الا مجموعة من المحاولات التى تقدم البراهين على صدق التفسيرات النظرية متسلحة فى ذلك بكل المناهج المتقدمة للعلوم الاجتماعية سواء كانت مناهج كمية أو كيفية ·

وبناء على ذلك يمكن القول بأنه اذا كانت النظريات فى علم الاجتماع قد ارتبطت بمشكلة النظام العام ، بمعنى أنها حاولت أن تبرز عناصر الترتيب والاستقرار فى النظم الاجتماعية والعلاقات المتبادلة بينها ، فان اغلب البحوث الأمبيريقية التى أفرزها علم الاجتماع قد اخذت على عاتقها أن تجسد هـذه المشكلة فى الواقع الأمبيريقى · فهـذه البحوث تصور لنا الواقع الاجتماعى ـ من خلال البيانات الكمية والكيفية ـ على أنه يحوى علاقات متبادلة ، ونظما مستقرة ، وانه يمر بعمليات مستمرة من التشكل النظامى ، وأن المعايير والثقافة تلعب دورا كبيرا فى تحقيق هـذا الاستقرار والثبات · وتكون هـذه البحوث بذلك قد حولت الحلول التى قدمها النظريون لمشكلة النظام الى حلول صادقة من الناحية الأمبيريقية ·

والحقيقة أننا نستطيع أن نجد ارتباطا بين النظرية والبحث من خلال الالتفاف حول مشكلة النظام · فلقد ثار جدل منهجى فى علم الاجتماع حول انفصال النظرية عن البحث الأمبيريقى ، واستند هـذا الجدل الى حقيقة أن هناك هوة تفصل النظرية عن البحث بحيث تحول علم الاجتماع الى اتجاهين:

اتجاه امبيريقى خالص لا توجهه النظرية . واتجاه نظرى مجرد لا يضع فى اعتباره الحقائق الأمبيريقية ولا يسعى لأن يجد تدعيما امبيريقيا لقضاياه • وليس هناك ما يعبر عن هذا الجدل ابلغ من عبارة روبرت ميرتون الشهيرة التى يقول فيها : « يمكن أن نقسم علماء الاجتماع الى فئتين : هؤلاء الذين يقولون نحن لا نعرف ما اذا كان ما نقوله صادقا ، ولكننا على يقين من أنه له دلالة ، ثم الذين يقولون نحن لا نعرف ما اذا كان ما نقوله له دلالة ولكننا على يقين من انه على درجة من الصدق »(١) • فالفئة الأولى هم أصحاب الاتجاه النظرى الخالص ، والفئة الثانية هم أصحاب الاتجاه الأمبريقى الخالص • وقد أدى ذلك الى ظهور محاولات منهجية كثيرة للربط بين الاتجاهين ربما كان أهمها وأنضجها جميعا محاولة روبرت ميرتون صياغة ما أسماه بالنظريات « الوسطى » ومع التسليم باهمية هذا الجدل ، ومع التسليم باهمية المحاولات التى تربط بين الفكر النظرى المجرد والحقائق الملموسة ، مع التسليم بكل هذا ، الا اننا لو أجلنا النظر فى كلا الاتجاهين لوجدنا أن هدفهما واحد ، برغم ما قد يوجد بينهما من انفصال • وينحصر هذا الهدف الواحد فى تحقيق النظام فى المجتمع الرأسمالى •

ولكن كيف يحدث ذلك ؟ تبرز هنا قضية الالتزام الأيديولوجى لعالم الاجتماع • سواء أكان عالم الاجتماع منظرا أو كان باحثا امبيريقيا ، فكلاهما يلتزم بالافتراضات الأساسية التى يطرحها الفكر الرأسمالى • فالمنظر يحول بناء هذا المجتمع الى مفاهيم ومنها يطور قضايا ونظريات تفسر هذا البناء تفسيرا معينا • والباحث الأمبيريقى حتى وأن لم يستخدم الاطار النظرى الذى طوره المنظر ، فان ابحاثه تتجه أساسا الى ابراز عناصر النظام فى الواقع الأمبيريقى • وكثيرا ما يكون لهذه البحوث هدف تطبيقى تستغله السياسة أو أصحاب الشركات فى تحقيق اهدافها • وليس أدل على ذلك فى أن الحكومة الفيدرالية فى الولايات المتحدة قد رصدت عام ١٩٦٢ حوالى ١٨ مليون دولار لتدعيم البحوث الاجتماعية ، فى مقابل ١٣٩ مليون عام ١٩٦٣ و ٢٠٠ مليون عام ١٩٦٤ • ذلك لأن الحكومة الفيدرالية تدرك

---

(١) Robert Merton, Social Theory and Social Structure, op. cit., Chapter 11.

أهمية هـذه البحوث فى حل المشكلات العملية التى تواجهها(٢) · وسوف نتعرض لهـذا الموضوع فيما بعـد ، وما يهمنى الآن هو تاكيد تلك العـلاقة الخفية التى تربط كل الاتجاهات النظرية والمنهجة فى علم الاجتماع الغربى ، والتى تجد لها اساسا فى حل مشكلة النظام العام فى المجتمع ، او استمرار حل معين اذا هو طرح بالفعل · ولهـذا السبب ولايمـانى بعـدم انفصـال النظرية عن البحث ، فانى ساخصص هـذا الفصل لعرض نماذج من البحوث الأمبيريقية التى تجسد ـ أمبيريقيا ـ الأفكـار التى اثيرت فى الفصـول السابقة ، الى جانب تحقق احـد الأهـداف المنهجية ، واعنى الانتقـال بالتحليل من المسـتوى البنائى الى المسـتوى النظرى ثم الى المسـتوى الامبيريقى · ولن يستطيع هـذا الفصل الصـغير ـ بطبيعة الحال ـ ان يتعرض لكل الأبحاث التى أجريت · هنا تفرض عملية الانتقاء نفسـها · ولذا استعرضنا المجالات التى يستخدم فيها علم الاجتمـاع اسـتخداما تطبيقيا نجـد أن هناك مجالين يستحوذان على اهتمام كبير ، وهما مجال السياسـة ومجال الصـناعة · ولهذا فاننى سوف أعرض لبعض البحوث التى أجريت فى هذين المجالين ·

أولا ـ فى مجـال السياسة :

من أول الأسماء التى تطفر الى الذهن عند الحديث عن دراسـة علم الاجتماع للسلوك السياسى ، اسم سيمور مارتن ليبست S.M. Lipset فكل كتاباته تقريبا تنحصر فى مجال علم الاجتماع السياسى · وفضلا عن ذلك فانه خير من عبر عن الاهتمام بالنظام العام على المستوى الأمبيريقى · فكتاباته تكشف عن اعجابه الشديد بنظرية النسق عند بارسونز ، ولهذا فهو يسعى دائما الى تدعيمها امبيريقيا · وسوف أتتبع هنا آراء سيمور ليبست التى تكشف عن هـذه الخاصية المميزة عنده ·

بذل ليبست فى كتـابه « رجل السياسـة »(٣) Political Man جهـدا كبيرا ليقدم الأدلة الأمبيريقية على استقرار المجتمع الأمريكى وتضامن

---

(٢) Alvin Gouldner, The Coming Crisis. op. cit., p. 345.

(٣) Seymour, M. Lipset, Political Man, Henmann, London, Paperback, 1969. First Published in 1960.

جماعاته وخلوه من مظاهر الصراع ، او قدرته على امتصاصها • وينعكس ذلك كله فيما اسماه ليبست بالديمقراطية المستقرة Stable Democracy التى يتميز بها المجتمع الأمريكى على ما عداه من المجتمعات الأخرى •

يحاول ليبست فى احد فصول كتابه هذا ان يربط بين استقرار الديمقراطية وبين التطور الاقتصادى(٤) • فما دامت الدول التى لا يوجد تراث من الديمقراطية السياسية تقع فى الأجزاء المتخلفة من العالم ، فان فيبر يكون على صواب عندما ذهب الى ان الديمقراطية الحديثة فى صورتها النقية يمكن أن تظهر فقط اثناء عملية التصنيع الرأسمالى • وبناء على ذلك يمكن أن يجد علاقات بين استقرار الديمقراطية وبين بعض الظواهر المرتبطة بالتقدم الاقتصادى مثل الدخل والتعليم ، وان كانت تلك قضية لا يجب التسليم بها على علاتها ، فقد تظهر بعض العوامل التاريخية التى تعوق ظهور الديمقراطية فى بلد ينتشر فيه التصنيع والتحضر والثروة والتعليم كالمانيا الشرقية • وعندما يظهر النظام الديمقراطى الى الوجود ، فانه يحشد قواه ، ويخلق وسائل تدعيمه ليؤكد وجوده المستمر • من هذه الوسائل نشر التعليم ، وتشجيع التنظيمات الخاصة ، وخلق نسق قيمى مستقر •

ويحاول ليبست تدعيم هذه القضايا المشتقة اساسا من نظرية النسق من خلال دراسة مقارنة للنظم الديمقراطية فى امريكا والدول الأوروبية وامريكا اللاتينية • فيذهب الى انه اذا كان المجتمع المتقدم هو الذى يستطيع ان يخلق الموقف الذى من خلاله يشارك عدد كبير من جماهير السكان فى الممارسة السياسية ، ويطور الأسلوب الكافى لأن يبعد عن اسلوب الديماجوجية غير المسئولة ، فان المجتمع الذى ينقسم الى جماهير كبيرة مغلوبة على امرها تحكمها صفوة صغيرة محظوظة يصبح اما مجتمعا اوليجاروشيا (وهو الحكم الديكتاتورى لشريحة عليا صغيرة) او مجتمعا قائما على الاستبداد tinny... (وهو الحكم الديكتاتورى القائم على التدعيم الجماهير) وعلى المستوى الواقعى فان الشكل الديمقراطى المستقر تمثله الولايات المتحدة وبعض دول اوربا الغربية • اما الاليجاراشية فانها

---

(٤) Ibid., pp. 45—72.

تظهر فى الديكتاتوريات التقليدية فى أمريكا اللاتينية ، وتايلاند ، وأسبانيا والبرتغال • أما وجه الاستبداد فى العالم الحديث فانه يظهر فى الشيوعية والبيرونية (فى الأرجنتين) •

ولاختبار هذا الفرض استعمل ليبست بعض المؤشرات المختلفة من التطور الاقتصادى مثل الثروة والتصنيع ، والتحضر ، والتعليم والمتوسطات المستخرجة عن طريق الحاسب العلمى بالنسبة للدول الديمقراطية وغير الديمقراطية فى العالم الأنجلو ـ سكسونى وأوروبا وأمريكا اللاتينية • وظهر من هذه المؤشرات أن الدخل ، ودرجة التصنيع ، والتحضر ، ومستوى التعليم كانت أكثر ارتفاعا بالنسبة للدول الأكثر ديمقراطية والعكس بالعكس • ويرتب ليبست على ذلك نتيجة هامة مؤداها أن التطور الاقتصادى الذى يؤدى الى زيادة فى الدخل ، ومزيد من الأمن الاقتصادى ، ونشر التعلم يظل من صيغ النضال الطبقى(٥) • ذلك لأنه يسمح للشرائح الدنيا بان تطور لنفسها آراء مستقلة فى الممارسة السياسية • والدليل على ذلك أن الأحزاب الشيوعية والاشتراكية لم تستطع أن تقيم لنفسها قوة مؤثرة وهى تعامل فى الكثير من الدول المتقدمة ـ نيوزيلندا ، وهولندا ، والسويد ، وبريطانيا ، والدانمارك واستراليا ، والنرويج ـ على انها صيغة يسارية • ولم يحصل الحزب الشيوعى فى أى بلد من هذه البدان على أكثر من ٧٪ من أصوات الناخبين • ولا يعنى ذلك أن الفقر هو سبب الراديكالية ، فهناك دلائل تؤكد أن الفقر المستقر يدعم النزعة المحافظة وعدم القدرة على التغير • والسبب فى انتشار الأحزاب الراديكالية فى الدول الفقيرة هو عدم المساواة فى توزيع الثروة فى هذه الدول • « فاذا كان ماركس قد قال ان طبقة البروليتاريا ثورية لأنها لا تملك ، فان توكفيل قد قال ـ وقبل أن يكتب ماركس تحليلاته ـ أن هؤلاء الذين لا يملكون فقط هم الذين ليس لهم قدرة على الثورة »(٦) •

ولا يعتمد استقرار الديمقراطية على التقدم الاقتصادى فقط ، بل يعتمد أيضا على درجة الفعالية effectiveness والشرعية legitimacy

---

(٥) ترتبط هذم الفكرة نهاية الأيديولوجيا التى ساهم فيها ليبست ودعمها تدعيما امبيريقيا والتى سنتعرض لها فى الفصل السادس من هذا الكتاب •

(٦) Ibid., p. 65.

فى النسق السياسى ، وقد تناولها ليبست فى فصل آخر من كتابه(٧) • وتعنى الفاعلية الأداء الفعلى للنسق السياسى أو درجة نجاحه فى تحقيق وظائفه ، أما الشرعية فانها تعنى قدرة النسق على توليد الاعتقاد بأن النظم السياسية القائمة هى أنسب النظم للمجتمع والمحافظة عليها • ومن المقاييس التى تستخدم لقياس الفعالية والشرعية قدرة النسق على تطوير « ثقافة سياسية علمانية » اى قدرته على خلق مجموعة من القيم المتجانسة التى يتفق عليها أغلب أفراد المجتمع ، وقد نجح الآباء المؤسسون للولايات المتحدة (ابراهام لنكولين وتيودور روزفلت) فى تطوير مثل هذه الثقافة ، بحيث أصبحت للولايات المتحدة ثقافة عامة متجانسة تحترمها كل الجماعات السياسية القائمة ، بعكس بعض دول أوروبا حيث نجد أن كلا من اليمين واليسار له مجموعة مختلفة من الرموز ومجموعة مختلفة من الأبطال التاريخيين •

ولقد حاول ليبست البرهنة على ان الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة الوحيدة الذى يكشف نسقها السياسى على أعلى درجات الفعالية والشرعية • فالدرجات المختلفة من الفعالية والشرعية فى مختلف الدول يمكن أن تصاغ فى الشكل التالى الذى يكشف عن أربعة توليفات مختلفة من الشرعية والفعالية :

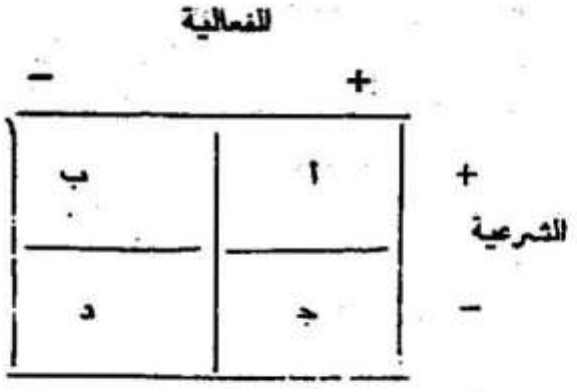

ففى المربع (أ) تقع الدول التى حققت درجة عالية من الشرعية والفعالية وهى المجتمعات التى تملك نسقا سياسيا ديمقراطيا مستقرا مثل الولايات المتحدة والسويد وبريطانيا • وفى المربع (د) تقع الدول غير المستقرة التى

(٧) Ibid., pp. 77—82.

لا تملك اية درجة من الشرعية او الفعالية ، فهى نظم ديكتاتورية تحافظ على وجودها بالقوة مثل حكومة المانيا الشرقية • اما التوليفات الأخرى والتى يمثلها المربعان (ب) ، (ج) فان الجوانب المختلفة للدول فى بداية الثلاثينيات يمكن أن تكون مثالا عليها •

ومن ذلك ينطلق ليبست الى دراسة العلاقة بين الشرعية والصراع • فالصراع بين الجماعات يهدد الأنساق الديمقراطية ومن ثم فان الظروف التى تساعد على التخفيف من حدة الصراع تعتبر من المستلزمات الأساسية للحكومة الديمقراطية • ومن الظروف التى وفرتها المجتمعات الغربية فى هذا الصدد :

١ ـ ابراز دور الكنيسة او النسق الدينى فى تحقيق التكامل داخل المجتمع •

٢ ـ السماح للشرائح الدنيا ، خاصة العمال ، أن تتمتع بالمواطنة السياسية والاقتصادية من خلال التصويت فى الانتخابات والمساولت الجماعية •

٣ ـ ثم المساواة المستمرة فى توزيع الدخل القومى •

وهذه الظروف الثلاثة كانت تمثل مشكلات يمكن ان تثير الصراع ، ولكن النسق استطاع ان يجد الحلول المناسبة لها • ولو سمح لها بالتراكم لولدت صراعات داخل النسق ، كان يمكن أن تؤدى الى اعتناق مبادىء وايديولوجيات متطرفة •

وتدل التفسيرات الأمبيريقية التى يقدمها ليبست فى هذا الكتاب على انه يحاول تدعيم نظريتين اساسيتين : نظرية نهاية الأيديولوجيا التى قدم هو نفسه اسهاما فيها ، ونظرية النسق كما صاغها تالكوت بارسونز • ولأننى سأتعرض لنظرية نهاية الأيديولوجيا فيما بعد ، فان ما يهمنى الآن أن أوضح محاولة ليبست تدعيم نظرية النسق تدعيما امبيريقيا • واذا أرجعنا نظرية النسق الى صورتها الدقيقة لظهر عندنا ثلاثة عناصر رئيسية : النظرة الكلية ، وتعدد العلية وتبادلها ، ثم الاتفاق العام على القيم ،

والتوازن • ويمكن بسهولة ان نجد تدعيما امبيريقيا لكل هـذه العناصر فى التفسيرات المدعمة بالبيانات الكمية والتى قدمها ليبست فى كتابه « الانسان السياسى » • فالارتباط بين التطور الاقتصـادى ، والشرعية والفعـالية ، واستقرار الديمقراطية تدل على التكامل بين عناصر الواقع الاجتماعى ، فضلا عن دلالتها على مبدأ العلية المتعددة المتغيرات muitivariate والنتائج . فالنسق الطبقى المفتـوح ، والثروة الاقتصـادية ، وقيم المسـاواة ، والاقتصـاد الرأسمالى ، والتعليم ، وارتفاع درجة المشاركة فى التنظيمات الطوعية كلهـا عوامل تؤدى الى الديمقراطية ، تلك التى تؤدى بدورها الى مزيد من كل هذه الأشياء ، كما يتضح فى الشكل التالى(٨) :

الظروف	النتائج المحتملة	نتائج اضافية
النسق الطبقى المفتوح		نسق طبقى مفتوح ←
الثروة الاقتصادية		نسق قيم المساواة ←
قيم المساواة		الاستقرار السياسى ←
الاقتصاد الرأسمالى		البيروقراطية ←
التعليم	الديمقراطية	المجتمع الجماهيرى ←
ارتفاع درجة المشاركة فى التنظيمات الطوعية		التعليم ←

أما التـوازن فانه يتضـح من موقف ليبست من الصراع ، فالمجتمع الأمريكى فى نظره قد استطاع ان يمتص كل مظاهر الصراع التى يمكن ان تثيرها مشكلات الدين ، والمواطنة وتوزيع الدخل • كما ان المجتمع الأمريكى استطاع ان يتغلب على النضال الطبقى من خلال كل الظروف التى عـددها (التقدم الاقتصادى وقيم المساواة ـ التعليم ـ ارتفاع درجـة المشـاركة فى التنظيمات الطـوعية) بحيث اصبحت الطبقات الدنيـا غـير راغبة فى تبنى الاتجاهات الراديكالية الثورية • أما الاتفاق العام على القيم ، يتضح من اعتباره ان هذا الاتفاق العـام مستلزم اسـاسى للديمقراطية المسـتقرة • والحقيقة ان ليبست قد اولى موضوع القيم اهمية كبيرة ، فقد عالج نماذج القيم فى علاقتها بالديمقراطية فى امريكا وبريطانيا فى دراسة له نشرت فى

---

(٨) Lipset, Political Man op. cit., p. 74.

الكتاب الذى اشرف على تحريره مع بندكس Bendix (٩) ٠

فى هذه الدراسة ينطلق ليبست من احد عناصر نظرية النسق فى المشروع البارسونزى وأعنى متغيرات النمط ٠ استخدام ليبست ثلاثة ازواج من هذه المتغيرات : الانجاز فى مقابل العزو ، والعمومية فى مقابل الخصوصية ، والتخصص فى مقابل الانتشار ٠ واضاف زوجا من عنده وهو التمييز بين المساواة فى مقابل ابراز دور الصفوة equalitarian-elitist وطبقا لهذا التمييز فان المجتمع قد ينظر الى كل الأشخاص على أنهم متساوون ككائنات بشرية (المساواة) ، او يضفى قدرا من السمو على هؤلاء الذين يشغلون مناصب القوة والامتياز (تفضيل الصفوة) ٠ وفى ضوء هذه الأزواج الأربعة من المتغيرات أقام ليبست مقارنة بين علاقة الديمقراطية بأنساق القيم فى الولايات المتحدة وبريطانيا ، انطلاقا من القضية التى مؤداها أنه بالرغم من أن كلا من الولايات المتحدة وبريطانيا بلد متحضر ، متقدم من الناحية الصناعية ، وتنتشر فيه أنساق سياسية ديمقراطية مستقرة ، الا أن هذه الأنساق تلتف حول قيم مختلفة ، وعلاقات طبقية مختلفة ٠

انطلاقا من هذا ذهب ليبست الى أن للمجتمع الأمريكى مجتمع قائم على المساواة وتوجيه قيم الانجاز ، أما المجتمع البريطانى فهو مجتمع قائم على احترام جماعات الصفوة وتوجهه قيم العزو ٠ فالولايات المتحدة اكثر من اية دولة غير شيوعية ، تؤكد على قيم الانجاز ، والمساواة ، والعمومية ، والتخصص ٠ يتضح ذلك بجلاء فى قبول الطبقة العليا للتحسن فى مكانة الشريحة الدنيا ودرجة تملكها للقوة ، ومن ثم لا تحتاج هذه الطبقة الدنيا الى أن تكون ثورية من اجل تغيير وضعها الاجتماعى ٠ حقيقة ان المجتمع الأمريكى قد تظهر فيه بعض قيم العزو ، وتفضيل الصفوة ، والخصوصية ، والانتشار ولكن وجود مثل هذه القيم وجود سطحى ٠ ومن ثم فانه لا يعبر عن الخلل الوظيفى ولا يؤثر على استقرار النسق السياسى ٠ أما المجتمع البريطانى فبالرغم من سيادة قيم الانجاز وخاصة فى النسق الاقتصادى

---

(٩) S. Marti Lipset, "Value Patterns and the Democratic Polity : The United States and Great Britain," in: Bendix and Lipset (eds.), Class, Status and Power, Routledge and Kegan Paul, 1967. pp. 16—70.

والتعليمى ، الا ان المجتمع لا يزال يكشف انتشار قيم العزو وتفضيل الصفوة والانتشار خاصة فى نسق الطبقات الاجتماعية حيث تلعب مكانة الشخص واصوله الاجتماعية دورا كبيرا فى صعوده الى قمة النسق السياسى ، فضلا عن ان الطبقات العليا لا تزال لها مدارس خاصة ، وجامعات خاصة ، بل ان حزب العمل نفسه (وهو حزب الطبقة العاملة) تحافظ سياسته على شرعية الارستقراطية ، ويقبل قادته الألقاب الارستقراطية والقاب الشرف الأخرى من العرش • ويحشد ليبست الكثير من البيانات الكمية التى تدل على الفروق بين الولايات المتحدة فى قيم الإنجاز من ذلك مثلا البيانات التى تشير الى ارتفاع عدد الملتحقين بالتعليم العالى فى امريكا ٢ر٢٧٪ عام ١٩٥٦ من جماعة العمر من ٢٠ ـ ٤٠ يقابلها ٧ر٣٪ فى بريطانيا فى نفس العام ومن نفس جماعة العمر) بل ان الفلبين ـ وهى مستعمرة امريكية سابقة ـ بها نسبة الملتحقين بالتعليم العالى تفوق اى بلد اوربى (٥ر١٤٪ عام ١٩٥٦) • وهذا دليل على جهد امريكا الناجح فى تصدير اعتقادها بان اى شخص يجب أن يعطى فرصة فى التعليم العالى ، بعكس بريطانيا التى قصرت التعليم فى المستعمرات على صفوة قليلة من هذه المجتمعات المستعمرة • ويغالى ليبست فى اشتقاق الفروق بين امريكا وبريطانيا الى درجة انه يحاول لكتشاف فروق فى القيم بين امريكا وبريطانيا من خلال اتجاهات الأفراد تجاه القانون والنظام ، حيث تعمل امريكا من خلال هيئة المحلفين المختارة من الشعب ، بينما تعتمد بريطانيا اعتمادا كليا على القاضى •

وبالرغم من ان تدرج المكانة لا يؤثر على درجة استقرار الديمقراطية ، فانه يؤثر على طريقة اداء النسق السياسى لوظائفه • من هنا فان تدرج المكانة القائم على جماعة الصفوة فى بريطانيا ـ فى مقابل نسق المساواة فى الولايات المتحدة ـ يؤثر فى الأداء الوظيفى للنسق السياسى خاصة درجة تحمل المعارضة والتوافق • وهنا ينبرى ليبست للدفاع عن عدم احترام الحريات المدنية وحقوق الأقلية فى امريكا فيذهب الى أن ذلك ينتج عن النسق الاجتماعى الذى يضفى قدرا من التخصص على مكانة الصفوة داخلة ، الأمر الذى يؤدى الى ان تحسم الأمور السياسية من خلال الجماهير العريضة • وهنا يستشعر ان ليبست يريد ان يقول أن عدم احترام الحريات المدنية وحقوق الأقلية امر تحسمه الجماهير حيث لا توجد صفوة يمكن أن تحسمه •

إلى جانب ذلك يكشف النظام القائم على تفضيل الصفوة والمكانات المتباينة عن مظاهر خلل وظيفى تنعكس فى شعور الطبقات الدنيا بالحرمان النفسى ومن ثم انفصالها وعدم اكتراثها بالمشاركة السياسية • وان كانت هذه المجتمعات قد أوجدت مجموعة من الميكانيزمات التكيفية لمواجهة مظاهر الخلل الوظيفى لكى تعيد الاستقرار والشرعية الى الشق الأكبر • من هذه الميكانيزمات : الدين ، الحراك الاجتماعى ، العمل السياسى • فالدين اذا ارتبط بقيم الانجاز والمساواة يولد اعتقادا بشرعية توزيع القوة القائم ويقلل من ظروف الاحتجاج المتطرف • والحراك الاجتماعى يمهد الطريق لأى عضو فى المجتمع الى الصعود الى اعلى درجات السلم الاجتماعى • والعمل السياسى الذى يعنى الاشتراك فى الحركات الاجتماعية التى تنادى بحقوق الطبقات الدنيا يعنى امتصاص الطاقة الثورية عند هذه الجماهير • وهكذا يفسر ليبست الحركة السياسية الراديكالية تفسيرا يجعله ينحاز الى صف النظام القائم • فهذه الحركات لا تعمل على قلب النظام بقدر ما تعمل بطريق مباشر لصلحة هذا النظام • ويدفعنا هذا الى مناقشة راى ليبست فى الحركات الراديكالية الثورية التى انتشرت بين الشباب فى اواخر الستينات • فدراسته لهذه الحركات لا تميط اللثام عن آرائه المحافظة فقط ، وانما توضح رد فعل المجتمع الراسمالى ميزمته تجاه حركات التمرد •

لا شك ان نظرية التوازن تسيطر حتى على فكر العلماء فى المجتمع الغربى ، تماما مثلما يصفون مجتمعهم بالتوازن • فاذا كانت الفكرة الأساسية فى نظرية التوازن تذهب الى ان المجتمع لا بد أن يتكيف مع اى تغير يطرأ عليه وان يمتص كل حركة تهدف الى اخلال توازنه او القضاء عليه ، فان علماء الاجتماع يتشكل فكرهم بنفس هذا الأسلوب ذلك لأنهم جزء من حركة المجتمع المتوازن ، او قل انهم اداة ضمن ادوات هذا المجتمع لتحقيق التوازن • يتضح ذلك بجلاء عندما نرى رد فعل العلماء (والمجتمع) تجاه الحركات الراديكالية التى انتشرت بين الشباب فى اواخر الستينيات • تمثل رد الفعل هذا فى استجابة لهذه الحركة ، واعتراف لمامها بوجوب تغيير النظرية والمجتمع ، ثم التخلى عن هذا الاعتراف بعد أن يكون قد ادى دوره فى انهاك الحركة الراديكالية • وتعكس آراء ليبست هذا الاتجاه بوضوح فى علم الاجتماع الغربى • فقد اتضح من عرضنا لدراسته السابقة مدى التزامه

بتقديم حقائق امبيريقية تدعم نظرية النسق • ولقد اتضح الالتزام بجلاء أكثر فى دراسته له بعنوان The First New Nation الصادرة عام ١٩٦٣ ، حيث كتب يقول : « لتحقيق أهداف هذا الكتاب حاولت أن أفكر فى ضوء نموذج التوازن الدينامى ، والذى يقرر أن المجتمع المعقد يقع تحت ضغط مستمر ليكيف نظمه لنسق القيم الرئيسى وذلك من أجل تخفيف حدة التوترات التى تخلقها التغيرات فى العلاقات الاجتماعية »(١٠) • ولكن ليبست كتب عام ١٩٦٩ يقول : « يرى البعض الآن فى نظرية النسق صورة أخرى من الاطار المرجعى الذى تنحصر فائدته الأساسية فى كونه اطارا فكريا منظما ، ولكنه لا يخضع فى الواقع للاختبار الأمبيريقى »(١١) • ويكشف النصان عن استجابة ليبست التلاؤمية لحركات التمرد فى أمريكا ، كيف يلتزم بنظرية التوازن والنسق • وكيف يتصنع التخلى عنها عندما ظهرت بوادر لتحديها امبيريقيا ؟ فما هذا الا ضرب من ضروب امتصاص الغضب فى المجتمع الأمريكى • وعندما تعرض ليبست لهذه الحركات بالدراسة نجده لا يزال منخرطا فى محاولة تشييد التصنيفات كما هو الحال فى نظرية النسق ففى دراسة له عن « الممارسة السياسية والتعليم العالى فى الولايات المتحدة • والمنشورة فى مجلد محرر بعنوان Student Politics يحاول ليبست ان يدرس البيئات الأسرية للراديكاليين ، وموقف الكلية ، وخصائص الجامعات المختلفة مع مناقشة تطور الحركة الراديكالية فى ضوء الخصائص الداخلية للجامعات دون أى اشارة لمصدر النزعة الراديكالية فى ظروف المجتمع الأمريكى ككل • فضلا عن ذلك فانه لا يحيد عن توضيح مدى استقرار المجتمع الأمريكى أمام فيض هذه الحركات الراديكالية حيث يذهب الى أن هذه الحركات سوف تجد صعوبة فى ايجاد دعامة تستند اليها ، وأن هذه الحركات حتى اذا احدثت بعض التغيرات فى المجتمع الأمريكى ، الا انها ستنضم الى كل المحاولات غير الناجحة التى تنمو فى بيئة غير خصبة(١٢)•

وأقصى نقطة وصل اليها ليبست فى نقد النظام القائم جاءت فى دراسة له بعنوان : Student in Revolt عام ١٩٦٩ حيث كتب يقول : « يجب أن

---

(١٠) S.M. Lipset, The First New Nation, New York, 1963, pp. 8—9.

(١١) T.B. Bottomor, Sociology as Social Criticism, p. 20.

(١٢) Ibid., p. 22.

نبحث عن مصدر للنزعة الراديكالية السياسية بل الطلاب فى اسلوب الممارسة السياسية ، وفى العوامل المرتبطة بالأنماط السياسية المختلفة ، كما يجب علينا أن نتوقع تزايدا حادا فى نشاط الطلبة فى مجتمع اصبحت فيه القيم الاجتماعية ونمط السياسة السائد محل مناقشة ، خاصة فى الأوقات التى تختبر فيها الأحداث استمرار مظاهر الفشل فى النظام والسياسة بحيث أصبحت شرعية الترتيبات والنظم الاجتماعية والاقتصادية محل تساؤل »(١٣) • وحتى هذه العبارة لا تكشف عن نقد صريح حيث لا يستخدم ليبست عبارات قاطعة فكلمة « محل تساؤل » التى جاءت مرتين فى هذا النص لا تعنى ان النظام قد فشل بالفعل بل انه أصبح محل مناقشة من أطراف عدة • وقد أكدت آنفا أن هذه الاستجابة للحركات الراديكالية كانت بمثابة ميكانيزم علمى لضبط هذه الحركات وامتصاص غضبها ، والدليل على ذلك ان ليبست قد عاد للتأكيد من جديد على مبدأ « الديمقراطية المستقرة » • ففى دراسة حديثة نسبيا (١٩٧٠)(١٤) • حاول دراسة الديمقراطية الأمريكية من خلال المذهب التعددى pluralism حيث ذهب الى ان التطرف سواء أكان يمينيا أم يساريا ما هو الا دافع معادى لصالح الكثرة والجماعات المتعددة • وبناء على ذلك يعتبر تطرف اليمين وتطرف اليسار تطرفا من نوع واحد ما دام كل منهما يعادى ديمقراطية الكثرة • ومن خلال هذه الدراسة يحاول ليبست ان يلزمنا بأن نعتبر اليمين واليسار من اعداء الديمقراطية ، وان ننظر الى النسق السياسى الأمريكى على انه النموذج المثالى للنظام الديمقراطى ، وان نعتبر ان عدم التعاطف مع الحزبين القائمين فى الولايات المتحدة ضربا من ضروب التطرف غير الديمقراطى يهدد القيم العليا للمذهب التعددى ، او مذهب الاستقرار • والظلال الأيديولوجية تتضح بجلاء فى مثل هذه الآراء ، فتلك محاولة اخيرة من ليبست لطمس الفروق بين اليمين واليسار ، بالأحرى طمس اليسار وما يولده من حركات متطرفة ثورية ، ذلك لأن النظام الأمريكى ما هو الا صورة من صور اليمين • كما أن المذهب التعددى يعنى ان هناك اجماعا على القيم بين جماعات المصلحة المختلفة فى المجتمع الأمريكى ، وهو اجماع لا يمكن أن يتحقق فى

---

(١٣) Ibid., p. 25.

(١٤) S.M. Lipset and Earl Roab, The Politics of Unreason, 1970.

مجتمع تنتشر فيه جماعات المصلحة انتشارا كبيرا ، وتتعدد اهدافها من التجارة وكسب مزيد من المال (الشركات) ، وحتى الجماعات التخريبية (المافيا) ٠

ويتضح لنا مما سبق مدى الالتزام الأيديولوجى لعلماء الاجتماع ذوى الميول الأمبيريقية ٠ فالهدف الأساسى لهؤلاء العلماء هو أن يحشدوا كما هائلا من البيانات الأمبيريقية التى تدعم النمط النظرى المسيطر على المؤسسة الأكاديمية فى علم الاجتماع ـ والأمريكى بصفة خاصة ٠ فضلا عن ذلك تلاحظ الطبيعة المرنة للعلم ازاء التغيرات أو الحركات التى يمكن أن تهدد النظام ، الأمر الذى يميط اللثام عن الدور السيىء الذى يمكن أن تلعبه ـ وهى تلعبه بالفعل ـ العلوم الاجتماعية ٠ وهذا موضوع سوف نعالجه فيما بعد ٠

وننتقل الآن الى المجال الثانى الذى يتجسد فيه النظام من خلال البحوث الأمبيريقية ، واعنى مجال التنظيم ٠

ثانيا ـ فى مجال دراسة التنظيمات :

المجتمعات الغربية مجتمعات صناعية بل ان بعضها قد تجاوز مرحلة الصناعة ، وبدأ يدخل مرحلة الصناعة التى تسيطر فيها التكنولوجيا ليس على الصناعة فحسب بل على كل شئون الانسان ٠ ومجتمعات هذا شانها لا بد ان تحظى فيها التنظيمات الصناعية وغير الصناعية باهمية فائقة بحيث يمكن القول دون تردد ان كل مجتمع من هذه المجتمعات ما هو الا حشد كبير من التنظيمات بدءا من المستشفيات ومرورا بالنوادى والمؤسسات الحكومية وحتى التنظيمات الصناعية والنقابية الكبرى ٠ ولما كانت هذه المجتمعات راسمالية الاقتصاد بمعنى ان السعى الدائب الى الربح والكسب المادى يمثل قيمة اساسية من القيم التى توجه سلوك الناس ، فطبيعى أن يولد هذا الاقتصاد قيم التنافس من اجل الحصول على الربح ٠ ويؤدى ذلك الى الكثير من النتائج يهمنا منها ثلاث نتائج : الأولى ، تراكم وزيادة النمو التنظيمى مع تطور وتعقد النظام الراسمالى ٠ فمن خلال التنظيمات الصناعية يستطيع الأفراد أن يحققوا الربح والكسب المادى الذى يمثل قيمة اساسية فى تركيبهم الدافعى ٠ ومن خلال التنظيمات يسعى المجتمع نفسه الى تنظيم كيانه الداخلى والى التخفيف من الأعباء النفسية التى يكونها طغيان

التنظيمات الصناعية ، فتنشأ التنظيمات النقابية والترفيهية والبوليسية والصحية والاجتماعية وغير ذلك من التنظيمات . والثانية : ازدياد التقارب القائم على المصلحة بين الحكومات والتنظيمات الصناعية والاقتصادية المتمثلة فى الشركات الكبرى ويترتب على ذلك أن تسيطر الشركات الكبرى على كل الحياة ، بل ويمتد تأثيرها الى السيطرة على الحكومة نفسها . والثالثة : أن أسلوب السيطرة فى الشركات لا يمتد الى الخارج فقط (الحكومة والحياة الاجتماعية والاقتصادية) بل ان هذه السيطرة تمتد الى الداخل حيث تحاول الشركة بكل الوسائل أن تسيطر على العاملين فيها وأن تخضعهم لنظام واحد يؤدى فى النهاية الى أن يحقق التنظيم أهدافه العليا ، وأعنى الربح المادى . وتتحقق هذه السيطرة من خلال سيادة التنظيم الرسمى ، وخضوع كل أقسام التنظيم لأساليب جادة فى الضبط والاتصال .

ويعد البحث العلمى الاجتماعى فى مجال التنظيم أحد الأساليب التى تهيىء لأصحابه سيطرة تامة على أجزائه المختلفة والعاملين به . وقد رأينا آنفا مدى اغداق الشركات الكبرى على الباحثين فى تمويل بحوثهم ، وذلك من أجل استخدام نتائج هذه البحوث فى تحقيق مزيد من الضبط والسيطرة على التنظيمات ، والقضاء على أى مصدر للتوتر أو الصراع داخلها . وعلى هذا كان من الطبيعى أن تنطلق معظم هذه البحوث من منطلق نظرى بنائى وظيفى لتصور التنظيم على أنه نسق متفاعل الأجزاء ، وتنظر الى أى توتر أو صراع داخله على أنه ضرب من ضروب الانحراف . حقيقة أن هناك بعض البحوث التى نظرت الى عناصر الصراع والتغير فى التنظيم نظرة موضوعية وأرجعتها الى مصادر تقترب من مصادرها الطبيعية(١٥) . ولكن هذه البحوث كانت قليلة أمام فيض البحوث التى ركزت على عناصر النظام والاستقرار فى التنظيم فقط على حساب العوامل الأخرى والتى ارتبط معظمها بأهداف الشركات وأصحاب التنظيمات الكبرى فى المجتمعات الغربية .

---

(١٥) أعنى هنا تلك البحوث التى حاولت أن تدرس النظام والصراع والتغير على حد سواء ، وأن تتصور التنظيمات على أنها تحوى العناصر التى تدعم الثبات والاستقرار ، والعناصر التى تؤدى الى التغير فى محاولة لتدعيم الاطار النظرى الذى يتصور الواقع بنفس هذه الطريقة والذى عبرت عنه نظريات رالف وارندورف ولوكود وغيرهم ممن سنعرض لنظرياتهم وتأثيراتها الامبيريقية فى الفصل القادم .

لن نستطيع هنا ان نتتبع بحوث باحث فرد كما هو الحال فى مجال السياسة حيث تتبعنا آراء سيمون مارتن ليبست ، وذلك لأن اغلب الذين قاموا ببحوث فى مجال التنظيم لهم اهتمامات نظرية ، فقد قاموا باسقاط التفسيرات البنائية الوظيفية على مجال التنظيم من الناحية النظرية ثم حاولوا اختبار هذه النظريات فى الواقع الامبيريقى • يؤكد ذلك ما قاله السيد الحسينى حيث ذهب الى أن : « النظرة الفاحصة للتراث الحالى فى مجال التنظيم تكشف عن أن النظرية والبحث قد امتزجا امتزاجا شديدا ، عاون على ذلك اهتمام كثير من المنظرين المحدثين فى التنظيم باجراء بحوث واقعية تستهدف اختبار الأطر النظرية والمفاهيم التحليلية التى صاغوها اختبارا واقعيا »(١٦) • من ذلك النص نكتشف صعوبة تتبع بحوث باحث فرد ، لأن هذا التتبع سوف يفرض علينا الخوض فى قضايا نظرية يوقعنا فى التكرار الذى نود أن نتفاداه • وسوف نتخلص من هذه المشكلة بأن نعرض بعض البحوث عرضا تاريخيا بهدف التحليل على ما نذهب اليه فى هذا الفصل من ان اغلب البحوث الأمبيريقية فى علم الاجتماع الغربى تهدف الى تجسيد حل معين لمشكلة النظام العام فى الواقع الأمبيريقى(١٧) •

فى عام ١٩٤٩ نشر فيليب سلزنيك F. Selznick دراسته الشهيرة عن منظمة النس فالى TVA (١٨) ينظر سلزنيك الى التنظيم بوصفه نسقا تعاونيا ، ذا طابع عضوى ، يستشعر حاجاته الخاصة وهو الذى يستجيب لها والحاجات التى يتعين عليه اشباعها فى ضوء الطرق والأساليب الثقافية المقررة التى يسير عليها • ومن المفاهيم الأساسية فى معالجة سلزنيك مفهوم « تفويض السلطة » "Delegation of Authority" وهو مفهوم

---

(١٦) السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، مرجع سابق ، ص ١٦٥ •

(١٧) لن يكون العرض التاريخى متصل الحلقات بحيث نعرض كل البحوث مرتبة ترتيبا تاريخيا ، ولكننا سوف ننتقى بعض هذه البحوث التى تعالج القضايا موضوع الاهتمام •

(١٨) Selznick, TVA and The Crass Roots, Berkeley : University Press, 1949.

وقد اعتمدت فى عرضها على المصدر التالى :
السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، مرجع سابق ص ص ٨٩ ـ ٩٧ و ص ص ١٦٩ ـ ١٩٧ •

وظيفى يعنى أسلوبا من أساليب الضبط داخل التنظيم يتم من خلال التفويض الدائم للسلطة بحيث يتخذ هذا التفويض طابعا نظاميا ويؤدى فى النهاية الى التدريب على الوظائف المتخصصة والى زيادة نمو الوحدات والأقسام الفرعية فى التنظيم ٠

ولقد طبق سلزنيك هذه المفاهيم الوظيفية فى دراسته لمنظمة التنسى فالى حيث أوضح أن المنظمة كانت تسعى الى الدفاع عن سياستها واعمالها حتى تتمكن من تحقيق حاجاتها المتمثلة فى الاستقرار والدوام وتحقيق الأهداف ٠ وكان على المنظمة حينئذ أن تتكيف مع ظاروف البيئة التى تمارس فيها نشاطاتها بمواجهة التهديدات الصادرة عنها ، كما كان على البيئة ان تواجه مطالب المنظمة ٠ ولقد حقق هذا التوازن تكيفا مؤقتا كان له نتائج غير مقصودة سواء كانت نتائج وظيفية او غير وظيفية٠فاذا كانت النتائج الوظيفية تؤدى الى الاستقرار داخل التنظيم ، فان تدعيم هذا الاستقرار لا يتم الا اذا اوجد التنظيم من الميكانيزمات ما يواجه به المعوقات الوظيفية او النتائج غير الوظيفية لعملية التكيف ٠ ولقد استخدمت منظمة التنسى فالى ميكانيزمين لمواجهة هذه المعوقات ٠ اولهما : لجوء المنظمة الى استقطاب البارزين من أعضاء المجتمع المحلى واشراكهم فى ادارة التنظيم وبذلك تفادت المنظمة الهجوم الذى قد يشنه رجال المجتمع المحلى على سياسة المنظمة ونشاطاتها. وثانيهما : محاولة نشر ايديولوجية خاصة بالمنظمة بحيث تضمن تحقيق القدر الأدنى الضرورى من الامتثال لقواعد التنظيم والولاء لسياسته ٠ ويلعب مفهوم تفويض السلطة دورا كبيرا فى المجال بطبيعة الحال ، والتنظيم هنا لا بد أن يكون نسقا من الأهداف والأجزاء بحيث يتكيف باستمرار مع مصادر التهديد عن طريق استقطابها واحتوائها ، وقد يفرض ذلك ان يستبدل أهدافه الأساسية بأهداف أخرى تتلاءم مع وجهة نظر المصدر الذى يأتى منه التهديد وفى نفس الوقت يجب أن يدعم ذاته ويقوى نفسه بايجاد جهاز ادارى قوى ٠ وهذا ما حدث بالفعل فى منظمة التنسى فالى حيث غيرت المنظمة من استراتيجيتها وتبنت استراتيجية دفاعية تمثلت فى استقطاب القوى الخارجية المعارضة لها ، حينما تساءل افراد المجتمع عن مدى شرعية أفعال وقرارات المنظمة ٠

هكذا استطاع سلزنيك ـ فى هذا الوقت المبكر ـ ان يقدم سندا

امبيريقيا يدعم فكرة التوازن واستقرار فى المجتمع ، وما يفرضه هذا التوازن وذلك الاستقرار من ميكانزمات ضبط وتشكيل نظامى لكل مظاهر التهديد والصراع ، كما تمثل فى تشريح بناء منظمة التنس فالى ٠

واذا كانت دراسة سلزنيك قد صورت التنظيم كنسق اجتماعى مستقر فان دراسة ليزنشتات Eisenstadt التى قدمها عام ١٩٥٩(١٩) ٠ قد اهتمت بموضوع التغير البنائى فى التنظيمات استنادا الى شواهد امبيريقية عديدة ٠ وينظر ايزنشتات الى التغير نظرة بنائية وظيفية تحيله الى مسألة تباين وتخصص وظيفى ٠ فمن اهم العوامل التى تسهم فى نمو التنظيمات فى رأى ايزنشتات : وجود تباين فى الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية واعتماد المعايير الموضوعية التى لا تسمح بتدخل كبير للاعتبارات الشخصية ثم نمو جماعات متخصصة تخصصا وظيفيا ما تلبث ان تحقق وجودا مستقرا ، ويتوقف نمو التنظيم على درجة التوازن بينه وبين المجتمع المحيط به ، هذا التوازن الذى ينجم عليه ـ متى تحقق ـ ثلاث نتائج : استقلال التنظيم ويميزه من خلال تفرده بخصائص بنائية عن التنظيمات الأخرى ٠ نمو عناصره البنائية مما يمنحه طابعا نظاميا يكسبه مزيدا من القوة والشرعية ، ثم اخيرا ذوبان العناصر البيروقراطية من خلال تحويل الأهداف العامة للتنظيم الى اهداف فرعية خاصة تتبناها جماعاته الفرعية ٠

هنا نرى ان ايزنشتات يجسد فى الواقع الأمبيريقى مفهومين اساسيين من مفاهيم نظرية النسق : مفهوم التوازن ومفهوم التغير البنائى القائم على التباين ٠ فالتنظيم لا بد ان يحقق توازنا داخليا يتمثل فى ذوبان العناصر البيروقراطية Debureaucratization عندما يصل الى اقصى درجة لنموه البيروقراطى Bureaucratization وذلك من خلال التنسيق بين وحداته او اقسامه الفرعية بحيث يناط بكل منها مجموعة من الأهداف العملية التى تحقق الهدف النهائى للتنظيم ٠ فالوصول الى اقصى درجة من البيروقراطية

---

(١٩) S. Eisenstadt, "Bureaucracy, Bureaucratization and Debureaucratization." Admin. Sci. Q., vol. 4, 1959, p. 303.
وقد اعتمدت فى عرضها على كتاب النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم السابق الاشارة اليه ، صص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ٠

لا يعنى توقف التنظيم عن النمو ، انه ـ على العكس من ذلك تماما ـ يستمر فى النمو من خلال تذويب العناصر البيروقراطية وتوزيعها على الأقسام الفرعية • ولا ينفصل هذا التوازن الداخلى للتنظيم عن توازنه مع اطاره المحيط . بناء على ذلك لا يظهر تغير جذرى أو ثورى داخل التنظيم ، وانما يتم هذا التغير من خلال التباين البنائى الوظيفى حيث تزداد الجماعات التخصصية بحيث تؤدى كل جماعة وظيفة معينة ، وحيث تتعدد الميادين التى يعمل خلالها التنظيم او يتصل بها • وكل ذلك فى اطار من المعايير الموضوعية التى لا تسمح بتدخل كبير للاعتبارات الشخصية • انها معايير يلتزم بها الجميع دون أى تدخل منهم • وهى تحقق درجة عالية من الاستقرار فى التنظيم •

ولابراز أهمية الالتزام بالمعايير نورد هنا دراسة حديثة نشرها روبرت دوبن Dubin عام ١٩٧٣(٢٠) • افترضه الباحث فى هذه الدراسة انه كلما ازدادت مصادر الارتباط بالعمل الذى تساوم من أجله النقابة ، انخفضت درجة نضال النقابة فى المساومة الجماعية • ولقد تم اختيار هذه القضية من خلال مقارنة أسلوب المساومة الجماعية فى دول مختلفة ، ومقارنة هذا الأسلوب عبر فترات تاريخية متتالية فى المجتمع الواحد • وكان الباحث ينطلق هنا من مسلمة نظرية مؤداها ان هناك بعدا نفسيا اجتماعيا فى الالتزام التنظيمى ، وان هذا الالتزام يكون له تأثير ايجابى على التنظيم ، فهذا الالتزام هو مصدر الارتباط بالتنظيم • ومن خلال الدراسة اكتشف الباحث اهمية الارتباط او هذا الالتزام فى استقرار التنظيم وثباته ، وان هذا الارتباط يتأثر بوسط العمل ، وطريقة تنظيم العمل فكلما تحسن مستوى الوسط الذى يعمل فيه الفرد ، وكلما تحسنت طريقة تنظيم العمل كلما ولد ذلك تأثيرات ايجابية أهمها تحقيق مزيد من الالتزام للفرد بالوسط الذى ينتمى اليه ، واعنى الوسط التنظيمى •وحاول الباحث الربط بين مدى الالتزام والانتماءات الى التنظيم وبين عملية النضال النقابى Union Militancy فاذا كانت سياسة النقابة وبرامجها ، وخططها تعبر عن الارادة للجمعية لأعضائها ،

---

(٢٠) R. Dubin, "Attachment to work and union Militancy" Industrial Relations Vol. 112, Feb. 1973, pp. 51—64.

فانه كلما ازداد نضال النقابة فى علاقتها بأصحاب العمل ، ضاقت فرصة اندماج (ارتباط) اعضائها بالتنظيم وفى هذه الحالة يفتقد التنظيم اهمية الدور الايجابى الذى يقوم به هذا الارتباط فى استقرار التنظيم ، بل ان افتقاد مثل هذا الدور قد يدفع العمال الى الانخراط فى اعمال عدائية ضد التنظيم .

وتذكرنا نتائج هذا البحث بالنظرية ـ ذات المنطلق الوظيفى ـ التى قدمها اميتا اتزيونى Etzioni فى تصنيف التنظيمات والتى تعتمد على متغير تنظيمى داخلى وهو الامتثال Compliance حيث اقام تفرقة بين ثلاث أنماط للانتماء الى التنظيم ، الانتماء الآلى . والانتماء الأخلاقى ، والانتماء الاغترابى ، يقابلها ثلاثة انماط من أنماط القوة داخل التنظيم : القوة التعويضية والمعيارية ، والاغترابية(٢١) . فالارتباط بالعمل أو الالتزام بمعاييره فى بحث دوبن يتساوى مع مفهوم الانتماء الأخلاقى فى نموذج اتزيونى . وكلاهما يوحى بمدى الاستقرار والتوازن داخل التنظيم الصناعى. فضلا عن ذلك فاننا نستطيع أن نشتق من بحث دوبن بعض الاعتبارات التطبيقية التى يمكن أن يستفيد منها أصحاب الأعمال فى تحقيق مزيد من امتثال العمال لأهداف التنظيم ، فتحسين الوسط الذى يعمل فيه العمال وتحسين طرق تنظيم العمل يحقق درجة عالية من الامتثال . واستقطاب النقابة ووضع النضال النقابى فى حدوده الدنيا يزيد من امتثال العمال وارتباطهم بالعمل ، لأنه كلما ازداد نضال النقابة قبل ارتباط الأفراد بالعمل ، وزاد احتمال ظهور النشاطات المعادية للتنظيم .

وما دام الاستقرار يرتبط بالالتزام بالمعايير ، فان معنى ذلك ان الاغتراب الذى يعيشه العمال قد يفسر على انه حالة شاذة أو انه شىء مرحلى يرجع الى ظروف مؤقتة سوف يتغلب عليها النسق من خلال ما يعضد نفسه به من ميكانزمات . ولذا كان البعض ـ مثل اتزيونى ـ يؤكدون وجود الاغتراب وينظرون اليه نظرة معينة فى ضوء أنماط أخرى من الانتماء ، فان هناك من ينكر وجود الاغتراب أساسا فى التنظيمات الصناعية الغربية . يؤكد ذلك نتائج دراسة قام بها وليم فورم W. Form على عمال السيارات

---

(٢١) السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، مرجع سابق . صص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

عام ١٩٧٤(٢٢) • حاول فورم أن يوضح أن حالة الاغتراب التى تحدث عنها ماركس أو دوركايم لا تسود بين العمال • بل ان العمال يشاركون فى الأنساق الاجتماعية بدءا من الأسرة وحتى الدولة • وتقوم الدراسة على بيانات مستقاة من أربعة بلاد تختلف فى درجة التصنيع هى : الهند ، والأرجنتين ، وايطاليا ، والولايات المتحدة • وركزت الدراسة على الصناعات المتقدمة حيث درس الباحث مصنعا للسيارات من كل بلد من البلدان الأربعة •

وأوضحت نتائج الدراسة أن مفهوم الانسان الصناعى قائم ، حيث اتضح أن العمال الصناعيين فى كل مكان يندمجون فى تنظيمات اكبر من الأسرة وجماعة الجوار بصرف النظر عن درجة تعقد بناء الجماعة ومستوى الصناعة فى المجتمع • يتضح ذلك الاندماج فى المام العمال بمشكلات الجماعة المحلية ، والمجتمع المحلى ، والدولة ، وقدرتهم على ترتيب هذه المشكلات ، حسب اهميتها ، كما انهم يشاركون فى التنظيمات الرسمية كالنوادى والأحزاب ، وان كانت درجة هذه المشاركة تختلف من بلد الى بلد • والثوار من العمال هم صفوة يمثلون امتدادا للخيط بين العمال والدولة • ويحاول الباحث ان يوضح أن هذه الصفوة (او نواة الحركة العمالية) ليس لها اى اتجاه ايديولوجى فى امريكا ، بل ان نسق الممارسة السياسية القائم على التعدد Pluralist قد نجح فى امتصاصها • أما فى ايطاليا والأرجنتين فانه اذا كان لهذه الصفوة اتجاه ايديولوجى ، الا انهم لا يزالون يطالبون بأن تصبح النقابة جزءا شرعيا من النظام السياسى • وفى الهند ليس لهذه الصفوة اى تأثير حيث نجدهم يتحدثون كثيرا عن السياسة ولكنهم لا يفعلون شيئا •

ومن هذه الدراسة يتضح كيف يحاول الباحث أن يصور ان مشكلات العمال قد حلت نهائيا • فلم يعد العمال يعانون من الاغتراب على نحو ما ذهب ماركس ، بل انهم على العكس من ذلك يساهمون مساهمة فعالة فى كل شئون المجتمع ، ويشاركون فى كل تنظيماته بدءا من الأسرة وحتى الدولة فضلا عن ذلك يحاول الباحث ان يوضح أن الولايات المتحدة هى اكبر الدول استقرارا بالمقارنة بالدول الأخرى التى درسها (ايطاليا ـ الأرجنتين ـ الهند)

---

(٢٢) W. Form, "Automobile Workers in four Countries, The Relevance of System Participation for Working Class Movement," A.J.S. Vol. XXV No., 4. 1974 pp. 442—462.

حيث ذهب الى أن الممارسة السياسية القائمة على التعدد قد امتصت نشاط العمال الثوار ، فلم يعد هؤلاء يهددون النظام القائم • ويذكرنا ذلك بما ذهب اليه سيمور مارتن ليبست عندما أوضح أن النسق السياسى القائم على التعددية فى الولايات المتحدة هو الذى يكسب الديمقراطية بها قدرا كبيرا من الاستقرار • وكلاهما (فورم وليبست) ينطلق من منطلق أيديولوجى معين.

واذا كانت البحوث فى مجال التنظيم تهتم أكثر ما تهتم بموضوع ارتباط العمال بالعمل والتزامهم بوسطه ، فان درجة هذا الاهتمام تصل الى محاولة الربط بين وجود العلاقات غير الرسمية بين جماعات العمل وبين زيادة التزام العامل داخل العمل •

وهذه هى النتيجة التى توصلت اليها دراسة قام بها تونسون Tohnson عام ١٩٧٤(٢٣) • وتقوم هذه الدراسة على الملاحظة بالمشاركة لجماعة صغيرة تعمل فى نوبة المساء فى مصنع للأغذية • وتتخذ النظرية من مفهوم الجماعة الصغيرة الذى طوره جورج هومانز(٢٤) • نقطة انطلاق لها • وحاول الباحث أن يدرس التنظيم غير الرسمى للجماعة فى مرحلتين : قبل وبعد تغيير أسلوب الاشراف فى هذه الجماعة • قبل تغيير أسلوب الاشراف كان التنظيم الاجتماعى غير الرسمى يلعب دورا وظيفيا ، فهو يحقق اهدافا تنظيمية كما يحقق للأفراد حاجات اجتماعية عاطفية • ولقد تحطم هذا التنظيم غير الرسمى من خلال التغيير الذى طرأ على أسلوب الاشراف ، وتقلص معه درجة الالتزام بالعمل وانخفضت الروح المعنوية للجماعة بصورة درامية • ولكن تبع تغيير الاشراف احداث تغييرين ذوى طابع فنى ، وبمجرد أن تكيفت الجماعة مع هذين التغييرين ظهر تنظيم غير رسمى جديد له مجموعة

---

(٢٣) Doyle Tohnson, "Social Organization of Industrial work group : Emergence and Adaptation to Environmental Changes." **The Sociological Quarterley, Vol. 15 Wenter, 1974.** pp. 109—126.

(٢٤) ركز جورج هومانز على دراسة الجماعة الصغيرة فى التنظيم ، وطور نموذجا لدراسة الجماعية يركز على تحليل التفاعل والنشاطات داخل الجماعة التنظيمية والمواطف ، مع الاهتمام بالعلاقات المتبادلة بين هذه العناصر وتساندها الوظيفى • انظر :

C. Homans, Human Group. N.Y., 1950.

مختلفة من المعايير وله اساس غير رسمي جديد • ولقد عكس هـذا التنظيم حاجة الجماعة ورغبتها فى الاستقلال • وهنا حقق الباحث الفرض الأساسى لدراسته والذى مؤداه ان الالتزام بالأهداف التنظيمية ، والروح المعنوية للجماعة ، ودرجة الرضا الفردى ترتبط ارتباطا ايجابيا بأسلوب الاشراف وارتفاع درجة الاستقلال للجماعة وسيادة التنظيم غير الرسمى بين اعضائها .

ويوضح لنا ذلك العرض مدى الارتباط القائم بين المسلك الذى تسير فيه البحوث الأمبيريقية وبين اهداف المجتمع الراسمالى • فضلا عن أن هذه البحوث تقدم مادة وافرة لأصحاب الشركات وصناع القرارات السياسية ، تتيح لهم أن يتحكموا فى الجماهير وفق اهوائهم ، فضلا عن ذلك فان هـذه البحوث تتجه أساسا نحو محاولة البرهنة على أن العلاقات الاجتماعية لها صفة الاستقرار والثبات وتخضع كلها لمجموعة من القيم او المعـايير التى لا تجعلها تخبر اى ضرب من ضروب التوتر او الصراع • وهـذا هو الذى يدعونا الى القول ان هذه البحوث تجسد مشكلة النظام العام فى المجتمع فى الواقع الأمبيريقى • من ذلك أنها تحول العلاقات المجـردة بين المتغيرات ، والمفاهيم المجردة الى علاقات ومفـاهيم يمكن قراءتها من خـلال المقـاييس والاحصاءات ، وهى بذلك تحول هذه المفاهيم والعلاقات الى مفاهيم وعلاقات على درجة عالية من الكفاءة الأمبيريقية • واذا كانت هذه المفـاهيم وهـذه العلاقات تتجه نحو تفسير الواقع الاجتماعى من خلال توضيح جوانب التناغم والنظام والاستقرار والاستمرار فيه ، متخطية بذلك جوانب أخرى ، واهمها على الاطلاق جانبا الصراع والتغير ، فان البحوث الأمبيريقية التى تدعم هذه المفاهيم وتلك العلاقات تعمل فى الواقع على تحويل الحلول المحافظة لمشـكلة النظام من مستوى التجريد النظرى الى مستوى الواقع الفعلى • ويدعونا هذا الى أن نضع تحفظات كثيرة حول العـلاقة بين النظرية والبحث والتى اعتقد الكثيرون انها علاقة انفصال لا عـلاقة اتصال • ان سـعى البحـوث الأمبيريقية نحو تبرير جوانب النظام والتناغم فى الواقع الاجتماعى يدل على أن هذه البحوث ترتبط بالأطر النظرية ـ من ناحية الهدف على الأقل ـ التى تسير فى نفس الاتجاه ، واعنى تبرير جوانب النظام او التنـاغم بين اجزاء الواقع الاجتماعى ويدعونا ذلك الى ان نؤكد حقيقة على جانب كبير من

الأهمية مؤداها أن هذا الترابط بين النظرية والبحث قد جعل النقد يتجه نحو كليهما معا دون التركيز على اى منهما • فالنقاد لا يهتمون فقط بنقد النظرية . على العكس انهم يهتمون اهتماما كبيرا بنقد ما يسمونه «بالنزعة الأمبيريقية» ونقدهم لها لا يقتصر على نقد اسلوب تنفيذ البحوث الأمبيريقية ، وانما ينصب أيضا على العلاقة بين هذه البحوث وبين اصحاب الشركات الكبرى والمشرفين على أجهزة الاعلام على ما سنرى فى الباب الثانى من هذا الكتاب •

الفصل الخامس

محاولات الخروج من دائرة النظام

(النظريات التوفيقية)

مقـــــدمة :

بدأ بعض علماء الاجتماع يدرسون الصراع بعد أن أدركوا مدى ارتباط نظريات هذا العلم بدراسة الاستقرار والنظام ، وبعد أن لاحظوا أيضا أن اعمال هذا العلم لدراسة الصراع كان نقطة الضعف الأساسية التى تركز حولها نقد الأطر التصورية التقليدية • لقد حاولوا أن يخرجوا علم الاجتماع من دائرة النظام • ونحن نطلق عليها « محاولات » لأن هؤلاء العلمـــاء لم يستطيعوا بالفعل أن يقننوا دراسة الصراع بطريقة تبعد عنهم شبهة التحيز الأيديولوجى • على العكس من ذلك تماما درسوا الصراع من وجهة نظر وظيفية بحتة • وأستطيع أن أفسر نشأة هذه الحركة من خلال العاملين التاليين :

١ ـ محاولة التبرير على أن علم الاجتماع ـ الأمريكى خاصة ـ باطره الحالية ـ يستطيع أن يطور نفسه ليدرس الصراع والتغير ، أى أنه يستطيع أن يخرج من دائرة النظام وأن يتحرر من ربقة الأيديولوجية •

٢ ـ أمام الانتشار الواسع النطاق للماركسية ـ خاصة بين الشباب ـ بدأ علماء الاجتماع الغربيون يهتمون أن يشيروا الى دراسة الصراع ليثبتوا ان نسقهم النظرى يستطيع أن يستوعب الفكرة الأساسية فى الماركسية واعنى دراسة الصراع • وربما كان هذا هو السبب الذى جعل أغلب رواد هذه المدرسة الفكرية يحاولون الربط بين البنائية الوظيفية وبين الماركسية فى نسق نظرى واحد ، الأمر الذى جعل الكثيرين من مؤرخى النظرية السوسيولوجية يسم هذا الاتجاه بالاتجاه التوفيقى • ولقد آثرت ابقاء

هـذا المصطلح الأخير من التسليم بأن هـذا الاتجاه لم يكن توفيقيا بقـدر ما كان محاولة لمعالجة الصراع بطريقة مغايرة للماركسية(١) ٠

ولكن مهما يكن من أمر هذه الجماعة فاننى أعتبر بعض آراء افرادها اتجاهات نقدية مبكرة فى علم الاجتماع وان كانت قد انتهت الى نفس الخط ونفس التيار الذى يسير فيه هذا العلم ٠ ولقد بدأ الاهتمام بدراسة الصراع فى فترة مبكرة على يد علماء نظرية النسـق انفسهم وعلى راسهم تالكوت بارسونز فى مقـاله الشـهير « الطبقة والصراع الطبقى فى ضـوء النظـرية السوسيولوجية الحديثة »(٢) ٠ غير أن هذه المحاولة ـ كما راينا ـ لا يمكن أن تخرج عن نظـرية التوازن او تحيد عن فكرة النسق المستمر ، فلا يزال النظام هو نقطة الانطـلاق الرئيسية ، ثم تطورت محاولة بارسـونز الى محاولات اخرى قام معظمها على نقد كل من الوظيفية والماركسية لافراط كل نظرية منهما فى التركيز على بعد واحد من ابعاد الحياة الاجتماعية واهمـال البعد الآخر ٠ بعض هذه المحاولات يرتبط بالوظيفية مهما اتسع حديثها عن الصراع مثل محاولة لويس كوزر وفان دن برج ، وبعضهما الآخر يعد نقـدا اصيلا للماركسية والوظيفية على حد سواء مثل محاولة رالف دارندوف وهذه المحاولة هى التى اعتبرها اتجاها نقـديا حقيقيـا ومبكرا فى علم الاجتماع الغربى ٠ ولكن جميعها تعد محاولات للخروج من دائرة النظام وعلى أى حال فقد أثرت هذه المحاولات على البحوث الأمبيريقية فوسعت من دائرة اهتمامها لتدرس الاتساق والصراع فى المجتمع بدلا من التركيز على الاتساق او النظام وحده ، وربما يكون هذا هو الاسهام الوحيد الذى قدمه هذا الاتجاه ٠

وسيحاول هـذا الفصـل تقييم هذا الاتجـاه داخـل علم الاجتمـاع ، ومعالجتى له هنا تنبع من ثلاثة اعتبارات توضح أهمية هذا الاتجاه :

---

(١) فلو كانوا قد أخذوا الصراع بنفس الطريقة التى أخذه بها ماركس وربطوه بالوظيفة لكان اتجاههم توفيقيا بحق ولكن معالجتهم للصراع توحى بأنهم يريدون أن يقولوا : « اننا نستطيع أن ندرس الصراع ولكن بطريقة تغاير طريقة ماركس » ٠

(٢) T. Parsons, "Social Class and Class Conflict in the light of Sociological Theory" in T. Parsons, **Essays in Sociological Theory**, The Free Press, Glencoe Collier-Macmillan Limited, London, Paperback Edition, 1964.

أولا : أن هذا الاتجاه قد سلك طريقا مغايرا الى حد ما للطريق الذى سلكه أصحاب نظرية النسق • حقيقة أن بعض المحاولات ترتبط بنظرية النسق ولكن معالجتها للصراع فى مؤلفات أو مقالات كاملة ، ودخولها فى حوار نقدى مع أصحاب نظرية النسق أنفسهم قد اكسب اتجاههم طابعا خاصا •

ثانيا : أن هذا الاتجاه قد ارتبط بفترة تاريخية معينة امتدت من منتصف الخمسينيات وحتى قرب نهاية الستينيات • وربما اعتقد أصحابه ان اتجاههم هذا سوف يخرج علم الاجتماع المرتبط بنظرية النسق من المازق النظرى الذى وقع فيه من فرط اهتمامه بالنظام العام • غير انه اتضح بعد ذلك أن النقد يتزايد وان هذا الاتجاه لم يحقق الغرض الذى قام من أجله •

ثالثا : أن هذا الاتجاه قد ترك تاثيرا لا يمكن انكاره على البحوث الأمبيريقية بصفة خاصة • فعلى اثره ظهرت الكثير من البحوث التى لا تلتزم بدراسة الاستقرار فقط وانما تولى الصراع اهمية بنفس القدر • وبدأنا نسمع عن ذلك النوع من البحوث الذى يدرس النظام Order والصراع Conflict أو الأتساق Cohesion والانقسام division داخل المصنع أو داخل القرية • بل ان هذا الاتجاه قد لاقى قبولا لدى بعض الدوائر السوسيولوجية فى خارج الغرب منها الهند ومصر على سبيل المثال • وسوف نضرب امثلة على نماذج من هذه البحوث فى نهاية هذا الفصل •

هذا وتنقسم معالجة هذا الفصل الى العناصر التالية :

١ ـ لويس كوزر ووظائف الصراع •

٢ ـ ديفيد لوكود ونقد نظرية النسق •

٣ ـ رالف دارندوف والحتمية السياسية •

٤ ـ الصراع فى بعض البحوث الأمبيريقية •

ولا شك ان هناك علماء آخرين ينتمون الى هذا الاتجاه ولكن آراءهم كانت امتدادا لبعض آراء ديفيد لوكود أورولف دارندورف من هؤلاء العلماء بيرسى كوهين الذى نقد نظرية لوكود وقدم بديلا لها ، ومنهم ايضا فلن دن برج الذى نقد نظرية دارندورف وقدم بديلا لها • ولذلك آثرت ان اناقش

آراء كل من هذين العالمين مع آراء العالم الذى نقده فعالجت آراء كوهين مع آراء لوكود وآراء فان دن برج مع آراء دارندورف ٠

اولاً ـ لويس كوزر ووظائف الصراع :

فى عام ١٩٥٦ نشر كوزر Lewis Coser دراسته بعنوان « وظائف الصراع الاجتماعى » The Functions of Social Conflic ولقد اعاد لويس كوزر بكتابه هذا الاهتمام بنظرية جورج زيمل على ما يذهب تيماشيف(٣) ٠فالمعروف أن زيمل (١٨٥٧ ـ ١٩١٨) قد اهتم بوظائف الصراع سواء اكانت وظائف ايجابية او وظائف سلبية ٠ لقد ميز زيمل بين قوتين أو عمليتين من عمليات التفاعل الاجتماعى : المنافسة والصراع ، والمنافسة تعد ضربا من الصراع غير المباشر ووظائفها ايجابية باستمرار ٠ أما الصراع فيكون مباشرا يتحكم فى اهدافه احد طرفى الصراع وقد تكون وظائفه سلبية أو ايجابية او كليهما معا(٤) ٠ ويبدو أن كوزر لم يتأثر بزيمل وحده وانما تأثر ايضا بآراء جورج سمبسون الذى نشر دراسة عن « الصراع والمجتمع المحلى » عام ١٩٣٧ حاول فيها الربط بين أفكار زيمل عن الصراع وأفكار دوركايم عن التكامل الاجتماعى ٠ لقد اهتم سمبسون بالطابع التكاملى للصراع ، وما يسهم به من وظائف فى التنظيم الاجتماعى ، وقسمه الى صراع مشترك وهو الصراع الموجه الى خارج الجماعة ، وصراع غير مشترك وهو الذى يحدث بين مكونات المجتمع نفسه ٠ وكل فرع يسهم فى النهاية فى تحقيق التكامل الاجتماعى بين أجزاء المجتمع المحلى(٥) ٠

ولقد تأثر كوزر بزيمل وسمبسون بطبيعة الحال ، كما تأثر بالوظيفة وحاول مثله مثل سمبسون تماما أن يربط فكرة الصراع بفكرة التكامل ، والتوازن ٠ عرف كوزر الصراع بانه عملية اجتماعية ضرورية لفهم العلاقات الاجتماعية واعتبره نضالا وكفاحا حول القيم والمكانات ومصادر القوة ٠ ويكشف هذا التعريف للصراع عن تأثره بزيمل الذى اعتبر الصراع عملية

---

(٣) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ١٥١ ٠
(٤) عبد الباسط عبد المعطى ، **فى نظرية علم الاجتماع** ، القاهرة ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٣ ، ص ١٤٤ ٠
(٥) **المرجع السابق** ، ص ١٦٤ ـ ١٦٧ ٠

اجتماعية من عمليات التفاعل الاجتماعى(٦) • لكن دراسة كوزر مواجهة أساسا لدراسة وظائف الصراع الاجتماعى وكيف يسهم فى تحقيق التكامل • وهنا يظهر تأثره بالفكر الوظيفى • يقول كوزر « يساهم الصراع داخل الجماعة فى اقامة الوحدة والاتساق Cohesion عندما تكون الجماعة مهددة بالمشاعر العدائية والمتعارضة بين أعضائها • وتتوقف فائدة الصراع فى تحقيق التكيف الداخلى على نمط المسائل المتصارع عليها ونمط البناء الاجتماعى الذى يظهر داخله الصراع »(٧) •

وحول هذا النص تتركز كل أفكار كوزر ، فالصراع مهما تعددت انماطه وقنواته يسهم فى النهاية فى تحقيق الوحدة والاتساق بين افراد المجتمع • وهو خادم أمين للبناء الاجتماعى حيث يؤدى باستمرار الى اعادة تكييف المعايير وبناء القوة داخل الجماعات مع حاجة الأفراد والجماعات المكونة له • وقد ميز كوزر بين نوعين من الصراع : صراع داخلى وآخر خارجى وكلاهما مرتبط بالبناء الاجتماعى • والصراع الداخلى قد يكون صراعا مرتبطا بالأهداف والقيم والمصالح الرئيسية للجماعة ، وهذا هو الذى يؤدى الى التكامل • ومن الناحية الأخرى قد يقوم على قيم متنافسة متنافرة حيث لا يتفق طرفا الصراع على مجموعة من القيم تقوم عليها شرعية النسق • فى هذه الحالة قد يؤدى الصراع الى تهديد البناء الاجتماعى وانهياره اذا لم يستطع البناء ان يتحمل هذا الصراع ويشكله داخل نظمه(٨) • فدرجة الانتظام المعيارى normative regulation للصراع داخل النسق هى الأساس الذى ميز به كوزر أنواع الصراع الداخلى(٩) • فاذا انتظم الصراع فى معايير كان صراعا وظيفيا يؤدى الى التكامل ، والعكس اذا لم تستطع المعايير أن تتشرب ما يفرزه المجتمع من صراع • أما الصراع الخارجى فيتصل بصراع الجماعة مع الجماعات الخارجية • مثل هذا الصراع يزيد

---

(٦) **المرجع السابق** ، ص ١٦٩ •

(٧) Lewis Coser, **The Functions of Social Conflict**, the Free Press Glencoe, Ill, Copyright, 1956. p. 151

(٨) Ibid., p. 151.

(٩) عبد الباسط عبد المعطى ، فى نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ١٦٩ •

من التماسك الداخلى لكل جماعة • فهو يحرك كل قوى وطاقات أعضائها نحو مواجهة الجماعة الخارجية • فى هـذه الحالة تقل الصراعات الداخلية الى أقصى درجـة ، وهى ان ظهرت تؤدى الى انهيـار الجمـاعة من خلال الانقسـام أو الهزيمـة أو الانشـقاق(١٠) •

وتختلف الأبنية الاجتماعية فى درجة تحملها للصراع او درجة تشكله النظامى ، وبصفة عامة فى الطريقة التى تسمح من خلالها بالتعبير عن المشاعر العدائية التى تنشأ من التنافس على المصادر النادرة ، والهيبة الاجتماعية ، ومراكز القوة • فالجماعات المترابطة والتى يوجد داخلها درجة عاليـة من التفاعل والاندماج الشخصى فى البناء الاجتماعى تميل الى ان تكبت الصراع، الأمر الذى يؤدى الى تراكمه ، ولذلك فانه عندما يظهر يكون صراعا عنيفا ، هذا البناء المترابط يختلف عن بناء الجماعة الانقسامية • ان مثل هذه الجماعة يتسع بنـاؤها لصراعات متعددة • فطاقات أعضـاء الجمـاعة تتحرك فى اتجاهات عديدة ، ومن ثم لا تتجمع فى خط صراعى واحد ينفذ خلال بنـاء الجماعة نفسها • وبالمثل يمكن ان نقارن بين بنـاء الجماعة التى تنخرط فى صراع خارجى ، وتلك التى لا تخبر مثل هـذا الصراع • الأولى تكبت الصراعات الداخلية التى لو ظهرت لحطمت الجمـاعة أمام قوة الصراعات الخارجية ، والثانية تكتشف عن مرونة فى بنائها الاجتماعى تسمح بانواع متعددة من الصراع تساهم فى تحقيق التوازن والاستقرار(١١) •

ويركز كوزر على جوانب للصراع التى تحقق الاسـتقرار والتكامل • فالمجتمعات المتصارعة التى تعتمد كل جماعة منها على الأخرى الى جانب الخطوط الصراعية المتقاطعة تربط اجزاء النسق الاجتماعى بعضها ببعض • فالصراع الذى تمارسه المجتمعات ـ خاصة المجتمعات المفتوحة البنـاء ـ يخفف ـ أولا ـ حدة التوتر بين الأطراف المتصارعة ويعمل باستقرار على تقليل اسباب التفكك واعادة الوحدة والترابط ، ويسـاعد ـ ثانيا ـ على اعادة المعايير القائمة أو على ظهور معايير جديدة • فهو بهذه الطريقة يعد ميكانيزما لتكييف مجموعة من المعايير تتلاءم مع الظروف الجديدة التى يخلقها • ويعمل

---

(١٠) L. Coser, op. cit., p. 1153.
(١١) Ibid., pp. 152—153.

ـ ثالثا ـ على تاكيد قوة المصالح المتعارضة داخل البناء ، وهو بهذه الطريقة يخلق توازنا مستمرا فى بناء القوة • ويؤدى ـ رابعا ـ الى تقليل العزلة الاجتماعية بين الجماعات والأحزاب ، وهو بذلك يؤدى الى ترابطها بصرف النظر عن كونها تحمل مشاعر عدائية • واذا كان الصراع بهذه الطريقة يقرب بين الجماعات فان استمراره يعمل ـ خامسا ـ على المحافظة على الحدود الفاصلة بين هذه الجماعات • فالصراع بهذه الطريقة يحدد مركزا لكل جماعة فرعية داخل النسق وحدود العلاقات بين هذه الجماعات(١٢) •

يتضح من آراء كوزر فى الصراع انه حاول أن يحقق درجة من التقارب بين دراسة الصراع ودراسة النظام • فآراؤه توحى بوجود علاقة متبادلة بينهما • فالنظام يؤدى الى الصراع : المجتمع المنظم الذى يكبت الصراع ينفجر فيه الصراع بعنف • وفى نفس الوقت فان الصراع يؤدى الى التوازن • ولكن ذلك الأخير لا يظهر الا فى نمط معين من انماط البناء الاجتماعى مثلما يظهر الأول فى نمط مختلف • ولا استطيع أن أجارى القول بان محاولة كوزر هذه محاولة توفيقية بين نظريات الصراع ونظريات التوازن لأنها لا تعدو أن تكون نظرية فى التوازن • فلو كانت محاولة توفيقية لاتخذت من المفهوم الماركسى نقطة انطلاق فى دراسة الصراع وربطه بنظرية التوازن • ولكن كوزر لم يفعل ذلك ، لقد انطلق من فهم زيمل للصراع الى دراسة انواعه ووظائفه الاجتماعية خاصة تلك الوظائف التى تؤدى الى الاستقرار والثبات والتوازن وبالرغم من أن بعض الباحثين يعتبرون ان فهم الماركسى للصراع يمكن أن يكون فهماوظيفيا ، من حيث انه يوجه نحو تحقيق غاية نهائية(١٣) • الا أن مصادر الصراع والأشكال التى يتشكل بها والنتائج المترتبة عليه فى المفهوم الماركسى تختلف اختلافا كليا عن فهم كوزر للصراع •

ثانيا ـ ديفيد لوكود ونقد نظرية النسق :

اذا كان كورز قد اهتم بوظائف الصراع دون أن ينقد نظرية النسق ، فان لوكود Lockwood قد قدم رؤية فى الصراع قائمة على نقد نظرية النسق

---

(١٢) Ibid., pp. 154—156.

(١٣) من حيث أن الصراع فى المفهوم الماركسى يؤدى الى تبدل فى علاقات الانتاج لمصلحة طبقةالبروليتاريا ويؤدى فى النهاية الى مجتمع لا طبقى •

الاجتماعى • ذهب لوكود فى مثال شـهير(١٤) الى أن اهتمام بارسـونز بمشكلة النظام العام فى المجتمع قد دفعـه الى أن يقيم نظـرية فى النسق الاجتماعى على أساس وجود معايير عامة تنظم « حرب الكل ضد الكل » • فنظرية بارسونز مثقلة بافتراضات ومقولات تتصل بدور العناصر المعيارية فى الفعل الاجتماعى ، وهى تركز على العمليات التى من خلالها يتم ضبط بناء الدوافع معياريا للمحافظة على الاستقرار الاجتماعى • وهى بذلك تكون قد اهملت مجموعة المصالح المتصـارعة الى تشـكل ما أطلق عليه لوكود **الراق التحتى** Substratum للفعل الاجتماعى او النسق الاجتمـاعى • والمصالح المتصارعة التى تكون هذا الراق التحتى من طبيعة مغايرة للمصـالح التى يسعى الفاعل الى تحقيقها فى اثناء توافقه مع التحديد المعيارى للموقف وهى مصـالح غير معيارية ، ومن ثم يجب تحليلها بطـريقة مسـتقلة عن البنـاء المعيـارى(١٥) •

ولقد تاثر لوكود بماركس فى فكرته عن المصالح المتصـارعة ، فهـذه المصالح تنتج اساسا من الصراع الذى ينشـأ حول توزيع الموارد الأساسية فى المجتمع • فالتنظيم الواقعى للانتاج ، والقوى والمصـالح والجمـاعات المصاحبة له هى التى تولد الصراع • وتمثل هذه المصالح النظام الواقعى Factual الذى يقابله النظـام المعيـارى الذى يحوى النظـام الواقعى ويوجه السعى الدائم وراء المصالح فيه • وهنـا نجد أن لوكود لا يرفض النظام المعيارى فهو عنصر من عناصر النسق يوجد مع وجود بنائه التحتى . واعنى المصـالح المتصارعة والقوة • ويظهر من آراء لوكود إهتمامه بالمصالح المتصارعة المتولدة من الصراع على الموارد النادرة الى درجة أنه جعلها شرطا لوجود النظام المعيارى • واذا لم يكن هناك صراع على المصـالح فلسـنا بحاجة الى النظام المعيارى لضبط هذا الصراع ، فاستمرار النظام المعيارى مرهون بوجود واستمرار النظام الواقعى(١٦) •

---

(١٤) David Lockwood, "Some Remarks on the Social System" **British Journal of Sociology**, Vol. 7, June, 1956, pp. 134-146.

(١٥) Ibid., pp. 134—138.

(١٦) Ibid., pp. 138—146.

وتكشف لنا آراء لوكود عن محاولة لتفادى الأخطاء التى وقعت فيها نظرية النسق والتى من أهمها التركيز على النظام العام • ووسيلته الى ذلك هى للخروج من دائرة هذا النظام بالبحث عن اساس آخر للعلاقات الاجتماعية وحده فى عالم المصالح المتصارعة والقوة • وفكرة المصالح المتصارعة فكرة ماركسية لا شك فى ذلك • ولكن لوكود لم ياخذها ماخذا ماركسيا على طول الخط ، وانما اعتبرها بناء تحتيا يشكل بناء فوقيا هو نسق المعايير التى تقوم بضبط البناء التحتى وتنظيمه • ويكون لوكود بذلك قد خلق علاقة جدلية بين الصراع والنظام تكشف عن رؤية للمجتمع تحوى العنصرين معا دون التركيز على أى منهما برغم ان فكرة البناء التحتى فى ذاتها توحى بطغيان عنصر على عنصر آخر • واستطيع أن أقول ان لوكود برغم أنه حاول أن ينقد الحل المعيارى لمشكلة النظام ،الا أنه قدم حلا معياريا لها • فالذين قدموا حلولا لهذه المشكلة ـ من هوبز الى بارسونز ـ يؤمنون أن حل هذه المشكلة هو حل لمشكلة الصراع ، فالمعايير فى المشروع البارسونزى هى التى تحقق مستويات متعددة من التكامل داخل المجتمع وهى الاطار المرجعى لاختيار الأهداف والوسائل بمعنى أنها هى التى تضفى على المجتمع قدرا كبيرا من النظام وتمنع ما به من صراع • فاذا جاء لوكود وقال بعلاقة جدلية بين المصالح المتصارعة والمعايير فانه لن يكون قد اضاف جديدا ، فاستمرار المعايير فى التحكم فى الصراع ـ فى نسقه النظرى ـ يعد ضمانا للاستمرار والاستقرار داخل المجتمع • والذى يؤكد وجهة نظرى هنا هو أن بارسونز نفسه قد قدم هذه التفرقة بين النظام الواقعى والنظام المعيارى وهو بصدد تقديم حل لمشكلة النظام فى كتابه « بناء الفعل الاجتماعى » على ما اوضحت فى الفصل الثالث •

ولقد قام بيرسى كوهين Percy Cohen بنقد آراء لوكود وقدم صورة معدلة لها تكشف عن وجهة نظر فى تفسير الواقع الاجتماعى قريبة من الآراء التى نناقشها فى هذا الفصل • قبل كوهن آراء لوكود ولكنه انتقد وقوعه فى بعض الأخطاء منها ما هو منطقى مثل القول بأن استمرار النسق المعيارى نفسه يعبر عن استمرار المصالح المتصارعة • فهذه الفكرة قائمة على الاعتقاد بانه اذا كانت (ا) تتحكم فى (ب) فان استمرار وجود (ا) يتطلب استمرار (ب) • وهى قضية غير منطقية • فالأفراد قد يقومون ببناء أسوار حول

المدينة من أجل الدفاع ، ولكن عدم اقدامهم على هدم هذه الأسوار لا يعنى ان حاجتهم الى للدفاع لا تزال قائمة تماما • نستطيع القول بأن النسق المعيارى يمكن أن يستمر بالرغم من اختفاء القوة التى أوجدته ، فهو يستطيع ان يوفر لنفسه ظروف بقائه واستمراره(١٧) •

ذكرت أن كوهين بناء على نقده لآراء لوكود قدم بديلا يعكس وجهة نظر فى تفسير الواقع الاجتماعى • ففى أى عملية للفعل الاجتماعى او للتفاعل الاجتماعى يوجد مجموعتان من العوامل يمكن فصلهما من الناحية التحليلية هما : العوامل الخارجية والعوامل الداخلية • فهما اللذان يخلقان السلوك المنظم اجتماعيا ويمكن بالنسبة للعوامل الخارجية التفرقة بين الفاعلين الأفراد والموضوعات الفيزيقية • أما العوامل الداخلية فقد تكون ظروفا غير ثقافية نابعة من الشخص نفسه مثل الرغبة فى الزحلة او سد الحاجة الى الجوع ويطلق عليها الاستعدادات الطبيعية ، وقد تكون ظروفا تحددها الثقافة مثل المعتقدات ، وضروب المعرفة ومستويات التقييم واطلق عليها الاستعدادات الثقافية ، ومن خلال ارتباط هذه العوامل بعضها بالبعض الآخر يمكن أن تظهر اربعة « توليفات » أساسية تعبر عن انماط مختلفة من السلوك • وبناء على تقسيمات اخرى فرعية بين العوامل الخارجية يمكن أن تظهر ثمان « توليفات » اخرى • وكلها تعبر عن انماط مثالية قطبية ، بمعنى أن الواقع قد يكشف عن اختلاف هذه الأنماط برغم شمولها(١٨) •

بناء على التفرقة الأساسية بين العوامل الخارجية والداخلية يظهر فى الواقع اربعة أنماط من السلوك يعبر عنها الشكل التالى :

العوامل الداخلية	العوامل الخارجية: الفاعلون الأفراد	العوامل الخارجية: الموضوعات الفيزيقية
الاستعدادات الطبيعية	أ	ب
الاستعدادات الثقافية	د	جـ

(١٧) Percy Cohen, Modern Social Theory, op. cit., p. 109.
(١٨) Ibid., p. 115.

فى هذا الشكل قد يكون الموضوع الخارجى فاعلا فردا يولجه باستعداد طبيعى داخلى وهنا يظهر نمط السلوك (أ) والمثال عليه اتجاه اثنين من الغرباء تجاه بعضهما فى وقت المجاعة ، فكل منهما يعتبر الآخر منافسا فى الحصول على الطعام النادر • أما عندما يكون الموضوع الخارجى موضوعا فيزيقيا بحتا ويكون الاتجاه نحو اتجاه أو استعداد طبيعى يظهر نمط السلوك • (ب) والمثال عليه الاتجاه الذى يكونه أى شخص تجاه ظهور القحط • وقد يكون الموضوع الخارجى فيزيقيا بحتا ولكن الاتجاه نحوه تحدده الثقافة ، فى هذه الحالة يظهر نمط السلوك • (جـ) والمثال عليه اتجاه المسلم أو اليهودى نحو لحم الخنزير ، أو اتجاه الهندى نحو البقرة ، أو نظرة الأفراد فى اغلب المجتمعات البدائية الى الكارثة الطبيعية فى ضوء المعتقدات السحرية او الدينية • واخيرا قد يكون الموضوع الخارجى اجتماعيا والاتجاه نحوه تحدده الثقافة ـ المثال على ذلك اتجاه صديقين أو اكثر ، أو أخوين ، او مديرين نجد كل منهما الآخر(١٩) •

ويمكن ان تشتق من هذه التوليفات السلوكية توليفات أخرى بناء على تقسيم العوامل الخارجية • فيمكن تقسيم الفاعلين الأفراد حسب درجة مشاركتهم أو تمثيلهم للبناء النظامى ، فتظهر التفرقة بين الموضوعات النظامية Institutional وغير النظامية noninstitutional كما يمكن تقسيم الموضوعات الفيزيقية الى موضوعات مالوفة ثقافيا Fashioned وموضوعات غير مالوفة nonfashioned وهى تفرقة تشبه تفرقة ليفى ستراوس بين الموضوعات المدمجة فى الثقافة Cooked والموضوعات الخام Raw • بناء على التفرقة بين درجة ارتباط الأفراد بالبناء النظامى تظهر لدينا اربعة انواع من السلوك يعبر عنها الشكل الآتى :

العوامل الداخلية	العوامل الاجتماعية: نظامية	غير نظامية
الثقافية	أ	ب
الطبيعية	د	جـ

(١٩) Ibid.,p. 111.

اذا كان للفاعل الخارجى مرتبطا بالبناء النظامى والاتجاه نحوه طبيعيا يظهر لدينا نمط السلوك • (أ) وهو نمط نادر الوجود ، فمن الصعب أن نجد شخصا يدرك القوة الخارجية كنظام اذا لم يكن قد تشرب بعض الاستعدادات الثقافية نحوه ، المثال الوحيد الذى يمكن أن يعبر عن هذا النمط اتجاه العبد نحو سيده • فهو يدرك أن سلطانه عليه يدعمه قدر من السلطة ، غير أنه قد لا يكون للتزاما أخلاقيا تجاه هذه السلطة ويكون اتجاهه نحوها اتجاها طبيعيا • أما اذا كان العامل الخارجى غير نظامى والاستعداد نحوه استعداد طبيعى يظهر لدينا نمط السلوك • (ب) والمثال عليه الشخص الذى يدهم تحت اقدام حشد يغادر ملعب للكرة • أما اذا كان العامل الخارجى غير نظامى والاتجاه نحو ثقافى يظهر نمط السلوك • (جـ) والمثال عليه السلوك القائم على الأدب أو المساواة بين مجموعة من الأفراد يكونون حشدا • فالحشد يمثل قوة خارجية غير نظامية يتصرف الفرد ازاءها وفق معايير ثقافية • وأخيرا عندما يرتبط عامل خارجى له علاقة بالبناء النظامى باتجاه ثقافى يظهر لدينا نمط السلوك • (د) وكل حيتنا تقريبا قائمة على هذا النمط والمثال عليه السلوك السياسى الذى يتأثر بنظام الحزب كما لو كان قوة خارجية(٢٠) •

وبالمثل ينتج تقسيم الموضوعات الفيزيقية الى موضوعات مألوفة وأخرى غير مألوفة أربعة أنواع أخر من السلوك يعبر عنها الشكل التالى :

الموضوعات الفيزيقية

العوامل الداخلية	مألوفة	غير مألوفة
طبيعية	أ	ب
ثقافية	جـ	د

اذا كان الموضوع الفيزيقى الخارجى مألوفا والاستعداد نحوه طبيعيا

---

(٢٠) Ibid., pp. 112—113.

يظهر النمط السلوكى · (أ) والمثال عليه اتجاه الرجل الجائع المعوز الى الطعام المطهو ، أما اذا كان هذا الموضوع غير مألوف والاستعداد نحوه طبيعيا يظهر النمط السلوكى · (ب) والمثال عليه الاتجاه نحو الطعام الخام (غير المطهو) لسد رمق الجوع · أما اذا كان الموضوع الخارجى مألوفا والاستعداد نحوه ثقافيا فيظهر النمط السلوكى · (جـ) والمثال عليه رفض أكل انواع من الطعام لأنها غير مقبولة ثقافيا أو النظر الى الجبل أو قطعة من الخشب نظرة مقدسة · واخيرا اذا كان الموضوع الخارجى غير مألوف والاستعداد نحو متفاقى يظهر النمط الرابع من السلوك · (د) والمثال عليه اعتبار الطعام بطريقة معينة غير نظيف أو غير نقى(٢١) ·

ويعتقد كوهين أن هذه التفرقة بين الاستعدادات الداخلية والقوى الخارجية تتفادى ما وقع فيه لوكود عندما فصل بين صراع المصالح والبناء المعيارى فصلا ، واعتبر أحدهما بناء تحتيا والآخر بناء فوقيا · فنموذج كوهين يسمح لنا على ما يقول « بتفسير عناصر معينة من البناء الاجتماعى والأنساق الاجتماعية فى ضوء درجات مختلفة من تاثير الضوابط الخارجية والداخلية · ويسمح لنا ذلك بادراك الحقيقة التى مؤداها انه فى نسق معين تكون الاستعدادات النظامية والاستعدادات الثقافية المرتبطة بها على درجة كبيرة من الأهمية »(٢٢) · وبناء على ذلك لا يكون صراع المصالح هو البناء التحتى على ما ذهب لوكود ، وانما البناء التحتى يتمثل فى النظم التى تهتم بسد الحاجات الرئيسية انها النظم التى تتحكم فى الموارد والخدمات · أما الصراع نفسه فانه يظهر من عملية التفاعل نفسها ، وهو يظهر بجانب عناصر أخرى تميز الحياة الاجتماعية مثل التعاون والتبادل « فكما ينخرط الأفراد فى الصراع فانهم يحتاجون أيضا الى حلفاء او شركاء يتفاعلون معهم ·· ويظهر كل من الصراع والتعاون والتبادل ·· الخ · من خلال ظروف الحياة الاجتماعية والثقافية »(٢٣) ·

تعكس كلمات كوهين هذه انتماءه الى نفس الاتجاه الذى نناقشه فى هذا الفصل ··فهو ينظر الى الواقع على انه بوتقة تتفاعل فيه كل صور الحياة

---

(٢١) Ibid.. p. 115.
(٢٢) Ibid., p. 119.
(٢٣) Ibid., pp. 120—121.

الاجتماعية بدءا من التعاون وحتى الصراع • ولكن الكل يسهم فى النهاية فى وحدة المجتمع • ويؤيد ما أذهب اليه هنا انه اهتم فى أحد فصول كتابه بالاجابة على سؤال مؤداه : ما الشىء الذى يلم شـمل المجتمع ؟ وجاءت اجابته لهذا السؤال مناقشة مستفيضة لمشكلات المشاركة ، والاتساق ، والتضامن ، والامتثال ، والالتزام ، والمجاراة ، والاجماع • والتبـادل ، والتعاون والتكامل والاعتماد الوظيفى ، والمثابرة والاستمرار ، والتناقض والتعاون • ثم لختتم الفصـل بالمقابلة بين نموذجى التوازن والصراع وانتهى الى أن الحياة الاجتماعية تضم العناصر التى يضمها نموذج التوازن والعناصر التى يضمها نموذج الصراع فى علاقة تفاعل(٢٤) •

ويذكرنا ذلك بما أشرت اليه فى الفصل الأول من أن كوهين كانت له وجهة نظر خاصة فى التفاف نظريات علم الاجتماع حول مشكلة النظام العام • فكل عناصر النظام العام فى نظره تحوى نقيضها ، وتفسير احدها يعنى تفسير نقيضه ، بمعنى أننا لا يمكن أن نفهم عدم النظام Outsiders الا فى ضـوء عناصر النظام نفسه • فتفسيرنا لعناصر النظام ـ وهى القهر ، والتبادل ، والتنبؤ ، والاتساق ، والمثابرة ـ يعنى تفسيرا للظروف التى لا يظهر فيها سوء النظام • ولا تتضح تلك الحقيقة الا فى الواقع الأمبيريقى حيث نجد أن المجتمعـات « تمتلك عناصر متعارضـة ، فهى ان كانت تكشف عن صراع المصالح فانها ايضا تمتلك قدرة على المثابرة والنظام »(٢٥) •

ونلحظ من آراء كوهين التأثر بعلماء كثيرين منهم ماكس فيبر فى فكرة النمط المثالى ، حيث اعتبر النماذج التى عرضناها هنا ضربا من الأنماط المثالية تعبر عن أنماط مثالية للسلوك قد يتوافق معها الواقع الاجتماعى وقد يختلف عنها • ومنهم أيضا بارسونز • فجوهر هـذه النظرية قائم على نظامية الموضوعات الخارجية او عدم نظاميتها • ثم درجة تأثر الأفراد فى سلوكهم بالثقافة أو استعداداتهم الطبيعية • والفكرة الأولى متأثرة بفكرة التشكل النظامى عنه بارسـونز والفكرة الثانيـة متأثرة بفكرة التوافق والتكامل بين التوجيهـات الدافعية والتوجيهـات المعيـارية فى المشروع

---

(٢٤) Ibid., pp. 129—172.

(٢٥) Ibid., p. 12.

البارسونزى • ومن ثم فان البديل الذى قدمه لم يخرج خروجا راديكاليا من دائرة النظام • حقيقة انه اشار الى أن الصراع والنظام عنصران متفاعلان فى المجتمع ، ولكن حديثه عن النظامكان مستفيضاً ، وحديثه عن الصراع مقتضبا : فالنموذج الذى قدمه لا يمكن أن يكشف عن الصراع بالمفهوم الطبقى او الجماعى ، فهو لا يعدو أن يكون محاولة لتحديد علاقة الأفراد بعالم الأشياء وعالم الثقافة • هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى فان حديثه عن العناصر التى تلم شمل المجتمع به تركيز وإضح على عناصر النظام وليس فيه ما يعبر عن الصراع الا مشكلتا التناقض والتعارض ، بل انه تجاهل استخدام كلمة الصراع نفسها فى عرضه لهذه العناصر • كل ذلك يجعل نظريته تتضاءل أمام النظرية التى جاءت لنقدها ، واعنى نظرية لوكود • فحسب ذلك الأخير انه اعتبر المصالح بؤرة تتحدد حولها علاقات الأفراد •

ثالثا ـ رالف دارندورف والحتمية السياسية :

اذا كانت محاولة العلماء الذين نناقش نظرياتهم فى هذا الفصل قد ارتبطت بالوظيفية ونظرية التوازن أكثر من ارتباطها بنظرية الصراع ، فان محاولة رالف دارندورف فى دراسةالصراع انطلقت من نقد مرير للوظيفية ولنظرية النسق والتوازن ، بل انها انطلقت من نقد لقضية كوزر التى يفسر فى ضوئها الصراع وظيفيا داخل النسق(٢٦) • ولذا كان ذلك يكسب آراء دارندورف أهمية خاصة داخل هذا الاتجاه ، فان هناك سببا آخر يضيف مزيدا من الأهمية لآرائه وهو أن نظريته انطلقت من منظور ماركسى مؤداه أن الصراع كامن فى كل النظم وهو مصدر التغير فى هذه النظم ، ولكنها اتخذت مسارا غير ماركسي حيث استبدلت علاقات الانتاج فى المفهوم الماركسى بعلاقات السلطة وهذا هو السبب الذى جعلنى اطلق على نظريته « حتمية سياسية » • والواقع انه مع ظهور بعض الآراء التى تحبذ الربط بين دراسة الصراع ودراسة النظام فى فكر دارندورف فاننا يمكن أن نعتبر نظريته دراسة فى سوسيولوجيا الصراع بحق •

---

(٢٦) Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 115.

سارت نظرية دارندورف فى طريق منظم حيث بدأ بنقد للنظريات السابقة عليه كالبارسونزية والماركسية فى الوقت الذى كان يقدم فيه نظريته فى الصراع ركز دارندروف نقده فى مقال ممتاز بعنوان « خارج اليوتوبيا »(٢٧) • يعد من أفضل وأعمق نقد للفكر السوسيولوجى الغربى • تدرج دارندروف فى هذا المقال من توضيح خصائص اليوتوبيا واوجه القصور فيها ، الى تشبيه نظرية علم الاجتماع ـ خاصة نظرية النسق ـ باليوتوبيا ، الى تلمس الطريق نحو الخروج من عالم اليوتوبيا هذا الذى تدخلنا فيه نظرية علم الاجتماع •

بدأ دارندورف فى هذا المقال بوصف اليوتوبيا « تشترك كل اليوتوبيا فى عنصر واحد يميز بناءها هو أنها جميعا تصور مجتمعات لا يظهر فيها التغير »(٢٨) وتلخص هذه العبارة كل ما يريد أن يقوله دارندورف عن اليوتوبيا • فهى تصور مجتمعا ثابتا ومثاليا يحقق أكبر قدر من توحد الجماعة • والخصائص التى أوردها دارندورف لليوتوبيا تؤكد هذه الحقيقة • فهى ـ اليوتوبيا ـ لا تظهر من خلال الواقع المألوف حسب قوانين واقعية للتطور ، أى أنها تنفصل مجتمعا عن سياقه التاريخى وتعزله مكانيا • ويظهر داخل اليوتوبيا اجماع عام على القيم ، وقضية الاجماع على القيم هذه واحدة من العوامل التى تفسر استقرار مجتمع اليوتوبيا ، وعدم نشوء أى ضرب من ضروب الصراع او الثورة داخله بل ان الأشخاص اللامنتمين metabolism ليسوا نتاجا للبناء الاجتماعى لمجتمع اليوتوبيا ، انهم منحرفون ويمثلون حالات باثولوجية مصابة بمرض واحد • ويفرز مجتمع اليوتوبيا العمليات اللازمة لاستمراره بهذا الشكل ، منها ضمان تكاثر أفراده ، وتعليم وتربية الأطفال ، وتنظيم الأوضاع الاجتماعية ،

---

(٢٧) Ralf Dahrendorf, "Out of Utopia, Reorientation of Sociological Analysis," American Journal of Sociology, Vol. LXIV, No. 2 (1958) Reprinted in : L. Coser and Bernard Roseberg (eds.), Sociological Theory, The Macmillan Company, N.Y., 1967, pp. 209—225.

(٢٨) Ibid., p. 209.

وتقسيم العمل . وهـذه العمليات هى ايضـا metabolism المجتمع الذى يضمن حيويته واستمراره(٢٩) .

يتسائل دارندورف بعد ذلك عما اذا كنا نقابل هـذه الخصـائص اليوتوبية فى مجتمعاتنا الواقعية ؟ وهل يمكن أن نجد هـذا المجتمع الذى يحقق الاجماع العام دون الصراع ؟ تتحدد اجابة دارندورف فى العبـارة القاطعة التالية : « من المحقق اننا لسنا بحاجة الى مناقشـة هـذه الأسئلة . فمن الواضح أن مثل هـذه المجتمعات لا توجد وبنفس الدرجة من الوضوح . نجد أن كل مجتمع معروف لنا يغير من قيمه ونظمه باستمرار . وقد يكون هـذا التغير سريعا أو تدريجيا ، عنيفا أو منظما ، شاملا أو محدودا ، ولكنه لا يمكن أن يغيب على أى حال حيثما يخلق الأفراد تنظيمـات ليعيشـوا سويا »(٣٠) . وبعد أن يقرر دارندورف ذلك يظهر استغرابه الشـديد امام ولقع النظرية السـوسيولوجية المعاصرة : فاذا كنـا قد اكدنا ان مجتمع اليوتوبيا ليس له وجود فى الواقع وانه من نتاج الخيال الشعرى ، فكيف تتوافق النظرية السوسيولوجية المعاصرة مع نمـوذج يوتوبى للمجتمـع بحيث تعاود عناصر اليوتوبيا الظهور فى محاولة العلماء لتنظيم معرفتنا عن المجتمع وفى صياغتهم للقضايا النظـرية ذات الطبيعة العـامة ؟ من هـذا التساؤل يبدأ دارندورف نقده للنظريات السوسيولوجية المعاصرة . فنجده يعقد مقارنة طريفـة بين نظرية النسق أو نظـرية التوازن وبين مجتمـع اليوتوبيا ، بل انه يغالى بالقول بأن النظرية السوسيولوجية لم تسـتفد بتلك النظرة النقدية التى ميزت اليوتوبيا(٣١) . فالنسق الاجتماعى ـ مثله اليوتوبيا تماما ـ لا يقدم لنا ولقعا مالوفا ، فبدلا من تجريد عدد محدود من المتغيرات وتحديد اهميتها فى تفسير مشكلة معينة ، يمثل النسق الاجتماعى

---

(٢٩) Ibid., pp. 210—212.

(٣٠) Ibid., p. 212.

(٣١) على اعتبار ان كل يوتوبيا كانت تنطلق فى تصورها للمجتمـع اليوتوبى من نقد للمجتمع الواقعى الذى يعيش فيه صاحب اليوتوبيا . ولهذا السبب يقرر دارندورف انه يظلم الكتاب اليوتوبيين عندما شبههم بعلماء الاجتماع ـ مهما كان اسلوبهم فى التعبير عن آرائهم ـ لأن اليوتوبيين قـد نجحوا فى ان ينشروا فى زمانهم اهتماما باوجه النقص والظلم الذى اتسمت به النظم والمعتقدات الموجودة فى مجتمعاتهم .

بنـاء فوقيا ضخما من المفاهيم التى ليست لها قيمة وصفية ، ومن القضايا التى ليست لها قيمة تفسيرية ، ومن النمـاذج الضخـلة • فهذه المفـاهيم والقضايا والنماذج « تسهم فى وصف وتفسير العالم الواقعى الذى يشـغل اهتمامنـا »(٣٢) •

فالخصائص التى تميز النسق الاجتماعى هى خصائص اليوتوبيا • فالنسق الاجتماعى به اتفاق عام على القيم ، وهو بذلك لا يسمح أبدا بوجود الصراع ، فذلك الأخـير يتنـافى مع فكرة الاتفاق العام التى تعـد أسـاس الاستقرار النسقى • والشـخص الذى يبدأ الصراع فى النسق هو الشخص المنحرف والذى يشبه « الوغد » الذى يهدد السلام فى مجتمع اليوتوبيا • يتضح ذلك من تعريف بارسونز للانحراف بانه « ميل دائمى لفاعل معين لأن يسلك سلوكا مضادا لواحد او أكثر من النماذج المعيارية المتشكلة داخل النظم » ويواجه النسق ـ مثله مثل مجتمع اليوتوبيا تماما ـ هذا الانحراف بعملية التنشئة الاجتماعية ، والتعليم ، وتحديد الأدوار ، وتقسيم العمل ، وميكانيزمات الضبط الاجتماعى فالنسق فى التحليل الأخير يعتبر شـيئا مكتفيا ذاتيا ، متسقا فى داخليته ، مغلقا عن أى تأثيرات خارجية • ولقد ادت هـذه النظرة اليوتوبية الى فقـدان الاحسـاس بالمشـكلات الأمبيريقية الحقيقية ، كما ادت الى ان يرتبط علم الاجتماع بالاتجاه المحافظ(٣٣)•

وبناء على ذلك فانه لا بد من اعـادة صياغة النظرية السوسيولوجية لتخرج من عالم اليوتوبيا • فكيف السـبيل الى ذلك ؟ تجيب كلمـات دارندورف نفسها عن هـذا السؤال : « ان الطريق الى خارج اليوتوبيا يبدأ من خلال التعرف على الحقائق المثيرة للاهتمام فى الواقع الاجتمـاعى ومن خلال تناول المشكلات التى تفرزها هـذه الحقائق »(٣٤) واذا كان نموذج النسق لا يستطيع أن يؤدى هـذه المهمة ، فلا بد من نموذج بديل نستطيع من خلاله أن نتناول هـذه الخصائص وهـذه المشكلات • هـذا النموذج فى رأى دارندورف هو نموذج الصراع • فالى جانب كفاءته الأمبيريقيـة

---

(٣٢) Ibid., p. 214.
(٣٣) Ibid., p. 221.
(٣٤) Ibid., pp. 215—218.

لديه قدرة كبيرة على دراسة التغير ، فالصراع هو القوة الخلاقة التى تصاحب التغير(٣٥) .

ولكن رالف دارندورف ـ برغم تبنيه لنموذج الصراع ـ لا يتخلى عن نموذج التوازن . فالمجتمع فى نظره له وجهان متساويان : الأول يكشف عن الاستقرار والتآلف ، والاتفاق العام ، والثانى يكشف عن التغير والصراع والقوة ، « فليس بمقدورنا تصور الواقع تصورا حيقيا الا اذا وضعنا أيدينا على التفاعل الجدلى بين الثبات والتغير ، والتكامل والصراع »(٣٦) . فاذا كان علم الاجتماع قد اهتم لفترات طويلة بالتوازن ، فيجب ان نركز فى المستقبل على المشكلات التى يمكن ان تفسر فى ضوء القوة والصراع والتغير أى ان دارندورف اذا كان قد قبل نموذج التوازن ، فانه الح الى انه سيركز على نموذج الصراع الكفيل بأن يخرج نموذج التوازن من اطار اليوتوبيا . وهذا هو السبب فى أن دراساته كلها تركزت حول الصراع .

غير أن تكون نظرية فى الصراع لا يمكن أن يقوم بمعزل عن نظرية الصراع المسيطرة ، وأعنى الماركسية . لا بد من تفنيدها وتوضيح مظاهر الضعف فيها قبل تكوين النظرية الجديدة . وقد قام دارندورف بهذه المهمة فى نفس الكتاب الذى قدم فيه نظريته فى الصراع ، وأعنى كتابه « الطبقة والصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى »(٣٧) . فالنظرية الماركسية فى الصراع الطبقى لم تعد تتلاءم مع بناء المجتمعات الصناعية الحديثة . فقد تغير هذا البناء عن الوقت الذى كتب فيه ماركس . وقد أوضح دارندورف مظاهر التغير هذه والتى من أهمها : انفصال الملكية عن الادارة الذى أدى بدوره الى تقليل المسافة بين العامل والمدير ولخرج الملاك كلية من مجال الانتاج بحيث لم يعودوا يمارسون سلطاتهم الاستغلالية ، ثم تفتت وحدة الطبقة العاملة فلم يعد كل افراد البروليتاريا يشغلون

---

(٣٥) Ibid., p.225.

(٣٦) عبد الباسط عبد المعطى ، فى نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٣٢٠ .

(٣٧) R. Dahrendorf, Class and Class Conflict in Industrial Society, Routledge and Kagan Paul, First Published in 1957. Reprinted in London, 1972.

مكانة واحدة · ولهم اسلوب واحد فى الحياة ، ومصالح واحدة ، وانما اصبحوا يشغلون مكانات متعددة ولهم مهارات متعددة بحيث اصبحت مصالحهم مختلفة الى حد كبير ، ثم ما ترتب على ذلك من ظهور الطبقة الوسطى الجديدة ، وما يصاحب تطور المجتمع الراسمالى من حراك اجتماعى ومساواة ، الأمر الذى ادى الى توجه الأبنية الطبقية والصراعات الطبقية الى وجهات عجزت الماركسية عن رؤيتها ، واخيرا التشكل النظامى للصراع الطبقى داخل المجتمع الصناعى من خلال مشاركة العمال فى الادارة وانشاء لجان فض المنازعات الصناعية(٣٨) · كل هذه التغيرات اوجدت مجتمعا صناعيا يختلف عن ذلك الذى تحدث عنه ماركس ، مجتمعا يفرز مظاهر صراع مغايرة للأنماط التى اشار اليها ماركس · وهى مظاهر لا تميز المجتمع الراسمالى وحده وانما تميز المجتمع الصناعى اينما وجد ، ان لم تكن تميز المجتمعات الانسانية بعامة ·

يعنى هذا أن التغيرات البنائية التى طرات على المجتمع منذ ماركس لم تبعد الصراع كلية ، ولم تدعم مظاهر النظام داخله على حساب الصراع ، انها فقط أبعدت الصورة الماركسية منه(٣٩) · فاذا كانت الصورة الماركسية

---

(٣٨) Ibid., pp. 36—37.

ويجمع دارسو الصراع على هذه التغيرات التى ادت الى التخفيف من حدة الصراع · وهى تغيرات بعضها سياسى وبعضها الآخر تكنولوجى على راسها انشاء الشركات المساهمة ، والفصل بين الملكية والادارة وتكون طبقة الموظفين وتحسن ظروف العمال ، وتزايد عمليات التأميم ، وزيادة تدخل الحكومة ، ولا يعنى ذلك ان الصراع قد اختفى نهائيا ، وانما اضفت هذه التغيرات على الصراع طابعا جديدا وغيرت من موضوعاته واشكاله ، واساليب التعبير عنه انظر الفصل الممتاز الذى كتبه الدكتور محمد الجوهرى عن الصراع الصناعى فى المصدر التالى :

محمد الجوهرى ، مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى ، مرجع سابق ، صص ١٦٥ ـ ١٩٢ ·

(٣٩) لا يعنى ذلك أن دارندورف قد رفض الماركسية رفضا · لقد اشاد بفكرتين رئيسيتين فى الماركسية وابقى عليهما وهما : اولا فكرة التغير البنائى فاذا كان التغير الاجتماعى هو موضوعه الاجتماعى الأساسى فانه استخدم مقولة البناء الاجتماعى كاداة لتفسير نظريته فى التغير فلقد نجح ماركس فى أن يرجع الصراعات التى تؤثر فى التغير الى انماط من البناء الاجتماعى فالصراع · ابن بناء اجتماعى معين ، وخاصة بناء المجتمع

عن الصراع تظهره على انه يتولد اساســـا من علاقات الاســتغلال التى تمارسها طبقة مالكة لأدوات الانتاج على طبقة مسلوبة للقوة تعمل ولا تملك فان المجتمع الصناعى ـ كما يذهب دارندورف ـ يكشف الآن عن صــورة مغايرة للصراع حيث يتولد ذلك الأخير ، ليس من علاقات الانتاج وانما من علاقات السلطة ، ففى المشروعات الصناعية فى المجتمع الراسمالى او ما بعد الراسمالى يوجد افراد يفرض عليهم التحكم فى افعال الآخرين واصــدار الأوامرلهم ، وافراد يفرض عليهم عملهم ان يتركوا انفسهم لحكم الآخرين واطاعة اوامرهم · ويوجد الآن ومنذ مئات السنين مئات للحكومات ، ومئات المجالس التشريعية ومئات المحاكم يصدر أعضاؤها قرارات تؤثر على حياة المواطنين ويوجد فى نفس الوقت من المواطنين من يستطيع أن يحتج ويغير من صوته الانتخابى ولكن يظل دائما مطيعا للقانون · وبالدرجة التى توصف بها أى من هذه العلاقات بانها علاقات سلطة فاننى استطيع أن أجزم بالقول بان علاقات السيطرة والخضوع هذه قد ســادت التغيرات التى تمت فى القــرن المــاضى · بل اننــا نستطيع أن نذهب الى ابعــد من ذلك فنقرر أن نمط السلطة التى تمارس فى المجتمع الراسمالى هى نفسها التى تمارس فى المجتمع ما بعد الرأسمالى »(٤٠) ·

كما يتضح فى عبارته الســابقة انطلق دارندورف من علاقات الســلطة أو السيطرة فى تكوين نظرية عامة فى الصراع ، وقد قدم هــذه النظرية فى

=

الراسمالى وثانيا فكرة ســيادة نوع معين من الصراع فى أى موقف وهــو الصراع بين طبقتين فمهما يكن نقد هذه الفكرة فان أى موقف صراعى يتكون من طرفين والحقيقة أن نقــاط الالتقاء هــذه بين دارندروف وماركس ما هى الا نقاط شــكلية باعتراف دارندورف نفســه ، فالالتقــاء بينه وبين ماركس ينحصر فى انه نظر الى الصراع على أنه كامن فى بناء النظم وهو مصدر التغير فى كل شىء · وبعد ذلك يختلفان فى كل شــىء ·

انظر :

Ralf Dahrendorf, Class and Class Conflict, op. cit., pp. 119—120.

J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., pp. 115—116.

(٤٠) Ibid., p. 71.

كتابه السابق الاشارة اليه ولخصها فى مقال مشهور(٤١) • تعرف السلطة بانها « احتمال طاعة اشخاص معينين لقائد جماعة معينة » ويحوى هـذا التعريف المأخوذ من ماكس فيبر العناصر التالية :

١ ـ تتحدد السلطة من خلال علاقة التفوق والخضوع •

٢ ـ يحدد الجانب الأعلى للجانب الخاضع بعض مظاهر السـلوك فى صورة أمر او كبح •

٣ ـ يمتلك الجانب الأعلى الحق فى ان يحـدد هـذا السلوك فالسلطة هى علاقة شرعية بين السيطرة والخضوع •

٤ ـ حق اسـتخدام السـلطة مقصـور على جمـاعات معينـة واشخاص معينين •

٥ ـ يقابل الفشل فى اطاعة الأوامر بالجزاء ، فهناك نسـق قانونى (أو عرفى) يضمن استمرار تاثير السلطة •

من ذلك يتضح أن هنـاك لانفصـالا بين الأدوار الاجتمـاعية داخل الجماعات المنظمة وهـذا الانفصال يعد حقيقة من حقائق البناء الاجتماعى • فهنـاك أدوار عامة وادوار تملك حقوقا تمنحها السـلطة على الأولى • ولا نستطيع أن نشيد متصلا للانتقال التدريجى فى توزيع السلطة ، فعلاقات السلطة تكشف عن ثنائية حادة بالرغم من أن الواقع الاجتماعى يكشف عن تباين وتداخل بين الجماعات المسيطرة • فاينما وجدت جماعة منظمة يوجد نمطان من شاغلى الأدوار : شاغلى ادوار السيطرة الايجابية (اى المالكين لزمام السلطة) ، وشـاغلى ادوار السيطرة السلبية (اى المتمثلين للسلطة) وبين هـذين النمطين يتولد الصراع(٤٢) •

(أ) يكون شاغلو ادوار السيطرة الايجابية والسـلبية « شـعه

---

(٤١) R. Dahrendorf, Toward A general Tsory of Social Conflict, Reprinted in : Walter Wallance, (ed.) Sociological theiry op. cit.

(٤٢) Ibid., pp. 219—220.

جماعات ، لها مصالح كامنة متعارضة ، ترتبط مصلحة ادوار السيطرة الايجابية بالمحافظة على الوضع القائم ، بينما ترتبط مصلحة الأدوار الأخرى بتغييره .

(ب) ما تلبث ، شبه الجماعات ، هذه ان تتبلور فى جماعات منظمة كالأحزاب والنقابات ، وما تلبث المصالح الكامنة ان تتفتح وتصبح ظاهرة وتتبلور فى برامج وايديولوجيات .

(ج) تدخل جماعات المصلحة التى تتكون بهذه الطريقة فى صراع مضاد فيما يتعلق بالمحافظة على الوضع القائم او تغييره .

(د) ويؤدى الصراع بين جماعات المصلحة بهذا المعنى الى تغييرات فى بناء العلاقات الاجتماعية القائمة من خلال التغييرات التى تحدث فى علاقات السيطرة . أما نوع وسرعة وعمق هذا التغير فانها أمور تعتمد على ظروف التغير البنائى التى تختلف أمبيريقيا عن جماعة لأخرى .

ويتوقف تبلور الصراع بهذا الشكل على بعض الشروط (لظروف) الأمبيريقية فلا بد من توفر بعض الظروف الاجتماعية مثل امكان الاتصال بين الأعضاء لتكوين الجماعات ، وتوفر أساليب للتعبئة والامداد داخل الجماعات ولا بد من توفر بعض الظروف السياسية التى تعمل على ظهور جماعات المصلحة ، واخيرا لا بد من وجود بعض الشروط الفنية : مؤسس الجماعة ، وقائدها ، وايديولوجيتها(٤٣) .

ولقد كان دارندورف يتملك حساسية امبيريقية خاصة . فهو لا يهدف الى صياغة نظرية مجردة عامة تنفصل عن الواقع الأمبيريقى كالبارسونزية او الماركسية . ولكنه كان يهدف من وراء نظريته فى الصراع ان تكون اكثر قدرة على اثارة المشكلات الواقعية وتفسيرها ، وقد اعترف فى صدر كتابه « الطبقة والصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى » بان نظرية الصراع تنتمى الى النظريات الوسطى بالصورة التى قدمها بها روبرت ميرتون(٤٤) .

---

(٤٣) Ibid., p. 221.

(٤٤) النظريات الوسطى Middle Range Theories محاولة قدمها روبرت ميرتون لسد الفجوة بين التجريدات النظرية العليا والقضايا الأمبيريقية =

نظرية تتكون من « تعميمات نابعة من المشاهدات الملموسة وموجهة نحو تفسيرها »(٤٥) · وهـذا هو السبب الذى دفعه الى أن يدعم نظريته بالكثير من الوقائع الأمبيريقية نطبقها على الصراع الذى ينشـأ فى المشروع الصناعى، والصراع الذى ينشـأ فى الدولة الشمولية ·

والحقق أن نظرية دارندورف بالصورة التى عرضـناها بهـا تعـد اكثر محاولات الخروج من دائرة النظام جدية واصالة · ذلك انه وضع كلا من المـاركسية والبارسونزية على مستوى واحد هو اليوتوبيا · فكل نظرية منهما تعتبر يوتوبيا يجب على المختصين فى علم الاجتمـاع ان يتجاوزوها وأن يوجهوا دراساتهم وبحوثهم نحو صياغة نظرية جديدة أكثر تفسيرا للواقع · وفى محاولته لصـياغة نظرية جديدة اهتم دارندورف بالصراع الاجتماعى الذى اهمله دعاة النظام · ويكون بذلك قد نجح ـ على بساطة هـذا النجاح ـ فى الخروج من دائرة النظام ، غير أن هـذا الخروج من دائرة النظـام يقترن أيضـا بالخروج من دائرة نظـرية الصراع الأم ، واعنى المـاركسية · حقيقة انه قبل الشكل العام للصراع كما تصوره ماركس ، ولكنه فى ذات الوقت رفض مضـمونه ليقدم مضمونا جديدا استبدل فيـه الحتمية الاقتصادية بالحتمية السياسية · ومن هنا تميز فكر دارندورف : فلا نستطيع أن نجزم بأنه وظيفى ولا نستطيع أن نجزم بانه ماركسى · لقـد وضـع الوظيفيـة والمـاركسية على محك واحـد هـو تصـوريهما لمجتمع اليوتوبيا ·

=

الواقعية · فالنظرية الوسطى هى تلك التى تقع بين الفروض العاملة التى تظهر فى الممارسة اليومية ، والجهود المنظمة التى تحاول أن تطور نظرية عامة لتفسير مظاهر السلوك الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى والتغير الاجتماعى · وتكتسب النظرية الوسطى اهميتهـا من كونها اكثر قـدرة على تفسـير المشاهدات الواقعية وصياغتها فى قضايا قابلة للاختبار الأمبيريقى · ومن اهم النظريات المتوسـطة المدى فى رأى ميرتون نظـرية الجمـاعة المرجعية والحرمان النسبى ، ونظرية زمرة الدور Rol-Set .

(٤٥) انظر : R. Merton, Social Theory and Social Structure, Publishing Co. P.V.T. Ltd. New Delhi, New York, 1968, pp. 39—68
Ralf Dohrendorf, Class and Class. op. cit., p. X

ولكن ذلك لا يبعد عن دارندورف سهام النقد ، ذلك أن النموذج الذى قدمه لا يتميز برؤية محددة ، وانما يجمع بين عناصر التوازن والاستقرار ، وعناصر الصراع والتغير فهو لا يخرج عن كونه محاولة تاليفية ، ولكنها محاولة لا تقوم على اسس موضوعية • ذلك لأنه قبل بعض مقولات الوظيفية التى نقدها ، ورفض مضمون الماركسية رفضا ، ولم يقبل الا شكلها العام ، وأعنى تصور المجتمع على انه يحوى عمليات مستمرة من الصراع • فقد قبل دارندورف قضية التكامل وقضية الاجماع العام على القيم وهما قضيتان جوهريتان فى النظرية الوظيفية ، ثم ربطهما ببعض قضايا الصراع التى طورها والتى اهمها القضية التى تذهب الى أن الصراع ينشأ من عمليات التحكم والسيطرة التى يمارسها بعض الأفراد على البعض الآخر • ويدعونا هذا الى القول بان نقد دارندورف لماركس لا يخلو من بعض الظلال الأيديولوجية • فالتغيرات البنائية التى عددها فى المجتمع الغربى منذ ماركس وحتى الآن ، وتركيزه على ما يتميز به المجتمع الراسمالى من حراك اجتماعى ، يوحى بوجود خيوط تربط بين تفكيره وبين تفكير التطوريين المحدثين ، من امثال والت روستو ، الذين صوروا المجتمع الصناعى الحديث على انه يمر بمرحلة الاستهلاك الوفير تغيب فيه كل مظاهر الصراع الاجتماعى(٤٦) • والذى يدل على وجود هذه الخيوط أن دارندورف قد قدم آراءه لتغيير الماركسية والرد عليها ، وهى نفس المهمة التى قام بها التطوريون المحدثون من خلال كتاباتهم التطورية • الفرق الوحيد بين دارندورف والتطوريين المحدثين أن دارندورف قد قبل من ماركس فكرة الصراع قبولا شكليا بعد أن جردها من مضمونها الاقتصادى ، ثم كسا هذا المضمون الاقتصادى بمضمون سياسى عندما جعل من علاقات السلطة بؤرة الصراع الاجتماعى دون التركيز على أى مصدر آخر من مصادر الصراع وهو فى ذلك يكون قد انحاز فى صف الوظيفية على حساب الماركسية •

ولقد قام فان دن برج Van Den Berge بنقد نظرية دارندورف وقدم على اثر هذا النقد صورة للتاليف بين الهيجلية الماركسية وبين

---

(٤٦) عن الاتجاه التطورى المحدث ، انظر السيد الحسينى ، اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية ، فى السيد الحسينى وآخرين ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، مرجع سابق ص ٦٤ ـ ٧٣ •

البنائية الوظيفية • اعتقد فان دن برج ـ خلاف ما ذهبت فى عرضى لآراء دارندورف ـ(٤٧) الى أن دارندورف قد تحيز فى صف الجدلية ضد الوظيفية • فقد اعتبر أن كلا الاتجاهين مكمل للآخر (على ما بهما من نقاط قصور) غير أنه ربط نفسه بمحاولة تطوير جانب معين من نظرية الصراع ، وهو الصراع الطبقى الذى يعتبر حالة خاصة من نموذج الصراع الشامل • لقد رفض دارندورف تعريف ماركس للطبقة كما تتحدد من خلال علاقتها بقوى الانتاج ، واستبدله بتعريف للطبقة بناء على التوزيع غير العادل للسلطة • وبناء على ذلك اشتق نموذجا ثنائيا للصراع الطبقى ، ولكنه لم يطبقه على المجتمع ككل مثلما فعل ماركس وانما طبقه على الجماعات المنظمة داخل المجتمع ، والمجتمع يصبح بذلك حشدا كبيرا من الثنائيات الطبقية التى تتبلور حول النضال من أجل السلطة • وصب فان دن برج نقده على فكرة الصراع على السلطة وفكرة ثنائية الصراع على أساس أن الأولى ما هى الا مصدر واحد من مصادر الصراع ، وان الثانية توقعه فى نفس المأزق الماركسى الخاص بمعالجة الجماعات الوسيطة • فالسلطة ـ اذا كانت مصدرا للصراع ـ لا تبطل مفعول العوامل الأخرى للصراع ، وهى ليست سابقة على هذه المصادر • والاستقطاب يعد اتجاها امبيريقيا وليس شرطا ضروريا للصراع(٤٨) •

ولكن ما هو البديل الذى قدمه فان دن برج لنظرية دارندورف • فى مقاله المشار اليه هنا حاول برج أن يستخلص من كل من البنائية الوظيفية والهيجلية الماركسية صورة دقيقة خالصة من كل أوجه النقد الذى وجهه لها ووجهه كثيرون غيره ، لكى يقيم بينها تآلفا نظريا • واذا كانت الوظيفية

---

(٤٧) ما زلت أؤكد أن دارندورف انحاز الى الوظيفية ضد ماركس ، فنقده للماركسية يدل على أنه قبل كل مسلمات الوظيفية حيث نقد الماركسية من منظور وظيفى • ولم يأخذ من الماركسية الا فكرة الثنائية وفكرة بنائية الصراع وعندما قدم بديله فى الصراع قلب جوهر الماركسية رأسا على عقب دون أن يقدم أى مبرر على أسبقية الصراع على مصادر السلطة على الصراع على علاقات الانتاج الذى يعد جوهر المفهوم الماركسى •

(٤٨) Pierre Van Den Berghe "Dialectic and Functionalism Toward A Theoretical Sunthesis. A.S.R., October, 1963, Reprinted in : Walyer Wallence, Sociological Theory, op. cit., pp. 207—208.

تنحصر في اربعة قضايا رئيسية هي : الكلية ، وتعدد العلية وتبادلها ، والاجماع على القيم ، والتوازن الدينامى ، فان برج قبل قضية الكلية وتعدد العلية لكي لا يقع فيما وقع فيه الأنثروبولوجيون الانتشاريون من نزع العناصر من سياقها الثقافي فيما يتعلق بقضية الكلية ، ولكى لا يقع في أى من نقاط ضعف الحتميات ذات الجانب الواحد فيما يتعلق بقضية تعدد العلية • ثم رفض قضية الاجماع على أساس أنها قيدت الوظيفية عن رؤية الصراع • أما القضية الأخيرة المتصلة بالتوازن الدينامى فقد حاول برج أن يخلصه من مظاهر ضعفه : فنموذج التوازن اذا كان يستطيع ان يفسر ثلاثة مصادر للتغير هى التكيف مع التغيرات الخارجية ، والتباين البنائي الوظيفى ، والاختراعات والتجديدات التى يقدمها الأفراد والجماعات داخل المجتمع • الا أنه لا يستطيع أن يفسر مصادر أخرى مثل الصراع بين عناصر النسق والذى يؤدى الى الثورة ، والصراعات والتناقضات الداخلية • فاذا استطاع نموذج التوازن أن يستوعب هذه المصادر للتغير فانه يكون نموذجا معدلا يقبله فان دن برج • وبهذا تكتمل الصورة الدقيقة التى استخلصها برج من الوظيفية فى نموذج التوازن الذى يستطيع ان يفسر كل مظاهر الصراع السابقة فى اطار الكلية وتعدد العلية(٤٩) •

أما الاتجاه الجدلى الهيجلى فانه يعانى من نقطتى ضعف رئيسيتين هما ادعاءه بأن العملية الجدلية هى المصدر الرئيسى للتغير ادعاء غير منطقى لأنه يهمل عملية التباين والتكيف مع التغيرات الخارجية • ثم النظرة الثنائية الى الواقع الاجتماعى : فالصراعات والتناقضات تستقطب فى أزواج من الأضداد وبعد التخلص من نقطتى الضعف هاتين ، استخلص برج الصورة الدقيقة للهيجلية الماركسية التى يمكن الاستفادة منها فى عملية التآلف النظرى ، والتى تنحصر فى قضيتين رئيسيتين : النظر الى البناء الاجتماعى لا على أساس أنه اطار ثابت فحسب ولكن على أساس أنه مصدر حاسم للتغير • يظهر التغير من داخل النسق التناقض والصراع بين عاملين متعارضين أو أكثر ، وهذه العوامل يمكن أن تضم القيم ، والأيديولوجيا الدينية والثقافية والأدوار ، والنظم والجماعات(٥٠) •

---

(٤٩) Ibid., pp. 202—205.

(٥٠) Ibid., pp. 205—207.

بعد أن توصل برج الى هاتين الصورتين الخالصتين من أى نقد حاول أن يوجد قدرا من التآلف النظرى بينهما • ويقرر بداءة أن هذا التآلف لا يعنى أن كل نظرية تكمل النظرية الأخرى فقط ، ولكن يعنى أيضا أن هناك مجالات للالتقاء والتداخل فيما بينها • تتجلى هذه المجالات فيما يلى(٥١) •

١ ـ أن كل اتجاه من هذين الاتجاهين كلى ، بمعنى أنه ينظر الى المجتمعات كأنساق تتألف من عناصر مترابطة • حقيقة أن النظرة الكلية تختلف بين الاتجاهين خاصة فكرة العلية • الا أن كلا الاتجاهين يميل الى التأكيد على العلاقة المتبادلة ، والى تقليل درجة التجزىء الممكنة داخل النسق • كما أن النظرة الكلية للوظيفية يمكن أن تتصور انساقا فرعية غير مترابطة من الناحية الوظيفية ومتعارضة من الناحية البنائية غير انها متداخلة لأن هناك بعض العناصر المشتركة بينها ـ وهكذا يحوى مبدأ التكامل فى الوظيفية جدليته الخاصة •

٢ ـ يمكن أن نتصور دورا مزدوجا لكل من الصراع والاتفاق العام فاذا كانت الوظيفية تجعل الاتفاق العام بؤرة هامة فى الاستقرار فان نفس هذا الاتفاق قد يولد الصراع • واذا كانت الماركسية تجعل الصراع مصدرا لعدم التكامل والتغير الثورى ، فان للصراع نفسه قد يكون وظيفيا يحقق التكامل • فى هذه الحالة نجد أن كلا من الصراع والاتفاق العام مفيد فى تحليل التعارض والصراع ، ويمكن استخدام مفهوم الصراع فى تحليل التكامل والتوازن •

٣ ـ تشترك كل من الوظيفة والجدلية فى نظرة تطورية للتغير الاجتماعى فالعملية الجدلية عند كل من هيجل وماركس تعنى صعودا حلزونيا تجاه التقدم فالمفهوم الوظيفى عن التباين ينمو نموا تطوريا فى التعقد البنائى والتخصص الوظيفى • حقيقة أن رؤية التطور هنا غير رؤيته هناك • ولكن ذلك لا يمنع وجود عنصر مشترك بينهما ينحصر فى أن كلا منهما تذهب الى أن مرحلة معينة من النسق الاجتماعى تضع فى اعتبارها كل المراحل السابقة وتحتويها فى شكل معدل •

---

(٥١) Ibid., pp. 208—212.

٤ ـ تقوم كل نظرية رئيسية على فكرة التوازن ، ولذا كانت فكرة التوازن واضحة للعيان فى الوظيفة ، فان سياق الفكرة ونقيضها والتآلف بينهما فى الاتجاه الجدلى يتضمن أيضا فكرة التوازن على أساس أن التآلف يعتبر حلا للتناقض بين الفكرة ونقيضها ٠

ولا أستطيع أن أصف آراء برج التى عرضناها هنا الا انها محاولة لادماج الماركسية داخل فكرة التوازن الوظيفية ٠ فمنذ البداية يتضح تحيزه للوظيفية حيث عرضها باستفاضة وأكد أنه سوف يوضح أنها « ليست أسطورة ولكنها اتجاه هام فى فهم الواقع الاجتماعى »(٥٢) ٠ وعندما اتجه الى الجدلية كان نقده واضحا ـ وقاسيا ـ منذ البداية ٠ ويتضح ذلك فى عباراته نفسها حيث يقول : « لنتجه الآن الى الجدلية ونرى ما اذا كانت تستطيع أن تكون نظرية اجتماعية »(٥٣) ٠ ويقول فى نفس الفقرة « وليس هنا مكان لنقد الجدلية المادية أو الهيجلية المثالية ، فهذه المهمة قام بها عدد لا يحصى من الأفراد ، كما أنه لا جدوى من ضرب الشاة بعد ذبحها » ، ولذا قارنا بين بداية حديثه عن الوظيفية وبداية حديثه عن الجدلية لاتضح مدى تحيزه للوظيفية ولكن هناك أشياء أخرى تدعم هذا التحيز منها :

١ ـ أنه عندما نقد الوظيفية « يكاد يكون قد قبل كل قضاياها بعد تعديل بعضها ٠ واذا كان يتضح لنا من النقد أنه رفض قضية الاتفاق العام ، فانه فى مشروعه التاليفى قد جاء بهذه القضية مرة أخرى وجعلها جزءا من عملية التآلف النظرى ٠ ويكاد يكون نموذجه التاليفى هو نفس الصورة للحقيقة للوظيفة التى استخلصها من نقده لها ٠ وعندما نقد الجدلية لم يقبل منها الا قضية الصراع ، وقضية للتغير وقبولهما هو قبول شكلى فقط حيث لم يظهر فى مشروعه التاليفى أى اشارة الى الصراع بالمفهوم الماركسى او التغير بالمفهوم الماركسى ٠

٢ ـ أن مشروعه التاليفى هو نفس القضايا الوظيفية مع تعديل بعضها أنه يتصور أن قضايا نظرية الصراع يمكن ردها الى هذه القضايا ٠ أو ان هذه القضايا يمكن ان تفسر الصراع وفى كلا الحالين فانه يظهر ميلا لاستبعاد

---

(٥٢) Ibid., p. 22.
(٥٣) Ibid., p. 25.

نظرية للصراع · هذا فضلا عن انه لم ياخذ الصراع ماخذا ماركسيا لأنه : اولا : رفض ثنائية الصراع بالمعنى الماركسى ، وثانيا : عـدم الاشارة الى مصدر للصراع بالمعنى الماركسى · فالوظيفة كلية بالمعنى الماركسى وقضية الاتفاق العام فيها يمكن أن تفسر الصراع · فالاتفاق قد يولد الصراع كما انه يمكن أن يتجاوز معه · وقضية التوازن المعدلة تستطيع أن تفسر التفسـير الناتج عن الحلقة المفرغـة من التكامل والتغـير الثورى · واخـيرا تكشف الوظيفية عن نظرة تطورية مثلها مثل المـاركسية ·

٣ ـ أنه قد فهم التوازن فى المفهوم الماركسى فهما خاطئا · فقد فهمه على انه توازن بعيد المدى يخلق من التآلف بين الفكرة ونقيضها ، او الشىء ونقيضه اذا شئنا انتقالا الى العالم الاجتماعى · غير ان التوازن فى المـادية التاريخية يعد استثناء لقاعدة اساسية هى التنـاقض والصراع والحركة والتغير والتطور التقدمى · وأن هـذا التوازن مؤقت ونسبى فى استقراره ولستمراره · فتوازن علاقات الانتاج أكثر من توازن قوى الانتاج ، وتوازن علاقة بناء المجتمع ببيئته أكثر من توازن علاقة مكونات هذا البناء ، وتوازن شكل الظاهرة أكثر من توازن مضمونها · ومن خصائص التوازن انه جدلى يؤثر ويتاثر ، وأن المكونات المتوازنة تعيش حالات من التوازن والتناقض ووحدة وصراع الأضداد ، وهدف التوازن اعادة الأحوال الى سـبق عهدها ، بل هو يقدم شكلا من المجتمع مغايرا للشكل الأول · واخيرا يولى التوازن بالمفهوم الجدلى للتناقضات الداخلية دورا كبيرا من التناقضات الخارجية ومن هنا يكون التوازن فى المـادية التاريخية مختلفا عن التوازن فى البنائية الوظيفية(٥٤) · ومثل ذلك يمكن ان يقال عن الخلط بين فكرة التطور بالمعنى المـادى الجدلى وبين فكرة التطور بالمعنى الوظيفى بذلك لا يكون بيرج قـد خرج من اطـار الوظيفية وانه ينتمى الى نفس الاتجـاه الذى ينتمى اليه دارندورف وبيرسى كوهين ولوكود وكوزر ·

---

(٥٤) انظـر : عبـد الباسط عبد المعطى ، فكرة التوازن فى المـاديه التاريخية ، مقال فى كتاب **دراسات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيـا** ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٥ ، صرص ٦٤ ـ ٨١ خاصة ص ٧٥ ، ص ٨٠ ·

رابعا ـ التوازن والصراع فى بعض البحوث الأمبيريقية :

ذكرت فى موضع لاحق انه من أحد تاثيرات محاولة تناول فكرة الصراع وربطها بفكرة النظام لثراء البحث الأمبيريقى لدى بعض المؤمنين بهذه الفكرة نظريا • فقد رأينا فى الفصل الرابع مدى التاثير الضاق لفكرة النظام على البحث الأمبيريقى ، حيث اجتهد الأمبيريقيون فى تدعيم نظريته ومستويات التكامل فيها بكم هائل من البيانات والملاحظات الأمبيريقية الكمية والكيفية المستقاة من مجتمعات عديدة ومن مجالات عديدة • ولكن بعد أن بدأ الاتجاه الذى وسمته « بمحاولة الخروج من دائرة النظام » ياخذ مكانة واضحة المعالم بين الاتجاهات المختلفة فى علم الاجتماع ، بدأ جماعة من الأمبيريقيين يفسحون فى أبحاثهم مجالا لدراسة الصراع والتغير بجانب دراستهم للتوازن والاتساق • غير أن ذلك لم يقلل من طغيان الاتجاه الأول وسيطرته واستمراريته • فرغم ما ظهر من اتجاهات نقدية فى علم الاجتماع الغربى ، الا أن النظرية المرتبطة بالنظام ـ على اختلاف مسمياتها ـ البنائية الوظيفية نظرية التكامل ، ما تزال مسيطرة على مقررات البحث فى هذا العلم• ولا شك أن ذلك يؤدى الى استمرار الحركة الأمبيريقية المدعمة لها على ما رأينا فى الفصل الرابع • وفى هذه الفقرة نعرض ـ باختصار ـ لنماذج من البحوث الأمبيريقية التى تاثرت « بمحاولات الخروج من دائرة النظام » •

ربما كان مجال دراسة التنظيمات هو ارحب المجالات التى استقطبت علماء الاجتماع الأمبيريقيين لأسباب ذكرت بعضها فى الفصل الرابع ولذلك كانت من أول المجالات التى اختبرت فيها نظرية الصراع فى علاقتها بنظرية النسق أو التوازن • وقد قام بالمحاولات المبكرة فى هذا الصدد اصحاب هذه الفكرة أنفسهم امثال دارندروف ولوكود على ما رأينا • ثم استمرت بعدهما عملية اختبار هذا الاتجاه فى مجال التنظيمات •

من أول الدراسات التى حاولت بحث الصراع فى مجال التنظيم دراسة ملفيل دالتون Dalton التى أجراها على ستة تنظيمات صناعية أمريكية مستخدما أداة الملاحظة بالمشاركة(٥٥) أوضح دالتون أن الزمر والجماعات

---

(٥٥) M. Dalton, Man Who Manage, New Yirk, 1959.
وقد اعتمدت فى عرضها على المصدر التالى : السيد الحسينى ، **النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم** ، مرجع سابق ص ٢١٧ • ص ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ •

غير الرسمية تنمو فى التنظيم لا بسبب التوجيهات التى يحصل عليها الأفراد من خارج التنظيم • بل بسبب طبيعة الأوضاع الاجتماعية المختلفة التى يشغلونها فى البناء الاجتماعى للتنظيم • فهناك فروق فى العمر ، والقدرات الفردية ، والتوقعات تجعل الناس ينظرون الى عملهم بطريقة مختلفة • هذا فضلا عما يخلقه تقسيم العمل من تصورات مختلفة فى المصالح ومن خلال ذلك ابرز دالتون الصراع الذى ينشأ بين الجماعات المختلفة داخل التنظيمات والذى يزكيه السعى المستمر من اجل الحصول على مزيد من القوة والسيطرة وضمان الحصول على القسط الأكبر من مكافآت التنظيمات •

ومن الدراسات فى مجال التنظيمات الدراسة التى اجراها هنرى اسل Assael على خمسة تنظيمات لصناعة السيارات فى مدينة نيويورك(٥٦) وقد حاول اسل فى هذه الدراسة ان يوضح الظروف البنائية التى تجعل الصراع بين التنظيمات وظيفيا ومعوقا للوظائف • وتوصلت الدراسة الى ان الصراع يكون وظيفيا اذا كان بناء التنظيم مرنا • ومن المؤشرات التى تدل على مرونة البناء : الاتصال المؤثر بين اطراف الصراع ، والتوزيع المتساوى للمصادر النادرة التى يحاول كل طرف ان يحصل عليها ويحرم الآخر منها ، وتقنين وسائل حل الصراع وتحديدها سواء بالاتفاق والتراضى ، او بالتنادل او بخلق توازن للقوة داخل النسق •

وقد امتد تاثير هذا الاتجاه فى دراسة التنظيمات الى خارج المناطق التى ظهر فيها • فقد اجرى السيد الحسينى دراسة على تنظيمين مصريين تنتمى ــ بوضوح منقطع النظير ــ الى الاتجاه الذى يربط بين الاستقرار والتغير ، والاتساق والصراع نظريا وامبيريقيا(٥٧) وتحوى الدراسة الى

---

(٥٦) H. Assael, "Constructive Role of Inter-organizational Conflict, A.S.Q. No. 4, 1969 pp. 573—582.

وقد اعتمدت فى عرضها على المصدر التالى : عبد الباسط عبد المعطى ، **فى نظرية علم الاجتماع** ، مرجع سابق ، ص ١٧٩ ويلاحظ على هذه الدراسة تاثرها البالغ بآراء كوز (حيث يعتبر الصراع وظيفيا) ولوكود (حيث يظهر ان للصراع مصدره التنافس حول المصادر النادرة) ودارندورف (فى وسائل حل الصراع) •

(٥٧) السيد الحسينى ، **النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم** ، **مرجع سابق** ، وقد نشرت نتائج هذه الدراسة فى مقال بالانجليزية انظر :

جانب الاسهام الامبيريقى اسهاما نظريا طوره الباحث من نقد مستفيض للنظريات الكلاسيكية من دراسة التنظيم (ماركس ـ فيبر ـ ميشيلز) والاتجاهات النظرية الحديثة (البنائية الوظيفية ، واتجاه النسق الفنى ، والاتجاه النفسى الاجتماعى) وما ارتبط بهما من بحوث امبيريقية يتمثل هذا الاسهام فى رؤية التنظيم « بوصفه مزيجا من عناصر تدعيم التوازن والتكامل وعناصر تعبر عن جوانب الصراع والقوة والتغير مع منح العناصر الأخيرة مزيدا من الاهتمام والتخصيص »(٥٨) « فالتنظيم يمثل نتاجا لأبعاد بنائية ومتغيرات اجتماعية لا تكف جميعها لحظة عن التغير »(٥٩) .

يكشف النصان عن محاولة لتطوير نظرية النسق فى البنائية الوظيفية فلقد أدرك الحسينى من خلال نقده للنظريات المعاصرة فى التنظيم أن هذه النظريات قد أهملت البحث فى الظروف التاريخية التى مرت بها التنيظمات والأوضاع الاجتماعية التى تمارس وظائفها فى ظلها ، الى جانب اهمالها لمشكلات الصراع ومشكلات توزيع القوة ومشكلات التغير .

وما هنا جاء الاسهام النظرى الذى قدمه ليحوى هذه الأمور الثلاثة التى أهملتها النظريات المعاصرة . ولكن ما رؤيته لهذه المشكلات ومن أين استقى افكاره فى تاصيلها ؟ اذا أجبنا على هذا السؤال اتضح لنا أصالة هذا الاسهام وجدته . ان رؤيته لهذه المشكلات واضحة ، فالتنظيم هو بناء غير منفصل الأجزاء غير مقطوع الصلة بالسمات التنظيمية والأبعاد التاريخية التى يمر بها المجتمع الذى يوجد فيه هذا التنظيم والبنـاء التنظيمى ليس ثابتا ومستقرا فقط ، ولكنه يكشف عن مستويات عديدة من الصراع بين جماعات العمل المختلفة وبين الجماعات ذوى المصالح المختلفة ، وبين الادارة والعمال ، وبين النقابة والادارة ، وبين المصالح الادارية المختلفة ... الخ ويؤدى هذا

= Sayed El Hussein, "Organizational Dynamies" A comparative Saudy of Two Egyptian Industrial Organizations Die Dritte Welt, No. 2 1975.

(٥٨) المرجع السابق ص ٢٣٦ .
(٥٩) نفس المرجع ص ٢٣٧ .

الصراع الكامن فى التنظيم الى أن يعيش التنظيم سلسلة متصلة للحظات من التغير • أما عن المصادر التى استقى منها هذه الأفكار فتنحصر فى مصدرين :

١ ـ الاستفادة من القضايا الكلاسيكية التى اثارها كل من ماكس فيبر وماركس وميشيلز والتى اهتمت بفهم التنظيم فى ضوء الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى شهدتها المجتمعات الصناعية الرأسمالية والتأثير الذى تمارسه التنظيمات على بناء القوة فى المجتمع وعلى جوهر حرية الانسان وصميم وجوده •

٢ ـ الاستفادة من بعض الرؤى الحديثة التى ربطت التنظيم ببنائه ، وحاولت دراسة مشكلات القوة والصراع فيه • وهنا وجدت الدراسة عناصر تقدمية فى أعمال سيجفريد ناديل Nadel الذى اهتم بدراسة القوة من خلال متغيرات للسيطرة والخضوع والتبعية والسمو والدونية والتنسيق • وفى أعمال دالتون Dalton وكوزييه Corzier وسايلز Syles وكلها دراسات ادركت اهمية البناء السياسى فى التنظيم وما يترتب عليه من صراع بين جماعات المصالح المختلفة • هذا فضلا عن أعمال جيس برنارد Bernard ورينهارد بندكس Bendix ورالف دارندورف وسيمور ليبست Lipset وكولاجا Kolaga والفن جولدنر ، اينما تأثرت هذه الأعمال بالتحرر من اسر قضية التناغم الوظيفية •

والحقق أن هذه المصادر قد حررت الباحث من الحدود التى تفرضها نظرية النسق بحيث اصبح مفهوم النسق عنده مفهوما أكثر مرونة وأكثر استيعابا لعناصر الصراع والتغير ، هذا فضلا عن أنها حررته من كل المثالب التى وقع فيها انصار الاتجاه التوفيقى من امثال دارندورف ولوكود والذى تمثل فى قبول شكل التفكير الماركسى دون جوهره وفى الاهتمام بعناصر الصياغة النظامية للصراع فى المجتمع الصناعى الحديث • وهذا هو الذى جعلنى اعتبر هذه الدراسة اسهاما نظريا لا يخلو من اصالة واستقلال • فرغم انتمائها الى « محاولات للخروج من دائرة النظام » التى ناقشناها فى هذا الفصل ، الا ان الفكرة التى تقوم عليها تختلف بقدر عن التيار

الرئيسى لهـذه المحاولات • ويتمثل هـذا الاختلاف فى رجعتها الأصيلة الى القضايا الكلاسيكية فى مضمونها ولبس فى شـكلها ، الى جانب تحـررها الواضح من أسر التفكير الغربى المحافظ •

الى جانب هذا الاسهام النظرى قدمت لنا دراسة الحسينى اسهاما منهجيا أمبيريقيا تمثل فى عنصرين رئيسيين : الأول : التغلب على معضـلة المنهج فى دراسة التنظيمات وذلك بالجمع بين منهج دراسة الحالة الذى يتيح لنا رؤية نفاذة الى واقع التنظيم وبنائه وبين المنهج المقارن الذى يتيح قدرا من التقييم ، والفهم العميق على مستوى التنظيمات ككل ، فيما اسماه المقارنة المحدودة • وهذا المنهج يتيح لنا الى جانب تفادى نقاط القصور التى يقع فيها منهج المقارنة ومنهج دراسة الحالة كمنهجين منفصلين ، التعمـق فى القضايا التى يحويها الاطار النظرى الذى طوره • فأى من المنهجين وحـده لا يستطيع دراسة هذه القضايا • والثانى : اختبار الاطار النظرى ـ ومن خلال المنهج المقترح ـ فى دراسة تنظيمين صناعيين مصريين ، وتوصل الباحث من خلال دراسته الأمبيريقية لهذين التنظمين الى مجموعة من النتائج قدمت تدعيما امبيريقيا اوليا لاطاره النظرى • تنحصر هذه النتائج فيما يلى :

١ ـ أن ديناميات التنظيم فى المجتمع المصرى تتحدد اساسا من خلال الاطار الأيديولوجى السائد فى هذا المجتمع كما تتحـدد من خلال الظروف التاريخية التى يمر بها كل تنظيم على حدة • فقد اتضح أن الظروف البنائية (الداخلية والخارجية) والتى تمثلت فى تغيرات بنائية عبر قرنين من الزمان كان لها تاثير ملحوظ على ديناميات التنظيم فى كلا التنظيمين • ففى التنظيم الأول ـ وهو تنظيم قديم مر بمرحلة التأميم ـ خلقت التغيرات البنائية فى نمط الملكية داخله حالة من الأنومى بين العمال ، وظهرت صراعات بين الادارة والعمال أذكتها احداث بنائية داخل التنظيم نفسه بسبب فشله فى تحقيق ارباح عام ١٩٦٩ الأمر الذى جعـل الادارة تتبنى استراتيجية قائمـة على الضبط المطلق أما التنظيم الثانى ـ وهو تنظيم حديث أسس بعد الثورة ـ فيكشف عن ديناميات تنظيمية مختلفة اوجد الباحث قدرا من الارتباط بينها وبين الظروف البنائية للمجتمع والتنظيم نفسه • فالصراعات والتغيرات فى هذا التنظيم وكذلك علاقات السلام والتناغم بين جماعاته ليست ناتجة عن

القسر والضبط كما فى التنظيم الأول ، وانما تنتج عن ظروف مجتمعية مغايرة : خضوع التنظيم لادارة مركزية ، واعتماده فى مصادره وتسويق انتاجه على مصادر خارجية الأمر الذى يجعله يتأثر بالضغوط الاقتصادية وعدم الاستقرار فى العلاقات الاقتصادية بين الدولة والقوى العالمية .

٢ ـ تخبر التنظيمات صراعات وتغيرات من نوع مختلف الى حد ما . ففى التنظيم الأول تلعب المصالح الطبقية دورا بالغا بسبب ظروفه التاريخية أيضا . ففى مجال الضبط هناك « الآمرون » و « المأمورون » ، وفى مجال الاتصال هناك الذى « يعطى » والذى « يستقبل » وفى مجال الأهداف هناك أهداف متعارضة تعبر كل منها عن مصالح متعارضة . وفى التنظيم الثانى نجحت الادارة فى اخفاء الصراع بين الطبقات وجماعات المكانة المختلفة . ولكن ذلك لا يعنى أن المديرين قد حلوا التناقضات الداخلية بين الجماعات حلا كاملا فغالبا ما يظهر ضرب من الصراع فى اثناء التحولات التكنولوجية وفى التكامن مع مثل هذه الصراعات فان المديرين يشعرون بمركز القوة اذا ما ربطوا بين ايديولوجيتهم والأيديولوجية الرسمية للدولة .

٣ ـ رغم ما تؤدى اليه الديمقراطية من توازن فى بناء التنظيم ، الا أن الواقع المعاش فى كلا التنظمين قد كشف بجلاء عن قصور الممارسات الديمقراطية عن تحقيق أهدافها . فبدلا من أن تعبر الممارسات الديمقراطية عن العمال وصغار الموظفين أصبحت واجهة تخفى وراءها سيطرة تكنولوجية مطلقة .

٤ ـ تختلف مصادر التغير فى كلا التنظيمين ، ففى التنظيم القديم تعد الصراعات التى تنشأ بين الادارة وصغار الرؤساء من ناحية والعمال من ناحية أخرى هى المصدر الرئيسى للتغير الذى كان بطيئا ضيق النطاق ، أما مصدر التغير فى التنظيم الثانى فهو الظروف التكنولوجية المتغيرة والضغوط الاقتصادية والسياسية التى تعرضت لها الادارة الاقليمية .

٥ ـ أن العلاقة بين الأهداف التنظيمية العامة والأهداف التنظيمية الخاصة ، وكذلك العلاقات التى تعترض تحقيق الأهداف ترتبط بالظروف السياسية والاقتصادية والادارية والتكنولوجية السائدة فى التنظيمين .

هذه هى أهم النتائج التى توصلت اليها الدراسة وهى تعبر عن امكانية صدق الاطار النظرى الذى اتخذه الباحث فى دراسة التنظيمات • ويتضح من النتائج مدى أهمية هذا الاطار للنظرى فى الكشف عن العلاقة بين البناء الاجتماعى والأيديولوجية السياسية وبين التنظيمات القائمة ، الأمر الذى يحتم رفض النظريات الغربية المطلقة فى دراسة التنظيمات الخاصة فى المجتمعات النامية التى تختلف فيها ظروف هذه التنظيمات من حيث الملكية ونمط التكنولوجيا عن التنظيمات الغربية ، بذلك تكون الدراسة ـ الى جانب هذا الاسهام النظرى والمنهجى ـ قد قدمت اسهاما نقديا يتمثل فى عدم قدرة النظريات الغربية على فهم بناء الدول النامية • غير أن ذلك لا ينفى بطبيعة الحال أن هذه الدراسة تكشف عن تأثر واضح بالتراث النظرى الذى ناقشناه فى هذا الفصل ، يتضح فى محاولة الدراسة الربط بين النظام والصراع فى آن •

خاتمة :

عرضت فى هذا الفصل لمحاولات الخروج من دائرة النظام العام فى علم الاجتماع • واذا كنا نعتبر أن هذه الاتجاهات اتجاهات نقدية مبكرة حاولت أن تفند النظريات التى تسعى الى تدعيم الاستقرار والتوازن فى المجتمع ، فان ذلك لا يعنى انها اندفعت بعيدا عن نظريات التوازن هذه • غير أن ذلك لا يقلل من أهمية هذا الاتجاه كرؤية نقدية مبكرة ، فضلا عن اسهاماته المنهجية والامبيريقية التى اشرنا الى جانب منها • ترى الى أى وجهة اتجه علم الاجتماع بعد ذلك ؟ وما هى التغيرات التى طرأت على بنائه النظرى من جراء هذا الالتزام بقضية النظام العام فى المجتمع ؟ لنتتبع القصة فى الباب الثانى من هذا الكتاب •

الباب الثانى

اتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع

الفصل السادس : الاطار الفكرى والبنائى للاتجاهات النقدية ٠

الفصل السابع : رايت ميلز : الاتجاه النقدى المبكر ٠

الفصل الثامن : حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع
الفن جولدنر والنقد السوسيولوجى ٠

الفصل التاسع : حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع
امتدادات رايت ميلز فى التراث المعاصر ٠

الفصل العاشر : البدائل النظرية والاحياء الفينومينولوجى ٠

الفصل الحادى عشر : مناقشة ووجهة نظر ٠

الفصل السادس

الاطار الفكرى والبنائى للاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع

مقـــــدمة :

ذكرت فى مكان سابق أن التحليل سوف لا يقتصر على سرد النظريات أو الاتجاهات ، وانما سيمتد الى الأطر البنائية والفكرية التى يكشف عنها الواقع الامبيريقى ، وذلك انطلاقا من مسلمة معرفية مؤداها أن أى ضرب من ضروب التنظير أو التفكير ما هو الا انعكاس لواقع بنائى معين بما يغلف هذا الواقع من تيارات ايديولوجية · واذا كانت النظريات التى عرضناها فى القسم الأول من هذا البحث قد عكست واقعا معينا وتيارا ايديولوجيا معينا ، فان الاتجاهات النقدية التى تصدت لهذه النظريات قد ظهرت كانعكاس لواقع مختلف وتيارات فكرية مختلفة · ولم تظهر هذه الاتجاهات النقدية فى مجتمع مغاير للمجتمع الذى تسود فيه الاتجاهات القديمة المرتبطة بالنظام ، وانما ظهرت داخل المجتمع ذاته · وفى هذه الحالة تثور فى أذهاننا أسئلة كثيرة حول طبيعة القوى والتيارات الفكرية التى أفرزت هذه الاتجاهات النقدية · وتقودنا هذه التساؤلات عن التساؤل عن طبيعة التغير فى الحياة الاجتماعية ، وما يرتبط بهذه الحياة من أفكار ونظريات ·

المحقق أن أى تغير ما هو الا رد فعل للتناقضات التى يكشف عنها الواقع الاجتماعى باستمرار · فالواقع الاجتماعى لا يمكن تصوره على انه واقع مستقر منظم تنظيما ازليا ، فمثل هذا التصور يؤدى بنا الى التردى فى تيار النزعة المحافظة المرتبطة بمشكلة النظام فى المجتمع · فالواقع المستقر لا بد أن تجتاحه تيارات وحركات تاريخية جديدة تولد ضروبا من الصراع يعجز الواقع عن استيعابها ، ومن ثم تدخل هذه الظروف الجديدة فى تناقض عميق مع الواقع القديم ، ينتج عنه فى النهاية واقع جديد مغاير

يجمع بين خصائص القديم والجديد ماله قدرة على الاستمرار والدخول من جديد فى تناقضات اخرى • اذا كان هذا هو القانون العام لحركة المجتمع وتغيره ، فهل يعنى ذلك ان ولقع المجتمع الغربى الذى افرز النظرية القديمة المرتبطة بالنظام ، والاتجاهات النقدية الثائرة عليه ، قد تغير تغيرا كليا على المستوى البنائى والنظرى بحيث كانت الاتجاهات النقدية هى مركب النقيضين فى العملية الجدلية • ليس هـذا ما نقصده بطبيعة الحال • فمركب النقيضين لا بد أن يكون ولقعا مغايرا تماما للواقع القائم ، تفسره نظرية مغايرة للنظرية القائمة • فالواقع اننـا ما زلنـا نعيش فى عملية الجـدل والتناقض بين البناء القديم والبناء الجديد • فالمجتمعات الغربية ببنـائها القديم ونظريتها المحافظة لم تستطع أن تحقق الاستقرار والاستمرار الذى تدعيه ، وتفجرت داخلها صراعات فكرية وبنائية لم تستطع أن تستوعبها او تشكلها داخل النظم • ولقد شكلت هـذه الصراعات البنائية والفكرية بناء جديدا دخل فى عملية جدل وتناقض مع البنـاء القديم • ولا شك أن عملية التناقض لا تكون عملية محددة ، ولكنها سلسلة متصلة الحلقات ـ متشـابكة الحدود والأبعاد ـ من التغير والتشكل المستمر • فعملية التناقض ما هى الا مجموعة من العمليات الجدلية الفرعية التى تؤدى كل واحدة الى الأخرى وتؤثر فيها وقد تدخل معها فى تناقضات جديدة •

ونحن نقرر هنا هذه الحقيقة لاعتقادنا أن الاتجاهات النقدية الحديثة ليست هى النتاج الكلى للتصادم بين القديم والجديد ، وانمـا تعـد بمثابة نتاج لاحدى العمليات الجدلية الفرعية داخل حركة التناقض الواسعة النطاق التى يخبرها المجتمع الغربى الرأسمالى فى الآونة الأخيرة • فظهور هـذه الاتجاهات لم يحل تناقضات المجتمع او تناقضات النظرية ، بل على العكس من ذلك تماما سوف نجد أنها سوف تدخل فى تناقض جديد مع البناء القديم القادر على الاستمرار والمثابرة ومن ثم تعمق للعملية الجدلية الكلية وتثريها وتجعلها تتقدم خطوة نحو حل تناقضاتها الداخلية • كيف يحدث هذا ؟ الأمر يحتاج الى مزيد من التفصيل بطبيعة الحال •

رأينا فى الفصول السابقة كيف اتخذ علم الاجتمـاع فى المجتمعـات الغربية بدءا من كونت وحتى صورته البارسونزية المعاصرة ـ وجهة معينة

ومسارا خاصا هو ذلك المرتبط بالنظام الاجتماعى العام • وقد راينا ايضا كيف أن هذا المسار الخاص يعكس الواقع الاجتماعى كما يتصوره الراسماليون من انصار الاتجاه المحافظ • هو اذن مسار متحيز يركز على بعض العوامل (المرتبطة بالنظام) ويحاصر عوامل اخرى (المرتبطة بالصراع) ويتجاوزها عمدا • ومن ثم كان لا بد أن تظهر هذه العوامل المحاصرة ـ من فترة الى اخرى ـ لتدخل فى تناقض مع النظريات القديمة والواقع الذى تفسره • وكانت هذه الصراعات بمثابة تحديات امبيريقية أمام التراث القديم المرتبط بالنظام خلال التناقض بين هذا التراث القديم وبين التغيرات الجديدة • وسوف نرى من خلال استعراضنا لهذه الاتجاهات انها بدأت تدخل فى تناقض من نوع جديد مع التراث القديم ، والبناء الاجتماعى القديم ، وذلك على الطريق الطويل لعملية التناقض الواسعة النطاق • وهكذا فقد كان انبثاق الحركة النقدية انبثاقا بنائيا ، اثرتها وشدت من عودها بعض الظروف العامة والخاصة كان أهمها ما يرتبط بالعلم ذاته من تناقض داخلى بين مثالياته وسلوكه الفعلى • ففى الوقت الذى يدعو فيه الى التحرر من القيم ومحاولة تحقيق اكبر قدر من الموضوعية فى سعيه نحو فهم وتفسير سلوك البشر ، يسعى الى الارتباط الوثيق بالسياسة وينحرف باهدافه الانسانية نحو خدمة أهداف لا انسانية • هذا التناقض الداخلى كان يكسب الحركة المضادة ارضا جديدة فى عملية الصراع بينها وبين التراث القديم ، ومن ثم عضدها وساعد على ظهورها فى وقت مبكر •

وسوف يكون هذا الفصل محاولة للكشف عن هذه الحركة الجدلية بين التراث القديم والتغيرات البنائية والفكرية التى كونت الأساس التحتى للاتجاهات النقدية • انه محاولة للكشف عن الاطار الفكرى والبنائى للحركة النقدية الجديدة • واذا كنا قد عرضنا فى القسم السابق من البحث التراث القديم وبذلنا محاولة لابراز الاتجاه الخاص الذى سار فيه والظروف البنائية المرتبطة به ، يتبقى لنا ـ اذا اردنا أن نبرز الطرف الآخر فى عملية التناقض ـ أن نتعرف على التغيرات البنائية والفكرية التى دخلت فى حوار مع هذا التراث القديم ومع الواقع الاجتماعى الذى يفسره ، وأن نتعرف على نوعية الظروف التى ساعدت على تعميق هذا التناقض • ومن هنا فان التحليل سوف يمتد الى مستويين : مستوى بنائى ، ومستوى فكرى ،

بحيث نكشف عن التغيرات البنائية وما يرتبط بها من تغيرات وصراعات فكرية كونت فى تلاحمها البنـاء الجـديد الذى دفع بالحركة النقـدية الى الظهور • وبالنسبة للصراعات والتغيرات البنائية سوف نتخذ من ظهور الحركات الاجتماعية المرتبطة باليسار الجديد مؤشرا على هـذه التغيرات والصراعات ، ونبرز هنا نوعية الممارسة السياسية أو النشـاط المعارض الذى ينخر فى صلب البناء ذاته • أما بالنسبة للصراعات والتغيرات الفكرية فسوف نحاول القاء الضوء على الموقف الفكرى والأيديولوجى لهـذه الحركات وما ارتبط بها من تيارات فكرية معارضة للتراث الفكرى القديم ،وساعية نحو هدم النظام القديم وتغييره الى الأفضل • وسوف يقودنا الحديث عن التيارات الفكرية والأيديولوجية الى الحديث عن أزمة العلم فنشير باختصار الى بعض تناقضـاته الداخلية التى جعلتـه يهـوى بسرعة أمام حركات النقد المتدفقـة •

ومن ثم سوف ينقسم هـذا الفصل الى العناصر التالية :

أولا : الحركات الاجتماعية : مؤشر الصراع فى الحضارة الغربية •

ثانيا : أزمة المجتمع الراسمالى : نحو بناء فكرى جديد •

ثالثا : من أزمة المجتمع الى أزمة العلم •

اولا ـ الحركات الاجتماعية : مؤشر الصراع فى الحضارة الغربية

سيطرت على المجتمعات الغربية ، والعلوم الاجتماعية فيها فى فترة الخمسينات موجة من الدعة والتفاؤل • واعتقد العلماء ، ورجال السياسة أيضا أن المجتمع قد حل تناقضاته الداخلية • فقد دخل المجتمع الأمريكى فترة ما بعد الحرب وهو يحاول جاهدا أن يصور لنفسه والعالم انه على أعتاب مستقبل مشرق ، ساعد على ذلك ازدياد القوة الأمريكية عالميا وكذلك التراكم التكنولوجى السريع • وعكست هذه الحالة من الازدهار نفسـها على العلوم الاجتماعية ، وعلى الممارسـة السياسـية ، وانبرى العلمـاء الاجتماعيون ينظرون لهذا الواقع الوهمى ، ويضفون عليه صفات الحقيقة(١)

---

(١) سـعد الدين ابراهيم علم الاجتمـاع الأمريكى بين التواطؤ والثورة ، مقال بمجلة **دراسات عربية** ، يولية ١٩٧٣ ، ص ٢٢ ـ ٢٣ •

وقد رأينا فى القسم السابق من هـذا الكتاب كيف بذل بارسونز وتلاميذه جهودا مستميتة لاضفاء طابع النظام على عناصر الواقع الاجتماعى ، بحيث ظهر هذا الواقع فى مخيلته مركبا من مستويات متعددة من التكامل تبـدا بالتكامل بين الدافعية والمعايير وتنتهى بالتكامل الذى تفرضه ميكانيزمات الضبط الاجتماعى . ولم يكتف المنظرون بهذه الرؤية النظامية ، وانما ذهبوا الى أبعد من ذلك عندما حاولوا أن يصورا المجتمعات الغربيـة على انهـا قد نفضت أيديها من كل مظاهر الصراع ، خاصة الصراع الأيديولوجى ، وانها تغلبت على كل مشكلاتها الداخلية الأساسية وتمثلت وجهة النظر هذه فيما اطلق عليه نهاية الأيديولوجيا End of Ideology . وقد تمثلت فى هـذه الفكرة قمة الدعة والتفاؤل الذى وصل اليه العلماء الغربيون .

ظهرت فكرة نهاية الأيديولوجيا فى منتصف الخمسينيات حيث عقد مؤتمر عن « مستقبل الحرية »(٢) حضره عـدد كبير من علمـاء الاجتمـاع والسياسة والمشتغلون بالسياسة والمثقفون من مختلف الدول الديمقراطية (من الاشتراكيين والمحافظين على حـد سواء) . وقدم ادوارد شيلز لهـذا المؤتمر مقالا بعنوان « نهاية الأيديولوجيا » ذهب فيه الى ان الأمور التقليدية التى كانت تفصل بين اليمين واليسار قد تضاءلت الى ادنى حد . فتزايد الرقابة الذى ظهر فى بعض الدول لم يلغ الحـرية الديمقراطيـة ولم يعـد الاشتراكيون ينادون بالاشتراكية بقدر انشغالهم ـ مثل المحافظين تماما ـ بخطر الدولة القوميـة . ومن ثم اختفت الخلافات بين اليمين واليسـار او كادت وبدات تنحصر فى الأمـور المتعلقـة بملكيـة الحكومة والتخطيط الاقتصادى(٣) . ولقد طور دانيـال بل [illegible] هذه الأفكار ـ فى كتـاب بعنوان « نهاية الأيديولوجيا » ذهب فيه الى ان المجتمع الأمريكى قـد تغلب على كل مشكلاته الجوهرية ، ولم يعـد فى حاجة الى اى ضرب من ضروب الأيديولوجيا فليس هناك من مكان فى المجتمع المعاصر لصراع الأيديولوجيات، « فالمشكلة التى تواجهنا اليوم فى الداخل والخارج هى التخلص من المحددات القديمة للجدل الأيديولوجى بين اليمين واليسار .. رغم ان ذلك قد يتسبب

---

(٢) عقد هـذا المؤتمر فى ميلان Milan بايطاليا عام ١٩٥٥ .

(٣) E. Shills, "The End if Ideology," Encounter, Vol 5, November, 1955.

فى ازعاج المثقفين الذين لا يقدرون على المشاركة السياسية الا كحاملى ايديولوجية او كنقاد للوضع الراهن »(٤) ويعتقد بل أن اختفاء الأيديولوجية سمة تميز المجتمعات الغربية ـ وامريكا بصفة خاصة ـ دون المجتمعات الأخرى • ذلك أن المجتمع الأمريكى ـ والمجتمعات الغربية الى حد ما ـ قد حقق قدرا من الاتفاق العام ، بحيث اختفت منه أى تيارات أيديولوجية معارضة • واذا كان هناك بعض الجوانب التى يثور حولها الخلاف فانها تكون غالبا متعلقة ببعض المشكلات البسيطة الناتجة عن مجتمع الوفرة البيروقراطى • وهكذا يذهب بل الى أن الأيديولوجيا والحماس لم يعودا •• ضروريان للمحافظة على النضال الطبقى داخل ديمقراطيات الوفرة المستقرة ، ولكنهما مطلوبان فى بقية أجزاء العالم الأخرى من أجل تطوير نظم سياسية واقتصادية حرة • فالنضال الطبقى الأيديولوجى لم ينته الا فى الغرب فقط • أما الصراعات الأيديولوجية المتصلة بمشكلات ومستويات التنمية الاقتصادية والنظم السياسية الملائمة لمختلف الدول الاخرى (غير الغربية) فسوف تستمر »(٥) •

هكذا كانت فكرة نهاية الأيديولوجيا قمة تيار الدعة والتفاؤل الذى سيطر على عقول منظرى الغرب فى بداية الخمسينيات • فقد اعتقد هؤلاء المنظرون أن مجتمعاتهم قد حققت تكاملا نهائيا وأنها قد قهرت الصراعات الى غير رجعة • ولكن قبل أن ينقضى العقد السادس نفسه بدأت تتفجر القوى التى تحاول عقول هؤلاء المنظرين أن تحاصرها متمثلة فى مجموعة من الحركات الاجتماعية Social Movements المناوئة لسياسات وايديولوجيات الغرب ، وقد تبنى اليسار الجديد اغلب هذه الحركات الاجتماعية •

يعتبر بوتومور Bottomore عام ١٩٥٦ عاما حاسما فى ظهور اليسار الجديد New Left كظاهرة عالمية • وقد ارتبط ظهوره بثلاثة أحداث كان لها تاثيرها العالمى : الهجوم الامبريالى الفرنسى البريطانى على مصر ،

(٤) D. Bell, The End of Ideology, the Free Press, New York, First Published 1960, Free Press Paperback Edition 1965, p. 406.

(٥) Ibid., p. 417.

وثورة العمال والمثقفين ضد الستالينية ، وبدء تحلل بعض مؤسسات النظام الستاليني في بولندا . فقد فجرت حرب السويس أكبر ثورة للمثقفين في بريطانيا منذ الثلاثينيات ، بينما دفعت احداث المجر وبولندا الكثيرين الى الانضمام للحزب الشيوعي وبدأ بذلك تشكل اليسار الجديد في بريطانيا . أما في فرنسا فقد عملت هذه الأحداث ، الى جانب حرب الجزائر ، على خلق قوة معارضة شكلت بؤرة اليسار الجديد في فرنسا . أما في أمريكا فقد كانت الأحداث التي اثرت على ظهور اليسار تتعلق بسياسة أمريكا الخارجية في جنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية ، فضلا عن ثورة الزنوج وثورة كوبا(٦) .

ولم تكن الأحداث الخارجية المرتبطة بالسلوك الامبريالي والتي يعرضها بوتومور هنا هي التي تسببت فقط في ظهور اليسار الجديد بل انه ظهر أيضا كرد فعل لمظاهر الضعف الذي بدا المجتمع الراسمالي يخبرها منذ منتصف الخمسينيات . فقد انتشرت الجريمة على نطاق واسع ، بين الشباب خاصة ، وانتشرت النزعة الفردية ، وزادت حدة الاستهلاك ، والتملق السياسي . لقد ازدادت الهوة بين أحاسيس الناس وتصورلتهم وبين الواقع الماثل امامهم الأمر الذي ولد عندهم شعورا بان هناك بعض مظاهر الخطأ الكامنة في بناء هذا الواقع(٧) . ولا شك ان هذه الأحاسيس والمشاعر كانت أساسا لمعارضة النظام والوقوف في وجهه(٨) .

ولكن لا بد أن نواجه انفسنا بسؤالين على جانب كبير من الأهمية : هل يمثل اليسار قوة رفض حقيقية ؟ ولماذا نسمه بانه يسار جديد ؟ للاجابة عن السؤال الأول لا بد ان نوضح ماذا يعني مفهوم اليسار . يعرف كولاكويسكي Kolagowski اليسار بانه حركة نفي للعالم القائم ، ولكنه

---

(٦) Bottomore, Critics of Society, op. cit., pp. 72—73.

(٧) Carl Oglesby, "The Ideas of the New Left," in : Oglesby (eid.), New Left Beader, Grove Press, Inc., New York, 1969, pp. 145—148.

(٨) سوف نركز هنا على تجسد هذه المشاعر في حركات لجتماعية قائمة على الممارسة ، وسوف نعرض في الفقرة القادمة لتجسد هذه المشاعر في آراء وافكار معارضة .

يمثل قوة بناءة ترفض العالم من اجل تغييره • ويرتبط رفض العالم من اجل تغييره الى الأفضل ـ فى أذهان اليساريين ـ بتصور فكرى معين او يوتوبيا معينة يعملون على تخطيها وتحويلها الى واقع(٩) • ويذهب كارل اوجلسبى Carl Oglesby الى أن اليسار يرغب دائما فى التقدم ، ويتوق الى أن يسيطر الانسان على مصيره ، وهو ينظر الى نفسه على أنه المنتصر فى النهاية ، وينظر الى البرنامج الذى يطرحه على أنه نفس الشىء الذى تأمل فى تحقيقه الانسانية على مر الزمن(١٠) • ومن هذين التعريفين يتضح أن اليسار يمثل قوة رافضة ترغب فى تغيير العالم الى الأحسن • ومن ثم فان ظهور اليسار الجديد فى منتصف الخمسينات ، وتبنيه للكثير من الحركات الاجتماعية ، يمثل تحديا ورفضا للبناء القائم ، وللنظرية التى تدعم هذا البناء تزييفا • وهو يمثل انبثاقا لقوى الصراع الكامنة فى قلب هذا البناء ، والتى تسعى النظرية ـ فى ارتباطها بمشكلة النظام ـ نحو محاصرتها وتضييق الخناق عليها •

ولقد أطلق على يسار الخمسينيات اليسار الجديد تمييزا له عن اليسار بالصورة القديمة التى ظهرت فى القرن الماضى • هذا فضلا عن أن الاستقرار السياسى الذى حققته الدول الراسمالية فيما بعد الحرب العالمية الثانية قد جعل قوى اليسار تتقلص الى حد كبير ، ومن هنا فان أى يسار يظهر على مسرح الممارسة السياسية سوف يكون جديدا • ولكن الشىء الهام فى هذا الصدد هو أن هذا اليسار الجديد قد أدرك أن بقاءه لا بد أن يرتبط بتحطيم ذكريات ، وادعاءات ، وافتراضات اليسار القديم(١١) • وسوف نرى عندما نستعرض الموقف الأيديولوجى لليسار الجديد أن رؤيته الأيديولوجية تختلف اختلافا كبيرا عن رؤية اليسار القديم ، وان اشتركا فى روحهما العامة التى تستهدف تغيير المجتمع القائم •

---

(٩) L. Kolakowaki, "The Concept of the Left," in : C. Oglesby (ed.), The New Left Reader, op. cit., pp. 145—148.
وينفى كولاكوبسكى عن اليسار فكرة الارتباط الطبقى ، وهو وان كان يدافع عن مصالح طبقة معينة ، الا أن الاتجاه الأخلاقى والأيديولوجى له هو المؤشر الأساسى الذى يمكن من خلاله تعريف اليسار • فالمستوى الفكرى وليس الطبقى هو الذى يعبر عن اليسار •

(١٠) C. Oglesby, The Ideas of the Left, op. cit., p. 1.

(١١) Ibid., p. 19.

ويرتبط تاريخ اليسار الجديد بالحركات الاجتماعية ، تماما كما يرتبط بحركة النقد الاجتماعى الواسعة النطاق للنظام الراسمالي • فقد ربط اليسار نفسه بحركات الاحتجاج الاجتماعى : حركة الزنوج ، وحركة الطلبة ، وحركة السلام • وكانت حركة النقد التى قادها زعماء اليسار الجديد ومعاصروه بمثابة المحرك والمساند لهذه الحركات الاجتماعية • وهكذا تقاطع الفكر مع العمل فى حركة مواجهة النظام القديم • ولذا كنا سوف نكرس الفقرة القادمة لمعالجة الجانب الفكرى ، فما يهمنا الآن هو أن نلقى الضوء على بعض الحركات الاجتماعية ليتضح لنا مدى الدور الذى لعبته فى تفجير الصراع داخل الحضارة الغربية •

يمكن القول ان نشاط اليسار الجديد قد تمثل فى طفرات من الحركات الاجتماعية بدات فى الخمسينيات وبلغت ذروتها فى انتفاضة الطلبة فى فرنسا عام ١٩٦٨ • فالظروف الداخلية التى ادت الى ظهور اليسار الجديد لم تختف بظهوره ، بل ازدادت حدة • وقد ادى ذلك بدوره الى ازدياد الاغتراب عند جماعات الشباب ، ومن ثم الانخراط فى الحركات التى تعارض النظام القائم وتناوئه • ولقد بلغ هذا الاغتراب ذروته عام ١٩٦٨ ، وهو العام الذى بلغت فيه الحركة الاجتماعية ذروتها ايضا مما يؤكد صحة الارتباط بين زيادة الاغتراب وزيادة حدة النشاط المناوىء للنظام ويؤكد هذه الحقيقة نتائج بحث أجراه مركز البحوث بجامعة متشجين The University of Michingan Survey Research اوضح هذا البحث ان فترة الستينيات تمثل فترة اغتراب سياسى حقيقى فى الولايات المتحدة فقد بدا الاغتراب فى التزايد حتى بلغ ذروته عام ١٩٦٨ • ولا يعنى ذلك أن فترة الخمسينيات كانت خالية من الاغتراب ، ولكنه يعنى تزايد حدة الاغتراب تدريجيا فى الستينيات(١٢) • ويوضح الجدول التالى نسبة الاغتراب كما تعبر عنها استجابات المبحوثين تجاه اربعة عبارات للكشف عن درجة الاغتراب السياسى فى مسرح انتخابات الرئاسة الأمريكية فى الفترة من ١٩٥٢ ـ ١٩٦٨(١٣) •

---

(١٢) James S. House., "Political Alienation in Amefica, 1952—1968." A.S.R., No. 2 April, 1975, pp. 123—125.

(١٣) المصدر : المقال السابق مباشرة •

مقياس الاغتراب	١٩٥٣	١٩٥٦	١٩٦٠	١٩٦٤	١٩٦٨
عدم الاهتمام : انا لا اعتقد ان الموظفين الرسميين يهتمون بما يفكر فيه أمثالي	٣٦٪	٢٧٪	٢٥٪	٣٧٪	٤٤٪
عدم المشاركة : ان امثالى لا يمكون شيء يقولونه عما تفعله الحكومة	٣١٪	٢٨٪	٢٧٪	٣٠٪	٤١٪
التعقيد : تبدو السياسة والحكومة أحيانا على درجة من التعقيد بحيث لا يستطيع أمثالى ان يفهموا ماذا يجرى	٧١٪	٦٤٪	٥٦٪	٦٨٪	٧١٪
الانتخاب : لا نستطيع ان نشارك فيما تفعله الحكومة الا من خلال الانتخاب فقط	٨٣٪	٧٤٪	٧٤٪	٧٤٪	٧٥٪

وتوضح هذه البيانات الكمية تزايد حدة الاغتراب السياسى فى هذه الفترة بصفة عامة ، وهو يعبر عن عدم الرضا عن أسلوب الممارسة السياسية • وأكدت نتائج البحث ان عدم الرضا هذا ينتشر بين جميع الفئات السكنية ، حيث لم تظهر البيانات اى فروق بين فئات العمر فى استجاباتهم تجاه المؤشرات الدالة على الاغتراب السياسى ، توان كانت المسوح الانتجابية قد أكدت على تزايد نسبة الاغتراب بين جماعات الشباب المعارضين لسياسة المجتمعات الغربية • ولنا ان نتوقف الآن امام بعض صور هذه المعارضة كما تتمثل فى الحركات الاجتماعية •

١ ـ من اول هذه الحركات ثورة الزنوج وحركة الحقوق المدنية • ورغم أن لثورة الزنوج تاريخا بدأ من العقد الأول من هذا القرن حيث أسس دى بوا De Bois الجمعية القومية لتقدم الشعب الملون National Association for the Advancement of Coloured People فى عام ١٩٠٩ ، الا ان الحركة الحقيقية لجماعات الزنوج بدأت بانتفاضات ومظاهرات جرينسبورو فى عام ١٩٦٠ ، والتى ادت الى تنسيق بين حركة الطلاب وحركة الزنوج فى تنظيم المسيرات والتجمعات ، واخذت الشغب والاحتجاج(١٤) • ولقد كان

المطلب لحركة الزنوج هو مزيد من المساواة ، ومزيد من الحقوق المدنية للزنوج فى امريكا . ومع ذلك فقد طورت هذه الحركة برامج للقضاء على الفقر ، واثارت الكثير من المناقشات حول اسلوب المشاركة السياسية فى الولايات المتحدة(١٥) . فضلا عن ذلك فقد انتجت حركة الزنوج والحقوق المدنية ، أنتجت من الزعماء والقادة من كانت لهم آراء نقدية وسياسية وعلى رأسهم جيمس بالدوين Baldwin ومالكوليم اكس Malcolm X وقد كان هذا الأخير ينادى باتحاد الحركات الثورية بالحركات التى تدافع عن قوميتها بحيث يرتبط الثائر فى افريقيا وآسيا بالثائر فى الولايات المتحدة(١٦) .

٢ – ولقد ارتبطت حركة الحقوق المدنية بحركة الطلبة ، وتزعمت قيادة حركة الطلبة جماعة او تنظيم طلابى اطلق على نفسه « حركة الطلبة من أجل المجتمع الديمقراطى Student for Democratic Society تكون فى بداية الستينيات ونسق بين أعماله واعمال حركة الحقوق المدنية . ولقد انشغل الطلبة بقضيتين : الديمقراطية واستقلال الجامعة . فقد كانت جماعات الشباب تعتقد أن الديمقراطية فى المجتمعات الغربية لا تتيح للفرد أن يشارك فى اصدار القرارات التى تؤثر على حياته ، ومن ثم طور الشباب مفهوم ديمقراطية المشاركة Participatory Democracy الذى يمكن من خلاله أن يسيطر الانسان على مصيره ، ويتخلص من سيطرة التنظيمات الكبرى وصفوة القوة . والى جانب قضية الديمقراطية عارض الطلبة النظم الجامعية . فالجماعة يجب الا تكون معملا للمعرفة يجهز فيها الطلبة للقيام بالأعمال التى يتطلبها النظام القائم . وان الجامعة بذلك تصبح تنظيما بيروقراطيا تسيطر عليها الشركات التجارية . ومن ثم كان احد المطالب الرئيسية لحركة الطلبة أن تستقل الجامعة وأن تكون لنفسها تقاليد وقيما مستقلة عن تقاليد وقيم عالم التجارة وعالم السياسة(١٧) .

---

(١٤) C. Oglesby, "The Idea of the New Left," op. cit., p. 14.

(١٥) T.B. Bottomore, Critics of Society, op. cit., pp. 86–87.

(١٦) Macolm X, "I don't mean Bananas," in : Carl Oglesby, The New Left Reader, op. cit., p. 209.

(١٧) C. Oglesby, The Idea of the Left, op. cit., p. 14.

وبالرغم من أن هـذه الآراء تتعلق بالجامعة الا انها تتحدى بطريق مباشر أسلوب الادارة البيروقراطى اللاشخصى الذى تتميز به التنظيمات الكبيرة ، كما تواجه مشكلة الاغتراب وفقـدان الانسان للسيطرة على مصيره ٠ ولقد استطاع الطلبة خلال نهاية الخمسينيات وطوال الستينيات تنظيم الكثير من المظاهرات والتجمعات حتى بلغت ثورة الطلبة ذروتها عام ١٩٦٨ ٠

٣ ـ وارتبطت حركة الطلبة فى بداية الستينيات بحركة السلام Peace Movement والتى جاءت كرد فعل للسلوك الامبريالى للولايات المتحدة فى البلدان النامية والمتخلفة ٠ ومن الموضوعات التى اثارتها هـذه الحركة انقسام العالم الى معسكرين وقيام حرب باردة على حساب الشعوب الأخرى ومعارضة حرب فيتنام ، والتدخل الأمريكى لكبح ثورات التحرير فى العالم الثالث كما حدث فى كوبا وجمهورية الدومينيكان ٠ فقد نظرت حركة السلام الى امريكا والدول الغربيـة على انهـا تمارس ضربا جديدا من الامبريالية يستهدف السيطرة والتحكم فى العالم الثالث عن طريق استبدال الحكم المباشر لهـذه الدول بالسيطرة الاقتصادية والسياسية ٠ ، فحادثة السويس وتدخل القوات الأمريكية فى شئون الدول الأجنبية ، ودفاع الدول الغربية عن مصالحها الاقتصادية دفاعا مستميتا ، كل تلك الأشياء توحى بأن امبريالية القرن التاسع عشر لم تمت بعد ٠ فبالرغم من المساعدة العالمية والعمل الذى تمارسه الهيئات الدولية ، فاننا ما زلنا بعيدين عن الحيـاة فى عالم تتحقق فيه المساواة بين الشعوب والأجنـاس »(١٨) ٠ وكان من الطبيعى أن يناهض هـذا الشباب الثائر هـذا السلوك الامبريالى وان يدعو الى أن التقدم التكنولوجى لا يعنى مزيدا من السيطرة على الضعفاء فى هـذا العالم ، وانما يعنى مزيدا من السلام والمساواة ٠ وقد تبلورت هذه القضية من خلال حركة السلام العالمى التى كرست جهودا كبيرة لنشرها والدعوة لها من خلال المظاهرات والتجمعات والمنشورات ٠

٤ ـ ولقد بلغت ثورة الشباب ، ورفضه للنظام القائم على الاستغلال بلغت ذروتها فى انتفاضات الطلاب عام ١٩٦٨ ٠ والحقيقة أن ثورة الطلبة عام ١٩٦٨ تستحق منا هنا وقفة خاصة ، ذلك لأنها اعطت الدفعة الأخيرة

---

(١٨) T.B. Bottomore, Critics of Society, op. cit., p. 94.

للاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع والتى ما زالت تظهر حتى اليوم ، فضلا أن هذه الثورة كان لها صدى واسع النطاق على مستوى العالم كله ، وأحدثت تغيرات عنيفة داخل المجتمع الراسمالى وجعلته يبدأ من جديد فى اعادة صياغة الكثير من مفاهيمه ، واثبتت ان للتناقضات الداخلية لبناء المجتمعات الغربية سوف تستمر ٠

اجتاحت ثورة الشباب عام ١٩٦٨ كل الدول الراسمالية ، خاصة فرنسا حيث تزعمها دانيال كوهن بنديت Daniel Cohen-Bendit والمانيا حيث تزعمها رودى ديتشه Rudi Dutschke وامريكا حيث تزعمها مارك رود Mark Rudd ودون أن ندخل فى تفاصيل احداث هذه الثورة(١٩) يهمنا أن نؤكد على أسباب تفجرها ٠ فتلك الأسباب تكشف لنا عن طبيعة الصراعات الداخلية التى تود ابرازها ٠

يمكن القول أن ثورة الشباب قد جاءت كرد فعل مباشر لتناقضات المجتمع الراسمالى وما يمارسه من كبح وسيطرة على الأفراد من خلال وسائل الانتاج الرشيدة ، ووسائل الاعلام ، وتسخير قوى العلم فى ترشيد عمليات الانتاج ، وعدم اتاحة الفرصة امام جيل الشباب ليشارك فى تحديد مستقبله ٠ ويجمع كل من تناول ثورة الطلبة فى نهاية الستينيات بالدراسة على هذه الحقائق ٠ فهذا هو الان تورين A. Touraine (٢٠) يذهب فى تفسيره لحركة الطلبة فى فرنسا الى أن ظهور هذه الحركة ما هو الا رد فعل طبيعى لأيديولوجية الترشيد التى تخفى المصالح الخاصة والتى تتحكم فى الانتاج والاستهلاك ٠ لقد كانت ثورة الشباب مظهرا للتناقض بين من يرغبون فى التكيف والتغير الرشيد وبين من يرغبون فى القوة الديمقراطية القادرة على تنظيم الأبنية الكبرى التى تضمن التطور الاقتصادى وتسير

---

(١٩) استمرت المظاهرات الطلابية فى هذه البلدان من مارس حتى يونية ١٩٦٨ ٠ وقد تعرض الطلبة فيها للارهاب الشديد من جانب البوليس ٠ وتجدر الاشارة الى أن حركة الطلبة قد انتشرت فى نفس العام فى بعض الدول الاشتراكية والنامية ، ولكن لأسباب مغايرة للأسباب التى جعلتها تنتشر فى الدول الراسمالية ٠

(٢٠) Alan Touraine, "The French Student Movement of May 1968," in : A. Pizzorno (ed.), Political Sociology, Penguin Books, 1971, pp. 314—316.

امور المجتمع • « فلم يعد ممكنا أن نقبل صورة مجتمعنا الصناعى كتنظيم ضخم يركز على نموه الخاص ويفرز طبقة جديدة منبوذة من الفقراء او الأفراد غير الصالحين تعيش على هامشه • لقد أوضحت حركة مايو أن بعض الصراعات الصناعية ذات النوعية الجديدة قد ظهرت بجلاء داخل المجتمع الرأسمالى : فالنضال لم يعد سطحيا وانما اصبح يكمن فى قلب هذا المجتمع المبرمج ذاته •• ان حركة مايو تعبر عن ظهور نسق كلى من القوة الاجتماعية يفوق النسق السياسى القومى ويتعداه • ولهذا السبب فان الحركة تعتبر حركة عالمية عبرت عن تضامن كل الذين يناضلون ضد القوة التكنوبيروقراطية »(٢١) •

ويذهب شريل داغر الى أن حركة الشباب الرافضة ما هى الا مظهر معبر عن عمق الأزمة التى تعيشها الرأسمالية المتقدمة • فالمجتمع الرأسمالى لا يهتم الا بالتقدم العلمى وبيروقراطية الدولة والمؤسسات الاحتكارية • لقد أصبح هذا النظام ينتج الحاجات الغريزية للانسان مهملا حاجاته الثقافية : الفنية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والفلسفية لقد اثار الجو « العقلانى » المنظم الذى يميز روح الرأسمالية ، اثار فى صفوف الشباب مشاعر الخوف ، والتذمر والسخط ، بحيث لم يعد الشباب مادة لينة تقبل كل ما يقدم لها دون ابداء الأسباب • « لقد جاءت تجربة مايو فى أوروبا لتكشف عن عمق وضخامة الطاقات والقوى التى تختزنها هذه الفئات (من الشباب) فى تصديها لكل المؤسسات القائمة »(٢٢) •

ويرى قادة حركة الشباب انفسهم أن حركتهم ما هى الا رد فعل لمظاهر القصور فى المجتمع والجامعة التى تنقل الى جيل الشباب ثقافة المجتمع • فمنهم على سبيل المثال دانيال كوهن بندت(٢٣) زعيم حركة فرنسا الذى كتب ـ بالاشتراك مع اخيه ـ يقول : « هناك ٦٠٠,٠٠٠ طالب يعاملون ـ فى بعض الأحيان ـ كاطفال ، وكبالغين فى أحيان أخرى • حقيقة اننا نجد اعمالا بعد تخرجنا من الجامعة ، ولكننا لا ننتج شيئا على

---

(٢١) Ibid., p. 316.

(٢٢) شربل داغر ، ظاهرة الرفض فى المجتمع المعاصر ، مقال مجلة «آفاق» العدد الثانى ١٥ فبراير (شباط) ١٩٧٤ ، بيروت ـ لبنان • ص ٢٧ •

الاطلاق • وغالبا ما لا نجد بعض النقود ، ولكن قلة منا تعد فقيرة بحق • وبالرغم من ان اغلبنا قادم من اصول بورجوازية ، فاننا لا نسلك دائما مثلما يسلك آباؤنا •• اننا ننظر الى اساتذتنا على انهم آباء او سلطات علم • ولكننا لا نستطيع ان ننظر اليهم على انهم اساتذة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى »(٢٤) •

ويكشف هذا النص عن ثورة عارمة تبدأ من الثورة على النظام الجامعى وتنتهى بالثورة على نظام المجتمع • فالجامعة فى نظر بندت تقوم بدورين متناقضين : دورها كناقلة للثقافة ، وكمكان تنمو فيه النظريات العلمية نموا مستقلا ، ودورها كجهاز بيروقراطى يعد العاملين الذين يحتاج اليهم النظام القائم • ويعتقد الأخوان بندت ان الدور الثانى ، اى الدور الاقتصادى للجامعة هو الذى يحظى باكبر الاهتمام على حساب نمو العلم والنظريات العلمية • فالجامعة تجند نفسها لخدمة المجتمع ، دون ان تعى ازمته ، ودون ان تحاول فهمه فهما عميقا • ولذلك فانها تفرض على طلابها تقبل العلم دون اى معارضة « فالطالب ما هو الا مستمع ، عليه ان يسجل المحاضرات ، ويستذكرها ، ثم يسترجعها فى النهاية بنفس القضايا والآراء التى تطرحها ، وبنفس أسلوب صياغتها »(٢٥) واذا كان الفساد يعم التعليم الجامعى ، فما هو الا انعكاس لفساد المجتمع فالمجتمع فرض على الفرد دورا معينا دون ان يحدد موقفه من هذا الدور • وللفرد بذلك لا يشارك فى التخطيط لحياته وعمله ، ولا يعبر عن موقفه من احداث المجتمع الذى يعيش فيه •

---

(٢٣) دانيال كوهن بندت (ولد عام ١٩٤٦) هو ابن لابوين المانيين هاجرا الى فرنسا • ولقد درس بندت علم الاجتماع فى جامعة Nanterre فى فرنسا وحصل على دبلوم علم الاجتماع فى سبتمبر ١٩٦٨ • ولقد كان زعيما لمظاهرات ٢٢ مارس التى فجرت ثورة الطلبة فى فرنسا طرد من فرنسا بعد احداث ١٩٦٨ حيث ذهب الى المانيا ولكنه لم يتخل عن نشاطه أو اهدافه ، فقد قبض عليه فى فرانكفورت اثناء اشتراكه فى احدى المظاهرات•

(٢٤) Gabreil and Daniel Cohen-Bendit, Obsolete Communism, The Left Wing Alternative, trans by Arnold Pomerans. Penguin Books, 1969, p. 41.

(٢٥) Ibid., p. 47.

وبنـاء على ذلك فان حركة الطلبـة ما هى الا محاولة لتغير المجتمع برمته بما يسود فيه من أساليب تعليمية • وتعبر عن ذلك كلمات الأخوين بندت نفسها « نحن لا نحتج على أن تعليمنا لا يولى اهتماما لاحتياجاتنا فى المستقبل ، كما اننا لا نشكو من نقص الوظائف . ولكننا نرفض النظـام برمته ، ولقد تحول رفضنا الى أعمال قائمة على العنف لأن بنـاء المجتمع لا يمكن أن يتحطم من خلال الكلام أو المنشورات السرية »(٢٦) •

وهكذا يمكن القول ان ثورة الشباب عام ١٩٦٨ قد جاءت كرد فعل ايجابى تجاه مظاهر القلق والاغتراب التى يعيش فيها الشـباب ، ويفرضها عليهم النظام القائم على العقلانية والترشيد ، دون أى اهتمام بحرية الفرد أو مصيره • ولقد جاءت ثورة الشـباب كدليل واقعى وحى على أن هنـاك واقعا جديدا آخذا فى الظهور يختلف تماما عن الواقع القديم المرتبط بالنظام العـام ، وأن الأيديولوجيات والنظريات المرتبطة بهـذا الواقع القـديم لا تستطيع أن تستوعب هـذا الواقع الجديد او تسبر أغواره • وتنقلنا هـذه النقطة مباشرة الى المستوى الثانى من الصراع الذى نود ايضاحه هنا ، وأعنى الصراع الفكرى •

ثانيا ـ ازمة المجتمع الراسمالى : نحو بنـاء فكرى جـديد :

صاحب ظهور اليسار الجديد وما ارتبط به من حركات اجتمـاعية حركة فكرية عبرت ـ على المستوى الفكرى ـ عن رفضها للمجتمع الراسمالى وما يرتبط به من أيديولوجيات ونظريات • ولقـد اتخذت هـذه الحركة طابعا نقديا موجها الى بناء المجتمع نفسه من ناحية ، والى البنـاء النظرى من ناحيـة أخـرى(٢٧) • وترجع أهميـة هـذه الحـركة النقـدية الى الاعتبارات الآتية :

---

(٢٦) Ibid., p. 40.

(٢٧) نود أن ننوه هنا الى أن الحركة النقدية التى نتحدث عنها هنـا تختلف عن الاتجاهات النقدية فى علم الاجتماع • حقيقة اننا سوف نجد أن هناك أوجه شبه كثيرة بينهما ، ولكن الحركة النقدية هنا لم تنبع من علماء الاجتمـاع فقـط ، وانمـا نبعت من كل القـوى الفـكرية : السياسية ، والاقتصادية ، والفلسفية ، والاجتماعية • ولقـد كان لهـذه الحركة تاثير كبير على الصورة المبكرة للحركة النقدية فى علم الاجتماع كما اتضحت عند رايت ميلز ، الذى سوف نفرد له فصلا كاملا فيما بعـد •

(أ) أن هـذه الحركة تكشف بجلاء عن واقع المجتمع الراسـمالى ، وتميط اللثام عن تناقضـاته الداخلية التى كانت أساسا لظهور الحركات الاجتماعية المتمردة ٠

(ب) أن هـذه الحركة قد ارتبطت ارتباطا وثيقا باليسار الجديد ، بحيث يمكن القول أن مهمة النقاد كانت تنحصر فى الكشف عن مشـكلات البناء الاجتماعى القائم وربطها بالاطار العام لهـذا البناء وما يتحكم فيه من قوى ، بينما كانت مهمة الحركات الاجتماعية محاولة تغيير هـذا البناء ، أو ممارسـة كافة الضغوط من أجل تغييره ٠ وكلاهما (الفكر والممارسـة) يعبران عن بعض مظاهر الصراع الفكرى والبنائى فى المجتمعات الغربية ٠

(ج) أن الاتجاه النقدى المبكر فى علم الاجتماع ـ كما تمثل فى آراء رايت ميلز ـ قد انبثق مباشرة عن هـذه الحركة النقـدية ، بل انه ارتبط بها وشارك فيها فرايت ميلز ـ مثل هـذا الاتجاه النقدى المبكر ـ يعتبر أحـد دعاة اليسار الجديد ، واحد الذين وجهوا نقدهم للمجتمع الراسمالى ٠ ولكنه استطاع أن يرتفع من مستوى النقد الاجتماعى الى مستوى النقد السوسـيولوجى الأمـر الذى ميز آراءه النقـدية عن آراء معاصريه من جيل النقاد ٠

والى جانب هذه الحركة النقدية استطاع زعماء الحركات الاجتماعية وخاصـة حركة الطلبة أن يطوروا بعض الآراء والاتجاهات الفكرية التى تضافرت مع الحركة النقدية فى توليد بناء فكرى جديد يعارض البناء الفكرى القديم ويرفضه رفضا ٠ حقيقة أن هذا البناء الفكرى الجديد لم يستطع تغيير البناء الفكرى القديم ، ولكنه دخل فى صراع عميق معه فاستطاع أن يولد مزيدا من النقد ومزيدا من الهدم للفكر القديم ٠

فقد تميز العقدان السادس والسابع من هذا القرن ـ وهما العقدان اللذان شهدا أكبر انتفاضه لليسار ـ بظهور بنـاء فكرى جديد يخرج عن اطار الفكر المحافظ الذى يرغب فى الابقاء على النظام القائم ٠ واتجه هـذا البناء الجديد نحو الكشف عن عيوب هذا النظام فى مقابل التنظير له وحمايته عند الاتجاه المحافظ ، ونحو فهمه على أنه نظام مفكك غير مترابط البناء فى

مقابل فهمه على انه متكامل العناصر والأجزاء عند المتجاه المحافظ ، ونحو فهمه على انه نظام يخبر ازمة داخلية من خلال تناقضات وصراعات كامنة فى صلب بنائه فى مقابل فهمه على انه يخبر استمرارا واستقرارا مستمرين وانه قد تغلب على كل تناقضاته الداخلية عند الاتجاه المحافظ • وسوف نحاول فى هذه الفقرة أن نتلمس تطور هذا البناء الذكرى للجديد بدءا من محاولات نقد المجتمع وتشخيص أزمته ، وحتى الدعوة السافرة الى رفض النظم القديمة والأفكار المرتبطة بها من خلال زعماء حركات اليسار الجديد ومنظريها •

فى عام ١٩٥٠ أصدر ديفيد ريسمان D. Riesman كتابه الشهير بعنوان The Lonely Crowd الذى عالج فيه مشكلات المجتمع الجماهيرى(٢٨) • أوضح ريسمان فى هذا الكتاب التغيرات فى طابع الشخصية الأمريكية ، الى جانب التغيرات فى بناء المجتمع الأمريكى ذاته فقد أفرزت مجتمعا جماهيريا يتكون من حشود من الأفراد المنعزلين ، الذين يمكن قيادتهم والتحكم فيهم بسهولة ، دون أن يصدروا أى قرار يتعلق بمصيرهم • وفى تفسيره لهذه القضية ميز ريسمان بين ثلاثة أنماط من الشخصية : النمط الذى توجهه التقاليد Tradition-directed والنمط الموجه من الداخل Inner-directed والنمط الموجه من خلال الآخرين Other-directed . وتشير هذه الأنماط الى أساليب مختلفة يواجه الأفراد من خلالها مشكلات الحياة فى مجتمعهم • فهم قد يتعاملون مع هذه المشكلات من خلال القواعد العرفية (النمط الأول) أو يطبقون معيارا يتفقون عليه كطلب أخلاقى (النمط الثانى) ، أو يحاولون الامتثال لما يفعله الآخرون (النمط الثالث) • واعتقد ريسمان أن الأمريكيين كانوا يتميزون فى بداية القرن التاسع عشر بأنهم موجهون من الداخل (من خلال تشرب الأخلاق البروتستنتية) ، ثم أصبحوا فى منتصف القرن العشرين موجهين من خلال الآخرين • فالفرد

---

(٢٨) David Riesman, The Lonel Crowed. A Saudy of the Changing Amefican Character, New Haven, Yale University Press, 1950.

وقد اعتمدت فى عرضه على كتاب بوتومور « نقاد المجتمع » السابق الاشارة اليه •

يسعى دائما الى أن يمتثل قيم الجماعة التى يجد نفسه داخلها • وقد صاحب هذا التحول تحول فى نوعية المجتمع ذاته حيث تحول من مجتمع تلعب قيمة « العمل » فيه دورا كبيرا الى مجتمع تلعب فيه قيمة « الاستهلاك » دورا كبيرا • ولقد طرات بعض التغيرات على العمل نفسه بحيث تحول من شىء يحقق الاشباع الداخلى الى شىء يرضى الآخرين ، فلم يعد النجاح فى العمل يعتمد على كفاءة الشخص ومهارته أو على درجة اشباعه الداخلى وانما يعتمد على درجة تكيف الشخص مع العالم المحيط به • وتنسحب هذه التغيرات على دنيا السياسة : فلم يعد الفرد يتحكم فى توجيه ذاته حسبما تملى عليه اخلاقه أو مصالحه أو كلاهما معا ، وانما أصبح فردا يوجهه فرد آخر ، أو جماعة أخرى : تحدد له مصالحه ، ومجالات تعاونه ، وتستدعيه الى الانتخابات متى شاءت وهكذا • وتحول الأفراد بذلك الى مجرد حشود أو « قطعان » Crows توجهها قوى خارجية وليس لها اى سلطان على ذاتها أو مصيرها • فضلا عن ذلك فان الموجهات الخارجية التى توجه هذه الحشود لا تدفعها نحو الخلق والابداع ، وانما تدفعها الى مزيد من التشتت والانتشار • ولقد دفع ذلك ريسمان الى المطالبة باسلوب جديد من التفكير الخلاق أو اليوتوبى ، بحيث يكون هذا التفكير بمثابة تحديد ثقافى يمكن أن نكتشف من خلاله ضروبا جديدة من النشاط تكون اكثر فائدة لاستقلال الانسان وحريته(٢٩) •

واذا كان ريسمان قد عالج الجوانب الاجتماعية والثقافية للعمل وقت الفراغ ، فان جالبراث Galbraith قد عالج الجوانب الاقتصادية لهما فى كتابه الشهير «مجتمع الوفرة»(٣٠) The Affluent Society• وجه جالبراث

---

(٢٩) ويسم بوتومور هذا النوع من التفكير الذى يطالب به ريسمان بانه تجديد ثقافى لأن هذا التفكير لا يوجه لاحداث تغير سياسى بقدر ما هو موجه الى لجداث تغير اجتماعى ثقافى نفسى • غير اننى لا اوافق بوتومور على هذا الراى وذلك بسبب الحقيقة البسيطة التى مؤداها ان التغير السياسى لا يأتى الا بعد أن يكون التغير الثقافى الاجتماعى قد قطع شوطا بعيد المدى • فمن الممكن أن يكون للتغير السياسى حتميا او ممكنا على الأقل اذا ما استطاع الأفراد أن يكونوا نمطا موجها من الدخل •

(٣٠) Calbraith, **The Affluent Society**, 1950.

وقد اعتمدت فى عرضه على كتاب بوتومور « نقاد المجتمع » للسابق الاشارة اليه •

نقـده لمـا أسماه بالعقل الاقتصادى التقليدى Conventional Economic Wisdo.. الذى ينبهر بالتراكم الهائل للسـلع الاستهلاكية ، دون ان يدرك تناقص اهميتها فى مجتمع الوفرة • فالسلوك الرأسمالى بالمعنى التقليـدى – الذى يهتم فقط بتحقيق أكبر قدر من الربح – يخلق آثارا جانبية خطيرة • ومن ثم يجب أن يتغير بحيث يولى أهمية أكبر لراحة العامل وسعادته • وهنا تظهر مجموعة من البدائل يمكن الاستفادة بها فى الوصول الى مجتمع وافر • أحـد هـذه البدائل هو زيادة أوقات الفراغ ، اما عن طريق تقليل ساعات العمل . أو تقليل اعـداد الأفراد الذين يُعملون بالفعل • وثانى هـذه البدائل هو اتفاق بعض الافراد على العمل ذاته يصبح أكثر سـهولة وأكثر سعادة • وثالث هـذه البدائل هو العمل بقـدر الامكان على تطوير المهن التى تحقق قدرا كبيرا من المتعة لأصحابها خاصة فى المهن التى تتطلب ذكاء ومهارة والتى تعتمد على تحصيل قـدر كبير من التعليم • ورابع هذه البدائل هو تحويل عملية توزيع الموارد والتحكم فيها من المستوى الخاص الى المستوى العام ، الأمر الذى يترتب عليه أن يتحول جزء كبير من العائد الى تجويد أسـاليب المتعة العامة سواء فى المدينة او الريف •

وهذه التحولات التى يتصورها جالبراث يمكن أن تقضى – فى نظره – على الآثار السـيئة للأسـلوب الرأسمالى التقليـدى ، وعلى راسـها عـدم المساواة • فتحويل عملية التحكم فى الموارد وتوزيعها من المستوى الخاص الى المستوى العام بمعنى تدخل الحكومة فى هذا التوزيع وابعـاد الأفـراد أو القـرارات الشخصية عن التاثير فى هـذه العملية ، يساعد على توزيع العائد بطريقة عادلة ، ويشـجع الدولة على تقديم الكثير من الخدمات • كما أن التوسع فى الايكنة والتعليم سوف يحققان مزيدا من المساواة الاقتصـادية ففى المجتمع الذى يلعب فيه التخطيط التعليمى ، والتحكم الآلى ، والأنشـطة الثقـافية دورا كبيرا فى العمليات الانتاجية ، من المتوقع الا يظهـر داخـله تفاوتا كبيرا فى الدخل •

ورغم المسحة الاقتصادية التى يضيفها جالبراث على آرائه ، ورغم عدم تعمقه فى مناقشة العوامل السياسية الكامنة خلف الأسـلوب الاقتصـادى الذى يتناوله بالتحليل والنقد ، رغم ذلك فان لآرائه وجهـتى يكشفان عن

ثورة على النظام الاقتصادى القائم : الوجه الأول هو عدم موافقته على النظم الانتاجية التى تؤدى الى انهاك العامل ، واسعاد فئة على حساب فئة أخرى من خلال الاختلاف فى فرص التعليم والاستهلاك ، والاستمتاع بوقت الفراغ • والوجه الثانى هو تصوره لمجتمع جديد هو المجتمع القائم على الوفرة • وهو مجتمع يجب أن تزداد فيه ساعات أوقات الفراغ عن ساعات العمل ، ويجب ان يصبح العمل فيه أكثر جلبا للسعادة والراحة ، كما يجب أن تبرز فيه اهمية المهن القائمة على المهارة والذكاء ، وأخيرا يجب ان يتولى فيه تخطيط الموارد وتوزيعها وتخطيط الاستهلاك وتوزيعه مؤسسات عامة بحيث تتحقق اكبر درجة من العدالة والمساواة بين الأفراد •

واذا كان ريسمان وجالبرلث قد اهتما بالنقد الاجتماعى الاقتصادى للنظام القائم ، فان ... من اتجه فكرهم اتجاها نقديا وأيديولوجيا ونظريا فى ذات الوقت • ولقد ارتبط هؤلاء المفكرون ارتباطا وثيقا بحركات اليسار الجديد ، وكان نقدهم للنظام القائم والأيديولوجيات المرتبطة ودعوتهم الى مجتمع جديد وفكر جديد ، كان ذلك عونا وسندا لليسار الجديد فى قيادة حركاته الاجتماعية ودفعها نحو مزيد من أعمال العنف والاحتجاج • على رأس هؤلاء المفكرين المفكر والفيلسوف هربرت ماركيوز(٣١) • وتعكس آراء ماركيوز قدرته الفائقة على استيعاب أحداث العصر ، وتمثل لما فيه من صراعات وتناقضات ، ثم اعادة تأمل الأبنية الفكية من خلال هذه الأحداث ، وذلك من أجل هدف أساس هو محاولة تغيير هذه الأبنية الفكرية وبالتالى تغيير المجتمع ذاته • ويهمنا ـ لتحقيق اغراض الدراسة ـ أن نبرز ثلاثة عناصر أساسية فى فكر ماركيوز : نقده للأساليب الفكرية السائدة كما تمثل ذلك فى نقده للوضعية ، ونقده للمجتمع كما تمثل ذلك

---

(٣١) ولد هربرت ماركيوز فى المانيا عام ١٨٩٨ ، ودرس الفلسفة فى برلين وفرايبرج ، وساعد مع ماكس هوركهايمر فى تأسيس مدرسة فرانكفورت فى الماركسية الاجتماعية ، ثم ترك المانيا عام ١٩٣٢ وعمل فى معهد البحث الاجتماعى فى جنيف ، ورحل بعد ذلك الى أمريكا حيث عمل فى جامعات كولومبيا وهارفارد وكاليفورنيا • انظر : موريس كرانستون (مشرف على التحرير) ، **اليسار الجديد** ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ • ص ص ٧٤ ـ ٧٥ •

فى نظريته عن الانسان ذى البعد الواحد ، ثم برنامجه او رؤيته لأسلوب تغيير الفكر وتغيير المجتمع ٠

١ ـ فى كتابه « العقل والثورة »(٣٢) أتى ماركيوز بشواهد قاطعة تثبت أن المذهب الوضعى كان منذ بداية نشأته على يد اوجست كونت وتلاميذه فى القرن التاسع عشر ، مرتبطا بالاتجاه المحافظ فى مجال السياسة، وراضخا للنظام الاجتماعى القائم ، وراغبا فى المحافظة على الأوضاع السائدة ومحاربة اى اتجاه نحو تغييرها ٠ وتلك حقيقة اكدناها فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ولسنا بحاجة الى اعادة تأكيدها هنا ٠ وما يهمنا هو تأكيد رفض ماركيوز للوضعية كصيغة فكرية تسيطر على التفكير الراسمالى ٠ ولم يرفض ماركيوز الوضعية فى صورتها القديمة ، وانما رفضها ايضا فى صورتها المحدثة ٠ ولقد ظهر رفضه لهذه الصورة المعاصرة للوضعية فى الفصول الأخيرة من كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » فالوضعية فى شكلها المعاصر هى فلسفة تحليلية تحاول ان تحقق أكبر قدر من الدقة العلمية لتتخلص من غوض وميتافيزيقية ولا منطقية المذاهب التقليدية ٠ ولكى تحقق هذه الغاية تركز الوضعية التحليلية على الطابع الشكلى أو الرمزى من ناحية ، وعلى النزعة التجريبية من ناحية اخرى ٠ وفى كلتا الحالين ترفض التناقض مع العالم الشائع ، أو محاولة تجاوزه أو تغييره ٠ انها بذلك تتضافر مع علم الاجتماع ـ المرتبط تاريخيا بالوضعية القديمة ـ فى القضاء على كل انحراف عن القواعد المقبولة فى المجتمع ، واستبعاد الأفكار النقدية التى يمكن أن تقيم رابطة بين هذا الانحراف وبين مثالب المجتمع ككل أو مثالب النظام ككل ٠ ويذهب ماركيوز بناء على هذا الى أن هذه الصورية التى تتميز بها الوضعية التحليلية ما هى الا تدعيم للأيديولوجية القائمة ٠ فهى تمتنع عن تجاوز ما هو معطى وتترك كل شىء على ما هو عليه أو أنها تسعى الى احداث « تنسيق بين العمليات العقلية والعمليات التى تجرى فى الواقع الاجتماعى »(٣٣) على حد تعبير ماركيوز ٠

---

(٣٢) هربرت ماركيوز ، **العقل والثورة ، هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية** ، ترجمة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ٠

(٣٣) نقلا عن : السدير ماكنتير ، **ماركيوز** ، ترجمة عدنان كيالى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٢٢ ٠

فالفلسفة الوضعية التحليلية تدعى انها تسعى الى تحقيق اكبر قدر من وضوح الرؤية ، والتخلص من التعقيد الميتافيزيقى • وفى سعيهم الى تحقيق الوضوح يلجأ الفلاسفة التحليليون الى لغة الحياة اليومية ، ويبذلون جهودا مضنية فى تحليل أساليب الحديث الشائعة على انها معيار للتعبير السليم ، وهنا تظهر الخطورة الأيديولوجية لفلسفة التحليل ، من وجهة نظر ماركيوز • فالاقتصار على اتخاذ الوضوح فى التفكير هدف ، والنظر الى الحديث الشائع على أنه معيار للتعبير السليم ، وعلى انه الاطار الذى يتحرك داخله كل تعبير سليم ، يؤدى الى حرماننا من فرصة الاحتفاظ بحقنا فى التفكير من خلال عبارات غير العبارات الشائع استخدامها •• ان التعبيرات التى لا يمكن تحقيقها بالمقاييس المعتادة ضرورية ، والخروج على قواعد الاستخدام الشائع ، بل على قواعد المعنى ذاتها ، كان فى احيان معينة أمرا لا بد منه لكى تؤدى الفلسفة مهمتها الحقيقية مهمة تمكين الانسان ـ على المستوى الأيديولوجى ـ من تجاوز الأوضاع الفاسدة المقيمة او المتناقضة السائدة فى واقعه »(٣٤) •

ففهم الواقع المتناقض ، القائم على الوهم والخداع ، يتطلب ضربا من ضروب التفكير يثور على كل ما هو شائع داخل هذا الواقع • فماركيوز هنا يدعو الى بناء فكرى جديد يعارض البناء القديم ويتناقض معه بناء فكرى يوجه نحو فهم الواقع فهما حقيقيا ، ونحو الكشف عن تناقضات هذا الواقع وأساليب اخفاء هذه التناقضات • ومن الطبيعى ان يتناقض هذا البناء الفكرى النقدى مع ضروب الفكر التى تدعم هذا الواقع ولا تسعى الى تغييره ، فالتناقض امر لا بد منه لكل فكر نظرى يريد ان يثور على هذا الواقع المتخبط وان يعمه على تغييره »(٣٥) •

ويكشف هذا العرض السريع لموقف ماركيوز من الفلسفة الوضعية سواء فى صورتها القديمة أو الحديثة عن ثورته على أساليب الفكر المرتبطة بمشكلة النظام الاجتماعى العام ، وهى ثورة تنبع من عنصرين أسهما

---

(٣٤) فؤاد زكريا ، الفلسفة الوضعية بين لينين وماركيوز ، مقال بمجلة الفكر المعاصر ، العدد ٦٤ ، يونيو ١٩٧٠ ، ص ٧ •
(٣٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة •

فى تكوين فكر ماركيوز : العنصر الأول هو اعادة تفسير فلسفة هيجل ، وفهمها على أنها فلسفة ثورية ارتبطت بالثورة الفرنسية ، من حيث أنها اتخذت من فكرة « السلب » n:gation محورا أساسيا لها • فحركة الجدل عند هيجل هى حركة تتسم أساسا بأنها رفض وانكار لما هو قائم فعلا ، وسعى الى مركب أشمل منه وأقل تناقضا ، ما يلبث أن يدخل فى تناقض جديد وهكذا • « فالسلب كامن فى قلب كل شىء » ، أى أن كل شىء يحمل فى داخله نقيضه ، ويحمل ايضا عوامل رفضه والثورة عليه من أجل تجاوزه »(٣٦) • ولا شك أن تشرب ماركيوز لهذه الروح الثورية فى فلسفة هيجل ، وتدعيمها من خلال الفلسفة الماركسية ، قد أكسب فكره طابع الرفض والثورة على ما هو قائم • والعنصر الثانى : هو استيعابه لتناقضات المجتمع الراسمالى ، واساليب الفكر المدعمة له • فلم يكن لماركيوز أن يستخدم ما تشربه من فلسفة هيجل وماركس فى نقد الفكر الراسمالى والبناء الاجتماعى الراسمالى ، لو لم تكن هناك الكثير من التناقضات الكامنة فى قلب هذا الفكر وذلك البناء • ومن الطبيعى أن يأتى نقده للفكر قبل نقده للواقع ، لايمانه بأن بنية الفكر تفرض على العالم تركيبا معينا ، وتلك مقولة اساسية فى فلسفة هيجل •

٢ ـ وبناء على ذلك تكون فكرة « السلب » نفسها هى التى ولدت لدى ماركيوز القدرة على نقد الواقع الراسمالى المتناقض ، ذلك النقد الذى قدمه فى كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » ويلخص سعد الدين ابراهيم ما جاء فى كتاب ماركيوز هذا فى العنصر التالية : (أ) أن المجتمع الصناعى قد فقد رؤية حقيقة انه نتاج أيديولوجية معينة ، وبالتالى فقد الانسان أيضا هذه الرؤية واصبح يتصور خطأ ان حركته هى حركة مطردة على طريق التقدم • (ب) فات على هذا الانسان أن يفحص الأيديولوجية المعاكسة أو البديلة لما هو سائد فى مجتمعه ، ومن ثم اعتقد أن ما هو مرغوب ليس افضل مما هو موجود • (جـ) وهو بذلك لا يستفيد من

---

(٣٦) فؤاد زكريا ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب **العقل والثورة** السابق الاشارة اليه ، ص ٨ •

(٣٧) سعد الدين ابراهيم ، **علم الاجتماع الأمريكى بين التواطؤ والثورة** ، مرجع سابق •

الامكانية الغنية ـ روحيا وفنيا وماديا ـ التى تنبثق عن الملاطمة الجدلية بين ما هو سائد من ناحية وبين نقيضه من ناحية اخرى . (د) وعدم ادراك هذه الامكانية وعدم الاستفادة منها يرجع الى طبيعة التركيب السياسى القائم وتسلط وسائل الاعلام التى تغرق الفرد بطوفان من المعلومات والفرضيات المغلوطة تهدف الى تجميد الوضع على ما هو عليه . (هـ) يترتب على ذلك أن يكون البديل المطروح لتغيير هذا الوجود ذا البعد الواحد هو « التفكير السلبى » الذى يرفض الاشتراك فى « اللعبة » المفروضة بواسطة الصفوة الحاكمة ووسائل الاعلام .

ان ماركيوز هنا يحلل بناء المجتمع الراسمالى ، ويكشف عن تناقضه الداخلى : التناقض بين التقدم التكنولوجى وبين الواقع الاجتماعى . ففى الوقت الذى تقدم فيه المجتمع من الناحية التكنولوجية والفنية ، لم يستطع هذا التقدم أن يضمن للانسان حريته واستقلاله ، لأن النظام القائم يفرض عليه « بعدا واحدا » فى التفكير والسلوك ، ويغرسه فيه من خلال وسائل الاعلام دون ان يترك له حرية التفكير فى الجانب المعاكس أو الراى المضاد . ومن الطبيعى ان يدعو ماركيوز الأفراد الى رفض هذا النظام ذى البعد الواحد ، وذلك اذا ارادوا لأنفسهم مزيدا من الحرية والاستقلال فى التفكير .

٣ ـ وينقلنا ذلك مباشرة الى مناقشة وجهة نظر ماركيوز فى تغيير المجتمع او مخططه لهذا التغيير . لا شك ان الرفض أو السلب هو الطريق الوحيد لهذا التغيير . ولكن يبقى التساؤل عن نوعية هذا السلب : هل يقتصر على الرفض الفكرى أم يتعداه الى الرفض الثورى ؟ الحقق ان ماركيز قد حدد لرفض النظام القائم مستويين : مستوى فكرى غايته رفض أساليب التفكير القائمة ونقد مستمر للواقع الذى تدعمه هذه الأساليب الفكرية . ومستوى واقعى غايته رفض الواقع من خلال السلوك الثورى الذى يحطم كل مظاهر القهر المرفوضة على الأفراد . ولقد اتضح اتجاه ماركيوز نحو العنف الثورى من خلال كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » حيث ذهب الى ان فرصة الاحتجاج الثورى تكمن فى لجوء النواة الصلبة من المنبوذين والخوارج والمستغلين والمضطهدين من كل الأجناس والألوان فضلا عن العاطلين عن العمل وغير القادرين عليه ، الى اتخاذ موقف متطرف يمكن

من خلاله ان يغيروا حياتهم الى الأفضل ٠ غير ان افكاره عن العنف الثورى لم تتضح بجلاء فى مقالين له ظهرا بعد كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » ٠ الأول عام ١٩٦٦ بعنوان « نقد التسامح التام A Critique of Ppre Tolerance ، وصدر الثانى عام ١٩٦٩ بعنوان « بحث فى التحرير » ٠

ذهب ماركيوز فى المقال الأول الى ان التسامح الذى تدعيه الديمقراطيات الصناعية المتقدمة ليس سوى ضرب من ضروب الخداع ٠ فسماح هذه الأنظمة للأقلية بالتعبير عن رأيها لا يأتى الا لتأكدها انه ليس لآراء الأقلية اى أثر فعال ٠ فالتسامح يساعد النظام القائم على أن يسيطر على الأغلبية ويتحكم فيها ويقولب افكارها على نحو يجعلها عاجزة عن فهم الانتقادات الجذرية أو الاستماع اليها(٣٨) ٠ ومن ثم يرفض ماركيوز مبدأ التسامح لأنه السبب الحقيقى للسيطرة على جموع الشعب ، وفى مقابل هذا الرفض يدعوا الى التعصب الثورى ضد كل النظم المعادية للاشتراكية ٠ فلا بد من التعصب « ٠٠ ضد الفكر والراى والكلمة ، وضد الاتجاه المضاد ، اى ضد المحافظين المزيفين واليمين السياسى ٠ وهذه الأفكار اللاديمقراطية ما هى الا استجابة للتطور الفعلى للمجتمع الديمقراطى الذى حظم اسس التسامح التام ٠ لأن الظروف التى يمكن ان يصبح فيها التسامح قوة محررة ومهذبة ما تزال غير موجودة »(٣٩) ٠

ولقد تقدم ماركيوز خطوة أخرى فى مقاله « بحث فى التحرير » ليرسم استراتيجية لتحرير الانسان فى المجتمع الحديث ٠ فاذا كان الطريق الى التحرير هو العنف الثورى كان لا بد ان يحدد ماركيوز القوى التى تتزعم هذا العنف الثورى يذهب ماركيوز فى هذا المقال الى ان المجتمعات الصناعية المتقدمة (بما فيها الاتحاد السوفيتى طبعا) قد نجحت فى ان تجعل غالبية سكانها يتكيفون مع نظمها بحيث أصبحت احتياجات الأفراد

---

(٣٨) السمير ماكنتير ، ماركيوز ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ ٠

(٣٩) Berbert Marcuse, A Critique of Pure Tolerance, Essays by R. Wolk, B. Morie Jr., and Marcuse, Beason Press, 1966.
والنص نقلا عن موريس ككرانستون ، « هربرت ماركيوز » فى موريس كرانستون (مشرف على التحرير) ، اليسار الجديد ، مرجع سابق ، ص ٧٣ ٠

ومطامحهم متماثلة باستثناء اقلية صغيرة · هذه الأقلية هى التى تدرك احتياجاتها الحقيقية ، وهى التى يمكن أن يكشف من خلال وعيها مثالب النظام القائم · ولأن الأكثرية (غالبية السكان) غير قادرة على الاعلان عن حاجاتهم الحقيقية ، فان هذه الأقلية الواعية يجب أن تتولى هذه المهمة عنهم · ومن ثم يجب أن تخف هذه الأقلية الواعية لنجدة الأغلبية المسلوبة الارادة المغلوبة على امرها · ولا تتمثل هذه الأقلية فى طبقة العمال · حقيقة أن هذه الطبقة تستطيع أن تحطم نظام الانتاج وعلاقاته وتعيد تشكيلها من جديد ، ولكن الواقع يكشف عن أن هذه الطبقة ليس لديها من الاهتمام ولا من الحاجة ما يكفى لدفعها للقيام بهذه المهمة · وهى متلاحمة مع النظام تلاحما قويا · ولذا كان ماركيوز قد عزل الطبقة العاملة من دورها التاريخى ، فانه لم ينط هذا الدور بفئة معينة · فيجب أن يقوم به كل من يحس الاستغلال والظلم تحت وطأة النظام · ومن ثم فان الثورة يمكن أن تتم على ايدى الطلبة ، والزنوج من سكان الأكواخ ، وانصار الثورة الثقافية فى الصين ، وجبهات التحرير فى كوبا وفيتنام · وتختلف هذه القوى فى اصولها الطبقية وطبيعة تكوينها ، ولكنها تشترك فى عنصر واحد هو عداؤها لحكومات المجتمعات الصناعية المتقدمة · ويركز ماركيوز تركيزا خاصا على الحركات الطلابية ، ويعتبرها حركات تحرير اصيلة لها ثقافة تختلف اختلافا كبيرا عن ثقافة السوق الشائعة وتتناقض معها ، وهنا تكمن قوتها وقدرتها على التغيير(٤٠) ·

وتكشف آراء ماركيوز هنا عن ثلاثة عناصر :

العنصر الأول : انه تخلى كلية عن الدور التاريخى للطبقة العاملة بالمفهوم الماركسى ، بسبب وضع الطبقة العاملة فى المجتمعات الصناعية ، حيث استطاعت هذه المجتمعات ان تشكل هذه الطبقة داخل نظمها الراسمالية ، وان تقدم كل المغريات جعلها تتخلى عن دورها للتاريخى · ولا شك أن ماركيوز قد رأى أن بنية المجتمعات الصناعية الحديثة لم تفرز طبقة معينة تستطيع ان تقوم بمهمة تحرير هذه المجتمعات · فقد فشلت الثقافة الغربية فى انتاج طبقة تتخطى قدرات النظام القائم ، بحيث يؤدى

---

(٤٠) السدير ماكنتر ، ماركيوز ، صص ١٤٦ ـ ١٤٩ ·

وجودها الى تغيير علاقات الانتاج القائمة • ولذلك رأى ماركيوز أن الثورة لا بد أن تقوم بها فئات مختلفة ذات اصول طبقية مختلفة ، تتفق على رؤية نقدية صريحة للمجتمعات الصناعية •

العنصر الثاني : أن التحرير فى مفهوم ماركيوز لا يشتمل على تحرير المجتمعات الصناعية الحديثة فقط ، وانما يمتد ليشمل كل انحاء العالم ، وحيث توجد أقدام لهذه المجتمعات أيضا • فلا شك أن جانبا كبيرا من القهر والظلم فى العالم الثالث يرجع الى امتداد نظام السيطرة والتحكم السائد فى المجتمعات الصناعية الى هذا العالم ، ومن هنا تأتى ضرورة تحالف القوى الثورية فى هذا العالم مع القوى الثورية فى العالم الصناعى نفسه من أجل تحقيق تحرر عالمى •

العنصر الثالث : تكشف آراء ماركيوز عن ادراكه للعلاقة القوية بين الصراع البنائى والصراع الفكرى • فكل منهما يثرى الآخر ، ويفتح له آفاقا جديدة • فالفكر النقدى يلهم الحركة الاجتماعية رؤية حقيقة بالبناء الاجتماعى القائم • والحركة الاجتماعية تقدم للفكر النقدى اشكالا جديدة من الصراع والممارسة السياسية تجعله يتقدم نحو فهم أعمق للبناء الاجتماعى • ومن خلال الجدل المستمر بينهما تزداد حدة التصادم والصراع بينهما وبين البناء القديم والفكر القديم اللذين يسعيان الى تغييرهما •

ولعل فى هذه العلاقة بين الحركة الاجتماعية والفكر النقدى ما يفسر لنا الموقف الفكرى لزعماء الحركات الطلابية عام ١٩٦٨ ، ذلك الموقف الذى يضيف لنا مثالا جديدا على حدة الصراع الفكرى فى المجتمعات الصناعية • فلا يختلف الباحثون على أن أعضاء الحركات الطلابية ينتمون الى اليسار الجديد ولكن الكثير من هؤلاء الباحثين يتهمون اعضاء اليسار الجديد من الشباب بانهم من انصار نزعة معاداة الفكر(٤١) •

---

(٤١) اذا كانت المعرفة الانسانية قائمة على العقل والتفكير ، فان بعض الباحثين يعتقدون أنه قد سادت ببعض فترات التاريخ نزعة تحارب العقل والفكر أطلقوا عليها نزعة معاداة الفكر Anti-Intellectualism فقد الف هوفستادر Hofstadter كتابا بعنوان « نزعة معاداة الفكر فى الحياة =

Anti-Intellectuatlism والسبب الرئيسى وراء توجيه هـذا الاتهـام هو موقف الجيل الجديد من الأيديولوجيات السـائدة فى المجتمعـات الصناعية المتقدمة • ولكننا نقرر هنا أن رفض هـذه الأيديولوجيات لا يعنى أن جيل الشباب يعادى الفكر أو يخاف منه ، وانما هو موقف يحتاج الى الكثير من التأمل والتفسير • فتفسيره على أنه ضرب من ضروب معـاداة الفكر هـو تفسير ينطوى على الكثير من البساطة والسطحية •

ولقد بذل الكثير من الباحثين جهودا لتفسير هـذا الموقف على رأسهم الفن جولدنر الذى فسره فى ضوء الاختلافات بين الجيل القديم والجيل الجديد. الاختلاف فى الاهتمامات ، وفى البناء الفكرى ، وفى المشـاعر والاحساسات • فالتغيرات التى طرأت على المجتمعـات الغربيـة انتجت بنـاء جـديدا من الاحساسات والمشاعر ، ومن ثم كان لا بد أن يرفضـه الجيل الجديد ـ الذى يمتلك هذه المشاعر والاحساسات الجديدة ـ النظريات القديمة التى انتجها جيل الكبار(٤٢) • ولا شك أن تفسير جولدنر ينطوى على جانب كبير من الصواب ، غير اننـا نود أن نطرح تفسيرا جديدا لهـذا الموضوع •

نقرر بداءة أن الموقف الراديكالى لجماعات اليسار الجديد لا ينطوى على أى نوع من معاداة الفكر ، ولكنه يرتبط بموقفهم من اسلوب تغيير المجتمع وتصوراتهم عن هذا التغيير • والحقق أن جماعات الراديكاليين يرفضـون

=
الأمريكية ، قدم فيه العديد من الأمثلة على معاداة ومعارضة الحياة الفكرية فى المجتمع الأمريكى والتى بلغت ذروتها فى الخمسينيات • ولقد ظهرت هذه النزعة بطريقة عارضة وجزئية فى بعض الفترات التاريخية ، فى فرنسـا فى اثناء حكم نابليون ، فى بريطانيا بين ملاك الأرض فى القرن التاسع عشر ، ولكنها تظهر فى أى مكان بنفس قوة ظهورها فى أمريكا • انظر :

R. Hofstadter, Anti-Intellectualism in America Life, Alfred A. Knoph, N.Y., 1964.

Bottomore, Critics of Society, op. cit., pp. 120—122.

(٤٢) A Gouldner, The Coming Crisis, op. cit.,

وتجدر الاشارة الى أن هذا التغير يتفق مع اهتمامات جولدنر بتغيير الفـكر كمنتج من منتجـات البنـاء الاجتماعى ، وكانعكاس لمشاعر المنظر واحاسيسه ورؤيته للعالم على ما سنرى فى الفصل الثامن من هذا الكتاب ،

الأبنية الاجتماعية القائمة على القهر والاستغلال ويرغبون تغييرها . وبناء على هذا يعتبر رفضهم للأساليب الفكرية القائمة هو انعكاس لرفضهم للأبنية الاجتماعية التى يرتبط بها هذا الفكر . ولا يدل هذا على رفض كل انواع الفكر على اطلاقها . وقد قررنا آنفا أن هناك علاقة جدلية بين الفكر النقدى الذى تزعمه هربرت ماركيوز وبين الحركات الاجتماعية . ولا شك أن قادة هذه الحركات واعضاءها قد أحسوا ان هناك من يتولى عنهم المهمة الفكرية ، أو أن هناك من يعبر عن افكارهم تعبيرا دقيقا . واذا كانت افكار ماركيوز قد توصلت الى نقطة طالب فيها بالعنف الثورى من اجل تغيير الفكر والواقع والبحث عن اطار فكرى جديد ، فان هؤلاء الراديكاليين قد أحسوا ان مسئوليتهم ليست مزيدا من الفكر وانما مزيد من الممارسة ومزيد من العنف . ولكنه ـ رغم ذلك ـ عنف لا ينفصل عن الفكر فالفكر ـ او رفض الفكر ـ هو الذى دفع للراديكاليين اساسا الى هذا العنف الثورى ، والعنف الثورى بدوره هو الطريق الى استراتيجية جديدة وواقع اجتماعى جديد . فالعنف الثورى المرتبط برفض الفكر القائم هو اذن حلقة فى هذه الحركة الجدلية المستمرة بين الفكر والواقع .

فالحركة الثورية لم تكن حركة عفوية فجرتها ازمة طارئة ، وانما كانت نتاج أزمة مستمرة فى المجتمعات الصناعية استطاع الفكر النقدى ان يكشف عن عناصرها ، ومن ثم وضع الأساس للحركة الاجتماعية الثورية التي تعد احد الوسائل ـ ان لم تكن اهمها ـ نحو تغيير المجتمع الذى يعيش هذه الأزمة . ونستطيع أن نبرهن على ما نذهب اليه هنا من واقع حديث الثوار انفسهم . يقول كوهن بنديت « .. أن الحركة الطلابية لا تطالب بالاصلاح (بالرغم من أن نشاطها قد بعث هذا الاصلاح) ولكنها تحاول ـ فى ضوء اهدافها الحالية ـ أن تتوصل الى استراتيجية يمكن أن تغير المجتمع برمته تغييرا جذريا »(٤٣) . ولذا كان هذا النص يكشف عن مدى وعى الحركة الطلابية باهدافها ودورها واسلوبها فى تغيير الواقع عن طريق استراتيجية معينة وهى استراتيجية لا بد ان تكون استراتيجية فكرية وواقعية فى ذات

---

(٤٣) Gabriel and Daniel Cohen Bendit, Obsolete Communism, The Left Wing Alternative, op. cit., p. 48.

الوقت ، اذا كان ذلك كذلك فان كلمات رودى ديتشكه ـ زعيم الحركة الطلابية فى المانيا ـ كانت اكثر تعبيرا من كلمات بندت حيث كتب يقول « يجب ان تتوقف كل المفاهيم القديمة للاشتراكية من خلال النقد بدلا من تحطيمها او المحافظة عليها بطريقة صناعية • ونحن لا يمكن ان نعثر بسهولة على مفهوم جديد • ان مثل هذا المفهوم الجديد يمكن ان يظهر فقط من خلال النضال للفعل ، ومن خلال التكامل المستمر بين التصور والفعل ، بين النظرية والممارسة(٤٤) • وهذا النص يعبر أصدق تعبير عن الموقف الحقيقى لجماعات الراديكاليين • فهو يرفض الاشتراكية القديمة ،ولكنه لا ينفى أنه اشتراكى • انه يرفض مفهومات الاشتراكية القديمة ويعبر فى نفس الوقت عن الحاجة الى مفاهيم جديدة للاشتراكية • ولكنه لا يعتقد ان هذه المفاهيم يمكن أن تبتدع ابتداعا ، بل يعتقد انها لا تنمو ولا تزدهر الا من خلال جدلية العلاقة بين الفكر والواقع ، بمعنى النقد المستمر للفكر والثورة المستمرة على الواقع •

فضلا عن ذلك فان كتابات هؤلاء الثوار تكشف عن أن لهم افكارهم الخاصة المتأثرة تأثرا بآراء هربرت ماركيوز • ذلك لأنهم قدموا تحليلات ممتازة للأبنية الاجتماعية فى المجتمعات الصناعية الرأسمالية والاشتراكية ، مركزين على دور الدولة ووضع الجامعة داخل المجتمع ، وخطورة المد البيروقراطى ، ومكانة الطبقة العاملة • ولقد قدموا خلال هذه التحليلات تصوراتهم واستراتيجيتهم لتغيير المجتمع •

ففى كتابهما بعنوان «الاشتراكية المبتذلة : بديل جناح اليسار»(٤٥). قدم الأخوين بندت تحليلا جيدا للبناء الاجتماعى فى المجتمعات الصناعية واهتما بظاهرة البيروقراطية ومدى تحكمها فى نشاط نقابات العمال ونشاط الحزب الشيوعى الفرنسى وانتاجها لطبقة ادارية جديدة • أما بالنسبة للبدان الاشتراكية فقد أوضحنا مدى ما تسببت فيه البيروقراطية من اضرار

---

(٤٤) Rudi Dutschke, "On Anti-Authoritarionism," in C. Oglesby (ed.), The New Left Reader, op. cit., p. 256.

(٤٥) G. and D. Cohen-Bendit. Obsolote Communism, op. cit., p.

ادت الى تجاوز طبقة البروليتاريا ، ومحاولة قيادتها من أعلى ، فضلا عن تقلص الصراع الطبقى · كما قاما بتحليل دور الطبقة العاملة وأوضحا الأسباب الكامنة وراء سلبيتها وعدم قدرتها على النضال · ولا شك أن هذا التحليل البنائى كان يستهدف شيئين : توضيح أن اسباب تمرد الشباب وثوريتهم كامنة فى تناقضات البناء الاجتماعى وصراعاته ، ثم ـ وهذا هو الشىء الثانى ـ بداية رسم استراتيجية لتغيير هذا البناء · والحقيقة انهما تحدثا كثيرا عن هذه الاستراتيجية · وعندما بدء هذا الحديث دخلا فى حوار مع لينين · فهما يعارضان رأيه الذاهب الى ان المناضل الحقيقى هو محام عن الشعب يستعمل كل مظاهر الرعب والاضطهاد ليفسر منطلقات الاشتراكية ومطالبة الديمقراطية · وسبب المعارضة هنا يأتى من أنهما ينظران الى العمل الثورى على أنه محاولة لفهم تطلعات الجماهير والتعبير عنها ، ومن ثم فان التاثر او المناضل لا يمكن أن يكون قائدا ولا يجب أن يكون كذلك · أنه يعيش وسط الجماهير ومن أجلهم · « فالثوار أقلية مناضلة تنحدر من طبقات اجتماعية مختلفة ، وهم يكونون جماعة منظمة بسبب اشتراكهم فى ايديولوجية واحدة ، ولأنهم يتعاونون سويا فى الكفاح ضد الاضطهاد ، وتخليص انفسهم من التجهيل (التعمية) الذى تمارسه الطبقات الحاكمة وجماعات البيروقراطيين(٤٦) · ويضيفان « ·· يجب أن تتم الممارسة السياسية داخل كل ابنية المجتمع ، فى نوادى الشباب ، وفى بيوت الشباب ، وحتى حفلات الرقص وشوارع المدينة ·· فالنضال يجب أن ينتقل الى كل مكان له صفة السوق »(٤٧) والنص الأول يكشف عن وجهة نظر الأخوين بندت فى الجماعة المنوط بها القيام بالثورة · فهى لا تتمثل فى طبقة معينة ، وانما فئات منحدرة من طبقات عدة تجمعها الأيديولوجية المعادية للنظام ، تكون جماعة منظمة Band ولا تكون طبقة · ويكشف النص الثانى عن اسلوب الممارسة السياسية التى يجب ان تنتهجه هذه الجماعة المنظمة · ان اسلوبها هو « حقن » العمل الثورى فى مكان ـ من الشارع والملاهى الليلية ، وحتى اكثر التنظيمات تعقيدا وعلى رأسها الجامعة ـ فذلك النوع من العمل الثورى سوف يدفع الأقليات الأخرى المظلومة والطبقات الأخرى · وعلى

---

(٤٦) Ibid., p. 254.

(٤٧) Ibid., p. 255.

راسها العمال الى محاولة تحرير نفسها من قيود البيروقراطية والانضمام الى قـوة للعمـل الثورى ٠ ويخفى علينا من خلال عرض هذه الأفكار مدى تاثر الأخوين بندت بآراء هربرت ماركيوز ٠

أما رودى ديتشكه اليسارى الألمـانى الجديد فيذهب الى ان حركات الطلاب هى حركات تعادى التسلطية المنتشرة فى كل مكان على هذه الأرض : فرنسـا ، انجلترا ، أسبانيا ، المكسيك ، تشيكوسلوفاكيا ٠ فثورة الطلبة هى ثورة راديكالية تعادى التسلطية Anti-Authoritarian ولقـد اكتسبت هذه الصفة من تسلطية المجتمع الرأسمالى ذاته وعدائها لهذه التسلطية التى تكبح حرية الفرد والجماعة ٠ يقول « نحن لا نرتبط سويا من خـلال نظرية مجردة عن التاريخ ، ولكن من خلال مقتنا لحاضر المجتمع الذى يلفظ الحرية ومن ثم يكبح بوحشية مصالح وحاجات الأفراد والشعوب التى تحاربه من أجل التحرر الاجتماعى والاقتصادى »(٤٨) ٠ ومحاربة التسلطية لا تقتصر على الدول الرأسمالية بل تمتد الى الدول الاشتراكية والعالم الثالث ٠ فالنظرة الى التحرير عند ديتشكه نظرة عالمية تماما مثلما هو الحال عند ماركيوز ٠ ولتقتبس مرة أخرى من ديتشكه « أن النظام القائم يستخدم كل الوسائل المتاحة له ليحرمنا من ان نخلق الظروف التى يستطيع الأفراد ان يعيشوا فى ظلها حياة خلاقة دون حرب ، وجوع ، وعمل قائم على الكبح ٠ ويجب على كل معارضة راديكالية لهذا النظام ان تكون نظرتها عالمية ٠ فمهمة نشر الكفاح الثورى على مستوى العالم globolization هى اهم مهمة ملقاة على عاتق الذين يعملون على تحرير الجنس البشرى فى العالم المعاصر »(٤٩) ٠

ان ديتشكه هنا يدرك امتداد تسلطية النظم الرأسمالية الى كل أجزاء العالم وحتى وان لم يكن النظام القائم راسماليا ٠ ومن ثم تتعدى نظرته التحـررية وآماله حدود الوطن لتشمل كل العالم غير المتحرر ٠ وهو بذلك يرسم طريقا محـدودا واستراتيجية خاصة للعمل الثورى ٠

ونستطيع أن نستشف أيضا الكثير من الأفكار والاتجاهات المرتبطة بحركة اليسار الجديد من خلال المنشورات والنداءات التى كانت تخرج فى

---

(٤٨) Dutschke, "On Anti-Authorianism," op. cit., p. 251.
(٤٩) Ibid., p. 244.

لتون الثورة الطلابية فى فرنسا ولناخذ احد هذه النداءات وهو بعنوان « نداء من السوربون » The Appeal from Sorbonene وقد خرج عن الاجتماع المفتوح للطلبة فى ١٣ ـ ١٤ يونيو ١٩٦٨(٥٠) • يتكون هذا النداء من ثلاثين فقرة تحدد اهداف الحركة الطلابية وعلاقتها بالحركات الأخرى • والطبقات الأخرى ، واستراتيجيتها الخاصة • ولننتقى منه بعض الفقرات التى تكشف عن نوعية فكر هؤلاء الثوار :

فقرة ٢ : اننا لا نفصل انفسنا عن الاستفادة بقدرات الطبقات الأخرى فى المجتمع • ولا نعزل انفسنا كطبقة من الطلبة لها مشكلاتها الخاصة اننا عاملون مثل الآخرين • ويجب أن ندفع الثمن مثل كل عامل له وظيفة تاريخية .

فقرة ٧ : اننا البروليتاريا العاملة فى المجتمع الاستهلاكى • فلنتقبل وظيفتنا التاريخية ولنعمل بانفسنا وبتعاون مع البروليتاريا العاملة •

فقرة ٨ : اننا لن نستسلم لاتهامنا باننا نعادى السياسة A Polotical لقد كان نضالنا دائما نضالا سياسيا ولا يمكن أن يكون غير ذلك •

فقرة ١٠ : لننا نرفض النزعة الثورية • فليست المسألة مسألة احداث ثورة • فالثورة ليست رفاهية او فنا ، انها ضرورة تاريخية ولكن عندما تستكمل كل وسائل قيامها • ان الثورة هى استمرار للجدل فى وقت لم يعد فيه الجدل ممكنا •

فقرة ٢٣ : لنرفض كل فصل بين العلم والأيديولوجيا ، ان هذا الفصل يفرض عليك ان تكون علميا الى الحد الذى يصبح فيه العلم هو الأيديولوجيا ويكون هو الضمان لكل مظاهر سوء استخدام الأيديولوجية العلمية •

فقرة ٢٩ : ان الثورة البرجوازية كانت ثورة قانونية ، وكانت ثورة البروليتاريا ثورة اقتصادية • اما ثورتنا فسوف تكون ثورة اجتماعية وثقافية بها يستطيع أن يسترد الانسان ذاته التى فقدها •

---

(٥٠) "The Appeal from Sorbonne, The Open Assembly of June 13—14, 1968" in : Oglesby (ed.), The New Left Reader, op. cit., pp. 167—273.

ومن خلال هذه الفقرات يمكن أن نستهدف دليلا حديدا على عدم معاداة ثوار اليسار الجديد للفكر • فالحركة الاجتماعية التى تعى علاقتها بالطبقات الأخرى ،و التى تحدد لنفسها دورا تاريخيا معينا ، وتعتبر نضالها نضالا سياسيا ، وتؤمن بأن الثورة لن تقوم الا اذا اكتملت عوامل قيامها والتى تطالب بالتزام العلم بالأيديولوجية ، والتى ترفض كل الأيديولوجيات التى تقيد حركة الانسان ، هذه الحركة ليست حركة عشوائية ، بل ان اتجاهها هذا يكون ايديولوجية محددة المعالم • ايديولوجية لم تتم من فراغ ، وانما من جدليه العلاقة بين الفكر والواقع • ان الحركة الاجتماعية الثورية تقودها أفكار معينة بثها عظماء فلاسفة اليسار الجديد (على راسهم ماركيوز) ان هذه الحركة ترفض الأفكار القديمة ، ولكنها تؤمن أن بديل هذه الأفكار لا ياتى من صنع الخيال المردى • ان هذا البديل لا بد ان يكون من نتاج العمل الثورى المستمر والخبرة المستمرة والنقد المستمر للواقع القائم • ونحن ننظر الى الأفكار التى قدمها قادة الحركات الاجتماعية على انها ارهاصات فكرية عظيمة كانت نتاج اول تصادم بين الفكر والواقع • لا نبالغ اذن اذا قلنا فى نهاية هذا العرض ان هذه الحركات كانت وما تزال ، نبت فكر اصيل ، وسوف تظل مولدا خلاقا لأنبل انواع الفكر ، واعنى الفكر الثورى •

ولقد حاولنا فيما سبق استعراض الفكر النقدى بدءا من أول العقد السادس من هذا القرن وحتى نهاية العقد السابع ، وذلك بهدف القاء الضوء على بعض مظاهر الصراع الفكرى داخل الحضارة الغربية ، والدعوة من خلال هذا الصراع الى رفض اشكال الفكر القديمة والمطالبة ببناء فكرى جديد • ولقد اكدنا فى بداية هذا الفصل ان الصراع او التناقض بين الفكر القديم والفكر الجديد وبين البناء القديم والبناء الجديد هو الذى انتج الاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع • لكن يجب ان نتساءل : لماذا ظهرت فى علم الاجتماع بالذات ؟ وما هو الاتجاه الذى لتخذته ؟ اجابة هذا السؤال فى الفقرة القادمة .

ثالثا ـ من ازمة المجتمع الى ازمة العلم :

كان الجدل الفكرى والبنائى يدور حول الصيغة القائمة للمجتمع الصناعى ، فى طريق البحث عن صيغة محددة لهذا المجتمع • فالصيغة القديمة

تخبر أزمة ذات وجوه عديدة : انتشار البيروقراطية ، سيطرة الشركات الكبرى ، تقييد حرية الانسان ، وأخيرا ارتباط العلم بالراسمالية وسعيه نحو خدمتها • وعلم الاجتماع هو العلم الذى يفسر طبيعة المجتمع ، ويضع النظرية التى تحدد طبيعة العلاقات داخله • ومن ثم كان لا بد أن يكون النقد الموجه الى المجتمع والمشخص لأزمته ، موجها بدوره الى العلم الذى يفسر طبيعة هذا المجتمع ومسار العلاقات الاجتماعية داخله • فهذا العلم يحوى الكثير من النظريات التى لا تكتفى بتفسير البناء القائم ، بل تحاول أن تبرره وتدافع عن مشروعيته على ما رأينا فى القسم الأول من هذا الكتاب • وكان من الطبيعى ان يدفع ذلك الأمر جيلا من السوسيولوجيين الى اعادة النظر فى المفاهيم والنظريات التى قدمها العلماء المرتبطون بالنظام القائم • ولقد جاءت « اعادة النظر » هذه فى شكل سيل متدفق من الاتجاهات النقدية بدأت تفند نظريات العلم وترفضها من أجل اقامة نظريات جديدة أكثر كفاءة فى تفسير الواقع وما يشتمل عليه من متغيرات •

ولقد ساعد على ظهور هذه الاتجاهات أن أزمة المجتمع قد انعكست على علم الاجتماع ذاته فأزمته هو الآخر فى أزمة • وقد تمثلت هذه الأزمة فى الكثير من التناقضات الداخلية الكامنة فى بناء العلم ذاته • ولا شك ان هذه التناقضات قد دعمت للبناء الفكرى الجديد وجعلته يكسب أرضا جديدة فى صراعه مع العلم الاجتماعى • وتنبع أزمة العلم ـ فى أحد جوانبها ـ(٥١) • من التناقض الشديد بين مثاليات العلم وسلوكه الواقعى • فقد أنبرى العلماء يدافعون عن الموضوعية والحياد القيمى ، ويروجون لمبدأ ماكس فيبر الشهير « عن التحرر من القيم » ، فى الوقت الذى نجد فيه أن النظريات التى ينتجها هؤلاء العلماء ترتبط أشد الارتباط بالنظام العام فى المجتمع ، وأن البحوث التى يقدم هذا العلم على اجرائها هى البحوث التى تخدم أغراض الشركات الكبرى وتدافع عن أيديولوجيتها وقيمها • ولقد رأينا فى الباب السابق نماذج من هذه النظريات والبحوث ، واوضحنا كيف تربط النظريات بمشكلة النظام

---

(٥١) سوف نعرض لهذا الجانب فقط ، والذى يمثل وجهة نظرنا ، أما جوانب الأزمة الأخرى فسوف نستفيض فى الحديث عنها فى الفصل الثامن من هذا الكتاب •

فى المجتمع وكيف تجسد البحوث الحل المحافظ لهذه المشكلة فى الواقع الامبيريقى • ولا نود هنا أن نستطرد فى هذا الموضوع ، وكل ما نوده هو أن نشير الى برهان آخر لذلك التناقض الكامن فى بناء العلم الاجتماعى فى المجتمعات الغربية •

يدافع علماء الاجتماع دائما عن تهمة التحيز الأيديولوجى لنظرياتهم ، ولكنهم يظهرون فى بعض الأوقات ـ بوجه سافر ـ التحيز الأيديولوجى • ولقد ظهرت تلك الحقيقة بجلاء فى مشروع كاملوت ، وهو مشروع تبناه مكتب أبحاث المطيات الخاصة التابع للجامعة الأمريكية بواشنطن ، واستعدت لتمويله وزارة الدفاع الأمريكية • وكانت الأهداف المعلنة لمشروع ، هى(٥٢) :

(أ) التعرف بطريقة علمية على اسباب انهيار (أو تغيير) المجتمع •

(ب) التعرف على الأفعال التى يمكن أن تمنع هذا التغير •

بحيث تجرى بحوث المشروع فى مناطق أمريكا اللاتينية ، والشرق الأوسط ، والشرق الأدنى ، وأوربا الغربية وافريقيا ، وذلك لتدعيم المهام التى يمكن ان يقوم بها الجيش فى هذه المناطق ، أو الحيلولة دون قيامها فى مناطق أخرى • ولا شك ان ذلك يعد هدفا لا لنسانيا يعتبر نتيجة ماساوية للدور الذى تقوم به العلوم السلوكية فى ارتباطها بالحكومة الفيدرالية على ما يقول روبرت نيسبت •

ولقد تصدى بعض العلماء من ذوى الميول الراديكالية لهذا المشروع واعتبروه رمزا لفشل المجتمع والعلم أيضا فى علاج مشكلة الصراع الاجتماعى والضبط الاجتماعى ، كما تصدت « حركة تحرير علم الاجتماع » التى أسسها جماعة من الراديكاليين ، فاصدرت بيانا بالغ العنف أدانت فيه علم الاجتماع الأمريكى وأوضحت فيه أن هذا العلم يمر بأزمة اذ يضع نفسه فى خدمة أولئك الذين يقهرون الآخرين ويسيطرون عليهم(٥٣) •

---

(٥٢) R. Nisbet, Tradition and Revolt, op. cit., pp.

(٥٣) السيد يس ، علم الاجتماع بين الثورة والثورة المضادة ، مقال بمجلة الكاتب ، العدد ١٢٠ ، مارس ١٩٧١ ، صص ٥٠ ـ ٥٤ •
ولقد أدى النقد الذى وجه الى المشروع أن يصدر وزير الدفاع الأمريكى أمرا بتوقفه فى ٨ يونيو عام ١٩٦٥ وبعد بدايته بعامين •

ولقد ادى هذا التناقض الداخلى فى بناء العلم الى ان تزداد حدة الصراع بينه وبين البناء الفكرى الجديد • فبدأ يتبلور داخل بناء العلم اتجاه معارض للخط الفكرى المرتبط بمشكلة النظام • ظهر هذا الخط النقدى فى صورته المبكرة على يد تشارلز رايت ميلز الذى ساهم فى فكر اليسار الجديد والفكر النقدى فى علم الاجتماع • ومع تزايد حدة الصراع بين البناء الجديد والبناء القديم بدأت تظهر حركة تجديد ونقد فى علم الاجتماع لستهدفت اعادة صياغة مفاهيم الاجتماع واعادة توجيه اهتماماته لتشمل الأهداف الانسانية العامة • وتنوعت الاتجاهات داخل حركة التصحيح هذه رغم اشتراكها فى هدف واحد • فمن العلماء من اتجه الى النظرية مباشرة ، ومنهم من اتجه الى نقد المجتمع مع اهتمام بنقد النظرية ، ومنهم من حاول صياغة بدائل نظرية جديدة رآها اكثر واقعية فى فهم وتفسير الواقع • وسوف نتعرض فى الفصول القادمة لهذه الاتجاهات النقدية تفصيلا بعد أن عرضنا هنا الاطار الفكرى والبنائى الذى ظهرت فيه •

الفصل السابع

تشارلز رايت ميلز

الاتجاه النقدى المبكر

مقدمة : حول التكوين الفكرى لرايت ميلز

كتب جون ركس عن رايت ميلز يقول « لم يحاول ميلز ان يقدم تعريفا محددا لعلم الاجتماع · فقد رأى ـ مثله مثل كونت وماركس وماكس فيبر من قبله ـ أن من واجبه أن يعيش ظروف عصره · وما يزال علم الاجتماع يحتاج الى رجل مثله · كما لم ينجح علم الاجتماع فى بريطانيا فى انتاج واحد يسير على منواله(١) · ولا يكشف هذا النص عن أهمية كتابات رايت لأنها تصور ظروف المجتمع الذى عاش فيه ، فتلك حقيقة اعترف بها ميلز نفسه · ولكن أهمية النص ترجع الى أنه يكشف عن موقع رايت بين منظرى وباحثى علم الاجتماع · فهو هنا يتساوى مع أكثر رواد هذا العلم أصالة وتفكيرا ، وأعنى ماكس فيبر وماركس · وعلى أى حال فانه اذا كان للقرن التاسع عشر قد أنجب ماركس وفيبر ، فان القرن العشرين لم ينجب سوى ميلز · ذلك لسبب بسيط هو أن الذى يقبل آراء ماركس أو فيبر لا بد ان يقبل آراء ميلز . لأن ذلك الأخير وان كان قد نقد أساتذته القدامى الا انه لم يتخل قط عن روحهم وأسلوبهم فى التفكير وتناول قضايا مجتمعهم ·

ولقد رأينا فى الفصل السابق التغيرات التى اجتاحت المجتمعات الغربية فى الخمسينات والستينات والتى وصلت الى أشدها فى حركة التمرد الواسعة النطاق من جانب الطلبة والشباب عام ١٩٦٨ ، ورأينا أيضا ما انتجته هذه التغيرات ـ التى ارتبطت بمثالب النظام الرأسمالى ـ من تفكير نقدى ساهم مع الصراعات البنائية نفسها فى وضع النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية أمام مأزق حرج · ولقد خلصت فى الفصل السابق الى حقيقة أساسية أعيد تأكيدها مؤداها أن التناقضات البنائية التى ميزت المجتمعات الغربية فى

---

(١) Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 184.

المقدين السابقين قد وضعت الأساس لظهور اتجاهات نقدية راديكالية تعارض بشدة النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية وما ارتبط بها من بحوث امبيريقية ، على اختلاف درجة المعارضة ودرجة الاقتراب أو الابتعاد عن النظرية الكلاسيكية · ولقد كان رايت ميلز بحق أول المعارضين او النقاد وأكثرهم راديكالية والتزاما بدراسة وتفسير ما يدور حوله من أحداث · ويدعونى ذلك الى القول بأن رايت ميلز كان الأب المؤسس للاتجاه النقدى فى علم الاجتماع ، سواء على مستوى النقد السوسيولوجى أو النقد الاجتماعى نقد جمع بينهما بذكاء نادر بحيث لا نستطيع فى الكثير من الأحيان أن نضع خطوطا بينهما فى نظرياته · وربما كان هذا هو السبب فى أننى آثرت ان أعقد هذا الفصل المستقل عنه لاعتقادى أن نظرياته من التميز والوضوح بحيث تمثل اتجاها نقديا مستقلا فى علم الاجتماع الحديث ·

وعند البدء بدراسة هذا التيار النقدى المبكر الذى تزعمه رايت ميلز تطفر الى الذهن حقيقتان على جانب كبير من الأهمية :

الأول : مقدار المعارضة والرفض الذى لقيه ميلز نفسه لمعارضته ورفضه لتيار المؤسسة الأكاديمية لعلم الاجتماع الأمريكى ، ذلك التيار المرتبط بمشكلة النظام فى المجتمع · فقد تسلط على هذه المؤسسة تيار غير نقدى وظهر فيها العديد من الاتجاهات والمدارس تنطلق من أساس واحد وتشترك معا فى أوجه شبه جوهرية(٢) · ومن الطبيعى أن يقابل اى اتجاه معارض لهذه الاتجاهات بمحاربة شديدة · وهذا بالضبط هو ما حدث لرايت ميلز · فقد كان اتجاهه النقدى شيئا غريبا وشاذا وسط هذا التيار غير النقدى المرتبط بمشكلة النظام · لدرجة انه لقب هو وزملاؤه بالأقلية المزعجة ·

---

(٢) يحصر سعد الدين ابراهيم هذه الاتجاهات فى اربعة اتجاهات اساسية : البارسونزية والوضعية المحدثة ، والمدرسة الوظيفية ، ثم التفاعلية الرمزية ، أنظر : سعد الدين ابراهيم : علم الاجتماع الأمريكى بين التواطؤ والثورة ، مرجع سابق ·
والمحقق أو وجه الشبه المقصود هنا هو ارتباط هذه الاتجاهات بالنظام القائم وعدم تجاوزه او التناقض معه ·

والثانية : ان الروافد الفكرية التى شرب منها ميلز وتغذى على تراثها تختلف بالقطع عن الروافد التى تأثر بها الكلاسيكيون من زعماء المؤسسة الأكاديمية فى علم الاجتماع · فالى جانب تأثره بالتناقضات البنائية والفكرية فى المجتمعات الرأسمالية والتى كشف عنها الفصل السابق بجلاء ، الى جانب ذلك تأثر ميلز بمجموعة من التيارات الفكرية ساهمت فى تكوينه العقلى والنفسى الى حد كبير ، وبالتالى انعكس تأثيرها فى نظرياته وأفكاره · ونستطيع أن نحصر العوامل التى أثرت على ميلز فى تأثيرات خمسة رئيسية هى :

١ ـ التراث الفلسفى للبراجماتية التى اهتم بها فى رسالته للدكتوراه بعنوان : « علم الاجتماع والبراجماتية »(٣) والقول بان ميلز قد تأثر بالبراجماتية لا يعنى أنه اتخذها مدخلا للعلم ، وانما يعنى انه استوعب التراث الفلسفى الأمريكى · وقد كان لاستيعاب هذا التراث أثر فى رفضه للنزعة الأمبيريقية الاحصائية السائدة بين زملائه ، وفى ادراكه لتعقد العلاقة بين الفاعل الفردى والبناء الاجتماعى · « ·· لقد كانت تلك الفلسفة بالنسبة له أسلوب حياة ، وخطة عمل كما كانت تصور العصر العلمى الذى يحيا فيه ، والحياة العلمية التى يعيشها مواطنوه ·· فهى فلسفة تعبر عن مزاج العالم الجديد المعروف بامريكا ، وهى ثمرة التفاعل بين الأفكار التى حملها المفكرون الأوربيون الى الولايات المتحدة ، وبين البيئة الجديدة التى نشأوا فيها »(٤) · هذا فضلا عن أن استيعابه للتراث

---

(٣) كتب رايت ميلز رسالته عن الدكتوراه عام ١٩٤٢ م والتى قدمها لجامعة وسكنسن Wisconsim بعنوان « التفسير السوسيولوجى للبراجماتية » وقد قام هوروتز Horowitz بنشرها عام ١٩٦٤ بعنوان « علم الاجتماع والبراجماتية » انظر :

W. Mills, Sociology and Pragmatism, The Higher Learning in America, (edited and with an Introduction by I. Horowitz), New York, Pain-Whitman, 1964.

(٤) عبد الباسط محمد حسن ، تشارلز رايت ميلز وفلسفة البحث فى علم الاجتماع ، **مقال بمجلة عالم الفكر** ، العدد الثانى ، يوليو ، ١٩٧٥ ، صـ ٥٨٥ ·

البراجماتى جعله قادرا على تمثل الفكر الأوربى فى التاريخ والعلوم الاجتماعية عندما اتصل به بعد ذلك ٠

٢ ـ الدراسات الامبيريقية عن الحراك الاجتماعى والاتصال الجماهيرى ٠ فقد قام ميلز بدراسات عن النقابة التجارية ، وصفوة رجال الأعمال ، الى جانب دراسات عن جماعات مختلفة تنتمى الى الطبقة الوسطى٠ وأجرى دراست ايضا فى تأثير وسائل الاتصال الجماهيرى وقادة الرأى ٠ وقد أجرى كل هذه الدراسات وهو فى كولومبيا حيث كان يعمل مع بول لازرسيفيلد منذ عام ١٩٤٥م ٠ ولا نستطيع ان نفكر تأثير لازرسيفيلد عليه فى كل هذه الدراسات وان كان تاريخ ميلز العلمى السابق على كولومبيا ، ودراساته المكثفة فيما بعد تكشف عن ان كل هذه الدراسات والتقارير هى التى مهدت الطريق الى دراسة ميلز المكثفة والمطولة عن « صفوة القوة » ودراسته الأخرى عن « ذوى الياقات البيضاء » فقبل ان يذهب الى كولومبيا قام بكتابة تقارير مكثفة عن دراسات لويد وارنر عن « اليانكى ستى » كما كتب تقارير عن كتاب « بيرنهام Burnham » « الثورة الادارية » وغيرهما(٥) ٠ ويدل ذلك على اهتمام مبكر فى حياته بالبناء الاجتماعى الأمريكى وخبرة بطريقة واقعية أثرت تأثيرا كبيرا على اخراج دراساته فيما بعد ، وعلى قدرته على أن يكتشف القوة القادرة على تغيير المجتمع او تثبيته ٠

٣ ـ ولكن قبل ان يبدأ ميلز كل هذه الدراسات قابل ميلز : العلماء الألمان اللاجئين من حكم النازى(٦) ٠ ولقد كان اللاجئون ذوى اتجاهات

---

(٥) كتب رايت ميلز طوال حياته حوالى ٥٩ تقريرا عن كتب ودراسات ٠كما نشر نحو ٨٥ مقالا ودراسة ، نصفها تقريبا قبل عام ١٩٤٥م انظر قائمة ببليو جرافية مفصلة بأعمال ميلز فى المصدر التالى :
Mills, Power, Politics and People, The Collected Essays of C.W. Mills, edited by L. Horowitz, Oxford University Press, London, Oxford, 1970.

(٦) من هؤلاء فرانز نيومان Franz Newman وتيودور أدرنو T. Adorno وماكس هوركهايمر M. Horkhiemer وقد قام هؤلاء العلماء بانشاء معهد البحوث الاجتماعية بجامعة كولومبيا مما ساعد على التعمق فى دراسة مناهج البحث وطرق التحليل الاحصائى ٠ انظر مقال عبد الباسط حسن السابق الاشارة اليه ، ص ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧ ٠

راديكالية نقدية موجهة اساسا لتغيير نشأة النازية • وكانوا يعتقدون ان علم الاجتماع القادر على القيام بهذه المهمة هو مزيج لأعمال فيبر وماركس وفرويد • ولقد كان ميلز قد الم بتراث ثلاثتهم على « هانز جيرث » فى جامعة وسكنسن • وقد اثار هؤلاء النازحون فى ميلز الاهتمامات الراديكالية خاصة وانهم وجهوا جانبا من رؤيتهم الراديكالية الى المجتمع الأمريكى • فقد نظروا الى المجتمع الأمريكى الجماهيرى على انه يتحول نحو الشمولية والفاشية ، وتخوفوا من ازدياد تاثير البانتجون الأمريكى لئلا يزكى النزعة العسكرية ويكرر ما حدث فى ألمانيا • واذا عرفنا ان ميلز قد اولى اهتماما للصفوة العسكرية وما تلعبه مع عناصر مركب الصفوة الأخرى فى السيطرة على المجتمع الأمريكى ، ادركنا مدى تاثر رايت ميلز بجماعة المهاجرين هؤلاء ، الى جانب أن آراءه تكشف عن مزج بين آراء ماركس ماكس فيبر وفرويد خاصة ما جاء منها فى كتابه « الشخصية والبناء الاجتماعى الذى اشترك فيه مع هانزجيرث •

٤ ـ مواجهة ميلز ومعايشته للحرب الباردة والنزاع الأيديولوجى بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى • فاغلب المسائل التى عالجها ميلز تمس من بعيد او قريب مسائل الحرب والسلام • فقد كان يعتبر أن الحرب من المشكلات التى تتسبب فى الكثير من الاضطرابات الشخصية • واصدر ميلز كتابا فى عام ١٩٥٨ م بعنوان « اسباب الحرب العالمية الثالثة(٧) • ربط فيه بين اسباب احتمال قيام حرب عالمية ثالثة وبين تركز القوة فى المجتمع الأريكى بايدى جماعة صغيرة لا يمارس عليها الشعب اى رقابة • ومن هنا نستطيع ان نجد علاقات وثيقة بين ما جاء فى هذا الكتاب وما جاء فى كتب ميلز الأخرى التى عالج فيها مسألة تركز القوة فى المجتمع الراسمالى •

٥ ـ الجو الأكاديمى الذى نشأ فيه ميلز • لقد لاحظ ان زملاءه كلهم ينصرفون الى تصميم نسق نظرى مجرد او اجراء دراسات امبيريقية ضيقة النطاق دون اى اهتمام بالمسائل ذات الطابع العالمى التى تواجههم ،

---

(٧) W. Mills, The Causes of the Thord World War, Simon and Schuster, New York. 1958.

او اهتمام بمشكلات البناء الاجتماعى الذى يعيشون فيه · وطبيعى أن يدفع ذلك « الجبن الأكاديمى » ميلز ـ الذى أثرت فيه كل العوامل السابقة ـ الى أن يسبح ضد تيار كل من النظرية المجردة ذات الطابع المحافظ من ناحية ، وضد تيار النزعة الأمبيريقية المحدودة النطاق من ناحية اخرى ، وأن يتحدى الفكر الكلاسيكى المرتبط بالنظام العام بغض النظر عما جلبه عليه ذلك من مشكلات شخصية بدءا من اعتباره مجرد صحفى وحتى اتهامه بأنه «منتسب الى الشيوعية فى الخفاء ·

ويمكن أن نقسم هذه التأثيرات الى نوعين ساهم كل نوع فى تكوين عنصر معين من تفكير ميلز : النوع الأول : تأثيرات فكرية ، وتنحصر فى تأثره بالفلسفة البراجماتية وبفكر ماركس وفرويد وماكس فيبر الذى اثار الاهتمام به جماعة اللاجئين الألمان · والنوع الثانى تأثيرات مجتمعية ، أو تأثره بواقع المجتمع نفسه · ويضم هذا النوع من التأثيرات خبرته بالواقع الاجتماعى من خلال بحوثه الأمبيريقية المبكرة وتأثره بالحرب الباردة ، والتناقضات الفكرية والبنائية الآخذة فى الظهور فى المجتمع الرأسمالى · ولقد ساهم كل نوع من هذين النوعين فى خلق جانب من ثورة ميلز أو اتجاهه النقدى · ساهم النوع الأول فى أن يثور على النظرية الكلاسيكية نفسها ، وأسلوب العلماء فى تناول الموضوعات ، وتصويرهم لدور العلم فى المجتمع · انها ثورة فكرية اكاديمية ، أو ضرب من ضروب الراديكالية العلمية اذا شئنا تسمية أخرى · وساهم النوع الثانى فى أن يثور على واقع مجتمعه بأن يوضح ما يعانى منه من أمراض ومشكلات ، وأن يحلل بناءه الاجتماعى تحليلا يكشف عما فيه من صور حديثة للاستغلال والسيطرة والنفوذ · أنها ثورة اجتماعية ، أو ضرب من ضروب النقد الاجتماعى · وقد نوهت فيما سبق الى أن تميز تراث رايت ميلز يرجع الى قدرته الفائقة على الجمع بين ضربين من ضروب النقد : النقد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى ·

ولقد ترك ميلز اعمالا تضم كتبا ومقالات ودراسات مونوجرافية وتقارير صحفية لا يستطيع مثل هذا الفصل الصغير أن يجمعها كلها(٨) ·

---

(٨) حصر هوروتز اعمال ميلز والكتب والدراسات التى كتبت عنه فى =

وقد تغلبت على هذه المشكلة بتناول مجموعة من الموضوعات التى يمكن ان تبرز لنا فى النهاية تيارى النقد اللذين ذكرتهما فيما سبق ، وأن تلقى مزيدا من الضوء على طريقة ميلز فى الربط بينهما ، معتمدا فى ذلك على اهم كتبه وبعض ما كتب عنه • فلنتناول هذه الموضوعات ، ولنكشف من خلالها عن جانبى النقد عند ميلز •

اولا ـ الخيال السوسيولوجى الواعد :

رغم أن ميلز لم يتحدث عن « الخيال السوسيولوجى » الا فى كتابه قبل الأخير الصادر بهذا الاسم عام ١٩٥٩ • ورغم ذلك الا ان اى حديث عن ميلز كناقد سوسيولوجى أو اجتماعى لا بد أن يتخذ من فكرة « الخيال السوسيولوجى » نقطة انطلاق • ذلك لأنها ـ وأن كانت آخر الأفكار التى عالجها ميلز ـ كانت الاطار النظرى والمنهجى الذى كان يوجهه فى كل دراساته السابقة ، فضلا عن اننا نستطيع من خلال « الخيال السوسيولوجى » أن نضع أيدينا بسهولة على ارتباط جانبى النقد عند رايت ميلز • ولا يمكن تناول نظرية الخيال السوسيولوجى الا اذا عرضنا للأنقاض التى قامت عليها • فقد صاغها فى مواجهة ضربين من ضروب النشاط السوسيولوجى كانا يسيطران على المؤسسة الأكاديمية الأمريكية ، وعنى التفكير العقلى المجرد ، والنزعة الأمبيريقية المجتزاة • وكان لا بد أن يتخذ منها موقفا •

رفض ميلز ما اتسماه بالنظريات الكبرى Grand theoris خاصة نظريات عالم الاجتماع الأمريكى تالكوت بارسونز • وقد شن ميلز هجوما عنيفا على بارسونز لدرجة أنه كان يترجم لغة بارسونز الى الانجليزية سخرية منه على التعقيد النظرى واللغوى لما هو سهل وواضح • ونستطيع أن نعثر على عنصرين من ثورة ميلز على النظرية الكبرى او الاتجاه العقلى المجرد •

العنصر الأول : يتمثل فى رفض لأسلوب صياغة مثل هذه النظريات لقد كتب ميلز يقول « أعتقد أن المرء يستطيع أن يترجم كتاب « النسق

=

قائمة ببليوجرافية من ٢٧ (سبعة وعشرين صفحة من ص ٤١٤ ـ ص ٤٤١) فى الكتاب الذى حرره هوروتز وجمع فيه كل مقالات ميلز السابق الاشارة اليه

الاجتماعى » المكون من ٥٥٥ صفحة الى حوالى ١٥٠ صفحة من اللغة السهلة الواضحة • غير أن النتيجة سوف لا تكون مؤثرة فسوف تتضمن الترجمة نفس المصطلحات التى قدمت بها المشكلة الرئيسية فى الكتاب ، والحلول التى طرحت لهذه المشكلة »(٩) • ويعبر هذا النص على أن ميلز يرفض ذلك الاسلوب الغامض الذى صاغ به بارسونز نظريته الكبرى أو الذى يرتفع الى مستوى من التجريد يبعده عن الواقع الاجتماعى • ومع هذا الغموض النظرى ، ومع الابتعاد عن الواقع . ومع الالتفاف حول نموذج التوازن والميكانيزمات التى تعمل على تدعيمه واعنى التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعى ، تعجز هذه النظرية الكبرى عن أن تفسر التغير الاجتماعى والبناء التاريخى برمته • فالسبب الرئيسى فى وجود النظرية الكبرى يكمن فى اختيار مستوى من التفكير من العمومية بحيث لا يستطيع أصحابه أن ينزلوا الى مستوى المشاهدة • انهم لا يتركون اطلاقا تعميماتهم ليلمسوا المشكلات فى اطرها التاريخية والبنائية • « ويؤدى غياب الاحساس الأصيل بالمشكلات الحقيقية الى أن نقرأ فى صفحاتهم اللاواقع • وتكون النتيجة مزيدا من التعسف الواضح ، ومن الاستفاضة اللانهائية فى التصنيفات ، التى لا توسع من فهمنا ولا تجعل خبرتنا أكثر شفافية »(١٠) • واذا كان هذا النص يكشف عن نقد لمستوى التجريد النظرى فى النظريات الكبرى ذلك التجريد الذى يعمى أصحاب هذه النظرية عن الارتباط بالواقع المعاش وما به من مشكلات فان نصا آخر يمكن أن يكشف عن نقد التعقيد اللغوى الذى يساهم بدوره فى الابتعاد عن الواقع • يذهب ميلز الى أن أصحاب النظريات الكبرى « قد انشغلوا بالمعانى التركيبية Syntatic لم يكن خيالهم خصبا فيما يتعلق بالاشارات اللفظية ، فقد ارتبطوا بمستويات التجريد العليا الى درجة أن الأنماط Typologies التى أقاموها ـ والعمل الذى قاموا به من أجل اقامتها ـ تبدو فى الغالب وكأنها مباراة جافة من المفاهيم أكثر من كونها جهدا لتحديد المشكلات موضع الدراسة بطريقة منظمة ، وتوجيه جهودنا لحل هذه المشكلات »(١١) • ويؤدى كل من الابتعاد عن الواقع

---

(٩) W. Mills, Sociological Imagination. Oxford Uni. Press, 1959, p. 31.

(١٠) Ibid., p. 33.

(١١) Ibid., p. 34.

والانخراط فى تركيبات المفاهيم الى اهمال الكثير من الخصائص البنائية للمجتمع الانساني ، وهى خصائص تلعب دورا اساسيا فى فهم هذا المجتمع وهذا هو العنصر الأول فى نقد ميلز للنظرية الكبرى .

اما العنصر الثانى فى ثورة ميلز على النظرية الكبرى فينحصر فى ثورته على الارتباط الأيديولوجى لهذه النظريات . فهذه النظريات ليس لها من هذه الا تبرير شرعية النظام العام القائم . يتضح ذلك فى طريقة تناول علماء النظريات الكبرى للمجتمع على انه بناء متكامل يلعب فيه التوجيه المعيارى دورا كبيرا . فعلم الاجتماع كما يراه تالكوت بارسونز يدرس ذلك الجانب من نظرية الانساق الاجتماعية الذى يهتم بظواهر التشكل النظامى لأنماط التوجيه القيمى فى النسق الاجتماعى وبشروط هذا التشكل النظامى ، وبالتغيرات فى هذه الأنماط والتوافق معها أو الانحراف عنها ، والعمليات الواقعية فى ارتباطها بكل هذه الأشياء(١٢) ويتفق ميلز مع دافيد لوكود فى أن هذه الصياغة تنزع من عالم الاجتماع اى اهتمام بالقوة ، ويضيف الى ذلك أنها تهتم فقط بعناصر الشرعية الأمر الذى يؤدى الى نقل كل الأبنية النظامية الى المستوى الأخلاقى أو الرمزى . وحاول ميلز أن يثبت أن ما يحدث على مستوى المجتمع هو شىء أكثر من « البناء المعيارى » الذى ركز عليه بارسونز ويتضح ذلك بجلاء فى تناوله لموضوع القوة حيث اوضح ان القوة تلعب دورا كبيرا فى المجتمع الحديث وهى لا تقتصر على وسائل صنع القرارات والتحكم فيها فقط ، بل تمتد التى التحكم فيما يجمع عليه الأفراد والسيطرة عليهم . ولا توضح لنا النظرية العامة الأبنية التى تظهر فيها هذه السيطرة (البناء الاقتصادى ـ البناء السياسى ـ البناء العسكرى) . على العكس من ذلك تماما تدعونا فكرة النظام المعيارى التى ترتكز عليها النظرية العامة الى أن نفترض أن القوة شرعية بالضرورة ، وان هناك ضربا من ضروب التناغم بين المصالح . ويؤدى ذلك فى النهاية الى استبعاد للصراع ولامكانية دراسة التغير الاجتماعى أو التعامل مع التاريخ(١٣) .

وقد اعتبر ميلز أن السبب الرئيسى لهذا الارتباط الأيديولوجى هو الارتباط بمشكلة النظام العام فى المجتمع بالشكل الذى قدمه توماس هوبز ،

---

(١٢) Ibid., pp. 40—42.

(١٣)

حيث أصبحت المشكلة مشكلة تكامل بالدرجة الأولى · ولكن ما موقف ميلز من هذه المشكلة ؟ لا شك أن موقفه ينحصر فى رفض هـذه المشكلة كمشكلة وحيدة للعلوم الاجتماعية ، فليس هناك اجابة محددة للسؤال الآتى : ما الذى يحقق الاستقرار فى البنـــاء الاجتمـاعى What holds Social Structure together ? وذلك لأن الأبنية الاجتماعية تختلف اختلافا جذريا فى درجـة ترابطها ونوعية هذا الترابط · حقيقة أننا نكتشف بعض ضروب التكامل داخل البناء الاجتماعى كما يتضح فى الأنظمة السياسية والقربية والعسكرية والاقتصادية ، ولكن لا يمكن أن نفصلها عن التطور التاريخى لهـذا البنـاء ، ومن هنا فان نظرية البناء الاجتماعى لا يمكن أن تنفصل عن نظرية التاريخ · وسوف لا توجد أى صعوبة أمام العلماء الاجتماعيين فى فهم كل من البنـاء الاجتماعى والتاريخى بطريقة واحدة(١٤) · وفى هذه الحالة لا تصبح مشـكلة النظام العام هى المشكلة العامة الوحيدة ولكن تصبح مشكلة التغير مشكلة عامة أخرى · الأولى تعكس دراسة البناء الاجتماعى والثانية تعكس دراسة التاريخ فى ارتباطه بهـذا البنـاء ·

اذا كان هذا هو موقف ميلز من النظريات الكبرى المجردة ، فما هـو موقفه من الاتجاه الأمبيريقى ؟ رفض ميـلز هذا الاتجاه كما رفض النظرية الكبرى · لقد وسم ميلز هـذا الاتجـاه بانه اتجاه تجزيئى Abstracted من حيث أنه يدرس ظواهر منفصلة دون ربطها بنظرية معينة ودون التعمق فى أصولها التاريخية · وهـو بذلك ينزع الظـواهر من سياقهـا البنـائى والتاريخى · فالاتجاه الأمبيريقى المجتزىء « ·· لا يتميز بقضايا او نظريات جوهرية ولا يقدم على أى فهم لطبيعة المجتمع او الانسـان أو لأى حقـائق معينة عنهما · ويمكن التعرف على هـذا الاتجاه بحق من خلال المشكلات التى يختارها أنصاره للدراسة ومن خلال أسلوبهم فى تناول هذه المشكلات»(١٥)·

يكشف هذا النص عن جانب من نقد ميـلز لهـذا الاتجـاه ، واعنى كونه اتجاها يخلو من أية قضايا أو نظريات لها قوة التوجيه ، مما أفقـده

---

(١٤) Ibid., pp. 44—47.

(١٥) Ibid., p. 55.

الرؤية الواضحة والفهم الجيد لطبيعة الانسان والمجتمع . وربما كان السبب فى ذلك هو محاولة انصار هذا الاتجاه محاكاة منهج للعلوم الطبيعية الأمر الذى جعلهم يهتمون بالمناهج على حساب فهم الواقع فهما حقيقيا . وفى هذه الحالة يصبح المنهج هو الذى يتحكم فى صياغة النظرية وليس الواقع نفسه . « فالنظرية تصبح مجموعة من التغيرات المستخدمة فى تفسير النتائج الاحصائية . وتقتصر البيانات الأمريقية على الحقائق التى يمكن تحديدها احصائيا ، وعلى العلاقة المقابلة للعد ، والتكرار ، والقياس(١٦) .

لذلك كان من الطبيعى أن يهمل هذا الاتجاه الدراسة التاريخية والمقارنة مثله فى ذلك مثل الاتجاه النظرى الخالص . فهم (الأمبيريقيون) يرفضون الاتجاه التاريخى والمقارن ، ويعالجون مجالات محدودة وهم بذلك يقتربون من « النزعة السيكولوجية المفرطة » Psychologism وهم لا يستفيدون بالأفكار الأساسية عن البناء الاجتماعى التاريخى سواء فى تحديد مشكلات دراستهم أو فى تفسير نتائجهم ذات المنظور الضيق . ومن هنا كانت مطالبة رايت ميلز بتوسيع النظرة الامبيريقية لتشمل الأبنية التاريخية والمقارنة .

اذا كان هذا هو نقد ميلز للاتجاه النظرى المجرد والاتجاه الامبيريقى المجتزىء فما هو البديل لتفادى أوجه القصور التى وقع فيها كل منهما ؟ لم يقدم ميلز بديلا نظريا متكاملا ، كما أنه لم ينخرط فى الدراسات الامبيريقية بنفس طريقة الاتجاه الامبيريقى التى نقدها . اذا كانت نقطة الضعف التى اشترك فيها كلا الاتجاهين هى اهمال دراسة البناء الاجتماعى دراسة تبرز عوامل التغير داخله ، فمن الطبيعى أن يهتم ميلز بدراسة البناء الاجتماعى وأن يكشف عن العوامل التاريخية التى اثرت وتؤثر فيه ، مع الانتقال فى الدراسة من مستوى البناء الى مستوى الشخصية . وجاءت معظم دراسات ميلز دراسات امبيريقية تاريخية تقدم فهما حقيقيا للبناء الاجتماعى فى المجتمع الامريكى . ولكن هذه الدراسات لم تكن تجرى من فراغ على ما ذكرت آنفا ، وانما كان يقودها موقف نظرى منهجى يحدد اتجاهه الأيديولوجى ودرجة

---

(١٦) Ibid., p. 66.

التزامه بالأهداف التى يجب أن يسعى اليها عالم الاجتماع(١٧) · وتمثل فكرة الخيال السوسيولوجى احد الأدوات النظرية والتحليلية التى تشكل هذا الموقف النظرى · وهى ـ على ما ذكرت فيما سبق ـ تكشف لنا عن وجهى النقد عند رايت ميلز ، واعنى النقد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى ، وهى الأداة التى يجب أن يتوسل بها الباحث فى نقده لأساليب السيطرة والتحكم التى تضرب بجذورها فى كل عناصر البناء الاجتماعى ·

تقوم فكرة الخيال السوسيولوجى على الربط بين مستويين من مستويات التحليل : مستوى المجتمع او البناء الاجتماعى ومستوى الفرد ، وذلك انطلاقا من مسلمة أساسية مؤداها ان حياة الفرد او تاريخ المجتمع لا يمكن فهم اى منهما دون فهم الآخر والعلاقة التى تربط بينهما · فاذا كان الأفراد لا يملكون القدرة على فهم العلاقة بين الانسان والمجتمع ، أو بين تاريخ الانسان وتاريخ المجتمع ، او بين الذات والعالم المحيط بها ، فانهم بحاجة الى مجموعة من المهارات العقلية تمكنهم من تكوين فكرة جلية لما يدور حولهم وما سوف يحدث لهم تاثرا بهذا العالم · هذه القدرة العقلية هى ما أطلق عليها رايت ميلز « الخيال السوسيولوجى » · وهى قدرة ليست مطلوبة من الباحثين فى علم الاجتماع فقط ، وانما يجب ان يمتلكها الصحفيون والدارسون والفنانون ، وحتى عامة الناس(١٨) ·

يقول ميلز « يمكن الخيال السوسيولوجى مالكه من فهم الاطار الأوسع فى ضوء معناه بالنسبة للحياة الداخلية والعمل الخارجى لعدد مختلف من الأفراد · انه يمكنه من ان يفسر كيف يصبح لدى الأفراد فى غمرة حياتهم اليومية المضطربة وعيا زائفا بأوضاعهم الاجتماعية ·· ومن خلاله يستطيع ان يرجع مظاهر القلق الشخصى الى مجموعة من الاضطرابات

---

(١٧) سوف أهتم هنا بسرد هذا الاطار النظرى ، فهو لا يمثل اطارا متكاملا ، لأن رايت ميلز اهتم اساسا بكشف عناصر البناء الاجتماعى الأمريكى من خلال الدراسات الأمبيريقية والتاريخية : وهذا الاطار النظرى يمثل عند ميلز بعض الأدوات التحليلية وتطوير لبعض المفاهيم الماركسية ، وتحديد لبعض الأهداف الملزمة لعالم الاجتماع ، وهى موضوعات سوف تكشف عنها بجلاء الفقرات القادمة من هذا الفصل ·

(١٨) Ibid., p. 5.

الفردية (الهموم الفردية) Personal troubles وأن يربط بين اللا مبالاة التى تعيشها الجماهير وبين المشاكل العامة ،(١٩) ويكشف هذا النص عن مستويات التحليل التى يتيحها الخيال السوسيولوجى ، كما يكشف عن الهدف الأساسى من هذا الخيال . فهناك مستويان للتحليل يتيحهما هذا الخيال : المستوى الأول هو مستوى الفرد فكل ما يعانيه من اضطرابات تفرضها عليه حياته فى مجتمع مستغل والمستوى الثانى هو مستوى المجتمع أو البناء الاجتماعى لكل ما يزخر به هذا البناء من مشاكل عامة Public issues وقدرة الباحث تتجلى فى الربط بين مظاهر الاضطراب الشخصى وبين مشاكل البناء الاجتماعى . وهنا يظهر الهدف الأساسى للخيال السوسيولوجى ، والذى ينحصر فى اكساب الأفراد وعيا حقيقيا بمشكلات مجتمعهم يجعلهم قادرين على ربط مشكلاتهم الخاصة بمشكلات المجتمع العامة . وهنا تكمن القدرة الواعدة للخيال السوسيولوجى .

ولكن ما هى المشكلات الخاصة الرئيسية السائدة فى هذا العصر ، وما هى المشكلات العامة المرتبطة بها ؟ للاجابة على هذا السؤال من منظور ميلز يجب أن نعرف كلا من المشكلات الخاصة والمشكلة العامة . عندما يشعر الفرد أن مجموعة القيم التى يعتنقها مهددة بالزوال فانه يخبر قدرا من الاضطراب أو ما يسمى بالمشكلة الخاصة ، أما عندما تشعر الجماهير كلها بأن قيمها مهددة فانهم فى هذه الحالة يصيحون أمام مشكلة عامة . وغالبا ما تتضمن المشكلة العامة أزمة فى المستويات النظامية ، او تتضمن ما يطلق عليه الماركسيون « التناقضات » أو مظاهر العداوة(٢٠) Antogonisms . وبناء على هذين التعريفين اعتبر ميلز أن أهم مشكلات عصرنا هى مشكلات القلق uneasiness واللامبالاة indifference التى تنتشر فى الوسط الشخصى . أما أهم المشكلات العامة فانها ترتبط بالقوى غير الحقيقية التى تتحكم فى مجتمعنا المعاصر ، مع ما يصاحب هذه القوى من طرق انتاج تنكى الاغتراب وما يلازمها من اساليب للسيطرة السياسية والفوضى النظامية(٢١) .

---

(١٩) Ibid., p. 5.
(٢٠) Ibid., pp. 8—9.
(٢١) Ibid., pp. 11—13.

ولا بد أن يكون الخيال السوسيولوجى قاسما مشتركات عاما فى الحياة الثقافية فى هذا العصر • فلم تعد الفيزياء ـ بعد توصلها الى القنبلة الهيدروجينية ودخولها الى حلبة الصراع الأيديولوجى ـ لم تعد هى القاسم المشترك بين العلوم • فلسنا بحاجة الى المزيد من التقدم العلمى ، بقدر ما نحن بحاجة الى أن نميط اللثام عن عناصر القلق واللامبالاة التى يسببها النظام القائم بكل ما فيه من عناصر للتحكم والسيطرة • وهذه مهمة فكرية وسياسية يجب ان تناط بالباحث المتخصص فى العلوم الاجتماعية وهى مهمة يلقيها على عاتق الباحث السوسيولوجى كل زملائه المتخصصين فى فروع المعرفة الأخرى : علماء الطبيعة ، والفنانون ، والمجتمع الثقافى برمته • ويستطيع الباحث السوسيولوجى أن ينجز هذه المهمة من خلال تبنيه الخيال السوسيولوجى فهو « الخيال السوسيولوجى يعد بفهم عمق لواقعنا الخاص فى ارتباطه بالواقع الاجتماعى الأعم »(٢٢) •

من هذا العرض المختصر لقدرة الخيال السوسيولوجى على فهم الواقع الاجتماعى يتضح لنا ثلاثة حقائق على جانب كبير من الأهمية :

الأولى : قدرة الخيال السوسيولوجى الواعدة كأداة نظرية ومنهجية • وتتمثل هذه القدرة فى تفادى نقاط الضعف التى وقع فيها كل من المنظرين ذوى الميول التجريدية والأمبيريقيين ذوى الميول الاحصائية الخالية من اى مضمون حقيقى • ومن ثم القدرة على الدراسة التاريخية للواقع الاجتماعى وتصعيد التحليل السوسيولوجى عبر مستويات مختلفة فردية واجتماعية داخل البناء الاجتماعى ، الأمر الذى يؤدى الى الكشف عما ينتجه هذا البناء من مشكلات عامة تؤدى بدورها الى مشكلات واضطرابات على مستوى الفرد•

الثانية : راديكالية مفهوم الخيال السوسيولوجى نفسه ، وهى راديكالية تكشف عن راديكالية سواء فى مستواها السوسيولوجى او الاجتماعى وهو يثور على النظرية الكبرى وعلى النزعة الأمبيريقية • فلا يمكن أن نبدأ باى منهما • واذا كان ميلز قد ركز على البناء التاريخى للمجتمع وعلى ما تكشف عنه مظاهر سلوك الأفراد ، فليس ذلك اننا يمكن

---

(٢٢) Ibid., p. 15.

أن نبدأ الدراسة من أى منهما ، على العكس من ذلك يجب أن نحدد العلاقات بينهما فنكشف عن تأثير البناء الاجتماعى على السلوك الفردى أو تأثير السلوك الفردى على البناء الاجتماعى · وينقلنا ذلك الى ثنائية أخرى بين المشكلات العامة والمشكلات الخاصة · والى جانب هذه الراديكالية السوسيولوجية يكشف لنا مفهوم الخيال السوسيولوجى عن راديكالية اجتماعية ، فهو يحدد للباحث أسلوبا فى دراسة الواقع الاجتماعى ونقده ·

الثالثة : امتداد التفكير النظرى لرايت ميلز من اعماله الأولى وحتى أعماله الأخيرة ، فاذا كان كتاب « الخيال السوسيولوجى » هو كتابه قبل الأخير ، فانه يعد امتدادا لما أثاره فى احدى دراساته النظرية المبكرة التى اشترك فيها مع هانز جيرث ، وأعنى كتاب « الشخصية والبناء الاجتماعى »(٢٣) فقد حاولا المزج بين نظريات فرويد وماركس ، وكتبا فى تصدير كتابهما يقولان « لا شك انه حينما نستعرض مجال علم النفس الاجتماعى تتكون لدينا فكرة مؤداها أن كل الأعمال المعاصرة تتوافق مع تراثين أساسيين : تراث فرويد عن بناء الشخصية من ناحية وتراث ماركس عن البناء الاجتماعى(٢٤) · ويعلق جون ركس على هذا النص بقوله « لقد اتضح من خلال كتابهما ما يقصدانه بقولهما هذا ، اتضح انه لا بد أن يكون لعلم الاجتماع نظرية ملائمة للعلاقة بين الشخصية والمجتمع · وتعتبر التفسيرات الفرويدية نقطة لانطلاق ملائمة مع توسيع فكرة فرويد التنشئة الاجتماعية لتشمل نظام القرابة ليتضح كيف ينشأ الانسان على الطرز النظامية القيادية التى ناقشها ميلز فى كتات « صفوة القوة » والتى يمكن أن تثرى دراستها أفكار ماركس وماكس فيبر » ومن النصين يتضح أن معالجة ميلز وجيرث للعلاقة بين البناء الاجتماعى والشخصية لم تنطلق من منظور بارسونزى على ما يذهب بعض الباحثين(٢٥) · حقيقة أن ميلز

---

(٢٣) Hans Gerth and W. Mills, **Character and Social Structure**, The Psychology of Social Institutions, Harcourt, Brace and Company, New York, 1953.

(٢٤) نقلا عن المصدر التالى :
J. Rex, Discoering Sociology, op. cit., p. 183.

(٢٥) من هؤلاء سعيد فرح الذى يذهب فى مقال عن « نظرة فى مدى
=

وجيرث قد اهتما بكيفية تشكيل البناء الاجتماعى لشخصية افراده ، ولكن ليس من نفس منظور بارسونز ، والا لما كنا بحاجة الى ان نضفى على آراء ميلز هذا الطابع الراديكالى • فما هو وجه الخلاف اذن ؟

الواقع أن ميلز وجيرث عندما ربطا بين الشخصية والبناء الاجتماعى قد حاولا الاستفادة قدر الامكان من الثراء الذى يمكن أن تقدمه الرؤية التاريخية متأثرين فى ذلك بماركس • فعندما درسا مفهوم الدور اهتما بتغير دور الفرد عبر تاريخ حياته وفى نفس الفترة التاريخية ، ونظرا الى البناء الاجتماعى على أنه بناء متحرك او متغير دائما • هذا فضلا عن أنهما فى تحليلهما للدور من المنطلق الفرويدى كانا يدركان رؤية فرويد الثاقبة للاضطرابات التى يمكن أن تحدث على مستوى الشخصية • وعند تحليلهما للبناء الاجتماعى فى علاقته بالشخصية كانا يدركان رؤية ماركس للدور المسيطر الذى يمكن أن يلعبه البناء الاجتماعى فى كبح حرية الفرد وثورته • ليس ادل على ذلك من أنهما اعتبرا أن النظم الأساسية فى المجتمع هى النظم الاقتصادية والدينية والسياسية والعلمية • وقد عالج ميلز معظم هذه النظم فى كتبه الأخرى وأوضح دورها فى خلق القلق واللامبالاة (الاغتراب بالمفهوم الماركسى) على المستوى الفردى • واكثر من هذا نستطيع ان نستخلص نقطة اخرى من النص السابق لجون ركس • فقد أوضح ركس أن أحد أهداف كتاب ميلز وجيرث هو أن يوضح كيف ينشىء « المجتمع افراده على عبادة النظم التى نوقشت فى كتاب » « صفوة القوة » ، ويعنى هذا أن أسلوب التحكم والسيطرة التى يمارسها النظام الرأسمالى تمتد الى التنشئة الاجتماعية حيث يتشرب الأفراد طابع هذه النظم ويتم تدريبهم على أساليبها • ويختلف هذا التناول لأسلوب التنشئة الاجتماعية اختلافا كبيرا عن تناول بارسونز الذى اعتبرها ميكانيزما اساسيا من ميكانيزمات

=

اثراء علم النفس للنظرية الاجتماعية » ان جيرث وميلز قد اقتفيا اثر بارسونز عندما ذهبا الى أن الأبنية الاجتماعية تشكل شخصيات افرادها • انظر : محمد سعيد فرح ، « نظرة فى مدى اثراء علم النفس للنظرية الاجتماعية » ، مقال فى كتاب « دراسات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا السابق الاشارة اليه ، صص ٨٧ ـ ٨٨ •

للضبط الاجتماعى ، بخلاف ميلز الذى يوحى حديثه عنها بضرورة تغيير اسلوب التنشئة الاجتماعية ليصبح محاولة لاكساب الفرد وعيا حقيقيا بالواقع الذى يعيش فيه .

واذا تاملنا اهم مجالات البحث فى علم الاجتماع كما حددها ميلز وجيرث لعثرنا على خيط آخر لتلك الصلة التى تربط هذا العمل بكل اعمال ميلز السابقة . حدد جيرث وميلز أربعة مجالات رئيسية للبحث ، يجب على العالم أن يختار منهما موضوعات دراسته(٢٦) .

١ - الارتباط بين النظم السياسية والاقتصادية والعسكرية .

٢ - الجوانب السيكولوجية والبيروقراطية .

٣ - انكماش الليبرالية .

٤ - بناء الشخصية فى مجتمع الاستقطاب الأيديولوجى .

ومهما يكن من أمر فحسبنا هنا أن نؤكد ذلك الخيط الذى يربط بين المحاولة النظرية الأولى لرايت ميلز فى كتابه « الشخصية والبناء الاجتماعى » وكتابه الأخير عن « الخيال السوسيولوجى » . ولننتقل الآن الى مناقشة عنصر آخر من آراء ميلز يكشف لنا عن جانبى نظرية ميلز النقدية .

ثانيا - رايت ميلز اليسارى الجديد :

ذكرت آنفا أن ماركس كان أحد الذين اثروا تاثيرا بالغا فى افكار رايت ميلز . ليس أدل على ذلك من أنه اتهم من جانب العلماء البرجوازيين بانه ماركسى والمحقق أن ميلز لم يكن ماركسيا تقليديا فقد ثار على الماركسية مثلما ثار على الوظيفية ، ربما لأنهما نظرية كبرى شاملة . غير أن ثورته هنا لم تكن ثورة رفض وانما كانت ثورة تطوير وتنقيح . فقبل روحها العامة ، ورفض بعض قضايا ، وطور بعضها الآخر فى اطار هدفه الأساسى الذى اناط

---

(٢٦) انظر :

Colin Fletcher, Deneath the Surface : An Account of three Styles of Sociological Research, Routledge and Kegan Paul, London and Boston, 1974, p. 176.

به نفسه ، واعنى نقد البناء الاجتماعى القائم ، وكشف مظاهر التحكم والاستغلال فيه · الأمر الذى يدعونى الى القول بأن ميلز يعتبر بحق ماركسيا محدثا ، لو أحد مفكرى اليسار الجديد واكثرهم جدية وبراعة ، ماذا رفض ميلز من الماركسية وماذا قبل وماذا طور ؟ الاجابة عن هذا السؤال هى موضوع هذه الفقرة ·

يوحى أول فصل من كتاب رايت ميلز « الماركسيون » أنه يرفض الماركسية رفضا ، حيث يدخل الماركسية فى حوار مع الليبرالية ويقرر أن الليبرالية والماركسية يعبران عن النزعة الانسانية الطمانية للحضارة الغربية ·· ويجسدان مظاهر الثقة وما ارتبط بها من آمال ، مثلما يجسدان مظاهر الخوف والابهام فى العصر الحديث · وهما اكثر من كونهما فلسفتين اساسيتين : انهما واقع سياسى بالدرجة الأولى ، فهما يمثلان معتقدين ظاهرين لأكبر دولتين فى تاريخ العالم ·· فضلا عن ذلك يقدم كل منهما نظرة واسعة النطاق فى طبيعة العالم الاجتماعى ، ترسم وسائل التغير التاريخى ، وتقترح برامج لتحقيق هذا التغير(٢٧) » ويكشف هذا النص عن ثلاثة حقائق جوهرية : الأولى أن ميلز ينظر الى الماركسية نظرة بنائية حيث ظهرت ـ مثلها مثل الليبرالية ـ كرد فعل انسانى للحضارة الغربية وما وصلت اليه من تقدم بفضل الثورة الصناعية · والثانية : انه هنا يضع أساس تخوفه من حدة التعصب الأيديولوجى الذى عالجه فى كتابه « أسباب الحرب العالمية الثالثة » ، حيث تحولت كل فلسفة سياسية الى ايديولوجية ، فاصبحت الماركسية عقيدة الشيوعيين ، واصبحت الليبرالية عقيدة الراسمالية · وكلتاهما داخل الحضارة الغربية(٢٨) · والثالثة : انه ينظر الى الماركسية ـ وكذلك الليبرالية ـ على انها تقدم نظرة مجردة وواسعة النطاق · والواقع أن النقطة الثانية هى أهم هذه النقاط جميعا ، فميلز يريد أن يدلل على ان تحول الفلسفة الاجتماعية الى ايديولوجية قد أساء الى

---

(٢٧) W. Mills, The Marxists, Penguin Books. First Published in U.S.A., 1962. Republished in Penguin Books in 1963, 1967, pp. 15—16.

(٢٨) اعتبر ميلز أن الاتحاد السوفيتى يدخل فى نطاق الحضارة الغربية · انظر المرجع السابق ، ص ٢٤ ·

الماركسية والليبرالية على حد سواء · ولكن هل معنى هذا انه يرفض الماركسية ؟

لم يرفضها كلها بطبيعة الحال · ولكى يتضح لنا ذلك لا بد ان نفرق بين شيئين : بين رؤية ميلز للماركسية كفلسفة اجتماعية وبين رؤيته لها كايديولوجية ساسية · لقد رفضها بالصورة المطبقة بها فى روسيا ، وهذا هو السبب الذى جعله يدخلها فى حوار مع الليبرالية على اساس ان الاستقطاب المعاصر بينهما يأتى الى العالم بالشر اكثر من الخير · فبعد ان يوضح الصراع بين الأيديولوجيتين من خلال وسائل الاعلام ، ودفع للشعوب دفعا الى قبول اى منهما يقول « ان تراث الليبرالية يقرر ان امريكا بلد حر يتحكم فيه الأفراد فى مصيرهم الخاص · ويسود فى روسيا السوفيتية حكم شمولى فردى قائم على الطغيان المطلق يتم فيه ضبط سلوك الناس بالقوة حيث لا حرية ولا ابتهاج »(٢٩) · ويضيف : « ·· فى نطاق تراث الشيوعية أصبحت أفكار ماركس واتباعه من المفكرين فى حالة تدعو الى الأسف »(٣٠) ويوضح النصان أن ثورة ميلز هنا هى ثورة على نظام الحكم السوفييتى ، وليست ثورة على الماركسية · فما دامت أفكار ماركس تدعو فى روسيا الى الأسف ، فمعنى ذلك أن النظام الروسى قد شوه هذه الأفكار ·

ولكن هل معنى هذا أن ميلز يدخل الماركسية فى حوار مع الليبرالية انه يساوى بينهما ؟ الاجابة بالنفى بطبيعة الحال ايضا · انه يرفض الليبرالية قبل أن يغادر الفصل الأول من كتابه « الماركسيون » فقد تحولت الليبرالية الى نزعة محافظة منذ أن ارتبطت بالأيديولوجية ، فعندما تعرض ميلز للنزعة المحافظة فرق بين صورتين لها : صورتها المنتشرة فى البلدان النامية حيث يسود الاتجاه المحافظ من خلال قوة البوليس وليس من خلال الاتفاق الأيديولوجى ، والمثال على هذه الصورة اسبانيا فى عصر فرانكو ، وانبرتغال فى عصر سالازار ، ثم صورتها المنتشرة بها فى المجتمعات الراسمالية المتقدمة حيث تؤدى الليبرالية الوظائف الفكرية والأيديولوجية التى كان الاتجاه المحافظ يؤديها فى القرن التاسع عشر · اما الاتجاه المحافظ

---

(٢٩) Ibid., p. 23.
(٣٠) Ibid., p. 24.

بنفس صورته القديمة هذه فلم يعد موجودا · ومنذ ان ارتبطت الليبرالية بالأيديولوجية الرأسمالية تخلت عن جوهرها الأساس ولم تعد ترتبط بأى نظرية منطقية عن المجتمع ، او بأى وسائل مؤثرة للحركة الاجتماعية « فقد وصلت الليبرالية ـ كمجموعة من الأفكار ، او كمجموعة من القضايا عن المجتمع والتاريخ ـ وصلت الى حالة من الموت »(٣١) ·

واذا كان هذا موقف ميلز من الليبرالية والذى صاغه بوضوح ، فما هو : موقفه من الماركسية ؟ راينا فيما سبق كيف ان ميلز ادان الصياغة الأيديولوجية للماركسية فى روسيا السوفيتية ، تماما كما ادان التحول الليبرالى نحو الاتجاه المحافظ فى الولايات المتحدة · ليس معنى ذلك انه يرفض الماركسية ، فقد قبل روحها الراديكالية العامة وتفهم دورها فى تغيير الواقع ولكن ذلك لم يمنعه من تناولها بالنقد · واذا عرضنا موقف ميلز من قضايا الماركسية تتضح لنا هذه الحقيقة بجلاء · حصر ميلز قضايا الماركسية فى اربع عشرة قضية وعلق على كل قضية منها على النحو التالى(٣٢) :

١ ـ ذهب ماركس الى ان الأساس الاقتصادى للمجتمع هو الذى يحدد بناءه الاجتماعى والتركيب السيكولوجى لأفراده ، وان ديناميات التغير التاريخى تنحصر فى الصراع بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وان الصراع الطبقى بين المالكين والعمال هو انعكاس لجتماعى وسياسى ونفسى للصراعات الاقتصادية · ويكشف نقد ميلز لهذه القضايا انه لا يقبلها ، فكيف يحدد الأساس الاقتصادى البناء الفوقى ، فضلا عن ان الأساس الاقتصادى نفسه يشتمل على عوامل ليست اقتصادية · هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فان الصراعات الاقتصادية لا تتحول الى صراعات سيكولوجية وسياسية الا تحت ظروف وميكانيزمات قد لا توجد فى كل المجتمعات ·

---

(٣١) Ibid., p. 30.
وتجدر الاشارة الى ان تخلى الليبراليين عن نظرياتهم يمثل نقطة تفرقة بينهما وبين الماركسية حيث ظل الفكر مرتبطا بالعمل الى يومنا هذا ومع هذا يجب ان نشير أيضا الى ان الليبرالية ما كانت تتخلى عن نظرياتها لولا ان جذبت كل علماء العلوم الاجتماعية لصياغة نظرية عن المجتمع ·

(٣٢) Ibid., pp. 104—121.

٢ ـ تعد الملكية ـ فى نظر ماركس ـ كمصدر للدخل معيارا موضوعيا لقياس الطبقة ، وبنـاء على ذلك فان المجتمع الراسمالى يحـوى طبقتين : الطبقة المـالكة وطبقة العمال • ويذهب ميلز الى ان نموذج ماركس هنا يلغى كل اعتبارات المـكانة ، ويحـدد وضع الأفراد فى ضوء عـلاقتهم بوسـائل الانتاج فقط • حقيقة اننا لا نستطيع الاستغناء عن الملكية كمعيار موضوعى لقياس التدرج فى المجتمع الراسمالى ، غـير أن الملكية وحـدها غـير كافية ومضللة ، حتى فى فهم التدرج الاقتصادى • فاننا لا نستطيع على سـبيل المثال ـ أن نحدد مكانة افراد الطبقة الوسطى من « ذوى الياقات البيضاء » • فلا يمكن أن نضم هـذه الفئة مع عمال الصناعة فى طبقة واحـدة • وهنـا يصبح الدخل معيارا آخر بجانب الملكية فى تحديد المستوى الطبقى •

٣ ـ يذهب ماركس الى أن الصراع الطبقى ـ وليس التناغم ـ يعـد طرفا حتميا وصحيحا فى المجتمع الراسمالى ويوافق ميلز على طرف القضية الأول ، ولكنه يرفض طرفها الثانى • فاذا كان التناغم بالمعنى الذى صاغه به علماء الاقتصاد الكلاسيكيون يعـد خرافة فى المجتمـع الراسمالى ، فانه لا يستتبع ذلك القول بأن الصراع الطبقى ظاهرة حتمية او عادية • ان ذلك يغفل عملية التشـكل النظـامى المستمر للصراعـات القـائمة على مصـالح اقتصادية • فمن الممكن ان يحول النضـال الطبقى الى تنظيمات ادارية داخل المجتمع الراسمالى ، بنفس القدر الذى يحافظ به هـذا المجتمع على استقراره ويخفى مظاهر القصور والخطأ والعبث داخله عن طريق وسـائل سياسية وعسكرية ، واقتصـادية •

٤ ـ يؤكد ماركس أن العمال لا يستطيعون أن يتخلصـوا من حالة الاستغلال والمصير الثورى عن طريق كسب الحقوق والامتيازات السياسية والقانونية • وفى هـذا الصدد فان النقـابات العمـالية واحـزاب العمـل الجماهيرية من الوسائل التدريبية المفيدة لقيـام الثورة ، ولكنهـا ليست ضمانا لتحقيق الاشتراكية • ويعلق ميلز على هذه القضية بقوله « الحقيقة العامة تقرر أن العمال قد حصلوا على كل من حقوقهم الاقتصادية والسياسية ، ولم تعمل أى من النقابات العمالية أو أحزاب العمل الجماهيرية كوسـائل تدريبية لقيام الثورة ، ذلك فضلا عن أن التنظيم النقـابى لم يظهـر الى

الوجود الا فى فترة متاخرة ، ولحتمى فى ظهوره تحت مظلة الدولة القانونية والسياسية التى تسيطر عليها مصالح الطبقتين العليـا والوسطى »(٣٣) ويكتشف هذا النص عن رفض ميلز لقضية ماركس السابقة ٠

٥ ـ اذا كان ماركس يذهب الى أن الاسـتغلال كامن فى البنـاء الراسمالى كنسق اقتصادى ، ويزيد هـذا الاستغلال من فرص قيام الثورة ، فان ميلز يوافق على طرف القضية الأول على أنه حكم أخلاقى ٠ ولا يوافق على طرفها الثانى من حيث أن الاسـتغلال لم يزد من فرص البروليتاريـا فى القيام بالثورة فى المجتمع الراسمالى ٠

٦ ـ كلما زاد الاستقطاب فى البناء الطبقى ، تزايدت فرص قيـام الثورة ٠ ويقرر ميلز تعليقا على هـذه القضية أن الاستقطاب لم يظهـر فى المجتمع الراسمالى ولم يحدث فى تاريخ المجتمع الرسمالى أن بسط البناء ـ كما توقع ماركس ـ فى طبقتين اثنتين ٠ على العكس من ذلك تماما ٠ فانه كلما تقدم المجتمع الراسمالى اصبح التدرج الاجتماعى أكثر تشعبا واختلافا٠

٧ ـ وكلما تزايد البؤس المـادى للعمل ازداد اغترابهم ٠ ويعلق ميلز على هـذه القضـية بأن البؤس المـادى أو الاقتصـادى لم يتزايد داخـل المجتمعات الراسمالية المتقدمة ، بل ان هناك ـ على العكس من ذلك ـ زيادة فى مستوى المعيشة المـادية ٠ وارجع ميلز هـذه الزيادة فى مستويات المعيشة الى اربعـة عـوامل :

(أ) الاصلاحات النظامية ذات الطابع السياسى مثل برامج الرفاهية التى تقدمها الدولة ، وظهور دولة الرفـاهية التى تواجه مظـاهر النقص فى النظـام الراسمالى ٠

(ب) الأدوار السياسية والاقتصادية التى تلعبها نقـابات العمـال والأحزاب العمالية فى المجتمع الراسمالى ٠

(ج) اقتصاد الحرب وما يترتب عليه من زيادة مستمرة فى مسـتوى المعيشـة بسـبب :

---

(٣٣) Ibid., pp. 107—108.

(د) كل الميكانيزمات السياسية ، والاقتصادية ، والعسكرية التى يقوم عليها استقرار المجتمع الرأسمالى ٠

ولكن ميلز يقبل الطرف الآخر من القضية والمتعلق بالحرمان النفسى أو الاغتراب عند العمال بحيث لا يرتبط بالضرورة بالاستغلال الاقتصادى ، حيث ظهرت أنماط وميكانيزمات جديدة للاستغلال ذات طابع نفسى : التحكم الآلى فى أساليب الترفيه وسلب القدرة على التفكير على سبيل المثال ٠ وهى ميكانيزمات توجد فى المجتمع الرأسمالى ، وما بعد الرأسمالى ، وفى المجتمعات المتخلفة ٠ وغم ذلك فان مفهوم الاغتراب بالمعنى الذى قدمه به ماركس ما يزال خصبا ومتالقا وله قدرة على التفسير ، ولذلك فانه اكثر اتفاقا من مفهوم البؤس المادى ٠

٨ ــ يذهب ماركس الى ان العمال الاجراء كطبقة فى ذاتها سوف يتحولون الى بروليتاريا ، اى الى طبقة لذاتها ٠ بمعنى أنهم سوف يتحولون من جمع متفرق من الأفراد الى طبقة تعى وضعها فى البناء الاقتصادى القائم ٠ ويعلق ميلز بأن هذا التحول يظهر فقط بطريقة جزئية ومرحلية ٠ انه يظهر فى مرحلة مبكرة من التصنيع ويتبلور فى موقف يتحد فيه القهر السياسى مع الاستغلال الاقتصادى ٠ واذا كان ماركس لم يوضح الشروط التى يظهر من خلالها الوعى الطبقى ، فانه من المحقق انها تشتمل على عناصر ابعد من التطورات الاقتصادية ٠

٩ ــ ويؤكد ماركس على أن فرصة قيام الثورة توجد عندما ترتبط الشروط الموضوعية بالاستعداد الذاتى فقط ، ويعلق ميلز بأن كلتا العمليتين لم ترتبط سويا فى أى مجتمع راسمالى متقدم ، وحتى فى أكثر هذه المجتمعات تقدما فى أثناء أزمته الكبرى ، ويعنى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٠ ٠

١٠ ــ ان الضرورة الوظيفية للطبقة فى النسق الاقتصادى تؤدى الى تعاليها من الناحية السياسية فى المجتمع ككل ٠ وتكشف هذه القضية عن رأى ماركس فى القوة ، التى تحوزها طبقة من الطبقات فى فترة زمنية معينة ثم تنتقل الى طبقة اخرى بحيث تؤدى كل طبقة دورا وظيفيا فى العملية التاريخية ٠ ويعلق ميلز على هذه القضية بأن هذه النظرة الى القوة تبدو شكلية بحيث تفقد قدرتها على الاسترشادية فى البحث ، فضلا عن كونها

مضللة فى الغالب وهى تطمس الترابط التنظيمى بين الطبقات والنظم السياسية ، وكذلك دور الأفكار السياسية والقوة العسكرية فى التحكم فى مصادر القوة واستخدامها ٠

١١ ـ تعد الدولة فى كل المجتمعات الطبقية الأداة القهرية للطبقات الحاكمة على ما يذهب ماركس ٠ ويكشف تعليق ميلز على هذه القضية عن تبولها لها بشرط ارتباطها بفترة زمنية معينة ٠ ويناقش ميلز هنا مفهوم ماركس عن « الطبقة الحاكمة » ويعده مفهوما غير دقيق ، ويطرح بديلا له يتمثل فى مفهوم « صفوة القوة » ٠ ويذهب الى أن هذا المفهوم أكثر استيعابا للعناصر المتشابكة فى الدوائر العليا فى المجتمع الرأسمالى ٠

١٢ ـ يمر النظام الرأسمالى بأزمة اقتصادية تلو الأخرى ، وتزيد هذه الأزمات حالة المجتمع سوء ٠ ومن ثم تتحرك الرأسمالية الى ازمتها النهائية التى تمهد لقيام ثورة البروليتاريا ٠ ويكشف تعليق ميلز على هذه القضية عن أن أزمة الرأسمالية كما يتصورها ماركس أزمة مرحلية ، فالتطورات التى طرأت على المجتمع الرأسمالى حولت مشكلة الأزمة من مشكلة اقتصادية الى مشكلة ذات طابع سياسى وعسكرى ونفسى ٠ أى أن الاستغلال فى المجتمع الرأسمالى ـ والذى يخلق أزمة داخل هذا المجتمع ـ قد اتخذ اشكالا جديدة تختلف عن أشكاله الاقتصادية التى ركز عليها ماركس ٠

١٣ ـ أما عن قضية تحول مجتمع ما بعد الرأسمالية الى مجتمع ديكتاتورية البروليتاريا الذى يتحول بدوره الى مجتمع شيوعى ، فان ميلز يقرر اننا لا نملك أى معرفة بذلك لأنه لم يحدث أن قامت ثورة بروليتارية فى أى جزء من أجزاء العالم بالمعنى الذى كان يقصده ماركس ٠

١٤ ـ يذهب ماركس الى أنه بالرغم من أن الأفراد يصنعون تاريخهم الخاص ، فان الطريقة التى يتكون بها هذا التاريخ ومساره يتحدد من خلال الظروف الاقتصادية ، اى أن طابع الاستغلال الاقتصادى والتحكم فى الطبقات المقهورة هو الذى يحدد مسار التاريخ ٠ فبالرغم من أن الأفراد انفسهم هو الذين يصنعون هذا التاريخ ، الا أنهم يصنعونه وفق اهواء الآخرين ٠ ويعلق ميلز على هذه القضية فيذهب الى أن الحقائق التاريخية

تؤكد الحاجة الى نموذج آخر ، ومن هذه الحقائق تركز وسائل القوة فى كل عنصر نظامى من المجتمع سواء أكان سياسيا ام اقتصاديا أم عسكريا • بناء على ذلك يجب أن نشيد نموذجا آخر يمكن من خلاله أن نفهم الأحداث فى علاقتها الوثيقة بعملية صنع القرار لدى صفوة القوة ، وبحيث ينطبق هذا النموذج على النمط السوفيتى وعلى المجتمعات المتخلفة على حد سواء مثلما ينطبق على المجتمعات الرأسمالية المتقدمة • ومع هذا النقد لا يخفى ميلز اعجابه بنموذج ماركس على أنه نموذج « صاغة ماركس بطريقة متألقة لينطبق على مرحلة تاريخية معينة فى مجتمع معين »(٣٤) •

١٥ ــ ما دام الأساس الاقتصادى للمجتمع يحدد البناء الاجتماعى ، فانه يترتب على ذلك أن يتحدد تاريخ هذا البناء من خلال التغيرات التى تطرأ على الأساس الاقتصادى • ويعلق ميلز بأن الكثير من التطورات الاقتصادية فى القرن العشرين يجب ان تفسر فى ضوء التغيرات فى القوى السياسية والعسكرية ولا يود ميلز هنا ان يستبدل الحتمية الاقتصادية بأخرى سياسية وعسكرية ، ولكنه يود ان يؤكد ان ترابط هذه الأنماط جميعا لا يخضع لأى قاعدة تاريخية عامة •

من ذلك الاستعراض السريع لموقف ميلز من القضايا الأساسيه للماركسية يتضح أن موقفه لا يمثل موقف الرفض بقدر ما يمثل فهما جديدا للماركسية برؤية عصرية لها غلا يمكن لناقد اجتماعى راديكالى مثل ميلز أن يرفض الماركسية رفضا باتا ، خاصة وأن معظم المؤرخين لحركة النقد الاجتماعى يقرون أن عالم الاجتماع الناقد الاجتماعى يستوعب علم الاجتماع متشربا بالماركسية(٣٥) • فلو تأملنا نقد ميلز للقضايا السابقة نجد انه يقوم على فكرة جوهرية مؤداها أن المجتمع الراسمالى المعاصر يختلف اختلافا جذريا عن المجتمع الراسمالى الذى كتب عنه ماركس ، وان هذا المجتمع قد طرأت عليه بعض التغيرات النظامية ادت فى النهاية الى :

---

(٣٤) Ibid., p. 121.

(٣٥) انظر على سبيل المثال :

T.B. Bottomore, Critics of Society, op. cit., Last Chapter; C. Flecher, Beneath the Surface. ou. cit., p. 190.

(أ) عدم امكان تحقيق بعض الأفكار الماركسية خاصة فيما يتعلق بالصراع الطبقى وتحقيق المجتمع الشيوعى ٠

(ب) أن أشكال الاستغلال لم تعد مقصورة على الشكل الاقتصادى الذى تصوره ماركس وانما امتدت وتشعبت جذورها وأصبحت ترتبط بالبناء النظامى لمجتمع ككل ٠ بمعنى ان الاستغلال لم يعد مقصورا على طبقة الملاك ، وانما أنتج السلوك الرأسمالى شرائح أخرى ارتبطت مصالحها بمصالح الملاك وأصبحت تمارس أشكالا جديدة من الاستغلال ٠ ليس أهمها جميعا الاستغلال الاقتصادى ، بل الاستغلال النفسى وسلب حريه الفكر والارادة بطريقة غير مباشرة ومن خلال وسائل منظمة ٠

(ج) أن الفئات المستغلة ـ بناء على ما وجد داخل المجتمع من متغيرات جديدة ـ لم تعد تنحصر فى طبقة العمال فى مقابل أصحاب الأعمال ، بل أصبحت تضم فئات جديدة أهمها وأكبرها على الاطلاق الطبقة الوسطى من (ذوى الياقات البيضاء) والتى لا يمكن أن نضمها مع طبقة العمال فى شريحة واحدة ٠

(د) بناء على ذلك تصبح بعض المقولات الماركسية ـ وعلى رأسها مفهوم الاستقطاب الطبقى ـ غير صالحة لتحليل بناء المجتمع او ما يسود فيه من سيطرة واستغلال ٠

(هـ) اذا كان ماركس قد صاغ نموذجه من أجل تحليل بناء المجتمع الرأسمالى فى فترة تاريخية معينة وفى مكان معين ، فان نقد ميلز لهذا النموذج يهدف الى امكانية الامتداد بالتحليل ليشمل نمطين من أنماط المجتمع تتحكم فيهما نفس القوى والدوافع التى تتحكم فى المجتمع الرأسمالى ، وأعنى النمط السوفييتى والنمط المتخلف ٠

نستطيع من ثم أن نذهب الى القول بأن ميلز كان ينظر الى ماركس على أنه مفكر عاش ظروف المجتمع الذى كتب عنه ، وظروف الفترة التاريخية التى تناولها بالتحليل ، وقدم اطارا نظريا عاما يجب التعديل فيه حسب مقتضيات التطور البنائى للمجتمع وحسب ظروف الفترة التاريخية ٠ وقيمة هذا الاطار تكمن فى قدرته على التطور وفى اصالته التحليلية ٠ لقد فرق ميلز بين الماركسية كنظرية عن المجتمع theory وبين الماركسية كنموذج تفسيرى

Model (٣٦) وكتب يقول « فى ضوء هذه التفرقة فقط نستطيع ان نفهم لماذا يعد العمل الذى قدمه ماركس عظيما ، ولماذا يتضمن بعض مظاهر الخطأ أو الغموض ، ولماذا لا يعد كافيا . فالماركسية كنموذج هى ما تعد عظيمة بحق . انه يقدم لنا اداة للتفكير بشأن الانسان ، والمجتمع والتاريخ »(٣٧). ويكشف هذا النص عما سبق أن أكدته من أن ميلز قد تشرب الروح العامة للماركسية ، تلك الروح التى تكمن فى الماركسية كنموذج صاغه صاحبه فى ضوء ظروف تاريخية معينة ، ومن ثم فانه يشتمل على الصواب والخطأ والغموض ، ولكنه مع ذلك يبقى حيا ليلهم كل من يعيش ظروف عصره الحقيقية بأن يضيف عليه قبسا جديدا . فنموذج ماركس التفسيرى تمت صياغته لتفسير حقيقة تاريخية ، ومن ثم نستطيع أن نشتق منه مبدأ « الخصوصية التاريخية » Principle of Historical Specificity الذى يمكن الإستفادة به على ثلاثة مستويات :

١ ـ كأساس للبحث يوجه الباحثين الى دراسة الانتظامات والاتجاهات التى تقابلهم فى ضوء فترة تاريخية معينة ، ويعلمهم بألا يعتبروا آراءهم عن هذه الفترة تعميمات مطلقة .

٢ ـ كمنهج لنقد المفاهيم بحيث لا ننظر لأى مفهوم ـ أو اى مقولة ـ على أنه أزلى ، على العكس من ذلك ننظر اليه على انه نسبى يرتبط بفترة معينة .

٣ ـ كنظرية عن طبيعة المجتمع والتاريخ ، حيث يقرر هذا المبدأ ان تاريخ البشرية ينقسم الى فترات ، وكل فترة تتحدد من خلال شكل بنائى معين .

لقد طبق ميلز نفسه هذا المبدأ وعاش فقط ظروف عصره ، واعتقد اعتقادا جازما أن هذا هو ما فعله ماركس « ان كل انسان يستطيع أن يفكر

---

(٣٦) النظرية من حيث هى قضايا يمكن ان تثبت صحتها او زيفها ، والنموذج من حيث هو مجموعة مترابطة من العناصر يمكن لستخدامها فى التفسير . وهذه العناصر ليست صادقة او زائفة وانما ملائمة بدرجات مختلفة . انظر ميلز ، الماركسيون ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

(٣٧) Ibid., p. 38

فقط فى ضوء العصر الذى يعيش فيه ، ولكنه ايضا يستطيع أن يفكر فى الماضى والمستقبل فى محاولة لتوسيع تفسيره ، بحيث يشيد من خلال مادته صوره عن هذا العصر • وهذا هو مافعله ماركس بطريقة متألقة »(٣٨) ويكفى لكى أوكد على ما ذهبت اليه فى هذه الفترة من ان ميلز قد تشرب الروح الماركسية دون أن يعتنقها كمذهب سياسى فكرى ، ان هذا النص الذى كتبه ميلز عن ماركس يمكن أن ينطبق على ميلز ذاته •

يؤكد ذلك ما ذكره فى كتابه « الخيال البوسيولوجى » من أن الباحث فى العلوم الاجتماعية يجب أن يسعى نحو فهم التنوع البشرى بطريقة منظمة. وتعنى عبارة « التنوع البشرى » أن الانسان يعيش فى عوالم اجتماعية متنوعة تبدأ بأقل هذه العوالم بدائية ، وتنتهى بأكثرها تحضر وتعقيدا ، ويترتب على هذا أن البناء الاجتماعى للمجتمع المعاصر له من السمات والخصائص ما يجعله مختلفا ومتميزا عن الأبنية التى سبقته • وفهم هذا البناء وحل مشكلاته الملحة يتطلب ضربا معينا من ضروب التفكير لا يقتصر على نوع معين من فروع المعرفة وانما يستقى مادته ، ومفاهيمه ، ومناهجه من بين أكثر ن فرع من هذه الفروع(٣٩) ويناط بالباحث أن يستخدم هذه المادة ، وتلك المفاهيم ، وهذه المناهج فى دراسة الفترة التاريخية التى يعيش فيها • فذروة اهتمام الباحث فى العلوم الاجتماعية بالتاريخ تنحصر فى الأفكار التى يستطيع أن يكونها عن الفترة التاريخية التى يعيش فيها(٤٠) •

ان ميلز هنا يتمثل روح ما يسمى باليسار الجديد ،والذى رصدنا حركة ظهوره فى الفصل السابق • ولقد كتب ميلز مقالا عن اليسار الجديد عارض فيه بشدة دعاة نهاية الأيديولوجية من المفكرين الليبراليين ، فما زلنا نعيش فى مجتمع تلعب فيه الأيديولوجيا ونظريات المجتمع ، وأجهزة التغير التاريخى ، والمثل الانسانية والسياسية دورا كبيرا ويعنى اليسار فى نظر ميز : « النقد البنائى لنظريات المجتمع الذى يركز بطريقة أو بأخرى على

---

(٣٨) Ibid., p. 103.

(٣٩) Mills, Sociological Imagination, op. cit., pp. 132—142.

(٤٠) Ibid., p. 15.

بعض المطالب والبرامج السياسية ، .. فلكى تصبح يساريا يجب أن تجمع بين النقد الثقافى والنقد للسياسى وبين المطالب والبرامج(٤١) ويكشف هذا النص عن ان اليسار الجديد يعمل على مستويين : مستوى نقد الأيديولوجيات السائدة ، ثم مستوى الفعل والعمل من اجل تغيير الواقع . وطبيعى ان يستلهم روح تغيير الواقع من التراث الماركسى . وينطبق ذلك على ميلز بطبيعة الحال . فقد استلهم الروح العامة للماركسية بعد ان نقدها ، وتآزر مع فكر اليسار الجديد من أجل تغيير الواقع الجديد للمجتمع الراسمالى .

ولكن ميلز اختلف مع بعض مفكرى اليسار الجديد على ا لأداة التى من خلالها يمكن تغيير الواقع . فقد كان هناك بعض اليساريين لا يزالون يتعلقون بالطبقة العاملة بالمفهوم الماركسى على انها الأداة الفعالة للقيام بالثورة وعارضهم ميلز فى ذلك عندما كتب يقول : « ان مالا افهمه عن بعض كتاب اليسار الجديد هو لماذا يتعلقون تعلقا شديدا بالطبقة العاملة فى المجتمعات الراسمالية المتقدمة على أنها الأداة التاريخية ، أو اهم الأدوات جميعا فى التصدى للواقع التاريخى المحلى الذى يختلف بالقطع عما يتوقع هؤلاء اليساريون . ان تلك المتافيزيقيا العمالية هى حجة من الماركسية فى العهد الفيكتورى والتى تعتبر الآن غير واقعية تماما(٤٢) . فقد كان ميلز يعتقد أن العمال قد حققوا من المكاسب ومن التشكل النظامى داخل المجتمع الراسمالى ما يجعلهم غير قادرين على الثورة على هذا المجتمع . ومن هنا كان اهتمام ميلز بدور المثقفين كأداة فعالة فى تغيير المجتمع ، فالمثقف المستقل والفنان المستقل يعدان من الشخصيات القليلة الباقية المستعدة لمقاومة ومحاربة تجميد وموت الأشياء الحية الخلاقة . فالادراك الخصب يتضمن الآن القدرة المستمرة على كشف وتحطيم القوالب الجامدة فى الرؤية والتفكير التى تغمرنا بها وسائل الاتصال الحديثة . ان الفن الجماهيرى والتفكير الجماهيرى يجهزان على الاقبال على الممارسة السياسية وهذا هو السبب فى ضرورة تركز تضامن المثقفين وجهدهم فى الممارسة السياسية . فلو لم يربط الفكر نفسه

---

(٤١) Mills, . "The New Left," in : C. W. Mills, Power Politics and People, edited by Irving Louis Horowitz, op. cit., p. 253.

(٤٢) Ibid., p. 256.

بتيمة البحث عن الحقيقة فى النضال السياسى ، فانه لا يستطيع أن يلتحم بخبرة الحياة ككل(٤٣) • واذا كان رايت ميلز يلقى على عاتق المثقف هـذه المسئولية فانه يلقى على عاتق عالم الاجتماع كمثقف مهمة رئيسية فى مجال دراسة المجتمع والسياسة سنكتشف عنها فى الفقرة القادمة •

ثالثا ـ رايت ميـلز العالم الملتزم :

فى هذه الفقرة التلمس دليـلا آخر على راديكالية رايت ميلز ، فاعرض لموقفه من دور الباحث فى العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة • والحقق أن تصور ميلز لهـذا الدور يعـد تدعيما جـديد، لجانبى الراديكالية فى تفكيره ، واعنى الراديكالية السـوسيولوجية والراديكالية الاجتماعية • فسوف نرى كيف يثور ميلز على الدور الكلاسيكى الذى يقوم به عالم الاجتماع ومن ثم الثورة على أهداف البحث والتنظير فى العلم ويكشف ذلك عن ضرب من النقد السوسيولوجى • وسوف نرى أيضا كيف يتصور ميلز دورا جديدا لعالم الاجتماع فى المجتمع الحديث يسعى اساسا الى نقـد الواقع ولماطة اللثام عما يتحكم فى بنائه من قوى ، وما يرتبط به من مشكلات ومثالب ، ويمثل أسلوبا من أساليب النقـد الاجتماعى •

ما هو الدور المنوط بالعالم المتخصص فى العلوم الاجتماعية ؟ لا شك أن دور العـالم يختلف باختلاف الاطـار الاجتمـاعى والتاريخى المحيط به ، وباختلاف طبيعة الضغوط التى يفرضها هذا الاطار المحيط • فالعقل البشرى يمكن أن يوجه لخدمة اغراض متعددة ، ويمكن ان يقوم بأدوار متعددة ذات طبيعة واهداف مختلفة ، ولقد حصر ميلز دور الباحث فى العلوم الاجتماعية بصفة عامة ، وفى علم الاجتماع بصفة خاصة ، فى ادوار ثلاثة رئيسية مختلفة الأغراض والأهـداف(٤٤) •

١ ـ يستطيع الباحث فى علم الاجتماع أن يصبح فيلسوفا للحاكم • فمنذ أوجست كونت وحتى كارل مانهايم يستطيع المرء أن يجـد محاولات مستميتة لتنظيم دور العقل • وعندما ينخرط هـذا الباحث النظر فى أمور

---

(٤٣) W. Mills, The Social Role of The Intellectual, in : Power, Politics and People, op. cit., p. 297.

(٤٤) W. Mills Sociological Imagination, op. cit., pp. 179—181.

السياسة ، أو يوجه نظرياته لخدمتها ، يصبح فيلسوفا للحاكم ، وتصبح جودة الممارسة السياسية مرتبطة الى حد كبير بكفاءة المفكرين المدافعين عنها.

٢ ـ يستطيع الباحث فى علم الاجتماع أن يصبح مستشارا للحاكم أن الدولة . وفى هذه الحالة تصبح العلوم الاجتماعية اداة رشيدة فى يد الدولة ؟حكام الضبط والرقابة على الأفراد ، ويفقد الباحث حياده الأخلاقى ، ويوجه بحوثه من أجل تحديد الأدوات الادارية وأساليب السيطرة أو التحريك الخفى manipulation للجماهير .

٣ ـ يستطيع الباحث فى علم الاجتماع أن يصبح مستقلا عن الحاكم ، وعن الدولة ، وأن يختار الأبحاث التى يعمل فيها بنفسه ، وكذلك المشكلات التى يتناولها بالدراسة ، وأن يخضع أولى القوة والجماهير للدراسة فى ذات الوقت . كل ذلك فى اطار من الالتزام .

رفض ميلز الدور الأول والثانى . فالأول يرتبط بالاتجاه العقلى أو النظرية الكبرى التى تعرض لها بالنقد ، والثانى يرتبط بالاتجاه الأمبيريقى المجرد الذى نقده كما رأيناه فى سياق سابق . ولكن رفضه هنا لا يعتمد على دحض النظرية الكبرى أو دحض الأمبيريقية المجردة ، بقدر ما يعتمد على الدور الذى يقوم به كل من هذين الاتجاهين فى خدمة النظام القائم والدفاع عنه . أن هؤلاء المنظرين والباحثين يرتبطون ارتباطا وثيقا بصانعى القوة فى المجتمع ، ومن ثم تجىء نظرياتهم مثقلة با؟حكام القيمية . حقيقة ان كل نظرية سوسيولوجية وكل بحث سوسيولوجى يجب أن يكون له معنى سياسى ، ويجب أن يرتبط بمجموعة من القيم ، ولكن عندما تكون هذه المعانى وتلك القيم ممثلة من أعلى أو موجهة لخدمة قطاع دون الآخر فان وجودها غير ذات قيمة ، فلسنا بحاجة الى هؤلاء العلماء الاجتماعيين الذين يسمحون للأحداث المحيطة ببحوثهم أن تشكل المعنى السياسى لهذه البحوث أو يسمحون للأفراد الآخرين بأن يحددوا اسلوب الاستفادة بهذه البحوث حسب أهوائهم »(٤٥) .

---

(٤٥) Ibid., p. 177.

ليس معنى ذلك ان ميلز يسعى الى أن يصبح علم الاجتماع متحررا من القيم على ما ذهب ماكس فيبر • على العكس من ذلك تماما يرى ضرورة أن يكون الباحث ملتزما بمجموعة من القيم ، وليس هناك من سبيل لتفادى اختيارات القيمة والتأثر بها فى البحوث السوسيولوجية والمشكلة لا تتمثل فى الاختيار القيمى ، ولكنها تتمثل أساسا فى نوعية هذا الاختيار • فاذا ارتبطت قيم الباحث بالدفاع عن الوضع العام ووجهت نحو أغراض بيروقراطية وايديولوجية . فان ذلك يمثل انحرافا للعلم عن مساره الصحيح • وهذا هو الذى جعل ميلز يرفض دور الباحث كفيلسوف أو كمستشار للدولة لانه يلتزم بقيم يفرضها المجتمع الراسمالى بحيث يقل دور للعقل الحر أو التفكير الليبرالى الحقيقى الذى ورثناه من عصر التنوير الى أن طوقته الحضارة الغربية بنظمها الأيديولوجية •

فلا يمكن دراسة البناء الاجتماعى دراسة حقيقية دون رؤية شخصية تقوم على مجوعة من القيم يلتزم بها الباحث ، وأن التحرر الكامل من القيم يجعل عالم الاجتماع يتناسى انه مواطن وجزء من المجتمع الذى يعيش فيه وينتمى اليه •

وبناء على رفض الدور الأول والدور الثانى لعالم الاجتماع ، يقبل ميلز الدور الثالث الذى يلزم الباحث بالاستقلال الفكرى عن القوى والضغط التى يفرضها البناء النظامى • وان يكون عالما ملتزما • ولكن التزامه من نوعية خاصة ، فهو ليس التزام المدافع عن ايديولوجية معينة ، أو مصالح طبقة معينة • انه يلتزم بانواع ثلاثة من القيم : قيمة البحث عن الحقيقة بكل دلالاتها السياسية ، وقيمة العقل ، وقيمة الحرية(٤٦) • فاذا كنا قد ورثنا هذه القيم من عصر التنوير ، فان الحضارة الغربية قد طمستها ، فهناك مجموعة من القوى غير الرشيدة وغير المنضبطة تحاول أن تتحكم فى الجماهير بطريقة رشيدة . بحيث اختفى أى دور لقيمة العقل ، والحرية ، والبحث عن

---

(٤٦) Ibid., pp. 178—179.

الحقيقة(٤٧) . واذا اراد الباحث ان يلتزم بقيم معينة فلا بد له ان يلتزم بهذه القيم الثلاثة . فالتزامه بها يحقق له اولا التحرر من سيطرة اولى القوة والانقياد الأعمى وراء التحيز الأيديولوجى ، ويحقق له ثانيا ان ينفذ الدور المنوط به ، واعنى اخضاع هذه القوى المسيطرة نفسها للدراسة . « فالأصل فى العلوم الاجتماعية ينعقد على ان تظل قيمة الحرية وقيمة العقل قيمتان ، يسعى الباحثون الى تحقيقهما ، بمعنى انهما سوف تستخدمان بطريقة جديدة ومتسقة ورحبة فى صياغة مشكلات الدراسة »(٤٨) . ولا يعنى اعلاء قيمة العقل والحرية التمكن من انجاز البحث بحرية تامة دونما اى اعتداد ، فمادام هذا الباحث الملتزم يحس بظلم الواقع ، فان بحوثه تتجه اساسا نحو فهم هذا الواقع فى محاولة لتغييره . وهو يلتزم بقيم العقل والحرية لكى يستطيع ان ينفصل ببحوثه عن صانعى القرارات التاريخية فى هذه القوة ، بحيث يصبح الباحث « سياسيا خارج السياسة » على حد تعبير ميلز . فالباحث فرد يعيش داخل مجتمعه ، والاختلاف بينه وبين الآخرين يتمثل فى الموقع الذى يحدده لنفسه داخل هذا المجتمع .

ومتى قبل الباحث قيم العقل والحرية والتزم بها فسوف يستطيع ان يقوم بالدور المنوط به على اكمل وجه . ولكن كيف السبيل الى ذلك؟ الاجابة على هذا السؤال تفرض سؤالا آخر : ما هى الموضوعات التى يتناولها بالدراسة ؟ وكيفية هذا التناول ؟ من اهم الموضوعات الأساسية التى يتناولها الباحث الملتزم بالدراسة الفرص الموضوعية المتاحة لأنماط معينة من البشر داخل انماط معينة من البناء الاجتماعى ليصبحوا افرادا احرارا وعلى جانب من الرشد ، وما هى الفرص المتاحة امام الأفراد ذوى الأوضاع

---

(٤٧) كان ميلز يردد دائما قول ماركس « يصنع الأفراد تاريخهم الخاص ، ولكنهم لا يصنعونه حسبما يريدون ، فهم يصنعونه فى ظروف لا يختارونها بانفسهم » وينسحب هذا القول فى نظر ميلز على الحضارة الغربية التى يتحكم فى مصيرها صفوة صغيرة من الأفراد ، ويجبرون المفكرين والفنانين والوزراء والباحثين والعلماء على ان يخوضوا الحرب الباردة ، دون المطالبة بأى سياسة بديلة ، او حتى طرح هذا البديل على الجماهير . انظر رايت ميلز « الخيال السوسيولوجى» مرجع سابق ، ص ص ١٨٢، ١٨٣ .

(٤٨) Ibid., p. 173.

الاجتماعية المختلفة داخل الأنماط المختلفة للمجتمعات كى يتخطوا حياتهم اليومية من خلال العقل والخبرة ، ولكى يسلكوا فى ضوء بنـاء مجتمعهم · والفترة التى يعيشونها من خلال درجة القوة التى يتملكونها · فمن السهل على الباحث أن يكتشف أن بعض الأفراد فى المجتمعات الحديثة يمتلكون من القوة ، ما يجعل لسلوكهم معنى بنائيا وما يجعلهم على وعى بنتائج اعمالهم ، وأن البعض الآخر يمتلك هذه القوة ولكنهم ليسوا على وعى بمجال تأثيرها ، وأن هناك الكثيرين ممن لا يستطيعون أن يتجاوزا حياتهم اليومية من خـلال وعيهم بالبناء او تغيير هـذا البناء من خلال وسائل الفعل المتاحة لهم(٤٩) ·

فالباحثون فى العلوم الاجتماعية على وعى بتكوين البنـاء الاجتماعى وبالميكانيزمات التاريخية لحركته ، غير أنهم لا يملكون وسائل القوة التى يمكن أن تمارس تأثيرا على هـذه الميكانيزمات التاريخية · ومن ثم فانه يجب عليهم أن يضفوا على أعمالهم معنى سياسيا ، فهـذا المعنى السياسى يمنح أعمالهم قدرا ـ وان يكن هشا ـ من القوة التى قد تسهم على المدى البعيد فى تغيير البناء الاجتماعى ، وهو الهدف النهائى لالتزام الباحثين · ولكن كيف يضفى الباحث على عمله معنى سياسيا اذا ما وجه هذا العمـل اساسا الى الأنماط المختلفة من البشر الذين يختلفون فى درجة القـوة التى يمتلكونها أو درجة المعرفة التى يحصلون عليها ؟ يذهب ميلز الى أن الباحث يوجه عمله الى ثلاثة انماط من البشر(٥٠) ·

١ ـ هؤلاء الذين يملكون القوة على وعى بها · ويفرض عليهم الباحث مستويات متعددة من المسئولية ، لأنه يجد ان البناء الاجتماعى يتاثر تاثرا كبيرا بقراراتهم او عـدم وجود هـذه القرارات ·

٢ ـ هؤلاء الذين يكون لأفعـالهم نتـائج تشبه افعال النمـط الأول ، ولكنهم على غير وعى بذلك · انه يوضح لهم هذه النتائج ، وأن يعلمها لهم بحيث يفرض عليهم قـدرا من المسئولية ·

٣ ـ هؤلاء الذين لا يملكون القـوة ، والذين يرتبط وعيهم بحيـاتهم

---

(٤٩) Ibid., pp. 164—185.

(٥٠) Ibid., p. 185.

اليومية ، انه يكشف لهم من خلال عمله معنى الاتجاهات والقرارات البنائية بالنسبة لحياتهم اليومية ، والطريقة التى ترتبط من خلالها المشكلات الخاصة بالمشكلات العامة ، وكذلك النتائج التى توصل اليها بشأن القابضين على زمام القوة فى المجتمع » فاول خطوة على طريق اعادة الوعى للقاعدة الجماهيرية ، هى جعل مفهوم البناء الاجتماعى فى متناول ادراك المواطن المتوسط العادى »(٥١) .

والفرصة مهيأة أمام الباحث فى علم الاجتماع لكى ينجز هذا الدور ، فهو عادة يعمل كاستاذ ، وهذه الحقيقة المهنية تحدد بدقة ما يستطيع هذا الباحث أن يفعله . فهو ـ كاستاذ ـ يوجه فكره الى التلاميذ ، ويوجهه فى احيان كثيرة من خلال الكتابات والأحاديث ـ الى جمهور أعرض ذى وضع اكثر استراتيجية . وما دام هذا الباحث يهتم بالتربية الليبرالية فان دوره العام لا بد أن يتجه الى تحقيق هدفين : بالنسبة للفرد عليه أن يحول المشكلات الخاصة والاهتمامات الشخصية الى مسائل عامة ومشكلات يمكن اخضاعها لجدل العقل . انه هنا يساعد الفرد على أن يعلم بنفسه ، ويصبح شخصا عاقلا ومتحررا . وبالنسبة للمجتمع عليه أن يقاوم كل هذه القوى التى تعمل على تحطيم الجماهير الخلاقة ، واقامة المجتمع الجماهيرى . فلابد أن يكون الهدف النهائى لأى تربية ليبرالية هو «خلق الرجل والمراة الذى يعلم نفسه بنفسه ويثبت نفسه بنفسه ـ باختصار خلق الفرد الحر الرشيد »(٥٢) . ان الباحث فى هذه الحالة يتصرف بطريقة ديمقراطية فى مجتمع لا ديمقراطى ـ انه يتصرف كما لو كان يعيش فى مجتمع ديمقراطى ، من أجل تحقيق مزيد من الديمقراطية . وليس هناك من وسيلة لذلك الا من خلال هذا الدور المنوط بالباحث السوسيولوجى ، فمشكلة العلم الانسانية كمسئول أول عن دور العقل فى الشئون الانسانية ، هى المشكلة الأساسية للديمقراطية فى العصر الحديث »(٥٣) .

---

(٥١) آمال حسن السواح ، النظرية السوسيولوجية عند تشارلز رايت ميلز ، رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب جامعة الاسكندرية، ١٩٧٥ ، ص ٢٦٧ .

(٥٢) Mills, Sociological Imagination, op. cit., p. 187.

(٥٣) Ibid., pp. 189—190.

ولكن ما هى لمكانية نجاح الباحث فى تحقيق هـذا الهدف ؟ لا يعتقـد ميلز أن العـلوم الاجتمـاعية سوف تنقذ العـالم بالرغم من انه لا يرى اى غضاضة فى القول بامكانية انقاذ العالم عن طريق تجنب الحرب واعـادة تنظيم شـئون البشر طبقا لمبادىء الحرية والعقل • فاذا كانت هناك بعض الطرق للخروج من أزمات العصر عن طريق العقل ، فان العـالم الاجتماعى لا يقرر هـذه الطرق ، وان كان ما يمثله العالم هو أنه انسـان يحس ويعى بالانسانية • « فعلى مستوى الوعى الانسانى تقع كل الحلول الممكنة لـكل المشـكلات الكبرى فى عصرنا الحاضر »(٥٤) • ولم يكتف ميلز بأن حدد للباحث الدور الذى يجب أن يؤديه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، والأهـداف التى يبغيها من وراء انجازه لهذا الدور ، والقيم التى يلتزم بهـا ، بل ذهب الى أبعد من ذلك حين حدد فى ملحق ختامى فى كتابه « الخيال السوسيولوجى » الأسلوب الذى يجب أن يتبعه الباحث الملتزم فى اجـراء بحوثه وتنفيـذها واخراجها فى صورتها النهائية(٥٥) • ويقـوم ذلك الأسـلوب على قضية أساسية مؤداها أن الباحث لا يجب أن يفصل عمله عن حياته ، وان يستخدم كلا منهما فى اثراء الآخر ، وأن يكيف حياته مع عمله من أجل تحقيق قدر من الاكتمال لحرفته »(٥٦) • ويشعر ميلز بالامتعاض تجاه ما يحدث من توجيه البحوث نحو أغراض خاصة ، لو اجرائها من اجل الحصول على النقود ، او كتابة خطتها وفق أهواء معينة ، وذلك أمر طبيعى بالنسبة لعالم يلتزم بقيم الحرية والعقل ، ويوجه بحوثه نحو خدمة أغراض انسانية فى المحل الأول • لذلك فانه يحدد للباحثين مجموعة من الخطوط العريضة فى انجاز البحوث تجنبهم هذا الانحراف السيىء للعلم فالباحث يجب :

---

(٥٤) Ibid., p. 193.

(٥٥) كتب ميلز هـذا الملحق بعنـوان « حـول الحرفية الفكرية on Intellectual craftsmanship أنظر الخيال السوسيولوجى ، مرجع سابق ، ص ١٩٥ وما بعدها •

(٥٦) يحشد ميلز فى هذا الملحق خلاصة خبرته ويقدمها للباحثين ، فينصحهم بتدوين مذكرات ، ويعلمهم طريقة اعـداد خطة البحث وضرورة مناقشـتها مع الأصدقاء والمتخصصين كما يعلمهم طريقة الاقتباس من الكتب والتعليق عليه • ويقدم كل ذلك فى اطار الفكرة الأساسية التى يطرحها فى هذا الملحق والتى مؤداها ان هناك اتصالا وثيقا بين العمل الحـرفى وبين للحيـاة اليـومية •

١ ـ أن يصبح رجل مهنة نظيفا : بأن يتجنب اى اجراءات جامدة ، وان يطور ويستخدم الجدل السوسيولوجى اولا وقبل كل شىء .

٢ ـ أن يتجنب الجدل البيزنطى حول المفاهيم ، وان يحاول قدر استطاعته أن يكون واضح العبارة ، وان يستخدم مصطلحات منقحة ، فهى خير دليل على اتساع افقه وعلى حساسيته بالمشكلات .

٣ ـ أن يكون اى ابنية تاريخية مقارنة يعتقد ان عمله فى حاجة اليها ، وان يربط بينها وبين الحقائق الموجودة ، وان يدعم حديثه بأمثلة قوية .

٤ ـ ألا يدرس وسطا صغيرا تلو الآخر ، بل يجب ان يدرس الأبنية الاجتماعية التى تنظم هذا الوسط ، وان يحاول ايجاد العلاقات التى تربط بينها .

٥ ـ أن يتذكر ان هدفه هو المفهم للابنية الاجتماعية : الأبنية السابقة والأبنية القائمة بالفعل داخل المجتمع .

٦ ـ أن يضع نصب عينيه صورة الانسان ، أو فكرة اساسية عن طبيعته البشرية ، فهى المهدى النهائى لكل دراسة ، وكذلك صورة للتاريخ ـ كيف يصنع ـ لما له من تاثير على الانسان .

٧ ـ ألا ينعزل عن تراث الفكر السوسيولوجى ، وهو لا يستطيع أن يفعل ذلك ما دام يحاول فهم الانسان كفاعل تاريخى ولجتماعى فى ذات الوقت.

٨ ـ ألا يفهم المشكلات (المسائل) العامة بالطريقة الرسمية التى تصاغ بها ، وألا يفهم المشكلات الخاصة بالطريقة التى يفهمها بها الأفراد ، أو يترك ذلك يؤثر على لختياره لمشكلات بحثه .

وبعد هذا العرض لتصور ميلز لدور عالم الاجتماع الملتزم نتسائل . ما هو الجديد الذى أضافه ميلز عن دور عالم الاجتماع ؟ وما مدى التزامه نفسه بهذا الدور ؟ المحقق أن تصور ميلز لدور عالم الاجتماع يكشف ـ كما نوهت فى بداية هذه الفقرة ـ عن راديكالية على المستوى النظرى (الراديكالية السوسيولوجية) وعلى المستوى الاجتماعى (الراديكالية الاجتماعية) . فعلى المستوى السوسيولوجى نحس طيلة قراءتنا لما كتبه ميلز عن دور عالم الاجتماع ، نحس مقته الشديد للدور الذى يقوم به عالم الاجتماع بالفعل فى

المجتمع الراسمالى ، فقد رفض دور العالم كمنظر او فيلسوف للحاكم ، ورفض دوره كمستشار للدولة ، وطالب ان يستقل العالم ولا يلتزم باى شىء الا بقيم العقل والحرية والبحث عن الحقيقة ، كما رفض اسلوب هؤلاء العلماء فى اجراء البحوث واختيارهم لمشكلات بحوثهم حيث يعتبرون الحصول على النقود المحك الأساسى فى اختيار مشكلات الدراسة • وهذا هو الذى دعاه الى تناول موضوع اجراء البحوث كمهنة للباحث • وربما كان اهم شىء جاء به ميلز عندما عالج هذا الموضوع انه وضع أساس ما سماه جولدنر فيما بعد بسوسيولوجيا علم الاجتماع(٥٧) على اختلاف منطلقات كل منها • فقد رأى ميلز امام فيض من البحوث والنظريات الموجهة لخدمة الحياة العامة ، ضرورة الفصل بين الحياة العامة بما فيها من مضامين ايديولوجية واحكام قيمية ، وبين الحياة الخاصة بعالم الاجتماع الذى لا بد ان ينفصل عن اى تاثيرات قد تمارسها عليه الحياة العامة • وهذا هو ما قرره جولدنر بعد ميلز باكثر من عقد من الزمان ـ حين ذهب الى ضرورة الفصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة لعالم الاجتماع • بل ان ميلز حاول ان يضع الفرصة امام الباحث ليستفيد من حياته الخاصة عندما قرر ضرورة ان تشكل المهنة هذه الحياة لا ان تشكل هذه الحياة المهنة ، واحتفاظ الباحث بمذكرات يدون فيها ملاحظاته ثم مناقشة هذه الملاحظات والخطط مع زملائه واصدقائه هو السبيل الى ذلك • ان ذلك يحفظ الحياة الداخلية للباحث فى حالة يقظة مستمرة على ما يقول ميلز (٥٨) •

الى جانب ذلك فان تصور ميلز لدور عالم الاجتماع يكشف عن

---

(٥٧) قدم جولدنر هذه الفكرة فى فصله الأخير من كتابه : الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى ، السابق الاشارة اليه • ولم ينوه جولدنر الى تاثره بميلز • رغم أن فكرة ميلز يتعد أكثر رحابة واصالة • وسوف نتعرض بالتفصيل لآراء جولدنر فى الفصل القادم من هذا البحث •

(٥٨) Mills, Sociological Imagination, op. cit., p. 197.

ويؤكد هذا الادعاء ـ الذى توصلنا اليه مستقلين ـ ما ذهب اليه كولين فلتشر من أن فكرة سوسيولوجيا علم الاجتماع عند جولدنر تتفق مع فكرة الخيال الذاتى عند رايت ميلز • ذلك أن النقد الاجتماعى عنده يجب أن يمتد من نقد ذات الباحث نفسه لأعماله الى تغيير العالم المحيط به ، وما قد يأتى به مستقبل هذا العالم • انظر كتاب كولين فلتشر السابق الاشارة اليه ص ١٨٠ •

راديكالية اجتماعية ، بمعنى ثورة الباحث على كل بناء جائر ، ومحاولته تغيير أى بناء يهدم كرامة الفرد وحريته • ان عالم الاجتماع ـ خلال الالتزام العلمى بقيم الحرية والعقل ـ يعيش فى قلب الواقع ، لا من أجل دراسته فقط والتعرف على ما به من مشكلات عامة ، بل من أجل أن يساعد الانسان العادى على تجاوز الواقع المحدود الذى يعيش فيه ليجد تفسيرا لمشكلاته فى أساس البناء الاجتماعى ذاته • وطبيعى أن يكتسب الفرد الذى يصل الى هذا الحد مقومات الثورة على هذا البناء ويسعى الى تغييره • وهنا يتضح تأثر ميلز بروح اليسار الجديد حيث يؤمن الراديكاليون من اليسار الجديد ايمانا مطلقا بالفعل دون الدخول فى متاهات أيديولوجية ، تماما مثلما يفرض ميلز هنا على الباحث فى علم الاجتماع دورا اساسيا يهدف فى النهاية الى تغيير الواقع • فضلا عن ذلك فان تصور ميلز لدور عالم الاجتماع فى المجتمع الحديث يكشف عن أن علم الاجتماع ـ فى نظره ـ علم انسانى بالدرجة الأولى لا يهدف للوصول الى القوانين والنظريات العامة ، وانما يهدف الى فهم الانسان فى المجتمع الحديث ، بكل ما يحيط بهذا الانسان من استغلال وسيطرة ، ومن أجل أن يفهم هذا الانسان نفسه مظاهر الظلم المحيط به كى يسعى الى تغييرها • ولقد اكد ميلز هذه النظرية الانسانية لعلم الاجتماع حينما ذهب الى أن علم الاجتماع هو جمع للاحصاء والحقيقة والنزعة الانسانية(٥٩) •

ولقد قام ميلز بدور العالم الملتزم حينما وجه كل بحوثه لنقد المجتمع الأمريكى وتوضيح الطريقة التى ترتبط من خلالها مشكلات المواطن العادى بمشكلات البناء الاجتماعى ، وكيف يعمل تركيز السلطة فى أيدى جماعة الاقتصاديين والسياسيين والعسكريين على قهر الانسان فى المجتمع الرأسمالى على ما سنرى بالتفصيل فى الفقرة القادمة •

رابعا ـ رايت ميلز رائد النقد الاجتماعى :

فى هذه الفقرة سوف أحاول الكشف عن مدى التزام ميلز بالدور الذى حدده لعالم الاجتماع ، ولكنى من خلال ذلك أحاول ان اوضح ان اعمال

---

(٥٩) W. Mills, "I.B.M. plus Reality plus Humanism Sociology" in: Power, Politics and People, op. cit., pp. 569—576.

ميلز الملتزمة قد جعلته رائدا لمنهج جديد من مناهج علم الاجتماع وهو المنهج النقدى • ان هذه الفقرة سوف تقدم لنا اجابات على أسئلة عديدة ثارت خلال العرض السابق : كيف نظر ميلز الى البناء الاجتماعى فى عصره ؟ كيف عاش ظروف هذا البناء ؟ كيف حاول أن يكشف عن مظاهر السيطرة الكامنة وراء النظام السياسى الاقتصادى العسكرى المتحكم فى هذا البناء ؟ والاجابة على هذه الأسئلة سوف توضح كيف كان ميلز عالما ملتزما بالدور الذى حدده لعالم الاجتماع ، وبالقيم التى لابد أن يلتزم بها الباحث • غير أن هذا الالتزام قد جعله رائدا لمنهج النقد الاجتماعى ، فقد انبرى فى كل دراسته لتعرية البناء الاجتماعى فى الولايات المتحدة ، واهتم أساسا بموضوع القوة : طبيعتها ، توزيعها ، استخدامها او أساس استخدامها ، ورجل القوة ، وقوة التنظيمات ، وخرافات القوة ، وتطور القوة والقوة غير الرشيدة ، واساليب ملاحظة القوة ، وفهمها على مسرح المجتمع الحديث(٦٠) ومن خلال ذلك استطاع أن يوضح أساليب القوة فى السيطرة على الأفراد فى المجتمع الحديث •

فى عام ١٩٦٧ كتب بوتومور يقول « بدات فى الخمسينات عملية احياء للثقة بالنفس وبالفكر النقدى ، ليس بين الفلاسفة والمؤرخين ولكن بين المتخصصين فى العلوم الاجتماعية ، خاصة علم الاجتماع • وكان تشارلز رايت ميلز معلما اساسيا من معالم هذه الحركة • وكان هدفه الرئيسى كما ذكر ذات مرة ، أن يحيى التراث الأوروبى الكلاسيكى من الفكر السوسيولوجى ، والذى ابدعه ماكس فيبر وماركس فى المحل الأول ، والذى يعالج المشكلات التاريخية والاجتماعية العامة »(٦١) ولقد كتب بوتومور ذلك وهو بصدد تاريخه لحركة النقد الاجتماعى ، وتحولها من الأدباء والفلاسفة الى علماء الاجتماع ، ولاشك ان هذا النص يوضح انه لم يات قبل ميلز من علماء الاجتماع من وجه اهتماما رئيسيا لنقد المجتمع ، وان فترة الخمسينات التى شهدت التحول فى الاهتمام بالنقد الاجتماعى من الأدباء والفلاسفة الى علماء العلوم الاجتماعية قد شهدت ظهور اعمال ميلز

---

(٦٠) P. Cuzzort, Humanityand Modern Sociological Thought Holt Rinehart and Winston, New York, 1969 p. 134.

(٦١) Bottomore, critics of.. op. cit.,

التى جعلته بحق أو رائد للنقـد الاجتماعى · فضـلا عن ذلك فان اسلوبه فى النقـد الاجتماعى والذى ينحصر فى عملية تحويل المشكلات الخاصة الى عامة ومساعدة الفرد على تجاوز الوسط اليومى الذى يعيش فيه الى استيعاب مكونات البناء الاجتماعى ـ ما يزال الأسلوب الرئيسى فى النقـد الاجتماعى حتى وقتنا هـذا · ولقـد حاول كولين فلتشر C. Fletcher فى مؤلف حديث أن يضيف منهجا جـديدا الى المناهج القائمة فى علم الاجتماع ـ وهى المنهج الكمى والمنهج الكيفى ـ فكتب عما سماه بمنهج النقـد الإجتماعى · وتكشف عبارته عن أن هـذا المنهج يقوم على الأفكار والأعمـال التى قدمها رايت ميلز فى الخمسينات » « ·· فالناقـد الاجتمـاعى يكون عادة اشـتراكيا ، وعالمـا انسـانيا والنقـد الاجتماعى هو عمل على درجة من المسئولية الواضحة · فكل ناقد يكون على وعى عميق بأنه مدين للذين سبقوه ، كما يكون على وعى بكل الفضائل التى تجعل الحياة جديرة بأن تعاش ·· انه يقـدم صيحـة الى الأفـراد بأن يميزوا بين الغث والثمين »(٦٢) · ويضيف فى مـكان آخـر : « ·· يتطلب النقد كاتبا لديه القدرة على أن يستجيب لمشكلات اليوم لأنها سوف تتحكم فيما هو آت فى الغد · انه يصبح الى حد ما ابنا للعصر الذى يعيش فيه · ومشكلته تنحصر فى أنه لا بد أن يغطى حقبة بأكملها ، انه يكشـف الحقيقة ، وان يجعل **المشكلة الخاصة مشكلته العامة** »(٦٣) · وهذا هو ما فعله ميلز بالضـبط · لقد كان اشتراكيا ، وملتزما يعتبر نفسـه مسئولا عن انجاز دور معين ، وعلم الاجتماع عنده علم انسانى فى المحل الأول ولقد عاش ظروف عصره ، وآمن بمبدأ الخصوصية التاريخية ، وأخيرا كان أسلوبه الرئيسى فى النقد ان يحول المشكلة الخاصة الى مشكلة عامة على ما رأينا · وبذلك يكون قد وضع الأساس لمنهج النقد الاجتماعى · وقد نقتنع بذلك أكثر لو استعرضنا على عجل بعض أعماله الرئيسية ·

فى عام ١٩٤٨ قدم ميلز كتابا بعنوان « أولى القوة الجدد : قادة العمال فى امريكا »(٦٤) عالج ميلز فيه تطور الطبقة العاملة الأمريكية ، ودرس

---

(٦٢) Colin Fletcher, Beneath the Surface, op. cit., p. 174.
(٦٣) Ibid., p. 189.
(٦٤) W. Mills, The New Men of Power : America's Labour Leaders.

الظروف التي جعلت قادة العمال فى النقابات العمالية الأمريكية يتطلعون الى مكان فى الصفوة القومية بدلا من ان يوجهوا جهودهم لنقد النسق الاجتماعى والاقتصادى للراسمالية الأمريكية(٦٥) · ولقد نجح ميلز فى ان يوضح التغيير والتحول الذى طرأ على الطبقة العاملة ، وكيف انها لم تعد تمتلك امكانيات الثورة بالمفهوم الماركسى · لقد نجح المجتمع الراسمالى فى ان يستدرج هذه الطبقة داخل نظمه ، وان يخلق لها من التنظيمات ما أفقدها القدرة على الثورة ·واخذ قادة هذه الطبقة يتخلون عن مهمتهم التاريخية فى تغيير المجتمع ، ويسعون الى أن يصبحوا أعضاء فى صفوة القوة الحاكمة فى المجتمع ، بحيث يمكن أن نفهم بناء الولايات المتحدة من خلال فهمنا لما يفعله قادة العمال » · فاذا كان ما تفعله الولايات المتحدة أو تفشل فى فعله يمكن ان يكون المفتاح لفهم ما يحدث فى العالم · فان ما يفعله قائد العمال او يفشل فى فعله يمكن أن يكون المفتاح لفهم ما يحدث فى الولايات المتحدة »(٦٦) وربما كان هذا السعى الدائب من جانب العمال نحو تحسين اوضاعهم الاقتصادية والسياسية هو الذى جعل ميلز يتخلى عن فكرة « الدور التاريخى للعمال » كما جاء فى التراث الماركسى ، ويعارض من تبناها من انصار اليسار الجديد هو لماذا يتعلقون تعلقا شديدا بالطبقة العاملة فى المجتمعات الراسمالية المتقدمة على انها الأداة التاريخية ، او اهم الأدوات جميعا ، فى التصدى للواقع التاريخى الملح الذى يختلف عما يتوقع هؤلاء اليساريون · ان تلك الميتافيزيقيا العمالية هى جحة من الماركسية فى العصر الفيكتورى والتى تعتبر الآن غير واقعية تماما » ·

وفى عام ١٩٥١ أصدر ميلز كتابه الشهير عن « ذوى الياقات البيضاء »(٦٧) وهو يمثل دراسة مستفيضة للطبقة الوسطى فى المجتمع الأمريكى · ولقد استطاع ميلز ان يرصد التغير الذى طرأ على الطبقة الوسطى القديمة والتى كانت تتكون من المنتجين ، والتجار ، وأصحاب المهن المتخصصة ، حيث تحولت الى ما أسماهم ميلز « بذوى الياقات البيضاء »·

---

(٦٥) Bottomore Critics of Society, op. cit., p. 54.

(٦٦) نقلا عن : J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 181.

(٦٧) W. Mills, White Coller: The American Middle Classes, Oxford Uni. Press, N.Y. 1951.

White Coller من الموظفين والفنيين ، وأصحاب المهن المتخصصة . كما استطاع ان يكشف عن التغير الذى طرأ على الظروف التى تعيش فيها هذه الطبقة . فالأيديولوجية السائدة والتى تركز على الاستقلال والفردية ، والاحتكار تفرض على هذه الطبقة ـ التى لا تعدو ان تكون مجموعة من الموظفين الأجراء ـ ضربا من ضروب التعمية او التجهيل mystification بحيث فقدت الأمن والترابط الذى كان يميز الطبقة الوسطى القديمة فلم يعد لها جذور محددة ، او انتماءات مؤكدة تحافظ بها على حياتها ، واخذ الاغتراب يضرب بجذوره فى أعماقها ، وسلبها عدم وجود نسق معين من المعتقدات أى قدرة للدفاع عن نفسها ، وجعلها عاجزة من الناحية السياسية.

ولكن ما هى مظاهر هذا القلق والاغتراب الذى تعيشه هذه الطبقة وما هى أسبابه . أن نموذج المجتمع الرأسمالى بما يفرضه من نظم انتاج ، وما يتحكم فيه من قوة سياسية واقتصادية وعسكرية يفرض على الفرد داخل المجتمع نوعا من الحياة يتلقى فيه ما يحتاجه وما يفكر فيه من أعلى دون أى مشاركة فعالة فى صنع حياته . لقد أضحى هذا المجتمع نموذجا مسيطرا manupolative تحولت فيه أساليب الضبط والقهر من الأساليب الصريحة الواضحة الى الأساليب غير المباشرة بحيث أصبح الفرد مجرد آلة يمكن تحريكها فى اى اتجاه فى سهولة ويسر . ولقد استطاع ميلز ـ بذكاء ـ أن يكشف عن تناقضات الحياة داخل هذا المجتمع الرأسمالى يمكن ان نشير الى بعضها على عجالة(٦٨) :

١ ـ يعيش الفرد داخل هذا المجتمع الصناعى غير مكترث بما يدور حوله بحيث أصبح يمر بالأحداث الجسام ، وصور الجريمة دون ان تستوقفه . لقد اصبحت الحياة بمثابة شريط سينمائى يشاهده الفرد ولا يشارك فيه ، أو أن هناك حاجزا من اللامبالاة يمنع للفرد من الانفعال بمشاكل العصر .

٢ ـ يعيش الفرد فى حالة اغتراب داخل العمل ، تفرضه عليه علاقات العمل الرأسمالية . ان هذه العلاقات تفرض على الفرد نوعا من التخصص

---

(٦٨) آمال حسن السواح ، النظرية السوسيولوجية عند تشارلز رايت ميلز ، مرجع سابق .

الدقيق الذى يعمل مع وجود الضبط والرقابة المتصلة ، واسلوب التسلسل الرئاسى المتعدد ، على أن يعيش هذه الحالة من الاغتراب عن نتاج عمله ومجتمعه • وهكذا تحدث أساليب الانتاج تغيرا كبيرا فى « طبيعة » الانسان ، وفى ظروف واهداف حياته •

٣ ـ يترتب على ظروف العمل الصعبة أن يسلم الفرد نفسه بعد عودته من عمله الى وسائل الاعلام والترفيه ، التى تتنافس فى أن تنقل اليه أخبار العالم ، وتحشد ذهنه بما يريده صناع السياسة فوسائل الاعلام فى المجتمع الراسمالى غالبا ما تكون موالية لمراكز السلطة • وهكذا تزداد عنده حالة الاغتراب ، ويحجم على أى مشاركة فى الحياة السياسية ، أو أية مناقشة جادة للأبعاد الحقيقية للمشكلات الاجتماعية •

٤ ـ يساهم فى هذه اللامبالاة وذلك الاغتراب نسق القوة السائدة فى المجتمع الراسمالى ، وهو نسق يعتمد على أساليب جديدة غير معلنة للقهر السياسى • انه ومن خلال أساليب الاعلام والترفيه ، ونظم الانتاج ، يتحكم فى الأفراد بطريقة خفية ، ويحركهم حسب أهوائه دون أن يعرف الأفراد من هو المسئول الحقيقى عن كل ما يجد فى حياتهم من مشكلات •

٥ ـ ترتب على هذا كله أن ضاقت الفرصة أمام الفرد لأن يصبح انسانا حرا ، كما تدهور العقل فى التحكم فى مسار الحياة اليومية • فنظام العمل فى المجتمع الراسمالى الذى يقوم على الترشيد والأداة ، واسلوب الانتاج الكبير الذى يقدم للفرد حلولا فورية لمختلف المشكلات قد قللا من قدرة الفرد على اتخاذ القرارات ، وعلى اعمال فكره فيما يدور حوله من احداث •

ويكشف هذا العرض لتحليل ميلز لنشأة الطبقة الوسطى والظروف التى يعيشها عن قدرته البارعة على التحليل والنقد الاجتماعى • انه هنا يهتم بمشكلات المواطن العادى التى تواجهه فى حياته اليومية ، ولكنه يربطها بمشكلات بنائية عامة (نسق القوة ، أساليب الانتاج ـ علاقات العمل ـ أجهزة الاعلام) ، وهذا الأساس الذى وضعه للنقد الاجتماعى النابع من الخيال السوسيولوجى •

ولقد تعمق ميلز كثيرا فى مشكلات البناء الاجتماعى عندما كرس جهده لدراسة الطبقة الثالثة (الحاكمة) فى الولايات المتحدة • ففى عام ١٩٥٦

اصدر كتابه الشهير « صفوة القوة »(٦٩) Piwer Elite يحلل فيه نسق القوة فى المجتمع الأمريكى · ويعرف ميلز صفوة القوة من خلال تملك افرادها للثروة والقوة والمكانة ، وسيطرتهم داخل الهيئات النظامية الكبرى فى الاقتصاد والسياسة والجيش · انهم أولئك القادرون على أن يحققوا رغباتهم ، حتى لو عارضهم الآخرون · وتضم هذه الصفوة فئات عديدة أهمها : ذوو الثراء العريض The Very Rich الذين ظهروا فى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية « ففى الفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٤٤ اعطت حوالى ١٧٥ بليون دولار مستحقة « ففى الفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٤٤ ضبط وسائل الانتاج فى الامة بأسرها ـ الى شركات خاصة · « وذهب حوالى ثلثى هذا المبلغ الى مائة شركة فى القمة كما ذهب الثلث الباقى الى عشر شركات خاصة ، وتكون هذه الشركات النقود من خلال بيع منتجاتها للحكومة »(٧٠) وهكذا تكونت فئة ذوى الثراء العريض من خلال القفزة الكبرى وتراكم الامتيازات ، واصبحت تسيطر سيطرة كاملة على عالم الشركات الكبرى ، أما الفئة الأخرى وهى فئة العسكريين : وقد تكونت أيضا بعد الحرب العالمية الثانية ، ومن خلال سباق التسلح فى الحرب الباردة · « فمنذ بيرل هاربر حقق هؤلاء الذين يتحكمون فى وسائل الضغط فى الولايات المتحدة استقلالا ملحوظا ، كما أصبح لهم تاثير كبير على زملائهم من السياسيين والاقتصاديين · ولقد تخطى بعض الضباط أدوارهم العسكرية ليؤثروا على مستويات اعلى فى الحياة الأمريكية ، ومارس البعض الآخر ممن ظلوا عسكريين تاثيرا على قرارات أولى القوة من الساسة والاقتصاديين وذلك من خلال تقديم النصح أو المعلومات او الأحكام اللازمة· كما مارسوا هذا التاثير على الأوساط العلمية والتربوية »(٧١) وبذلك انضمت فئة العسكريين الى صفوة القوة وربطت مصالحها بها · وقد ساعد

---

(٦٩) W. Mills, The Power Elite, Oxford Uui. Press, N.Y. 1959.

(٧٠) Ibid., pp. 100—101.

(٧١) Ibid., p. 198.

وتجدر الاشارة الى أن تاثير الأوساط العسكرية على الأوساط العلمية قد امتد الى تحويل البحوث العلمية التى تخدم اغراضا عسكرية · وربما كان مشروع كاملتون السابق الاشارة اليه من أهم الأمثلة على ذلك ·

على ذلك السباق فى الحرب الباردة ، حيث يرغب العسكريون فى أن تنفذ برامج التسليح التى يضعونها ، ويرحب بها أصحاب الشركات لأنهم يجنون من ورائها الأرباح الطائلة . أما الفئة الثالثة فى صفوة القوة فهى فئة الساسة التى تتحكم فى وضع القرارات السياسية الهامة فى المجتمع . وهى تتكون من جماعة صغيرة يتحملون مسئولية القرارات التنفيذية التى تتخذ باسم الولايات المتحدة ، وهى تضم رئيس الجمهورية ، ونائبه ، وأعضاء مجلس الوزراء ، وكذلك رؤساء الهيئات واللجان والأجهزة الرئيسية، وأعضاء المكتب التنفيذى للرئيس بما فيه هيئة البيت الأبيض »(٧٢) .

وهذه الفئة لا تعيش منعزلة عن الفئتين الآخرين ، بل تكون معهما « صفوة القوة » فى الولايات المتحدة ، تجمعها مصالح واحدة ، ويمارس فيها العسكريون وأصحاب الشركات تأثيرا كبيرا على صناع القرار او صناع السياسة بحيث أصبحت الحكومة تراعى الى حد كبير توازن المصالح بين جماعة العسكريين ، وجماعة أصحاب رؤوس الأموال وذلك كله من اجل أن تحافظ هذه الصفوة على مركزها وعلى تملكها زمام القوة فى الولايات المتحدة. هكذا استطاع ميلز بكتابه « صفوة القوة » أن يرتفع بالتحليل الذى بدأه فى كتبه السابقة الى مستوى اعلى يمس جوهر البناء الاجتماعى ككل . فاذا كان قد افاض فى كتابه « ذوى الياقات البيضاء » فى توضيح همسوم المواطنين النفسية والاجتماعية ، وارجعها الى بعض المشكلات العامة التى تضرب بجذورها فى البناء الاجتماعى برمته ، فانه هنا يحصر هذه المشكلات العامة فى مشكلة كبرى واحدة هى انقسام المجتمع الى صفوة حاكمة تمارس اساليب جديدة من القهر والاستغلال ، وجماهير مغلوبة تتلقى جاهزا كل ما يوجه حياتها من هذه الصفوة . والحقيقة ان ميلز كان يلقى على هذه الصفوة تبعات كل المشاكل التى يعانى منها المواطن الأمريكى او حتى اى مواطن فى العالم . يؤكد ذلك ما ذهب اليه فى كتابه عن « أسباب الحرب العالمية الثالثة »(٧٣) من أن الانخراط فى الحرب النووية ـ بمعنى تدمير

---

(٧٢) Ibid., p. 213.

(٧٣) W. Mills, The Causes of the Third World War, Simon and Schuster, New York, 1958.

العالم ـ يعتمد على قرار جماعة صغيرة من الناس لا يمارس للشعب عليها اى رقابة ٠

ولم يقتصر نقد ميلز للمجتمع الراسمالى على هذه الكتب فقط وانما كرس جهدا كبيرا فى مجموعة كبيرة من المقالات يضيق المكان هنا عن عرضها ، وعلى أى حال فان هذا العرض لأعماله الرئيسية يكشف لنا عن حقيقتين :

الأولى : أن ميلز قد التزم التزاما كبيرا بالدور الذى حدده لعالم الاجتماع فلا تكشف أى من دراسته عن ارتباط بالسلطة أو سعى نحوها ، بل انها وجهت لنقد أسلوب السيطرة والاستغلال الذى تمارسه هذه السلطة ، فالقيم التى يلتزم بها ميلز هى فقط قيم الحرية والعقل والبحث عن الحقيقة ٠

والثانية : أن ميلز قد وضع بذلك أساس منهج جديد فى العلوم الاجتماعية منهج النقد الاجتماعى ، بل انه ربط بين نقد الواقع ونقد النظرية التى تفسر ذلك الواقع ٠ ومن هنا لا يعد ميلز رائدا للنقد الاجتماعى فقط ، وانما رائدا لكل الاتجاهات النقدية فى علم الاجتماع سواء اتجهت نحو نقد الواقع أو نحو نقد النظرية ٠ وسوف نرى فى الفصول القادمة مدى التاثير الذى مارسه رايت ميلز على الاتجاهات النقدية التى جاءت بعده ٠ فقد سارت هذه الاتجاهات فى نفس خطى النقد اللذين طورهما رايت ميلز ، والاختلاف بين هذه الاتجاهات واتجاه ميلز يكمن فى أن أى من هذه الاتجاهات لم يستطع أن يربط بين النقد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى بنفس طريقة رايت ميلز ٠ لقد مارس رايت ميلز تاثيرا كبيرا على كل الاتجاهات النقدية بعده ٠ حقيقة أن هناك الكثير من الصراعات البنائية والفكرية التى أذكت هذه الاتجاهات ، ولكن هذه الاتجاهات لم يكن أمامها الا أن تكمل الطريق الذى بدأه ميلز على ما سنرى فى الفصول القادمة ٠

الفصل الثامن

حركة التجديد والنقد في علم الاجتماع

الفن جولدنر والنقد السوسيولوجي

مقـــــدمة :

كان ميـلز يساهم باتجاهه النقـدى المبكر فى الوقت الذى كانت فيه العوامل البنائية والتاريخية التى ادت الى ظهور الاتجاهات النقدية المعاصرة فى طريقها الى الاكتمال · والمحقق أن افكار رايت ميلز قد ساهمت مع هذه العوامل البنائية والفكرية وتفاعلت معها لتظهر اتجاها جديدا · ويتبنى هذا الاتجاه الجديد حركة تجديد ونقد واسعة النطاق لعلم الاجتماع من اجـل تغيير مسـاره المرتبط بمشكلة النظام ، ومن اجل توسيع اهـدافه لتصبح اهـدافا اكثر انسانية ، وليتفادى كل أوجه القصور التى لحقت به من جـراء ارتباطه الشديد بالأيديولوجية المحافظة · فحركة التجـديد والنقد فى علم الاجتماع لا تهتم بتقـديم بدائل نظرية ولكنها تهتم اساسا بتقـديم مسار العلم وتصحيحه ليحقق اهـدافا جـديدة اكثر تحررا وانسانية · وفى اطار هـذا الاهتمام بتصحيح مسـار العلم تظهـر بعض الآراء والتصورات عن الأسلوب الأمثل لهـذا التصـحيح تختلف باختلاف العلماء · اذ لا شـك ان هناك الكثير من العلماء الذين ساهموا فى هـذه الحـركة : فكل من عارض التيار الكلاسيكى الممتـد من كونت الى بارسونز والمرتبط بمشكلة النظام ، كل من هـذا التيار ينتمى بشكل او بآخر الى حركة التجـديد والنقد فى علم الاجتماع(١) وبناء على ذلك لا بد أن تتعارض الآراء وتتعـدد داخل هـذه الحركة ، رغم اجماعها على هـدف واحـد ·

---

(١) وهنا تظهر الصلة الوثيقة بين دراسة مشكلة النظام وبين دراسة الاتجاهات النقدية · فالاتجاهات النقدية ما هى الا نقد للحلول التى قدمت لهذه المشكلة · وقد يتضمن النقد فى الكثير من الأحيان رفضا لهـذه المشكلة كمشكلة اساسية تتبلور حولها نظريات علم الاجتماع ومفاهيمه ·

ولكن مهما تعددت الآراء والاتجاهات فاننا يمكن ان نضمها تحت اتجاهين رئيسيين : الاتجاه الأول لتجه الى العلم ذاته ، فبدأ يفند نظرياته ومفاهيمه ومناهجه ، وبحوثه • ويحلل تطور العلم فى لرتباطه بالأبنية التاريخية والاجتماعية ، ويشخص ازمة العلم ، ويقترح الأساليب المكنة لتصحيح مسار للعلم الاجتماعى ليتخطى ازمته الراهنة • ويمكن أن نسم هذا الاتجاه بانه نقد سوسيولوجى او نقد من الداخل • أما الاتجاه الثانى فانه لم يكتف بالنقد السوسيولوجى ، بل كرس جهوده لربط هذا النقد السوسيولوجى بنقد المجتمع • وهو فى ذلك يقتفى اثر رايت ميلز ، ويمكن أن نسم هذا الاتجاه بانه نقد اجتماعى او لمتداد لرايت ميلز فى التراث المعاصر • ويمثل الاتجاه الأول الفن جولدنر A. Gouldner أما الاتجاه الثانى فتمثله الآراء المحدثة لكل من توماس بوتومور وجون ركس وبعض الاتجاهات النقدية فى فرنسا والمانيا • وسوف يكرس هذا الفصل لمعالجة الاتجاه الأول ، على يكرس الفصل القادم لمعالجة الاتجاه الثانى •

وفى معالجتنا لآراء الفن جولدنر ـ الذى يمثل تيار النقد السوسيولوجى فى حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع ـ سوف نهتم اساسا بالآراء النقدية التى جاءت فى كتابه « الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى »(٢) وما تلاه من بحوث ودراسات ، غير اننا لا نستطيع أن نعالج هذه الآراء بمعزل عن آراء جولدنر السابقة حيث ساهمت تلك الأخيرة فى تشكيل الكثير من آراء جولدنر النقدية • ومن ثم سوف نتناول آراء جولدنر من خلال العناصر التالية :

اولا : الارهاصات للنقدية فى أعمال جولدنر المبكرة •

ثانيا : ازمة علم الاجتماع : الموقف والحل •

ثالثا : جولدنر فى مواجهة نقاده •

---

(٢) Alvin Gouldner, **The Coming Crisis of Western Sociology**. Heimann, London, 1970.
وسوف نستخدم كلمة « الأزمة القادمة » للاشارة الى هذا الكتاب على طول هذا الفصل •

اولا ـ الارهاصات النقدية فى اعمال جولدنر المبكرة :

لم يحظ اى كتاب ـ منذ بداية السبعينيات وحتى الآن ـ بنفس الشهرة التى حظى بها كتاب الفن جولدنر « الأزمة القادمة » . فقد اثار هذا الكتاب الكثير من الموضوعات والقضايا التى قلبت علم الاجتماع الغربى راسا على عقب ، وفتحت الطريق أمام ضروب عديدة من الجدل والنقد واعادة الصياغة فى الكثير من المسامات التى فرضت نفسها لفترات طويلة . ولقد اثار هذا الكتاب الكثير من الاستجابات التى تراوحت بين القبول والرفض ، والاستحسان والاستهجان . ذلك لانه يمثل نقطة تحول هامة فى علم الاجتماع : فقد اثار من جديد الكثير من القضايا والمسائل التى تركت دون اثارة منذ رايت ميلز ، وجاء معبرا عن احساسات ومشاعر جيل جديد من النقاد افرزته احداث مايو ١٩٦٨ ، بالرغم من ان جولدنر نفسه لا ينتمى لهذا الجيل ، بحيث يمكن القول مع جن رودز John Roadz بأن كتاب « جولدنر » سوف يؤثر تاثيرا كبيرا على تطور النظرية السوسيولوجية فى المستقبل(٣) .

غير اننا لا نستطيع أن نستفيض فيما جاء فى كتاب « الأزمة القادمة » بمعزل عن دراسات جولدنر السابقة على هذا الكتاب . فهذه الدراسات تكشف عن جوانب تقدمية تعد بمثابة للقنوات الأولى التى افضت به الى راديكالية « الأزمة القادمة » وربما كانت احداث التمرد والعنف بكل ما اتت به من تحديات بنائية وفكرية عجزت أمامها كلاسيكيات علم الاجتماع الغربى ، هى التى فجرت داخله كل الطاقة الراديكالية التى ظهرت فى كتاب « الأزمة القادمة » .

تكشف الأعمال المبكرة لالفن جولدنر أنه ينتمى الى الاتجاه البنائى الوظيفى . فقد اهتم فى هذه الدراسات بدراسة انماط البيروقراطية حيث فرق بين نمطين رئيسيين للبيروقراطية : الأول يتصف بالطابع الجزائى أو العقابى ، ويعتمد على مجموعة من القواعد التى تدعم ذاتها وتمنح نفسها طابعا شرعيا . والثانى يتصف بالطابع التمثيلى ويعتمد على مجموعة من

---

(٣) John Rhoads, "On Gouldner Coming Crisis of Western Sociology," A.J.S., 78, No. 1, 1972, p. 136.

القواعد يتم الاتفاق عليها بطريقة ديمقراطية وتستند الى تاييد جماعى من جانب الادارة والعمال • وكلا النوعين يساهم فى النهاية فى تحقيق درجة عالية من الضبط والتكامل داخل التنظيم(٤) • وتكشف وجهة النظر هذه عن انتماء واضح للنظرية البنائية الوظيفية • غير ان جولدنر ما لبث ان بدل هذه الآراء وبدا يوجه النقد للاتجاه الوظيفى الذى انتمى اليه فى بداية حياته • فقبل ان ينتهى العقد السادس الذى ظهرت فيه هذه الأعمال المبكرة ، كتب جولدنر يهدم الكثير من آرائه الوظيفية • ظهر هذا النقد فى مقالين نشرهما عام ١٩٥٩ احدهما بعنوان « التحليل التنظيمى »(٥) ميز فيه بين نمطين من التحليل : الأول هو نمط الرشد (وتعبر عنه نظرية فيبر الكلاسيكية) ، والثانى هو نمط النسق الطبيعى (وهو يسعى الى التعرف على كيفية تدعيم التنظيمات لنفسها وضمان بقائها • وذهب جولدنر الى أن نموذج النسق قاصر الى حد كبير ، لأنه يقلل من أهمية السلوك الرشيد فى التنظيمات ، كما انه لا يسمح بدراسة طريقة تاثير الأفراد فى التنظيم ، هذا فضلا عن تاكيده على التكامل دون تفسير الفروق بين التنظيمات فيما يتعلق بهذا التكامل ، ودون الاهتمام بالاختلاف الذى قد ينشأ حول اهداف التنظيم ، او تعارض مع الأهداف المجتمعية • والمحقق ان هذا الراى يكشف عن تخلى جولدنر عن فكرة الضبط والتكامل التى اهتم بها فى دراساته المبكرة •

وتدعمت هذه الآراء التقدمية من خلال مقال آخر نشر فى نفس

---

(٤) انظر :

A. Gouldner, **Patterns of Industrial Bureacracy,** Glencoe, IIll, 1954.

A. Gouldner, Wildcat Striks, Yellow Springs, Ohio, 1954.

A. Gouldner, "Metaphysical Paths and the theory of Bureacracy," **A.S.R.**, Vol. 49, 1955, pp. 496—507.

وانظر عرضا نقديا لهذه الأعمال فى المصدر التالى :

السيد محمد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ص ٩٧ ـ ١٠٢ •

(٥) A. Gouldner "Organizational Analysis," in : R. Merton (ed.), **Sociology Today**, Basic Books, New York, 1959.

العام(٦) ، انتقد فيه جولدنر الوظيفية لاغراقها الشديد فى الاهتمام بعلاقات الاعتماد المتبادل بين الأجزاء ذلك الاعتماد الذى يكسب النسق توازنا ومحافظة على ذاته ويجعله يتغير فى اضيق الحدود ، بالرغم من ان مفهوم التوازن نفسه يختلف عن مفهوم الاعتماد المتبادل · وناقش جولدنر التناقض الذى يمكن أن يحدث بين الاستقلال الوظيفى Functional autonomy والاعتماد المتبادل بين الأجزاء Interdependence فاذا كان النسق يكشف عن علاقات متبادلة بين أجزائه ، فانه قد يكشف فى ذات الوقت عن استقلال نسبى بين أجزائه ، حيث نجد أن كل جزء قد يرتبط بجزء آخر من اجزاء النسق ، وليس بأجزاء النسق كلها · وهكذا يمكن رؤية الاعتماد المتبادل لا من خلال العلاقة بين الأجزاء ، ولكن من خلال درجة استقلال الأجزاء عن النسق · وبناء على ذلك يمكن القول بانه كلما زاد الاعتماد المتبادل بين الأجزاء ، قل الاستقلال الوظيفى · والعكس اذا انخفضت درجة هذا الاعتماد · واعتقد جولدنر ان التركيز على الاستقلال الوظيفى داخل النسق ـ والذى اهمله الوظيفيون ـ يتيح أمامنا فرصة تحليل التوترات داخل الانساق ، وكذلك تحليل التغير الاجتماعى · فالأجزاء التى تحقق درجة من هذا الاستقلال سوف تقاوم التكامل الكلى داخل النسق الأكبر ، كما أن النسق ذاته قد يخبر انقساما بين أجزائه فى ضوء متطلبات المكانة التى تحتلها اجزاؤه · وهكذا ينشأ توتر بين الجزء الذى يرغب فى تحقيق الاستقلال ، وبين النسق الذى يرغب فى ممارسة الضبط والرقابة على هذا الجزء · هذا فضلا عن ان لجزاء النسق التى تحقق قدرا من الاستقلال الوظيفى تمتلك امكانيات توليد انماط من التغير استجابة للتوترات والصراعات التى يخبرها النسق · وبالرغم من ان مفهوم الاستقلال الوظيفى الذى طرحه جولدنر فى هذا المقال يعد مفهوما وظيفيا ، الا انه استطاع أن يستخدمه فى نقد الوظيفية وفضلا عن انه نجح فى أن يقنعنا بان للمفهوم قدرة تحليلية تنقلنا عبر مستويات مختلفة ، وتتفادى بعض اوجه القصور التى وقع فيها التحليل الوظيفى الشمولى (الكلى) ·

---

(٦) A. Gouldner, "Reciprocity and Autonomy in Functional Theory" in :ffL. Gross (ed.), Symposium on Sociological theory, Row, Peteron, and Co., New York, 1959, pp. 241—270.

والحقيقة اننى اعتبر مقال جولدنر السابق نقطة تحول هامة فى تفكيره فالنقد الذى جاء فى هـذا المقال اكثر جدة ودقة من نظيره الذى جاء فى مقال « التحليل التنظيمى » ، ويدعونا هـذا الى القول بأن جولدنر قد اندفع فى عام ١٩٥٩ اندفاعا شديدا نحو التحول عن مسار التيار الوظيفى ، وكان ذلك اساسا للاندفاعة الراديكالية عام ١٩٧٠ . ولكن ما هو الاتجاه الفكرى الذى تبناه جولدنر فى حقبة الستينات الفاصلة بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية من تفكيره ؟ يمكن القول بأن اعمـال جولدنر فى السـتينات قـد تميزت بخاصيتين على جانب كبير من الأهمية :

الأولى : انها كانت اعمالا نظرية خالصة ، ونقدية خالصة . واتجهت أساسا نحو اثارة بعض القضايا النقدية وطرح بعض الأفكار ولكنها لم تصل ابدا الى حد النظرية النقدية المكتملة .

الثانية : أن القضايا والأفكار التى ناقشها جولدنر فى هـذه الفترة ترتبط ارتباطا كبيرا بالقضايا التى ظهرت فى كتابه « الأزمة القادمة » الأمر الذى يؤكد ما نذهب اليه هنا من أن هذه الارهاصات النقدية كانت الأساس الذى كون عليه جولدنر نظريته النقدية فيما بعد .

القى جولدنر فى اغسطس ١٩٦١ كلمة افتتاحية فى الاجتماع السنوى « لجمعية دراسة المشكلات الاجتماعية » ، وقدم فى كلمته مقاله الشهير عن « خرافة التحرر من القيم فى علم الاجتمـاع »(٧) . تعرض فيه بالنقد لمبدأ التحرر من القيم value-free الذى صاغه ماكس فيبر . والمقال لا يعتبر هجوما على ماكس فيبر ـ الذى يعد جولدنر احد الثقاة فى دراسته ـ وانمـا يهاجم الفهم المعاصر لدعوى الموضوعية والتحرر من القيم فى دراسة المجتمع . فالقارىء لهذا المقال يستطيع ان يلمس بوضوح اصرار جولدنر على التفرقة بين فهم ماكس فيبر للموضوعية والتحرر من القيم والدور الذى ساهم به هذا المبدأ فى خدمة العلم ثم الفهم المعاصر له .

---

(٧) A. Gouldner, Anti-Minotaur : The Myth of Value-Free Sociology, First Published in Social Problems 1952. Reprinted in : Jack-Douglas (ed.), The Relevance of Sociology, Meredith Corporation, New York 1970, pp. 64—84.

(أ) فقد صاغ فيبر هذا المبدأ ليضمن استقلال وحرية العمل فى كل من الدولة التى تعد أداة ألمانيا لتحقيق السيادة القومية ، وبين الجامعة ـ التى تجسد التراث الغربى لنزعة الترشيد • فقد كان فيبر يتخوف من أن يؤدى التعبير عن الأحكام القيمية والسياسية من خلال الجامعة الى أن تنصب الدولة من نفسها مراقبا على الجامعة ومن ثم تفقد تلك الأخيرة استقلالها » •• لقد كان فيبر يحاول أن يضبط التوترات بين تراثين حيويين فى الحضارة الغربية : بين العقل والثقة Faith ، بين المعرفة والعواطف ، بين الكلاسيكية والرومانسية ، بين الراس والقلب • ومثله مثل غروبد لم يعتقد ابدا فى وجود سلام أو حل نهائى لهذا الصراع • وكل ما فعله هو انه حاول أن يخلق هدنة بينهما من خلال فصلهما ، بأن يخصص لكل منهما مجال مختلف من مجالات الحياة »(٨) •

(ب) وقد قام مبدأ التحرر من القيم بدور كبير وهام فى علم الاجتماع حيث ساهم فى استقلال العلم من قبضة المجتمع ، فتحرر فى أوروبا من تاثير الأحزاب السياسية ، وفى أمريكا من تاثير الحكومة • بذلك يكون هذا المبدأ قد ساهم فى التطور الفكرى لعلم الاجتماع وتحريره « لقد ساهم مبدأ التحرر من القيم فى تقوية دور العقل فى مواجهة المتطلبات الجدية للاخلاق التقليدية •• وفى مساعدة الأفراد على التفرقة بين دوافعهم العقابية punitive وبين مشاعرهم الأخلاقية •• ان مذهب التحرر من القيم يمكن ان يكون فرصة لتكوين لخلاق علمية اكثر اصالة »(٩) •

(جـ) ولكن رغم هذا الدور الذى لعبه مبدأ التحرر من القيم الا ان

---

(٨) Ibid., p. 84.
ومن الجدير بالذكر ان هذا الفصل بين العقل والعاطفة يتفق مع الاطار العام لنظرية فيبر عن تحليل الحضارة الغربية فى القرن التاسع عشر • فقد كان يرى ـ على ما رأينا ـ ان هذه الحضارة تجد صراعا بين القديم والجديد بين الراديكالية والمحافظة بين الرومانسية والعقلانية • وقد انعكس ذلك فى تحليلاته حيث صاغ انماطا مثالية تعكس وجود هذه التيارات المتصارعة • فقد كان فيبر يود أن يحافظ على انجازات الحضارة الغربية وفى نفس الوقت يحاول الحفاظ على التراث الرومانسى الذى يذكى الروح القومية الألمانية •

(٩) Ibid., pp. 71—72.

للفهم المعاصر من جانب علماء الاجتماع الغربيين لهذا المبدأ يحتم علينا ان نرفضه وأن نعتبره ضربا من ضروب الخرافة لا يمكن ان يتحقق . لقد اتخذ هؤلاء العلماء من هذا المبدأ ذريعة للتخلى عن مسئولياتهم العامة . فهم اما ان يهربوا من هذا العالم ، أو يهربوا اليه . فبعضهم يعيش فى بروج عاجية ويغتربون بذواتهم عن مشكلات العالم المحيط بهم . والبعض الآخر يحاول ابتكار اساليب فنية محايدة يمكن أن تباع لمن يريد الشراء . لانهم يستخدمون مواهبهم فى دراسة العالم ـ ومن خلال البحوث الامبيريقية ـ دراسة محايدة من أجل بيع هذه البحوث لمن يريد استخدامها فى السيطرة على الأفراد أو قيادتهم . « وكلا الطرفين (الذين يهربون من العالم والذين يهربون اليه) يشتركان فى خاصية واحدة مؤداها أنهم يفتقدون الموقف النقدى الواضح تجاه المجتمع . فهم علماء غير ملتزمين يهملون مشكلات مجتمعهم الخاصة على حساب دعوى التحرر من القيم ، كما أنهم يسخرون عملهم لخدمة فئة معينة ، وهم بذلك يناقضون مبدأ التحرر من القيم ويحولونه الى مجرد خرافة »(١٠) .

ويكشف موقف جولدنر هنا عن رؤية نقدية لأسلوب علماء الاجتماع فى التفكير أو تنفيذ البحوث . فهم اما منظروا خياليون مغتربون عن المجتمع ، ولما منفذو بحوث لحساب الآخرين نظير مقابل مادى . وهم بذلك لا يلتزمون باى قيمة علمية ، حتى بالقيمة التى يتذرعون بها ، واعنى التحرر من القيم . كلها والتى تذهب الى القول « اما النشر او الموت » Publish or Preshe ويكشف اتجاه جولدنر هنا عن تأثير واضح برايت ميلز ـ رغم انه لا يعترف بذلك . واكثر من ذلك فان جولدنر يعتبر ميلز عالما مغتربا مثله مثل غيره من العلماء الأمريكيين حيث ذهب الى القول بانه « .. بالرغم من أن رايت ميلز قد يكون صادقا عندما قال ان هذا العصر هو عصر علم الاجتماع ، فان الكثير من العلماء ـ بما فيهم ميلز نفسه ـ يشعرون بالغربة والعزلة عن مجتمعهم »(١١) . ويضيف « أنا لا اقصد بذلك ان الاتجاه النقدى قد مات فى علم الاجتماع ، ولكنى اقصد انه وصل الى درجة سيئة . فاى شخص يتتبع أعمال سيمور مارتن ليبست ، ودينس رونج ، وليو لونثال ولويس كوزر ،

---

(١٠) Ibid., pp. 72—74.

(١١) Ibid., p. 75.

وموريس شتين ، وتشارلز رايت ميلز ·· سوف يعرف جيدا ما أقصده · فهؤلاء الأفراد ما يزالون يعتبرون انفسهم علماء اجتماع وليسوا مثقفين · ان أعمالهم ترتبط ارتباطا وثيقا بالتراث الأكبر الذى تطور منه علم الاجتماع ذاته ، ورفضوا المهمة المنوطة بالمثقف ، واعنى حقه فى أن يصبح ناقدا للتراث(١٢) · واذا كان النصان السابقان يكشفان عن انكار لدور رايت ميلز النقدى للتراث السوسيولوجى وللمجتمع الأمريكى ، فان الآراء التى طرحها جولدنر هنا ـ والتى سوف يطرحها فيما بعد ـ لا تعدو ان تكون تكرارا لما عبر عنه رايت ميلز عن نقده للنظريات الكبرى والنزعة الامبيريقية وما جاء فى نظرية الخيال السوسيولوجى ·

فى منتصف الستينات نشر جولدنر كتاب(١٣) Enter Plato · ورغم ان الكتاب دراسة للفكر الاغريقى الكلاسيكى ، الا انه يعد اول دراسة مطولة لجولدنر عن نقد النظرية الاجتماعية · كيف يكون ذلك والكتاب يعالج نظرية افلاطون ؟ هنا تكمن الجدة فى أسلوب جولدنر النقدى ، انه يعتقد أن النظرية السوسيولوجية المعاصرة تتخذ شكل معينا هو الشكل النسقى الكلى ، ومرجع ذلك الى ان البناء التحتى(١٤) · لهذه النظرية يتكون من مجموعة من الافتراضات والتفضيلات تتجه ناحية هذه الرؤية النسقية ، وتتحيز فى جانب الاتجاه المحافظ الذى يرغب فى الحفاظ على الوضع الراهن وبث روح الدعة والتفاؤل فى نفوس المواطنين·وهذا البناء التحتى ليس حديثا من نتائج الحضارة المغربية المعاصرة ، ولكنه بناء قديم يضرب بجذوره فى التفكير الاغريقى الكلاسيكى النابع من افلاطون(١٥) · ومن ثم فان كتاب

---

(١٢) Ibid., p. 75.

(١٣) A. Gouldner, Enter Plato : Classical Greece and the Origins of Social Theory, Routledge and Kegan Paul, London, 1967. First Published in 1965.

(١٤) البناء التحتى للنظرية هو مجموعة الاحساسات والمشاعر والاهتمامات والتفضيلات التى تتحكم فى فكر المنظر وتجعله يصبغ على نظريته طابعا معينا · ولقد افاض جولدنر فى شرح المفهوم فى كتابه « الأزمة القادمة » على ما سنرى فيما بعد ·

(١٥) الأساس النقدى الذى قدمه جولدنر هنا يشبه الى حد كبير =

Enter Plato ليس بحثا فى التفكير القديم بقدر ما هو بحث فى الجذور البنائية والفكرية ذات الطابع المحافظ التى قامت عليها النظرية الوظيفية المعاصرة • انه بتعبير أدق بحث فى البناء التحتى المحافظ للنظرية الوظيفية ، ليس موجها لفهم التفكير القديم ، وانما موجه لمحاولة فهم النظريات المعاصرة فهما حقيقيا ، ونقدها نقدا بنائيا • ولقد أوضح جولدنر ذلك صراحة عندما كتب فى مقدمة كتابه Enter Plato يقول : « لم أنجز هذه الدراسة من دافع الاهتمام بالتراث القديم ، ولكن لتساعدنا على أن نشخص للحالة الحاضرة للنظرية الاجتماعية » • ويكشف ذلك النص عن حقيقة هامة مؤداها أن جولدنر قد وصل فى منتصف الستينات ـ وقبل خمس سنوات من نشر كتابه « الأزمة القادمة » الى أن حالة النظرية الاجتماعية المعاصرة تستأهل مزيدا من الدراسة والفهم • لقد كاد أن يقول انه أوشك فى الوقوع فى أزمة • ليس أدل على هذا من أن العمل الرئيسى لجولدنر بعد هذا الكتاب جاء ليشخص هذه الأزمة ويرسم الطريق الى التخلص منها • فلم يظهر لجولدنر أى عمل نظرى فى النصف الثانى من الستينات الا مقال عن علاقة علم الاجتماع بالدولة جاء ردا على مقال لهوارد بيكر يعالج قضية الالتزام فى علم الاجتماع • والحوار بين بيكر وجولدنر لا يخلو من طرافة ويكمل آراء جولدنر فيما يتعلق بالتحرر من القيم والالتزام ويدعونا ذلك الى استعراض هذا الحوار • اثار مقال جولدنر عن « خرافة التحرر من القيم » سؤالا على جانب كبير من الأهمية لم يجب عليه جولدنر صراحة : اذا كان علماء الاجتماع حولوا مبدأ التحرر من القيم الى خرافة ، واذا كان جولدنر يدعو الى الالتزام بدراسة مشكلات الانسان والمجتمع ، فما هى القيم التى يجب أن يلتزم بها عالم الاجتماع ؟ لم يجب جولدنر ـ فى هذه المرحلة من تفكيره ـ على هذا السؤال • وربما يكون هوارد بيكر قد أحس ضرورة الاجابة على هذا السؤال عندما ألقى مقاله الشهير فى افتتاح الاجتماع السنوى « لجمعية دراسة

=

الأساس النقدى الذى توخاه دارندورف فى مقاله الشهير « الطريق الى خارج اليوتوبيا Out of Uetopia حيث عقد مقارنات طريفة فى اليوتوبيات منذ أفلاطون وبين النظرية السوسيولوجية المعاصرة على ما رأينا فى الفصل الخامس من هذه الدراسة •

المشكلات الاجتماعية ، عام ١٩٦٦(١٦) · فى عبارة رائعة وضع بيكر Becker المشكلة التى يطرحها للبحث على النحو التالى : « دائما ما يلاحقنا السؤال الذى يتعلق بامكانية التحرر من القيم أو التأثر بها · فعندما يأخذ علماء الاجتماع على عاتقهم دراسة المشكلات التى تهم العالم الذى نعيش فيه، فانهم يجدون انفسهم بين كفى رحى · فالبعض يلحون عليهم ألا يتحيزوا ، وأن يكونوا محايدين ، وأن ينفذوا بحوثا مكتملة من الناحية الفنية ومتحررة من القيم · والبعض الآخر يؤكدون لهم أن بحوثهم سوف تكون ضحلة وغير مفيدة اذا لم تعبر عن التزام عميق بموقف قيمى · وهذا المعضلة التى تؤرق الكثيرون ، لا توجد بالفعل ، لأن أحد جوانبها غير قائم أساسا (يعنى التحرر الكامل من القيم) · ولو كان هذا الجانب موجودا ، فان المرء يستطيع ان يفترض امكانية القيام ببحوث غير محتوية على مظاهر التعاطف السياسى والشخصى · غير أننى اعتقد أن ذلك أمر مستحيل · ومن ثم فان السؤال الذى يجب أن نطرحه يجب الا يدور حول مسألة التحيز ، ما دمنا سنفعل ذلك حتما ، ولكن يجب أن نصوغه على النحو التالى : فى صف من نتحيز ؟»(١٧)·

وفى عرض ممتع قدم بيكر اجابته على هذا السؤال · فهو يطالب عالم الاجتماع أن ينظر الى كل موضوع يتناوله بالدراسة من وجهة نظر معينة · فالعالم الذى نفترض انه يفهم المجتمع يجب أن يندمج فى الموقف الذى يدرسه بدرجة تجعله يتخذ وجهة نظر معينة · واذا كان المجتمع ينقسم الى طبقة عليا من السادة Superiors وطبقة دنيا من المطحونين Subordinate or Underdogs فان عالم الاجتماع يجب ان يتشبع لأى منهما فى دراسته · ويدعو بيكر لأن يقف عالم الاجتماع فى صف الطبقة المطحونة وأن يوجه دراسته لفهم مشكلاتها وعلاقتها بالطبقة الأخرى · « يجب أن نتحيز كما تملى علينا التزاماتنا السياسية والشخصية ، وان نستخدم معلوماتنا النظرية والفنية لتجنب التحريفات التى قد تشوب

---

(١٦) H. Becker, "Whose side are we on" 1966. First Published in Social Problems 1967, Reprinted in : T. Douglas (ed.) The Relevance of Sociology, op. cit., pp. 99—111.

(١٧) Ibid., p. 99.

أعمالنا ، وأن نحدد نتائجنا بدقة وأن نأخذ فى اعتبارنا تدرج الهيبة ، وأن نواجه قدر استطاعتنا الشكوك والاتهامات التى سوف تواجهنا »(١٨) ٠

ولقد سبب هذا المقال ازعاجا كبيرا لألفن جولدنر جعله يرد عليه بمقال مطول عن علم الاجتماع والدولة نشره عام ١٩٦٨(١٩) ٠ اتهم جولدنر بيكر بانه أساء فهم مقاله عن « خرافة التحرر من القيم » وتخوف من أن تستبدل خرافة التحرر من القيم بخرافة أخرى هى خرافة التشبع ٠ والانحياز فى صف فئة من الفئات التى تشملها الدراسة بالطريقة التى عرضها بيكر تجعله يسير فى نفس الاتجاه الذى تسير عليه دولة الرفاهية بأسلوبها الجديد ٠ لا يعنى ذلك أن جولدنر يرفض مسألة « التشيع » رفضا ٠ ولكنه يعنى أنه يرفضها بأسلوب بيكر وزملائه ٠ فالتعاطف الملتزم من المطحونين يمكننا من أن نمارس عملا أفضل كعلماء اجتماع ، لأنه يمكننا من أن نوضح للرأى العام جوانب من الواقع يلتبس عليه فهمها ٠ وأهم جانب يجب توضيحه بهذه الطريقة هو جانب « المعاناة » الذى تخبره هذه الفئات المطحونة ٠ ومن ثم فمشكلة هؤلاء ليست مشكلة تدرج فى الامتياز Hierarchy of Cridibility يخول للبعض الحق فى أن يحددوا ما هو حقيقى وما هو غير حقيقى فى العالم المحيط بهم على ما ذهب بيكر ، ولكن المشكلة تكمن فى أن الذين يتربعون على قمة هذا التدرج لا يدركون مدى ما يعانيه الراقدون أسفله ـ وهذه مسألة لم يهتم بها بيكر ، وتركز كل اهتمامه على أن يكشف عن العالم والعلاقات السائدة فيه من خلال وجهة نظر المطحونين دون أى اهتمام بمعاناتهم أو أساليب التغلب على هذه المعاناة(٢٠) ٠

---

(١٨) Ibid., p. 111.

ومن الجدير بالذكر أن هوارد بيكر يتزعم جماعة من علماء الاجتماع تشبه الى حد كبير مدرسة شيكاغو ، تهتم بدراسة المشكلات الاجتماعية خاصة مشكلات المنحرفين ، ومنبوذى المجتمع ، وتنظر الى تلك الفئات على أنها نتاج المجتمع وما به من علاقات ٠ ويعد كتاب بيكر عن « المشكلات الاجتماعية » وكتابه عن « منبوذى المجتمع » Outsiders علامتان بارزتان فى علم الاجتماع الأمريكى فيما يتعلق بتحليل المشكلات الاجتماعية ٠

(١٩) A. Gouldner, "The Sociologist as a Partism, Sociology and the Wefare State," A.S. 1968. Reprinted in : J. Douglas (ed.) Relevance of Sociology, op. cit., pp. 119—149.

(٢٠) Ibid., p. 121.

فتشييع بيكر وزملائه هو تشييع غير ملتزم ، كما انه لا يهدف الى تغيير الوضع القائم ، قدر هدفه الى فهم هذا الوضع من قاعدته الأساسية • لقد كان على بيكر أن يوضح الأسس التى يقوم عليها التزامه ، والمبادىء التى يسير عليها ، والقيم التى تكمن وراء هذا الالتزام • انه التزام غير قائم على ايديولوجية واضحة حقيقة ، •• انه يكشف عن قدر من الدوافع الأخلاقية ، الا أنه يتركنا عميانا »(٢١) • ويريد جولدنر هنا ان يؤكد ان مسألة الالتزام بالمفهوم الذى قدمه بيكر لا تكشف عن جوانب تقدمية فى تفكيره ، وانما على العكس من ذلك تماما تمثل وجهة نظر ليبرالية محافظة تخدم القائمين على شئون دولة الرفاهية • فقد كانت برامج دولة الرفاهية تقوم على اساس توفر الموارد الاقتصادية ، أو مبادرات جماعات الصفوة فى المجتمع المحلى • اما الآن ـ وبعد أن أعلنت سياسة الحرب ضد الفقر ـ فان برامج دولة الرفاهية يتم تنفيذها على مستوى السياسات والمؤسسات القومية • ومن صالح هذه المؤسسات ـ التى يشرف عليها افراد من الطبقة العليا ـ ان تحتشد كما هائلا من البيانات عن الطبقة الدنيا ، وان تتعرف على وجهة نظر هذه الطبقة ورؤيتها لبناء المجتمع • فاذا كانت رؤية بيكر تقرب الباحث وتجعله صديقا للمطحونين الا انها تجعله ، •• يكون صداقات مع المتربعين على القمة والمتحكمين فى الهيئات والمؤسسات فى واشنطن أو نيويورك •• وتخلق علما اجتماعيا يتفق وطابع الاصلاح الاجتماعى فى الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر »(٢٢) •

ويود جولدنر أن يرتفع بالالتزام من مجرد التعاطف مع الطبقة المطحونة كما ذهب بيكر ، الى محاولة فهم معاناة هذه الطبقة من اجل تغيير وضعها فى البناء القائم • ويتضح لنا موقف جولدنر بجلاء من خلال معالجته لقضية الموضوعية فى علم الاجتماع • فالمحقق ان مسألة الالتزام والتشييع تثير مشكلة الموضوعية • ولم يستطع بيكر ـ حسبما يذهب جولدنر ـ ان يواجه هذه المشكلة ـ فقد اعتبر بيكر أن لجراء الدراسة من وجهة نظر جماعة معينة لا يقلل من موضوعيتها ، لأن الباحث سوف يحكم عقله دون عاطفته فى اثناء اجراء هذه الدراسة • فالتأثر بالعواطف Sentimentality هو الذى يفقد

---

(٢١) Ibid., p. 129.
(٢٢) Ibid., p. 132.

للبحث موضوعيته · وبذلك يكون بيكر ـ فى فهمه لاسطورة التحرر من القيم ـ قد خلق أسطورة جديدة هى التحرر من العاطفة Sentiment-frasy وهو أمر لا يمكن تحقيقه بأى حال من الأحوال · اذ كيف لا يتأثر الباحث بالعواطف وهو يتوحد مع وجهة نظر جماعة معينة · ان هذا التوحد يجعل من الباحث ووحدة دراسته كيانا واحدا يعبر عن وجهة نظر واحدة · وذلك أخطر شىء يهدد الموضوعية ·

فما هو الحل الذى قدمه جولدنر لمشكلة الموضوعية بالنسبة للباحث الملتزم ؟ بعد أن فرغ جولدنر من نقد بيكر مباشرة كتب يقول « ·· ان تبنى وجهة نظر الشخص المحايد Outsider بحيث لا يقودنا ذلك الى اهمال وجهة نظر المشاركين ـ هو الطريق الوحيد الذى من خلاله نستطيع أن نتعرف على وجهة نظر هؤلاء المشاركين والتوحد معها · فلا يصبح من الممكن تقديم صورة منصفة عن وجهة نظر هؤلاء المشاركين ، الا عندما نتبنى رؤية تخالف رؤيتهم »(٢٣) · ويكشف هذا النص عن محاولة من جانب جولدنر للتوفيق بين الرؤية الراديكالية للعلم وبين الموضوعية · وهو يلزم للباحث أن يكون محايدا ، على ألا يؤثر هذا الحياد فى التزامه بالكشف عن المعاناة التى تعيشها الطبقات المطحونة · ويستطيع الباحث أن يحقق هذا الحياد من خلال وسائل ثلاثة تعد بمثابة أنواع مختلفة من الموضوعية(٢٤) :

(أ) الموضوعية المعيارية normative objectification · وتفرض على الباحث أن يقوم بدور القاضى بين أطراف الدراسة ، فحكمه لا بد أن يكون عادلا · والعدل هنا لا يعنى توزيع الفوائد بين الأطراف بالعدل ولكنه يعنى الالتزام بمستوى محدد · بمعنى أن يبرر الباحث حكمه من خلال قيمة أخلاقية معينة · انه هنا لا يهتم بالانحياز ، طالما يواجه الآخرين صراحة بالقيم التى يقيم عليها حكمه ·

(ب) الأصالة أو الصدق مع الذات Personal Authenticity وتعنى أن يكون الباحث على درجة من الوعى بحيث يدرك العلاقة بين معتقداته عن العالم الاجتماعى الحقيقى من ناحية ، ورغباته وآماله وقيمه

---

(٢٣) Ibid., p. 138.
(٢٤) Ibid., pp. 138—142.

الشخصية المتصلة بهذا العالم من ناحية اخرى . فالباحث هنا رجل اصيل فى افكاره ، صادق مع نفسه ، او رجل سند يعرف ما له وما عليه : يلتزم بقيم معينة ، ولكنه لا ينكر وجود القيم المضادة او المعادية ، وغالبا ما تكون افكاره تعبيرا صادقا عما يدور فى العالم ، وتصويرا حقيقيا واصيلا له .

(ج) امكانية اعادة البحوث على افراد آخرين ؛ بمعنى ان الباحث يجب أن يصف اجراءاته بدرجة من الوضوح تمكن الآخرين من استخدامها على نفس المشكلة بحيث يأتى البحث بنفس النتائج . وهذا النوع من الموضوعية يعتمد على الكفاءة الفنية للباحث وقدرته على تقنين اجراءاته المنهجية وشرحها بالتفصيل .

كان هذا عرضا لفكر جولدنر قبل ان يؤلف كتابه « الأزمة القادمة » عام ١٩٧٠ . ونلاحظ فى هذا الفكر ارهاصات نقدية هى التى قام عليها تشخيصه لازمة علم الاجتماع فى بداية السبعينات فقد بدا فكر جولدنر بتاييد لوجهة النظر الوظيفة ، ثم ثورة عليها ونقدها ، ثم ثورة على طريقة العلماء فى اجراء البحوث ، وفهمهم الخاطىء لدعوى التحرر من القيم ، ثم مناقشة لموضوع الالتزام ومحاولة التوفيق بين الالتزام والموضوعية . يستلفت نظرنا هنا بعض الاعتبارات :

١ ـ أن فكر جولدنر قبل بداية السبعينات قد تركز على اثارة المشكلات والقضايا دون رؤية نقدية راديكالية متكاملة .

٢ ـ انه لم يحدد موقفه صراحة من الكثير من المشكوت التى طرحها . حقيقة اننا نلاحظ ان آراءه تقدمية متأثرة برايت ميلز ـ رغم عدم تصريحه بذلك ـ الا انه كان ما يزال يضع اللبنات الأولى فى اطاره النقدى .

٣ ـ تجاهله لرايت ميلز ـ رغم التاثر الواضح به ـ ربما يكون ذلك من المؤشرات التى تجعلنا نضع تحفظا كبيرا قبل أن نسم جولدنر فى نهاية الخمسينات والستينات بانه راديكالى . ويمكن ان نرجع هذا التجاهل لآراء ميلز الى ان آراء ميلز نفسها لم يكتب لها الذيوع والانتشار ، او لم تتضح اهميتها الا فى اواخر الستينات فى نفس الوقت الذى كان جولدنر يكمل فيه اعماله .

ورغم ذلك فقد تحولت هذه الارصادات النقدية الى نظرية نقدية مكتملة قدمها جولدنر فى كتابه « الأزمة القادمة » سوف نعرضها فى الفقرة القادمة ٠

ثانيا ـ ازمة علم الاجتماع « الموقف والحل » :

فى تصديره لكتاب « الأزمة القادمة » اعترف جولدنر أن هذا الكتاب هو استمرار لأعماله السابقة ، خاصة كتابه Enter Plato وانه سوف يستفيد من كل هذه الأعمال فى خدمة غرضه فى هذا الكتاب ، واعنى تشخيص ازمة علم الاجتماع والطريق الى تصحيح مساره ٠ ويمثل كتاب جولدنر « الأزمة القادمة » تحولا ثانيا فى فكر جولدنر(٢٥) ٠ واماط هذا التحول اللثام عن رؤية راديكالية محددة تستهدف تصحيح مسار علم الاجتماع وتخليصه من ازمته الراهنة ٠ غير اننا لا بد ان نتساءل عن سبب هذا التحول ٠ يمكن القول ان رؤية جولدنر الراديكالية فى بداية السبعينات قد تبلورت فى اكمل صورها من خلال حركة جدلية بين فكر جولدنر بما كان يحويه من ارهاصات نقدية ، وبين الثورة الراديكالية التى اجتاحت العالم الراسمالى فى اواخر الستينات ٠ فقد ادرك جولدنر طبيعة هذه الثورة ، وطبيعة التحديات البنائية والفكرية التى وضعتها هذه الثورة أمام الفكر الكلاسيكى المرتبط بمشكلة النظام ، وما خلقته داخل من تناقضاته ٠ وبناء على ذلك ادرك جولدنر ضرورة تغيير هذا الفكر او تصحيح مساره فى ضوء هذه الظروف الجديدة ٠ واتخذ جولدنر من النقد اسلوبا لقيادة حركة تصحيح ونقد واسعة النطاق فى علم الاجتماع ٠ ونود فى هذه الفقرة أن نكشف عن طابع التفكير النقدى الراديكالى عند جولدنر واسلوبه فى تصحيح مسار العلم ٠ ويستلزم ذلك أن نعرض لموقفه من ازمة علم الاجتماع ، وتصوره للطريق الى خارج الأزمة ، والخطوات التى اتخذها على هذا الطريق ٠

١ ـ ازمة علم الاجتماع :

صدر جولدنر كتابه « الأزمة القادمة » بالعبارة التالية « يعمل المنظرون الاجتماعيون هذه الأيام داخل نسيج اجتماعى مفتت يتكون من مراكز

---

(٢٥) كان التحول الأول عندما تحول جولدنر من الوظيفية الى الاتجاه النقدى فى نهاية الخمسينات وبداية الستينات ٠

مشلولة وجامعات فقدت هيبتها الاخلاقية • ورغم ذلك فان البعض يصمون آذانهم ، بالرغم من أنهم يحسون بنخر الأمواج فى اجسامهم • وليس من المبالغة أن نقول اننا ننظر الآن على أصولت المدافع • فالأساس الذى يقوم عليه النظام القديم يتعرض لمخالب مئات من المتمردين عليه •• وهـذا الاطار من التناقضات والصراعات الاجتماعية هو الذى يكون النسيج التاريخى لما أسميته بالأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى »(٢٦) • ورغم غموض هذه العبارة وتركيزها الا أنها تكشف بجلاء عما يقصـده جولدنر بأزمة علم الاجتماع • فبناء العلم ، ووضعه داخل المجتمع ، وصلته بالحركة التاريخية • كل تلك الأمور تنطوى على ضروب من التناقضات والصراعات يمكن أن تؤدى ـ أن لم تكن قد ادت بالفعل ـ بالعلم الاجتماعى الى ازمة اذا لم يصحح من مساره ويتغلب على تناقضاته • يؤكد ذلك ما ذكره جولدنر عن معنى الأزمة : فالأزمة لا تعنى احتضار الكائن الذى يمر بها ، ولكنها تعنى أن هناك تغيرات جذرية فى نسق معين يؤدى به الى نسق مختلف تماما ، او تنتابه لفترة يعود بعدها الى حالته الطبيعية ، فالتغير فى حد ذاته لا يعنى وجود أزمة ، لا بد ـ لكى توجد الأزمة ـ أن يرتبط التغير ببعض التوترات والصراعات ، فالانساق تخبر حالة مستمرة من التغير ، ولكن ذلك لا يعنى بالضرورة انها تعيش ازمة • ففى وجود الأزمة تتم التغيرات الحاسـمة بمعدل سريع نسبيا ، وتشتمل على صراع حاد ، وتوترات كثيرة »(٢٧) •

ولكن ما هى التناقضات والصراعات التى يخبرها علم الاجتماع والتى تدل على ازمته القادمة ؟ ليس هناك اجابة محـددة على هـذا السـؤال فى كتاب جولدنر ، ولكننا نستطيع أن نستخلصها من القراءة المكثفة للكتاب ، ونلخصها على النحو التالى :

(أ) التناقض فى الموقف الراديكالى من النظرية • فالجيل الجديد من من الثوار ـ سـواء من اليسار الجديد أو حركة تحرير السود ـ يتجنبون اى اهتمام بالنظرية الاجتماعية • ذلك لأنهم يعتمدون على السياسات

---

(٢٦) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., p. VLL.
(٢٧) Ibid., pp. 341—342.

البراجماتية المحسوسة ، كما انهم يسايرون الهيبز فى رفضهم للثقافة الأمريكية · ولما كان علم الاجتماع قد اصبح جزءا لا يتجزأ من هذه الثقافة ، فمن الطبيعى أن يرفض الجيل الجديد النظرية السوسيولوجية مثلما يرفض الثقافة الأوسع · وهذا الموقف من جانب الراديكاليين ينطوى على ضرب من الخطر والتناقض · اذ انه يعنى أنهم يستسلمون لبعض التيارات الفجة فى الثقافة الأمريكية مثل معاداة الفكر Anti-Intellectualism والدعوة الى عدم التعلق بالمعرفة Know-nothingism · وبذلك لم يدرك الراديكاليون ـ الذين يريدون تغيير العالم ـ أن هذه المهمة لا يمكن انجازها دون موجهات نظرية ، كما أنهم لم يدركوا أن الذين يقاومون هذه المهمة تساندهم نظريات لها قوة التأثير · وأن فهم العالم من أجل تغييره لا يجب أن ينفصل عن مهمة صياغة النظرية عن هذا العالم · فمهمة تطوير النظرية لا يمكن أن تنفصل عن مهمة تغيير المجتمع ولقد حاول بعض الراديكاليين التغلب على هذا التناقض من خلال تجرع الماركسية بعناء · وهى بديل أفضل من أى بديل آخر اذا ما اعتبر الفرد نفسه ماركسيا بحق ، غير أنه لا يوجد تمثل حقيقى للماركسية من جانب الراديكاليين(٢٨) ·

(ب) الى جانب هذا الموقف المتناقض بين الفكر والعمل عند جماعات الثوار ، فان حركة الفكر والعمل فى علم الاجتماع قد افرزت تناقضا آخر يرتبط بموقف الراديكاليين · حدد الراديكاليون موقفهم من علم الاجتماع الغربى بانه علم ذو اتجاه محافظ يرتبط أساسا بسياسة الدولة الرأسمالية، وقد ازداد هذا الموقف صلابة بعد ان ظهر فى الاتحاد السوفيتى علم اجتماع يسير على هدى الماركسية اللينينية ، وينحو نفس منحى علم الاجتماع الأمريكى فى خدمة الدولة · ورغم هذا الموقف من جانب الراديكاليين الا أن ظهورهم فى حد ذاته يعبر عن أن علم الاجتماع قائم على تناقض بين الاتجاه المحافظ والاتجاه الراديكالى · ذلك أن اغلب الطلبة الراديكاليين ـ على ما لاحظ ليزلى فايدلر Fiedler هم من طلبة الاجتماع · فوراء كل مظاهرة طلابية ـ على ما يذهب فايدلر ـ شخصية طالب فى علم الاجتماع ، أو يهودى ، أو شخص يعيش خارج جماعته الاجتماعية

---

(٢٨) أوضحنا فى الفصل السادس موقفنا من هذا الموضوع ، وبررنا موقف الراديكاليين ، ودفعنا عن اتهامهم بانهم يعادون الفكر ·

Outsider . كما اتضح هذا التناقض فى الاجتماعات التى عقدتها الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع فى بوستون فى أغسطس ١٩٦٨ . فقد ظهرت بجانب الاجتماعات الرسمية للجمعية لجتماعات غير رسمية نظمها أعضاء حركة تحرير علم الاجتماع . ولقد عاصر هذان الاجتماعان بعضهما دون أى لتصال الى أن جاءت الاجتماعات الختامية حيث تجمع أكثر من ألف لسماع كلمة سكرتير الصحة والتطيم والرفاهية الاجتمالية . وتحول الاجتماع الى حادثة تاريخية حينما سمح فيليب هاوسر Hauser رئيس الجمعية للراديكاليين أن يعبروا عن آرائهم من فوق المنصة الرئيسية خوفا من التظاهر فى اثناء القاء السكرتير لكلمته . وقدم الكلمة الافتتاحية عالم الاجتماع الشاب مارتن نيقولا M. Nicolaus الذى هاجم سكرتير الصحة ووصفه بأيه يتزعم جبهة تحارب الشعب ، واتهم أعضاء الجمعية بانهم حشد من القساوسة والكتبة والخدم لأن تفكيرهم ما هو الا امتداد للاتجاه التقليدى والنزعة المحافظة فى القرن التاسع عشر ، وان كان يتخلق فى صورة جديدة فى ارتباطه بالليبرالية الأمريكية فى القرن العشرين . لنهم ينصبون من أنفسهم خدما للطبقة الحاكمة .

يعنى ذلك أن الذين يتهمون علم الاجتماع بانه علم محافظ هم انفسهم علماء لجتماع ، وبناء على ذلك يستخلص جولدنر أن علم الاجتماع يستطيع أن ينتج ذوى النزعة المحافظة وذوى النزعة الراديكالية . ويعد ذلك ضربا من ضروب التناقض الكامنة فى بناء العلم ذاته . فهو يتصل لتصالا وثيقا بالطابع المحافظ ويرتبط بالوضع الراهن فى المجتمعات الراسمالية ، ولكنه يعمل فى نفس الوقت على تنمية الميول الراديكالية المضادة للنظام القائم ، خاصة بين الشباب . انه علم ذو طابع ديالكتيكى ويحوى فى داخله ابعادا ليبرالية وأخرى قهرية محافظة . ويفرض ذلك على الباحثين مهمة تخليصه من جوانبه القهرية وتطوير جوانبه الليبرالية الراديكالية كى يستطيع ان يتخطى هذا التناقض الكامن فى بنائه الداخلى .

(ج) والتناقض بمظهريه السابقين هو نتاج تناقض آخر داخل النظرية الوظيفية المتربعة على عرش علم الاجتماع فى البلاد الغربية . اول مظهر لهذا التناقض هو اندفاع الوظيفية نحو دولة الرفاهية . لقد نشأت الوظيفية على يد دوركايم وبراون وغيرهما بعيدة عن تاثير الدولة ،

ولكن صـورتها المعاصرة كما قدمها بارسـونز تقدم تدعيما نظريا لدولة الرفاهية • كيف يتم ذلك ؟ تجعل الوظيفية من العلاقات الاجتماعية اهتمام رئيسى لها ، وتنظر الى النظام الاجتماعى على أنه يمكن أن يقوم فى المجتمع بصرف النظر عن الاشباعات الاقتصادية التى تقدمها دولة الرفاهية (ربما لأن هـذا النظام قائم على أساس روحى) • ومن هنا فان هـذه الاشباعات تعتبر مسلمات فى نظر الوظيفيين ، فضلا عن أن هذه الاشباعات الاقتصادية تعد وسـيلة لاشـباع الحاجة التى تعتبر عنصرا أساسـيا ليتم الفعل الاجتماعى على أساس من النظام • ومع ذلك فان الوظيفية ترتبط بدولة الرفاهية من ناحية أخرى . اذ أن تلك الأخيرة تعتبر مصـدرا لا ينضب لتمويل العلوم الاجتماعية ، ومن هنا يتدعم بينهمـا التعاون القـائم على المصلحة • وقد دفع ذلك التعاون ـ الى جانب الضغوط التى تمارسها دولة الرفاهية نفسها ـ الى أن تعدل الوظيفية من بعض مفاهيمها بحيث يمكن أن تقابل المشكلات العملية التى تواجه دولة الرفاهية ، وبحيث يبرز دور الدولة فى تحقيق التقدم والتضامن • وكان مفهوم الخلل الوظيفى ، ونظرية القرار ، ونظرية السبرنطيقا ، والاتجـاه السـببى الجديد الذى يتزعمه بلالوك Blalock وبيتربلاو Blau من نتاج هـذا التعاون بين الوظيفية والدولة • ورغم هـذا التعاون فان التناقض ما يزال قائما بينهما ، ذلك لأن الوظيفية لم تستطع أن تقـدم نظرية مكتملة عن التغير الاجتمـاعى ، وعندما حاولت ذلك تخبطت فى مفاهيم تطورية قريبتها من المـاركسية التى تعاديها دولة الرفاهية •

(د) أما ثانى هـذه المظاهر ـ والذى يضيف عنصرا رابعا لازمة علم الاجتماع فهو ما أسماه جولدنر تفتت Entropy الوظيفية أو انقسامها على نفسـها • فقد تميزت الوظيفية فى السـنوات الأخيرة بتنوع هائل فى الاتجاهات الرئيسية فيها • ونتج ذلك عن النجاح الذى حققته ، بحيث اندفع اليها أنصار عديدون كل يريد أن يميز وجهة نظره • كما أن الجماعة الأولى Seed group التى نشرت البارسونزية كشفت منذ بدايتها عن ميول مختلفة • وقد تدعمت هـذه الميول المختلفة من خلال النجاح والامتياز الاكاديمى الذى حققته هـذه الجماعة • ويبرهن جولدنر عن وجهة نظره هـذه من خلال نتائج بحثه عن علماء الاجتماع السابق الاشارة اليه • فقد

لاحظ جولدنر أن نسبة المعارضين للوظيفية تزداد كلما انخفض سن الأفراد من عينة البحث على النحو التالى :

السن	نسبة المعارضة
أكثر من ٥٠	٥ ٪
٤٠ ـ ٤٩	١١٪
٣٠ ـ ٣٩	١١٪
٢٠ ـ ٢٩	١٤٪

ورغم أن النسب قليلة ، الا أن اهميتها تأتى من تزايد العدد باستمرار . ويدل ذلك على أن الوظيفية تجد صعوبة فى أن تضم اليها جيل الشباب ، وأنه كلما مر الوقت ، كلما انفض العلماء من حولها وبحثوا عن نظريات جديدة . ويبرهن جولدنر على ذلك من خلال عنصرين :

١ ـ تعرض الوظيفية لتيارات نقد عنيفة من جانب الكثير من العلماء من امثال : دارندورف ، وبيتر بلاو ، ودنيس رونج ، رايت ميلز ، والفن جولدنر .

٢ ـ بداية ظهور بدائل نظرية جديدة أو اتجاهات جديدة تصارع الوظيفية وتخلق داخلها توترات كثيرة . من هذه النظريات الجديدة ـ الاثنوميتودولوجى التى طورها جارفينكل ، ونموذج علم النفس الاجتماعى الذى طوره جوفمان ، واتجاه جورج هومانز فى دراسة الجماعة .

وتتفاعل كل هذه التناقضات داخل علم الاجتماع الغربى لتضعه على حافة أزمة . ولكن لا بد أن نتساءل : هل يشخص جولدنر هذه الأزمة لكى يساعد النسق النظرى على أن يتخلص من تناقضاته الداخلية أو يعاود صياغتها صياغة نظامية ، ويستمر فى مسيرته من جديد ؟ أولا الاجابة على هذا السؤال مؤكدة بطبيعة الحال ، فجولدنر لا يبغى من وراء تشخيصه للأزمة أن يساعد النسق النظرى على تخطيها ، ولكنه يريد أن يقول أن هذا النسق النظرى غير قادر على استيعاب التغيرات والصراعات ، وغير قادر على أن يفسر كل جوانب الواقع الاجتماعى لأنه يتخذ طابعا معينا هو المرتبط بالنظام ويعمل ـ بل ويحاصر ـ الجوانب الأخرى المرتبطة بالصراع

والتغير . حقيقة انه يعترف ان علم الاجتماع يحوى جوانب ليبرالية راديكالية واخرى قهرية محافظة ، ولكنه رىء ـ فى ذات الوقت ـ ان هذا العلم ينمى الجوانب الليبرالية الراديكالية . وهذا هو الأساس فى كل التناقضات الداخلية التى يخبرها علم الاجتماع . وبناء على ذلك يشخص جولدنر الأزمة كنقطة مرحلية فى نقده لهذا العلم من اجل تغيير مساره واتجاهه ليحوى هذه الجوانب الليبرالية الراديكالية وليصبح علما يسعى الى تحقيق غايات انسانية بدلا من غاياته القهرية والاستغلالية التى يسعى اليها حاليا . وافتراض ذلك هو بداية الخروج من الأزمة او تفادى وقوعها .

٢ ـ الطريق لتفادى الأزمة ـ اساس جديد لنقد علم الاجتماع :

ذكرت فيما سبق ان جولدنر يعتقد ان علم الاجتماع يحوى جوانب محافظة واخرى راديكالية . بناء على ذلك يذهب جولدنر الى أن مهمة الباحثين يجب أن تنصب على استخلاص الجوانب الراديكالية من العلم ، وتخليصه من جوانبه القهرية . وليس هناك من سبيل لتحقيق هذه المهمة الا النقد . ولقد عبر جولدنر عن وجهة نظره هذه حين قال : « لا يمكن استخلاص الجانب الليبرالى من علم الاجتماع الاكاديمى ، وكذلك الماركسية التاريخية ، من خلال البحث فقط . ان ذلك يتطلب عملا ونقدا مستمرين ، وجهودا لتغيير العالم الاجتماعى وتغيير العلوم الاجتماعية . فهما متصلان اتصالا وثيقا ، لسبب واحد هو أن العلوم الاجتماعية جزء من العالم الاجتماعى كما انها فهم له . ولا يمكن تعميق نقد المجتمع المعاصر دون نقد لأدوات النقد ذاتها ومنها علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية . كما ان نقد علم الاجتماع يكون نقدا سطحيا اذا لم ننظر الى العلم على انه نتاج مجتمع .. ومن ثم فأن ما نود تحقيقه هو تقديم تحليل على مستويات عديدة ، نستطيع أن نرى فيها علم الاجتماع فى ارتباطه باتجاهات تاريخية واسعة النطاق ، وفى علاقته بمستويات تنظيمية كبيرة خاصة الدولة ، كما أن هذا التحليل يعنى رؤية علم الاجتماع داخل الاطار المكانى الذى يوجد فيه ، وأعنى الجامعة ، وكأسلوب حياة يعمل من خلاله الأفراد كمدرسين وباحثين . ويمارس داخل جماعة فكرية لها ثقافتها المهنية . واخيرا يتطلب نقد علم الاجتماع تحليلا مفصلا ومحددا للمجتمعات الفكرية والنظرية التى

انتجها هـذا العلم »(٢٩) · ولا نستطيع أن نضيف بعـد هـذا الاقتباس الا اقتباسا آخر « اننى مقتنع بأن استخلاص الجانب الراديكالى لليبرالى من علم الاجتماع لا يمكن أن يكون مؤثرا من خلال تدفق التعميمات التى تهمل التفاصيل ، ان ذلك يجب أن يتم من خلال مواجهة النظريات نقطة بنقطة ، والمنظرين فرد بفرد · وهـذه العمليـة التى تتعمق فى تفاصـيل النظريات ورد فعلنا تجاهها تعتبر ضرورية اذا ما اردنا أن نغير هـذه النظريات ، وأن نحرر انفسنا من تاثيرها المحافظ ، وان نقـدم العنـاصر التى تتضمنها فى صورة جديدة · وبدون هـذه العملية فان النقد الراديكالى للمجتمع ولعلم الاجتماع يقع فى مخاطرة الجدل العقيم »(٣٠) ·

ويتضح من هـذين النصين مجموعة من العناصر تعد خلاصة الاتجاه النقدى لألفن جولدنر :

١ ـ انه كراديكالى فى جيل تأثر بأفكار اليسار الجديد ، لا يفصل بين الفكر والعمل ، بين محاولات تغيير الواقع ومحاولات تغيير النظرية · ونلاحظ هنا تشابها بين أفكار اليسار الجديد وبين افكار جولدنر ، رغم أن جولدنر يتهم زعماء اليسار الجديد بمعاداة الفكر·

٢ ـ النقد الذى يطالب به جولدنر ليس نقدا من أجل النقد ، وانما يستهدف فى النهاية أن يخلص النظرية من اطارها المحافظ التقليدى وان يبرز ما تحويه من جوانب ليبرالية تكون اساسا لنظرية جديدة ·

٣ ـ من المتوقع بناء على هذا أن تكون النظرية الجديدة ـ التى لم يتوصل اليها جولدنر بعد ـ مجرد استنباط لعناصر من التراث القـديم وتطوير لها · لنه يود أن يقوم بنفس مهمة ماركس اذا شبهنا النظرية المعاصرة بالهيجلية فى القرن ١٩ ، فرغم ان الهيجلية كانت فلسفة تسلطية محافظة ، الا أن ماركس استطاع أن يستخلص منها جوانب ثورية غيرت وجه العـالم ·

٤ ـ أن نقد علم الاجتماع لا ينفصل عن نقد المجتمع · ولقد استهل

---

(٢٩) Ibid., pp. 13—14

(٣٠) Ibid., pp. 14—15.

جولدنر أول فصل من كتابه بعبارة قال فيها « لا يمكن أن نفصل بين نقد المجتمع وتحوله وبين نقد النظرية التى تفسر هذا المجتمع » فالنظرية ما هى الا نتاج مجتمع ، واذا تغير اى منهما لا بد ان يغير الآخر · ولا يعنى ذلك أن ننتظر الى أن يتغير اى منهما ، بل لا بد ان نفرض عليهما هذا التغير من خلال نقد النظرية وبذل الجهود لتغيير العالم · معنى ذلك أن نقد النظرية يجب أن يسير بجانب نقد المجتمع من أجل الوصول فى النهاية الى نظرية ليبرالية تفسر مجتمعا متحررا من قيود القهر الرأسمالى ·

٥ ـ وأخيرا فان النقد الذى يدعو اليه جولدنر ليس نقدا كلاسيكيا وانما نقد يقوم على أساس جديد · فلا بد أن يتم هذا النقد من خلال ربط علم الاجتماع باتجاهات تاريخية واسعة النطاق ، وبمستويات تنظيمية معينة ، وكنتاج لاطار مكانى معين ، وكأسلوب حياة لمجموعة من الأفراد فى المجتمع · ان النقد يتم هنا فى ضوء سوسيولوجيا علم الاجتماع Sociology of Sociology ويتضح هذا الأساس النقدى الجديد اذا ما تتبعنا النظرية النقدية لألفن جولدنر خطوة اخرى ·

يذهب جولدنر الى أن النظريات الاجتماعية تحوى عنصرين منفصلين: القضايا أو المقولات النظرية Postulates وهى صلب النظرية وهى قضايا مصوغة بطريقة واضحة محددة ، ثم الافتراضات العامة assumptions background وتمثل الخلفية التى نبعت منها القضايا النظرية · وهذه الافتراضات العامة تظل كامنة فى وعى المنظر لا تظهر على السطح ولكنها تؤثر فى صياغة القضايا النظرية · فالنظرية تتحكم فيها عملية أكثر تعقيدا من قوانين المنهج العلمى · ان هناك مجموعة من الافتراضات كامنة فى مشاعر المنظر وكيانه ووعيه وهى تؤثر تأثيرا كبيرا على صياغته للنظرية · والافتراضات نوعان : لفتراضات عامة تتكون من افكار الأفراد عن العالم ، كأن تذهب مثلا الى القول بأن العالم وما يحويه من أشياء قائم على الوحدة أو التعدد أو انه على درجة عالية من التكامل والاتساق بصرف النظر عن وحدته أو تعدده · أما النوع الثانى من الافتراضات فهى الافتراضات النوعية domain assumptions وهى ذلك الجانب من الافتراضات العامة التى تنطبق على ميدان معين كأن تذهب الى القول بأن الانسان رشيد أو لا رشيد،

وان العالم ثابت او متغير ، وان المشاكل يمكن ان تحل نفسها بنفسها دون تدخل متصود ، وان السلوك البشرى لا يمكن التنبؤ به ٠٠ الخ(٣١) ٠

ويعتقد جولدنر أن عالم الاجتماع يستخدم ويتاثر بهذه الافتراضات فى صياغته للنظرية ٠ اذ انه يتشربها خلال التنشئة الاجتماعية بدءا من تعلم اللغة وطول حياته ٠ فعندما يعرف الطفل ـ فى الولايات المتحدة مثلا ـ شيئا عن الزنوج ، فانه يتعلم أيضا بعض الافتراضات العامة عنهم ـ من ذلك مثلا التحيز ضدهم ـ وصفهم بانهم كسالى وانانيون ٠ وهكذا يترسب فى كيان العالم ـ وهو فرد عادى مثله مثل اى شخص آخر ـ مجموعة من الأحكام والافتراضات العامة والنوعية ٠ وعند صياغته للنظرية تخرج النظرية وهى مغلفة بهذه الافتراضات ، فليس هناك ما يقيه من التاثر بها ٠ فهو انسان يعيش فى ثقافة معينة مثل اى انسان آخر ولا بد ان تصنعه الثقافة بطابعها وتلقى بظلالها على تفكيره وآرائه ٠ وبناء على ذلك ليس هناك فرق بين الباحث ومادة دراسته ، فالأفراد ليسوا « اشياء » كما ذهب دوركايم ، وانما هم جماعة من الأفراد يعد الباحث واحدا منهم ٠ ولقد استطاع جولدنر ـ من خلال بحثه عن علماء الاجتماع ـ ان يشجب بعنف مسلمة الفصل بين الذات والموضوع التى وضع بذورها دوركايم ٠ فقد استعمل جولدنر وزميله لاثبات ذلك التحليل العاملى حيث فصلا سبع عوامل على انها الأبعاد الهامة فى العدد الكبير من الأسئلة التى تضمنها الاستبيان ٠ ولقد اثبت التحليل أن العامل الخاص بالافتراضات العامة هو أهم العوامل السبعة على الاطلاق(٣٢) ٠

بناء على ذلك تكون النظرية انعكاسا للواقع الشخصى للمنظر ٠ ويفرق جولدنر بين مستويين لهذا الواقع : الواقع الخاص بدور عالم الاجتماع كعالم ٠ والواقع الخاص بدوره كشخص يعيش فى المجتمع ٠ ولا يستطيع الباحث ان نفصل بين هذين الدورين ، بل ان حياته قائمة على التفاعل بينهما ٠ ويطلق جولدنر على الواقع الشخصى الذى يؤثر فى النظرية البناء التحتى للنظرية حيث تمثل النظرية ذاتها بناء فوقيا او بناء

---

(٣١) Ibid., pp. 29—31.
(٣٢) Ibid., pp. 31—43.

فرعياً · وكل ما يفعله عالم الاجتماع ـ عندما يقدم نظريته ـ هو انه يحول هـذا البنـاء التحتى الى ايدلوجيـة : تحفـزنا اما الى قبـول العـالم أو تغييره(٣٣) · ولكن علماء الاجتماع لا يعرفون بهـذه الحقيقة ، ذلك انهم يذهبون ضحية افكارهم المنهجية ، وتعلقهم بتقاليد العلوم الاجتماعية · فالمناهج المعقدة التى يستخدمها العلماء فى دراسة العالم ـ الذى يعتقد انه شىء خارجى ـ تسلب الباحث ذاته : فهو لا يستطيع أن يرى ذاته من خلال البحث ، بل أن البحث الذى يجرى بهـذه الطريقة يخلق هوة بين الموضوع الذى يتعامل معه الباحث وبين حياته كفرد عادى مثل الآخرين ·

بناء على ذلك يجب أن يوجه نقد علم الاجتماع الى الكشف عن البناء التحتى للنظرية ، وكذلك البناء الواقعى لحياة عالم الاجتماع ذاته · فالأول يتيح لنا أن نتعرف على الأطر البنـائية والأيديولوجية التى تغلف النظرية السوسيولوجية ، والتى فرضت عليها أن تتخذ اتجاها معينا فى فهمها للواقع الاجتماعى وتفسيره · ومن ثم نستطيع أن نستخلص منها الجوانب الليبرالية الثورية القادرة على تقديم رؤية واقعية هدفها تحرير الانسان من القهر · والثانى يتيح لنا أن يتغلب الباحث على التوتر والصراع القائم بين حياته الخاصة التى نفترض أن بها قدرا من الليبرالية وبين سـعيه المستمر للمحافظة على النظم القائمة وعدم تغييرها · معنى ذلك انه يتيح له أن يولجه نفسه بكل مظاهر اللبس والغموض التى تكتنف مهنته ، وبذلك يكتسب وعيا ذاتيا يجعله قادرا على ان يميز بين الغث والثمين ، وان ينفض يده من مظاهر السيطرة المحيطة بعمله ·

النقد فى هـذه الحالة يصبح ضربا من ضروب سوسيولوجيا علم الاجتماع · ولقد اشتق جولدنر مفهوما يعبر عن هـذا النوع من الدراسة

---

(٣٣) يسوق جولدنر على هذه الفكرة مثـالا من الكتاب الذى اشرف على تحريره بارسونز بعنوان « علم الاجتماع الأمريكى » حيث جاء بالكتاب مدح ذاتى بدافع عن الافتراضات والمسلمات التى يطرحها الفكر الراسمالى ، ويدافع ـ بطريقة ضمنية ـ عن النظـام نفسـه الذى بدا يفقد جوانبه من جراء الحـرب الفيتنامية وصراع السود والبيض ، انظر :
Parsons (ed.), American Sociology Basic Books, New York, 1969.

اطلق عليه « علم الاجتماع الانعكاسى »(٣٤) · Reflexive Sociology · ولتفسير ما يقصده بهذا المفهوم ميز جولدنر بين شكلين من اشكال العالم الاجتماعى يتصلان بعمل النظر : الأول هو العالم المتاح permitted او السوى normal ، والثانى هو العالم غير المتاح unpermitted (او غير السوى abnormal) ويبدأ الباحث فى صياغة النظرية عندما يرى امكانية ظهور الشكل الثانى غير السوى ، بحيث يبذل محاولة تحويل العالم غير السوى الى عالم سوى ، ومن ثم يضفى صفة « السواء » على العالم(٣٥) · معنى ذلك ان النظرية تنشأ من خلال الصراع بين بنائين يهدد كل منهما الآخر · ويتخذ الباحث موقفا من هذين البنائين بحيث ينحاز الى اى منهما وينظر الى الآخر على انه يهدد البناء الذى يعتبره سويا · فالنظرية تقوم أساسا على رؤية متحيزة حيث يمكن أن يكون العالم غير السوى سويا فى رأى شخص معين ، ويكون العالم السوى عالما غير سوى فى رأى شخص آخر وهكذا · وهذه التفرقة بين شكلى العالم تؤكد ما ذهب اليه جولدنر آنفا من أن النظرية السوسيولوجية تضرب بجذورها فى بناء الاحاسيس والدوافع عند الباحث ، تلك التى تكون لنعكاسا لافتراضات عامة ونوعية مرتبطة ببناء معين ·

بناء على ذلك تكون المهمة التاريخية المنوطة بعلم الاجتماع الانعكاسى هى ان يحول من اتجاه عالم الاجتماع ويجعله يتأمل بعمق فى حياته وعمله اليومين ، وان يكون على وعى بامكانية انعكاس حياته اليومية ولفتراضاته العامة والنوعية فى نظريته وبحوثه · ان علم الاجتماع الانعكاسى ما هو الا أداة نقدية يمكن من خلالها تصحيح مسار علم الاجتماع ، فاذا كانت النظرية تعكس الافتراضات التى يتشربها الباحث من خلال ثقافته ، ومن ثم تقوم على رؤية متحيزة ، واذا كانت هذه الرؤية المتحيزة قد سادت فى علم الاجتماع الغربى فى تيار الاتجاه المحافظ المرتبط بالنظام والقهر ،

---

(٣٤) لم أجد ترجمة لهذا المصطلح أفضل من هذه الترجمة ، التى قدمها السيد الحسينى فى عرضه لكتاب جولدنر (المجلة الاجتماعية القومية ، العدد الأول ١٩٧٣) ومن الترجمات الأخرى التى يقترحها : علم الاجتماع الاسترجاعى ، وسوسيولوجيا الذات ·

(٣٥) Ibid., p. 484.

فان الخطوة الأولى فى تصحيح مسار العلم ليصبح اكثر تحررا وليبرالية هى أن يحقق الباحثون قدرا من الوعى الذاتى بطبيعة عملهم وبالقوى المحيطة به والمؤثرة فيه • وعلم الاجتماع الانعكاسى هو الذى يمنحهم هذا الوعى • ويتسم علم الاجتماع الانعكاسى بمجموعة من الخصائص يمكن اجمالها فيما يلى(٣٦) :

١ ـ انه علم راديكالى بالضرورة ، ويجب أن يكون كذلك • فهو يدرك أن المعرفة بالعالم لا يمكن أن تتقدم دون معرفة الباحث عن ذاته وعن وضعه فى هذا العالم ، ودون جهود هذا الباحث لتغيير العالم • ومن خلال هذا الوعى بالذات وبالعالم يمكن التعرف على نوعية العالم المغترب خارجنا وداخل أنفسنا ومن ثم نمتلك القدرة على تغييره او تجاوزه • وليس المقصود بكلمة « راديكالى » انه علم نقدى فقط ، ولكن المقصود بها يهتم الى جانب ذلك بتقديم صياغات ايجابية لمجتمعات جديدة ، ويوتوبيات جديدة ، يستطيع أن يعيش فيها الانسان فى ظروف أفضل ، كما يرتبط بالحياة اليومية ، ويدين السلوك الامبريالى ويقدم مطالب من أجل القضاء على مظاهر الحرمان الجماهيرى •

٢ ـ من خلاله يستطيع الباحثون ان يتجاوزوا التراث المعاصر • فمن خلال تعميق وعينا عن واقعنا كعلماء اجتماع وفهمنا لهذا الواقع نستطيع أن ننتج جيلا جديدا من علماء الاجتماع قادرا على فهم العلم بطريقة افضل •

٣ ـ يمكننا هذا العلم النقدى من أن نتجاوز ذلك الفصل بين الذات والموضوع ، وأعنى الفصل بين الباحث ومادة دراسته • فالباحث يستطيع أن يدرك أنه جزء من العالم وأن أحاسيسه ومشاعره هى أحاسيس ومشاعر الآخرين • ويتطلب ذلك وجود بعد امبيريقى يركز على دراسة علم الاجتماع ذاته وعلمائه ، وأدوارهم المهنية ، والمؤسسات التى ينتمون اليها ، ودرجة ارتباطهم بانساق القوة ، وثقافتهم الفرعية ، ومواقفهم من العالم بصفة عامة •

٤ ـ يقوم علم الاجتماع الانعكاسى على الوعى بتناقض اساسى

---

(٣٦) Ibid., pp. 486—509.

مؤداه أن هؤلاء الذين يسهمون بنصيب الأسد فى التطور النظامى لعلم الاجتماع هم انفسهم الذين يحرفون اسلوب بحثه عن المعرفة • فالناقد ذو الرؤية الانعكاسية يدرك أن تطور علم الاجتماع يرتبط بالتدعيم المجتمعى الذى يسمح بالتطور فى اتجاهات معينة ، ويضع حدودا على اتجاهات أخرى ومن ثم يشوه ويحرف طابع العلم • ومن ثم يدرك ان القوى التى تحرف العلم هى قوى معادية عليه أن يواجهها •

٥ ـ أن مسألة الأفكار والقوى المادية تجعله يتخذ موقفا من قضية التحرر من القيم ـ ربما لأن هذه القوى قد استخدمتها استخداما سيئا • ان الباحث ذو الرؤية الانعكاسية يتشكك فى جدوى التحرر من القيم ، غير أنه يدرك فى ذات الوقت أخطار الالتزام بالقيم • ومع ذلك فانه يقبل أخطار الالتزام ، لأنها أخف وطأة من تحريفية التحرر من القيم •

٦ ـ اتصالا بموضوع القوى المادية يكون الباحث ذو الرؤية الراديكالية الانعكاسية على وعى بالتأثيرات الأيديولوجية والسياسية المتصلة بعمل عالم الاجتماع • وبذلك يكون قادرا على التمييز بين الأيديولوجية القائمة على القهر والأيديولوجية القائمة على التحرر • ومع ادراكه لانحراف الليبرالية الأمريكية المعاصرة ، وتحكمها فى مصير علم الاجتماع والجامعة ، فان المهمة المنوطة بالباحث ذى الرؤية الانعكاسية هى أن يقوى الوعى النقدى بطابع الليبرالية المعاصرة ، وبالعلاقة الجدلية بين سياسات الحرب والرفاهية Welfare and Warfare Politics والدور الليبرالى الذى يقوم به عالم الاجتماع ، كبائع بحوث ، على حساب كل منهما •

٧ ـ ومن الناحية الاخلاقية يؤكد علم الاجتماع الانعكاسى على القوى الخلاقة للباحث ، والتى تعارض المجاراة التى تفرضها النظم القائمة والتنظيمات المهنية ، والهيبة الجامعية • فالباحث هنا لا يخضع لأى سلطة ولا يسمح لأى قوة أن تتحكم فى تفكيره •

٨ ـ يدرك الباحث ذو الرؤية الانعكاسية أهمية الحس التاريخى • فهو ينظر الى الأفراد على أنهم يتشكلون من خلال ماضيهم المشترك ، ومن خلال اندماجهم فى ثقافات مشتركة وانساق اجتماعية مشتركة • ولكن

ليس معنى ذلك أن الأفراد يعيشون فى خضوع تام للقوى الاجتماعية او انهم يتحكمون فى العملية التاريخية تحكما مطلقا ، ولكن ذلك يعنى أن هناك أجزاء شاسعة داخل هذا العالم تعد ملكا للأفراد ، واهمها على الاطلاق الثقافة والمجتمع · ومن ثم فان أحد مهام علم الاجتماع الانعكاسى تنحصر فى مساعدة الأفراد فى نضالهم من أجل تملك هذه الأجواء والسيطرة عليها ·

هذه هى اهم الأسس التى يقوم عليها علم الاجتماع الانعكاسى ، اداتنا الجديدة فى تغيير النظرية ، وتغيير للعالم الذى تفسره هذه النظرية · وتجدر الاشارة الى أن جولدنر قد سار خطوات فى كتابه « الأزمة القادمة » فى نقد نظرية علم الاجتماع من خلال هذا الأساس النقدى الجديد · فقد كان جهده لتشخيص الأزمة القادمة للعلم جهدا نقديا فى المحل الأول على ما المحنا فيما سبق · فقد حاول أن يبرز التناقضات التى يخبرها النسق النظرى للعلم فى تفاعله مع الظروف والقوى المحيطة به : الافتراضات الثورية بما تخلقه من تناقضات مستمرة فى بناء العلم ، الدولة بما تفرضه على العلم من حدود ، الأيديولوجية التى تجعله يتخذ مسارا محافظا مهملا جوانب كثيرة ، الوفاق بما يفرضه من تقارب بين وجهات النظر الماركسية والوظيفية · وفضلا عن ذلك قدم جولدنر عرضا بنائيا تطوريا نقديا لنشأة العلم الاجتماعى منذ ظهور الوضعية السوسيولوجية على يد أوجست كونت ، ومرورا بالماركسية ، وعلم الاجتماع الكلاسيكى (دوركايم ـ فيبر) وحتى البنائية الوظيفية البارسونزية · ولادراكه لمدى السيطرة والانتشار اللذين تمارسهما الأخيرة قدم جولدنر ـ وفى قسم كامل من كتابه ـ عرضا نقديا ممتازا لنظرية بارسونز ·

وقد يتساءل البعض : لماذا لم يقدم جولدنر بديلا نظريا بدلا من الاغراق فى هذا الجدل فى محاولته ارساء اساس نقدى جديد ؟ رغم اننا نستطيع أن نشتق اجابة لهذا السؤال من عرض جولدنر لمفهوم «علم الاجتماع الانعكاسى» حيث أكد انه ليس علما نقديا فقط ، وانما يهدف الى اقامة نظرية جديدة من خلال نقده المستمر للعلم والعالم ، الا اننا سنأخذ الاجابة على

هذا السؤال من كتاب حديث لجولدنر بعنوان For Sociology(٣٧) ، حيث كتب يقول « ٠٠ ان الشيء الحيوي ليس التوصل الى موقف نظرى بديل ٠ ولكن الشيء الملح هو تاسيس (خلق) الظروف الانسانية التى تفرز البدائل النظرية والفكرية الجديدة ، والنماذج التحليلية الفنية الجديدة ، والنظريات الوسطى الجددة ، أو حتى الابستومولوجيات الجديدة ٠ وتعنى كلمة تاسيس هنا أن المرء يريد فهما نقديا مقنعا لنوع الظروف الانسانية المفضلة ، ويعنى أيضا وضع هذا الفهم فى نطاق الممارسة الفعلية ، انه يعنى بذل الجهد لتجسيد هذا الفهم فى تجمعات فكرية جديدة ومؤسسات جديدة ٠ ومع ذلك فان هذين النوعين من النشاط (الفهم والممارسة) ليسا منفصلين يأتى احدهما بعد الآخر ٠ ويمكن أن نعتبر الفصل الأخير من كتاب « الأزمة القادمة » بمناقشته الشاملة لعلم الاجتماع الانعكاسى بمثابة اسهام فى مثل هذا الجهد »(٣٨) ٠

ولقد بدأ جولدنر فى هذا الكتاب دعوته الى انشاء تجمعات فكرية تدور فيها مناقشات حرة بين المنظرين ٠ ذلك لأنه يرى أن مثل هذه التجمعات ضرورية لتهيئة الظروف الاجتماعية والانسانية التى يمكن أن تقوم عليها النظرية الجديدة والمجتمع الجديد ٠ ولهذه المهمة جانبان : جانب نقدى جدلى، فالتجمع النظرى يجب أن يحدث شرخا فى العالم الاجتماعى ، بحيث ينفصل نفسه عن التعريفات التقليدية السائدة عن الواقع الاجتماعى وان يناضل من أجل القضاء على النظم والظروف التى تحافظ عليها ، وان يحمى نفسه دائما من الهجوم المضاد ٠ وجانب ايجابى بناء يمكن من خلاله ان نبدأ فى تكوين تجمعات نظرية تستطيع ان تغذى تدعيم المحادثات الحرة الرشيدة بشأن علم الاجتماع والواقع الاجتماعى(٣٩) ٠

فجولدنر يعتقد أن المشكلة التى تواجه علماء الاجتماع فى الوقت الحاضر هى العلاقة المتبادلة بين النظرية والممارسة ، بين الفكر والعمل ٠ ويعتقد

---

(٣٧) A. Gouldner, For Sociology, Renewal and Critique in Sociology today, Penguin Books, 1975, First Published by Allen Lane 1073.

(٣٨) Ibid., p. 78.

(٣٩) Ibid., pp. 78—79.

اننا نستطيع أن نكسر هذه الفجوة من خلال بذل الجهود فى اقامة تجمعات نظرية جديدة · فالتنظيم ـ والتنظيم الاجتماعى وحده ـ هو القادر على أن يكون همزة الوصل بين الفكر والعمل « فعلم الاجتماع فى الوقت الحاضر لا يحتاج الى كارل ماركس ، أو نيوتن ، وانما يحتاج الى لينين »(٤٠) · « فنقد النظرية يتطلب بالضرورة تغيرا فى التنظيم الاجتماعى الذى تنبثق منه النظرية فى ضوء التصعيد الذى يمكن أن تقدمه المناقشات الحرة الرشيدة · والمعرفة التى تتطلبها هذه المهمة سوف يكون لها تأثير كبير فى تغيير النظرية والعالم على حد سواء »(٤١) ·

وربما يكون جولدنر قد بدأ فعلا فى انشاء هذه التجمعات النظرية منذ أن بدأ عمله فى جامعة أمستردام عام ١٩٤٧ · فقد بدأ فى الاشراف على تحرير مجلة بعنوان « النظرية والمجتمع » Theory and Society حيث كتب جولدنر فى تقديمه للعدد الأول من المجلد الأول لهذه المجلة مقالا بعنوان « نحو موضوعية جديدة »(٤٢) · أوضح فيه أن كل المقالات التى تضمنها هذا العدد الأول تدعو الى ضرب جديد من ضروب الموضوعية يختلف عن ذلك الذى ينادى به علم الاجتماع المرتبط بالليبرالية · ذلك لأن التغيرات النظرية والبنائية تهيىء الجو للتخلى عن الأطر النظرية القديمة بما تدعيه من التحرر من القيم · فعلى المستوى النظرى لم تعد النماذج التحليلية القديمة مقنعة ، كما أن هناك الكثير من النماذج المحدثة تتحداها وتدخل معها فى صراع عميق وعلى المستوى البنائى فان ظروف العصر تثرينا بالأحداث التى تضع كل السياسات القديمة موضع تساؤل · واول هذه الأحداث هى سياسة الوفاق detente التى سيدفع ثمنها كل شعوب العالم . حيث سيقاسى الأمريكيون من ارتفاع تكاليف المعيشة وسيقاسى الروس من فقدان حرياتهم السياسية والمدنية · اما ثانى هذه

---

(٤٠) Ibid., p. 80.

(٤١) Ibid., p. 81.

(٤٢) A. Gouldner, "Toward the New Objectivity" An Introduction to Theory and Society in Theory and Society, Vol. 1 No. 1, 1974.

ويتكلم جولدنر عن الأعضاء الذين يساهمون بالكتابة فى هذه المجلة على انهم جماعة أو تجمع Community .

الأحداث فهى حرب يوم الغفران وما صاحبها من استخدام العرب للبترول كسلاح اقتصادى ، وهى احداث تعد بمثابة مؤشر على ان الوعى القومى يخبر تغيرات جذرية تحتم علينا اعادة النظر فى كل سياساتنا القديمة • اما ثالث هذه الأحداث فهو فضيحة ووترجيت • فهى ليست مجرد فضيحة عابرة، ولكنها تعنى فقدان النسق السياسى الأمريكى لشرعيته فى الداخل والخارج. والأحداث الثلاثة تضع الكثير من القيود على قوة أمريكا فى العالم •

وكل هذه التغيرات التى تنبىء باختفاء الوعى التقليدى القديم تخلق بناء تحتيا جديدا لنوع جديد من الموضوعية فى العلوم الاجتماعية والنظرية الاجتماعية • فاذا كانت الرؤية القديمة تفترض ان الموضوعية تعتمد على العلاقة بين العالم ومنهجه ، ومدى امتثاله لمتطلبات هذا المنهج ، فان الموضوعية بالمعنى الجديد تعتمد على شىء آخر وراء المنهج ، واعنى اختبارات الأفراد • ان الموضوعية هنا لا تختزل الى مسألة الدليل الأمبيريقى ، ولكنها تعتمد على تغيير هذا الدليل حسبما هو متفق عليه بين تجمعات العلماء فيما يتعلق بالأمور التى يمكن ان يصدر فيها حكم ذاتى • بناء على ذلك تختفى فكرة الحكم المطلق ، او الحكم الموضوعى المطلق ، ويحل محلها فكرة الحكم القائم على مبدأ النسبية Relativism يرتبط الصدق فيه بطريقة صياغة الأفراد لأعمالهم ، وبطبيعة العمل نفسه الذى يختلف باختلاف الأوضاع الاجتماعية ، والانتماءات الجماعية ، والتنظيمات الجماعية(٤٣) •

ونستطيع مما سبق ان نوسع فى القضية التى طرحناها فى الفصل السادس ـ والتى مؤداها ان التغيرات البنائية فى مرحلة الستينات قد أفرزت ـ من خلال تفاعلها مع النظريات القديمة ـ الاتجاهات النقدية • والنقطة التى نود تاكيدها هنا هى ان امتداد هذا التفاعل وتطويره هو الكفيل فقط بتطوير النظرية • وقد أكد نكر جولدنر هذه الحقيقة حيث ذهب الى ان تغيير النظرية يتطلب جهودا لتغيير العالم ونقد الفكر ، بمعنى استمرار عملية الجدل بين القديم والجديد الى ان يفرز هذا الجدل مركبا

---

(٤٣) Ibid., pp. III—IV.

جديدا يختلف عن القديم وعن الجديد ٠ فاذا كانت أحداث الستينات قد كونت البناء التحتى للنظرية النقدية فى علم الاجتماع ، فان التغيرات التى يسردها جولدنر هنا ـ والتى ترتبط ارتباطا وثيقا بالسبعينات ـ سوف تكون البناء التحتى للنظرية الجديدة التى ما تزال فى طور التكوين ٠ ويمكن من خلال ما ذهبنا اليه وما ذهب اليه جولدنر أن نستخلص ذلك القانون العام الذى يوضح العلاقة بين الفكر والواقع والذى يصوغ تلك العلاقة فى شكل علاقة طردية ايجابية ٠ فاذا تغير الواقع كان هذا التغير أساسا تحتيا لنظرية جديدة ٠ ولكن هل هذا التفاعل يسير وفق قوانين التاريخ ودون تدخل مقصود ؟ الاجابة بالنفى بطبيعة الحال ٠ فالأيديولوجية الليبرالية المصطبغة بالصبغة المحافظة ، والتى تحكمت لفترات طويلة فى مسار العلوم الاجتماعية ، بحيث سمحت لها بالتطور فى بعض الاتجاهات (الاتجاهات التى تحافظ ـ نظريا ـ على النظام العام فى المجتمع الرأسمالى ، والتى تسخر نفسها ـ منهجيا وأمبيريقيا ـ لخدمة مصالحه ومشروعاته) ، ضعف التطور فى اتجاهات أخرى (الاتجاهات النقدية الثورية ذات الأهداف التحررية والانسانية) ، هذه الأيديولوجية تحاول الآن ان تعرقل الحركة النقدية بشتى الوسائل وأن تفرض عليها حدودا كثيرة خاصة بعد أن بدأت تلك الأخيرة تحقق نجاحا غير متوقع ٠ وهى بذلك تتدخل فى حركة التاريخ وتعرقل مساره ٠ ولذلك يجب أن يكون التغير مقصودا ، ويجب أن يتسلح العلماء بالوعى الذاتى فى مواجهة عداء الليبرالية الأمريكية المعاصرة التى تشن عليهم هجوما مستمرا ٠ ليس أدل على ذلك من الهجوم العنيف الذى تعرض له جولدنر من العلماء المحافظين فى المؤسسة الأكاديمية لعلم الاجتماع الغربى ، والذين يرتبطون ارتباطا وثيقا بالليبرالية المحافظة على ما سنرى فى الفقرة القادمة ٠

ثالثا ـ جولدنر فى مواجهة نقاده :

لا نستطيع ان نجزم بالقول بأن كل نقاد جولدنر ينتمون الى التيار المحافظ ٠ فهناك من العلماء من تفهم المهمة التاريخية لعلم الاجتماع النقدى ، وهم وان نقدوا جولدنر ، الا أن نقدهم يعتبر اثراء للفكر النقدى ، حيث دفع جولدنر الى أن يستوضح الكثير من أفكاره ٠ ان هؤلاء النقاد

هم الذين يعيشون من اجل علم الاجتماع(٤٤) . اما الذين يتعيشون عليه فهم اولئك الذين لم يقبلوا حركة التجديد والنقد التى يتزعمها جولدنر . بل انهم وقفوا لها بالمرصاد فى محاولة لايقاف وتطويق حركة التاريخ التى تسير فى غير صالحهم . ومن هنا ينقسم النقد الذى تعرض له جولدنر الى نوعين : النوع الأول يتعاطف مع الحركة النقدية ويعضدها ، والثانى يجسد رد فعل التيار المحافظ تجاه الحركة النقدية . ونتناول هذين النوعين على النحو التالى :

النوع الأول :

يمثل هذا النوع النقد الذى قدمه كل من ريتشارد فلاكس Flacks وآلان تورين Touraine وموريس زايتلن M. Zeitlen وارتكز هذا النقد على خمس نقاط رئيسية(٤٥) :

١ ـ رغم أن جولدنر قد قدم نقدا لأهم المواقف النظرية المعاصرة الا انه لم يعط البديل لهذه النظريات التى نقدها .

٢ ـ ان جولدنر يركز على نقد النظرية ، دون أن يهتم بنقد المجتمع .

٣ ـ لم يول جولدنر اهتماما كبيرا للماركسية كجزء من الفكر السوسيولوجى .

٤ ـ لم يوضح بالتحديد العلاقة بين النظرية والممارسة ، او الجهود التى يمن أن يتجاوز الأفراد من خلالها الحالة التى يعيشونها وأن يحرروا أنفسهم منها .

---

(٤٤) كتب جولدنر فى مقدمة كتاب « الأزمة القادمة » يقول : « ان الذين يحبون النقد هم الذين يعيشون من أجل علم الاجتماع For Sociology أما الذين يمقتون هذا النقد فانهم يتعيشون عليه » وربما يكون جولدنر قد اشتق عنوان كتابه For Sociology من هذه العبارة السابقة لكى يؤكد لناقديه انهم يتعيشون على العلم ، هذا اذا لم يكن العنوان يسير على غرار كتاب لويس التوسير L. Althusser بعنوان For Marx حيث يعتقد جولدنر ان تراث علم الاجتماع يحتاج الى نفس المراجعة التى قام بها التوسير للماركسية .

(٤٥) ظهر هذا النقد فى تعليقات مفصلة نشرها هؤلاء العلماء فى العدد الثانى من المجلد السابع والسبعين من المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع . انظر : American Journal of Sociology, Vol. 77. No. 2, 1971.

٥ ـ فى معالجته لمشكلة الموضوعية ازال جولدنر الحد الفاصل بين الأيديولوجيا والعلوم الاجتماعية ٠

ولأن هذا النقد قائم على التعاطف والخوف على العلم ، فانه لم يغضب جولدنر بل دفعه الى ان يعيد تاكيد بعض القضايا التى طرحها وان يزيدها توضيحا ، وان يحدد موقفه بدقة من بعض القضايا التى اثارها النقد(٤٦) ٠

١ ـ فيما يتعلق بتقديم بديل نظرى ذهب جولدنر الى ان لطاره النقدى له جانبان : الجانب الأول جدلى نقدى يهدف الى احداث توتر وصراع داخل كل المحددات التقليدية للواقع الاجتماعى ، والى النضال ضد الظروف الاجتماعية والنظم التى تحافظ على هذه المحددات ٠ والجانب الثانى بناء يهدف الى اقامة الظروف الجديدة والنظم الجديدة التى تكون أساسا تحتيا لنظرية جديدة ونقطة البداية فى هذا الطريق هى انشاء تجمعات نظرية جديدة تدور فيها مناقشات حرة رشيدة حول علم الاجتماع والنظرية الاجتماعية ٠

٢ ـ فيما يتعلق بقضية نقد المجتمع اعاد جولدنر تاكيد ما ذهب اليه فيما سبق من أنه لا يفصل بين نقد العلم ونقد المجتمع ٠ فنقد وتجديد علم الاجتماع يعنى نقد واعادة بناء المجتمع ، لأن نقد النظرية يعنى نقد الواقع الذى أفرز هذه النظرية ، ومحاولة تجديدها لا تنفصل عن تجديد هذا الواقع ٠ ولقد دفع ذلك جولدنر الى ان يحدد بكلمات صريحة هدف تشييد النظرية فى علم الاجتماع ٠ « ٠٠ فالغاية النهائية لنظريتنا الاجتماعية وممارستنا العملية هى تحقيق الكمال الانسانى والتحرر الانسانى ، ونحن لا نفهم هذا التحرر على أنه تحرير للعقل فقط ، ولكن تحرير الانسان والعقل على حد سواء »(٤٧) ٠ وهكذا يصبح علم الاجتماع عنده ـ تماما مثلما هو عند رايت ميلز ـ علم انسانى يهدف الى أن يحرر عقل الانسان من أية قوى داخلية أو خارجية ، أو رمزية أو نفسية أو اجتماعية ، بحيث لا يكون فى حياته اى ضرب من ضروب المعاناة ٠ ويتطلب تحقيق هذا الهدف ـ ضمن اشياء أخرى ـ الا ينفصل

---

(٤٦) A. Gouldner, For Sociology, op. cit., pp. 86—127.

(٤٧) Ibid., p. 101.

بين الذات والموضوع ، الا يسير على هدى القضية التقليدية فى علم الاجتماع الاكاديمى والتى تذهب الى ان علم الاجتماع هو لكتشاف المعرفة الصادقة عن العلاقات الانسانية ، والتفاعل الاجتماعى والجماعات الاجتماعية(٤٨) . ذلك ان الباحث هو نفسه جزء من العالم الذى يدرسه ، والمعرفة التى يقدمها ليست اكتشافا ، وانما هى تاكيد او اعادة صياغة لما هو قائم : فى حديث الأفراد ، ولغتهم ، وخبرتهم ، وعملهم .. ان كل ما يقوم به الباحث هو تنظيم واعادة صياغة المفاهيم الموجودة فعلا فى الواقع(٤٩) .

٣ ـ حدد جولدنر ـ فى مواجهة نقاده ـ علاقة علم الاجتماع بالحركة الاجتماعية ، وبالاشتراكية . لقد اعتقد فلاكس أن علم الاجتماع يساهم فى الحركة الاجتماعية ، وخاصة الاشتراكية عن طريقين : عن طريق إمدادها بالمعلومات المختلفة ولجراء البحوث التى لا يمكن أن تخدم غايات الحركة الاجتماعية . ويرى جولدنر أن كلا الطريقين على جانب من الأهمية غير انه يقول « .. لا يمكن أن يصبح علماء الاجتماع بأى حال من الأحوال « باحثى سوق » يساعدون أفراد الحركة الاجتماعية أو الاشتراكيين على أن يعوا أهدافهم التى يودون تحقيقها . وعوضا عن ذلك فاننى اعتقد ان علماء الاجتماع يجب أن يساعدوا الحركة الاجتماعية والاشتراكيين فى التحرر الانسانى . وبقدر سعيهم لتحقيق هذا الهدف يجب أن يعوا المصاعب والمخاطر وجسامة التكاليف والنتائج المضادة التى تفرزها الحركة(٥٠) .

وهكذا يوافق جولدنر على دور عالم الاجتماع فى الحركة الاجتماعية ، بل انه يوحد بين دور البحث ودور الحركة . فاذا كان قد ذهب الى ان

---

(٤٨) أكد فيما سبق أن هذه القضية قد نبعت من تصور دوركايم للعالم الخارجى على انه مجموعة من الأشياء المنفصلة عن ذات الباحث .

(٤٩) يعكس ذلك تأثر جولدنر بالاتجاهات الفينومينولوجية فى علم الاجتماع والتى بدأت على يد الفرد شوتز وبيتر بيرجر ووصلت الى ذروتها فى اتجاه « منهجية الجماعة » (الأثنوميثودولوجى) الذى تزعمه جارفينكل منذ نهاية الستينات .

(٥٠) Ibid., p. 107.

المهمة المنوطة بالباحث فى علم الاجتماع هى تحرر الأفراد من أى معاناة أو أى مظاهر للقهر والتحكم ، فانه هنا يشترط فى الحركة الاجتماعية ـ لكى تستحق تدعيم الباحث الاجتماعى ـ أن تكون لها نفس هذا الغرض التحريرى ٠

٤ ـ حدد جولدنر علاقة النظرية بالأيديولوجية ٠ فالنظرية تعتبر فى أحد جوانبها أيديولوجية ٠ فهى ـ من ناحية ـ تسعى الى أن تتخطى بعض المصالح فى العالم ، وتقدم لغة تعبر عن المصالح التى تدعمها والمصالح التى تتخطاها ٠ ومن الناحية الأخرى فان هذه اللغة تجعل الأفراد قادرين على أن يعوا الاستخدامات الأيديولوجية للغة العادية ، وأن يعوا نوعية المصالح التى تحاول هذه الاستخدامات أن تطمسها وتخفيها ٠ والنظرية بهذا المعنى تقوم بنفس الدور الذى تقوم به الأيديولوجيا فى فهم الواقع وتغييره ٠ ويفرض ذلك على الباحث دورا معينا يحدد التزامه فى المجتمع الذى يعيش فيه ٠ يتحدد هذا الدور فيما يلى :

(أ) يلتزم الباحث ببناء جماعته التى ينتمى اليها . كما يلتزم بأن يخلق الظروف الملائمة للمناقشات الحرة الرشيدة ، التى يستطيع من خلالها ـ بالاشتراك مع زملائه ـ أن يفهموا الواقع الاجتماعى الذى يواجههم.

(ب) يجب أن ينخرط الباحث فى الممارسة السياسية التى تجعله يدخل فى علاقات صراع وتوتر ومقاومة للسلطة القائمة والنظم الثقافية القائمة ، وهذه العلاقات سوف تساعده على تخطى التحديدات التقليدية للواقع الاجتماعى ٠

(جـ) أن يربط نفسه بشريحة اجتماعية محددة ، وأن يسهم فى الحركة الى تحرير الانسان ٠

(د) يجب أن يحكم العلاقة بين الباحثين من ناحية ، والحركات الاجتماعية التى تمثلها هذه الشريحة خاصة اذا كانت هذه الحركة تهدف الاجتماعية او الأحزاب السياسية من ناحية أخرى مبدأ استقلال كل منهما تنظيما ، وأن يكون التعاون فيما بينهما من خلال الالتزام المشترك بالتحرر الانسانى ٠

(هـ) يجب الا يخضع المنظر لنظام حزب سياسى معين او تنظيم سياسى معين اذا كان هـذا التنظيم او ذلك الحزب يفرض رقابة على انتاج الباحث وعمله كمنظر ٠

النـوع الثـانى :

يمثل النقد هنا وجهة النظر الأخرى ، أو رد الفعل المحافظ تجاه حركة التجديد والنقد التى يقودها جولدنر وزملاؤه فى علم الاجتماع الغربى ٠ وقد تمثل رد الفعل هذا فى اصدار عدد كامل من « المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع » لنقد كتاب جولدنر « الأزمة القادمة »(٥١) ٠ وقد تصدى لهذه المهمة جماعة من غلاة المحافظين وعلى راسهم سيمور مارتن ليبست Lipset وايفرت لاد E. Lade وهوارد بيكر H. Becker ورودس وهوروتز Rhoads Horowitz .

★ حاول ليبست ولاد فى مقالهما أن ينفيا ما ذهب اليه جولدنر من ان الاتجاه الوظيفى فى صـورته البارسونزية هو الاتجاه المسـيطر فى علم الاجتماع الأمريكى ٠ كما دافعا عن اتهام بارسونز بانه مرتبط بالاتجاه المحافظ ذاهبين الى أن بارسونز نفسه كان راديكاليا فى شبابه ، واكدوا على الطابع الليبرالى لعلم الاجتماع(٥٢) ٠

★ اما رودس فقد نفى وجود ازمة فى علم الاجتماع ، واتهم جولدنر بانه اساء فهم الوضعية والوظيفية وخاصة الصورة البارسونزية لها(٥٣)٠

---

(٥١) صدر هذا العدد فى يوليو عام ١٩٧٢ ، ويذهب جولدنر الى أن النقد الذى جاء فى هـذا العدد ليس موجها تجاه كتابه فقط ، وانما يمثل رد فعل علم الاجتماع الغربى الاكاديمى تجاه علم الاجتماع الراديكالى النقدى ٠ فلم يكن عددا تقليديا وانما كرست جهود كبيرة لاخراجه بحيث دعا بوتومور لكتابة التعليق على المقالات للتظاهر بالموضوعية وذلك لكى يصرفوا الأفراد والتجمعات العلمية عن الاهتمام بعلم الاجتماع الراديكالى ٠ **انظر كتاب جولدنر « من أجل علم الاجتماع » السابق الاشارة اليه ، ص ١٢٩ ٠**

(٥٢) S.M. Lipset and E.C. Lade, Jr, "The Politics of American Sociologist," A.J.S. Vol. 78. No. 1, July 1972, pp. 136—155.

(٥٣) J. Rhoads, "Gouldner's Coming Crisis of Western Sociology." A.J.S. Vol. 78. No. 1, July 1972, pp. 136—155.

★ اما بيكر وهوروتز فانهما اتهما جولدنر بانصرافه عن نقد المجتمع الى نقد النظرية(٥٤) ٠

وقد اعتبر جولدنر ان مقال بيكر وهوروتز هو افضل هذه المقالات واكثرها موضوعية ، ودافع عن آرائه أمام الهجوم المقصود من جانب هؤلاء الكتاب المحافظين ، واعتبره دليلا على الارتباط الوثيق بين علم الاجتماع وبين الدولة ومؤسساتها ٠ ولن نورد هنا دفاع جولدنر وسوف نكتفى بهذه العبارة التى جاءت فى نهاية هذا الدفاع حيث كتب يقول « ٠٠ لا يتعرض المرء على الميول السياسية لهؤلاء النقاد او نزعتهم المؤسسية establishmentarianism فقط ، وانما يعترض وبشدة على نوعية التفكير الذى يكشف عنه ، وعلى عجزهم عن مواجهة التعقيد الفكرى ، فتفكيرهم لا يكشف عن أى قدر من الشفافية sensitivity او القوة الفكرية ٠ كما يعترض المرء ايضا على مستوى جدلهم الذى لا يرتفع عن مستوى كتب المدخل ٠٠ ان نوعية تفكيرنا وليست ميولنا السياسية هى التى تضعنا على حافة الهاوية العميقة »(٥٥) ٠

خاتمة :

من هذا العرض لأهم اسهامات جولدنر فى النقد السوسيولوجى ، وموقفه فى مواجهة نقاده ، يتضح لنا مدى الحماس الذى يقود به جولدنر حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع ، تلك الحركة التى تستهدف ـ فى نظره ـ احداث تناقضات وصراعات فى التراث القديم والأساس التحتى الذى يقوم عليه هذا التراث من أجل الوصول الى اساس تحتى جديد تقوم عليه نظرية جديدة ٠ فجولدنر هنا يستشف تلك العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع ٠ فالواقع بما يحويه من نظم وقيم ، وما يخلفه من تيارات أيديولوجية ينعكس فى البناء الشخصى للأفراد ٠ والمنظرون ما هم الا مجموعة من الأفراد يعكسون فى نظرياتهم ما استقر فى بناء شخصياتهم

---

(٥٤) H. Becker and A.L. Horowitz. "Radical Politics and Sociological Research; Observation on Methodology and Ideology," A.J.S., Vol. 78. No. 1, July 1972, pp. 48—69.

(٥٥) A. Gouldner, For Sociology,op. cit., p. 168.

من قيم وايديولوجيات ، وما ارتبط بهذا البناء من اهتمامات شخصية · ومع التسليم بهذه القضية فان النظم والمؤسسات والأيديولوجية السائدة فى المجتمعات الغربية تفرض على المنظرين ان تتجه نظرياتهم وجهة نظر معينة ، وان تبتعد عن وجهات النظر الأخرى · وقد ادى هذا الوضع بعلم الاجتماع الى الوقوع ـ أو قرب الوقوع ـ فى ازمة : فالعلم الذى من المفروض أن يساهم فى تحرير الانسان بدأ يتجه نحو الاستخدام السيىء فى استغلال الانسان وكبحه ، ومن هنا بدأ يرتبط بالدولة ، ويخلق من نفسه فلسفة للمجتمع الرأسمالى المحافظ ·

ولتخطى ازمة العلم لا بد من تغيير النظرية القائمة · وتغييرها لا ينفصل عن تغير بنائها التحتى · بل ان تغيير هذا البناء التحتى يعد مستلزما أساسيا لتغيير النظرية · ولتحقيق هذا الهدف لا بد من حركة نقدية تتجه أساسا نحو البناء التحتى للنظرية لتفقد من خلاله زيف البناء الفوقى لها · والوسيلة الى هذا النوع من النقد الهادف تكمن فى أن يحقق الباحثون قدرا من « الانعكاسية » فى ا لتفكير والسلوك ، بمعنى انهم من خلال ادراكهم بأن النظرية ما هى الا انعكاس للواقع الشخصى الفرد ، يجب أن يتمعنوا فى انفسهم وان يدركوا نوعية القوى التى تؤثر فيهم وتجعلهم يسيرون فى خط نظرى دون الآخر · لا بد لهم أن يعكسوا ذواتهم أو يواجهوها مواجهة حقيقية ، وذلك من اجل اكتساب قدر من الوعى بالذات يجعل للباحث قادرا على أن ينقى ذاته من القوى الخارجية المسيطرة وان يسير بالعلم نحو وجهته الصحيحة ، واعنى نحو تحرير الانسان من ظلم الواقع ومظاهر المعاناة الكامنة فيه ·

وعندما يكتسب الأفراد هذا الوعى ، فانه يكون نقطة البداية على طريق تغيير البناء التحتى للنظرية · فسوف يسعى هؤلاء الأفراد الى انشاء نظم اكاديمية جديدة ، وتقاليد اكاديمية جديدة ، ومؤسسات علمية جديدة ، بل ان المجتمع برمته سوف تجتاحه موجات متلاحقة من التغير تمس بناءه كله · وفى هذه الحالة يمكن ان نتوصل الى نظرية شاملة وحقيقية عن المجتمع · فنقد النظرية لا ينفصل عن نقد المجتمع ، وتغييرها لا ينفصل عن تغيير المجتمع · ويدعو جولدنر ـ كخطوة نحو اكتساب هذا الوعى ـ يدعو العلماء الى تكوين تجمعات نظرية يديرون فيها حوارا رشيدا يواجهون فيه

انفسهم بحقائق موقفهم • ان جولدنر هنا يدعو الى احداث « ثورة ثقافية » ـ لذا جاز لنا ان نستعير من دنيا السياسة ـ فى علم الاجتماع تنتهى بمجموعة محددة من المقولات والقيم يلتزم بها الجميع •

فليس معنى اكتساب هذا الوعى أن يصبح الباحث متحررا من القيم فاصلا نفسه عن موضوع دراسته • فضلا عن انه جزء من هذا الموضوع ، فلا بد أن يلتزم بمجموعة من القيم تهدف الى تحرير الانسان فى المجتمع ، وأن يربط نفسه بأى جماعة وأى ايديولوجية ، أو أى تنظيم سياسى يتوخى فيه نفس الهدف • ان علم الاجتماع من خلال هذا المنطلق يعتبر علما انسانيا بالدرجة الأولى يهدف الى تحقيق حياة أفضل لا يشعر الانسان فيها بأى قهر أو استغلال • وتثار هنا مشكلة الموضوعية • اذ كيف يستطيع المرء أن يحقق دراسة موضوعية من خلال هذا الالتزام • حدد جولدنر مجموعة من المعايير التى يمكن فى ضوئها تحقيق هذه الموضوعية •

هكذا تمثل آراء جولدنر نظرية نقدية متكاملة تضع برنامجا لتجديد علم الاجتماع واعادة صياغته على أسس جديدة • والحقيقة أننا نتوقع من جولدنر مزيدا من الاستمرار فى هـذه الحركة ، ونتوقع منه أن يقوم فى فترة من حياته ـ وبعد أن يحس أن البناء التحتى للنظرية قد حقق شوطا كبيرا فى طريق التغير ـ أن يقدم بديلا نظريا • ومن المتوقع أن يكون هذا البديل النظرى تنمية وتطويرا للجوانب الثورية الليبرالية فى علم الاجتماع • هل سـيبذل جهدا لتطوير هذه الجوانب وابرازها فى ضـوء نظرية متكاملة ؟ الاجابة على هذا السؤال ما تزال فى احضان المستقبل •

الفصل التاسع

حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع

امتدادات رايت ميلز فى التراث المعاصر

مقـــــدمة :

ذكرت فى الفصل السادس أن جيل النقاد فى علم الاجتماع والذى ظهر على السطح بشـــدة ، بعد تراكم للصراعات البنائية والفكرية فى المجتمعات الأوروبية منذ بداية الخمســينات قد جاء جيلا مميزا • جيلا ليس من جيل الشـباب الذى فجر الصراع ، وانما من جيل أكبر سنا ، لكنه يمتلك وعيا كبيرا بحركة التاريخ ، ويدرك طبيعة الصراعات والتوترات التى يكشف عنها المجتمع ، ويؤمن ايمانا راسخا بضرورة تغييره ، ولقد راينا فى الفصل السابع الصورة المبكرة لهذا الجيل والتى الهمت كل من تحدث فى النقـد الاجتماعى أو السوسيولوجى بعد ذلك . كما تمثلت فى آراء تشـارلز رايت ميلز النقدية • وذكرت فى نهاية هذا الفصل أن الاتجاهات النقدية قد سارت فى خطين متوازيين هما نفس الخطين اللذين طورهما رايت ميلز ، واعنى النقد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى • وكلاهما يرتبط بحركة التجديد والنقد فى علم الاجتمـاع التى ظهرت الحاجة اليهـا ممن تصـــادمه مع واقع عجز عجز تفســيره •

ولقد تزعم الفن جولدنر الخط الأول (النقد السوسيولوجى) ، ولقـد راينا فى الفصـل السابق كيف يقود جولدنر حركة تجـديد ونقد التراث السوسيولوجى وفق نظريته النقدية ، وكنف يمثل هذا النقد سعيا مستمرا نحو التوصل الى بديل نظرى يكون له من الكفاءة والشمول ما يجعله قادرا على الاحاطة بكل عناصر الواقع الاجتماعى وصـفا وتفسيرا • ورغم أن نظرية جولدنر تكشف ـ مع عدم اعترافه بذلك ـ عن أوجه شبه بينها وبين النظرية النقدية المبكرة لرايت ميلز ، الا أن تأثير رايت ميلز كان أوضـح

ما يكون على الذين ساروا فى الخط الثانى ، واعنى تطوير نظرية للنقد الاجتماعى • فسوف نرى من خلال عرض آرائهم انها تعد امتدادات حقيقية لآراء رايت ميلز فى التراث المعاصر ، مع تسليمنا بالطبع بانها تمثل وجها آخر لحركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع • ولكن لماذا نقول انها امتدادات لآراء رايت ميلز ؟ الحقيقة أن هذه الآراء تتخذ مسالك متباينة الى حد ما فبعضها يسعى الى صياغة نظرية نقدية عن المجتمع من خلال تاريخ وتفنيد للنظريات النقدية ، وبعضها تجه مباشرة الى نقد الواقع ، وبعضها الآخر يجمع بين الميزتين وهو اكثر الأنواع قربا لرايت ميلز • ولكن هذه المسالك المتباينة تلتقى كلها حول نقطتين :

الأولى : محاولة تطوير نظرية نقدية للمجتمع اكمالا لنفس الطريق الذى سار فيه رايت ميلز •

الثانية : ان اى مسلك من هذه المسالك كان موجودا بطريقة أو باخرى فى آراء رايت ميلز ، رغم أن أيا منها لا يعد صورة مطابقة للصورة المتكاملة التى قدمها رايت ميلز •

ولن يستغ هذا الفصل لعرض مختلف الاتجاهات والآراء التى تاثرت بميلز فى سعيها نحو الوصول الى نظرية نقدية للمجتمع ، فمثل هذا العرض سوف يكون عرضا سريعا تعوزه الدقة ، ولذلك فاننا سوف نختار اثنين من العلماء الذين تكشف آراؤهم ـ خاصة الجديدة منها ـ عن تاثير واضح برايت ميلز ، ووقع الاختيار فى هذا الصدد على كل من توم بوتومور وجون ركس • ولقد حسم عملية الاختيار عاملان هامان : العامل الأول : هو ان آراء كليهما لم تتبلور الا حديثا جدا وبعد عام ١٩٧٤ ، حقيقة ان التاريخ العلمى لكل منهما يكشف عن تميز واستقلال فى وجهة النظر ، ولكن هذا التميز وهذا الاستقلال ازدادا وضوحا وتحولا الى تميز واضح للاتجاه النقدى فى مؤلفاتهما الأخيرة(١) • ولا شك ان هذا التحول كان استجابة

---

(١) أصدر بوتومور عام ١٩٧٥ كتابا بعنوان « علم الاجتماع كنقد اجتماعى » واصدر جون ركس عام ١٩٧٣ كتابا بعنوان « استكشاف علم الاجتماع » الحقه بكتاب آخر عام ١٩٧٤ بعنوان « علم الاجتماع وتحرير العالم الحديث » انظر :

=

طبيعية لتراكم الصراعات البنائية والفكرية التى بلغت ذروتها فى تمرد الشباب عام ١٩٦٨ • وسوف يتضح لنا من خلال عرض آرائهما انهما يوليان اهمية لهذه الحركة ، وانهما يعتبرانها بداية سلسلة طويلة من التغيرات فى المجتمعات الغربية(٢) • والعامل الثانى : أن كلا منهما ينتمى الى بريطانيا ـ أكثر المجتمعات الأوروبية محافظة واقلها اهتماما بالفكر النقدى • ويدل ذلك على عمق وشمول التغيرات التى يخبرها المجتمع الغربى والعلم الغربى على حد سواء • واذا كان التركيز على هذين العالمين سوف يحقق ميزة الدقة فى العرض فاننا لا نود أن تفوتنا ايضا ميزة الشمول •

ولذلك فاننا سوف نبدأ هذا الفصل باعطاء صورة عامة عن الاتجاهات الأساسية فى حركة التجديد والنقد من خلال النقد الاجتماعى • وبذلك نكون قد تغلبنا على المشكلة وفى نفس الوقت حققنا هدفى الدقة والشمول • ومن ثم فان هذا الفصل سوف يضم ثلاثة عناصر اساسية يبدأ باعطاء صورة عامة عن حركة النقد الاجتماعى الحديثة فى كل من فرنسا والمانيا وامريكا ، ثم يستعرض الاتجاه النقدى عند كل من توم بوتومور وجون ركس •

اولا ـ الاتجاهات الأساسية فى حركة النقد الاجتماعى :

اكدنا فيما سبق أن رايت ميلز قد طور ـ ضمن نظريته النقدية ـ اتجاها جديدا فى نقد المجتمع ، واصبح رائدا لهذا الاتجاه فى علم الاجتماع المعاصر(٣) • ولقد تزايد الاهتمام بنقد المجتمع مع تزايد التصادم بين الواقع المحافظ القديم وبين البناء الجديد الذى جسدته الحركات الاجتماعية

=

T. B. Bottomore, Sociology as Social Criticism, Unwin University Books, London 1975.

J. Rex, Discovering Sociology, op. cit.

J. Rex, Sociology and the Demystification of Modern World, Routledge and Kegan, London, 1974.

(٢) ويؤكد ذلك ما ذهبنا اليه آنفا من أن تصادم هذه الصراعات البنائية والفكرية مع ارض الواقع هو الذى افرز الاتجاهات النقدية •

(٣) عاصر رايت ميلز بعض نقاد المجتمع من امثال ريسمان وجالبراث ، ولكن آراءهم لم تكن بشمول وتحدد آراء رايت ميلز •

وما ارتبط بهـا من اتجاهات فكرية ، ومع تزايد فشـل المجتمع والعلم فى استتيعاب هذه الصراعات او ايجاد حل لها • ولا شك أن هذا الفشل يرجع اساسا فى ان الممارسة السياسية والنشاط الاقتصادى داخل هذا المجتمع يتخذان مسارا معينا يحجب جانبا كبيرا من حرية الفرد ، ويفرض عليه ضروبا كثيرة من الاستغلال والقهر • وينسحب هذا الوصف على المجتمعات الصناعية ـ أو ما بعد الصناعية اذا شئنا وصفا دقيقا ـ بصفة عامة بصرف النظر عن الأيديولوجية التى تسود فيها • ومع تفاقم هذه المشكلات ازداد الاتجاه نحو نقد المجتمع من أجل تغييره ، بعضهم يوجه نقده مباشرة نحو المجتمع ، وبعضهم يسعى الى بلورة نظرية نقدية للمجتمع وسوف نعرض وبسرعة فيما يلى لبعض هذه الاتجاهات • واذا كنا سنركز فيما بعد على بوتومور وركس وهما بريطانيان ، فيهمنا هنا أن نلتمس بعض خيوط الحركة النقدية فى امريكا والمـانيا وفرنسا(٤) •

١ ـ النقد الاجتماعى فى امريكا :

لم يظهر النقد الاجتماعى فى الولايات المتحدة بنفس حدته فى أوروبا الغربية وذلك لسببين رئيسيين : الأول : هو عدم ارتباط النقد الاجتماعى بالحركات الاجتماعية فى الولايات المتحدة ، ورغم أن هـذه الحركات كانت عنيفة أحيانا ، الا انها لم تصل أبدا الى الدرجة التى ظهرت بها فى أوروبا الغربية خاصة فرنسـا • والثانى : هو عدم التأثر بالفكر المـاركسى الذى لم ينتشر فى الولايات المتحدة بنفس انتشاره فى أوروبا • ولكن رغم هـذا فان حركة النقد الاجتماعى التى بداها رايت ميلز قد اسـتمرت من خلال المتأثرين به وعلى رأسهم نورمان بيرنبوم Norman Birnbaum .

---

(٤) ترتبط فكرة مجتمع ما بعد الصناعة بفكرة نهاية الأيديولوجيا من حيث أن مجتمع ما بعد الصناعة فى نظر المروجين للفكرة هو مجتمع يختفى فيه الصراع الطبقى الذى يؤدى الى أن تقضى طبقة على طبقة أخرى ويحل محله المنافسة السلمية • ولكن سوف نرى أن بعض نقـاد المجتمع سـوف يوافقون على هـذه الفكرة ولكنهم لا يوافقون عليها من منطلق تسليمهم بنهاية الأيديولوجيا ، وانما من منطلق نقدى مؤداه أن بناء المجتمعـات الصـناعية يتصف بمجموعة مشـتركة من الخصـائص تفرض على الفرد الكثير من القيود ، وتستوجب التغيير السريع •

أصـــدر بيرنبوم فى عام ١٩٦٩ كتـابا بعنـوان « ازمـة المجتمع الصناعى »(٥) ، قدم فيه دراسة نقدية لبناء المجتمع الصناعى ، الذى كان يقصد به دول غرب أوروبا وامريكا • حيث يستقى مادة دراسته من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والمانيا ، ويعتقد بيرنبوم أن هذا المجتمع الصناعى يمر بأزمة يكمن سببها فى عناصر بنائه الاجتماعى ذاتها • واهم هـذه العناصر هى : التركيب الطبقى ، وبناء القوة ، والثقافة •

فبالنسبة للتركيب الطبقى : يرفض بيرنبوم المقولة الراسمالية التى تقول : بأن العـداء القديم بين الطبقات الاجتماعية قـد مضى وحلت محلة صورة من التعاون ، ويرى فى مقابل ذلك أن الاسـتغلال والسـيطرة من جانب الطبقات العليا للطبقة العاملة لم تخف حدتها كثيرا • وقد انطلق من ذلك ليحدد أهم ملامح الوضع الطبقى فى المجتمع الغربى الراسمالى • فاشار الى ظهور جماعات الصفوة الجديدة New elites التى تتكون من مديرى المشروعات الصناعية ومديرى القطاع العام والمهنيين المستثمرين ، واهم ما يميز هؤلاء ليس امتلاك الثروة ، وانما التحكم فيها ، وليس احتكار السياسة بل القدرة على توجيهها • ويقابل هذه الصورة فئة الاداريين والفنيين وموظفى الخدمات وهى فئة تخضع للصفوة الجديدة ، والتعليم هو وسيلتها للحراك فى سلم التدرج الطبقى • واشـار الى ظهور الطبقـة الوسطى الجديدة ، ويقابلها طبقـة العمال الجـديدة التى تميل ـ بفضل استقرار العمالة ونظام الضمان الاجتماعى ـ الى اكتساب كثير من ملامح الطبقة الوسطى • وفيما يتعلق بعلاقة الصفوة الجديدة بالطبقات الأخرى ، اوضح بيرنبوم أن هذه الصفوة لم تنشأ من خلال اكتساب ، بقدر ما نشأت من خلال الوراثة ، وانها تملك الثروة وادراتها ، والقدرة على التحكم فيها فى ذات الوقت • ومن ثم ظهر التفـاوت الشـاسع بينهـا وبين غيرها من الطبقات • اما فيما يتعلق بالطبقة الوسـطى فقد اوضح : ان الفروق فى

---

(٥) N. Birnbaum, The Crisis of Industrial Society, Oxford University Press, N.Y., 1969.

وقد اعتمدت هنا على عرض مفصل لهذا الكتاب من المصدر التالى : عزت حجازى (عرض وتحليل) ـ ازمة المجتمع الصناعى ، مجلة عالم الفكر ، العدد الثالث ، المجلد الثانى ، ١٩٧١ •

الثروة والسلطة والجاه بينها وبين الطبقة العاملة ترجع اساسا الى فروق في فرص الحياة وفرص الترقى • ولا شك ان هـذا التركيب يكشف عن تفاوت كبير في الدخل وفرص الحياة • ويؤدى بدوره الى أن تمارس الطبقات العليا استغلالا على الطبقات الدنيا • وان تحرم تلك الأخيرة من الكثير من فرص الحياة ، ويعد ذلك أحد جوانب أزمة المجتمع الصناعى •

أما بالنسبة لبناء القوة : فقد ذهب بيرنبوم الى أن تاريخ المجتمع الصناعى ليس هو تاريخ اتساع نطاق الحريات ، وانما صاحبه تسلط واضح من قبل الدولة والطبقات التى تملك السلطة ، وأصبحت الدولة جهازا في يد الطبقة التى تملك • ورغم ما مر بالمجتمعات الصناعية من تغيرات ، الا ان اساس السلطة في الدولة لم يتغير كثيرا ، حيث تقوم هـذه السلطة في الكثير من الأحيان على القوة والعنف • ويستشهد بيرنبوم على رايه هـذا من خلال توضـيح دور الحروب في الداخل والخارج في تدعيم النظام العام ، ومن خلال ابراز دور بعض النظم التسـلطية (الفاشـية والنازية) في ذلك ، فضلا عن أن نظامى التمثيل السياسى وحق الانتخاب لم يضمنا مشاركة المواطن العادى في الحكم ذلك المواطن الذى تتحكم فيه وسائل الاعلام ، واجهزة الضبط الاجتماعى • وهاجم بيرنبوم فكرة « نهاية الأيديولوجيا » التى روج لها دانيال بل ، وفكرة « الهندسة الاجتماعية » التى روج لها كارل يوبر ذاهبا الى ان رجل السياسة لا يمكن أن يصدر من تصرفاته الا عن ايديولوجية ، وان ظهور فكرة التكنوقراطيين لا يعنى أن السياسة أصبحت فارغة من الأيديولوجية ، كما أن ظهور ثورة الشباب لهى دليل على اسـتمرار التفكير الأيديولوجى •

كما هاجم ارتباط سلوك الدولة بمصالح الطبقة المتسـلطة ، حيث تضحى بالشباب وبرفاهية الطبقة المحرومة في سـبيل تحقيق اهـداف المؤسسة العسكرية التى تتفق ومصالح الطبقة الرأسمالية • ويرى بيرنبوم أن المجتمعات الاشتراكية لم تستطع التغلب على هـذه المثالب حيث أدى الغاء الملكية الخاصة بها الى ظهور ملكية الدول وظهرت بيروقراطية الحزب والدولة محل طبقة الرأسمالية ، ومن ثم فشلت هـذه الدول في تحقيق مجتمع لا طبقى ، فهى ليست اقل طبقية من المجتمعات الرأسمالية ، ولا تخلو

من استعمال القمع والعنف فى فرض السلطة • ويعد هذا التحكم فى بناء القوة من جانب فئة قليلة فى المجتمعات الصناعية أو حرمان الطبقات الدنيا منها ، وبالتالى كبحها والسيطرة عليها ، الوجه الآخر ـ الثانى لأزمة المجتمع الصناعى •

أما بالنسبة للثقافة : فقد هاجم بيرنبوم الثقافة البرجوازية التى تقوم على فكرة « الانسان الصانع » Homo Feber حيث تسيطر جماعة متميزة على السوق تكافح ضد الفئات الأدنى للاحتفاظ باعتباراتها • ومن هذ ارتبطت الثقافة باعتبارها عنصرا فى البناء الفوقى بالوضع الاقتصادى ، باعتبار البناء التحتى ، كما غلب عليها الطابع الصناعى بحيث شاعت داخلها قيم وانماط سلوكية وتنظيمات مستقاة من عمل الآلة نفسها • وينتقل بيرنبوم الى مناقشة مشكلة الجامعة باعتبارها احد قنوات نقل الثقافة الى ان الجامعة انحرفت عن مهمتها الأساسية فى خدمة العقل ، واتجهت الى حماية مصالح الطبقة المتسلطة وتبنت نظرتها الى العالم • وهذا هو الذى أدى الى تفجير ثورة الطلبة على نظام الجامعة • فالثقافة فى المجتمع الصناعى تتركز فى نوع واحد من الثقافة هى ثقافة الطبقة الراقية وتفصلها عن ثقافة الجماهير ، وتفرضها على تلك الأخيرة بطرق وأساليب صناعية بحيث تصنع هى الانسان بدلا من أن يساهم فى صنعها اسهاما خلاقا •

ويوضح هذا التصور لأزمة المجتمع الصناعى فى نظر بيرنبوم تاثره الشديد برايت ميلز ، فآراؤه تقترب من آراء ميلز عن صفوة القوة ، حيث ركز اهتمامه على دور الصفوة التى تتحكم فى بناء القوة ، وفى الثقافة وأساليب نقلها • وللفرق بين ميلز وبيرنبوم فى تصور ازمة المجتمع الصناعى ، هو انطلاق ميلز من موقف ملتزم افصح عنه صراحة ، فلم تكشف آراء بيرنبوم ـ فى هذه المرحلة من تفكيره ـ عن التزام باى ايديولوجية او تبنى لأى مجموعة من القيم على غرار ما فعل ميلز • وربما لتقترب بيرنبوم كثيرا من موقف الالتزام فى مؤلف حديث له(٦) ، حيث قدم تحليلا نقديا

---

(٦) N. Birnbaum, Toward a Critical Sociology, N.Y., 1971.

للتغيرات التى طرات على المجتمع الصناعى ، والمحاولات التى تمت لفهم هـذه التغيرات • ورغم نقده للماركسية لفشلها فى تحليل القوة السياسية الا فى ضوء موقف الطبقات الاجتماعية ، واهمالها للتغيرات الثقافية وآثارها على الحياة السياسية ، ورغم نقده للصياغات الجديدة التى قدمها بعض المـاركسيين المحدثين للماركسية ، الا أنه اعتبر المـاركسية نظرية نقدية ولم ينكر تأثره بها • وليس ادل على ذلك من انه ركز على تركيز الملكية الخاصة فى جماعة الصفوة ، وذلك ليرفض الفكرة الذاهبة الى أنه ليس هناك صفوة مالكة وانما هى صفوة تكنوقراطية ، مع عدم انكاره أن هـذه الصفوة التكنوقراطية لا تعـد من الظواهر الهامة فى المجتمعات •

٢ ـ النقـد الاجتمـاعى فى فرنسـا :

أما فى فرنسـا فقد تفـاعل نقاد المجتمع تفـاعلا كبيرا مع الحركة الاجتماعية للطلاب ومع الاتجاهات الاشتراكية السياسية والفكرية المنتشرة فى فرنسـا وجاءت أفكارهم مختلطـة الى حد كبير بأفكار جيل الثوار من الشباب ورد فعل لها فى ذات الوقت ، كما أن نقدهم كان مرتبطا بجهودهم فى تطوير نظرية نقدية عن المجتمع ، وخير ممثل لاتجاه النقد الاجتماعى فى فرنسـا هو آلان تورين A. Tourain ، ففى مقالة عن « حركة الطلبة فى فرنسا »(٧) • ربط تورين بين تفجر الطلبة وبين رؤيته النقدية للمجتمع ، فثورة الطلبة والمثقفين ترجع أساسا الى أن نشاطهم وموقعهم المهنى قـد وضعهم أمام نظـام أولى القوة القـائم على السـيطرة والتحكم الخفى • فالقوة فى المجتمع الصـناعى الجديد لم تعد ترتبط بالاستغلال الاقتصادى ، وانما أصبحت بناء اداريا قائما على الضـبط والتحكم ، تمارسـه دولة متسلطة ، تتحكم فى التعليم والدعاية وأساليب الاستثمار بمشاركة مركب غامض من الشركات الكبرى ، وكلاهما يوجه التعليم والبحث العلمى نحو خدمة اغراضه السياسية أو قراراته الاقتصادية • ويعتقد تورين أن هذه

---

(٧) A. Tourain, "The French Student Movement May 1968," in A. Pizzorno (ed.), Political Sociology, op. cit.,
والمقال مأخوذ من كتاب تورين بعنوان « حركة مايو » الذى نشر فى فرنسا عام ١٩٦٨ وترجم الى الانجليزية عام ١٩٧١ انظر :
A. Tourain, The May Movement, Trans. by L. Mayhew, Random House, 1971.

للخصائص التى يتميز بهـا المجتمع الصـناعى تجعله مجتمعا مميزا عن المجتمع الصناعى القديم (مجتمع القرن التاسع عشر) ، وهى خصائص تنسحب على كل المجتمعات الصناعية بصفة عامة ٠

ولقد اتضحت أفكار تورين عن « مجتمع ما بعد الصـناعة فى مؤلف حديث له بهذا العنوان(٨) ، حيث أوضح أن هناك نمطا جديدا للمجتمع آخذا فى التشكل والظهور ، انه مجتمع ما بعد الصناعة أو المجتمع التكنوقراطى المبرمج ٠ ويغزو ـ والحديث ما يزال لتورين ـ مجتمع ما بعد الصناعة ضروبا جديدة من الصراع تنشأ عن ضروب جديدة من الاستغلال ٠ فاذا كان الصراع فى المجتمع الصناعى القديم قد انحصر بين العمل ورأس المـال ، فان الصراع فى مجتمع ما بعد الصناعة ينشأ بين الذين يتحكمون فى اصـدار القرارات السياسية والاقتصادية ، وبين أولئك الذين يعيشون فى حالة من المشاركة المغلوبة على أمرها dependent participation ، وهى حالة من الاغتراب توجد عندما تضلل الطبقة الحاكمة الجماهير وتتحكم فيها وتفرض عليها الامتثال لقراراتها ٠ فالاستغلال هنا ليس استغلالا اقتصاديا وانمـا استغلال سياسى ثقافى بالدرجة الأولى ، وتنشأ الثورة على هذا الاستغلال من رغبة الطبقة المغلوبة على أمرها فى أن تكسر هـذه الحالة وأن تكتسب قدرا من الاسـتقلال ٠ ويفسر تورين ظهـور الحركات الاجتمـاعية ، فى المجتمعات الغربية على أنها تعبير عن هـذه الرغبة فى التحر ٠ وكان عليه أن يقدم تفسيرا لتركز هـذه الحركات بين جماعات الشباب والمثقفين ٠ لن ذلك يرتبط ـ فى رأيه ـ بطابع المجتمع الصناعى الجـديد الذى لا يتخذ الاستغلال داخله الشكل الاقتصادى ، وانما يتخذ الشكل السياسى الثقافى الاقتصادى ، والذى وصلت فيه الطبقـة العـاملة الى درجة من الانضباط

---

(٨) A. Tourain, The Post-Industrial Society, N.Y., 1971.

ولقد ذكرنا آنفا أن رؤية الراديكاليين ونقاد المجتمع لمجتمع ما بعد الصناعة تختلف عن رؤية أصحاب فكرة نهاية الأيديولوجيا (بل ـ ليبست ـ شيلز) ، ففى الوقت الذى ينظر فيه هؤلاء الى مجتمع ما بعد الصناعة على انه مجتمع تغلب على جميع مشكلاته ، واختفت فيه حدة الصراع الطبقى ، يرى الراديكاليون أن مجتمع ما بعد الصناعة هو مجتمع ذو خصائص معينة ، وتظهر داخله أنواع معينة من الصراع تقودها جماعات غير تلك التى كانت موجودة فى المجتمع القديم ٠

والتنظيم تمنعها من ممارسة دورها التاريخى · ومن ثم كان لا بد ان تظهر الحركات الاجتماعية بين « ·· الجماعات المتقدمة اقتصاديا ، وبين اجهزة البحث ، والفنيين من اصحاب المهارات لا السلطة ، وفى جميع الجامعة بطبيعة الحال »(٩) ·

ولكن ما هو دور علم الاجتماع فى مثل هذا النمط من المجتمعات ، وفى وجود هذه الضروب الجديدة من الصراعات ؟ ترتبط اجابة هذا السؤال بمحاولة تورين تطوير نظرية للمجتمع · انه يرى ان هذه الظروف الجديدة سوف تفرز علم اجتماع نقدى يقف فى مواجهة العلم فى صورته القديمة المرتبطة بمصالح الدولة · يطلق تورين على صورة للعلم المرتبطة بالدولة علم لجتماع القرار Sociology of decision وهو الذى يهتم بتحقيق التكيف ، والتوفيق بين الجماعات المتنازعة وضبط التوترات الاجتماعية ، بحيث يصبح علماء الاجتماع خبراء يساعدون فى اصدار القرار السياسى الاقتصادى · اما العلم الجديد الذى يقف فى مواجهة هذا العلم القديم فيطلق عليه تورين « علم اجتماع المعارضة Sociology of opposition وهو العلم الذى يربط نفسه بالحركات الاجتماعية التى تصارع البناء القديم ويدافع عنها ويتبنى افكارها واهدافها ويسعى الى كشف الحقائق ، ومن خلال الصراع بين هذين العلمين تنكشف الكثير من الحقائق ، ويحقق الأفراد قدرا من الحرية ، وتكشف وجهة نظر تورين هذه عن وعى بحقيقتين على جانب من الأهمية : الأولى : وعيه بسيطرة الاتجاه القديم فى علم الاجتماع ، الذى يرتبط بمصالح الدولة وكذلك سيطرة وقوة الظروف التى نشأ من خلالها · ومن ثم فلا يدعو الى القضاء عليه ، وانما يدعو الى ان يتبنى البناء الجديد الذى يحاول أن يقضى على البناء القديم ويغيره ، علما معارضا للعلم القديم بحيث تتضح حقائق الوجود من قدرة العلم الجديد على النضال والمعارضة · والثانية : وعيه بضرورة التزام الباحث فى علم الاجتماع ، ومن خلال هذا الالتزام تقع عليه تبعة نقد المجتمع القائم ، والكشف عن اساليب الاستغلال والسيطرة الكامنة فى بنائه · ولكن رغم هذا ـ فان راى تورين يثير بعض التساؤلات : ما الفرق بين علم الاجتماع والممارسة

---

(٩) Ibid., p. 18.

السياسية ؟ وهل يمكن أن يتغلب احد علمى الاجتماع على الآخر مثلما يتغلب حزب على الآخر ؟ والسبب الرئيسى وراء هذه التساؤلات هو أن راى تورين يوحى بأنه يرغب فى أن يدمج علم الاجتماع فى الممارسة السياسية ويصبح الباحث الاجتماعى رجل سياسة قبل أن يكون رجل اجتماع ، كما يوحى أيضا بامكانية تغلب علم على الآخر ، وخاصة تغلب « علم المعارضة » على « علم القرار » ، غير أن ذلك الأمر مرهون بامتداد نطاق الحركات الاجتماعية لتشمل جماعات أخرى ومجتمعات أخرى .

٣ ـ النقد الاجتماعى فى المانيا :

أما فى المانيا فقد تطورت نظريه نقدية منتظمة داخل مدرسة فرانكفورت ومنذ وقت مبكر من هذا القرن . وقد اعتبر علماء وفلاسفة مدرسة فرانكفورت اعمالهم النظرية جزءا من النضال الثورى ضد الراسمالية ، وكان الموضوع الرئيسى لنقدهم ـ تماما مثلما هو الحال عند ماركس ـ هو الاقتصاد السياسى ، بمعنى أنهم كرسوا جهودهم لتحليل التناقضات الاقتصادية للراسمالية والتى يمكن أن تفتح ـ عند تفجيرها ـ طريقا نحو الاشتراكية . ومن أبرز رواد هذه النظرية النقدية المبكرة داخل مدرسة وتيودور آدورنو M. Horkheimer فرانكفورت ماكس هوركهايمر Adorno وجيرجن هابرماس J. Habermas .

ولكن مع التغيرات التى طرات على المجتمع الراسمالى ، وما ارتبط بهذه التغيرات من صراعات جديدة ، وقوى جديدة تحول اهتمام نقاد فرانكفورت من التركيز على التناقضات الاقتصادية الى نقد النظم السياسية والثقافية للراسمالية الحديثة . واتضح هذا التحول فى آراء البرشت فيلمر Albrecht Wellmer التى ظهرت فى كتابه « النظرية النقدية للمجتمع »(١٠) حيث ذهب الى أن مفهوم ماركس عن الطبقة الاجتماعية قد فقد فائدته كاداة تحليلية ، ومن ثم فانه لا يمكن أن يعبر الفكر النقدى عن نفسه من خلال اعتماده (أو تعبيره) عن فكرة الصراع الطبقى ، وبناء على ذلك يطالب بنظرية نقدية ترتبط بالعلم وترتبط بالجامعة ، من حيث أن العلم

---

(١٠) Albrecht Wellmer, Critical theory of Society, New York, 1971.

قد أصبح « أسلوبا » للحياة فى المجتمعات الرأسمالية • يعنى ذلك أن الصراع والنضال من أجل تحقيق مجتمع متحرر يجب أن يحل على المستوى الفكرى ومن خلال النقد والوصول الى اتفاق فكرى وليس من خلال النضال بالوسائل الكلاسيكية التى تبنتها الماركسية القديمة • ولا يعد ذلك رفضا للماركسية وانما هو فهم جديد لها فى ضوء ظروف المجتمع الصناعى الحديث • فالنظرية النقدية العلمية يجب أن تأخذ فى اعتبارها ظهور تركيبات جديدة من الأبنية التحتية والأبنية الفوقية ، أى أن تفهم المجتمع الحديث فهما يختلف عن فهم ماركس له • ويستلزم ذلك ان توسع من مجال تصورها عن المجتمع ، بحيث تسعى لتحقيق مجتمع تسوده الديمقراطية الاشتراكية ، والعدالة الاشتراكية ، والأخلاق الاشتراكية ، والوعى الاشتراكى • غير أن ذلك الوعى لا يرتبط بالحركة والممارسة ، بل يقتصر على النقد والاعتراض بحيث تقتصر مهمة النظرية النقدية على توضيح التناقض بين المجتمع كما هو قائم ، وبين ما يمكن وما يجب أن يكون فى ضوء امكاناته الفنية ، وكذلك تفسير معنى الحياة الخيرة التى يجب أن تنتشر داخله • غير ان وجهة نظر فيلمر هذه لا تعرض على النقد جدلا فكريا خاليا من اى هدف فالحق ان توضيح التناقضات بين ما هو كائن وبين ما ينبغى أن يكون سوف تكشف الحقيقة أمام أعداد كبيرة من الأفراد ، الأمر الذى يدفعهم نحو النضال من أجل الحياة الخيرة فى المجتمع المرغوب فيه • ولكن ذلك لا يمكن ان يدفع عن فيلمر تهمة تحويله للنظرية النقدية الى مسالة جدل فلسفى ، اكثر من كونها نظرية مرتبطة بالواقع وبالحركات الاجتماعية القائمة من أجل تغيير المجتمع • فالباحث أو الناقد عنده لا يعدو أن يكون فيلسوفا ينظر الى المجتمع من عل ، وعلى القاعدة ان تتطلع اليه ، وان تستلهم أفكاره ونظرياته لتساعدها على النضال والكفاح من أجل تغيير المجتمع • ولعل ذلك يرتبط بالتراث الألمانى فى تمجيد استقلال الجامعة والتحرر من القيم ، وهو تراث وضع بذوره ماكس فيبر •

وبعد هذا العرض الموجز لاتجاهات النقد الاجتماعى فى كل من الولايات المتحدة وفرنسا والمانيا ، يهمنا أن نؤكد تاثر هؤلاء ـ نقاد المجتمع ـ فى هذه المجتمعات بتراث رايت ميلز على الأقل فى فرنسا وامريكا ، اذا اعتبرنا ان النقد الاجتماعى فى المانيا قد ترعرع فى احضان مدرسة فرانكفورت وهى

سابقة فى ظهورها على رايت ميلز (ظهرت كتابات هوركهايمر النقدية فى العقد الرابع من هـذا القـرن) بل ان رايت ميلز نفسـه قـة تاثر بها على ما راينا فى الفصل السابع من هـذا البحث • ولكن لا شك ان التحول الذى طرأ على تفكير نقاد مدرسة فرانكفورت كان متاثرا بافكار رايت ميلز فبدلا من ترديد افكار ماركس حول التناقضات الاقتصـادية بدأ هؤلاء النقـاد يوسعون من مجال نظرتهم لهـذه التناقضات لتشمل التناقضات السياسية والثقافية والاجتماعية ، وهى نظرة تنسحب ايضا على آراء نقاد فرنسا وأمريكا ، ولقد كان أول المتحدثين بها رايت ميلز • فقد راينا فى الفصـل السابع كيف أن تحليل رايت ميلز للمجتمع الأمريكى لم يتوقف عند مستوى التحليل الاقتصـادى ، وانما امتد ليشمل المسـتوى السـياسى والفكرى والعسكرى ، على أساس أن مظاهر الاستغلال فى المجتمع ليست ذات طابع اقتصادى بحت ، وانما ذات طابع سياسى وفكرى فى المحل الأول ، ولذلك فان لم يكن أى من هؤلاء قد تاثر برايت ميلز فان آراءهم جميعـــا تعتبر امتدادا لآراء ميلز التى تطورت فى نهاية خمسينات هـذا القرن •

واذا كان هذا هو الحال فى امريكا وفرنسا والمانيا ، فما هو الحال فى بريطانيا ؟ ذكرنا فى مقدمة هذا الفصل المبررات التى تدفعنا الى مناقشة النقد الاجتماعى فى بريطانيا بالتفصيل ، ولذلك فسوف نركز فى بقية الفصل على تحليل آراء كل من بوتومور وجون ركس ، وهمـا من اشـهر علمـاء الاجتماع البريطانيين •

ثانيا ـ توماس بوتومور : من تاريخ النقد الى النظرية النقدية :

لا يوجد بين اصحاب النظرية النقدية الذين نعالجهم هنا من انتج من الدراسات والمقالات ما انتجه بوتومور ، ومع ذلك فانه يعتبر أقلهم وضوحا وهروبا من تحديد وجهـة نظره صراحة ، ويفرض ذلك صـعوبة كبيرة فى معالجة آراء بوتومور او محاولة حصرها • فلم يصنفه اى من الدارسين حسب اتجاه معين حتى الآن • حقيقة أن آراء ومجال اهتمامه يكشفان عن استقلال فى التفكير ، وعدم ارتباط بالتراث الغربى لعلم الاجتماع ، ولكنه لم يهاجم هـذا التراث هجوما عنيفا الا فى احـدث مؤلفاته الصـادرة

عام ١٩٧٥(١١) • بحيث يمكن القول ان كتابه هـذا قد كشف عن تحول واضح فى تفكيره ، أو بعبارة ادق عن تحديد دقيق وصريح لآرائه التى عبر عنها ضمنا فى مؤلفاته السابقة • ولقد كان هـذا التحول ـ وكما نوهت آنفا ـ رد فعل للتغيرات العنيفة والصراعات البنائية والفكرية التى خبرتها المجتمعات الغربية منذ نهاية الستينات وحتى يومنا هذا • ولكن هل معنى هـذا اننا سنركز على آرائه الاخيرة مع اهمال كتاباته السابقة ؟ لا يمكن لاى دارس لآراء بوتومور ان يركز على مظاهر التحـول فى فكره دون اى اشارة الى دراساته السابقة • فالآراء التى جاءت فى هـذا المؤلف الأخـير ما هى الا امتداد لمـا جاء فى بعض دراساته السابقة • ولذلك فسوف نبذل فى هـذه الفقرة جهدا لتتبع آراء بوتومور من خلال كل مؤلفاته ، وان كنا سوف نضع لأنفسنا مجموعة من الأفكار الموجهة التى تساعدنا على هـذا التتبع • وبناء على ذلك سـوف تشـتمل هـذه الفقرة على ثلاثة عنـاصر أساسية نعتقد انها اهم اسهامات بوتومور فى النظرية النقدية : موقفـه من المـاركسية وفهمه لها ، موقفـه من تراث علم الاجتمـاع الغربى ، ثم موقفـه من النقـد الاجتماعى •

١ ـ نحو فهم جديد للمـاركسية :

كثيرا ما يوصف بوتومور بأنه « دارس ماركس Marx Scholar فلم يخل اى كتاب له من حديث مستفيض عن المـاركسية ، فضلا عن انه الف كتابين مستقلين عن ماركس احدهما بالاشتراك مع روبل بعنـوان : « كارل ماركس : كتابات مختارة فى علم الاجتماع والفلسفة » والثـانى اشرف على تحريره بعنوان « كارل ماركس : الكتابات الأولى » • غير ان وصف بوتومور بأنه « دارس ماركس » لا يقدم لنا صورة دقيقة عن موقفه من المـاركسية • فالمحقق ان كتابات بوتومور عن ماركس توحى بثلاثة حقائق : الأولى : أنه فعلا دارس ـ ودارس ممتاز ـ لمـاركس ، وان كان بوتومور لا يعد دارسا لمـاركس فقط وانما حجة فى الالمـام بكل تراث علم الاجتماع • والثانية : انه مدافع عن ماركس ويتزعم الدعوة الى عدم اهمال الاسهامات الفكرية التى قدمها • والثالثة : أنه قدم فهما جديدا للماركسية ، او ركز على احد الجوانب الهامة فيها ، واعنى ذلك الجانب المنهجى العلمى

(١١) T.B. Bottomore, Sociology as Social Criticism, op. cit.

الذى يقدم تفسيرا علميا للمجتمع • ويهمنا هنا ان نبرز هذا الفهم الجديد للماركسية فى فكر بوتومور •

ولكن لا بد أن نؤكد بادىء ذى بدء أن هذا الفهم الجديد للماركسية لا يعنى عدم توجيه النقد لها • ففى كتابه « الطبقات فى المجتمع الحديث »(١٣) يحشد بوتومور الانتقادات التى وجهت الى الماركسية ـ خاصة فيما يتعلق بقضية الطبقات والصراع وهى بؤرة النظرية الماركسية • وصنف بوتومور هذه الانتقادات الى ثلاثة جوانب رئيسية :

(أ) الأهمية التى أولاها ماركس للطبقة والصراعات الطبقية فى تفسير التغيرات التاريخية الأساسية فى المجتمع البشرى ، تلك الأهمية التى جعلته يهمل علاقات اجتماعية أخرى على جانب كبير من الأهمية (خاصة القومية والصراع بين الأمم) •

(ب) عدم كفاءة الماركسية فى تفسير العلاقات الطبقية فى انماط المجتمعات المغايرة للنمط الراسمالى •

(ج) لم يعمق بناء المجتمعات الحديثة الهوة بين البرجوازية والبروليتاريا ، ولم تختف منه الشرائح الوسطى من السكان ، كما أن الطبقة البروليتارية لم تخبر نموا فى الوعى الاجتماعى بحيث تقوم بدورها التاريخى فى الثورة على ما تصور ماركس •

ولكن فى مقابل هذا النقد يدافع بوتومور عن الماركسية ، ويلقى تبعة ما تعرضت له الماركسية من نقد على من جاءوا بعد ماركس حيث يقول « فالنقد اذن ليس هو أن ماركس نفسه قد أخفق فى اختبار نظريته بقدر كاف من الشمول • فقد صاغ فروضا جديدة ومثيرة ، وحاول أن يطبقها بصرامة على النموذج الذى بدا أنه بالغ الأهمية من الناحيتين النظرية والعملية ، واعنى نمو الراسمالية الحديثة • أما الفشل فهو فشل من جاء بعده من الماركسيين ، الذين امسكوا ـ الى حد كبير ـ عن اختبار

---

(١٢) ت• ب• بوتومور ، الطبقات فى المجتمع الحديث ، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه ، دار الكتب الجامعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ ، ص ص ٨٢ ـ ٨٩ •

مدى فائدة النظرية ونواحى القصور فيها عند تطبيقها على مواقف تاريخية أخرى » · ويبدو أن النقطة الجوهرية التى ينتقد فيها بوتومور ماركس هو تصوره لطبقتى البرجوازية والبروليتاريا فقد خضع بناء كل طبقة وتكوينها الى تغيرات كثيرة بحيث لم تعد بعد جماعة مغلقة ومستقرة · فالبرجوازية لم تعد تستأثر بالسلطة وحدها ، واستطاع النظام الرأسمالى أن يدمج الطبقة العاملة داخله بحيث لم ترغب فى أى سلوك ثورى · وهذا النقد يشبه الى حد كبير النقد الذى قدمه رايت ميلز وغيره من نقاد المجتمع ·

والمحقق أن تفنيد آراء ماركس فى ضوء المجتمع الرأسمالى المعاصر كان ينطلق عند بوتومور ـ كما هو الحال عند ميلز ـ من معتقد مؤداه ان الماركسية لا تعدو أن تكون نظرية تفسر العلاقات الاجتماعية فى فترة معينة ومكان معين الى جانب تركيزها على بعض القوانين العامة التى تحكم حركة التاريخ · لقد كان ماركس « مهتما بشكل خاص ـ شأنه فى ذلك شأن غيره من مفكرى القرن التاسع عشر الذين ساهموا فى تاسيس علم الاجتماع ـ بدراسة أصول وتطور المجتمع الرأسمالى الحديث · ولقد اختار أن يدرس تلك الأصول وهذا التطور فى بلد واحد أساسا هو انجلترا »(١٣) ويكشف هذا النص عن أن بوتومور يدعو الى فهم الماركسية فى ضوء الظروف التى ظهرت فيها ، دون أن نخضعها ـ اثناء نقدنا لها ـ لظروف المجتمع الرأسمالى الحديث الذى طرأت عليه الكثير من التغيرات ، ووجهة النظر هذه تشبه الى حد كبير وجهة نظر رايت ميلز فى نقده للماركسية والتى عرضناها فى الفصل السادس من هذا البحث · ومن هذه النقطة يبدأ فهم بوتومور المعاصر للماركسية ·

فكثيرا ما يثور الجدل حول الماركسية ، هل هى فلسفة اجتماعية ؟ هل هى يوتوبيا ؟ هل هى ايديولوجية وعقيدة أم هى نظرية عملية فى تفسير المجتمع وتفسير حركة التاريخ ؟ ذهب الباحثون مذاهب شتى فى موقفهم من القضايا التى تثيرها هذه الأسئلة · ويبدو أن الجدل حول هذه القضايا قد ادى بالباحثين الى نتيجتين ، الأولى : التعلق بالماركسية كايديولوجية

---

(١٣) المرجع السابق ، ص ٨١ ·

والدفاع عن كونها كذلك ، والسعى نحو تطبيقها • والثانية : رفض الماركسية باعتبارها ضربا من ضروب الخيال التى لا يمكن أن يتحقق فى الواقع • وترتب على ذلك أن غاب على الباحثين فهم الجانب الآخر من الماركسية ، واعنى الماركسية بوصفها نظرية علمية ، وبوصفها منهجا علميا له أساليبه المحددة فى تفسير حركة التاريخ وفى تحليل ابنية المجتمع ، أو المجتمعات • وهذا هو الجانب الذى اهتم به بوتومور • لا يعنى ذلك أن بوتومور يرفض الجوانب الأخرى من الماركسية ، ولكنه يؤكد فقط أن اهمال هذا الجانب والتركيز على الجوانب الأخرى ، أو فهمها مندمجة بعضها بالبعض الآخر قد افسد الفهم المعاصر للماركسية • ليس ادل على تاكيد بوتومور لهذا الجانب العلمى فى الماركسية اكثر مما جاء فى تمهيده للكتاب الذى اشترك فيه مع ماكسيملين روبل حيث كتب يقول « أن ماركس يعتبر عالم اجتماع ، وفيلسوفا سياسيا وثوريا • لقد تاثرت سمعته كعالم من ذلك الدمج بين هذه الجوانب ومن التحول التاريخى للماركسية الى أيديولوجية سياسية »(١٤) ونفهم من هذا النص أن بوتومور سوف يسعى الى فصل افكار ماركس بعضها عن البعض الآخر ، ثم يخلصها مما شابها من مثالب أيديولوجية ليظهرها فى صورتها العلمية النقية ، ولقد فعل بوتومور ذلك بالفعل ، وكانت وسيلته فى ذلك هى الاستشهاد بنصوص من ماركس نفسه ، وربما كان هذا هو السبب الذى دفعه الى أن يجمع الكثير من هذه النصوص فى مؤلفات مستقلة • ولا يهمنا أن نورد هذه النصوص ، ولكن يهمنا ـ فى المحل الأول ـ ان نعرض لبعض الأفكار التى طرحها بوتومور وهو يبرز هذا الجانب العلمى من الماركسية •

كاد بوتومور أن يرفع ماركس الى مرتبة العلماء التجريبيين • وتكمن تجريبية ماركس ـ فى نظر بوتومور ـ فى عنايته باكتشاف القوانين التى تحكم تطور البناء الاقتصادى للمجتمع كعملية تاريخية ، وكذلك اكتشاف القوانين التى تحكم بناء المجتمع الرأسمالى وما به من صراعات وتناقضات•

---

(١٤) بوتومور روبل ، **فى سيوسيولوجيا ماركس وفلسفته الاجتماعية** ، ترجمة محمد حافظ يعقوب ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ • ص ٢١ •

ولقد اختار ماركس انجلترا كمختبر يدرس فيه نمط الانتاج الراسمالى مثله مثل الفيزيائى الذى يدرس العمليات الطبيعية • فاذا كان اليكميائى يستخدم المجهر والمواد الكيميائية ، فان ماركس يستخدم قوة التجريد والتحليل التاريخى(١٥) • ويعتقد بوتومور ان ماركس قد استخدم أساليب تجريبية فى الكشف عن ظروف المجتمع الراسمالى عندما صمم استبيانا لدراسة أحوال الطبقة العاملة ، طبع منه ٢٥ الف نسخة وكان يهدف الى أن يقدم معرفة دقيقة وموضوعية للظروف التى تعيش وتعمل فيها الطبقة العاملة(١٦) •

فماركس فى نظر بوتومور ما هو الا عالم اجتماع ، او رائد فذ من رواد علم الاجتماع استطاع أن يقدم تفسيرا علميا للمجتمع الذى عاش فيه ، ولا نستطيع ان نطالبه بأن تنطبق آراؤه على المجتمعات المعاصرة التى خبرت تغيرات كثيرة منذ وفاة ماركس وحتى الآن ، كما انه من الخطأ التعلق بنظريته كايديولوجية أو كعقيدة والسعى المستميت نحو تطبيقها • وقد اتضح اتجاه بوتومور نحو الفصل بين الماركسية كنظرية علمية وكايديولوجية فى فصل ممتاز بعنوان « كارل ماركس : عالم اجتماع او ماركسى » ؟ حيث قرر أن أحد اسباب وضع نظرية ماركس فى اطار هذا السؤال يرجع لعدة أسباب : منها أن الفكر الماركسى يعتبر أحد الأنساق الفكرية المبكرة فى علم الاجتماع ، بمعنى أنه حاول صياغة مفاهيم جديدة لوصف البناء الكلى للمجتمعات ، ولتفسير التغيرات الاجتماعية الكبرى مقدما بذلك أكبر جوانب نظريته تميزا واثارة ، كما أن آراء الكثير من علماء الاجتماع قد تشكلت من خلال حوار مع الفكر الماركسى ، فاخصب المناقشات حول الفكر الماركسى جاءت اما من علماء اجتماع أو فلاسفة (ماكس فيبر ، جروس Groce ، سوريل Sorel وباريتو) • ولقد أدى ذلك الى أن تصبح النظرية الماركسية هى المقابل الوحيد للوظيفية

---

(١٥) المرجع السابق ، ص ٣٧ •

(١٦) أورد بوتومور نص الاستبيان فى نهاية مقدمته وهى مقسمة الى أربعة أقسام يهتم القسم الأول بالمهنة وظروف العمل ، ويهتم الثانى بساعات العمل والفراغ ، والثالث بالتشكيل والأجور وتكاليف المعيشة ، أما الرابع فقد اهتم بنضال الطبقة العاملة لتحسين هذه الظروف • انظر المرجع السابق مباشرة ، ص ص ٨٩ ـ ٩٩ •

التى اثبتت قصورها وعدم اكتمالها بعد سيطرة دامت اكثر من ثلاثين عاما • معنى ذلك ان وضع السؤال على هـذا النحو سوف يبرز الجانب العلمى من الفكر المـاركسى وسوف يخلصه من شوائبه المـاركسية • ويبدو أن بوتومور يود أن يفـرق بين لفظين فى معالجتـه للفكر المـاركسى كلمـة « المـاركسية "Marxism" ونظـرية ماركس Marx's theory الأولى تشـير الى الفـكر المـاركسى كأيديولوجية سياسية والثانية تشـير اليه كنظرية علمية ، الأولى تجعله « ماركسيا » والثانية تجعله « عالم اجتماع »•

ومع محاولة ابراز الجانب العلمى فى الفكر المـاركسى يقرر بوتومور ان الكثير من القضايا المـاركسية تتخذ شـكل القوانين العامة من ذلك مثلا القول بأن تاريخ المجتمع هو تاريخ النضال الطبقى ، وان شـكل النظم الاجتماعية والأفكار المرتبطة بها تتحلل من خلال البناء الاقتصادى للمجتمع• بجانب هـذه القوانين العامة ـ التى قد تنطبق على كل المجتمعات ـ هنـاك القوانين الخاصة التى ترتبط بفترة تاريخية معينة ، من ذلك مثلا قانون حركة (تحول) المجتمع الرأسمالى الحديث • يرتبط كلا النوعين من القوانين ارتباطا وثيقا فى نظرية ماركس • وهذا الترابط بين العام والخاص فى فكر ماركس يجعله يبتعد ابتعادا كليا عن فلسفة التاريخ ويقترب لقترابا كليا من النظرية العلمية للمجتمع بالمعنى الدقيق لهـذه الكلمة ، واعنى « هيكل من القوانين العامة ترتبط بها قضـايا امبيريقية مفصلة » •

ويلقى بوتومور على المـاركسيين المحـدثين تبعية اهمـال جوانب كثيرة من المـاركسية على رأسها هـذا الجانب العلمى ، فقد اهتموا بالأمور التى عالجها ماركس باستفاضـة مثل نشـأة البرجوازية داخل المجتمع الاقطاعى ، والتحول من الاقطـاع الى الرأسـمالية ، والمراحل الأولى من الراسمالية • ولقد أدى هـذا الاهمال من جانب المـاركسيين لبعض جوانب الفكر المـاركسى الى أن يطورها علماء غير ماركسيين • فالمحقق أن الأفكار المرتبطة بتطور الطبقات الاجتماعية الحديثة ، وكذلك جماعات الصـفوة ، بالأيديولوجيات ، والأحزاب السياسية ، وتحليل الحركات الثورية ، كانت من ابداع ماركس نفسه ، ولكن أهم الدراسـات التى اجريت بصـددها قدمها دارسون غير ماركسيين ـ زمبارت ، ماكس فيبر ، شيلز ، جايجر ،

كارل مانهايم ، فبلن ، رايت ميلز(١٧) • ففى نطاق البحث السوسيولوجى ليس هناك ماركس واحد استطاع أن يحقق انجاز ماكس فيبر فى استخدام قضايا ماركس العامة حول العلاقة بين الأيديولوجيات والبناء الاجتماعى فى البحث عن دور الأفكار والمعتقدات الدينيـة فى التغيير الاجتمـاعى وفى ارتباطاتها بالطبقات الاجتماعية المختلفة » •

ان بوتومور هنـا يود أن يفصل بين ما يسميه ماركسية ماركس ، وماركسية المـاركسيين ، من حيث أن النسق الفكرى لمـاركس لا يمكن فهمه على أنه تعبير عن أهداف سياسية او اجتماعية ، ولقد تسبب فهم الماركسيين له على انه أيديولوجية سياسية فى تشويهه وانحرافه انحرافا حقيقيا ، فلا يعتبر ماركس نفسه مبدعا لعقيدة سياسية تمثل مذهبـا فريدا للطبقة العاملة ، انه عالم يستخدم أساليبه المنهجية (التجريد ، التحليل التاريخى ، الجدلى ، الدراسة الواقعية) فى تشريح المجتمع المدنى ، ونظـام الطبقـات والأيديولوجيات ، والتغيير الثورى • ولقد كان ماركس يصر على أنه لا ينظر الى العالم نظرة مذهبية ، وانما « يطور بعض المبادىء عن العالم تختلف عن تلك التى تنتشر داخله » ولقد ظهر خلال كل أعماله التزام عميق بالبحث عن الحقائق الاجتماعية بطريق موضوعى • ولكنها موضوعية لا تخلو من التزام• فاى معرفة موضوعية يسعى اليها الباحث يجب استخدامها فى رفع الوعى الطبقى لدى العمال • ويركز بوتومور على اهمية وضرورة ترابط هـذين الهدفين اللذين سعى اليهما ماركس فى علم الاجتماع الحديث • فاذا كان لعلم الاجتماع اى فائدة تطبيقية ، فان أحد الجوانب الهامة فى تطبيقه تتمثل فى نشر المعرفة الخاصة بطبيعة العلاقات الاجتماعية فى مجتمع معين بغرض زيادة وعى الأفراد بحياتهم الاجتماعية •

ويكشف هـذا العرض لموقف بوتومور من الفكر المـاركسى عن ثلاثة جوانب : الأول : اهتمامه بالطابع العلمى للتفكير المـاركسى ، وادراكه لكون ان هـذا التفكير يعتبر ابن عصر بعينه ، ولا نطمع فى أن يفسر لنا بعض جوانب حياتنا المعاصرة • والثانى : أن تلك المهمة الأخيرة ، واعنى تفسـير

---

(١٧) هذا اذا اعتبرنا أن ميلز لم يتاثر بماركس او لم يفهمه نفس فهم بوتومور له •

بعض جوانب حياتنا المعاصرة من خلال الفكر المـاركسى ، مهمة تقع أساسا على أتباع ماركس ، ويعتقد بوتومور انهم لم ينجزوها على وجهها الصحيح، بل أنجزها علماء غير ماركسيين • ولكن بوتومور لم يوضح موقفه من هذه الانجازات • هل هى اسهامات افادت المـاركسية أم عطلت نموها فى تلك الجوانب التى تناولتها بالدراسة • والثالث : أنه ادرك قدرة النظـرية المـاركسية على الكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية فى مجتمعنا الحديث ومعرفة اتجاهاتهـا ، ومن ثم زيادة قدرة الأفراد والجمـاعات ، خاصـة الجماعات المضطهدة على فهم واقعهم الاجتماعى ، ووعيهم بهذا الواقع •

والحقيقة ان موقف بوتومور من هذه الجوانب الثلاثة لا يختلف كثيرا عن موقف رايت ميلز • فقد اتضح لنا فيما سبق أن رايت ميلز قد تشرب الروح العامة للمـاركسية ، ورفض بعض قضاياها ، على أنها لا يمكن أن تنطبق على مجتمعنـا المعـاصر ، وقبل بعض القضـايا وأوضح قدرتها التفسيرية فى مجتمعنا • كما اتضح لنا أيضا أن ميلز أدرك اختلاف طبيعة المجتمع الذى كتب عنه ماركس عن مجتمعنا الحديث ، وضرورة تطوير بعض قضاياه والامتداد بها لتلاحق التغيرات التى أفرزها المجتمع الرأسـمالى ولم يضعها ماركس فى اعتباره • وموقف بوتومور ـ وان كان لم يحـدد صراحة اى القضايا التى يرفضها من المـاركسية والقضايا التى يقبلها ـ يكشف عن أنه يقبل المقولات العامة للمـاركسية شريطة اضفاء الطابع العلمى عليها ونزعها من سياقها الأيديولوجى السياسى ، ويكشف فى ذات الوقت عن ادراك لاختلاف طبيعة الظروف التى كتب فيها ماركس عن ظروف مجتمعنا الحديث ، وضرورة تطوير ذلك الجانب العلمى من المـاركسية ليصبح لهـا قوة واهمية تطبيقية فى المجتمع الرأسـمالى المعـاصر • وهى

---

(١٨) انتقد بوتومور فى كتابه « الصفوة والمجتمع » مفهوم رايت ميلز عن « صفوة القوة » بالرغم من أن ميلز قد اعتبره تطويرا لمفهوم ماركس عن الطبقة الحاكمة ، ولكن فى ضوء الظروف الجديدة التى خبرها المجتمع الراسمالى فى العصر الحديث • وقد جاء هـذا النقد بالرغم من أن بوتومور قد اعترف بأن ميلز قد تأثر بماركس • ولكن يبدو أن هـذا الخلاف بين بوتومور وميلز ناشىء عن أن ذلك الأخير قد اهتم أساسا بنقد المجتمع ،
=

نفس الأفكار التى رددها ميلز تقريبا(١٨) · وربما يكون اهم موقف تتقارب فيه افكارهما هو ذلك الموقف المتعلق بالكفاءة التطبيقية للفكر الماركسى · فاذا كان رايت ميلز يرى فيه قوة تفسيره لبعض حقائق حياتنا المعاصرة ، يرى فيه بوتومور نفس الشىء الى جانب تركيزه على الطابع النقدى للفكر الماركسى · ففى الفصل الأخير من كتابه « نقاد المجتمع » اكد ضرورة البحث عن نظرية نقدية ، كما اكد ضرورة أن يصبح عالم الاجتماع ناقدا للمجتمع بدلا من قيامه بدور المهندس الاجتماعى · وفى استعراضه لامكانية قيام نظرية نقدية ، أكد على دور واهمية الماركسية فكتب يقول « والنظرية العظيمة القادرة على أحياء حركة للنقد الاجتماعى واعادة البناء هى الماركسية · فما يزال بامكاننا ان نعتبر الماركسية نظرية اجتماعية يمكن أن تعبر عن فترة الاضطراب التى نعيشها ، غير انها تجد صعوبة فى تحقيق ذلك كلما تقدم بنا الزمن خلال القرن العشرين »(١٩) ·

وفى الوقت الذى يتحدث فيه بوتومور هذا الحديث عن الماركسية ، نجده يقرر أن النظريات المرتبطة بالنظام العام تفشل فى أن تفسر احداث حياتنا المعاصرة المتغيرة · ويدعونا هذا الأمر أن نستعرض موقفه من هذه النظريات فى الفقرة القادمة ·

٢ ـ ازمة علم الاجتماع : نحو علم اجتماع راديكالى :

اتخذ بوتومور فى مؤلفه الأخير موقفا نقديا من نظرية علم الاجتماع الغربى كما يتمثل نظريا ـ فى نظرية بارسونز ، وامبيريقيا فى بحوث سيمور مارتن ليبست ، فضلا عن انه اتخذ موقفا ازاء ما أطلق عليه جولدنر ، « ازمة علم الاجتماع الغربى » ·

غير اننا نستطيع أن نتلمس موقفا مبكرا لبوتومور من احد قضايا علم

= بينما اهتم الأول بالتاريخ للحركة النقدية ومحاولة اضفاء الطابع النقدى على علم الاجتماع · ولقد كان بوتومور يعتبر أن ميلز ناقد مجتمع اكثر من كونه صاحب بديل جديد فى فهم الواقع ·

(١٩) Bottomore, Critics of Society, op. cit., pp. 126—127.

الاجتماع الغربى ـ هى مفهوم الصفوة ـ فى مؤلفه « الصفوة والمجتمع »(٢٠) . فنجد بوتومور يؤكد فى هذا الكتاب الطابع الأيديولوجى لمفهوم الصفوة ، ويذهب الى أن الكتابات التى دارت حوله قد استهدفت الديمقراطية الليبرالية ، ولمحاصرة الاشتراكية الماركسية ودحض نظرية ماركس فى الطبقات مستندة فى ذلك الى نقطتين : الأولى اثبات أن التصور الماركسى « للطبقة الحاكمة » خاطىء من أساسه . والثانية : البرهنة على أن وجود مجتمع لا طبقى أمر مستحيل ، طالما أن هناك فى كل مجتمع قلة حاكمة . وفى سعيها الى تفنيد الماركسية تبنت نظرية الصفوة ضربا من الحتمية لا يقل بأى حال من الأحوال عن ذلك الذى تنطوى عليه الماركسية . فانقسام المجتمع الى قلة حاكمة وغالبية محكومة هو لانقسام حتمى فى كل المجتمعات . بل ان نظرية الصفوة اشد حتمية من الماركسية ، فأصحاب نظرية الصفوة « .. ذهبوا الى أن هناك نمطا عاما ضروريا من المجتمعات السياسية ، وأنكر الماركسون الصدق العام لقانون « الصفوة والجماهير » مؤكدين حرية الانسان فى تخيل وخلق اشكال جديدة من المجتمعات »(٢١) . ولعل تحيز بوتومور الى نظرية ماركس هو الذى دفعه الى أن يقارن بينها وبين نظرية الصفوة ليظهر تماسك نظرية « الطبقة الحاكمة » وتماسكها فى مقابل الصراع بين الاتجاهات المختلفة التى ظهرت داخل نظرية الصفوة ، وليبرز القوة التحليلية لنظرية « الطبقة الحاكمة » فى مقابل فشل نظرية « الصفوة الحاكمة » فى تفسير بعض الحقائق . فتلك الأخيرة تتجاهل نقطة اساسية

---

(٢٠) ت. ب. بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه ، دار الكتب الجامعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢ .

ونعتقد أن هذا الكتاب يقابل ويكمل كتابه « الطبقات فى المجتمع الحديث » فيبدو أن بوتومور قد أراد أن يحلل فى كل كتاب منهما مفهوما أساسيا من مفهومات علم الاجتماع ، فحلل فى كتابه « الطبقات » مفهوم الطبقة على انه مفهوم جوهرى ورئيسى فى فكر ماركس ، وحلل فى كتاب « الصفوة والمجتمع » مفهوم الصفوة على انه مفهوم أساسى فى علم الاجتماع الغربى تمت صياغته لمواجهة مفهوم الطبقة فى الفكر الماركسى .

(٢١) المرجع السابق ، ص ١٧ .

هى الطريقة التى يحصل بمقتضاها الأفراد على أوضاع القوة (الاستغلال فى نظرية الطبقة الحاكمة) . وقد خلص بوتومور من مقابلته بين نظرية « الطبقة الحاكمة » ونظرية « الصفوة الحاكمة » إلى الدفاع عن الأولى شريطة تخليصها من طابعها الماركسى الذى يؤكد على أنها ظاهرة واقعية يمكن ملاحظتها فى كل زمان ومكان . ومتى تخلصت من هذا الطابع الحتمى تصبح « نموذجا مثاليا » يستخدم كأداة استرشادية فى التفكير والبحث فى كل المجتمعات بحيث نكون « فى وضع يسمح بدراسة مدى اقتراب العلاقات الاجتماعية فى مجتمع معين من النموذج المثالى للطبقة الحاكمة والطبقات الخاضعة »(٢٢) .

واذا كان رفض مفهوم الصفوة يمثل موقفا نقديا مبكرا اتخذه بوتومور تجاه نظرية علم الاجتماع المرتبطة بالنظام العام ، ويكشف عن وعى ايديولوجى تبدى فى تنبيه للمفهوم المقابل ، وأعنى « مفهوم الطبقة الحاكمة » . فان ذلك الموقف النقدى قد بلغ ذروته فى مؤلفه الحديث السابق الاشارة اليه . فنجده يعقد فصلين متتاليين يعالج فى أحدهما نظرية بارسونز ، وفى الثانى : بعض آراء سيمور مارتن ليبست . واذا كان بارسونز يمثل النظرية الكبرى المجردة . وليبست يمثل النزعة الامبيريقية المجردة أيضا ، فان بوتومور هنا يكون قد اقتفى أثر رايت ميلز عندما وجه نقده الى النظرية الكبرى ، والنزعة الامبيريقية المجردة كاتجاهين عامين لهما قوة تاثيرهما فى علم الاجتماع الغربى المرتبط بالنظام . وسوف نرى أوجه شبه كثيرة بين طريقة تناول كل من ميلز وبوتومور للنظرية الكبرى والامبيريقية المجردة .

فى فصل بعنوان « خارج هذا العالم »(٢٣) Out of this World عالج بوتومور نظرية تالكوت باسونز الاجتماعية . والفكرة الأساسية التى تدور حولها هذه المعالجة تنحصر فى أن أسلوب بارسونز فى التفكير ، وفى التعبير عن أفكاره يفرض عليه عزلة فكرية ويجعله يخرج بنفسه خارج

---

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٢٣) T. B. Bottomore. Sociology as Social Criticism. op. cit., 29—43.

العالم الذى نعيش فيه . فرغم أن ما يقوله عن الحياة الاجتماعية يعتبر شيئا عاديا عندما نعبر عنه بلغة بسيطة ، الا أن التعقيدات التى يدخلنا فيها بارسونز ترتفع بنا عن هذه الحياة الاجتماعية فى ضرب من ضروب التجريد النظرى ، ينعكس ذلك الهروب من العالم فى عدم احساس بارسونز بالأمور السياسية والاجتماعية الحقيقية وعدم تكوين رؤية واضحة لمشاكلها(٢٤) .

ويبرهن بوتومور على وجهة نظره هذه من خلال بعض نظريات بارسونز التى عالجت بعض المشكلات السياسية . ففى مقالة عن « الزنوج الأمريكيين » حاول أن يصور الزنوج على انهم الأقلية السلالية الأخيرة التى يجب أن تذوب فى بوتقة المجتمع الأمريكى وتندمج فيه (والعلاقة هنا واضحة بين تصويره للمشكلة ونظرية النسق المتوازن القادر على امتصاص التوترات وتشربها) . وعندما عالج بارسونز حركة الطلبة فى مقال بعنوان : « الجامعات وحركة الطلبة » حاول أن يناقش بناء وتطور الجامعات الأمريكية دون أن يتعرض للسؤال الخاص بما اذا كانت الأزمة التى تمر بها الجامعات الأمريكية تحتاج الى اصلاحات جوهرية أم لا ، وتكشف معالجته عن قبوله للبناء القائم للجامعة ، فلم يقدم تحليلا حقيقيا لمشكلات الجامعة ، واكتفى بالتحليل الوصفى للتنظيمات التقليدية القائمة . ولا شك أن ذلك ينبع أساسا من نزعته المحافظة فى تناول حقائق الوجود الاجتماعى ، فهو ينظر الى البناء الاجتماعى للمجتمع ـ خاصة المجتمع الأمريكى ـ على انه غير قابل للتغيير .

ويتلمس بوتومور جذور الاتجاه المحافظ فى فكر بارسونز فى فهم ذلك الأخير لطبيعة النظرية السوسيولوجية حيث يحذف من نطاق النظرية عنصرين حيويين : العنصر الأول : التعميمات التجريبية والارتباطات المنظمة بينها فهو يحاول أن يقدم تصنيفا وصفيا للظواهر داخل ميدان معين ، أو تحليلا للمفاهيم المستخدمة فى هذا الميدان دون أن يقدم تفسيرا للأحداث

---

(٢٤) لا يعنى ذلك انه ليس لأرائه إرتباط ايديولوجى ، سياسى ، لكن بوتومور يقصد أن نزعته التجريدية قد أعمته فى رؤية المشكلات السياسية الحقيقية حيث يفهمها فى ضوء اطاره النظرى العام ، وهو اطار مرتبط بالنزعة المحافظة ومن ثم يجىء تصوره للمشكلات آخذا نفس المسار .

فى علاقتها بالمشكلة موضوع الدراسة . والعنصر الثانى : هو مناهج البحث Methodology فلم يحدث فى تاريخ الفكر السوسيولوجى من ماركس الى دوركايم أن طور أحد العلماء نظرية دون أن يحلل فى ذات الوقت أسسها وبناءها الشكلى ، وجميعهم اثاروا أسئلة حول قيمة وحدود التعميم والتفسير فى علم الاجتماع ، وحول المقولات العامة فى مقابل المقولات التاريخية فى النظرية الاجتماعية ، وحول الموضوعية والأيديولوجية ، ولكن بارسونز لم يناقش أى من هذه المشكلات وفى مقابل أعماله لهذين العنصرين انشغل بارسونز بتحليل وتصنيف المفاهيم وهو بذلك يكون قد ظل يعمل داخل حدود النطاق الذى يميز العلم فى مرحلة مبكرة من تطوره .

وقد فرض الاتجاه المحافظ على بارسونز ان يطور النظرية السوسيولوجية فى اتجاه معين هو الاتجاه المرتبط بالنظام ، مهملا الاتجاه الآخر المرتبط بالصراع . ويعقد بوتومور ـ للتدليل على ذلك ـ مقارنة بين مقالات بارسونز عن دوركايم وفيبر وماركس المنشورة فى كتابه « النظريات السوسيولوجية والمجتمع الحديث » ، حيث يهتم عند دراسته لماكس فيبر ودوركايم بآرائهم فى الفعل الاجتماعى وتأثيرها على نظريته ، أما عند دراسته لماركس فلم يهتم بمكانة ماركس قبل الحركة الفكرية التى انشقت عن تيار الوضعية والمثالية . ويرجع بوتومور السبب فى ذلك الى أن بارسونز يجد فى آراء دوركايم وفيبر قبولا أيديولوجيا ، لأنها تركز على الجوانب المعيارية والثقافية ـ التى تدعم النظام ـ والتى تعد بؤرة مشروعه النظرى . أما ماركس فانه يركز على الجوانب المادية والمصالح الاقتصادية (التى تولد الصراع) .

هكذا ينظر بوتومور الى بارسونز ـ نفس نظرة رايت ميلز ـ على انه منظر محافظ يسعى الى تدعيم النظام العام القائم ، من خلال صياغته للواقع الاجتماعى صياغة مجردة تركز على جوانب الاستقرار والتكامل والنظام ، تركيزا يحجب عنها الرؤية الحقيقة الواضحة للمشكلات الحقيقية التى تقابل الأفراد والجماعات فى العالم الحديث ، بل انها تسعى الى الهروب من هذا العالم » .. ولم يظهر هروب بارسونز من العالم الحقيقى أكثر مما ظهر فى كتابه « النظرية الاجتماعية والمجتمع الحديث » . فمن الخصائص

القيمة لهـذا الكتاب أنه لا يمكن أن يكون دراسة عن المجتمع الحديث فقط . فالعلم ، والصناعة ، والنمو السكانى ، والمجاعات ، والثورة ، والتعصب ، والصراع السلالى ، والحروب النووية ، لم تحظ بأدنى اهتمام . فقد تركت هـذه الأحداث والمسائل التى تؤرق الناس فى المجتمع الحديث ، والتى تخلق القهر والثورة فى نفس الوقت ، تركت دون تفسير »(٢٥) .

والى جانب تحليله لنظرية بارسونز المجردة ، انتقد بوتومور آراء سيمور مارتن ليبست ومن المعروف انه تلميذ مخلص لبارسونز يبذل جهودا كبيرة ليقدم تدعيما أمبيريقيا لنظرية استاذه ، ومن ثم فاننا نعتبر ان نقد بوتومور لآرائه يمثل نقدا للنزعة الامبيريقية . ففى فصل بعنوان : « رجل محافظ »(٢٦) . A Conservative man يتتبع بوتومور بعض آراء ليبست ليكشف عن نزعته المحافظة . وتذهب القضية الرئيسية التى تنحصر حولها مناقشة بوتومور الى أن ليبست يتوحد مع نظرية النسق توحـدا كبيرا الى درجـة انه اصبح جزءا من النسق يسـتجيب استجابة تلاؤمية للتوترات ثم ما يلبث ان يستدمجها ويحاول امتصاصها . فقد كان وما يزال يفكر فى ضوء نظرية النسق (للتوازن) ، ولكن عندما تفجرت الصراعات البنائيـة والفكرية بتفجر الحركات الاجتماعية فى نهـاية الستينات بدا يحيد الى حد ما عن نظرية النسق ، ثم ما لبث ان ارتد اليها بعد ان هدات حدة هذه الصراعات . ويبرهن بوتومور على هـذه المواقف الثلاثة لليبست من خلال دراساته فى بداية الستينات ثم آرائه فى حركة الطلبة اثناء تفجرها وبعد تكونها .

ففى عام ١٩٥٨ وفى نهاية كتابه « الانسان السياسى » دافع ليبست عن فكرة نهاية الايديولوجيا ، واعتقد أن المشكلات السياسية للثورة الصناعية قد تم حلها فى عام ١٩٦٢ صـاغ منهجه لكتاب The First New Nation فى ضوء نموذج التوازن والقيم حيث ذهب الى انه سـوف يفكر فى ضـوء التوازن الدينامى ، الذى يتصور المجتمع على انه يكيف نفسه باستمرار

---

(٢٥) Ibid., p. 43.

(٢٦) T.B. Bottomore, Sociology as Social Criticism. op. cit., pp. 19—28.

مع نسق القيم الرئيسى ، لكى يقلل من حدة التوترات التى تخلقها التغيرات فى العلاقات الاجتماعية ٠

وفى عام ١٩٦٨ وبعد تفجر الحركات الاجتماعية ذهب ليبست فى مقدمته لمجموعة من المقالات قدمت « لمؤتمر علم الاجتماع السياسى » ونشرت عام ١٩٦٨ ، الى أن عام ١٩٦٨ يعتبر عاما حاسما فى تاريخ علم الاجتماع حيث حدثت ثورة الغضب عند القوى الجديدة على النماذج والنظريات التى سيطرت على مقدرات العالم فى الخمسينات وبداية الستينات ٠ ان ليبست هنا يستجيب للحركة الثورية ويحاول أن يوضح انها حركة طبيعية ، ويعترف بضرورة تغيير النظريات القديمة لتستوعب مظاهر الصراع الذى فجرته هذه الحركة ٠ وقد عبر عن ذلك صراحة فى حد مقالاته عام ١٩٦٩ حيث ذهب الى أن نظرية النسق لا يمكن التحقق من صحتها فى ضوء الواقع الأمبيريقى الراهن ٠ ولتدعيم استجابته للحركات الثورية اتجه ليبست الى دراستها كما تمثلت فى حركة الطلبة ٠ ورغم انه عالج هذه الحركات فى البداية على انها سوف لا تحدث تغييرا جذريا فى بناء المجتمع ، الا انه عاد وأكد على ان حركة الطلبة تكشف عن فشل النظم والسياسات الاجتماعية والاقتصادية وتوقع تزايد حدة نشاط الطلبة فى هذا المجتمع المستقر ٠

ولكن ذلك الموقف الأخير هو اقصى ما وصلت اليه راديكالية ليبست ـ وما لبث بعد أن هدأت ثورة الطلبة هدوء مرحليا ان ارتد الاهتمام بالديمقراطية المستقرة فى معالجته للحركات المتطرفة : فهذه الحركات ليست حركات سياسية تقوم بها « جماعات خاضعة » ضد حكامها ٠ وانما هى حركات متطرفة غير ديمقراطية تهدد الديمقراطية المستقرة التى يجمع عليها اكثرية السكان ٠ وهو هنا يعود الى نموذج التوازن ويفسر الحركات الراديكالية فى ضوء المخطط النظرى المرتبط بالنظام العام ، عندما يسم المجتمعات الغربية بالاستقرار السياسى ٠

والحقيقة أن نقد بوتومور لتجريدية بارسونز وامبيريقية ليبست لا ينفصل عن تصوره لأزمة الاجتماع ٠ اذ لا شك أن الاتجاه المحافظ الذى يسير فيه الخط النظرى والخط الأمبيريقى قد جعل العلم يفشل فى أن يواجه التوترات والصراعات التى تفجرت مع ظهور الحركات الاجتماعية ، ومن ثم

هذا يخبر ازمة داخلية . وازمة علم الاجتماع فى رأى بوتومور ليست « ازمة قادمة » كما تصور جولدنر ، ولنما ازمة واقعة بالفعل . وتتلخص وجهة نظر بوتومور فى أزمة علم الاجتماع فى النصين التاليين « .. بدأ علم الاجتماع المحافظ (الذى يمثله بارسونز ، وبل ، وشيلز ، وليبست ، وارون) .. يفقد قدرته على تفسير الأحداث الاجتماعية بطريقة مقنعة عندما ظهرت حركات سياسية وثقافية تتحدى أو تنبذ طرق الحياة المقررة فى الكثير من الدول الصناعية »(٢٧) . « اذا كان علم الاجتماع يمر الآن بأزمة ، فليس سبب هذه الأزمة انه يفشل فى أن يقدم لنا قوانين على مستوى عال ، ولكن بسبب ان الكثير من قضاياه الوضعية ، ونماذجه وتفسيراته لم تعد كافية ، كما أنها لم تثبت قدرتها على اثارة مكتشفات جديدة ، أو أن الواقع الاجتماعى الذى تطبق عليه هذه النماذج قد تغير تغيرا جذريا بحيث لم تعد تلائمه »(٢٨) . والشىء الذى يبرزه هذان النصان هو ادراك بوتومور لطبيعة التغيرات التى خبرتها المجتمعات الغربية ، تلك التغيرات التى لم يستطع التراث المحافظ أن يستوعبها ومن ثم بدأ يفشل فى تحقيق هدفه النهائى واعنى الاحاطة بكل جوانب المجتمع وصفا وتفسيرا .

والحقق ان تصور بوتومور للأزمة لا يختلف كثيرا عن تصور جولدنر لها . فكلاهما ، يجمع على الاتجاه المحافظ لعلم الاجتماع ، وكلاهما يدرك طبيعة التناقض بين البناء القديم والبناء الجديد الذى افرزته الحركات الاجتماعية ، والاختلاف بينهما ينحصر فى عنصرين ، لا يوافق بوتومور جولدنر فيهما :

١ ـ موقفه من الماركسية حيث اكتفى جولدنر بالقول بأن الماركسية والوظيفية مدرستين داخل علم الاجتماع تواجه كل منهما الأخرى (الأولى تمثلها الاتحاد السوفييتى والثانية الولايات المتحدة) ، فى صراع يمكن التخفيف من حدته من خلال التقارب . والتكيف المتبادل بين كل منهما . وقد ادى ذلك بجولدنر الى اهمال جوانب كثيرة فى الماركسية ، وكذلك

---

(٢٧) Ibid., p. 45.
(٢٨) Ibid., p. 52.

اعمال الجدل النظرى الذى اثارته الماركسية وما زال تثيره الى الآن . هذا فضلا عن عدم ادراكه للحقيقة التى اكدها دريتزل Dreitzel والتى مؤداها ان هناك استعدادا فى المجتمعات الغربية لتبنى وجهة النظر الماركسية واستخدامها فى اثارة مشكلات جديدة او نقد اتجاهات قديمة(٢٩) . فرأى بوتومور هنا يوحى بامكانية استخدام الماركسية فى فهم المجتمع ، بدلا من احداث تقارب بينها وبين الوظيفة ، خاصة اذا وضعنا فى الاعتبار موقف بوتومور من الماركسية كما عرضناه فى الفقرة السابقة .

٢ ـ لم يوافق بوتومور جولدنر على موقفه للخلاص من الأزمة ، فذهب الى ان جولدنر لم يكرس سوى جزء صغير من كتابه « الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى » لمناقشة التطور المستقبلى لعلم الاجتماع ، فضلا عن ان فكرة « علم الاجتماع الانعكاسى » التى ابتدعها جولدنر كطريق لتخليص العلم من ازمته فكرة غير ملهمة . « فعلم الاجتماع الانعكاسى » لا يقدم لنا الا بعض الأسس الأخلاقية التى تلتزم بها حياة وعمل عالم الاجتماع كشخص ذو نزعة سياسية راديكالية ، والتى تدور كلها حول العلاقة بين حياة عالم الاجتماع بوصفه « عالما » ، وبين حياته الشخصية بوصفه « شخصا » ، بحيث يحقق قدرا من الوعى الذاتى فى علاقته بعمله . وهو بذلك ـ والحديث ما زال لبوتومور ـ لا يطرح موضوعات جديدة للبحث والدراسة ، ولا يقدم اى فكرة موجهة ، فضلا عن انه يرد المشكلات العامة الى مشكلات شخصية ويغرقنا بذلك فى ضرب من التأمل الاستبطانى ، او الرومانسية الذاتية(٣٠) .

---

(٢٩) Ibid., pp. 46—47.

(٣٠) Bottomore. Sociology as Social Criticism, op. cit., p. 52 and p. 54.

والحق أن بوتومور لم يتفهم جيدا ما يقصده جولدنر « بعلم الاجتماع الانعكاسى » فجولدنر لم يطرح هذه الفكرة بديلا للنظريات السابقة ، ولكنه كان على وعى بالعلاقة بين النظرية والمجتمع الذى تفسره ، ومن ثم اعتقد أن النقد السوسيولوجى يعد نقدا اجتماعيا فى ذات الوقت . وبناء على ذلك فان ازمة العلم هى نفسها ازمة المجتمع ، وصياغة نظرية جديدة لا بد أن يأتى بعد أن تتهيأ الظروف الفكرية والبنائية لتشييد هذه النظرية ، ودور

ولكن ما هو البديل الذى يقدمه بوتومور لصياغة جولدنر ٠ فى محاولته تحديد موقفه من الطريق الى خارج الأزمة نجد بوتومور يثنى على فكرة « المجتمع ما بعد الصناعى » Post Industrial Society كما قدمها الان تورين ونورمان بيرنبوم ويلخص بوتومور فكرته عن هذا المجتمع فى النص التالى « ٠٠ هناك صورة للمجتمع آخذة فى الظهور حيث يتغلب العلم فيها على مشكلة ندرة الحاجات الانسانية ، ويتحول العمل الصناعى من الافراد الى الآلات ، ومن ثم يتغير النسق الطبقى ويتغير التوازن بين العمل ووقت الفراغ فى الحياة الاجتماعية ، وفى نفس الوقت تثير مشكلات التنظيم البيروقراطى المركزى ، والنظرة التكنولوجية الخالصة ، تثير ضروبا جديدة من الصراع الاجتماعى عبرت عنها بالفعل حركة الطلبة » ٠ معنى ذلك ان هناك مجتمعا جديدا قد اكتمل ظهوره بالفعل ، مجتمع تخطى مرحلة الصناعة ، وتلعب فيه التكنولوجيا والبيروقراطية دورا كبيرا ، وتظهر فيه انماط جديدة من الصراع تختلف عن تلك التى خبرها مجتمع الصناعة ، تفجرها جماعات جديدة (غير العمال) على رأسهم المثقفون والطلبة ٠ وبناء على ذلك لا بد أن يظهر نمط جديد من العلم يختلف عن نمطه السابق الذى نشأ فى أحضان المجتمع الصناعى الرأسمالى فى القرن التاسع عشر ، بحيث يعكس هذا العلم اتجاهات التطور الاجتماعى فى المجتمع المعاصر والاختبارات السياسية التى تفرضها هذه الاتجاهات ٠ وهذا النمط الجديد للعلم لا ينفصل عن جذوره السابقة ، بل لا بد أن ينشأ من خلال اعادة احياء الفكر السوسيولوجى السابق(٣٢) ٠ ولم يحدد بوتومور

=

علماء الاجتماع فى هذه الحالة ينحصر فى تكريس جهودهم لنقد النظريات القائمة ونقد المجتمع القائم لكى يساعدوا فى تهيئة الظروف لصياغة النظرية ، وأن يعتمد تجمعات فكرية تكون المنطلق لصياغة النظرية ٠ ومع فى كل هذا لا بد أن يتذرعوا بضرب من ضروب الوعى الذاتا بدور عالم الاجتماع والتزامه وموضوعيته والعلاقة بين عمله وحياته اليومية وكلها أمور يحددها علم الاجتماع الانعكاسى ٠ فعلم الاجتماع الانعكاسى اذن لا يعدو أن يكون « ميثاق عمل » للباحثين الذين يعيشون من أجل علم الاجتماع ٠

(٣١) Ibid., p. 53.

(٣٢) الحقيقة ان رأى بوتومور هنا يقترب من رأى جولدنر ، حيث

=

أى نوع من الفكر يود تطويره او اعادة احيائه ، اذ المحقق ان علم الاجتماع يضم بين جنباته فكرا محافظا وآخر راديكاليا · فهل يود اعادة احياء الأول أم الثانى ، أم يود اعادة لحياء مركب من كليهما معا ؟ · موقف بوتومور فى الاجابة على هذا السؤال غير محدد او شحيد الغموض ·

يبدو أن بوتومور يتحيز فى صف الفكر الراديكالى ، فنجده فى نهاية نقده لآراء جولدنر يثنى على كتاب دريتزل(٣٣) · فيقول : « فقط فى كتاب دريتزيل نجد لشارة الى اتجاهات جديدة · فالمقالات المجتمعة هنا كلها فى موضوعها واتجاهها · لا تعالج « الديمقراطية المستقرة » ولكنها تعالج تجارب وامكانيات « ديمقراطية المشاركة » · ولا تعالج المكانة والحراك ولكنها تعالج العلاقة بين الطبقات وتؤكد ظهور طبقات جديدة كقوى فى النضال السياسى ، ولا يهتم بظهور النظم السياسية والسلوك الانتخابى ، ولكنها تعالج ظهور حركات الاحتجاج الاجتماعى · وهذه المقالات تكشف ـ وكما أشار درتيزل فى مقدمته ـ عن استعداد للنسج على منوال ماركس ، وفهم لعلم الاجتماع على أنه علم « الأزمة الاجتماعية » كما كان عند ظهوره »(٣٤) · ومن هذا النص نرى أن بوتومور لا يرغب فى الموضوعات القديمة المرتبطة بالنظام العام مثل « الديمقراطية المستقرة » والحراك الاجتماعى ، ويحبذ للموضوعات التى تعبر تعبيرا حقيقيا عن سمات المجتمع الحديث مثل ديمقراطية المشاركة ، وقوى المعارضة والرفض ،

=

يتفقان على ضرورة تجديد الفكر السوسيولوجى(، ولكن الفرق بينهما يكمن فى أن جولدنر يقرر أن عملية التجديد هذه مرتبطة بتغير للبناء التحتى الذى تقوم عليه النظرية ، وأعنى المجتمع برمته ، والمجتمع ـ فى نظر جولدنر ـ لم يتغير تغيرا كليا وانما تغيره ما يزال فى مرحلة « التشكل » أما بوتومور فيذهب الى أن الصورة الحديثة للمجتمع قد تبلورت بالفعل وعلى علماء الاجتماع أن يتوصلوا الى نمط النظرية القادرة على الاحاطة بها وصفا وتفسيرا · والواقع أن رأى جولدنر أكثر واقعية وموضوعية ، وذلك لأن المجتمع الجديد لم يتبلور بعد تبلورا كافيا ، كما أن للصورة القديمة للنظرية ما تزال لها قوة مؤثرة ، ولا بد من مرور بعض الوقت حتى يتغير الاثنان معا ، وأعنى النظرية والمجتمع ·

(٣٣) Ibid., p. 53.

(٣٤) Ibid., pp. 14—15.

وهى موضـوعات ترتبط بالجانب الراديكالى فى علم الاجتمـاع والجانب الراديكالى الذى يود أن يبرزه ويدعو الى اعادة تطـويره لا يرتبط بتراث معين ، وانما هو الفكر الذى تتحقق له خاصيتان رئيسيتان : الأولى ترتبط بالطابع النقدى ، فأحد الملامح الايجابية والراديكالية فى علم الاجتماع هى انه يتضمن نقـدا مستمرا لكل نظريات المجتمع ، والمفاهيم الشـائعة فى حياتنا اليومية ، وهـذا الجانب النقدى هو الجانب الذى يسعى الى تحرير الانسان ، بدلا من السيطرة عليه مثل أى جزء فى الطبيعة · والثانية : ترتبط بهـدف العلم ، فاذا كان هـذا للعلم هو اكتشـاف ميكانيزمات للحيـاة الاجتماعية ، فانه ينتج شكلا أو آخر من اشكال السيطرة ، ولكن اذا كان هـدف العلم هو الكشف عن كيفية تكون العلاقات الاجتمـاعية ، وكيفيـة تغيرها ، فانه سـوف يؤدى الى التنوير العـام وسـوف تكون تاثيراته تحريرية(٣٥) ·

ويبدو أن لعلم الاجتماع الراديكالى فى نظر بوتومور ثلاثة أوجه : وجه نظرى يهدف الى نقد النظريات القائمة التى تسعى الى استغلال الانسان والسيطرة عليه ، ووجه واقعى يهدف الى نقد الواقع بكل ما يحيط بجوانبه من علاقات واشكال للصراع ، ووجه سياسى يدافع عن جهة نظر الحركات الاجتماعية التى تهدف الى تغيير الواقع · وتلخص كلمات بوتومور هـذه الجوانب لعلم الاجتماع الراديكالى ، فهو العلم الذى يهدف الى « نقـد النظريات الاجتماعية فى ضوء وجهة النظر التى تفهم بها العالم الاجتماعى ، وتوضيح مظاهر عدم المساواة والضوابط الاجتماعية المرتبطة ببناء الطبقات وجماعات الصفوة ، التى تعطل نمو الـ حرية الانسانية ، وأن يكشف عن طابع وتطلعات الحركات الاجتماعية التى تعارض البناء القائم فى المجتمع · وعلم الاجتماع الراديكالى بهـذا المعنى يجمع فى ذاته ثلاثة عناصر ، نظـرى وامبيريقى ، وسياسى فى ذات الوقت »(٣٥) ·

وبهـذا المعنى يكون فكر بوتومور نفسه فكرا راديكاليـا ، فبالنسبة للجانب النظرى يكشف لنا العرض السابق عن نقده للاتجاهات القديمة

---

(٣٥) Ibid., p. 16.

وتقنيدها ، وبالنسبة للجانب الأمبيريقى السياسى فاننا سوف نكرس له الفقرة القادمة بعنوان « بوتومور ناقد المجتمع » ٠

٣ ـ بوتومور ناقد المجتمع :

لا تنفصل آراء بوتومور فى نقد النظرية عن رؤية امبيريقية شاملة تكشف دائما عن خواص البناء الاجتماعى والصراعات والتغيرات الكامنة فيه ، والأيديولوجيات السياسية السائدة داخله ٠ وهذه الرؤية النقدية للواقع الاجتماعى تظهر فى كتابات بوتومور المبكرة والأخيرة بنفس القدر ٠

وسنحاول هنا أن نتتبع هذه الرؤية النقدية فى كتابات بوتومور ٠ ففى كتابه « الطبقات فى المجتمع الحديث » ، كتب فصلا بعنوان « الطبقات فى المجتمعات الصناعية » ويمكن أن نعتبره بداية فكرة بوتومور عن المجتمع ما بعد الصناعى ٠ ففى هذا الفصل يتحدث بوتومور عن البناء الاجتماعى للمجتمع الصناعى بنموذجية (النموذج الرأسمالى والنموذج السوفييتى) مع وجود اختلافات جوهرية بين هذين النموذجين فيما يتعلق بالأنظمة السياسية والمذاهب الاجتماعية والتغيرات التاريخية التى مر بها البناء الاجتماعى بكل منهما ، الا أن هناك وجوه شبه عديدة بينهما فيما يتعلق بالأبنية المهنية وطابع التدرج الاجتماعى بوجه عام ٠

ففى المجتمعات الرأسمالية نجد أن التغيرات الاقتصادية التى مرت بها منذ حطمت أسس أيديولوجية المساواة ، فمع ظهور المنظمات الصناعية والتجارية الضخمة ازداد التفاوت فى الثروة ، وازدادت الانقسامات الطبقية بشكل ملحوظ . وازداد وعى الطبقة العليا بوجودها فسعت الى تكوين ارستقراطيات جديدة ، وفى نفس الوقت قلت درجة الوعى عند الطبقة العاملة ٠ خاصة بعد الارتفاع فى مستويات المعيشة ، وزيادة التباين فى البناء المهنى . ووجود نمط من التدرج الاجتماعى يزداد تعقدا يوما بعد يوم . واتساع نطاق الفرص التعليمية(٣٦) ٠

أما فى المجتمعات ذات الطراز السوفييتى ، فقد فشلت فى تحقيق المجتمع اللاطبقى بالمعنى الذى قدمه كارل ماركس ٠ ففى مواجهة نزعة المساواة

---

(٣٦) بوتومور ، الطبقات ، مرجع سابق ، ص ص ١١٤ ـ ١٢١ ٠

egalitarianism في المجتمعات الغربية ، تغيرت سياسة الحكام السوفييت واتجهوا نحو زيادة الحوافز المالية للعمال المهرة والعلماء والفنيين والمديرين والمثقفين ، وكنتيجة لذلك زاد تفاوت الدخول حتى اصبح مماثلا لما هو قائم فى البلدان الرأسمالية ، فضلا عن تزايد اعداد العاملين فى مهن الياقة البيضاء ، كما بدا ظهور صفوة حاكمة تشبه الى حد كبير تلك التى تعرفها المجتمعات الغربية ، وتمتلك هذه الصفوة زمام القوة وتمارس ضربا من ضروب الاحتكار الايديولوجى من خلال مراقبتها للتفسيرات المختلفة للعقيدة السائدة المتمثلة فى الماركسية وعى تفسيرات تشكل تفكير الناس وآراءهم ، وتزودهم بالتبريرات المختلفة لسياسة الطبقة الحاكمة(٣٧) .

وفى كتابه « نقاد المجتمع » اهتم بوتومور بالتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على المجتمع الرأسمالى . فالكتاب رغم انه تاريخ لحركة النقد الاجتماعى الا أنه لا يخلو من الاشارة الى هذه التغيرات . فنى نقده لآراء ريسمان وجالبراث اهتم بعدم تركزهما على النظم الاقتصادية والسياسية من حيث أن هذه النظم تعد ـ فى نظره ـ اساس قيام مظاهر عدم المساواة فى المجتمع . كما انها ما تزال مصدرا للانقسام بين اليمين واليسار فى مجال الممارسة السياسية . هذا فضلا عن تحليله الاضافى لمظاهر التغير والصراع فى المجتمعات الغربية ، كما تتمثل فى الحركات الاجتماعية للزنوج والطلبة ، ويحاول أن يربط بينها وبين تغيرات المجتمع الرأسمالى .

ويبرز اتجاه بوتومور النقدى فى مؤلفه الأخير حيث يقدم فى اكثر من مكان تحليلات مستفيضة للمجتمع الرأسمالى وما يسود فيه من تيارات سياسية وحركات اجتماعية فمن القضايا الجوهرية فى هذا الكتاب تأكيد بوتومور على ظهور نمط جديد من المجتمع له بناء متميز عن بناء المجتمع السابق عليه « المجتمع الصناعى » ، ويعانى من مشكلات جديدة أهمها المشكلات الثقافية والسياسية ، ولكنه مجتمع لا يخلو من صراع على اى حال تعبر عنه حركات التمرد للزنوج والطلبة ، والصراعات المسلحة فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، وتعبر عنه أيضا تعدد اساليب الممارسة السياسية

---

(٣٧) المرجع السابق ، ص ص ١٢١ ـ ١٤١ .

أو الاتجاهات السياسية ، وتعدد الاتجاهات الفكرية • وقد ادرك بوتومور اهمية الحركات الاجتماعية فى تشكيل عمليات التغير الاجتماعى فى المجتمع الراسمالى فى نهاية الستينات وبداية السبعينات من هذا القرن ، وقد دفعه ذلك الى ان يعالج حركة الطلبة والاتجاه الراديكالى معالجة مستفيضة •

ويفسر نشأة حركة الطلبة من خلال البناء الاجتماعى للمجتمعات الرسمالية الذى يرتبط بالحروب فى اماكن كثيرة (فيتنام) ، ويتميز بالصراع بين الأجناس ، ويفرض ضربا معينا من ضروب الممارسة السياسية هو ذلك القائم على الاجماع ومن ثم يقهر مظاهر التعبير بطريق غير مباشر ، هذا فضلا عن مظاهر الضعف فى الجامعة نفسها (تزايد اعداد الطلبة ، تزايد حجم الجامعات ، ظهور جيل من الشباب اكثر ثورية ، وأقل امتثالا ، واستمرار الأشكال التسلطية والأبوية للادارة الجامعية) • ولكن بوتومور يعارض فكرة تورين وماركيوز والتى مؤداها أن الطلبة قد ورثوا الدور التاريخى للطبقة العاملة فى المجتمع الرأسمالى المعاصر • حقيقة أن حركة الطلبة لاحقة تاريخيا للحركة العمالية ، ولكن بين الاثنين فروق كثيرة أهمها أنهم لا يعدون جماعة مضطهدة مستغلة فى المجتمع ، كما أنهم ليسوا ـ ولن يصبحوا ـ غالبية من السكان فهم ما يزالون اقلية صغيرة غير قادرة على القيام بثورة الأغلبية الساحقة التى تنبأ لها ماركس والاشتراكيون الأوائل ، هذا فضلا عن ان جماعات الطلبة تفتقد نظام العضوية المستمر أو المستقر • وبناء على ذلك فانهم ليسوا الا جماعة من المثقفين ، ومن ثم لا نتوقع منهم أكثر من أن يقدموا تشخيصا راديكاليا لحالة المجتمع ، وهى المهمة المنوطه بالمثقفين الثوريين ، واذا شاركوا فى احداث الثورة فلا بد أن يتحالفوا مع جماعات أخرى فى حركة اشمل • ومع هذا يحاول بوتومور التنبؤ بامكانية تنظيم حركة الطلبة اذا نظرنا اليها على انها تمثل مصلحة اجتماعية معينة هى مصلحة الشباب : فهم من ناحية يعبرون عن مظاهر وآمال الجيل الأصغر برمته تجاه تناقضات المجتمع الحديث ، وحركة الطلبة بذلك تعتبر امتدادا لثورة الشباب ، ولثقافة الشباب بصفة عامة سواء أكانوا من الطلاب أم من غير الطلاب • ومن ناحية أخرى يمكن أن نتوقع ان يتبلور الوعى الذاتى للطلبة كجماعة اجتماعية مميزة تعبر عن نفسها داخل نطاق الجامعة ، من خلال معارضتها لاسلوب ادارة الجامعة ونظمها البالية • ويزيد من هذا التوقع ان حركة

الطلبة فى كل المجتمعات قد بدأت من خلال هذا الصدام بين إنظمة الجامعة وبين رغبات الطلبة • ولذا استطاعت حركة الطلبة أن تنظم نفسها فى ضوء هذه الاعتبارات : كونها تمثل مصالح جيل للشباب ، ومصالح جماعة داخل الجامعة ، وكحركة اجتماعية راديكالية ، فانها يمكن ان تستمر فى المستقبل وتكون نواة لتكوين حزب راديكالى جديد ، ومجالا لانتاج جيل جديد من المفكرين الراديكاليين •

ولا يهمنا ان نعلق على آراء بوموتور فى آراء الطلبة ، بقدر ما يهمنا تأكيد الحقيقة التى مؤداها أن دراسة بوموتور لحركة الطلبة وربطها بالبناء القائم تكشف عن رؤية راديكالية واضحة للتغييرات والصراعات التى يخبرها المجتمع الغربى والتى تميز بناءه الجديد ، هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى تميط اللثام عن الجانب الثالث من التفكير الراديكالى فى نظر بوتومور ، واعنى الجانب الأمبيريقى الواقعى • وجماع آراء بوتومور بهذا تكشف عن تأثره الواضح برايت ميلز • فهو لا ينفصل عن الأحداث التى تشكل روح العصر كما انه يوجه فكره نحو نقد النظرية المجردة ونحو نقد البحوث الأمبيريقية وفى نفس الوقت لا ينفصل هذا النقد السوسيولوجى عن نقد المجتمع أو على الأقل الدعوة الى نقده ، وهى نفس الأمور التى اهتم بها ت• رايت ميلز •• وهذا هو الذى دعانا الى القول بان بوموتور يعد أحد الذين يطورون الخط النقدى الذى تبناه رايت ميلز •

ثالثا ـ جون ركس : من نقد النظرية الى نقد المجتمع :

ذهب جون ركس عام ١٩٧٣ الى أن عظمة رايت ميلز تكمن فى أنه استطاع أن يواجه المشكلات التى يتميز بها البناء الاجتماعى فى عصره ، مثله فى ذلك مثل ماكس فيبر وماركس كما ذهب الى أن علم الاجتماع فى بريطانيا لم يستطيع أن ينجب باحثا على نفس المستوى الذى بلغه ميلز(٣٨) • ولكن

---

(٣٨) J. Rex Discovering Sociology, op. cit.,
ولم يحدد ركس الأسباب التى جعلت علم الاجتماع فى بريطانيا يعجز عن انجاب مثل هذا الباحث ، ولكنه فى مكان آخر من هذا الكتاب ذهب الى أن علم الاجتماع فى بريطانيا قد ارتبط بثلاثة موضوعات اساسية : النزعة

علم الاجتماع البريطانى لستطاع أن ينجب اخيرا هـذا الباحث ، ولكن من الغريب حقا أن يكون هـذا الباحث هو نفسه جون ركس • ويدعونا هـذا الأمـر الى القول بأن جون ركس كان على وعى حقيقى بأنه فى طريقـه الى النسج على منوال ميلز عندما كتب هـذا الكلام عام ١٩٧٣ ، او انه بدأ يعى دراسة المشكلات الكبرى فى البناء الاجتمـاعى للمجتمع المعاصر على غرار ما فعل ميلز ، او يلم بالتغيرات الواسعـة النطاق والصراعات الكبرى التى بدأت تتفجر داخله وتميزه عن الأبنية الاجتماعية السابقة عليه •

وبصرف النظر عن صحة هـذه التفسيرات ، فان للحق أن جون ركس قـد بدأ يتحول تحولا كبيرا بعد عام ١٩٧٣ نحو الاتجاه الراديكالى النقدى ، وبدأ يمزج ـ تمامـا مثلمـا فعل رايت ميلز ـ بين افكار كل من مـاركس وماكس فيبر ، ويتجه مثله مثل رايت ميلز أيضا ـ نحو التأكيد على ضرورة التزام الباحث فى علم الاجتماع وضرورة سعيه نحو الكشف عن مظـاهر الاستغلال والقهر فى المجتمع الحـديث • ولقـد ظهرت بوادر هـذا الاتجاه فى نفس كتابه الصادر عام ١٩٧٣ • حقيقة أن كتابات ركس السابقة تكشـف عن تميز واستقلال فى وجهة النظر مثله مثل بوتومور تماما ، غير أن ركس بدأ فى مؤلفاته الأخيرة يتجه نحو نقد المجتمع من خلال رؤية نقدية راديكالية صريحة وذلك مع الاحتفاظ بوجهة نظره فى نقـد النظرية التى طورهـا فى مؤلفاته المبكرة • ومما لا شـك فيه أن هذا التحول قـد جاء من خلال احتكاك فكر جون ركس بالتغيرات البنائية والفكرية التى اجتاحت بناء المجتمعات الغربية منذ نهاية الستينات والتى عرضنا جانبا منها فى الفصل السادس من هـذا البحث •

ويتضح تأثر جون ركس برايت ميلز فى أن نقده قد سار فى نفس خطى النقـد اللذين طورهما رايت ميلز ، واعنى النقـد السوسيولوجى والنقـد

=

التطورية والوظيفية (هوبرت سبنسر) والخدمة الاجتماعية (تشارلزبوث) ، ودراسات الوراثة والسكان (رينيارد تيمتس) ، وانه انتج باحثين مهرة فى تصميم الاستبيان وفى اجـراء البحوث وتحليل النتائج (المرجع السـابق ، ص ٤٧) . وربما يكون هذا هو السبب الذى جعل علم الاجتماع البريطانى يفشل فى انتاج باحث مثل رايت ميلز •

الاجتماعى ، فقد ظل جون ركس يناقدا سوسيولوجيا للاتجاهات القديمة المرتبطة بالنظام العام فى المجتمع مستفيدا فى ذلك من تميز تراث ماكس فيبر داخل التيار المحافظ ، ومن راديكالية تراث كارس ماركس فى مواجهة هذا التيار المحافظ ، الى ان بدا فى آخر مؤلفاته يمزج هذا النقد السوسيولوجى برؤية نقدية للمجتمع على نفس طريقة رايت ميلز • وسوف نتعرض فى هذه الفقرة لهذين الجانبين فى فكر جون ركس •

١ ـ النقد السوسيولوجى :

ظهرت بواكير النقد السوسيولوجى عند جون ركس فى كتابه الشهير « مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية »(٣٩) • فقد ركس فى هذا الكتاب الاتجاه الوظيفى ، ونظرية الفعل فى صيغتها البارسونزية مطورا اياها فى صياغة جديدة • فبالنسبة للاتجاه الوظيفى ذهب ركس الى أن هذا الاتجاه ينادى بقضايا باطلة لا تدعمها الا براهين بدائية للغاية ، فضلا عن انها تعانى من قصور لاهمالها دراسة انماط الفعل القائمة على ادراك المجتمع ادراكا ذاتيا(٤٠) • ولذا كان ركس قد رفض الاتجاه الوظيفى فقد تبنى الفعل كاطار مرجعى فى صياغته النظرية • غير أنه لم يتنبه بنفس صياغته البارسونزية ، ذلك ان بارسونز ـ فى رأيه ـ قد اهتم بموقف واحد فقط من مواقف التفاعل الاجتماعى وهو موقف التعاون والاتفاق العام على القيم ، وذلك عندما اكد على ضرورة تكامل دافعية الأفراد مع المستويات المعيارية الثقافية انطلاقا من مشكلة النظام التى تضفى طابع التكامل والاستقرار على عناصر البناء الاجتماعى • وقد كتب ركس فى هذا الصدد يقول « •• على الرغم من أننا قد نذهب مع بارسونز الى ان العناصر المعيارية تدخل ضمن وحدة الفعل التى تظهر فى الأنساق الاجتماعية ، فان ذلك لا يعنى مطلقا أن الأنساق الاجتماعية تحقق تكاملا تاما بواسطة هذه العناصر »(٤١) :

---

(٣٩) جون ركس ، **مشكلات اساسية فى النظرية الاجتماعية** ، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه منشأة المعارف بالاسكندرية ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٧٣ •

(٤٠) المرجع السابق ، ص ص ١٢٩ ـ ١٣٠ •

(٤١) المرجع السابق ، ص ١٥٦ •

وقد فرض عليه رفضه لصياغة بارسونز ان يطور فى تصور علاقات التفاعل بحيث يمكن ان تستوعب جوانب كثيرة من الواقع الاجتماعى • ولقد كان الجانب الرئيسى الذى اهمله بارسونز هو الجانب المتعلق بالصراع ؛ وبناء عليه قدم ركس نموذجا للصراع يقوم على سبعة قضايا رئيسية(٤٢) :

١ ـ بدلا من تصور الأنساق الاجتماعية على انها منتظمة حول مجموعة من القيم المتسقة ، يمكن تصورها على انها تتضمن مواقف صراعية تمتد من المساومة السلمية وحتى العنف السافر •

٢ ـ لا يؤدى ظهور هذه المواقف الى مجتمع موحد ، ولكنه يؤدى الى مجتمع جماعى به طبقتان أو كثر ذات مصالح مختلفة •

٣ ـ يتسم الموقف الصراعى بعدم توازن فى القوى وبناء على ذلك تظهر طبقة حاكمة وأخرى محكومة •

٤ ـ قد يتغير موقف القوة لصالح اى من الطبقتين الحاكمة أو المحكومة كنتيجة لتغير العوامل التى تزيد من امكانية مقاومة الطبقة المحكومة أو قيامها بثورة •

٥ ـ قد لا تستطيع الطبقة الثورية أن تفرض ارادتها على الطبقة الحاكمة بعد تحطيم الأساس الذى تستند اليه هذه الطبقة ، ومن ثم تنشأ انقسامات جديدة داخل الطبقة الثورية •

٦ ـ نظرا لأن الأهداف البعيدة للطبقة المحكومة تكون غامضة وغير محددة ، فانها تسلك ـ بعد أن تقبض على مقاليد القوة ـ فى ضوء المواثيق والماليات التى صاغتها فى مرحلة ما قبل الثورة •

٧ ـ قد لا يؤدى التغير فى ميزان القوة الى الثورة الكاملة ، ولكنه قد لا يؤدى الى نوع من التوفيق والاصلاح •

ويعد هذا النموذج ، بجانب كونه نظرية فى الصراع الاجتماعى ، نظرية فى التغير الاجتماعى ، ويكشف عن تاثر واضح بنظرية ماركس فى الصراع والتغير • حقيقة أن ركس لم يهتم بالكثير من الجوانب التى اهتم

---

(٤٢) المرجع السابق ، ص ص ١٩٤ ـ ١٩٥ •

بها ماركس مثل الأساس الاقتصادى لعلاقات الصراع ، وتماسك وتنظيم الطبقة الثورية ، الا ان حصر الصراع بين طبقتين احداهما حاكمة والأخرى محكومة يكشف عن تاثر واضح بالمفاهيم الماركسية ، وان كان جون ركس قد أحال الصراع على أدوات الانتاج الى صراع على التحكم فى مصادر القوة • وهو يكون ـ مثله مثل دارندورف ـ قد استبدل الحتمية الاقتصادية فى المشروع الماركسى بحتمية سياسية • واذا وضعنا فى اعتبارنا ان ركس قد تاثر بماكس فيبر فى صياغته لنظرية الفعل حيث ركز على الادراك الذاتى لعلاقات التفاعل ، اذا وضعنا ذلك فى اعتبارنا لتضح لنا كيف استطاع ركس ـ مثله فى ذلك مثل ميلز تماما ـ ان يمزج بين افكار كل من ماركس وماكس فيبر

ولم يقتصر نقد ركس على نقد النظرية ، وانما امتد ايضا ـ وكما هو الحال عند ميلز ـ الى نقد النزعة الأمبيريقية • فقد اعتقد ميلز ان النزعة الأمبريقية قد اغرقتنا فى تفصيلات وصفية جزئية عندما اهتمت بمشكلات الادارة والانحراف والحراك الاجتماعى فى ضوء فكرة الاتفاق العام على القيم • وبذلك انفصلت انفصالا كليا عن الاتجاه النظرى المجرد وعجزت ـ مع استثناءات قليلة ـ عن ان تقدم اسهاما حقيقيا فى فهم البناء الاجتماعى بما يشتمل عليه من مظاهر للتغير والصراع(٤٣) •

ولقد جاءت آراء جون ركس اللاحقة تطويرا لهذه الآراء ، وان كان قد أضفى على آرائه طابعا فينومينولوجيا واضحا • فهو يقر صراحة تاثره بالتراث الفينومينولوجى النابع من أفكار الفرد شوتز Schutz وتابعيه (بيتر بيرجر Berger وشيكوريل Cicourel وجارفينكل Garfinkle) ولكنه أكد ايضا أن أعمال فيبر قد حققت هدفين لم تستطع أعمال هؤلاء الفينومييولوجيين ان تحققها : احدهما تمييزه بين الأنماط المثالية للفعل والتى يقوم الباحث بصياغتها وبين نظرة الفاعل للموقف وتصوره الواقعى له • وثانيهما هو استخدامه لأسلوب التنميط فى عقد مقارنات بين الملامح البنائية للأنساق الاقتصادية ـ السياسية عبر التاريخ • انه هنا يحاول أن يثرى النظرة الفينومينولوجية التى تهتم بالمواقف الواقعية للفاعلين وتصوراتهم

---

(٤٣) المرجع السابق ، ص ص ٦٥ ـ ٧٣ •

عن البناء الاجتماعى ، بالنظرة البنائية المقارنة التى قدمها ماكس فيبر • ولا يخفى علينا ان نتكشف لستمرار تأثر ركس بماركس فى هذه المرحلة من تفكيره ، فهو يعبر صراحة عن اعجابه بالماركسيين المحدثين من أمثال لوكاتش Lukacs وجولدمان وهابرماس Habermas وان كان لا يوافق على نزعاتهم اليوتوبية كما تعبر عن ذلك كلماته « •• اننى أستطيع ان أصف الأبنية الاجتماعية ، وان اقيمها على أنها قهرية ومستغلة ، ولكنى لا أرى هناك سببا لافتراض انه بسبب هذا القهر وذلك الاستغلال يجب أن تتغير هذه الأبنية على المدى الطويل •• فهذه الأبنية تمتلك مددا كبيرا من المرونة ، وعالم الاجتماع الذى يرغب فى ان يكون علمه مفيدا فى الواقع السياسى يجب ان يتأمل هذه الأبنية فى اطارها الكلى ، قبل ان يندفع فى محاولة التوصل الى يوتوبيا غير قابلة للتحقيق »(٤٤) • وينطلق ركس هنا من موقف كل من فيبر وميلز ، حيث حاول الأول ان يفهم النظام الراسمالى فهما بنائيا دون الدعوى الى تغييره ، وحيث حاول الثانى ان يرصد التغيرات البنائية الكامنة فى هذا النظام من خلال نظرة تشاؤمية بالنسبة لمستقبل هذا النظام •

ويبدو ان ركس لم يقتنع بهذا الراى فى الابتعاد عن المنظورات اليوتوبية فقلبه راسا على عقب فى مؤلفه الأخير والذى ظهرت فيه قسمة عادلة فى الربط بين أفكار ماكس فيبر وماركس • فبعد أن عالج الأبنية الاجتماعية فى العوالم الثلاثة معالجة نقدية من خلال صوغ الأنماط المثالية حاول فى النهاية أن يقترح بعض الأساليب لتغيير هذه الأبنية فى المستقبل من خلال بعض « المنظورات اليوتوبية »(٤٥) • وسوف تتضح لنا هذه الناحية بجلاء عندما نستعرض نقد ركس للعالم الحديث ، وما يهمنا الآن هو أن يؤكد أن اتجاه ركس النقدى فى صورته الحديثة يتميز بخاصيتين : الأولى انه يقوم على اساس تطوير وجهة نظره فى النظرية السوسيولوجية التى قدمها فى كتابه « مشكلات اساسية » وذلك من خلال مزيد من الربط بين أفكار ماكس فيبر

---

(٤٤) J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. XV.

(٤٥) كتب ركس فى نهاية كتابه « علم الاجتماع وتحرير العالم الحديث» فصلا بعنوان «بعض المنظورات اليوتوبية للمستقبل القريب» حدد فيه الأسس التى يجب أن يقوم عليها تغيير النظم فى العوالم الثلاثة • انظر :
J. Rex, Sociology and Demystification of Modern World, Routledge and Kegan Paul, London, 1975, pp. 239—254.

وماركس ، بل انيا يمكن أن نسمه ـ من خلال قراءتنا لكتابه الأخير ـ بانه ماركسى محدث ، او يسارى جديد يسير فى نفس الطريق الذى سار فيه سابقه رايت ميلز • والثانية لتجاهه نحو نقد المجتمع ، وهو نقد يقوم على نفس الأسس النظرية التى طورها او اهتم بها ، ويكشف عن تأثر واضح بالروح الراديكالية التى سادت المجتمعات الغربية فى نهاية الستينات وبداية السبيعينات على ما سنرى فى الفترة القادمة •

٢ ـ النقد الاجتماعى : عالم الاجتماع وتحرير الانسان المعاصر :

ذكرت فيما سبق أن جون ركس قد تحول فى مؤلفه الأخير نحو الاتجاه الراديكالى متوخيا نفس الطريق الذى سار فيه رايت ميلز • ويتضح هذا التحول فى نظريته الى دور عالم الاجتماع ، وفى تطبيقه لهذا الدور على نفسه عندما قدم نقدا مستفيضا للبناء الاجتماعى للمجتمع الحديث •

هاجم جون ركس دور عالم الاجتماع كباحث متحرر من القيم يسعى الى تطبيق المعرفة العلمية عى الشئون الانسانية من أجل مزيد من السيطرة على العالم ، من أجل تأكيد النظام الاجتماعى العام • فعالم الاجتماع لا يستطيع ان يحقق هذا المطلب لأن التحرر من القيمة يعنى أن يقوم عالم الاجتماع بدور «الخبير» الذى يعمل تحت وصية رجال السياسة دون الخضوع لأى ضوابط اخلاقية • كما هاجم دور عالم الاجتماع كباحث ينفذ ذلك النوع من البحوث الذى يهدف الى حل المشكلات العلمية والتى يطلق عليها « البحوث التى توجهها السياسة Policy Oriented Researches لأن الباحث فى هذه الحالة يربط تفكيره بسياسة الحكومة ويقوم المداقف من وجهة نظرها • يقوم بمهمة خبير العلاقات العامة ، ويلقى اللوم دائما على الأفراد الأقل قوة ، ويمنعهم من الحركة اذا كان متعاطفا معهم(٤٦) • ما هو الدور المنوط بعالم الاجتماع اذن اذا كان ركس يرفض كلا الدورين السابقين ؟

لا يمكن أن نفصل تصور ركس لدور عالم الاجتماع عن تصوره لعلم الاجتماع النقدى • فقد اعتقد ركس أن نظريات علم الاجتماع وبحوثه والتى توخت الأهداف السابقة تسعى الى تعمية الانسان (او تجهيله) الذى يعيش

---

(٤٦) J. Rex, Sociology and Demy. op. cit., pp. 3—6.

فى مجتمعنا المعاصر . وبناء على ذلك فلا بد ان يظهر نمط جديد من العلم يتوخى هدفا انسانيا فى المحل الأول ، بأن يسعى الى أن يعين هذا الانسان على أن يتخلص من براثن هذه « التنمية » ويتحرر منها . بمعنى ان يتوجه العلم الاجتماعى نحو تحرير الانسان لا تجهيله والسيطرة عليه . وعلم الاجتماع الجديد هذا لا بد أن يكون علما نقديا راديكاليا يقدم منهجا لوصف الأبنية الاجتماعية وتحليل وظائفها للمشاركين فيها بما فيهم علماء الاجتماع انفسهم والكشف عما يرتبط بها من اهداف وايديولوجيات سياسية ، فهذه الايديولوجيات ما هى الا اساطير تخفى الواقع(٤٧) فنحن نعيش فى عالم تعتمد الحياة فيه على فهم الأبنية الاجتماعية القائمة ولكن هذه الدراسة البنائية لا تعنى اهمال قوى الثورة . فالباحث السوسيولوجى لا بد أن يدرس قوى الثورة داخل الأبنية الاجتماعية المستقرة (التى تنبثق من الصراع الطبقى فى العالم الأول ، والصراع ضد البيروقراطية فى العالم الثانى ، والصراع ضد الفقر والبؤس فى العالم الثالث) . وعلم الاجتماع النقدى فى نظر ركس يقترب من فكرة « الانعكاسية السوسيولوجية » بالمعنى الذى ذكره جولدنر ، فهو يسعى الى تحرير الواقع وتحرير العلم فى ذات الوقت : تحرير الواقع من قهر وتجهيل النظم والأبنية ، وتحرير العلم من غموض لغته ومن ابتعاده عن مشكلات الانسان فى العالم الحديث(٤٨) . ومن وجهة النظر النقدية هذه تكون المهمة المنوطة بالباحث فى علم الاجتماع هى فهم هذا العالم من اجل التعرف على مشكلاته العامة ومدى تاثيرها على المشكلات الخاصة للأفراد(٤٩) .

ومع الاهتمام بالعلاقة بين المشكلات العامة والهموم الخاصة يصل

---

(٤٧) لم يعتنق ركس ايديولوجية معينة ، بل اصر على ضرورة تبنى النظرة العدمية Nihilism ، بمعنى ان يشك فى كل القيم والمعتقدات التقليدية ، وفى ضوء هذه النظرة يمكن للباحث ان يدرس العلاقات والنظم القائمة دون ان يفترض ضرورة المحافظة عليها او تغييرها . والنظرة الحيادية هنا ليست نظرة انسحابية ولكنها نظرة ليبرالية تود ان تاخذ فى اعتبارها راى كل الجماعات دون التسلم بصحة آرائها . انظر جون ركس ، المرجع السابق ، ص ص ٨ ـ ٩ .

(٤٨) Ibid., pp. 6—10.

(٤٩) Ibid., p. 237.

جون ركس الى قمة الاتفاق مع رايت ميلز · فقد اهتم ذلك الأخير على ما رأيناه آنفا بالبناء الاجتماعى من أجل أن يكشف للأفراد المعاديين عن همومهم اليومية ليكتسبوا قدرا من الوعى الذاتى يجعلهم قادرين على الربط بينها وبين المشكلات البنائية العامة · وبنفس الطريقة يؤكد جون ركس أن الهدف الكلى من دراسة المجتمع هو تخفيف معاناة الأفراد · فمعاناة الأفراد ليست الا انعكاسا لمشكلات البناء الاجتماعى ، وليست ناتجا من نواتج الخلل فى هذا البناء على ما يذهب روبرت ميرتون ووليم جود · ويذهب ركس الى أن العلاقة بين المشكلات العامة والمشكلات الخاصة تتخذ شكلين : الأول : أن هناك مشكلات عامة محددة وتؤثر على مشكلات خاصة محددة ، والثانى : أن النظام الراسمالى والصناعى يخلق من الآثار الجانبية مشكلات خاصة تعبر عن تحلله كنظام اجتماعى · وما تزال المشكلات العامة التى عبر عنها ميلز ـ البطالة والحرب ومشكلات المدن والأسرة ـ أهم المشكلات التى يعانى منها النظام الراسمالى ، وان كانت قد اتخذت صورا جديدة · غير أن ميلز قد اهتم فقط بالعالم الراسمالى ـ خاصة أمريكا ـ ولكن ركس يحاول أن يوسع من نظرة عالم الاجتماع لتشمل العوالم الثلاثة : الأول الراسمالى ، والثانى الشيوعى ، والثالث المختلف · وهناك بعض العمليات فى المجتمع الشيوعى تشبه تلك التى توجد فى العالم الراسمالى من ذلك مثلا الالتزام الكامل بالبيروقرطية ، وممارسة الصفوة الحاكمة لضروب جديدة من الاستغلال · وتؤثر نظم العالم الراسمالى والعالم الشيوعى على مشكلات العالم الثالث فتزداد مشكلات الفرد وهمومه فى هذا العالم · والباحث السوسيولوجى اذ يسعى الى الكشف عن المشكلات العامة وتاثيرها على مشكلات الفرد الخاصة فى العوالم الثلاثة ، فانه يهدف من وراء ذلك الى مشكلات الأفراد(٥٠) ·

تحرير demystify هذه العوالم والتقليل من تاثير الأيديولوجية على

وفى ضوء وجهة النظر هذه يقدم جون ركس دراسة للعوالم الثلاثة ، فيتحدث عن العالم الراسمالى ، والعالم الشيوعى ، والعالم الثالث ، ثم يرسم فى النهاية صورة للعالم من خلال تفاعل العلاقات بين

---

(٥٠) Ibid., pp. 208—222.

هـذه العوالم ، مركزا على موقف الفـرد فى هـذا العالم الجديد ، وما يعانى فيه من هموم ومشكلات ، يفرضها عليه اتخاذ البنـاء الاجتماعى طابعـا وشكلا معينا - وهو يقـدم هـذا التحليل النقـدى اسهاما مهيه فى الربط بين المشـكلات العـامة والمشـكلات الخاصة فى طريق السـعى نحو تحـرير الانسان الحـديث والعـالم الحـديث .

عن العالم الرأسمالى او المركب الراسمالى الغربى يركز جون ركس على سمتين او خاصيتين تميزان بنـاء المجتمع وتتسببان فى افراز كل مظاهر معاناة الفرد داخل هـذا المركب هما(٥١) :

الخاصية الأولى : الشركات والتركيب الطبقى : فالنسـق الرأسمالى يقوم على سيطرة الشركات الاحتكارية الكبرى يساندها جهاز بيروقراطى من صنع الدولة يستهدف تقديم الخدمات . ويخلق هـذا النسق فئـة من الرأسماليين ومصدرى السياسـة ، يملكون قدرا كبيرا من القوة والسلطة ، ويحركون كل الأفراد من اجل خدمة التنظيمـات الرأسمالية والبيروقراطية الحكومية ، تمارس سيطرة على طبقة اخرى مغلوبة على امرها تضم غالبية الجماهير(٥٢) . ويخلق النظـام الرأسمالى القائم على سـيطرة الشركات الكبرى وما يرتبط به من بنـاء طبقى مجموعة من المشكلات يمكن حصرها فيمـا يلى :

(أ) يوجه المشروع الراسمالى نحو تحقيق أكبر قدر من الربح ، ومن ثم تشيع روح المنافسة بين المشروعات بحيث يسعى كل مشروع نحو جـذب أكبر عـدد من المستهلكين للسلع التى ينتجها ، وهنا يتدخل اسلوب الاعلان ليتحكم فى المستهلك الى درجة يصبح فيها « لعبة » فى يد الراسمالى ، فهو يجاهد دائما من أجل تحقيق مسـتوى معيشى اعلى طبقـا للقيم التى وضعتها امامه وسائل الاعـلان .

(ب) لا يعتمد المشروع الراسمالى على ميكانيزمات السوق فقـط ،

---

(٥١) Ibid., pp. 117—146.

(٥٢) يؤكد ركس على وجـود ثلاث طبقـات رئيسـية هى طبقـة الراسماليين وطبقة الحكام والطبقة العاملة ، يوجد بجانبهم مجموعة اخرى من الشرائح الاجتماعية .

وانما يعتمد ايضا على وجود شركات بيروقراطية تظهر فيها كل المشكلات المتصلة بالبيروقراطية فيما يختص باليكنة والتزود بالمواد الخام ، وتدفق العمالة ، وفى ظل هذا النظام يصبح المدير مجرد آلة تتحكم فيه الآلة ايضا ، ويصبح العمال مجرد « مأمورين » يتلقون أوامر الادارة على أنها شرعية .

(جـ) بجانب ميكانيزمات السوق وبيروقراطية الادارة هناك مشكلات تخلقها خدمات الرفاهية . فرغم أن مشروعات الرفاهية تمول من الايراد العام الا انه غالبا ما يخلق بعض الأفراد لأنفسهم سوقا خاصة فيما يتعلق بالطب ، والتعليم ، والتامين . ويحاول اصحاب المهن بيع خدماتهم بسعر مرتفع لبيروقراطية الدولة . ومن ثم يظهر ضرب من ضروب الصراع بين الخدمات التجارية والخدمات العامة ، يؤدى الى تدخل الحكومة لخلق البيئة التى يستطيع فيها الأشخاص والتنظيمات الخاصة ان تمارس اعمالها التجارية ، وهى فى ذلك تكافىء البعض وتعاقب البعض الآخر .

(د) ينقلنا هذا الى المشكلات التى تخلقها عملية صنع القرار السياسى الذى يسعى الى خلق التوازن بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة ، مع المحافظة على النظم الأساسية . وتشير الدلائل فى هذا الصدد الى ان الحكومة غالبا ما تعجز عن أن تصدر قرارا يخالف مصالح اصحاب المشروعات الراسمالية . وهنا يظهر تحالف الطبقة الراسمالية مع الطبقة الحاكمة فى مواجهة الطبقة العاملة التى يتولد لديها احساس بالتضامن الاجتماعى . ينتج عنها مجموعة من المعايير الطبقية القومية . ووسط هاتين الطبقتين (طبقة البرجوازية والحكام والطبقة العاملة) توجد طبقة البرجوازية الصغيرة التى تعرف هوية محدد ولا تملك قدرة على العمل الجماعى .

وتخلق كل هذه السمات مجتمعا راسماليا جديدا يطلق عليه ركس « المجتمع ما بعد الراسمالى » Post-Capitalist Society ، ولكنه يؤكد ان هذا المجتمع لا يختلف كثيرا فى الأسس التى يقوم عليها ـ عن المجتمع الراسمالى من حيث انه يقوم على صراعات وتناقضات جذرية . ولذا كان جانب من هذه الصراعات والتناقضات يتضح من الخصائص السابقة ، الا انها تتضح بجلاء فى الخاصية الثانية التى تسمى المركب الراسمالى .

الخاصية الثانية : يطلق جون ركس على هذه الخاصية « هندسة الاتفاق » The engineering of consent (٥٣) . وتعنى هذه الخاصية أن استقرار المجتمع الراسمالى ـ اذا وجد ـ لا يقوم على تشرب الأفراد لنسق القيم ، أو على تفاعل أجزاء المجتمع تفاعلا وظيفيا . انه على العكس من ذلك تماما يقوم على استغلال الطبقة الحاكمة للأساليب الرشيدة فى اخضاع الجماهير لقراراتها وسياستها مستغلة فى ذلك عجز وعدم رشد هذه الجماهير . وفى هذه الحالة يصبح الفرد مضطربا ، لا يمارس اختيارا رشيدا ، ولا يقدم اى راى فى كل ما يتعلق بامور حياته . ذلك ان الطبقة الحاكمة « تهندس » حياته من خلال اساليبها الرشيدة ، فتجعله « مستقبلا » لا « مشاركا » ، وتقوم وسائل الاعلام بدور كبير فى هذه « الهندسة » فهى تشغل كل حياتهم ، وتنقل لهم اخبار العالم برمته ، وتقدم لهم حلولا فورية لكل مشكلات حياتهم . وفى هذه الحالة يصبح الفرد سلبيا يشاهد فقط ما يقدم له ، ويعرف فقط ما يريد الآخرون أن يعرفه ، ومن ثم يعيش مغتربا لا يدخل فى اى علاقة الا ويكون « ضحية » لو « متفرج » وليس له أدنى رقابة على كل الأمور المتصلة بجوهر حياته ، ولا يشارك اى مشاركة حقيقية فى مجال الممارسة السياسية .

ويحاول جون ركس اقامة انماط مثالية لهؤلاء الأفراد المغتربين التى تخضعهم الطبقة الحاكمة لارادتها ، وذلك فيما يتعلق بالممارسة السياسية :

(ا) وهناك الفرد الذى يدرك انه عاجز عن هذه الممارسة ، ومن ثم ينسحب من اى مناقشة تتعلق بالسياسة ، ويفضل ان يناقش امورا حيادية لا تهدده بالدخول فى صراعات غير متوقعة بينه وبين الآخرين (الاهتمام بالكرة مثلا) .

(ب) وهناك الفرد الذى ينسحب الى عالم الترفيه التافه ويصبح مثله الأعلى احد المغنين الشعبيين او احد نجوم الكرة . وهو يعتبر ان عالمه هذا عالم مثير ومقدس اذا ما قورن بالعالم الكئيب المدنس للحياة اليومية .

---

(٥٣) هذا المصطلح مستعار من رايت ميلز .

(ج) هناك الفرد الذى يقبل على القراءة ويعتقد انه يبحث بجدية عن الحقيقة وأن يلم بكل الحائق والآراء البديلة . وليس معنى ذلك انه اقل تعمية أو تجهيلا من النمطين السابقين . فالفرد الذى يريد أن يعرف غالبا ما يجد تفسيرا « جاهزا » Pre-Packed للعالم .

ولذا ما اعتقد ان هناك جانبين لكل مسالة ، فانه يستطيع أن يحصل على تفسيرهما دون ان يعرف الحقيقة .

ويذهب ركس الى أن هذه الأنماط يمكن احتواؤها داخل نسق الأفكار الذى يحدده اولئك الذين يملكون السلطة . والأسلوب الوحيد للخروج من هذه الدائرة يكمن فى تملك معرفة مستقلة بعالم السياسة ، ومشاركة فعلية فيه . حقيقة أن النظام القائم على هندسة الاتفاق لديه قدرة على مقاومة التغير ، ولكن هناك أملا ـ ولو ضئيلا ـ فى تغييره يكمن فى تزايد عدد الأفراد الذين يحققون فهما كافيا بميكانيزماته الرشيدة فى التجهيل . ويقع على الباحث السوسيولوجى عبء كبير فى تحقيق هذا الهدف .

* اما عن العالم الثانى فان جون ركس يحلل ما يطلق عليه البناء القائم على التخطيط المركزى والتعبئة السياسية . فيذهب الى ان هذا البناء يفرز نفس النمط من المواقف والمشكلات التى تقهر الفرد وتجعله يعيش أجهزة الدولة التى تسيطر عليها الطبقة الحاكمة ويلخص ركس المشكلات المرتبطة بهذا النظام على النحو التالى(٥٤) :

١ ـ تنبع المشكلة الأولى من الدور الذى يلعبه الحزب ، وبنائه الداخلى وعلاقته بالبيروقراطية الاقتصادية . فالحزب فى المجتمع القائم على التخطيط المركزى ظاهرة اجتماعية جديدة فى نوعها من حيث أن تنظيمه يختلف عن تنظيم الأحزاب فى العالم الرأسمالى . فالحزب يناط به ـ نظريا ـ حماية مصالح الطبقة العاملة ويسعى نحو تحقيق أكبر سعادة لأكبر عدد ممكن من الأفراد . ولكن انجاز هذه الوظائف محدد ببناء الحزب الداخلى ، اذ انه يسعى نحو الحفاظ على بنائه الداخلى أكثر من المحافظة على تحقيق اهدافه . ومن ثم يفرض رقابة مشددة ومزدوجة

---

(٥٤) Ibid., p. 148.

على اعضائه ، ويجند فصائل بوليسية لا متناهية يراقب بعضها البعض الآخر ، ويحطم قاعدة الديمقراطية ويحولها الى قواعد بيروقراطية ٠

٢ ـ اما المشكلة البنائية الثانية فتتعلق بالعلاقة بين الحزب والتنظيمات الأخرى فى المجتمع ، حيث يحاول الحزب أن يتفادى الصراع بينه وبين هذه التنظيمات ومن ثم يحاول تعبئتها وتجنيدها لخدمة اغراضه :

(أ) فبالنسبة لنقابات العمال يحاول ان يخضعها للرقابة وغالبا ما يسيطر ممثلو الحزب على المناصب القيادية فيها ٠

(ب) وبالنسبة للتنظيمات الدينية ، التى يجب الا نفترض انها اختفت نهائيا من المجتمع الشيوعى المخطط ، فان الحزب يستخدمها لتحقيق التضامن الاجتماعى والتعاون المتبادل ٠

(جـ) بالنسبة للنظم التعليمية والفكرية فان الحزب يوجهها لتدعيم ايديولوجيته وأفكاره ٠ ويراقب الحزب المفكرين ومن ثم يختفى التفكير الموضوعى والنقد الذاتى او مراجعة الآفار الأساسية القائمة ـ

(د) بالنسبة لوسائل الاتصال استطاع العالم الثانى ان يحقق تقدما يضاهى التقدم الذى حققه العالم الراسمالى فى هذا المجال ٠ فالحزب يراقب وسائل الاتصال الجماهيرية رقابة كاملة ٠ اما المادة التى تقدمها هذه الوسائل ـ سواء كانت فكرية او اخبارية ـ فانها تجعل الفرد يخضع خضوعا كليا للطبقة الحاكمة ٠

ولا شك ان هذه المشكلات البنائية العامة تؤثر على شخصيات الأفراد وتجعلهم يعيشون فى اغتراب مستمر عن مجتمعهم ، بنفس الطريقة التى يعيش بها الفرد فى المجتمع الراسمالى ٠ ويذهب ركس بناء على ذلك الى ان الاقتصاديات المخططة للعالم الشيوعى لم تحقق المثاليات اليوتوبية لحركات العمال فى المجتمعات الراسمالية ، بل على العكس من ذلك ـ فرضت عليهم صنوفا جديدة من الاستغلال ٠ ومن مهام الباحث فى علم الاجتماع ان يكشف لسكان العالم الثانى عن هذه الحقائق لكى يستطيعوا ان يتغلبوا ـ من خلال تغيير المجتمع ـ على همومهم الخاصة ٠

أما العالم الثالث فيطلق عليه ركس عالم المستعمرات ، ويذهب الى ان نظمه الاقتصادية والأبنية الاجتماعية المتصلة بها تختلف عن مثيلتها فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، فما تزال الأبنية التقليدية قائمة ، وان كانت الحضارات التقليدية لهذا العالم قد حطمها الاستعمار ، وخلق على انقاضها مجتمعا لا متجانسا يضم العمال ، والمستوطنين ، والمبشرين وموظفي المستعمرات ، بجانب السكان الوطنيين .

واذا كانت مشكلات العالم الأول تتعلق بالأجور والاستقلال الاقتصادى وبالحرية السياسية والفكرية فى العالم الثانى ، فان اهم مشكلات العالم الثالث هى المرض والفقر والعنف . ولا شك ان جانبا من هذه المشكلات يرجع الى عصور الاستعمار الطويلة التى عاشها وتعيشها بعض دول العالم الثالث . وحتى بعد حصول اغلب الدول على استقلالها السياسى فان العالم الراسمالى ما يزال يمارس عملية استغلال للعالم الثالث من خلال المساعدات العسكرية والمالية ، ومن خلال مساندة الطبقات الحاكمة التى قد تكون قائمة على القهر والاستغلال . ومن ثم فان ثورة العالم الثالث لا يجب أن تتجه نحو استغلال الدول المتقدمة لهذا العالم فقط ، ولكن يجب أن تتجه بنفس القدر نحو استغلال القادة المحليين والطبقات الحاكمة(٥٥) .

وبعد أن يعرض جون ركس لتصوراته عن الأبنية الاجتماعية الثلاثة يحاول أن يلقى الضوء على الصورة العامة لهذه الأبنية من خلال علاقتها بعضها بالبعض الآخر فيقرر حقيقتين جوهريتين :

الأولى : أن العالم المتنور (ويقصد به العالمين الأول والثانى) قد أفرز من التناقضات الداخلية ما وضعه على حافة أزمة تتبدى فى عدم التكامل الأخلاقى لبناء هذا العالم ، عدم التكامل الذى لا يجعل من عالمنا عصر تنوير جديدا ، وانما يخلق منه عصرا مظلما جديدا . وينعكس التفكك الأخلاقى هذا فى اسلوب التحكم الراسمالى فى الأفراد من خلال الترشيد البيروقراطى وفى مشكلات المدن ، وظهور الثقافات المضادة كما هو الحال فى حركة الطلبة أو ثورة الأقليات الزنجية ، وما يمارس ضد هذه

---

(٥٥) Ibid., p. 174.

الثقافات المضـادة من مظاهر قهر ومقاومة - ويعنى ذلك ان « ٠٠ النظامين الراسمالى والشـيوعى الذى يعتقد اصحابهما انهما نظامان مثاليان ، قـد بدآ فى الانهيار الى درجة اننا اصبحنا نعيش بالفعل فى عالم تعتبر فيه القوة والخداع قاعدة أساسية »(٥٦) ٠

الثانية : فى مقابل عصر الظلال هـذا يجب أن تنهض الثورة فى العالم الثالث لمواجهة بربرية العالم الراسمالى ٠ وفى هـذا الصدد يدعو ركس الى ضرورة قيام اتحاد وتحالف بين حركات التحرير فى العالم الثالث ٠

ومعنى ذلك ان ركس يدعو الى نظام جديد ويلح على ضرورة تغيـير بنـاء العالم كله ، أو انه ـ فى عبارة أخرى ـ يدعو الى « تحديث العالم » بحيث تخفى سيطرة النظام القديم فى العالم المتقـدم ، وتختفى الأجـزاء المختلفة لجتماعيا من العالم ، وتتحرر شـعوبها من براثن الخرافة والوهم - فبالنسبة للنظام الراسمالى يجب أن يتجه التطور فيه نحو مزيد من تحرير الانسان من سيطرة العمل ، ونحو مزيد من اخضاع النشاط التجارى لخدمة الأغراض الانسانية ٠ اما بالنسبة للنظام الشـيوعى فلا بد أن تحدث داخله تغيرات نظامية حقيقية بحيث بدأ الحزب فى معاملة اعضـائه ، ليس كآلات أو بيروقراطيين ، ولكن ككائنات بشرية ناضـجة قادرة على أن تكتشـف افكارا جديدة وتعبر عن مشاعرها بحرية ٠ اما بالنسبة لدول العالم الثالث فامامها لختياران : فهى لما أن تختار الأسلوب الراسمالى الرشيد او تختار النظـام القائم على التخطيط المركزى ٠ غير أن هذين النظامين لم يثبتا نجاحا كاملا فى المجتمعات الغربية والشرقية ، ومن ثم يحذر ركس دول العالم الثالث من زحف هذين النظامين ويدعو هذه الدول الى المحافظة على بعض القيم التقليدية التى توجد بها ٠ فهذه القيم التقليدية يمكن أن تمنح هذا العالم خطوطا أخرى للتقدم والتطور افضل من تلك التى تقدمها النظم المتقدمة(٥٧) ٠

ولا شـك أن علم الاجتماع يلعب دورا كبيرا فى عملية التنوير او التحديث التى يقصدها ركس ٠ فالمهمة المنوطة بالباحث فى علم الاجتماع تتمثل فى رفع

---

(٥٦) Ibid., p. 192.

(٥٧) Ibid., pp. 139—251.

التجهيل الأيديولوجى عن العالم لجمع ، وتسليط الضوء على العلاقة بين الهموم الفردية والمشكلات البنائية التى غالبا ما تختفى وسط متاهات الأيديولوجية والبحوث التى توجهها السياسة . ويكشف ذلك عن تأثر واضح بتشارلز رايت ميلز الذى دعا الى التزام الباحث بتنوير الجماهير بحيث تصبح قادرة على استيعاب العلاقة بين همومها الفردية ومشكلات البناء الاجتماعى التى تعيش داخله ، وذلك فيما اسماه « بالخيال السوسيولوجى » . والفرق الوحيد بين ميلز وركس يكمن فى أن الأول قد قصر تحليلاته على المجتمع الأمريكى ، بينما امتد بها الثانى لتشمل النظم المختلفة فى العوالم الثلاثة من خلال رؤية راديكالية عميقة للعلاقات بينها .

خـــــاتمة

حاولت فى هـذا الفصـل ان القى الضـوء على جانب آخر من حركة التجديد والنقـد فى علم الاجتماع ، ذلك الجانب الذى اقتفى اثر رايت ميلز فى الاهتمام بنقد المجتمع مع ربط هذا النقد ربطا وثيقا بنقد النظرية . ويتميز هـذا الاتجاه عن الاتجاه الذى عرضنا له فى الفصل السابق ، فى ان الاتجاه الأول اهتم اهتماما جوهريا بنقد النظرية معتقدا ان نقد النظرية يمثل ـ فى ذات الوقت ـ نقدا للمجتمع . اما الاتجاه الثانى فقد اهتم بنقد النظرية قدر اهتمامه بنقد المجتمع ومن ثم تفادى أوجه النقد التى وجهت للاتجاه الأول ولكن رغم هذا الاختلاف الطفيف بين التباين فى حركة النقد ، فانهما يلتقيان حول هدف واحد ، واعنى تحرير علم الاجتماع من التيار المحـافظ المرتبط بشكلة النظام ، وبالتالى السعى نحو تحرير الأفراد داخل هذا المجتمع مما يفرضه هـذا النظام من اساليب للتجهيل والقهر .

الفصل العاشر

البدائل النظرية والاحياء الفينومينولوجى

مقـــــدمة :

عرضنا فى الفصلين السابقين صورتين لحركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع الغربى • ونود هنا أن نقدم عرضا مقتضبا لبعض البدائل النظرية المطروحة فى علم الاجتماع الغربى والتى نشأت من داخله • ففى الوقت الذى اتجه فيه بعض النقاد نحو نقد النظرية أو نقد الواقع الإجتماعى الذى تفسره هذه النظرية ، اتجه البعض الآخر اتجاها مغايرا عندما كرسوا جهودهم لصياغة مجموعة من البدائل للنظرية اعتقدوا انها يمكن أن تحل محل النظريات التقليدية الذائعة الصيت فى المجتمعات الغربية وعلى رأسها البارسونزية • ويدعونا هذا الأمر الى أن نعتبرها اتجاهات نقدية ، فكل بديل يطرح على بساط البحث يقوم أساسا على نقد النظرية القديمة التى يدعى أنه يمكن أن يحل محلها • فكل البدائل النظرية التى ظهرت فى علم الاجتماع الغربى تتخذ موقفا نقديا من الوضعية أو التفكير الوضعى ومن الامتدادات المعاصرة للوضعية كما تتجسد فى اعمال بارسونز وتلاميذه ، وهى بذلك تساهم ـ بأسلوبها الخاص ـ فى هدم النظرية القديمة وفى تغييرها • وينظر نقاد النظرية ونقاد المجتمع نفس هذه النظرة الى البدائل النظرية المطروحة • فهى تنقوى من مجموعة التوترات والصراعات التى يخبرها علم الاجتماع الغربى ، ومن ثم تعجل بتغييره فى اتجاه آخر • وليس أدل على ذلك من كلمات الفن جولدنر حيث كتب يقول : « من الدلائل الأخرى على التعجيل بأزمة الوظيفية ظهور نماذج نظرية شاملة تختلف عن الوظيفية اختلافا جذريا ، فهى نماذج تختلف صياغتها الشكلية وما يرتبط بها من افتراضات ومشاعر عن النموذج البارسونزى بصفة خاصة ، وعن الوظيفية بصفة عامة »(١) •

---

(١) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., p. 378.

ويكشف هـذا النص عن تلك الصـلة التى تربط بين هـذه النماذج النظرية المطروحة فى علم الاجتماع الغربى وبين الحركة النقدية التى يخبرها هذا العلم • وهكذا يمكن أن نقول ان حركة التجديد والنقـد فى علم الاجتماع تسير على ثلاثة مستويات : النقـد السوسيولوجى الذى يعـد ارهاصـة لتقديم بديل نظرى راديكالى ، والنقد الاجتماعى الذى يحلل أجزاء الواقع فى ضوء هذا البديل ، ثم البدائل النظرية المنابعة من تلب الاتجاه القديم ذاته • ويثار هنا تساؤل على قـدر كبير من الأهمية : ماذا نقصـد هنـا بالبدائل النظرية ؟ هل هى كل البدائل المطروحة بما فى ذلك البدائل التى تعـد صورة معدلة من المـاركسية ؟ الحقيقة أننـا نستبعد هنا كل الصور المعـدلة من المـاركسية وذلك لسـببين :

الأول : ان العرض السابق قـد لمس بعض هذه الصور كما تبدى ذلك فى أعمال رايت ميلز والفن جولدنر • وهى أعمال تعـد اساسا لبديل نظرى ، يمكن أن نطلق عليه البديل الراديكالى أو علم الاجتماع الراديكالى •

الثانى : أننـا نود هنـا أن نركز على البـدائل التى نبعت من داخل الاتجاهـات التقليـدية ذاتها ، ومن خـلال تلاميـذ لغلاة المحـافظين فى علم الاجتماع • فسوف يسمح لنـا هـذا العرض بتوضيح مدى اتفاق هـذه البدائل او اختلافها مع التيـار القـديم ، والاسهـام النظـرى والمنهجى الـذى قـدمته •

ويجـد المستعرض لهذه البدائل ان لها مجموعة من السمات العامة ، ويجد أنها قـد استقت من روائد واحدة الى درجة أننا نستطيع أن نضمها سويا فى اتجاه واحـد ، أو نسـتطيع ـ بالأحـرى ـ أن نكتشف داخلها اتجاها عاما له مجموعة من الخصائص التى تسم هذه البـدائل جميعا • فجميع هـذه البدائل تتخذ موقفا نقديا من الوضعية وصورها المحدثة : فهى تعارض نزعة التجريد ، وتعارض الاتجاه الكمى الاحصائى ، وتتجه نحـو دراسة الحياة اليومية ، ونحو دراسة علاقات التفاعل بين الأفـراد من وجهة نظر الأفراد انفسهم وتقييمهم للموقف الاجتماعى الذى يتم داخله التفاعل • والواضح هنـا أن هذه الاتجاهات تحاول احيـاء التراث الفينومينولوجى بشقيه الفلسفى والاجتماعى ، وكذلك التراث التفاعل الرمزى المرتبط باعمال

توماس كولى Cooly وهربت ميد Herbert Mead . ويمثل هذا الاحياء احد ردود الفعل تجاه سيطرة علم الاجتماع المرتبط بمشكلة النظام والذى ناقشناه فى القسم الأول من هذا الكتاب . ويذهب موريس روش Maurice Roche الى أن احياء الفينومينولوجيا فى علم الاجتماع ـ وهو احياء أصبح يتمتع بتأثير متزايد فى السنوات الأخيرة ـ يجسد الملامح الانسانية التى كانت مغمورة ومكبوتة فى علم الاجتماع لوقت طويل ، وذلك بسبب سيطرة الوضعية والبنائية . فالأولى انتجت « النزعة الأمبيريقية المجتزأة » التى تسخر بحوثها فى خدمة أجهزة الحكومة والشركات الكبرى ، اما الثانية فقد انتجت النظرية الكبرى التى تدعى تقديم نظرية عالمية(٢) . وفى كلا الحالين اهمل الانسان الذى حاولت النزعة الانسانية فى الفلسفة أن تجعله موضوعها الأساسى .

وهنا تكمن اهمية استعراض هذه البدائل النظرية التى أحيت هذا التراث الانسانى فى الفلسفة فى مقابل الوضعية والبنائية . من أجل اكتشاف مدى اختلاف هذه الاتجاهات الجديدة عن الأطر القديمة التى تناقضت معها . والسؤال الكبير الذى يطرح على بساط البحث الآن هو الى أى مدى استطاعت هذه الاتجاهات النظرية الحديثة ، او حتى الاتجاهات النقدية التى عرضناها فى الفصول السابقة ، أن تقوض دعائم النظرية القديمة ؟ والى أى مدى استطاعت هذه الاتجاهات النظرية الحديثة ان تحى الاهتمام بالانسان ومصيره ووعيه وتحريره أولا وقبل كل شىء ؟ وهنا تكمن اهمية هذا الفصل الذى نعقده عن هذه البدائل النظرية .

سنحاول فى البداية أن نستعرض الأحوال البنائية والفكرية لهذه الاتجاهات ، ثم نستعرض بعد ذلك أهم هذه الاتجاهات النظرية التى نحصرها فى ثلاثة اتجاهات رئيسية هى احياء الفينومينولوجيا ،

---

(٢) Maurice Roche, Phenomenology, Language and the Social Sciences, Routledge and Kegan Poul, Lonodon, 1973 p. 315.
والملاحظ أن نفس هذين الموضوعين ـ الامبريقية المتجزأة والنظرية الكبرى ـ هما نفس الموضوعين اللذين انتقدهما رايت ميلز كما لاحظنا فى مكان سابق .

والاثنوميثودولوجى ، ثم لحياء التفاعلية الرمزية • وفى النهاية نتحدث عن مدى اسهام هـذه البدائل النظرية فى اثراء النظرية السوسيولوجية ومدى فشلها فى تقويض دعائم النظرية القـديمة • وبنـاء على ذلك يتكون هـذا الفصل من العناصر الآتيـة :

اولا : الجذور البنائية والفكرية للبدائل النظرية •

ثانيا : احياء الاتجاه الفينومينولوجى •

ثالثا : الاثنوميثودولوجى : منهجية الجماعة •

رابعا : احيـاء التفاعلية الرمزية •

خامسا : البدائل النظرية بين الاسهام النظرى والمنهجى •

اولا ـ الجـذور البنائية والفكرية :

لا شك فى أن مجموعة التحولات الفكرية والبنـائية التى اجتاحت المجتمعات الغربية فى الستينات ، والتى كونت تحـديا بنائيا وفكريا أمام الاتجاهات الكلاسيكية هى التى فتحت الطريق أمام امكانية قيـام بدائل نظرية يمكن أن تحل محلها نظريات هذا العلم الكلاسيكية • وتنحصر دلالة هذه التحولات بالنسبة للنظريات التى ناقشناها هنا فى جانبين رئيسيين :

الأول : انها دفعت الى التشكيك فى النظريات القديمة واظهرت الحاجة الى نظرية تحتل فيها حرية الفرد وافعـاله القصدية أو اللاقصـدية مكانا بارزا ومن ثم يمكن أن تستوعب الدعوة نحـو التغيير التى رفعهـا جيـل الستينيات فى أوربا وأمريكا • واذا عرفنا ـ كمـا سنرى بعـد قليل ـ أن التراث الفلسفى للفينومينولوجيا والتفاعلية الرمزية قـد اهتم بالأفعـال القصدية ، والوعى ، والذات الفاعلة ، سندرك لمـاذا اتجه علم الاجتماع نحو احياء الفينومينولوجيا ، والتفاعلية الرمزية ، وسندرك أيضـا مـدى ارتباط هـذا الاحياء بالتحولات البنائية التى ظهرت فى الستينات •

الثانى : أن الفلسـفة ـ وخاصـة الفلسـفة الوجودية ـ قـد لاقت انتشارا بين جماعات الشباب ودعاة التغير ، ولقـد ركزت هـذه الفلسفة من خلال اعمال كيركجارد وسارتر ـ على الخبرة الذاتية للفـرد وصورته على أنه انسان له وجوده الخاص وتاريخته الخاصـة فى علاقاته بعـالم

الأشياء أو بالآخرين • كما اهتم الشباب أيضا بادب العبث كما تمثله اعمال البير كامى Camus وبيكت Beekeet وسارتر أيضا • وينظر هذا الادب الى الانسان فى المجتمع على أنه عبث ، فهو يعمل داخل بيئة تخبر تناقضا مستمرا بحيث لا يستطيع أن يتوصل من خلالها الى هدف ذى معنى(٣) • ولذا كان الأمر كذلك ، فانه من الطبيعى أن يلاقى أى احياء للفلسفة الفينومينولوجية ، أو الفلسفة التى تركز على جوهر الانسان بصفة عامة ، واعادة صياغتها فى شكل اجتماعى ، قبولا واسعا بين الشباب •

هذه اشارة عابرة الى ارتباط البدائل النظرية فى علم الاجتماع بالتحولات البنائية فى المجتمعات الغربية فى العقد الماضى ، ولنتحول الآن الى الأصول الفكرية التى استمدت منها هذه البدائل اساسها النظرى والمنهجى •

ترجع هذه الأصول الى فلسفة الظواهر Phenomenology بالصورة التى قدمها بها ادموند هوسرل(٤) • ولقد قامت فلسفة هوسرل فى أحد جوانبها على مناقشة الفرض التجريبى ـ الذى تعتمد عليه العلوم الطبيعية ـ والذى يفصل بين عالم المادة الخارجى وبين الذات التجريبية • ويطلق هوسرل على ذلك الاتجاه الذى يفصل بين الذات والموضوع أو بين عالم الشعور وعالم المادة ، يطلق عليه الاتجاه الطبيعى • ان هوسرل

---

(٣) Glenn A. Good win, "On Transcending The Absudr An Inquiry in the Sociology of Meaning" A.J.S. Vol. 76, No. 5, 1971, p. 832.

(٤) ادموند هوسرل (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) هو أحد الفلاسفة الألمان المعاصرين الذين أحسوا بالحاجة الى اقامة الفلسفة علما ، له موضوعاته المحددة ومنهجه المحدد ، وقد تتلمذ هوسرل على فرانز برنتانو (١٨٣٨ ـ ١٩١٧) ، مؤسس النزعة السيكولوجية التى تقول بان علم النفس هو العلم الاساسى الذى تقوم عليه جميع العلوم الأخرى بما فيها المنطق ونظرية المعرفة والأخلاق • كما تتلمذ أيضا على كارل شتوف (١٨٤٨ ـ ١٩٣٦) الذى اقام المنطق ونظرية المعرفة على علم النفس دون أن يتورط فى النزعة السيكولوجية •

أنظر : عبد الغفار مكاوى ، **فلسفة الظاهريات : ادموند هوسرل** ، محاضرات على الآلة الناسخة ، صص ١ ـ ٨ ، ومحمود زيدان ، **مناهج البحث الفلسفى** ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٤ ، ص ٦٥ •

لا يريد انكار وجود هذا الاتجاه الطبيعى ، أو العالم المادى ، ولكنه اهاب بالفلاسفة الا يفترضوا وجودهما لأنه يريد ان يبدأ الفيلسوف من بدايات مطلقة لا تنطوى على اى فروض · وهنا يكون شعور الفيلسوف الباحث هو الحكم النهائى ، فالظواهر هى الشعور الخالص أو أفعالنا العقلية انها خبرات قصدية موجهة للأفعال العقلية(٥) · ولا شك أن اعتبار الشعور أو الخبرات القصدية محكا لرؤية العالم ودراسة ظواهره يناقض قضية العلماء الطبيعيين التى تفصل بين العالم الخارجى والذات التجريبية · فرغم أن الفيلسوف لا يبدأ بأى أفكار قبلية مسبقة ، الا أنه يصف الظواهر كما تبدو فى ادراكه وشعوره ، أو بعبارة أخرى يصف « ماهيات » الظواهر من خلال ادراكه وشعوره ، أو خبراته القصدية ، بل انه يتعدى مرحلة الوصف الى مرحلة التفسير · « فاحدى الدعائم التى يقوم عليها المنهج الفينومينولوجى هى التماس القضايا اليقينية فى الشعور وأفكاره ، أو الذات وخبراتها من ادراك ووجدان وتخيل ورغبة وتذكر وشعور واعتقاد وحكم »(٦) · ويترتب على ذلك أن يصبح العالم الخارجى غير منفصل عن شعورى وادراكى كشخص يعيش فيه ، وليس للمعرفة أى معنى ان لم تكن مستقاة من تصوراتى وأفكارى وخبراتى مع عالم الظواهر · ولا شك أن هذه القضية تناقض القضية الوضعية التى طورها دوركايم والتى تنفصل بين ذات الباحث وموضوعات دراسته ، عندما قرر ضرورة دراسة الظواهر « كأشياء » منفصلة عن ذات الباحث · فكل فرد لا بد أن يكون له موقف أو اتجاه طبيعى تجاه العالم يعمل بمثابة المصفاة أو المنظار المخروطى الذى ينقى مدركاته ويعزل عنها الشوائب والشكوك فى مجال حياته اليومية ، لدرجة أنه مع مرور الوقت يصبح لدى هذا الشخص نظرية ذاتية خاصة به يستعين بها كدعامة فى مجابهة العالم(٧) · والنظرية التى يصوغها الباحث ما هى الا جماع نظريات الأفراد عن العالم التى يكونها من خلال عمليات

---

(٥) المرجع السابق ، صص ٦٦ ـ ٦٩ ·
(٦) المرجع السابق ، ص ٧٣ ·
(٧) سعد الدين ابراهيم ، المنهجية الواقعية : الاثنوميثودولوجيا : محاضرات على الآلة الناسخة القيت على طلبة الماجستير بكلية الآداب عام ١٩٧٦ ، ص ٢ ·

التفاعل · وتلك هى القضية الأساسية التى يقوم عليها علم الاجتماع الفينومينولوجى ·

وانطلاقا من هذه القضية جاءت اعمال الفرد شوتز(٨) الذى يعد الرافد الفكرى الثانى ـ بعد هوسرل ـ الذى اشتقت منه البدائل الفينومينولوجية المعاصرة · بدأ الفرد شوتز من نقد علم الاجتماع الصورى عند ماكس فيبر ، حيث وضع تحفظات كبيرة على تحليل ماكس فيبر الذى يذهب الى أن علم الاجتماع هو العلم الذى يتوصل الى الفهم التأويلى للفعل الاجتماعى من أجل التوصل الى تفسير سببى لمجراه وآثاره ، والذى يذهب أيضا الى أن الفعل يكتسب صفة الاجتماعية من خلال المعنى الذاتى الذى يضفيه عليه الأفراد ، فهو يأخذ فى اعتباره سلوك الآخرين الذى يؤثر بدوره فى مجراه · ان هذا التحليل الفيبرى لا يتعمق كثيرا ـ حسبما يذهب شوتز ـ ليلمس اسس المعرفة الاجتماعية · فالمعنى الذاتى لا يمثل عنصرا اساسيا ونهائيا للظواهر الاجتماعية كما ذهب فيبر ، ولكنه مجرد مؤشر على مجال اكثر تعقيدا يحتاج الى مزيد من الدراسة والتقصى · فضلا عن أن فيبر لم يميز بين « الفعل المكتمل » ـ Completed act وغير المكتمل action in progress ، او بين المعنى الذى يضيفه منتج الموضوع الثقافى عليه ومعناه الموضوعى ، فلقد تصور فيبر تجانسا فى الفن ، أما شوتز فانه كان ينظر الى المعنى على أنه نسق معقد من المنظورات(٩) ·

ومن هنا بدأت فينومينولوجية شوتز · فالظواهر الاجتماعية ـ فى نظره ـ تتكون من المفاهيم العادية Common-sence concepts التى يكونها الأفراد عن العالم وعن بعضهم البعض خلال حياتهم اليومية · وعندما يصوغ الباحث صياغاته الفكرية فانه يقيمها فى ضوء الصياغات التى يكونها الانسان الذى يعيش حياته العادية وسط قرنائه · ومن ثم فان

---

(٨) الفرد شوتز عالم اجتماع المانى تتلمذ على ادموند هوسرل ترك المانيا الى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٩ · وبدأ التدريس فى المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية بنيويورك عام ١٩٤٣ ·

(٩) Peter Lassman, "Phenomenological perspectives in Sociology," in : J. Rex (ed.), Approaches to Sociology, Routledge and Gegan Paul, London and Boston, 1974, p. 126.

الصياغات الفكرية التى يقدمها علماء الاجتماع ما هى الا صياغات من درجة ثانية ، وهى صياغات عامة لصياغات فردية كثيرة يكونها الفاعلون على مسرح للحياة الاجتماعية(١٠) واعتقد شوتز أن هذه الرؤية الفينومينولوجية يمكن أن تحل الكثير من مشكلات العلوم الاجتماعية : من ذلك مثلا مشكلة استخدام منهج العلوم الطبيعية • فهذه المناهج تؤدى الى معرفة ثابتة عن الواقع الاجتماعى ولكنها معرفة غير متسقة مع بعضها البعض ، لأنها سوف لا تخبرنا باى شىء عن الواقع الاجتماعى كما يخبره الأفراد فى الحياة اليومية • فالمهمة الأساسية المنوطة بالعلوم الاجتماعية هى الكشف عن المبادىء العامة التى ينظم فى ضوئها الانسان خبراته فى حياته اليومية ، وهى مهمة لا يمكن تحقيقها من خلال منهج العلوم الطبيعية الذى يفصل بين الذات التجريبية وبين العالم الخارجى ، ومن المشكلات التى تحطها الرؤية الفينومينولوجية مشكلة الموضوعية • فالصياغات الفكرية التى يقدمها الباحث هى صياغات موضوعية ، لأنها تتخذ شكل الأبنية المثالية او الأكثر شيوعا ، وهى ابنية تختلف بالقطع عن الأبنية الجزئية التى يكونها الفاعلون الأفراد ، صحيح أن التاويل العادى للحياة اليومية يؤثر على الموقف الشخصى للباحث ، ولكن الباحث ـ من خلال اعداد نفسه ليكون عالما ـ يستطيع أن يستبدل مواقفه الشخصية بما يمكن أن نسميه الموقف العلمى ، بحيث تجىء صياغاته النظرية متسقة اتساقا منطقيا بمعنى انها يجب أن تشتمل على الصدق الموضوعى فى عناصرها الداخلية ، وبها قدر من الكفاءة الامبيريقية ، بمعنى أن تتوافق عناصرها مع الأبنية الفكرية فى الحياة اليومية(١١) •

ولقد تبلور من خلال أعمال شوتز اتجاه جديد فى علم الاجتماع يمكن

---

(١٠) Ibid., p. 127.

(١١) A. Schutz, "Concept and Theory formation in the Social Sciences," Journal of Philosophy, Vol. 51, 1954, pp. 257—72.

يكشف هذا الرأى فى الموضوعية عن أوجه شبه بينه وبين رأى الفن جولدنر • ففكرة الفصل بين الواقع الشخصى للباحث وبين عمله العلمى من خلال وعيه الذاتى بالعلاقة المعقدة بينهما ، وهى الفكرة التى تطرحها نظرية « علم الاجتماع الانعكاسى » تقترب من رأى شوتز فى الموضوعية النابع من مذهبه الفينومينولوجى •

ان نطلق عليه « علم الاجتماع الفينومينولوجى » ، يعارض الكثير من القضايا التى يقوم عليها علم الاجتماع فى صورته الوضعية التى امتدت من كونت حتى بارسونز • ويقوم علم الاجتماع الفينومينولوجى على مجموعة من القضايا يمكن حصرها فيما يلى(١٢) :

١ ـ يكمن الأساس الفلسفى لعلم الاجتماع الفينومينولوجى فى فلسفة الظواهر التى طورها هوسرل ، وهى الفلسفة التى اعاد صياغتها الفرد شوتز عندما أولى اهتماما للذاتية الداخلية Intersubjectivity للاتجاه الطبيعى مما جعله مفيدا فى دراسة الظواهر الاجتماعية •

٢ ـ ومادة التحليل الفينومينولوجى هى خبرة الحياة اليومية ، وعالم الحياة المعطى كما يتجسد من خلال تركيبات من المعرفة التى يتم تكوينها ونقلها اجتماعيا • فعلم الاجتماع الفينومينولوجى لا يقتصر فى دراسته على مضمون هذه التركيبات ، ولكن مجال اهتمامه يمتد الى العمليات التى من خلالها تتكون ، وتنقل ، وتستقبل مثل هذه التركيبات ، ودور الأبنية التنظيمية والنظامية فى تشكيل مثل هذه العمليات •

٣ ـ ينظر علم الاجتماع الفينومينولوجى للانسان على انه يمتلك عنصر المبادأة فى الفعل الاجتماعى • ان الفاعل يقف فى علاقة جدلية مع الواقع ، فهو يعد خالق هذا الواقع ونتاجا له فى ذات الوقت •

٤ ـ يترتب على ذلك ان يرتكز علم الاجتماع الفينومينولوجى على مبادىء النزعة الفردية الميثودولوجية والاتجاه النسبى Relativation فالواقع والصدق والرشد يتحدد فى ضوء المعانى التى يضفيها عليها الفرد فى مواقفه وأفعاله • ويترتب على ذلك ان تعتمد أصدق التفسيرات السوسيولوجية على كفاءة هذه التفسيرات على مستوى التأويل الذاتى لخبرة الفرد العادية •

ولتحقق هذا الصدق فان علم الاجتماع الفينومينولوجى لا يعتقد

---

(١٢) E. Best, "New Directions in Sociological Thought, A Critical Note on Phenomenological Sociology and its Antecedents," B.J.S. Vol. XXVI No. 2. June, 1975.

فى صحة الافتراضات السببية المرتبطة بصياغة الفروض صياغة اسمية ـ استنباطية والتى تميز العلوم الطبيعية ، ولكنه يعتمد على تصور للحياة الاجتماعية من خلال تصورات الأفراد وأفكارهم عنها ٠

والمتأمل لقضايا علم الاجتماع الفينومينولوجى يستطيع أن يستنتج حقيقتين : الأولى : أنه يعتبر تيارا نقديا لعلم الاجتماع الكلاسيكى أو المحافظ على أساس أن علم الاجتماع فى صورته المحافظة المرتبطة بمشكلة النظام قد سلخ نفسه من الواقع واغترض فجوة بين الباحث وموضوع دراسته عندما أكد ضرورة النظر الى ظواهر هذا الواقع على أنها أشياء ٠ والثانية أنه يعتبر امتدادا لبعض القضايا التى طورها ماكس فيبر ٠ حقيقة أن سوتز قد انتقد صورة فيبر ، ولكن فيبر استطاع أن يبرز ـ فى وقت مبكر ـ بعض القضايا الهامة التى أفاد منها الفينومينولوجيون مثل الاهتمام بالمعنى الذاتى لأفعال الأفراد ، وصياغة الأنماط المثالية ٠ وهذا هو الذى دعانا الى أن نتحدث عن « تميز تراث ماكس فيبر » أثناء عرضنا لاسهامات علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر ٠ فرغم انتمائه الى نفس العصر الذى تبلور فيه الارتباط بين علم الاجتماع والاتجاه المحافظ ، الا أنه استطاع أن يحيد عن الخط الذى سارت فيه الوضعية عندما رفض فهم العلوم الطبيعية ، وعندما قدم منهج « الفهم الذاتى » للفعل ذى المعنى ٠

ونحن نؤكد على تلك الصلة بين فيبر وشوتز لنبرهن على قضية اخرى مؤداها أن علم الاجتماع الفينومينولوجى كان امتدادا لتيار معين داخل علم الاجتماع الغربى يناوىء الوضعية ، ولكنه كان تيارا خائفا وضعيفا أمام طغيان وسيطرة البارسونزية ٠ وهذا هو السبب الذى جعل البدائل النظرية المعاصرة داخل علم الاجتماع الغربى تتخذ اتجاها فينومينولوجيا ٠ فهى من ناحية تريد ألا تتخذ مسارا وضعيا تحاكى من خلاله العلوم الطبيعية فى التعامل مع مادة دراستها ، وهى من ناحية ثانية تريد أن تتفادى كل المزالق التى وقع فيها علم الاجتماع الغربى كما يتجسد فى صورته البارسونزية وعلى رأسها النزعة نحو التجريد والصورية ، والنزعة نحو التكميم أو الصورية الرياضية ، كما تريد من ناحية ثالثة أن تكون أكثر التصاقا بالجماهير وأكثر وعيا بمشكلاتها فى محاولة لتخفيف جانب من المعاناة والاستغلال الذى تعيشه هذه الجماهير ٠ وفى أى من هذه الأحوال لا بد

لأى بديل نظرى مطروح أن يبحث عن جذور فكرية تختلف عن تلك الجذور التى استمد منها بارسونز وزملاؤه نظرياتهم ، ووجدت هذه النظريات ضالتها فى الفلسفة الفينومينولوجية وفى علم الاجتماع الفينومينولوجى بالصورة التى قدمها الفرد شوتز ٠

غير أن هناك رافدا آخر لقى طريقه الى الاحياء فى تراث علم الاجتماع المعاصر ، وأعنى تراث التفاعلية الرمزية الذى نبع من اعمال تشارلز كولى Cooley ، وهربرت ميد ، ظهر فى أعمال هذين العالمين موضوعان اساسيان وضعا أساسا لتراث متميز فى علم الاجتماع يختلف عن تراث الوضعية بصورها المتعددة ، ويقترب من تراث المدرسة الفينومينولوجية ، بل انه يشترك معه فى كثير من قضاياه ٠ وينحصر هذان الموضوعان فى فكرة الذات الفاعلة ، والرموز Symbols كوعاء يجمع المعانى التى يضيفها الفاعلون على افعالهم ويسهل عملية التفاعل ٠ وقد ظهر الموضوع الأول فى اعمال كولى ، اما اعمال هربرت ميد فقد احتوت فهما معينا للعلاقة بين الموضوعين ٠

تنبثق فكرة كولى عن الذات الاجتماعية من فهم معين للعلاقة بين الفرد والمجتمع فالعلاقة بين المجتمع والفرد علاقة عضوية بمعنى أن « الفرد ليس منفصلا عن الكل الانسانى ، ولكنه عضو يعيش فيه ، وهو يشتق حياته من هذا الكل ، ومن خلال الارسال الاجتماعى والوراثى »(١٣) ٠ غير أن هذه العلاقة بين الفرد والمجتمع لا تنبع من فهم دوركايمى يقوم على سيطرة المجتمع على الفرد سيطرة كاملة ، فالعلاقة بينهما ـ فى نظر كولى ـ تبدو وكأنها علاقة متوازنة : « فالمجتمع يصنع الانسان ، والانسان بدوره يصنع المجتمع »(١٤) ٠ بل ان دراسة المجتمع تبدأ من الفرد حيث كتب يقول : « ففى داخل الأفراد ـ وليس فى نطاق اى فرد آخر نستطيع ان نعثر على النظام »(١٥) ٠ ومن هنا بدأ اهتمام كولى بالذات Self ، (أو الأنا ego) ٠ والذات عنده هى « ما يشار اليه فى لغة الحياة اليومية

---

(١٣) السيد محمد الحسينى ومحمد على محمد تشارلز كولى ، المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ١٩٦٧ ، ص ١٢٥ ٠
(١٤) نقلا عن المرجع السابق ص ١٢٦ ٠
(١٥) نقلا عن تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٢١٧ ٠

بضمير المتكلم المفرد « أنا » فى صيغة الفاعل والمفعول « وياء » « الملكية » ، وهى وجدان غريزى يهدف الى « توحيد ضروب النشاط الصادرة عن الفرد ودفعها الى الأمام »(١٦) • والذات بهذه الصياغة لا تعد ذاتا فردية ، ولنما هى ذات تنمو داخل المجتمع ، ونموها هذا يجعل فكرة الذات عبارة عن شعور بما يميز حياة الفرد عن حياة الآخرين ، كما أن للذات فى حد ذاتها تتضمن الاشارة الى الآخرين ، فالشعور بالذات (بالأنا) يتضمن شعورا بذوات الآخرين ، فكل شىء يربطه بالذات له دلالة لجتماعية(١٧) • وهذا هو السبب فى أن كولى يركز على ما أسماه بالذات المنعكسة Reflected Self التى تتضمن تصور الفرد لنفسه ازاء الآخرين وتصور أحكام الآخرين عنه ، فضلا عن شعوره الذاتى(١٨) • ويعنى ذلك أن الذات هى أساس علاقات التفاعل بين الأفراد وهى جوهر التنظيم الاجتماعى ، بل ان فهم هذا التنظيم الاجتماعى لا يمكن أن يدرس الا من خلال الفهم الداخلى (التعاطفى) الذى يقوم على الملاحظة والحدس(١٩) • ويتضح هنا أن كولى يسعى الى دراسة موقف الفرد ليس فقط فى علاقته بالتنظيم الاجتماعى وانما فى قدرته على توجه هذا التنظيم وجهة معينة ، كما أن أسلوب هذه الدراسة لا يتصور انفصالا بين الفرد والباحث ، وانما يجب على الباحث أن يتعمق من خلال الحدس خلف ذوات الأفراد • وفى كلا الحالين نجد اختلافا عن تراث الوضعية ، وأساسا لاتجاه جديد قريب من التيار الفينومينولوجى •

ولقد اتضحت أسس هذا الاتجاه بشكل أكثر تبلورا فى أعمال جورج هربرت ميد George Herbert Mead اذ يحتل مفهوم الذات عنده أهمية محورية فقد نظر الى الانسان « بوصفة كائنا عضويا له ذات • وملكية الانسان للذات تحوله الى فاعل فريد وتشكل علاقته بالعالم ، وتعطى

---

(١٦) مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٨١ •
(١٧) المرجع السابق ، صص ١٨١ ـ ١٨٢ •
(١٨) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ •
(١٩) انظر : تيماشيف ، المرجع السابق ، صص ٢٢١ ـ ٢٢٢ •

لأفعاله طابعا مميزا(٢٠) · فمن خلال الذات يكون الفرد صورة عن نفسه وعن الآخرين وهو يتعامل مع نفسه كموضوع مثلما يتعامل مع الآخرين كموضوعات ، والذات هنا ليست بناء مستقلا له خصائص بنائية · فالذات ليست الأنا ، وليست تنظيما للحاجات والدوافع أو الاتجاهات أو استدماجا للمعايير والقيم · الذات هنا تفهم بمثابة عملية انعكاسية Reflexive بين ذات الفرد والعالم الخارجي · وبمقتضى وجود الذات يعتبر الانسان في موقف متناقض مع العالم وليس نتاجا له ، وعليه أن يتعامل مع الواقع ويتعرف عليه وأن يبني لنفسه نمطا سلوكيا معينا بدلا من مجرد الاستجابة للواقع فقط ، فالفاعل هنا ينظم الواقع بطريقته الخاصة لكي يتوصل الى هذا النمط السلوكي · وهو في هذه الحالة لا بد أن يحدد رغباته وأهدافه ويراجع ذاته دائما في مقابل الواقع · والسلوك هنا هو سلوك موجه من خلال الذات ، والفرق بين الأفراد يظهر في اختلافهم في تنظيم الواقع والنجاح في تكوين خط سلوكي(٢١) ·

ولكن ما الذي يكسب السلوك صفة الاجتماعية ؟ يفرق ميد بين مرحلتين في نمو الذات ، تتكون الذات في المرحلة الأولى من خلال تنظيم مجموعة خاصة من الاتجاهات عن الآخرين وعن اتجاهاتهم نحوها · وفي المرحلة الثانية والمتقدمة من نمو الذات يتجاوز الفرد مرحلة الاتجاهات الفردية ويطور ضربا جديدا من الاتجاهات المرتبطة بالجماعة ككل ، التي يتبع لها الفرد · ومن ثم فان الذات تبلغ أوج تطورها عندما تنظم الاتجاهات الفردية في اتجاهات جماعية ، أو أن يصبح انعكاسا للسلوك الجمعي أو الاجتماعي الذي ينخرط فيه كل من الفرد والآخرين(٢٢) · والذات هنا

---

(٢٠) Herbert Blumer, "Sociological Implications of the Tought of George Herbert Mead, in W. Wallace, op. cit., p. 234.

(٢١) Blumer, op. cit., pp. 234—236.

(٢٢) G. H. Mead, "Play, the Game and the Generalized other," in W. Wallace, op. cit., p. 231.

ومن الجدير بالاشارة ان هاتين المرحلتين تقومان على تفرقة ميد بين الآخر Other والآخر المعمم Generalized Other الذي هو الجماعة التي ينتمي اليها الفرد · فنمو الذات عند الفرد يمكنه من تجاوز النظرة الفردية الى ادراك الجماعة ككل ، وهنا يبدأ التعايش بين الذات والعالم ·

تبدو اجتماعية بالضرورة ، وتختفى الصراعات بينها وبين العالم ، وان كان هـذا الاختلاف يختلف باختلاف الأفراد ٠

والرموز هى التى تحقق الرابطة الكاملة بين ذوات الأفراد من حيث انها هى التى تكسب عناصر التفاعل ، ومن ثم التفاعل نفسه معنى معينا ٠ ويفرق ميد بين نوعين من التفاعل : التفاعل غير الرمزى ، والتفاعل الرمزى ٠ الأول هو مجرد الاستجابة لأفعال الآخرين دون اضفاء أى معنى عليها ، (دون فهمها) ٠ أما الثانى فانه يشير الى فهم طرق التفاعل للمعانى الكامنة خلف ضروب الفعل والسلوك(٢٣) ٠ فالرموز أو اللغة لذن هى الوسيلة التى من خلالها يفهم الفرد العالم المحيط ، ويضفى عليه معان معينة ، وبالتالى فهى وسيلته الى الارتقاء بذاته الى أرقى مراحل نموها ، وهى فى النهاية ، الوسيلة التى تحقق الترابط البشرى ٠

والفكرة الأساسية وراء هـذه الرؤية لعلاقة الذات بالعالم ودور الرمزى مؤداها أن دراسة المجتمع يجب ان لا تنفصل عن المجتمع نفسه ، بل ان دراسة المجتمع يجب أن تتم من وجهة نظر الأفراد انفسهم دون أن تكون شيئا مفروضا عليهم من الخارج ويعد ذلك موضوعا أساسيا فى اعادة الأحياء الفينومينولوجى فى علم الاجتماع ٠ هذا فضلا عن أن أفكار كولى وهربرت ميد تقف على نقيض ـ مثلها مثل أفكار شوتز ـ من التراث الوضعى الذى يفصل فصلا تعسفيا بين الذات والموضوع ، ويهتم بالتصورات الخارجية دون التصورات الداخلية للأفراد ٠ ومن خلال استعراضنا لمظاهر احياء هـذه الأفكار المبكرة ، نستطيع أن نكتشف الى أى مدى استطاعت هـذه الأفكار أن تخلق تيارا نقديا حديثا لعلم الاجتماع بصورته الوضعية ـ الوظيفية ، وان كنا سنبحث أيضا عما اذا كانت هذه الاتجاهات قد نجحت فعلا فى الانفصال عن هـذا التراث ٠

ثانيا ـ احياء الاتجاه الفينومينولوجى :

رغم أن الاتجاهات التى نعرضها فى هـذا الفصل ، تمثل ـ بشكل أو بآخر ـ احياء للتراث الفينومينولوجى ، الا أن هـذا الاحياء قد ظهر فى صورته الأولى متمثلا فى احياء فكر الفرد شوتز وتطويره دون اعطائه اسما

---

(٢٣) Blumer, op. cit., pp. 236—7.

جديدا ، الأمر الذى يجعلنا نعتبره امتدادا للاتجاه الفينومينولوجى القديم الذى عرضنا لجانب منه فى الفقرة السابقة . وربما يكون بيتر بيرجر Peter Berger وتوماس لكمان Thoomas Luckmann مما اظهر من يعبر عن هذا الاحياء الفينومينولوجى(٢٤) .

بدأ بيرجر ولكمان من فكرة شوتز عن الذاتية الداخلية Intersubjectivity ، فالعلاقات الاجتماعية الأولية ـ كما تنعكس فى الذاتية الداخلية للأفراد ـ هى أساس الواقع الاجتماعى ، تلك الذاتية التى تكتسب طابعا عاما من خلال اللغة . فاذا تصورنا أن اى تجمع بشرى يتكون من معطيات خارجة عن نطاق الأفراد ، ثم تصور الأفراد عن هذه المعطيات الخارجية واكسابها معان معينة ، فان المجتمع فى هذه الحالة يتكون من تفاعل جدلى بين المعطيات الموضوعية والمعانى الذاتية ، بمعنى تفاعل بين الخبرات المكتسبة من الخارج ، والخبرات الموجودة فى وعى الفرد ذاته . الواقع هنا ينعكس فى وعى الأفراد ، وذاتيتهم الداخلية ، أو بعبارة أخرى يتم بناؤه داخل الوعى أو داخل الذات وتحقق المعانى المشتركة من خلال اللغة والرموز وحدة هذا الواقع ، وبناء عليه تصبح مهمة علم الاجتماع (المعرفى) تحليل التركيب الاجتماعى للواقع(٢٥) .

ويطلق على مجموعة المعانى الداخلية التى يكونها الأفراد ـ وهى وسيلتهم لاعادة تركيب الواقع فى ذواتهم ـ يطلق عليها تعريفات الواقع . وهى التى تمكن الأفراد من أن يخبروا مواقف الحياة ويالفوها كمواقف حقيقية . وتنقسم تعريفات الواقع الى نوعين :

١ ـ معرفية تشير الى نوعية الأشياء القائمة .

٢ ـ معيارية تشير الى ما يجب أن تكون عليه هذه الأشياء .

---

(٢٤) قدم بيتر بيرجر وتوماس لكمان وجهة نظرهما فى الاسهامين التاليين :

P. Berger and Thomas Luckmann, "Sociology of Religion and the Sociology of Knowledge," Sociology and Social Research, Vol. 47, 1963; The Social Construction of Reality 1967 Penguin Books, 1971.

(٢٥) P. Berger and T. Luckmann, The Social Construction op. cit., p. 15.

ويختلف الأفراد فيما بينهم فى درجة وضوح هذه التعريفات ، ويترتب على ذلك أن يظهر قدر من الاختلافات بين سلوك الأفراد داخل المجتمع الواحد ، كما تظهر الفروق بين المجتمعات فى ضروب السلوك الشائعة التى تعتبر انعكاسا لما هو موجود فى داخليتهم من تعريفات للواقع ، أو بمعنى آخر ، من صياغة للواقع • وتمثل تعريفات الواقع هذه ، ضربا من ضروب المعرفة الاجتماعية(٢٦) • وهى شىء متاح لكل اعضاء الواقع الاجتماعى الذى تتم صياغته أو بناؤه بطريقة ذاتية • فالفرد يعيش فى عالم الحياة اليومية مسلحا باشكال معينة من المعرفة • وهو على وعى بأن الآخرين يشاركونه ـ على الأقل ـ جزءا من هذه المعرفة وهم يعرفون ذلك • ومن ثم فان تفاعل الفرد فى الحياة اليومية يقوم على مشاركته للافراد الآخرين اعضاء الجماعة فى نصيب مشترك من المعرفة الاجتماعية(٢٧) •

ولا شك فى أن هذا القدر من المعرفة المشتركة يساعم فى خلق التكامل داخل المجتمع • وفيما يتعلق بقضية التكامل او النظام العام ، يتحدث بيرجر ولكمان عن ثلاث عمليات رئيسية تخلق هذا النظام ، أو بمعنى آخر تجعل الأفراد يشتركون فى مجتمع منظم ، وهذه العمليات هى(٢٨) :

١ ـ التشكل النظامى Institutionalization ويظهر بمقتضاها انماط روتينية او معتادة من الأفعال يشترك فيها انماط مختلفة من الفاعلين •

٢ ـ الشرعية Legitimation بمعنى القدرة على تفسير وتبرير الأشكال النظامية من السلوك على مستوى المعنى ويتحقق ذلك من خلال المعرفة الاجتماعية بالواقع ، فطالما كون الأفراد تعريفات عن الواقع وتصوروه فى داخليتهم بطريقة معينة ، فان هذا الواقع سوف يكتسب صفة

---

(٢٦) يؤكد بيرجر وزميله هنا ان الفرق بين معرفة الفرد العادى ومعرفة العالم هو فرق فى الدرجة • فمعرفة العالم ما هو الا رؤية واضحة ومنظمة للمعرفة الذاتية للأفراد العاديين ، وتلك قضية منهجية رئسية فى الاتجاه للفينومينولوجى •

(٢٧) Ibid., p. 56.

(٢٨) P. Hamilton, knowledge and Social Structure, Routledge and Kegan Paul, London, 1974, pp. 139—141.

للشرعية عندهم : وكأن معرفة الواقع هنا دالة على شرعيته - ولا شك ان عالم الرموز (اللغة) يلعب دورا هاما فى هذه الشرعية من حيث الوعاء الكلى الذى تتصهر فيه معرفة الواقع .

٣ ـ الاستدماج Internalization ومن خلالها يتم استدماج نظم المجتمع من خلال الأدوار التى يلعبها الفرد . فطالما امتثل الفرد للدور المنوط به ، فان العالم الخارجى يصبح ذا معنى حقيقى بالنسبة له ، ومن ثم يصبح جزءا منه .

الواضح من هذا العرض السريع لآراء بيرجر ولكمان انه امتداد لفكر الفرد شوتز ، وانه فكر يناوىء ـ منهجيا على الأقل ـ الفكر الوضعى . فالمجتمع هنا موجود فى داخلية الأفراد ، وفى معرفتهم بمكوناته ، ووعيهم بها . والمعرفة السوسيولوجية ـ التى تعد هى نفسها صورة من المعرفة بالواقع ـ ما هى الا محاولة لفهم الطريقة التى ينظم بها الأفراد عالمهم ، ودرجة وعيهم ومعرفتهم بهذا الواقع .

واذا كانت آراء بيرجر ولكمان هى بداية الاحياء الفينومينولوجى فى الستينيات ، فان هذا الاحياء قد وجد أرضا خصبة لينمو فيها بسبب التحولات البنائية والفكرية التى زعزعت الأساس الذى يقوم عليه علم الاجتماع فى صورته المحافظة . ويعد ظهور الأثنوميثودولوجيا ـ التى سوف نتحدث عنها فى الفقرة القادمة ـ خير تعبير على هذا . وما يهمنا الآن هو أن نستعرض بعض الآراء الأخرى وثيقة الصلة بعمل بيتر بيرجر وتوماس لكمان .

نشر ستانفورد ليمان Lyman ومارفن سكوت Scott فى عامى ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، مجموعة من المقاولات ، أعادا نشرها فى عام ١٩٧٠ فى كتاب بعنوان : سوسيولوجيا العبث(٢٩) The Sociology of Aburd ورغم أن سوسيولوجيا العبث تتخذ نفس المسار الذى سارت فيه ، الاتجاهات الأخرى ، الا أن الباحثين قد استشعروا ضرورة صياغة اسم

(٢٩) S. Lyman and M. Scott, A Sociology of the Absurd, Appletion-Century-Crofts, New York, Copyright, 1970, p. 1.

جديد يكون أكثر تعبيرا عن الروح الجديدة فى دنيا التنظير السوسيولوجى • ويقرر الباحثان هـذه الحقيقة فى بداية كتابهما حيث يذهبان الى ضرورة صياغة اسم جديد يعبر عن الاتجاه الجديد فى علم الاجتماع حيث أن الأسماء التى تمت صياغتها حتى الآن : الأنثوميثودولوجى ، والتفاعلية الرمزية ، ونظرية التصنيف الفئوى Labeling Theory لا تعبر عن المنظور الراديكالى الذى يتخذ موقفا نقديا من الاتجاهات التقليدية • وقدم الباحثان مصطلح « سوسيولوجيا العبث » • ليعبر عن هـذا المنظور الراديكالى • وتتخذ سوسيولوجيا العبث نفس الاتجاه العام للبدائل النظرية ، وأعنى اتخاذ موقف نقدى من الاتجاه الوضعى وامتداداته المعاصرة ، والرجوع الى التيارات الفلسفية الوجودية والفينومينولوجية وأدب العبث كما يتمثل فى أعمال البيركامى وبيكيت • ولقـد عبر الباحثان عن هذه الحقيقة أيضـا فى بداية كتابهما حيث ذهبا الى أن سوسيولوجيا العبث تستقى جذورها الفلسفية من الوجودية وفلسفة الظواهر فى صورتها الفلسفية كما تتمثل فى أعمال «موسد هوسرل وفى صورتها الاجتماعية كما تتمثل فى أعمـال الفرد شوتز • فمن الوجودية استمدت سوسيولوجيا العبث فكرة الحرية ، وفكرة التعارض بين الواقع الخارجى وبين الانسان الذى يفكر ، ويشعر ، ويفهم من خلال خبرته الذاتية • وبمعنى آخر تأثرت سوسيولوجيا العبث بالوجودية عندما جعلت من « الانسان » بؤرة اهتمام رئيسية لها • ومن فلسفة الظواهر استمدت سوسيولوجيا العبث اهتمامها ببعض جوانب النشاط الانسانى ، مثل القصـدية Intentionality ، والوعى ، والمعنى الذاتى • ومن أدب العبث اتخذت سوسيولوجيا العبث اسمها ، وهو اسم يعبر عن الوجهة النقدية الجديدة التى تذهب الى أن العالم الذى نعيش فيه هو عالم بغير معنى • فليست هناك معان حقيقية للسـلوك يجب أن يسعى الفكر السوسيولوجى الى اكتشافها ، بل ان السلوك وأنساق المعتقدات المرتبطة به قائم على ضرب من ضروب العشوائية ، وعلى الانسـان أن يستخلص لسلوكه معنى أو مجموعة من المعـانى داخل هـذا العـالم اللامعقـول meaningless (٣٠) •

---

(٣٠) Ibid., pp. 1—2.

وتقوم سوسيولوجيا المعرفة على مجموعة من القضايا يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ـ يتكون الفعل الاجتماعى من خلال سعى الأفراد القادرين على توجيه النشاط الذى يضطلعون به ، والقادرين على اختيار البدائل ، لتحقيق كل أهدافهم . وتوجيه النشاط يعنى أن الأفراد قادرون على تقديم تفسير لأفعالهم فى شكل تصورات أو أفكار تضفى على أفعالهم معنى معينا(٣١) .

٢ ـ يترتب على ذلك ضرورة أن يكون الفعل الانسانى طوعيا Vohunteristic وبدون عنصر الطوعية يتحول النشاط الانسانى الى « مجرد سلوك » فالانسان هو الذى يشكل الواقع الاجتماعى ـ كما يتشكل من خلاله ـ فى كل موقف من المواقف التى تكون هذا الواقع(٣٢) .

٣ ـ اذا ما نظرنا الى الحياة على أنها تتكون من مجموعة من المواقف التى يسعى الأفراد داخلها الى تحقيق أهداف هم على وعى بها ، يصبح الصراع هو البناء الأساسى للفعل الانسانى . ويظهر الصراع فى كل مجال من مجالات الحياة حتى لو كانت الأهداف التى يسعى الأفراد الى تحقيقها متشابهة لأن كل فرد سوف يحاول أن يرتفع بمصالحه الى الحد الأقصى(٣٣) .

٤ ـ واذا ما تصورنا الفعل الانسانى من خلال الصراع يترتب على ذلك استنتاجان : يتصل الأول بنموذج التفاعل الذى يصلح لتفسير العالم الاجتماعى ، ويتصل الثانى بالنموذج الاسترشادى للانسان الذى يمكن أن يكون مثمرا فى تحليل التفاعل .

(أ) فيما يختص بنموذج التفاعل فان نموذج المباراة Game Model هو أصلح النماذج لتحليل التفاعل خاصة اذا جاء تصورنا له من خلال تصور الانسان على أنه فاعل طوعى ، يسعى الى تحقيق أهدافه سعيا قصديا . فعندما ينخرط هذا الانسان فى علاقة تفاعل فسوف يستخدم استراتيجيات وأساليب لتحقيق الهدف الذى يقصده ، ويفرض عليه

---

(٣١) Ibid., p. 3.
(٣٢) Ibid., p. 4.
(٣٣) Ibid., p. 5.

ذلك أن يصنف الآخرين فى ضوء اهدافه ووسائله : فهم اما اعداء أو متحالفون أو محايدون • وتقوم نظرية المباراة على فكرة « التجمع المقصود » Foucused Gathering التى طورها جوفمان والتى تقرر ان الموقف الاجتماعى يتكون من فردين أو اكثر يسلم كل منهم بحقوق الآخر فى الادراك والاستجابات الاتصالية والمعرفية • فالتفاعل الاجتماعى يشبه المباراة ، ولكنه يكون بين شخصين أو جماعتين (بما فيها الأمم ، أو جماعات صفوة القوة داخل أمة معينة) يعى كل منهما بالآخر ، ويضعه فى بؤرة اهتمامه ، ويكون فى وضع يسمح له بالاتصال به فى ضوء أسلوب صريح • ومباراة الحياة الاجتماعية يجب ان لا تتم وجها لوجه ، بل يمكن أن تتم بين فردين تفصلهما الحدود المكانية ، ولكنهما يتصلان من خلال وسائل الاتصال مثل التليفون ، والتلغراف ، أو البريد(٣٤) •

(ب) أما فيما يختص بنموذج الانسان كما تتصوره سوسيولوجيا العبث فانه نموذج يتصور الانسان فى حالة صراع : صراع مع الآخرين ، ومع المجتمع ، ومع الطبيعة ، حتى مع نفسه • ورغم اهمال علماء الاجتماع لنموذج الانسان الذى يصارع الحياة ، فان هذا النموذج يعد اقوى النماذج الاسترشادية heuristic فى دراسة الانسان فى المجتمع • فعندما نسلم بأن الحياة الاجتماعية تكشف عن ضروب مستمرة من الصراع ، فان معنى ذلك ان كل موقف داخل هذه الحياة يضع الأفراد امام موقف « مشكل » problematic ومن خلال تصور الانسان فى حالة صراع ، فان عالم الاجتماع يجب أن يبحث عن الميكانيزمات التى تنتج ـ وتعيد انتاج ـ شكلا مستقرا ومستمرا وموحدا من اشكال التفاعل • ان عالم الاجتماع فى هذه الحالة يسعى الى ان يحل المشكلة التى تحكمت فى تطور العلم الاجتماعى : كيف يصبح المجتمع ممكنا ؟ وسوسيولوجيا العبث تجيب عن هذا السؤال عندما تتصور ان الانسان هو صانع وجوده الخاص ، وهو الذى يخلق المواقف المستقرة المستمرة التغير(٣٥) •

هذه هى القضايا الأساسية التى تقوم عليها سوسيولوجيا العبث • والحقيقة ان القضية الأخيرة تحيلنا مباشرة الى ان نناقش العلاقة بين هذا

---

(٣٤) Ibid., pp. 29—30.
(٣٥) Ibid., p. 6.

البديل النظرى وبين النظريات التقليدية التى يقوم على معارضتها ورفضها • من الواضح أن القضايا السابقة تكشف عن بعض مظاهر الاختلاف عن النظرية التقليدية ، خاصة فيما يتعلق بتصور الانسان على أنه يعيش فى صراع مع الآخرين ومع المجتمع ، وتصوره على أنه صانع مصيره الخاص يخبر ضربا من ضروب الحرية فى توجيه مناشط حياته ، وفى خلق الظروف المواتية التى تجعله يتغلب على لا معقولية الحياة وعبثها • ولكن نفس القضايا تكشف فى ذات الوقت عن أن المحصلة النهائية لعلاقات التفاعل القائمة على الحرية هى النظام • فالعبث والفوضى يعدان مظهرين أساسيين من مظاهر حياتنا المعاصرة ، ولكن الانسان يستطيع فى النهاية ـ فى ضوء قضايا سوسيولوجيا العبث ـ أن يخلق النظام من قلب الفوضى ، يستطيع أن يحول اللامعقول الى معقول ذى معنى بالنسبة له على الأقل •

ولم ينكر ليمان وسكوت هذه الحقيقة ، فلقد اتضحت مشكلة النظام فى كل الدراسات التى جاءت فى كتابهما السابق • ولكنهما لم يطرحا المشكلة على النطاق الكلى كما طرحها علماء الاجتماع التقليديون ، وانما قدما المشكلة فى شكل السؤال التالى : كيف يكون المجتمع ممكنا ؟ وكانت اجابتهما على السؤال صيغة التفاعل التى تبرزها سوسيولوجيا العبث والتى تتصور الانسان على أنه يلعب مباراة مع الآخرين قد يكسبها اذا كان يمتلك القوة وقد لا يكسبها ، غير أن علاقات التفاعل لا تخلق انفصالا بين أولى القوة والضعفاء ، وانما الانسان نفسه هو الذى يخلق القوة ويعيد خلقها : ففى دوائر الحياة المتعددة يكون خاضعا مرة ، ومالكا للقوة مرة أخرى ، وفى وضع متعادل مرة ثالثة ، فالقوة متغير وجودى فى تفاعل الأفراد(٣٦) • ولقد اتضح تصور ليمان وسكوت لمشكلة النظام من خلال دراسة لهما بعنوان : « الحسابات » Accounts ضمناها كتابهما السابق • وهى فكرة تقوم على لغة الحديث اليومية ، وتشير الى الجمل التى يستخدمها الفاعلون لشرح وتبرير سلوكهم أو سلوك الآخرين(٣٧) • يعنى ذلك أن امكانية قيام المجتمع ـ بمعنى حل مشكلة النظام ـ يعتمد على مهارة الأفراد فى تبرير سلوكهم ، وعلى جهودهم المستمرة لتنظيم الحياة وخلق النظام من قلب الفوضى •

---

(٣٦) Ibid., p. 217.

(٣٧) Ibid., pp. 111—113.

ولكن لا يعنى ذلك انه ليست هناك فروق ، بين سوسيولوجيا العبث والوظيفية • لـ قد عدد ليمان وسكوت خمسة فروق رئيسية بينهما(٣٨) :

١ ـ تفترض الوظيفية وجود عالم محدد يسكنه مجموعة من الأفراد تعى بالقوى التى تحدد مصائرها ، ويتصورون انهم بذلك يعيشون فى حرية • أما سوسيولوجيا العبث فانها تفترض وجود متصل وجودى بين الحرية والحتمية ، ومن ثم فان هناك أفرادا اكثر حرية من أفراد آخرين ، وهناك أفرادا يكبحون اكثر مما يتصورون • فسوسيولوجيا العبث تهتم بوعى الفرد ومقاصده ، وبشعوره بالحرية أو القدرية وما يترتب على ذلك من نتائج •

٢ ـ تنظر الوظيفية الى أجزاء الواقع على أنها غير عشوائية طالما أنها تساهم فى تكامل المجتمع ككل أما سوسيولوجيا العبث فانها تفترض ان عناصر الواقع قائمة على ضرب من العشوائية ، ومن ثم فانه ليست هناك معان محددة ومستقرة ونهائية لهذه العناصر •

٣ ـ تذهب الوظيفية الى أن النظام الاجتماعى العام يضرب بجذوره فى التساند الوظيفى والتعاون بين أجزاء الواقع • فكل فرد يرتبط بدور معين ويكتسب المعايير خلال عمليات التنشئة الاجتماعية • وتترابط هذه الأدوار بعضها بالبعض الآخر لتكوين أجهزة مترابطة للأدوار Rolesets تكون نظم المجتمع الأساسية ؛ أما سوسيولوجية العبث فانها تتصور المجتمع على أنه تجمع من الثقافات الفرعية المتصارعة ، التى تحاول فى علاقاتها ببعضها ان تحافظ على قدر من الاستقرار والثبات •

٤ ـ لما كانت الوظيفية تنظر الى الانسان على أنه مخلوق تتحكم فيه القوى الخارجية ، فانها تميل الى دراسة هذا الانسان من وجهة نظر المشاعد الخارجى ، فهى لا تولى ادنى اهتمام لدركات الأفراد عن انشطتهم فى الحياة • أما سوسيولوجيا العبث فانها تنظر الى الانسان على أنه فاعل يصنع افعاله فى ضوء أهدافه وفى ضوء محاولاته المستمرة لأن يقيم الموقف الذى يسلك داخله • ومن ثم فان سوسيولوجيا العبث تدرس العالم الاجتماعى من وجهة نظر الأفراد الذين يكونون هذا العالم •

---

(٣٨) Ibid., pp. 7—8.

٥ ـ تفترض الوظيفية وجود نسق من القيم عام وشائع بين أجزاء المجتمع ، أما سوسيولوجيا المعبث فانها تشك كثيرا فى شيوع القيم وعموميتها ، ومن ثم تنظر الى القيم والمعايير على انها قائمة على مبدأ الكثرة ، بمعنى انها متنوعة بتنوع المواقف ، وبتنوع الأفراد ، وبتنوع الفترات الزمنية ٠

وفى عام ١٩٧١ نشر البريطانى ديك اتكنسون Atkinson كتابا بعنوان : « نظريات الاجماع المتزمتة وبديلها الراديكالى »(٣٩) ٠ Orthodex Consensus and Radical Alternative ٠ ويختلف ديك ايكسون عن العلماء الذين عرضنا لهم هنا فى أنه يعد ناقدا وصاحب نظرية فى ذات الوقت ، فلم يكتف بتقديم بديل ، وانما تعرض لنظريات علماء الاجتماع الكلاسيكيين بالنقد والتحليل على أساس اقتناعه بحقيقتين جوهريتين :

الأولى : ان الظروف التى كتب فيها هؤلاء العلماء ـ وقد حصرهم فى ماركس وماكس فيبر وبارسونز ـ تختلف عن الظروف التى نعيشها هذه الأيام ٠ فقد كتب يقول : « لقد كان العلماء الثلاثة (ماركس وماكس فيبر وبارسونز) ـ وسوف يظلون ـ عمالقة فكر ٠ ولكن ظروف الحياة التى كتبوا فيها والوقت الذى كتبوا فيه لم تعد قائمة ٠ والحلول التى قدموها لا يمكن ان تصلح للأفراد الذين يعيشون فى عالم اليوم والأحداث التى تحيط بهم ٠ فالمفاهيم التى كانت يوما ما ثورية أصبحت فى أيامنا هذه محافظة لأنها تظللنا وتطمس أفعالنا ومظاهر فهمنا لها(٤٠) ٠

الثانية : ان التراث الذى قدمه هؤلاء العلماء أصبح يواجه انتقادات حادة ٠ فهناك موجة من الشك يتعرض لها علم الاجتماع اليوم ينبع بعضه من علمائه أنفسهم حيث ظهرت العديد من الكتابات النقدية التى تمثلها آراء كل من ألفن جولدنر وروبرت نيسبت ، وحيث ظهرت الكثير من البدائل التى تتخذ موقفا نقديا من علم الاجتماع التقليدى تتمثل فى أعمال جارفينكل وهابرماس Habermass وشيكوريل Cicourel وغيرهم ٠

---

(٣٩) D. Atkinson, Orthodex Consensus and Radical Alternative, op. cit.,

(٤٠) Ibid., pp. 147—148.

وينبع بعضه من طلبة علم الاجماع انفسهم ٠ فهم يتجذبون خلف بريق شعبية علم الاجتماع أملا منهم فى أن يساعدهم هذا العلم على فهم فوضى الحياة الاجتماعية المعاصرة ، وأن يقدم حلولا انسانية للمشكلات الاجتماعية التى يعانى منها المجتمع ٠ غير أنهم ما يلبثون أن يكتشفوا أن علم الاجتماع يتعثر فى تحقيق الهدفين ٠ ولقد عبر عن هذه الشكوك دانيال كوهن بندت(٤١).

وعبرت عنها الآراء النقدية لمدرسة فرانكفورت ٠ ويعتبر رجل الشارع مصدرا لشك من نوع ثالث يتعرض له علم الاجتماع ، فهو لا يتعرف على نفسه وذاته وسط التعقيدات النظرية التى يقدمها علماء الاجتماع ، ويشعر أنه أقدر من عالم الاجتماع على فهم الناس(٤٢) ٠

يتضح من ذلك أن اتكنسون قد تاثر تاثرا كبيرا بالظروف البنائية والفكرية المحيطة بعلم الاجتماع المعاصر والتى تسببت فى أن يتعرض لتوترات كثيرة جعلته يمر بأزمة فكرية وبنائية خطيرة ٠ ومن خلال ادراكه لهذه الظروف وقوة تاثيرها على بناء العلم ، ومن خلال ادراكه لطبيعة الظروف المتغيرة فى المجتمعات الحديثة التى لا تتفق مع الرؤية النظرية التى قدمها المنظرون الكلاسيكيون أصحاب نظريات الاجماع المتزمت ، من خلال كل ذلك استشعر ديك اتكنسون ضرورة قيام بديل جديد يخالف الرؤية التقليدية التى تعرض لها بالنقد ٠

يقوم البديل الذى يطرحه اتكنسون على أساس فينومينولوجى متخذا نفس الاتجاه العام للبدائل النظرية التى نناقشها فى هذا الفصل ٠ فقد حاول من خلال عرضه النقدى لآراء الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع أن يستخلص الأساس الذى يمكن أن يقيم عليه بديله ٠ وتوصل من خلال عرضه الى نتيجتين :

١ ـ أن هناك موضوعا أساسيا شغل هؤلاء العلماء وظهر فى كل اعمالهم بحيث يمكن من خلاله أن نستخلص جوانب التقاء بين هذه الأعمال ٠ ينحصر هذا الموضوع فى تصور الانسان على أنه نتاج الواقع : يحدد

---

(٤١) قدمنا فى الفصل السادس عرضا لآراء دانيال كوهن بندت ٠

(٤٢) Atkinson, op. cit., pp. 1—3.

له مصيره ، وينشئه ، ويحركه كيفما يشاء ككائن يلعب دورا محددا • ومن ثم أصبح البناء الاجتماعى مفهوما أساسيا عند هؤلاء العلماء فهو الذى يحافظ على هذه الصورة للانسان ، وأصبح تصور الانحراف عن هذا البناء سهلا ميسورا • فالتفسير الذى قدمه هؤلاء العلماء يعد تفسيرا معياريا يظهر فيه الانسان خاضعا لقوى المجتمع ومعاييره(٤٣) •

٢ ـ أن هناك موضوعا أساسيا آخر ظهر بصورة متفرقة فى بعض أعمال علماء الاجتماع ، خاصة بعض علماء الاجتماع الأمبيريقيين من أمثال جوفان وجروس Gross • ولينج Laing وينحصر هذا الموضوع الأساسى فى تصور الانسان على أنه صانع الواقع ، ومن ثم تصور الفعل الاجتماعى فى ضوء المعنى الذى يعطيه الأفراد لأفعالهم • فالفاعل بذلك يكون موجها نحو التحكم فى مجموعة المواقف التى يواجهها الأفراد ونحو تشكيل فرص الحياة بالنسبة لهم •

ذلك أن هناك موضوعين متعارضين فى علم الاجتماع : أحدهما يفصل بين الذات والموضوع ويتصور الأفراد فى حالة خضوع مستمر للقوى الخارجية ، والثانى لا يفصل بين الذات والموضوع ويتصور الأفراد على أنهم يصنعون المجتمع ويتحكمون فى مصائرهم الخاصة • رفض أتكنسون الموضوع الأول واقام بديله على اساس الموضوع الثانى • وهذا هو الذى دفعنى الى أن أضعه داخل تيار علم الاجتماع الفينومينولوجى • فالقضية التى يقيم عليها بديله تعد قضية اساسية فى هذا العلم ، كما اتضح لنا فى غير موضع من العرض السابق • وتتضح تلك الحقيقة بجلاء عندما نستعرض بعض عناصر هذا البديل الراديكالى :

يمكن حصر القضايا الأساسية لهذا البديل فيما يلى :

١ ـ الواقع الاجتماعى واقع ذاتى • فعناصر الواقع لا تكتسب صفة الاجتماعية الا لأننا نحسها ونترجمها فى خبرات ذاتية وللآخرين عن طريق العواطف والكلمات والصور والاشارات • بناء على ذلك لا يمكن أن نفرق بين ما هو اجتماعى وما هو غير اجتماعى لأنه ليس هناك جانب من جوانب

---

(٤٣) Ibid., pp. 142—143.

الحياة أو المعرفة الانسانية سواء اكانت معرفة علمية أو دينية أو سياسية الا ويختلط بوجودنا الاجتماعى • معنى ذلك اننا اذا نظرنا الى كل شىء من خلال الذات لبحت لنا الأشياء اجتماعية ، وهذا هو السبب الذى جعل ديك اتكنسون يذهب الى أن الواقع الاجتماعى يكتسب صفة الذاتية •

٢ ـ تنحصر عناصر الفعل الاجتماعى فيما يلى :

(أ) المنطق الموقفى

(ب) الفاعل •

(جـ) الغايات ـ القيم •

(د) العوامل السيكولوجية •

(هـ) الأشياء المادية •

(و) الآخرون •

٣ ـ يعد المنطق الموقفى Situational Logic العنصر الأساسى فى الفعل الاجتماعى اذا كنا ننظر الى الواقع نظرة ذاتية • ولا يعنى المنطق الموقفى اننا نفرق بين المواقف المنطقية وغير المنطقية ، ولكن يعنى أن كل موقف ـ مهما كان ـ له منطق اذا نظرنا اليه من وجهة نظر الفاعل نفسه أو مجموعة الفاعلين الداخلين فيه ، ان منطق الموقف هو ادراك الفاعل للموقف وتحديده أو تقييمه له مهما كان نوعية الفعل الذى يقدم عليه الفاعل • وهنا تختفى التمييزات المزعومة بين الأفعال « أو المواقف » الرشيدة ، أو بين الأفعال « المواقف » المنطقية وغير المنطقية • .

٤ ـ الواقع يحوى أنواعا كثيرة من الناس ، كما أنه يحوى عددا لا نهائيا من المواقف • ومن ثم لا يمكن أن نفرض عليه تفسيرا من اعلى • بل يجب أن ينبع التفسير من داخله ومن خلال تصورات الأفراد انفسهم ، وبذلك نستطيع أن نفسر كيفية تغير الموقف وظهور أنساق جديدة وضروب جديدة من الصراع ، فضلا عن تحليل مواقف عديدة ومتنوعة ، وجماعات عديدة ومتنوعة • وهنا تنقلب مشكلة النظام راسا على عقب وتصبح

المشكلة : كيف يشكل الأفراد الظروف التى تحيط بهم ، وكيف يحافظون عليها أو يغيرونها ٠

٥ ـ يترتب على ذلك ألا تكون هناك صورة محددة وأبدية للبناء فى ذاته ، فاننا لا نستطيع أن نربطه بأى صورة من صور البناء الاجتماعى ٠ ليس معنى ذلك أنه لا يوجد بناء على الاطلاق ، ولكن معناه أن البناء يتخذ أى صورة ممكنة حسب تصورات الأفراد وأسلوب تحديدهم للعلاقات فيما بينهم ٠ لن المشكلات السوسيولوجية المعاصرة لا تدور حول مفهوم العقلانية Rationality أو النظام Order أو الصراع Conflict ولكنها مشكلات تتعلق بمواجهة الآخرين ومن ثم فان الأفراد لا يشكلون أنساقا ثابتة بل يشكلون أنساقا مرنة ، والبناء الاجتماعى بناء على ذلك يتغير الزمان والمكان وطبيعة الأفراد الذين يصنعون المواقف داخله ٠

وتكشف هذه القضايا عن تشابه كبير بين افكار اتكنسون والآراء الفينومينولوجية التى نناقشها هنا ٠ فهو يرفض ذلك الفصل بين راى الباحث وآراء الأفراد الذين يكونون هذا الواقع ، والأفراد غير مقيدين باية روابط أو ضوابط ، لنهم يتطلون من كل مظاهر الضغط الخارجى حتى وان كانت هذه المظاهر مرتبطة بالبناء الاجتماعى ذاته ٠

ثالثا ـ الاثنوميثودولوجى « منهجية الجماعة »(٤٤) :

تتكون كلمة الأثنوميثودولوجى من مقطعين : لثنو Ethno بمعنى جماعة أو سلالة (قومية أو لغوية أو عرقية) ، رميثودولوجى وتعنى منهجا ٠ ويكون المقطعان مصطلح Ethnomethodology الذى صاغه هارولد جارفينكل H. Garfinkel عام ١٩٦٧ ٠ كان جار فينكل قد نشر فى الستينات مجموعة من المقالات جمعها فى كتاب اصدره فى عام ١٩٦٧ بعنوان « دراسات

---

(٤٤) لقترح سعد الدين ابراهيم مصطلح « المنهجية الشعبية » لترجمة المصطلح الانجليزى Ethnomethodology ٠ ولقد لخذت بهذه الترجمة فى كتابتى لهذه الدراسة لأول مرة فى العام الجامعى ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ٠ ورايت أن اغير الترجمة الى « منهجية الجماعة » من حيث أن مصطلح « المنهجية الشعبية » يجعل منهج هذه الدراسة أقرب الى دراسة للفولكلور منها الى علم الاجتماع ، أما مصطلح « منهجية الجماعة » فانه أقرب الى طبيعة الدراسة فى علم الاجتماع ٠

فى الأثنوميثودولوجى ،(٤٥) • استطاع فيه أن يستفيد من فينومينولوجية الفرد شوتز فى صياغة اتجاه جديد أو بديل جديد لعلم الاجتماع فى أمريكا • لقد أخذ جارفينكل من الفرد شوتز اهتمامه بالحياة اليومية أو العالم العادى Common-sense World كما يظهر من خلال تصورات الأفراد واتجاهاتهم الطبيعية • ولا يعنى ذلك أن جارفينكل قد سار مع شوتز الى نهاية الخط ، فقد ذهب الى أن شوتز قد مهد الطريق فى هذا المجال عندما وضع اسس علم اجتماع يدرس الحياة اليومية ، غير أن برنامجه النظرى يخلو من أية اشارة امبريقية ، ولم يستطع حل المشكلات المنهجية الرئيسية المتضمنة فى البحث السوسيولوجى الأمبريقى للاتجاه الطبيعى ، ولم يستطع الافادة من علم الاجتماع الفينومينولوجى فى دراسة المسائل الأساسية فى علم الاجتماع التقليدى(٤٦) •

ذهب جارفينكل الى أن مجال اهتمام الأثنوميثودولوجى ينحصر فى دراسة كيفية تنظيم المواقف العملية فى الحياة اليومية بطريقة اجتماعية ، وكيف يستوعبها الأفراد ، ويعرفونها ، ويتعاملون معها كمجموعة متصلة من الأحداث الفعلية والتى يفترض الشخص أن أعضاء الجماعة الآخرين يعرفونها بنفس الطريقة التى يعرفها بها وكيف يسلم بها هؤلاء الآخرون مثلما يسلم بها هو نفسه(٤٧) • فالحياة الاجتماعية ـ فى نظر جارفينكل ـ ما هى الا مشروع عملى يشارك فيه كل فرد يعيش فى هذه الحياة • فالأنشطة التى يقوم بها الأفراد فى حياتهم العادية تكون مركبا تنظيميا عمليا A Practical Organizational Accomplishment ، فمن خلالها يخلق أعضاء الجماعة مواقف الحياة اليومية ويتحكمون فيها ، وهى ترتبط بمحاولات هؤلاء الاعضاء جعل هذه المواقف قابلة للتبرير Accountable(٤٨) • وتظهر

---

(٤٥) H. Garfinkel Studies in Ethnomethodology, Englwood etippes, Printice-Hall, Inc., 1967.

(٤٦) P. Filmer et al, New Directions in Sociological Theory London, Macmillan, 1972, p. 140.

(٤٧) Peter Lassman, Phenomenological Perspectives in Socology, op. cit., p. 131.

(٤٨) H. Garfinkel, Studies in Ethnomethodology, op. cit., p. 1.

مواقف الحياة بصورة تلقائية ، من خلال توقعات تنشأ كليا وجزئيا فى لغة الحياة اليومية التى يشترك فيها كل الأفراد بوصفهم أعضاء فى نظام اجتماعى معين • ويعتقد أنصار منهجية الجماعة أنه طالما تم تعريف موقف معين ، فان هذا التعريف يستمر فى الوجود ما دام الأفراد يعيشون فى نفس الجماعة • وبنفس الطريقة فان المعنى الذى يضيفه الأفراد على موضوع معين سوف يستمر أيضا فى مناسبات ومواقف مختلفة • وتتشابه المعانى والتعريفات من خلال الاشتراك فى التعبيرات والرموز وتظهر الاختلافات بين الأفراد من خلال اختلافهم فى الخبرات وتواريخ الحياة • ويعنى ذلك أن التفاعل فى المجتمع قائم على مجموعة من القواعد والطقوس التى يسلم بها الأفراد العاديون دون وعى تقريبا(٤٩) • وهم فى تسليمهم بهذه القواعد والطقوس يكونون لأنفسهم ـ كجماعة ـ منهجا خاصا فى الحياة لا يعون به ، وعلى عالم الاجتماع أن يحترف مواقف التفاعل العادية من اكتشاف هذا المنهج ، أو اكتشاف القواعد والطقوس التى تحكم مواقف التفاعل فى الحياة اليومية •

غير أن ذلك لا يعنى أن مواقف الحياة اليومية لا تكشف عن ضرب من ضروب العقلانية ، أو أن الأفراد لا يشتقون لأنفسهم مناهج عقلية رشيدة ، توجه سلوكهم • والحقيقة أن فكرة الرشد أو العقلانية تعد فكرة أساسية فى المنهج الأثنوميثودولوجى • فانشطة الحياة اليومية لها خصائص رشيدة ، فالأفراد يخلقون لأنفسهم أنماطا سلوكية رشيدة أو عقلانية • ولقد حدد جارفينكل أربعة عشر مجالا تظهر فيها هذه الأنماط الرشيدة من السلوك(٥٠) ، وهى : « ١ » عندما يصنف الفرد الأشياء أو الناس أو يقارن بينها ، « ٢ » عندما يزن الأمور أو يقدر خطأ محتملا ، « ٣ » عندما يبحث عن الوسائل التى تحقق أهدافه ، « ٤ » عندما يحلل البدائل والنتائج المترتبة عليها ، « ٥ » عندما يستخدم استراتيجية معينة ، « ٦ » عندما يقدر قيمة الوقت ، « ٧ » عندما يتنبأ بالأحداث ، « ٨ » عندما يستعمل قواعد لجراء

---

(٤٩) N.K. Denzin, "Symbolic Interactionism and Ethnomethodology," in : J. Douglas (eds.) Understanding Everyday Life, Routledge and Kegan Paul, London, 1974, pp. 270—271.

(٥٠) Ibid., pp. 263—268.

معين ، « ٩ » عندما يقدم على الاختيار ، « ١٠ » أو يستعمل معايير مقررة للاختيار ، « ١١ » عندما يطابق بين الغايات والوسائل من خلال معايير مقررة أيضا « ١٢ » عندما يسعى الى الوضوح والتمييز بين الأشياء كى لا يقع فى خطأ ، « ١٣ » عندما يسعى الى الوضوح والتمييز كهدف فى حد ذاته ، « ١٤ » عندما يحاول أن يوفق (أو يطابق) بين تحديده للموقف والمعرفة العلمية ·

ويتضح من خلال هذا التصور الفرق بين المنهج الأثنوميثودولوجى والمنهج الوضعى التجريبى · فالمنهج الأثنوميثودولوجى يسعى الى فهم الأفراد من الداخل ، من خلال تصورات هؤلاء الأفراد العقلانية التى يكونونها خلال علاقات التفاعل من الآخرين ، ومن خلال المعانى الذاتية التى يضيفها هؤلاء الأفراد على أفعالهم · فالأفراد لا يمثلون « حقيقة واقعية » تخضع للدراسة كظاهرة حسبما يقرر أنصار الاتجاه الوضعى ، ولكنهم كائنات عقلانية لها أفكارها وتصوراتها الخاصة التى تختلف باختلاف الثقافة والاطار الاجتماعى السائد ، وأى معرفة سوسيولوجية لا يكون لها أى جدوى اذا لم تبن على أساس تصورات الأفراد فى حياتهم اليومية · والنظرية التى يتوصل اليها الباحث لا تعدو الا أن تكون تمحيصا وتهذيبا لما يختمل فى عقول الأفراد من نظريات · ولقد أطلق جارفينكل على الفرد العادى المنظر العملى Practical theorist تمييزا له عن المنظر العلمى Scientific theorist واذا كان المنظر العملى له أنماطه الرشيدة فى التفكير ، فان المنظر العلمى له أنماطه الخاصة به وهى الأربعة الأنماط الأخيرة من الأربعة عشر نمطا التى ذكرياها فيما سبق · ويختلف المنظر العلمى عن المنظر العملى فى خمسة أشياء(٥١) ·

(أ) يقف المنظر العلمى موقفا محايدا تجاه موضوعات العالم كما تبدو له ، بينما يبحث المنظر الواقعى عن مدى صدق هذه الموضوعات ·

(ب) لا يهتم المنظر العلمى بما اذا كانت أفكاره ملائمة للسلوك فى العالم الواقعى ، بينما لا يهتم العملى بالأفكار الا فى ضوء ملاءمتها للسلوك.

---

(٥١) Ibid., p. 272.

(جـ) قـد لا يبالى المنظـر العلمى باعتبـارات الوقت فى الثقـافة أو بأى وحـدات أخرى مقننة من الناحية الاجتماعية ، أما المنظر الواقعى فانه يقيم تفسيراته فى ضـوء هـذه الوحـدات ، ويستخدمهـا ليطابق بين فعل فرد وآخر ٠

(د) يفترض المنظر العلمى أن اتصـالاته يمكن أن تفهم من خلال عالم أو منظر آخر ، أما المنظر الواقعى فانه يؤكد على ضرورة أن تتوافق اتصالاته مع ما يتوقعه أى فرد سوى فى المحيط الثقافى الذى يعيش فيه ٠

(هـ) يعرف المنظر العلمى أن وصفه للعـالم ليس له أى معنى لذا لم يكن وصفا عاما ، أما المنظر الواقعى فانه يفترض أن فهمه الخاص لأفعاله لا يتفق اتفاقا كليا مع فهم الآخرين لهـذه الأفعال وانه يجب ان يكون واعيا بآثار هـذا الاختلاف ٠

ومن تلك العلاقة بين المنظر الواقعى والمنظر العلمى يتضح أن الاختلاف بينهما كامن فى اختلاف الاهتمامات لا فى المنهج٠فالمنظر العلمى يهتم بوصف العالم اليومى وتحليله ، بينما يهتم المنظر الواقعى باقامة علاقات تفاعلية بينه وبين الآخرين ، ولكن كليهما يستخدم أسلوبا منهجيا واحدا أطلق عليه جار فينكل « المنهج التوثيقى » documentary method وهو منهج يستخـدمه الأفراد فى تفسير سلوكهم تماما كما يستخـدمه الباحث فى فهم هـذا السلوك ٠ ويقوم المنهج التوثيقى على مجموعـة من المشـاهدات المنفصلـة يمكن أن تعتبر مؤشرات indicators على نمط سـلوكى معين ٠ فالنمط السلوكى يشتق من السياق الكلى للمشاهدات ومن معرفة المعانى التى يلصقهـا الأفراد بأفعـالهم ٠ ويستخـدم الباحث ـ والفرد العادى أيضا ـ سواء اعتمد على الاستبار أو التسجيل او التحليل أو أى أداة أخرى ، يستخدم هـذا المنهج فى تفسير استجابات الأفراد او فى تجميع معلومـات منفصلـة ليتوصـل الى تفسير متسق للموقف(٥٢) ٠ ولقـد استخدم جار فينكل هـذا المنهج فى تفسير الكثير من المواقف التى ضمنها

---

(٥٢) Ibid., Chapter Three.

فصول كتابه من الفصل الرابع حتى الفصل السابع(٥٣) ٠

ومن خلال المنهج التوثيقى يستطيع الباحث أن ينفذ الى مواقف الحياة اليومية لكى يكتشف مناهج الجماعة فى الحياة من حياتها اليومية ، والباحث الذى يستخدم المنهج التوثيقى يسجل البيانات أمام الناس وبالتفصيل وبطريقة طبيعية وملحوظة ٠ ومن ثم فان الموقف الذى يسجل منه يعتبر موقفا تفاعليا لا يتصنع فيه الباحث ولا المبحوث سلوكه ٠

غير أن الأساليب والمواقف وما يحكمها من طقوس وقواعد لا يعى بها الافراد ، يمكن دراستها من خلال منهج شبه تجريبى Quasi Experimental يخلقه الباحث داخل الجماعة التى يدرسها ٠ ويتم ذلك بأن يحاول الباحث أن يكسر القواعد التى تحكم سلوك الجماعة ثم يسجل رد فعل الجماعة تجاه هذا الكسر للقواعد ، ومن ثم يستطيع أن يكتشفها بسهولة ٠ فعندما يستهجن سلوك الباحث ـ فى موقف معين يكسر قواعده ، أو يستجاب له بالدهشة والاستغراب ـ فان معنى ذلك أن القاعدة التى كسرها هى قاعدة سلوكية تحكم سلوك الأفراد دون أن يعوا بها ٠ وكان جار فينكل يطلب من طلابه أن يخلقوا مثل هذه المواقف شبه التجريبية فى الواقع ، ثم يسجلون ملاحظتهم عن استجابات الآخرين تجاه سلوكهم المتعمد ٠ ففى أحد هذه المواقف كان على كل طالب أن يصر ـ أثناء محادثة عادية مع أحد معارفه ـ على أن يشرح الطرف الآخر فى المحادثة كل شىء بالتفصيل ويراجعه فيما يقول دائما ، ثم يسجل رد فعل هذا الطرف الآخر تجاه سلوكه (سلوك الطالب) المتعمد ٠ وفى تجربة أخرى طلب جار فينكل من طلابه أن يتصرفوا فى منازلهم على أنهم غرباء فيظهروا الأدب الشديد ، ويرفضوا الدخول فى علاقات شخصية ، ثم يسجلوا رد فعل أعضاء الأسرة تجاه هذا السلوك المتعمد وفى موقف تجريبى آخر ، طلب جار فينكل من طلابه أن يقربوا وجوههم ـ أثناء محادثة ما ـ من الشخص الذى يتحدثون معه الى درجة

---

(٥٣) قدم جارفينكل فى الفصل الرابع تحليلا لقواعد صنع القرار التى يستخدمها المحلفون فى مداولاتهم ، وفى الفصل الخامس قدم تحليلا لرؤية شاب فى سن الثانية عشرة يود أن يكتسب صفات الجنس الآخر ، وفى الفصل السادس قدم تحليلا لوثائق بعض العيادات النفسية ، وفى الفصل السابع قدم عرضا لدراسات حول عملية اختيار المرضى فى العيادات الخارجية ٠

تكاد تتلامس فيها انوفهم ، ثم يسجلون رد فعل الشخص الذى يتحدثون معه تجاه هذا السلوك · وفى موقف آخر ، طلب منهم أن يستغفلوا اصحابهم ، ويكسروا قواعد اللعب فى لعبة معينة ثم يسجلوا رد الفعل تجاه هذا السلوك(٥٤) · ومن خلال هذه المواقف شبه التجريبية التى يتصرف فيها الباحث بطريقة تختلف عن القواعد المتفق عليها ، فانه يستطيع أن يكتشف هذه القواعد نفسها لأنه لا يعى بها مثله مثل الأفراد الذين يدرسهم ·

واذا كان جار فينكل وزملاؤه قد أكدوا على المنهج التوثيقى والمنهج شبه التجريبى ، فانهم رفضوا الأساليب الكمية ـ كاستخدام الاستبيان والاختبارات رفضا شديدا · ذلك انها تفصل بين الباحث وموضوع دراسته ، وتتضمن معرفة قبلية بالواقع يفرضها الباحث فرضا على اداة بحثه · كما تحفظوا على استخدام اسلوب المقابلة المفتوحة · فمهما خلق الباحث من علاقة الفة بينه وبين المبحوث ، فان موقف التفاعل اثناء المقابلة ـ بما يتضمنه من اختلاف فى الأسلوب اللغوى والحركات الجسمية وتعبيرات الوجه بالنسبة للباحث والمبحوث ـ يقيد هذه العلاقة ، ويجعل كلا منهما يسعى لأن يكون عن الآخر قدرا من المعلومات تتعلق بطبيعة الآخر ، وآرائه السياسية وخلفيته الاجتماعية · ويؤدى موقف التفاعل هذا ، بين الباحث والمبحوث ، الى ان يحاول كل منهما ان يسلك فى ضوء الفكرة التى كونها ، فيحاول الباحث تجميع أكبر قدر من المعلومات ويحاول المبحوث أن يبالغ فى محاولة افادة الباحث أو يحاول انهاء المقابلة بأسرع ما يمكن · وبناء عليه ، فان المادة المجموعة تكون من افتاج الباحث والمبحوث على حد سواء(٥٥) · ويتنافى ذلك مع ما تسعى الأثنوميثودولوجى الى ان تحققه ، واعنى معرفة افكار وقواعد سلوك المبحوث دون اى تدخل من طرف الباحث · وهذا ما يتم تحقيقه من خلال المنهج التوثيقى وشبه التجريبى ·

---

(٥٤) Ibid., Chapter two.

(٥٥) N. Denzin, op. cit., pp. 274—75.

رابعـا ـ احياء التفاعلية الرمزية :

لتضح من عرض الأصول الفكرية للبدائل النظرية التى نعرضها فى هذا الفصل ، انه توجد فى هذه الأصول صورة اولية مبكرة لما يطلق عليه التفـاعلية الرمزيـة Symbolic Interactionism ظهرت فى اعمـال كولى الذى اهتم اهتماما خاصا بالذات ، وفى أعمال جورج هربرت ميد الذى ربط فكرة الذات الفاعلة بعالم الرموز واضعا الأساس النظرى للتفاعلية الرمزية • وكما اتجه بعض الباحثين الى التراث الفينومينولوجى ، اتجه بعضهم الآخر الى أعمال كولى وهربرت ميد بحيث تطورت هذه الأعمال فيما يعرف الآن بالتفاعلية الرمزية(٥٦) •

يذهب أنصـار التفـاعلية الرمزية الى أن الذات هى الموضـوع الأساسى أو الوحدة الجوهرية للتفاعل ، فالذات تحمل فى طياتها كمـا هائلا من التفسيرات المختلفة والمعانى المختلفة للموضوعات • فالموضـوعات الخارجية ـ كما يذهب بولمر ـ لا تحمل معان داخلية خاصة بها • انهـا ليست كيانات مستقلة بذاتها لها خصائص داخلية ، وانما هى توجد فقط فى المعانى التى يضفيها الأفراد عليها • والموضوع هنا هو أى شـىء يقع خارج نطاق الذات ويتجه نحوه التفاعل سواء أكان فيزيقيـا « كالكراسى » أو تخيليا « كالشـبح » ، أو طبيعيا « كالسـحاب » أو مجردا « كمفهوم الحرية » أو متصلا بشخص معين(٥٧) • وهذه المعانى التى يضفيها الأفراد على الموضوعات تظهر بصورة تلقائية اثناء عملية التفاعل • ولا شك ان الرموز (كمكا تتمثل فى اللغة) تلعب دورا اساسيا فى خلق واضفاء معان معينة على الموضوعات الخارجية ، انها وسيلة الذات فى التعرف على العالم.

---

(٥٦) تمثل ذلك فى أعمال بلومر Blumer وجوفمان Goffman ، ويجب أن ننوه هنا الى أن التفاعلية الرمزية قـد تاثرت أيضـا بالتراث الفلسفى الفينومينولوجى فالافتراض الأساسى الكامن خلف الاتجاه الفينرمينولوجى فى علم الاجتماع وكذلك التفاعلية الرمزية هو فهم السلوك الاجتماعى من خلال المستويات المعرفية لهـذا السلوك ، بمعنى دراسة الخصائص البنـائية للمحتوى المعرفى ، أو دراسـة العلاقات الاجتماعية كما تتبدى فى وعى الفرد وادراكه وهو لفتراض فينومينولوجى بالضرورة • وهـذا هو السبب فى أن الكثير من الكتاب يعتبرون التفاعلية الرمزية صورة من صور الفينومينولوجيا.

(٥٧) Herbert Blumer, op. cit., p. 238.

واثنـاء حياة الفرد يتم تطبيع الذات على مجموعة الرموز والمعانى السائدة فى المجتمع • ويتحدث التفاعليون الرمزيون هنا عن مفهوم ايواء الذات Self-Lodging والتى يتم من خلالها ترجمة الذات او جزء منها الى ذوات وذكريات ومخيلات الآخرين • ويعنى ذلك ان عملية ايواء الذات تتيح للفرد أن يخلق ضربا من التوافق بين ذاته ، وذوات الآخرين ، أو بين ذاته ومجموعة المعانى التى يتفق عليها كل الأفراد داخل المجتمع • وبذلك يتجاوز الفرد رغباته وعواطفه ويوحد بين ذاته وذوات الآخرين بحيث لا يتعارض سلوكه مع سلوكهم • وفى هـذه الحالة فان مجموعة من العادات والتقاليد لا بد أن تنشأ لتحكم سـلوك الأفـراد طالمـا خضع كل منهم لعملية ايواء الذات هـذه ويصبح السلوك اجتماعيا اكبر واشمل من السلوك القـائم على الدوافع الفردية(٥٨) •

هنا يتحول السلوك الفردى الى سلوك جماعى او الى افعال مشتركة Joint actions • ويستخدم بلومر هذا المصطلح الأخير بدلا من مصطلح هربرت ميد « السلوك الاجتماعى » Social act • وتعنى الأفعال ذات الصيغة الجمعية للفعل التى تتكون من تجميع خطوط السلوك الفردية جنبا الى جنب • ومن نماذج الأفعال المشتركة : المعاملات التجارية ، والولائم العائلية ، وطقوس الزواج ، وحملات الدعاية ، والألعاب ، والحروب • والأفعال المشتركة بذلك تتراوح بين التعاون البسيط بين فردين الى أعقد النظم والتنظيمات(٥٩) • ويتضح هنا ان المجتمع ما هو ـ فى النهـاية ـ الا جماع لأفعال الأفراد التى تاخذ صورتها الجماعية من خلال المعـانى الجمعيـة التى يضيفها الأفراد على الموضوعات المحيطة بهم بمـا فيهـا

---

(٥٨) Dinzen, op. cit., pp. 262—3.

ومن المؤشرات التى تعكس محاولة ايواء الذات ارتداء ملابس معينة ، واتخاذ أسماء معينة ، واتباع أسلوب معين فى الحديث ، ودرجة الاندماج فى مناقشة معينة فى ضوء الوقت أو موضوع المناقشة • ويحكم الفـرد على التفاعل اذا كان مرضيا او غير مرض من خلال درجة نجاحه فى ايواء ذاته لدى الآخرين • انظر المرجع السابق •

والواضح أن عملية ايواء الذات تعكس العلاقة بين الفرد والمجتمع ، فالفرد اما ان يخضع ذاته للمجتمع ، واما أن يفرض ذاته على المجتمع • غير ان تراث التفاعلية الرمزية ـ على ما يبدو ـ يركز على الجانب الأول •

(٥٩) Blumer, op. cit., p. 239.

الآخرون انفسهم ، وما تلعبه الرموز من دور فى هذه العملية وسعى الأفراد الدائب نحو ليواء ذاتهم داخل المجتمع ٠

والسؤال الآن : هل تفقد الذات هويتها فى هذا النمط من المجتمع الذى يتصوره انصار اتجاه التفاعلية الرمزية ؟ الحق ان المجال هنا مفتوح للسلوك الطوعى الواعى ، برغم أن المحصلة النهائية لعلاقة الفرد بالمجتمع ـ فى ضوء نظرية التفاعل الرمزى ـ هى علاقة قهرية من جانب المجتمع ٠ فالتفاعليون الرمزيون يفرقون بين نوعين من السلوك :

١ ـ السلوك الذى يستخدم الرموز ويخضع لها بطريقة روتينية بحتة قائمة على العادة تقريبا ٠

٢ ـ السلوك الواعى الموجه نحو تحقيق هدف معين من خلال وسائل معينة ٠

ويمثل هذان النوعان من السلوك قطبين لنمطين شائعين من التفاعل تظهر بينهما أشكال أخرى متداخلة ، غير أن التفاعل يتحرك بينهما على أى حال ٠ ويعكس هذان المستويان من السلوك مستويين للذات : فهناك جانب روتينى للذات مرتبط بدرجة تحديد الرموز بشكل جمعى خلال التفاعل الروتينى ، وهناك جانب آخر للذات أكثر ابداعا وأكثر عرضة للتغير طالما أن جوانب بعينها من السلوك يتم توجيهها بوعى(٦٠) ٠ فضلا عن هذا ، فان هذين النوعين من السلوك يعبران عن ان هناك فى أى مجتمع ، اتجاها نحو ثبات العلاقات واستقرارها ، واتجاها آخر نحو تغييرها وتعديلها ٠

ولكن ما هو الأساس المنهجى الذى تقدمه التفاعلية الزمزية ، الواضح أن فهم المجتمع من خلال تصورات الفاعلين ، والمعانى التى يضفونها على مواقف التفاعل بما فيها من موضوعات ، يتطلب أساسا منهجيا يختلف عن المنهج الوضعى ـ فى صورته الدوركايمية ـ الذى ينظر الى الظواهر بوصفها أشياء منفصلة عن ذات الباحث ، وحتى عن الأفراد الذين يكونون عناصرها ، ويقترب المنهج الذى طوره التفاعليون الرمزيون من المنهج الفينومينولوجى

---

(٦٠) Scott McNall, The Sociological Experience : A Modern Introduction to Sociology, p. 317.

والأثنوميثودولوجى من حيث انه محاولة لكثير الحواجز التى تفصل بين ذات الباحث وموضوع بحثه ، بحيث يتمكن من الغوص فى أعماق الذات لكى يستخلص منها المعانى والتصورات المختلفة ، ولكى يفهم صورة التفاعل الرمزى بشكل أعمق • ويلخص فورمان دنزن القضايا المنهجية للتفاعلية الرمزية فيما يلى(٦١) :

١ ـ ربط السلوك الضمنى (الكامن) Covert بانماط السلوك الظاهره overt • فالباحث يجب أن يبدأ من أنماط السلوك الظاهرة ثم يحاول الكشف عن المعانى التى يضفيها الفاعلون على هذه الأنماط السلوكية•

٢ ـ يركز الباحث على الذات كموضوع وعملية فى نفس الوقت فيدرس السلوك من وجهة نظر الأفراد الذين يدرسهم ، موضحا تحول الذات عبر المعانى المختلفة فى المواقف السلوكية المختلفة •

٣ ـ يحاول الباحث بعد ذلك أن يربط الرموز والمعانى التى يستخدمها الأفراد بالدوائر الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية الأوسع ، والا ظل التحليل عند مستواه السيكولوجى •

٤ ـ اذا كان السلوك يظهر داخل « مواقف » ، واذا كان المعنى الذى يضفى على هذه المواقف يؤثر على أنماط السلوك اللاحقة ، فان التحليل الموقفى يجب أن يكون عنصرا أساسيا فى الدراسة (تتضمن عناصر الموقف : الفاعلون كموضوعات ، مميزة التفاعل أو مكانة ، المعانى التى تظهر فى الموقف ، والوقت الذى يستغرقه التفاعل) •

٥ ـ اذا كان التفاعل الرمزى يتميز بانه تفاعل مستمر ومتغير فى نفس الوقت ، فان استراتيجيات البحث يجب أن تعكس كلا الجانبين من التفاعل •

ويتضح من هذه القواعد المنهجية أن التفاعلية الرمزية تلتقى مع الاتجاهات الفينومينولوجية فى محاولتها المنهجية تخطى الحدود الفاصلة بين الباحث وبين الأفراد ، ودراسة المواقف الاجتماعية كما يتصورها هؤلاء الأفراد أنفسهم •

---

(٦١) N. Denzin, op. cit., pp. 266—69.

والسؤال الآن : الى اى مدى حققت كل هذه الاتجاهات انفصالا راديكاليا عن تيار علم الاجتماع بصورته المعروضة فى القسم الأول من هذه الدراسة ، وما هو الاسهام الحقيقى الذى قدمته ؟ هذا هو موضوع الفقرة القادمة .

خامسا ـ البدائل النظرية بين الاسهام النظرى والمنهجى :

اذا حاولنا أن نوضح العلاقة بين هذه الأطر النظرية وبين نظريات علم الاجتماع الكلاسيكى ، لاتضح لنا ـ على غير ما نتوقع ـ أن هذه الأطر النظرية لم تذهب بنا بعيدا عن النظريات الكلاسيكية ، وانما تناولت نفس القضايا ، ونفس الهيكل التنظيمى القائم ، ولكن من خلال مفاهيم ومناهج جديدة . لقد كانت الظروف التى ظهر فيها هذا الاحياء للأطر الفينومينولوجية القديمة ـ وهى تلك الظروف المتعلقة بظهور الحركة النقدية فى تراث علم الاجتماع ـ كانت من الشدة بحيث انتابت بعض العلماء نوبة من التفاؤل وبدأوا ينظرون الى هذا الاحياء الفينومينولوجى على أنه استفادة للمسحة الانسانية فى العلوم الاجتماعية ، وانه سوف يؤدى بعلم الاجتماع الى الانفصال كلية عن التراث الكلاسيكى المرتبط بالنظام والمدافع عنه . ولقد عبر عن ذلك التفاؤل موريس روش Roche عندما ذهب الى أن رجوع علم الاجتماع ـ الذى يمر فى الوقت الحاضر بمرحلة من اعادة التقييم ـ الى الأصول الفلسفية سوف يبرز داخله العنصر الانسانى الذى اختفى عندما تحول علم الاجتماع ـ خاصة فى الولايات المتحدة ـ الى مهنة منصهرة فى النظام الكلى للمجتمع . فالتطورات الحديثة فى علم الاجتماع ـ والتى تتمثل فى أعمال جار فينكل وجوفمان على وجه الخصوص ـ تستعيد المصادر الانسانية التى كبحت وأهملت لوقت طويل فى علم الاجتماع ، بل انها تخرج خارج نطاق الحدود التقليدية فى علم الاجتماع عندما تستقى مفاهيمها من الفينومينولوجيا(٦٢) . كما عبر عن هذا التفاؤل أيضا دون زمرمان Don Zemmerman الذى ذهب الى ان المنهج الأثنوميثودولوجى يكشف عن اختلاف جذرى عن التفكير السوسيولوجى التقليدى . فالباحث يتعامل مع الواقع الذى نعيش فيه ويسلك داخل نفس العالم الاجتماعى الذى درسه

---

(٦٢) Roche, op. cit., P. IX and P. 316.

بطريقة تختلف ـ من زوايا عديدة ـ عن طريقة علماء الاجتماع التقليدين • فالمنهج الأثنوميثودولوجى لا يهتم بالنظام قدر اهتمامه بتنوع واختلافه علاقات التفاعل باختلاف المواقف واختلاف تصورات الأفراد عن هذه المواقف • واذا قرر أصحاب هذا المنهج أن الفاعلين يشاركون فى مجموعة من التحديدات والتصورات عن علاقات التفاعل ، فليس معنى ذلك ، أن علاقات التفاعل تخلو من الصراع ، أو أنها غير مهددة بالتوقف ، ذلك لأن التصورات المنبثقة عن موقف معين قد تختلف باختلاف ديناميات الموقف(٦٣) • غير أن هذا التفاؤل بشأن الكفاءة النظرية لهذه الاتجاهات ، لا يوجد عند كل دارسى النظرية • فاذا كانت هذه الاتجاهات قد حققت قدرا من الانفصال عن التيارات الكلاسيكية فى علم الاجتماع عندما اهتمت بالحياة اليومية ، بسلوك الفرد فى مقابل المجتمع ، الا أنها قد انتهت الى ما انتهت اليه النظريات الكلاسيكية من تأكيد على عناصر النظام العام ، والاهتمام بالقيم والمعايير كضابط مطلق للسلوك • وبمعنى آخر فان هذه الاتجاهات تهتم ـ من خلال ارتباطها بمشكلة النظام مثلها مثل الاتجاهات الأخرى ـ بامكانية قيام نظام اجتماعى عام أكثر من اهتمامها بقدرة الأفراد على تغيير هذا النظام وتحويله • ولقد عبر عن وجهة النظر هذه « الفن جولدنر » عندما ذهب الى أن جار فينكل قد عارض بارسونز عندما أهمل دور الاشباعات المتبادلة فى علاقات التفاعل ، وعندما أهمل دور المشاركة فى القيم الأخلاقية بين جماعات الفاعلين • ولكن اهتم ـ مثله مثل بارسونز ـ بمتطلبات النظام الاجتماعى العام عندما اهتم بمشاركة الفاعلين فى القواعد والمعرفة التى تجعل التفاعل الاجتماعى المستقر ممكنا بينهم • فالعالم الاجتماعى يكتسب صفة الوحدة ـ فى نظر جار فينكل ـ من خلال بناء جمعى من الفهم المتبادل بين الأفراد(٦٤) ، وعبر عنه أيضا نورمان دنزن Denzin (٦٥) ، الذى ذهب الى أن التفاعلية الرمزية التى

---

(٦٣) Don Zemmerman and Lawrence Wieder, "Ethono-methodology and The problem of Order," Comment on Denzin, in : J. Douglas, Understanding Everyday Life, Routledge and Kegan Paul, London, 1974, p. 287.

(٦٤) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., p. 390.

(٦٥) Denzin, op. cit., pp. 259—284.

تمثلها اعمـال جوفمان Goffman والأثنوميثودولوجى التى تمثلهـا كتابات جار فينكل ، يهتمان اساسا بامكانية قيام نظام اجتماعى عام من حيث انهما يركزان على القواعد والمعايير ، والمعانى والتعريفـات التى يسلم بها اعضاء اى نظام معيارى ، ويعتبرونها شيئا معطى ، وان كان قد ذهب فى نفس الوقت الى ان الأثنوميثودولوجى قد قدمت اسهاما راديكاليا عندما اهتمت باستخدام النماذج الرشيدة للسلوك الانسانى ، وعنـدما استخدمت « المنهج التوثيقى » . وعبر عن نفس الرأى جون ركس الذى ذهب الى أن دراسة المعانى التى يسلم بها الأفراد فى لغتهم اليومية تؤدى الى الأساس الحقيقى للنظام الاجتماعى ويعنى هذا ان استخدام اللغـة يتضمن قبول الأفراد الذين يستخدمونها لنظام معيارى معين(٦٦) .

يتضح من هـذه الآراء ان امكانية هـذه البدائل النظرية فى تقـديم صورة نظرية تنفصل انفصالا راديكاليا عن التراث الكلاسيكى هى لمكانية ضعيفة الى ابعـد الحدود حقيقة أن انصار هـذه الاتجاهات الجديدة قـد بدأوا من موضوعات ومشكلات نظرية مخالفة لتلك التى طرحت فى التراث الكلاسيكى المحافظ (مثل ذلك الاهتمام بلغة الحياة اليومية ، والتصورات الذاتية) غير أن التحليل قـد انتهى بهم الى ان يولجهوا نفس المشـكلات النظرية الكلاسيكية ، وعلى راسهـا « مشكلة النظام » .. ولقـد قدسوا نفس الحل القهرى لهـذه المشكلة عندما ربطوا بين التفاعل الموقفى والمعايير والقواعد ، أو حتى للرموز التى تحكم هـذا التفاعل(٦٧) .

---

(٦٦) J. Rex, Sociology and the Demstification of — op. cit., p. 27.

(٦٧) بل ان جار فينكل قد عبر عن تاثره ببارسونز ـ ضمن آخرين ـ هم شـوتز وجيرفتش وهوسرل . فقد كتب يقول : « لقد زودتنى أعمـالهم بخيوط ارشادية لا تستنفذ نحو عالم الأنشـطة اليوميـة . أما اعمـال بارسونز بصفة خاصـة ، فانهـا تدعو للاحترام ، وذلك لعمق منطقهـا السوسيولوجى الواقعى المتناهى ودقته التى لا تخطىء فى فهم المهام الكلية لمشكلة النظام العام وحلولها » .

انظـر :

Garfinkel, Studies in Ethnomethodology, op. cit., p. ix.

هـذا عن النظرية ، فماذا عن المنهج ؟ يبدو أن الاسهـام الحقيقى لكل هـذه الاتجاهات هو اسهام منهجى أكثر منه نظرى · فالمناهج التى طورها علماء منهجية الجماعة ، والتفاعلية الرمزية ، تبدو على تناقض شـديد مع المناهج الكمية أو حتى بعض صور التحليل الكيفى التى صاحبت النظريات الكلاسيكية وامتداداتها المعاصرة · وتنحصر الجـدة المنهجية التى قـدمتها هـذه اتجاهات فى عنصرين :

الأول : تصور جديد للعلاقة بين الباحث وموضوع بحثه حيث اعتبر الباحث جـزءا من الموضوع يؤثر ويتأثر به والفرق بينهمـا هو الفرق فى مستويات الوعى أو مستويات التحليل العقلانى · ومن ثم فان السلوك العلمى ، أو بمعنى آخـر ، الموضوعية ترتبط بمـدى الوعى الذاتى للباحث وامتثاله لمايير حب الاستطلاع والاكتشاف ·

الثانى : تطوير بعض الأدوات الخاصـة بجمع البيانات كالمنهج التوثيقى والمنهج شـبه التجريبى فى الأثنوميثودولوجى ، وتطـوير بعض أساليب الملاحظة ، والملاحظة بالمشاركة فى التفاعلية الرمزية ·

ويرتبط هذان العنصران بالافتراض المنهجى للنظرى الأساسى الكامن خلف كل هذه الاتجاهات ، والذى مؤداه أن ظواهر المجتمع ليس لها وجود خارج نطاق وعى الأفراد أو مداركهم · وفى هـذه الحالة ، فان الباحث ما هو الا فرد يعيش فى المجتمع له ما للأفراد من وعى وادراك · وعلى الباحث - اذا كان له أن يدرس هذه الظواهر ـ أن يتسلح أولا بقدر من الوعى العلمى الذاتى ، ثم يشـتق لنفسه من الأدوات ما يمكنه من الغوص فى نفـوس الأفراد لاستخلاص ظواهر المجتمع وقوانينه كما يتصـورونها · ومن هنـا كان التركيز على هـذه الأساليب الجديدة فى جمع البيانات ·

غير أن هذه الأسـاليب المنهجية من الممكن أن تكون محل مناقشـة من ناحيتين :

الأولى : ان الباحث الذى يكسر اسـاليب السـلوك وقواعده لكى يكتشف هـذه الأساليب والقواعد (وانا اقصد هنا المنهج شـبه التجريبى فى منهجية الجماعة) لا بد وان يكون على معرفة بالسلوك الذى كسر قواعده ·

بمعنى آخر ، ان هـذه القواعد معروفة سلفا لدى الباحث ، وهو فقط يكسر قواعد السلوك من أجل اختبار معرفته بها · وفى هـذه الحالة تصبح المعرفة السوسيولوجية من نتاج الباحث ، وليست مستخلصة من المجتمع ·

الثانية : اذا كان الباحث عضوا فى المجتمع الذى يدرسه ، وهو جزء لا يتجزأ منه ، فانه يصبح من الصعب عليه فى الكثير من الأحيان أن يدرك الدلالات السوسيولوجية · للكثير من تفاصيل الحياة اليومية · وفى هـذه الحالة ، فان مزيدا من الغوص والتعمق فى تفاصيل الحيـاة اليومية لن يمكنه من رؤية واضحة لما يريد أن يدرسه ، وربما يحقق هـذه الرؤية اذا هو استطاع أن ينفصل عن الثقـافة والمجتمع اللتين يدرسهما ، وينتمى اليهما ، بحيث يفصل بين ذاته كحامل للثقافة ، وكمشـارك فى المجتمع ، وبين الموضوع الذى يدرسه ·

مناقشـــة ختـــامية

نستطيع من العرض السابق أن نكتشف بوضوح أن علم الاجتماع قد تطور من خلال الصراع بين مجموعة من المذاهب الفكرية بعضها محافظ يود الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسكه ، وبعضها الآخر راديكالى يتصور المجتمع على أنه يحوى عمليات مستمرة من الصراع والتغير ٠ ولكن الصراع لم ينته الى قسمة عادلة بين هذه المذاهب الفكرية ، فقد تولدت مجموعة من الظروف أدت الى أن يتطور علم الاجتماع فى خط معين محاولا أن يحاصر كل الخطوط الأخرى التى تناهضه ٠ وكان خط التطور الذى سار فيه العلم هو ذلك المرتبط بمشكلة النظام العام فى المجتمع ٠ ولا يعنى ذلك أن الجوانب المرتبطة بالصراع والتغير قد أجهضت فى محاولاتها الأولى ، على العكس من ذلك تماما لقد نمت هذه الجوانب وتطورت ولكن نموها وتطورها لم يكن يسير بنفس معدل نمو الجوانب الأخرى التى تدعم النظام ، خاصة وأن تلك الأخيرة قد اكتسبت سيطرة وانتشـارا جعلهـا قادرة على مقـاومة الجوانب الأخرى ومحاصراتها فى أضيق الحدود ٠

ولقد حاول هـذا البحث فى القسم الأول منه أن يتتبع تطـور علم الاجتماع فى المجتمعات الغربيـة فى ارتباطه بمشـكلة النظـام العـام ، محاولا ان يتقصى العوامل الفكرية والبنائية التى جعلته يسير فى هـذا المسار يتبنى وجهة نظر معينة فى وصف الواقع الاجتماعى وتفسيره ٠ ولقد اتضح من خلال عرض الاتجاهات الكلاسيكية فى علم الاجتمـاع ـ كما تمثلت فى أعمال كونت ودوركايم وماكس فيبر وبارسونز ـ أن تطور علم الاجتماع كان تطورا فى فكرة القهر الخارجى التى قدمها الفيلسـوف الانجليزى توماس هوبز ٠ ومن هنا كانت العلاقة بين تطور نظريات علم الاجتمـاع وبين مشكلة النظام العام ٠ فلقد واجه علماء الاجتمار السؤال التالى : كيف يكون المجتمع ممكنا ؟ أو كيف يمكن أن نلم شمل المجتمع بطريقة تجعله قادرا على الاستقرار والاستمرار عبر الزمن ؟ ولا شـك أن هـذا السؤال لم ينشـأ من فراغ ، لقد فرضته الظروف البنائية والفكرية

التى تحكمت فى تطور علم الاجتماع • فقد قدر لعلم الاجتماع أن يكون « علم الأزمة » • فالتطورات الكبرى التى حدثت داخله قد جاءت أثناء ازمات سياسية واقتصادية مرت بها المجتمعات الغربية ، خلفت مجموعة من الاضطرابات ومظاهر التفكك والخلل • وكان على علماء الاجتماع أن يقدموا لمجتمعاتهم الصيغة التى يمكن أن تخلصها من مظاهر الخلل والاضطراب هذه • ومن ثم وضعوا أمامهم السؤال السابق : كيف يكون المجتمع ممكنا ؟ ويلخص هذا السؤال مشكلة هوبرز الشهيرة عن النظام العام الاجتماعى : كيف يمكن خلق للنظام اذا كانت الحياة الاجتماعية تقوم على حرب الكل ضد الكل ؟ وجاء حل العلماء لهذه المشكلة تطويرا لنفس فكرة القهر التى حل بها هوبز مشكلة النظام على لختلاف نوعية الحلول التى قدمت لها •

١ ـ قدم كونت حلا وضعيا يستلهم روح العلم فى فهم المجتمع ، او النظام العام ويعمل على تفسيره وتشريحه بعد أن يرسى دعائمه • انه حل يقوم على فكرة الاتساق العام فى المجتمع ، فهذا الاتساق هو أساس النظام والتقدم جناحا الفلسفة الوضعية ، والمجتمع كل مترابط يصنع الأفراد ويشكلهم وفق أهدافه •

٢ ـ وقدم دوركايم حلا قهريا عندما ركز على فكرة الضمير الجمعى الذى يخلق ضربا من ضروب التماثل الجمعى العقلى والعاطفى بين الأفراد ، ومهما تعددت صورة المجتمعات وأنماطها فانها تخضع دائما لمجموعة من القواعد والتقاليد التى تضبط سلوك الأفراد وتقهرهم • والفرق بين المجتمعات يكمن فى نوعية هذه القواعد (فهى قواعد عرفية فى مجتمع التضامن الآلى ، وقواعد قانونية تعويضية فى مجتمع التضامن العضوى) •

٣ ـ أما بارسونز فقد قدم حلا معياريا : فعلاقات التفاعل الاجتماعى بين الأفراد قائمة على تشربهم لمجموعة من القيم والمعايير التى تعد اطارا عاما موجها لهم فى حياتهم اليومية • ويحاول كل مجتمع أن يكسب أفراده معاييره وقيمه ليحقق بينهم ضربا من التفاعل المستقر بحيث يصبح المجتمع فى النهاية شبكة متناغمة من علاقات التفاعل ، أو نسقا اجتماعيا متوازنا يتغلب باستمرار على كل مظاهر الصراع والتوتر والتغير •

ولا نستطيع أن نجزم بالقول بأن العوامل البنائية وحدها هي التي جعلت هؤلاء العلماء يتخذون من مشكلة النظام بؤرة اهتمام رئيسية ، فقد كان للعوامل الفكرية أثر كبير في اتخاذ هذا الموقف . ففلسفة كونت الوضعية كانت رد فعل لانتشار التيار النقدي الراديكالي المنبثق من الثورة الفرنسية ، أما نظريات دوركايم وبارسونز فقد لعبت الماركسية دورا كبيرا في تشكيلها . فمع قوة ظهور الماركسية ومع انتشارها الضافي في المجتمعات الرأسمالية التي اتخذت منها موقفا نقديا ، تمسك المنظرون الذين ينتمون الى هذه المجتمعات من الناحية الفكرية بوجهة النظر التي تتخذ من الماركسية موقفا نقديا . ومن ثم ساروا في الخط المرتبط بالنظام وعملوا على تقويته وتدعيمه لا ليحاصر الماركسية فحسب ، بل ليستخدم ـ استخداما سياسيا ـ لمنع حدوث كل ضروب الصراع والتغير التي تنبأ بها ماركس . فقد سار التراث السوسيولوجي الغربي في خطين : خط نظري مجرد يضع الأسس العامة للنظرية التي تبرز عناصر الاستقرار والاستمرار بين أجزاء الواقع الاجتماعي ، وخط امبيريقي يتبلور في جمع كم هائل من الشواهد الأمبريقية التي تدعم هذه الرؤية النظرية . وفي كلا الحالين يضع أصحاب هذا التراث ما يتوصلون اليه من حقائق وآراء أمام صناع الساسية وملوك الاقتصاد والحرب ليستخدموه في تحقيق مزيد من سيطرتهم على المجتمع ، وفي تحقيق مزيد من الاستقرار للنظام القائم .

ولم يكن من الممكن أن يستمر هذا الحال الى مالا نهاية . فحركة التاريخ لا تتوقف ،والواقع هو الواقع مهما فرضت عليه من تفسيرات . فالرؤية التي يقدمها علماء الاجتماع رؤية متحيزة تركز على عناصر من الواقع دون العناصر الأخرى ، وتسخر جهودها نحو طمس هذه العناصر الأخرى ومحاصرتها . ولقد حدث أن ظهرت مجموعة من العوامل ادت الى أن يكشف الواقع عن هذه العناصر المحاصرة ، وأن يضع أمام النظريات المرتبطة بمشكلة النظام تحديا بنائيا وضعها في مازق حرج . ففي نهاية العقد السابع وبداية العقد الثامن من هذا القرن تفجرت موجات من الصراع داخل المجتمعات الغربية بفعل عوامل الكبح السياسي ، والاستغلال الاقتصادي ، ونزعة الترشيد والعقلانية التي ادت الى مظاهر كثيرة للاغتراب بين جماعات الشباب خاصة . ولقد ادت هذه الموجات الى أن

يظهر بناء فكرى جديد وارهاصات بناء اجتماعى جديد اخذ يدخل فى صراع مع البناء النظرى القديم والبناء الاجتماعى القديم • ومنا بدات ازمة علم الاجتماع فى المجتمعات الغربية ، فعلماؤه يعملون وفق المخطط الذى رسموه وتصوروا انه الخط السليم عندما حققت المجتمعات الغربية قدرا من الاستقرار فى الخمسينات وبداية الستينات ، وفى نفس الوقت تسير حركة التاريخ على غير اهوائهم ، فيعبر التاريخ عن نفسه ويفجر صراعاته الداخلية ، ويفرز ضروبا من الفكر تغاير الخط الذى يسير فيه هؤلاء العلماء •

بناء على ذلك بدا العلم الاجتماعى يخبر توترا وصراعا داخليا فى مواجهته لهذه الأبنية الجديدة • فقد بدا يدخل فى صراع معها ، كما ان ظروفه الداخلية لا تجعله قادرا على مواجهتها مواجهة فعالة • فهو متورط فى اهتمامات سياسية واقتصادية تجعله يتناقض مع نفسه عندما يدعى الحياد الأخلاقى والموضوعية ، كما انه افرز فى وقت مبكر (فى فترة الخمسينات) اتجاها لا يوافق على دعوة النظام موافقة كلية ، ويسعى الى أن يستفيد من نظريات الصراع فى محاولة تاليفية بين فكرتى النظام والصراع (آراء دارندورف وكوزر ، ولوكود ، وفان دن برج ، وبيرس كوهين) •

وبدا الصراع بين البناء الفكرى القديم والبناء الاجتماعى الذى يفسره وبين البناء الفكرى الجديد والأبنية الاجتماعية الناشئة التى يعبر عنها ، بدا هذا الصراع وعلم الاجتماع مثقل بهذه المشكلات • وقد ادى ذلك الى زيادة توتراته الداخلية ، وتكرار مظاهر فشله امام هذه الأبنية الجديدة • وافرزت حركة الجدل بين القديم والجديد ما يسميه بالاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع الغربى ، تلك الاتجاهات التى انضمت الى الأبنية الفكرية التى افرزتها لتدخل من جديد فى تناقض مع الاتجاهات التقليدية على طريق للحركة الجدلية بين القديم والجديد والتى ستؤدى فى النهاية الى مجتمع جديد ونظرية جديدة •

ولقد عرضت لهذه الاتجاهات النقدية فى القسم الثانى من البحث ، ويهمنى الآن ان اعرض لمجموعة من النتائج التى استخلصتها من دراستى لهذه الاتجاهات :

١ ـ ان هـذه الاتجاهات لا تتخذ مسارا واحدا ، فهى تتباين اشـد التباين ، ويقوم هذ التباين على العلاقة الوثيقيه بين النظرية والمجتمع • اذ أن بعض هذه الاتجاهات يبدأ بنقد النظرية ايمانا منه ان نقـد النظـرية يمثل نقـدا للمجتمع الذى تفسره هـذه النظرية • وبعضـها الآخر يبـدأ من نقـد المجتمع ايمـانا منه أن نقـد المجتمع يمثـل نقـدا للنظرية التى تفسره ، وبعضها يترك النظرية والمجتمع ويتجيه الى التنظير بأسـلوب يغـاير الأسـلوب التقليـدى •

٢ ـ ومع وجود هـذا التباين فان الأسلوب واحـد والهدف واحـد امام كل البدائل النقـدية • فاسلوب هـذه الاتجاهات هو النقـد ، النقـد الذى يقوم على احداث توتر داخل البناء الذى يوجه اليه النقـد • والهدف هو تغيـير البنـــاء النظرى التقليـدى واستبداله بآخر جـديد • فالذين يتجهون نحو نقـد النظرية يكشف نقـدهم عن رغبتهم فى احـداث توتر داخل البنـاء النظرى التقليـدى ، بحيث تتزايد تناقضاته الداخلية فتجعل بتغيـيره • أما الذين يتجهـون نحـو نقـد المجتمع فان نقدهم يكشف عن رغبتهم فى احـداث توتر داخل المجتمع يؤدى الى تغيـير دعائمه والأسس القهـرية التى يقـوم عليها والتى تدعمها النظرية التقليـدية • أما الذين يحاولون صياغة بدائل نظرية فانهم يتخـذون موقفـا نقـديا من النظرية التقليـدية ومن ثم يحـدثون مزيدا من التوتر والصراع داخـل بنائهـا ، ويعبرون عن آمال كل من نقـــاء النظرية ونقـاء المجتمع فى ايجاد نظـرية أكثر رحابة من النظرية القديمة •

٣ ـ يترتب على ذلك النتيجـة التى مؤداهـا ان هؤلاء النقـاد قـد شربوا من منبع واحـد وتاثروا باتجاهات واحـدة • فبنظـرة عابرة على نظرياتهم النقدية نلاحظ تاثرهم بتراث بعض علماء الاجتماع الكلاسـيكى وعلى راسـهم ماكس فيبـر وماركس ، كمـا نلاحـظ تاثرهم برايت ميـلز الذى استطاع أن يجمع بذكاء بين آراء كل من ماركس وماكس فيبر ، هـذا الى جانب تاثرهم بتيـارات الصراع والحركات الاجتمـاعية والفـكرية التى ظهرت فى المجتمعات الغربيـة فى نهـاية العقـد المـاضى • ويمكن ان

نستنتج بناء على ذلك أن هذه الاتجاهات تسعى الى تنمية العناصر الجوهرية والمفيدة فى بعض الاتجاهات الكلاسيكية خاصة أعمال ماكس فيبر وماركس مع دمجها ببعض التيارات الفكرية المعاصرة • فقد اكتسب تراث ماكس فيبر تميزا خاصا داخل علم الاجتماع الغربى ، فرغم أنه ينتمى الى نفس تياره العام ، الا أنه قدم مجموعة من القضايا التى تخالف قضايا علم الاجتماع الغربى الأساسية • أما نظرية ماركس فانها تمثل يوتوبيا يمكن أن نشتق منها الكثير من التفسيرات والبرامج التى يمكن أن تتلاءم مع بعض جوانب حياتنا المعاصرة • وبناء على ذلك فان البديل النظرى الذى يمكن أن يظهر فى علم الاجتماع الغربى ، بعد اكتمال الحركة النقدية سوف يكون مزجا لبعض آراء ماركس وماكس فيبر ببعض التيارات الفكرية المعاصرة وعلى راسها الفينومينولوجيا والوجودية وتكشف بعض البدائل النظرية المطروحة ، والتى عرضنا لبعض منها فى الفصل الأخير ، عن صدق هذا الراى •

٤ ـ واعتقد البعض أن البدائل النظرية التى اتخذت اتجاها فينومينولوجيا تمد محاولات جادة للعبور بالنظرية الاجتماعية من مرحلة الخطر ، والأزمة • ولقد أوضحت فى الفصل الأخير من هذا الكتاب ان هذه البدائل قد فشلت فى ان تنفصل انفصالا راديكاليا عن الاتجاهات الكلاسيكية • فالتركيز على دراسة الحياة اليومية ومحاولة البحث المستميت عن تصورات الانسان عن حياته وعن الآخرين يؤدى بهذه البدائل الى نفس الاتجاه الذى سارت فيه الاتجاهات التقليدية من حيث الارتباط بالاتجاه المحافظ ومن حيث السعى نحو خدمة الدولة وصناع السياسه ورجال الاقتصاد • ويمكن أن تتغلب هذه البدائل على هذا التصور اذا ما ربطت دراستها للبناء النفسى الفلسفى للأفراد ببعض عناصر البناء الاجتماعى ، وهنا تظهر اهمية دراسة القوة ، ودور الصفوة ، والشكل الراسمالى للانتاج ، مع ابراز الجانب الاستغلالى فى هذه العلاقة بين الانسان والمجتمع • ولقد نجح رايت ميلز نجاحا كبيرا فى ذلك ويجب أن تستفيد هذه البدائل من اعماله ، فضلا عن اعمال ماركس وماكس فيبر •

٥ ـ وينقلنا ذلك مباشرة الى التاكيد على ضرورة توحيد حركات النقد فى علم الاجتماع • اذ لا شك ان العرض السابق قد أوضح تباين مسار الاتجاهات النقدية بالرغم من ان هدفها واحد • ففى الوقت الذى يتجه فيه اتجاه النقد السوسيولوجى نحو توضيح تناقضات بناء العلم ، يتجه النقد الاجتماعى نحو توضيح تناقضات المجتمع ، وتتجه البدائل النظرية نحو احدث الصيحات الفلسفية انتشارا ، وأعنى الوجودية وأدب العبث او اللامعقول • ويمكن بقدر من التجديد فى أساليب هذه الاتجاهات فى النقد أن نحقق قدرا من الوحدة فى أسلوبها وهدفها • اذ لا شك انها جميعا تنطلق من مجموعة من المبادىء الانسانية التى تسعى الى أن تخلص انسان العصر الحديث من كل مظاهر الظلم والكبح والقهر التى يمارسها المجتمع الراسمالى • ويمكن من هذا المنطلق الانسانى أن تحقق هذه الاتجاهات الوحدة فيما بينها ، فيهتم اتجاه النقد السوسيولوجى بنقد المجتمع وابراز هذه المظاهر ، ويهتم النقد الاجتماعى ـ وهو كذلك بالفعل ـ بنقد النظرية الى جانب هدفه الأساسى فى ابراء الجوانب الاستغلالية فى الحياة ، وتتجه البدائل النظرية نحو ربط رؤيتها الفلسفية لواقف الحياة بالأطر الاجتماعية الكبرى التى تؤثر فى هذه المواقف وتجعلها تتخذ طابعا استغلاليا • ويعنى كل هذا ضرورة استفادة كل هذه الاتجاهات من أفكار رايت ميلز فقد استطاع أن يجمع هذه المسالك النقدية الثلاثة فى اطار واحد ، فضلا عن نجاحه البارع فى الاستفادة من تراث ماركس وماكس فيبر •

وبعد هذه المناقشة لا بد أن نواجه انفسنا بسؤال على جانب كبير من الأهمية ، ما هى اهمية كل هذه النظريات ـ تقليديه كانت او حديثة ـ لمجتمعاتنا المتخلفة ، وهل يمكن ان تصلح لوصف وتفسير واقع هذه المجتمعات ؟ فذلك السؤال يجب أن يكون نقطة الانطلاق عند اجراء اى بحث علمى فى مجتمعنا المصرى أو عند مناقشة اى قضايا ترتبط ببناء علم الاجتماع المحقق أن نظريات علم الاجتماع الغربى قد فشلت فى ان تحيط ببناء المجتمعات التى نشأت فيها وصفا وتفسيرا ، وهى تخضع هذه الأيام لتيار من النقد واعادة المراجعة • فلا يعقل اذن أن ناخذ هذه النظريات كما هى

ونطبقها على مجتمعاتنا او نحاول ان « نحصر » واقعنا « حصرا صناعيا » ليتناسب مع هذه النظريات(١) اذ كيف تتناسب هذه النظريات مع مجتمعنا فى الوقت الذى تخضع فيه لاعادة الصياغة والمراجعة فى المجتمعات التى ظهرت فيها • اما عن البدائل الحديثة فاننا قد راينا ما يمكن ان يؤخذ عليها من انتقادات • وتلك مشكلة « عويصه » • نأمل ان نعالجها فى دراسة مستقلة غير اننى اود ان اركز هنا على :

١ ـ لا بد من التفاعل مع النظريات التى تطورت فى مجتمعات غير مجتمعنا المصرى باسلوب نقدى • فاذا كانت هذه النظريات تعد بمثابة اطارات معرفية (ابستومولوجية) ظهرت لتعكس واقعاً انطولوجيا معينا ، فانه لا يمكن ان نطبقها تطبيقا ميكانيكيا فى كل زمان ومكان ، الا اذا سلمنا بوحدة العالم الاجتماعى وعدم تنوعه ، وهو أمر يصعب التسليم به فى ضوء التطورات المعاصرة فى البحث الفسلفى والأنثروبولوجى •

٢ ـ الفائدة الوحيدة التى يمكن ان تعود علينا من هذه النظريات هى ان تعتبر هذه النظريات مصدرا للمفاهيم • المهم تجرد هذه المفاهيم من ارتباطاتها الأيديولوجية والنظرية بحيث توضع فى صياغات نظرية جديدة • وسوف يحقق ذلك غرضين :

(أ) اسهام فى نقد النظريات التى تطورت فيها هذه المفاهيم ، بان تؤخذ المفاهيم وتوضع فى سياقات جديدة ومعان جديدة بحيث ترد على اصحابها لتثبت لهم ان مفاهيمهم كانت متميزة عندما تمت صياغتها فى ضوء نظرياتهم •

---

(١) ان اغلب البحوث التى تجرى فى علم الاجتماع فى مصر تنطلق من نظرية معينة رغم اختلاف هذا الواقع عن واقع المجتمع الذى ظهرت فيه هذه النظرية • وهذا الاتجاه فى البحث يجب أن يتوقف ، فضلا عن أنه ينحرف بالمسار الصحيح الذى يجب ان يسير فيه البحث (واعنى تحليل واقعنا المصرى وتشريحه من خلال استخدام بعض المفهومات والمناهج السوسيولوجية) فانه يشوه الواقع ويضفى عليه ضربا من ضروب الزيف •

(ب) توفير الوقت والجهد اللذين يمكن أن يصرفا فى البحث عن مسميات جديدة ٠

٣ ـ للدراسة التتابعية والآنية للواقع فى ضوء فروض تتم صياغتها من خلال التحليل النقدى للنظريات ومن خلال الخبرة السوسيولوجية بالواقع ٠

٤ ـ يمكن لهذه الفروض أن تتبلور فى نظرية (أو نظريات) استرشادية يتم اختبارها وتنقيحها باستمرار ٠

سلسلة علم الاجتماع المعاصر

صدر منها :

الكتاب الأول :

ميادين علم الاجتماع : لختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمود عودة ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، القاهرة ، ١٩٨٤ ٠

الكتاب الثانى :

نظرية علم الاجتماع : تاليف نيتولا تيماشيف ، ترجمة الدكاترة محمود عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة ، القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

الكتاب الثالث :

اساليب الاتصال والتغير الاجتماعى : تاليف الدكتور محمود عودة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ ٠

الكتاب الرابع :

تمهيد فى علم الاجتماع : تاليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف الطبعة السادسة ، القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

الكتاب الخامس :

مجتمع المصنع ٠ دراسة فى علم لجتماع التنظيم : تاليف الدكتور محمد على محمد ، الهيئة العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٢ ٠

الكتاب السادس :

الصفوة والمجتمع : تاليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى

وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب السابع :

الطبقات فى المجتمع الحديث : تاليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

الكتاب الثامن :

علم الاجتماع الفرنسى المعاصر : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع :

قراءات معاصرة فى علم الاجتماع : للدكاترة علياء شكرى ومحمد على محمد ومحمد الجوهرى ، الطبعة الثانية دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب العاشر :

دراسات فى التنمية الاجتماعية : تاليف الدكاترة السيد الحسينى ، ومحمد على محمد وعلياء شكرى ومحمد الجوهرى ، الطبعة الخامس ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

الكتاب الحادى عشر :

مشكلات اساسية فى النظرية الاجتماعية : تاليف جون ركس ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى ومحمد سعيد فرح ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، منشاة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ .

الكتاب الثانى عشر :

التغير الاجتماعى : تاليف الدكتور محمد الجوهرى وآخرين ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثالث عشر :

دراسة علم الاجتماع : لختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب الرابع عشر :

علم الاجتماع الريفى والحضرى : للدكتور محمد الجوهرى والدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨٣ ٠

الكتاب الخامس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع : تاليف الكس انكلز ، ترجمة وتقديم الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ، ومحمد على محمد ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

الكتاب السادس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب السابع عشر :

علم الفولكلور ـ الجزء الأول : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة دار المعارف ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الثامن عشر :

النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم : تاليف الدكتور السيد محمد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠

الكتاب التاسع عشر :

مصادر دراسة الفولكلور العربى : اشراف الدكتور محمد الجوهرى داو الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٣ ٠

الكتاب العشرون :

الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية : اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ١٩٨٣ ٠

الكتاب الحادى والعشرون :

علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الثانى والعشرون :

علم الفولكلور ٠ الجزء الثانى (دراسة المعتقدات الشعبية) : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ٠

الكتاب الثالث والعشرون :

بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ٠ دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة السعودية : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٢

الكتاب الرابع والعشرون :

التراث الشعبى المصرى فى الكتبة الاوربية : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨٣ ٠

الكتاب الخامس والعشرون :

الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب السادس والعشرون :

دراسات معاصرة فى علم الاجتماع : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع ٠

الكتاب السابع والعشرون :

عادات الطعام فى الوطن العربى : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع ٠

الكتاب الثامن والعشرون :

الفلاحون والدولة : تاليف الدكتور محمود عودة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب التاسع والعشرون :

تاريخ علم الإجتماع : الجزء الأول : تاليف الدكتور محمد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب الثلاثون :

علم الاجتماع والمنهج العلمى : تاليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب الحادى والثلاثون :

اصول علم الاجتماع السياسى : تاليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ ٠

الكتاب الثانى والثلاثون :

جماعات الفجر ٠ مع اشارة لفجر مصر والبلاد العربية : تاليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ٠

الكتاب الثالث والثلاثون :

الأنثروبولوجيا : اسس نظرية وتطبيقات عملية : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ ٠

الكتاب الرابع والثلاثون :

علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضايا : تاليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الخامس والثلاثون :

علم الاجتماع العسكرى ٠ التحليل السوسيولوجى لنسق السلطة العسكرية : تاليف الدكتور احمد خضر ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ٠

الكتاب السادس والثلاثون :

الفكر الاجتماعى ٠ نظرة تاريخية عالمية : تاليف هاينز موس ترجمة الدكتور السيد الحسينى والدكتورة جهينة سلطان العيسى ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠

الكتاب السابع والثلاثون :

التنمية والتخلف • دراسة تاريخية بنائية : تاليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ •

الكتاب الثامن والثلاثون :

المدينة • دراسة فى علم الاجتماع الحضرى : تاليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ •

الكتاب التاسع والثلاثون :

النظرية الاجتماعية المعاصرة • دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع : تاليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ •

الكتاب الاربعون :

علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية : تاليف الدكتور احمد زايد ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ •

الكتاب الحادى والاربعون :

البناء السياسى فى الريف المصرى : تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة : تاليف الدكتور احمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ •

الكتاب الثانى والأربعون :

علم الاجتماع الأمريكى : دراسة لأعمال تالكوت بارسونز : تاليف جى روشيه ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى والدكتور احمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ •

الكتاب الثالث والأربعون :

البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا : المفاهيم والقضايا : تاليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ،

الكتاب الرابع والأربعون :

علم الاجتماع والنقد الاجتماعى : تاليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة

محمد الجوهرى والسيد الحسينى وعلى ليلة واحمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الخامس والاربعون :

الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث : تحرير الن مونتجوى ، ترجمة وتعليق الدكاترة محمد الجوهرى وعلى ليلة واحمد زايد ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٤ ٠

الكتاب السادس والاربعون :

علم الاجتماع ومشكلات وقت الفراغ ، تاليف الدكتور محمد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ٠

الكتاب السابع والاربعون :

علم الاجتماع : تاليف جونسون ترجمة وتعليق الدكاترة علياء شكرى ومحمد الجوهرى وعلى ليلة واحمد زايد وحسن الخولى ، دار المعارف ، تحت الطبع ٠

الكتاب الثامن والاربعون :

الريف والمدينة فى مجتمعات العالم الثالث : مدخل اجتماعى ثقافى : تاليف الدكتور حسن الخولى ٠ الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب التاسع والاربعون :

المراة المصرية بين البيت والعمل : تاليف الدكتور محمد سلامة آدم ٠ الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب الخمسون :

النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى : تاليف الدكتورة زينب رضوان ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ٠

الكتاب الحادى والخمسون :

نحو نظرية اجتماعية نقدية : تاليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ٠

الكتـاب الثـانى والخمسـون :

التغير الاجتماعى : اختيـار وترجمـة : الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شـكرى وعلى ليلة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ٠

الكتـاب الثالث والخمسـون :

النظـرية الاجتمـاعية ودراسـة الأسرة : تاليف الدكتورة سـامية الخشـاب ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ ٠

الكتـاب الرابع والخمسـون :

البناء الاجتماعى والثقافة فى مجتمع الفجر : دراسة انثروبولوجية لتاثير البناء والثقافة والشخصية على التكامل الاجتمـاعى تاليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

الكتـاب الخامس والخمسـون :

المجتمع والثقـافة والشخصية ٠ مدخل الى علم الاجتمـاع : تاليف الدكاترة محمد على محمد ، وغريب سيد احمد وعلى عبد الرازق جلبى دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ ٠

الكتـاب السـادس والخمسـون :

التصنيع فى الدول النامية : تاليف آلان مونتجوى ترجمـة وتقـديم الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ ٠

الكتـاب السابع والخمسون :

علم اجتماع الادارة ٠ مفاهيم وقضايا : تاليف الدكتور عبد الهادى الجوهرى ، دار المعـارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٠

الكتـاب الثـامن والخمسـون :

دراسـات فى علم الاجتمـاع الطبى : للدكاترة محمـد على محمـد وعلى عبد الرازق جلبى ، وسناء الخولى ،وسـامية جابر ، دار المعـرفة الجامعية ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ ٠

الكتـاب التاسع والخمسـون :

نقد علم الاجتماع المـاركسى : دراسـة فى النظرية الاجتمـاعية :

تاليف بوتومور ، ترجمة وتعليق الدكتور محمد على محمد والدكتور على جلبى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ ٠

الكتاب الستون :

دراسات فى علم الاجتماع السياسى : تاليف الدكتور عبد الهادى الجوهرى ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

الكتاب الحادى والستون :

معجم علم الاجتماع : ترجمة وتعليق الدكتور عبد الهادى الجوهرى ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

الكتاب الثانى والستون:

الشباب والمشاركة السياسية : تاليف الدكتور سعد ابراهيم جمعة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

الكتاب الثالث والستون :

المدخل الى علم الاجتماع : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

الكتاب الرابع والستون :

تنمية العالم الثالث ٠ الابعاد الاجتماعية والاقتصادية : للدكاترة على ليلة واحمد زايد ومحمد الجوهرى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٣ ٠

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٩٨٤/٤٩٤٦م

الترقيم الدولى
٩ ـ ٠٩٩٢ ـ ٠٢ ـ ٩٧٧